

This Book is Due

JUN 10 1993

IC 11 12 93
NYBG 93-18503

JUN 10 1993

JUN 15 2001

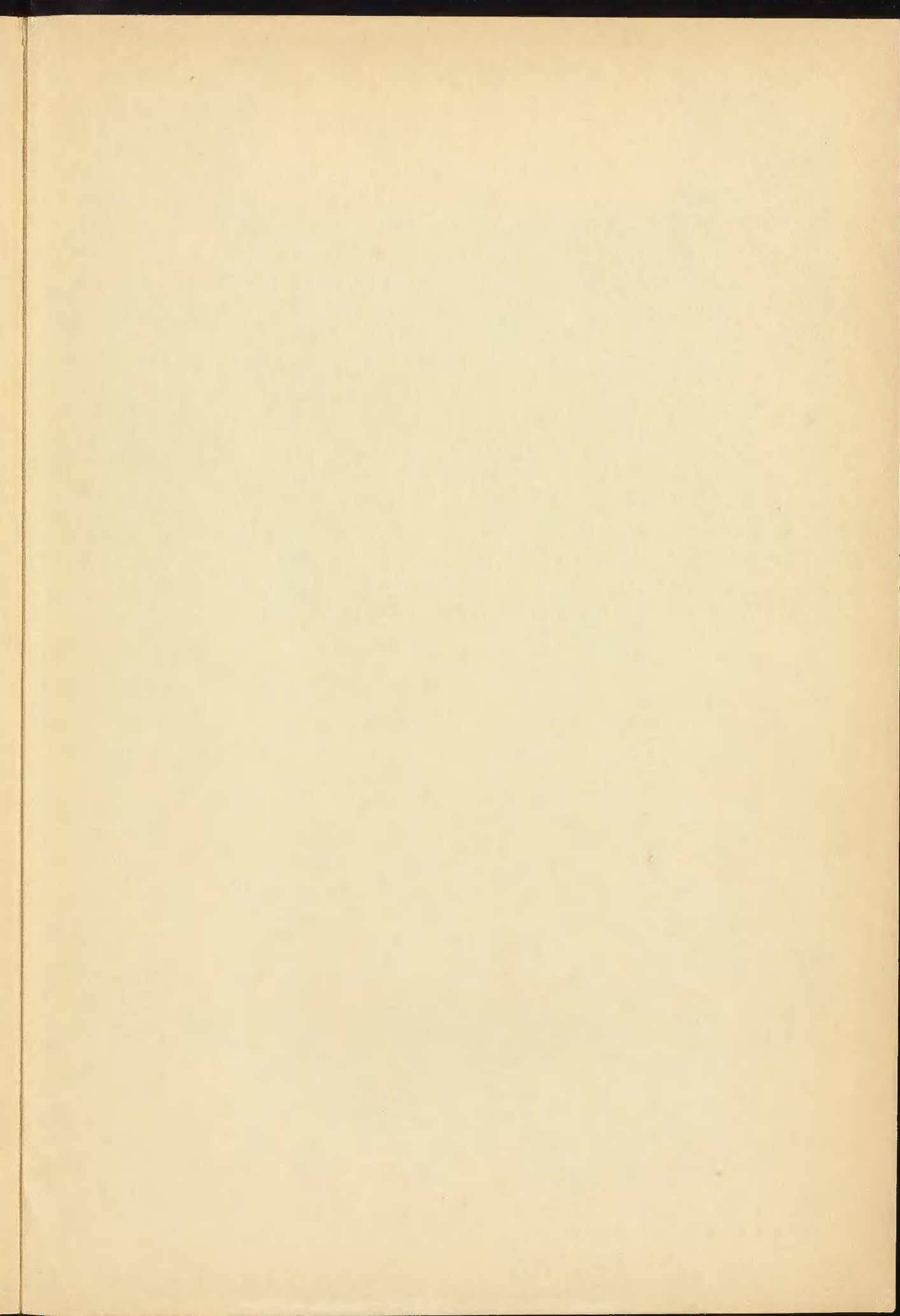
PRINCETON U.

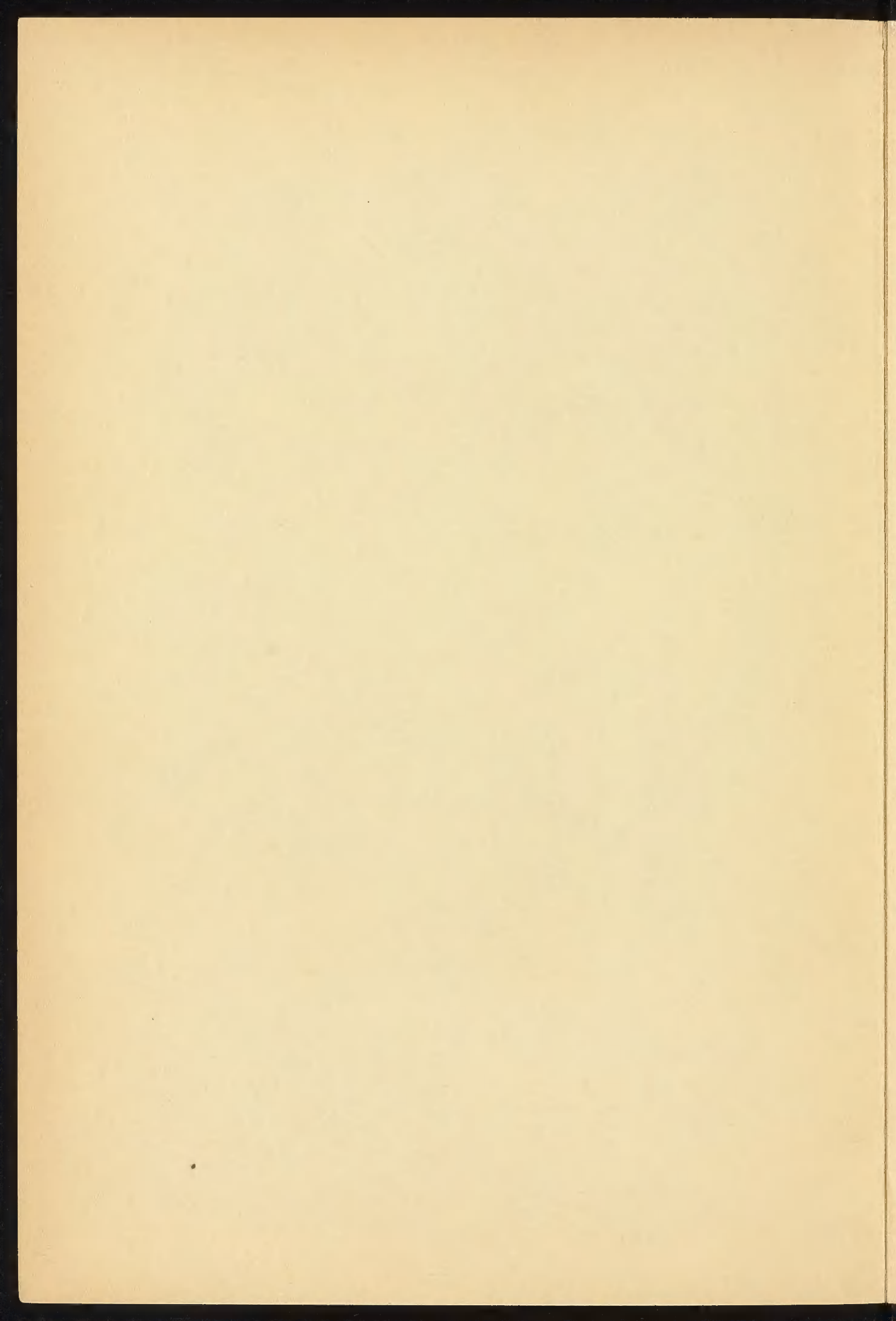


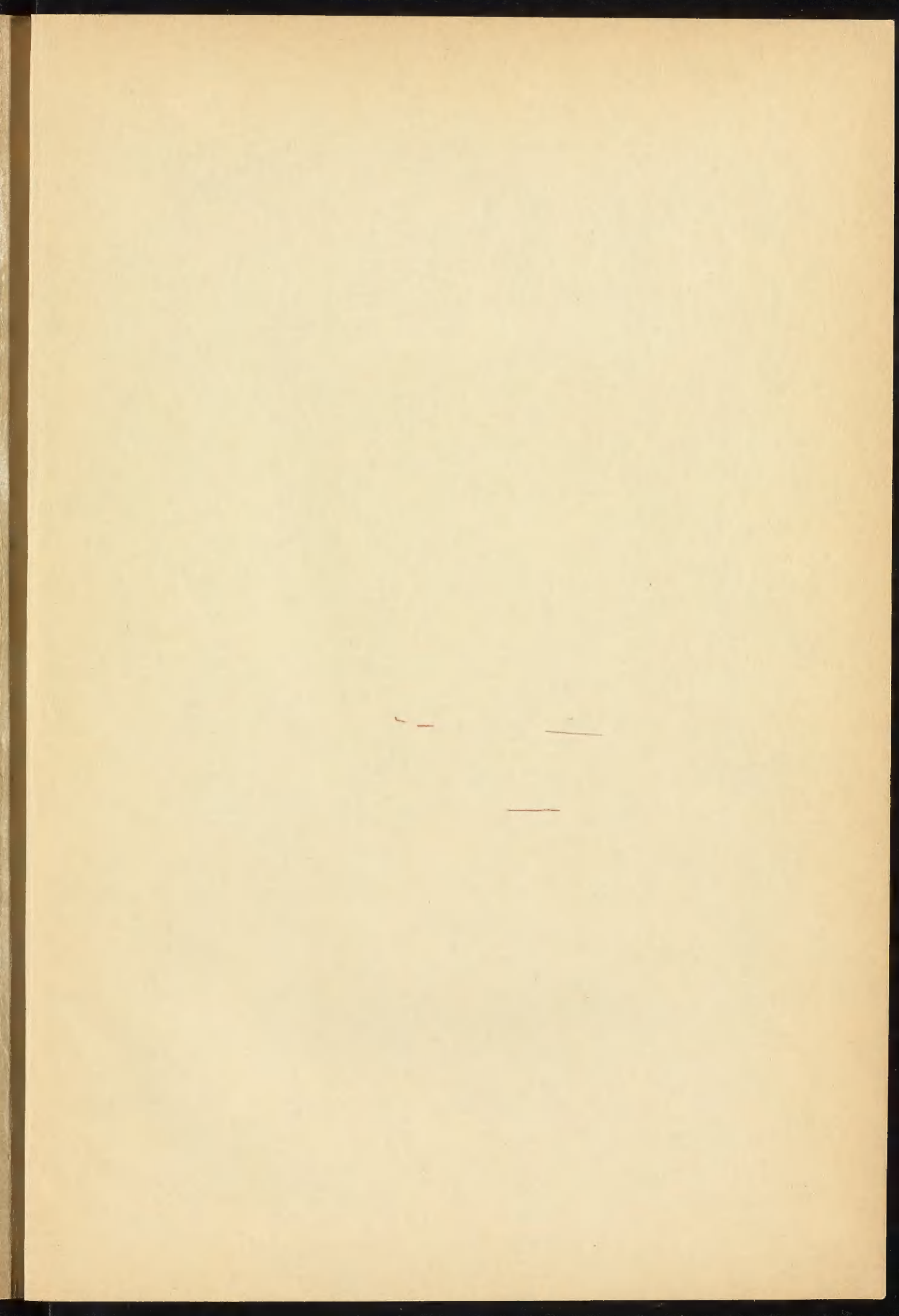
a32101



006164444b







al-Shantari, abu-al-Kasim

al-Bakharah fi Mathari al-Jazirah.

keep other cover (series)

جامعة فؤاد الأول

كلية الآداب

مطبوع رقم ٢٦

الدخيرة في مناقب أمير المؤمنين

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنبري

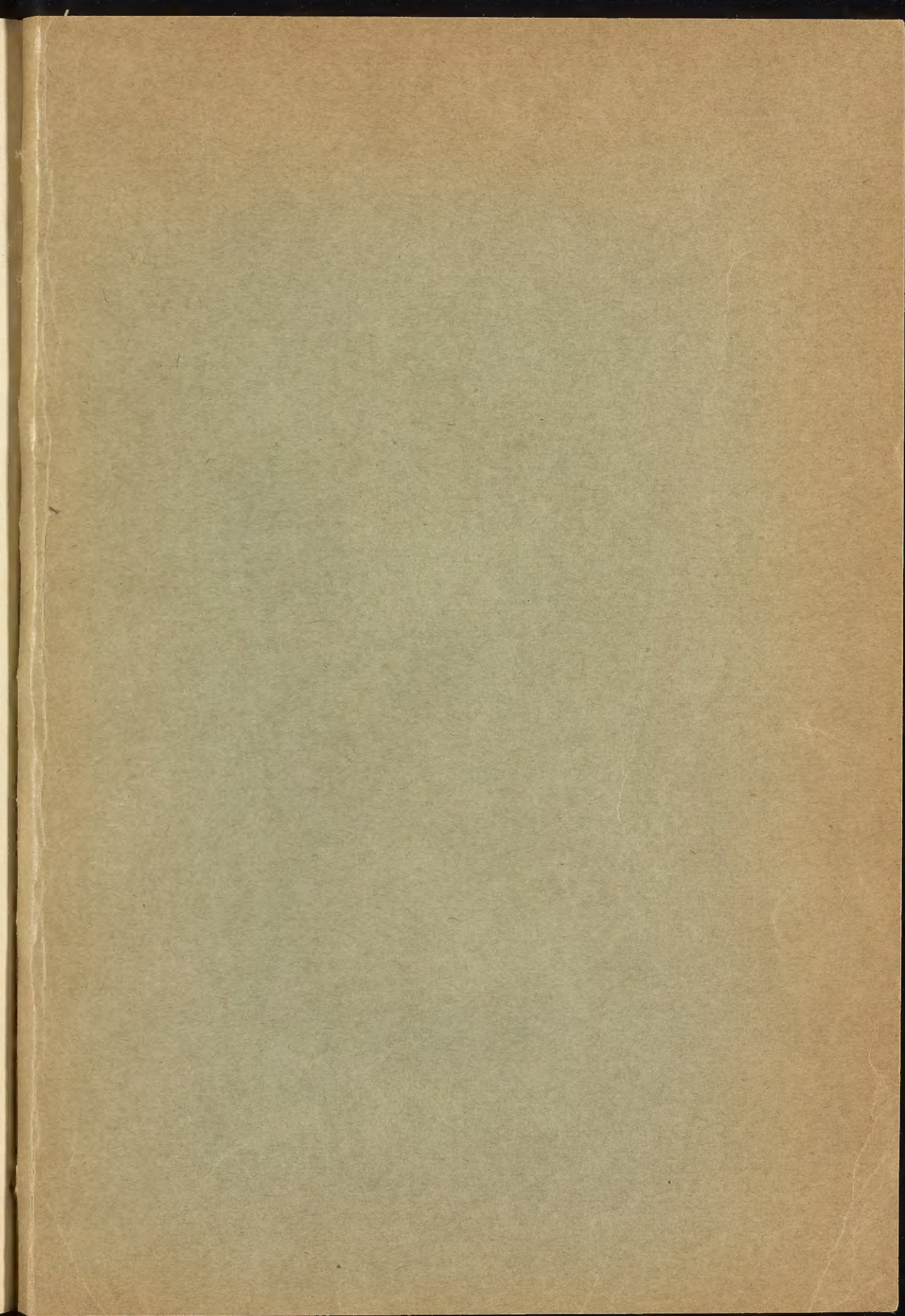
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الأول — المجلد الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م



Abu-al-Hasan 'Ali ibn-Barrām al-Shantarīni

جامعة فؤاد الأول
كلية الآداب
مطبوع رقم ٢٦

الذخيرة في معاني الأسماء الجارية

تأليف

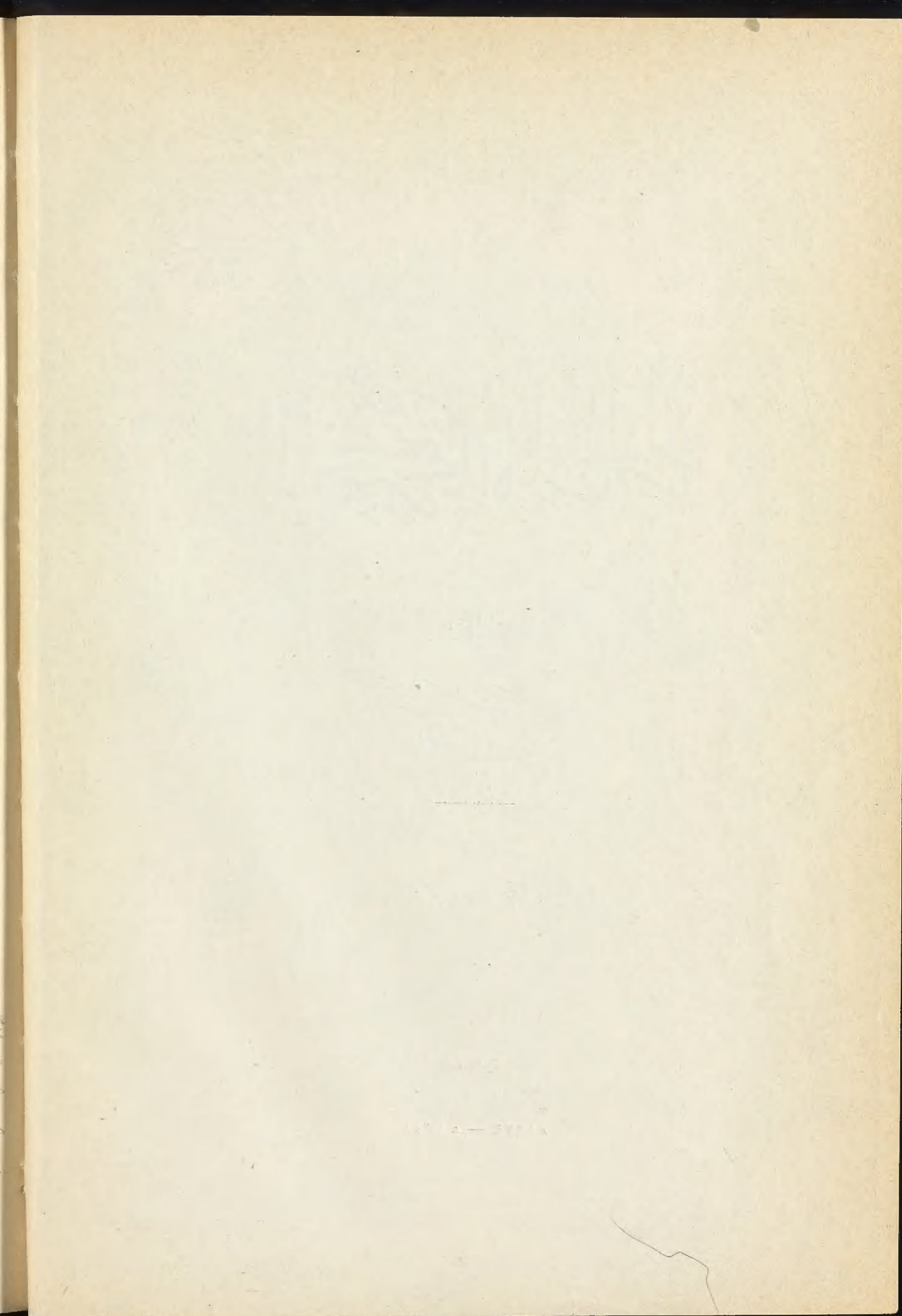
أبي الحسن علي بن بشار الشنبري
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الأول — المجلد الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

للمؤلف الدكتور طه حسين بك

هذا أصل من أصول الأدب العربي الأندلسي ومرجع من أهم مراجعه . دفع صاحبه إلى تأليفه أمران : أحدهما حبه لوطنه الأندلس وحرصه على أن يثبت لها تفوقها في الأدب والعلم ، وأن يثبت هذا التفوق لمعاصريه خاصة لكثرة ما رأى من افتتان الناس من أهل أفقه بالشرق وأدبائه وعلمائه وإعراضهم عن الأندلس وما أنتجت من أدب وعلم . والثاني حرصه على تقليد الشعالي في كتاب اليتيمة الذي صور فيه أدب معاصريه من الشعراء والكتاب .

وقد أنبأنا المؤلف في مقدمته بهذين الأمرين في سذاجة صريحة . وأنبأنا بهما في الكتاب كله ، فهو شديد الحرص على أن يرفع من شأن وطنه ، وينوه بأعلام الشعر والنثر فيه ، وهو حريص كل الحرص على أن يسير سيرة الشعالي في هذا كله ، وعلى أن يصطنع المنهج الذي اصطنعه الشعالي في تأليف كتابه . فهو يقسم كتابه أربعة أقسام كما قسم الشعالي كتابه أربعة أقسام . وهو يقسمه باعتبار الأقاليم كما قسم

الشمالي كتابه باعتبار الأقاليم ! فقسم لقرطبة وما يصاحبها من وسط الأندلس ، وقسم لإشبيلية وما يصاحبها من غرب الأندلس ، وقسم لبليسية وما يليها من شرق الأندلس ، وقسم أخير للملمين بالأندلس والطارئين عليها من أهل الشرق عامة ومن أهل أفريقيا بنوع خاص . وهو يصطنع ما اصطنعه الشمالي من السجع والتأنيق في تقديم الكتاب والشعراء والتعريف بهم والثناء عليهم والنقد لهم . ولكنه بعد هذا كله يخالف الشمالي في أمر ذي خطر ؛ فهو أبعد منه نظراً وأنفذ منه بصيرة وأعمق منه تفكيراً . وهو على تكلفه في اللفظ لا يُجذع بالرواء الظاهر عمّا وراءه من جودة المعنى أو رداءته ، ومن صواب التفكير أو خطئه ، ولعله أن يكون أفقه من الشمالي بالحياة الأدبية في إقليم من الأقاليم ، فهو أدقّ منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الإقليم وما يُنتج فيه من أدب . بل بين طبيعة الأجناس البشرية وما تنتج من أدب ، بل بين ما يكون من مجاورة الأمم المختلفة وما ينتج من الأدب . فهو قد لاحظ مجاورة المسلمين في الأندلس لأعدائهم من الفرنجة وتأثير هذا الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر .

وهو قد سار سيرة الشمالي في العناية بالملوك والأمراء والرؤساء وما يكون من تأثيرهم في الأدب ، وما يكون من إنتاجهم الأدبي الخاص . ولكن عنايته بهذه الناحية من الحياة الأدبية كانت أشدّ وأقوم

وأجدى من عناية الثعالبي . فهو لا يكتفى بهذا الإطار الذي لا غناء فيه ، والذي تمتلئ به اليتيمة . وهو لا يكتفى برواية مقتطفات من الآثار الأدبية للملوك والوزراء والأمراء كما فعل الثعالبي ، ولكنه يعرض تاريخهم عرضاً دقيقاً مفصلاً ، يرد آثارهم الأدبية إلى مصادرها ، بل يرد الآثار الأدبية التي أنشئت في يبتهم إلى مصادرها . وقد عمد في ذلك إلى مذهب مستقيم حقاً ، ظاهره السهولة وإيثار العافية والاعتماد على غيره ، ولكنه في حقيقة الأمر خصب دقيق كل الدقة . رأى أنه ليس مؤرخاً ، وأنه لعله لا يحسن البحث التاريخي ، وأف كتابه محتاج إلى قسط عظيم من التاريخ ، فلم يتكلف ما لا يحسن . ولم يحاول ما لا يجيد . وإنما اعتمد على مؤرخ معروف بالصدق والدقة وحسن الاستقصاء ، وحسن العرض أيضاً وهو ابن حيان ، فأخذ من كتابه بالنص أو بالتلخيص ما احتاح إليه من التاريخ السياسي ، وأنبأنا بذلك في تواضع وصراحة خليقين بالإعجاب .

هذا ما دفع ابن بسام إلى تأليف كتاب « الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة » ، وهذا مذهبه في تأليف هذا الكتاب .

وأما الذي دفع قسم اللغة العربية في كلية الآداب إلى نشر هذا الكتاب ، فهو أيسر من ذلك وأقل تعقيداً . رأى قسم اللغة العربية أن النشاط الأدبي في مصر الحديثة لم يشمل الأدب العربي في الأندلس ولم يسع إليه إلا في تردد وعلى استحياء . فأراد أن يغير من هذه الحال ،

وأن يمدّ نشاط الحياة الأدبية إلى هذه الناحية التي لم يبلغها . ورأى أن هذا الكتاب قد جمع طائفة ضخمة من أدب الأندلس شعراً ونثراً وتاريخاً ، فرأى فيه مجموعة صالحة من النصوص الأدبية التي تصلح للدرس ، والتي لعلها ، إن درست ، أن تجلّي وجهاً أو وجوهاً من الأدب العربي في بعض بيئاته وفي بعض عصوره . فأقبل على نشره وإذاعته راجياً أن يكون ذلك سبيلاً إلى درسه وتعمقه واستخراج ما يُمكن من ثمرات العلم .

والفضل في تمكين القسم من نشر هذا الكتاب راجع إلى صديقنا المستشرق الفرنسي المعروف الأستاذ ليثي بروفنصال . فهو قد أنفق جهداً عظيماً في البحث عن هذا الكتاب وجمع أجزائه بعد أن كانت متفرقة ، وسمى في ذلك سعيًا متصلًا محموداً حتى وفق إليه . ثم اتصل الحديث بينه وبينى ذات يوم عن هذا الكتاب وكان قد تمّ بنشره في ليدن ، فما أسرع ما رضى أن يعدل عن مدينة ليدن إلى مدينة القاهرة وعن الانفراد بنشر الكتاب إلى المشاركة فيه . وقد دعت الجامعة إلى مصر فصلاً من فصول السنة الجامعية سنة ١٩٣٧ ، فأقبل ومعه ما اجتمع له من نسخ الكتاب . وجمعنا نحن من هذه النسخ ما أتيج لنا جمعه ، ونُظّم العمل على هذا النحو .

كُلف الأستاذ ليثي بروفنصال مع طائفة من شباب قسم اللغة العربية في كلية الآداب هم : محمد عبده عزام افندي و خليل عساكر افندي

وبخاطره الشافعي افندى أن يهيئوا نص الكتاب للطبع . معارضين ما اجتمع لهم من النسخ . مقومين ما اعوجج على النساخ من اللفظ . مصححين ما يكون من خطأ لا بد من تصحيحه . ثم ألفت لجنة من أساتذة الكلية قوامها الأساتذة : أحمد أمين ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الحميد العبادي ، عبد الوهاب عزام ، ليثي بروقنصال ، طه حسين . وكلفت هذه اللجنة أن تقرأ ما هيأت اللجنة الأولى من النص ، يقرؤه كل واحد من أعضائها منفرداً ؛ ثم تجتمع فيقرأ عليها مجتمعة ويعرض كل واحد من أعضائها ملاحظاته ، حتى إذا أقرروا النص أذنوا بطبعه . وقد بدىء العمل على هذا النحو واتصل أشهراً ، ولكن الأستاذ ليثي بروقنصال اضطر إلى العودة إلى عمله في الجزائر وباريس ، ولم تتح الظروف له الرجوع في السنة الماضية . واضطر الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك إلى ترك المشاركة في تصحيح الذخيرة إلى المشاركة في الوزارة . واضطر بخاطره افندى الشافعي إلى السفر في بعثة قصيرة . فأما لجنة المراجعة فلم تغير من أمرها شيئاً ، ولم نضف إليها أحداً . وأما لجنة التصحيح فقد أضفنا إليها شابين من شباب القسم المتخرجين فيه هما : عبد العزيز الأهواني افندى وعبد القادر القط افندى ؛ لأننا نرى عمل هذه اللجنة أشبه بأن يكون مدرسة يتخرج فيها شباب القسم الذين يريدون أن يعنوا بنشر الكتب ونقد النصوص . وكذلك أتمنا المجلد الأول الذي تقدمه إلى القراء ، والنية أن

يصدر الكتاب إن شاء الله في مجلدات ثمانية لكل قسم من أقسامه مجلدان . ثم تصدر اللجنة بعد تمامه مجلدين : أحدهما يشتمل على فهارس دقيقة في موضوعات الكتاب وما فيه من الأعلام على اختلافها . والثاني يشتمل على ملاحظات مفصلة تمس النص وتتصل بالنسخ المختلفة وبالمراجع التي رجع المؤلف إليها في تأليفه ، والتي رجع المصححون إليها في تصحيحهم ، وعلى معجم في الألفاظ والاصطلاحات الأندلسية التي لا توجد أو لا توجد إلا قليلا في كتب الشرق .

ومن المحقق أننا بذلنا وسنبذل جهداً عنيفاً في تصحيح هذا الكتاب . ومن المحقق أيضاً أننا لم نبلغ بهذا الكتاب إلى ما أردنا إليه من ردّ الكتاب إلى الصواب الخالص . فهناك نصوص لم تستقم لنا ولم نوفق إلى إقامتها . ومن الجائز ، بل من الراجح ، أن تكون هناك أغلاط قد مرّت بنا أو مررنا بها فلم ترد أن تكشف لنا عن نفسها ، ولم نستطع نحن أن نكشف لأنفسنا عنها . ولكن الإنتاج العلمي مشاركة كله ، بل أخصّ صفاته أنه تعاون بين المنتجين والمستهلكين كما يقول أصحاب الاقتصاد . فليصلح القراء ما فات الناشرين ، ومن يدري ؛ لعلهم أن يضطروا في كثير من الأحيان إلى أن يصلحوا ما فات المؤلف نفسه . والمهم أن نعمل وأن نسعى جهدنا إلى الخير ، وعلى الله قصد السبيل .

أصول الكتاب

اعتمدنا في نشر هذا الكتاب على عدة نسخ مختلفة أهمها ما يأتي :

(١) نسخة وجدت بمدينة الرباط بالمغرب ، وهي تشمل القسمين الأول والرابع من الكتاب في مجلدين ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ر)
(٢) ونسخة من دار الكتب الملكية بالقاهرة ، وهي تحتوى على القسمين الأول والثاني من الكتاب ، وقد رمزنا إليها بحرف (و) .

(٣) ونسخة يملكها الأستاذ المستشرق ليثى بروفنصال فيها النصف الأول من القسم الأول وقد رمزنا إليها بالحرف (لب) .
(٤) ونسخة موجودة بمكتبة أحمد تيمور باشا وتشمل القسم الأول ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ن) .

(٥) ونسخة أخذت بالتصوير عن الأصل المحفوظ في المكتبة الأهلية ببغداد وتشتمل على النصف الأول من القسم الأول ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ب) .

هذا عدا نسخة أخرى من دار الكتب الملكية في القاهرة تشتمل على القسم الثاني ، ونسخة مخطوطة استحضرت من بغداد تحتوى على القسمين الثاني والثالث .

والقسم الأول من نسخة ر مجلد عدد أوراقه ١٦٧ ورقة ،
والصفحة فيه ١٩ سطراً طولها ٢٣ ½ سم وعرضها ١٦ سم . وهي
مكتوبة بخط مغربي واضح يقرب من خط النسخ ، وليس بها تاريخ
نسخه ولا اسم لناسخ ، ولكن على الصفحتين الأوليين منها تعليقات
ثلاثة : أحدها في سنة ١٠١٩ هـ ، والثاني في سنة ١٠٢١ هـ ، والثالث
في سنة ١٠٢٧ هـ . وقد جعلنا هذه النسخة أصلاً لسائر النسخ اقربها
من الصحة ، ولم نحد عن نصها إلا حين يتبين بها غلط أو سقط ،
أو كانت في النسخ الأخرى زيادات يحتملها النص .

وأما نسخة و فإن نصها يتفق مع نسخة ر اتفاقاً يحمل على
الظن أنهما من أصل واحد . ويقع القسم الأول منها في ١٩٧ ورقة ،
في كل صفحة ٢٥ سطراً طولها ٢٥ سم وعرضها ١٣ سم . وقد كتب
الناسخ في آخر هذا القسم العبارة الآتية : (انتهى القسم الأول من
كتاب الذخيرة لابن بسام رحمه الله تعالى بحمد الله وحسن عونه
وتوفيقه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، كتب من نسخة كثيرة التحريف ،
رحم الله من رأى خلافاً صلحه ، ودعا لكاتبه بالمغفرة والرحمة ولمن
قال آمين . وكان الفراغ من نسخة في صفر الخير سنة ١٢٢٩ تسع
وعشرين ومائتين وألف) .

وأما نسخة ب فهي مكتوبة بخط مغربي ، بمض كلماتها

مشكولة ، وهى كثيرة السقط ، وبعض صفحاتها بالية ، وليس عليها تاريخ نسخها ، وقد سقط من أولها ومن آخرها صفحات قليلة ، وعلى حواشيها بعض تعليقات وتصحيحات ، وهذه النسخة ونسخة ب ونسخة ت متقاربة فى النص كما يلاحظ القارئ من مقارنات هذه النسخ فى حواشى الكتاب . ويقع هذا الجزء فى ١٠٤ ورقة مسطرتها ٣٣ سطرأ طولها ٢٤ سم وعرضها ١٧ سم .

وأما المجلد الأول من القسم الأول من نسخة ب فيقع فى ١٢٥ ورقة سطورها ٢٣ سطرأ . طولها ٢٢ سم وعرضها ١٣ سم ، وهى مكتوبة بخط مغربى وليس عليها تاريخ نسخها ولا اسم لئاسخها ، والورقة الأولى منها ناقصة . وهذه النسخة كثيرة الخطأ والتصحيح .

وأما الجزء الأول من نسخة ت فيقع فى ٢٢٥ ورقة ، وعدد سطور الصفحة فيه ٢٦ سطرأ ، طولها ٢٠ سم وعرضها ١٣ سم . وقد كتبت بخط مغربى وليس عليها تاريخ نسخها ولا اسم لئاسخ .

ويلاحظ أننا عند مقارنة هذه النسخ جميعها أثبتنا روايات بها وجه ضعيف وربما كان خطأها ظاهراً . وإنما فعلنا ذلك فى بدء الكتاب لنقدم للقارئ مثلاً من اختلاف النسخ على علائها ، حتى إذا قطعنا فى الجزء الأول شوطاً . حذفنا الروايات الظاهرة الغلط إلا لسبب خاص يقتضى إثباتها . واقتصرنا على إثبات الروايات التى يحتملها النص .

كذلك يلاحظ أننا في ص ١٩٦ وضعنا صورة النص إذ لم تساعدنا
النسخ على تقويمه آمليين أن تقومه في المستقبل إن شاء الله .

الرموز المطبقة في مواضع الكتاب

- ب = نسخة باريس
ت = » تيمور
ر = » الرباط
و = » القاهرة
ب = » الأستاذ ليقي بروفنصال
مو = » المقرئ (نفح الطيب)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو الحسن علي بن بسّام الشَّتْرِينِي الأندَلُسِي رحمه الله (١) :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَلِيِّ الْحَمْدِ وَأَهْلِهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ رُسُلِهِ .
فَإِنَّ ثَمَرَةَ هَذَا الْأَدَبِ ، الْعَالِي الرُّتَبِ ، رِسَالَةً تُنْثَرُ وَتُرْسَلُ ، وَأَبْيَاتٌ تُنْظَمُ
وَتُفَصَّلُ ؛ تَنْثَالُ تِلْكَ (٢) انْثِيَالِ الْقَطَارِ ، عَلَى صَفَحَاتِ الْأَزْهَارِ ، وَتَتَّصِلُ هَذِهِ
اتِّصَالَ الْقَلَانِدِ ، عَلَى نَحْوِ (٣) الْخُرَائِدِ ؛ وَمَا زَالَ فِي أَقْفَانِ هَذَا الْأَنْدَلُسِيِّ الْقَصِي (٤)
إِلَى وَقْتِنَا هَذَا مِنْ فُرْسَانِ الْفَنَيْنِ (٥) ، وَأَائِمَّةِ النُّوعَيْنِ ، قَوْمُهُمْ مَا هُمْ طَيْبَ مَكَاسِرِ ،
وَصَفَاءِ جَوَاهِرِ ، وَعُدُوبَةِ مَوَارِدَ وَمَصَادِرِ ؛ لَعِبُوا بِأَطْرَافِ الْكَلَامِ الْمَشَقِّ ، لَعِبَ
الدُّجَى (٦) بِجُفُونِ الْمُورَقِ ؛ وَحَدَّوْا (٧) بِفُنُونِ السَّحْرِ الْمُنَمَّقِ ، حُدَّاءِ (٨) الْأَعْشَى
بَيْنَاتِ الْحَلَقِ ؛ فَصَبُّوا عَلَى قَوَالِبِ النُّجُومِ ، غَرَائِبَ النُّشُورِ وَالْمَنْظُومِ ؛ وَبَاهَوْا ١٠
غُرَرَ الضُّحَى وَالْأَصَائِلِ ، بِعَجَائِبِ (٩) الْأَشْعَارِ وَالرِّسَائِلِ : نَثَرُوا لَوْ رَأَى الْبَدِيعُ
لَنَسِيَ اسْمَهُ ، أَوْ اجْتَلَاهُ (١٠) ابْنُ هِلَالٍ لَوْلَاهُ حَكْمُهُ ؛ وَنَظَّمُوا لَوْ سَمِعَهُ كَثِيرٌ مَا نَسَبَ

(١) مقدمة الذخيرة قد نشرها دوزي عن مخطوطة ب ضمن مجموعته في تاريخ بني عباد

(ج ٣ ص ٣٩ — ٥٦) ؛ وقد اقتبس المستشرق المذكور الصفحة الأولى الناقصة من مخطوطة

ب عن موه (ج ١ ص ٨٠٠ وما بعدها)

(٢) ر : « ينثال ذلك » (٣) ر : « نجوم »

(٤) ر : « القطر » (٥) ر : « الفتنين »

(٦) موه : « الدجن » (٧) موه : « وجدوا »

(٨) موه : « جد » (٩) ر : « بغرائب »

(١٠) ر : « اختلاه »

ولا مدح، أو تتبّع جرّول ما عوى ولا نبح؛ إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق؛ يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة؛ حتى لو نَعَقَ بتلك الآفاق غُرَاب، أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذُباب، لَجَنُوا على هذا صَمًا، وتلّوا ذلك كتابًا مُحْكَمًا؛ وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مَرَمَى القَصِيَّة، ومُنَاخ الرِذْيَةِ؛ لا يَعْمُرُ بها جَنَانٌ ولا خَلَدٌ، ولا يُصَرِّفُ فيها لِسَانٌ ولا يَد. فَعَاظَنِي مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَأَنْفَتُ مِمَّا هُنَالِكَ؛ وأخذتُ نفسي بجمع ما وجدتُ من حَسَنَاتِ دَهْرِي، وَتَتَبَعْتُ مُحَاسِنَ أَهْلِ بَلَدِي وَعَصْرِي؛ غَيْرَةَ لهذا الأفق الغريب أن تعود بُدُورُهُ أَهْلَةً. وَتُصْبِحُ بِحَارُهُ ثِمَادًا مُضْمَحَلَّةً؛ مع كثرة أدبائه، ووُفُورِ عُلَمَائِهِ؛ وَقَدِيمًا ضَيَّعُوا الْعِلْمَ وَأَهْلَهُ، وَيَارُبُّ مُحْسِنٍ مَاتَ إِحْسَانُهُ قَبْلَهُ! وَلَيْتَ شِعْرِي مِنْ قَصَرِ الْعِلْمِ عَلَى بَعْضِ الزَّمَانِ، وَخَصَّ أَهْلَ

المشرق بالإحسان؟

وقد كَتَبْتُ لِأَرْيَابِ هَذَا الشَّانِ، مِنْ أَهْلِ الْوَقْتِ وَالزَّمَانِ؛ مُحَاسِنَ (١) تَبَهَّرَ (٢) الألباب، وَتَسَحَّرَ الشعراء والكتّاب. ولم أَعْرِضْ لشيء من أشعار الدولة المروانيّة، ولا المدائح العامرية؛ إذ كان ابنُ فَرَجِ الجَيَّانِي قد رأى رأيي (٣) في النَّصْفَةِ، وَذَهَبَ مَذْهَبِي مِنَ الْأَنَفَةِ؛ فَأَمَلِي فِي مُحَاسِنِ أَهْلِ زَمَانِهِ «كتابَ الخدائق» مُعَارِضًا لـ «كتاب الزّهرة» للإصْبَهَانِي، فَأَضْرَبْتُ أُنَا عَمَّا أَلَّفَ، وَلَمْ أَعْرِضْ لشيء مما صَنَّفَ. ولا تُعَدِّتُ أَهْلَ عَصْرِي، مِمَّنْ شَاهَدْتُهُ بِعُمُرِي، أَوْ لَحِقْتُهُ بِبَعْضِ أَهْلِ دَهْرِي؛ إِذْ كُلُّ مُرَدِّ ثَقِيلٍ. وَكُلُّ مُتَكَرِّرٍ مَمْلُول؛ وَقَدْ نَجَّتِ الْأَسْمَاعُ: «يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعُلَيَاءِ فَأَلْسَنْدِ» (٤)، وَمَلَّتِ الطَّبَاعُ: «لِخَوْلَةِ أَطْلَالٍ يُرْفَقَةُ

(٢) هنا تبدأ مخطوطة ب

(١) ر: «محاسنًا»

(٤) هنا ينتهي ما نقله من هذه المقدمة.

(٣) ر: «رأيا»

هُمْ مَدِّ ؛ وَحَتَّ (١) : « قَفَا نَبْكَ » في يد (٢) الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَرَجَعَتْ عَلَى ابْنِ حُجْرٍ بِلَايْمَةِ الْمُتَكَلِّفِينَ (٣) ؛ فَأَمَّا « أَمِنْ أَوْفَى » ، فَعَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَا . أَمَا أَنْ أَنْ يَصْمَّ صَدَاها ، وَيُسَامَ مَدَاها ؟ وَكَمْ مِنْ نُكْتَةٍ أَغْفَلَتْهَا الْخُطَبَاءُ ، وَرُبَّ مُتَرَدِّمٍ غَادَرَتْهُ الشُّعْرَاءُ ؛ وَالْإِحْسَانُ غَيْرُ مُحْصُورٍ ، وَلَيْسَ الْفَضْلُ عَلَى زَمَنِ بِمُقْصُورٍ (٤) ؛ وَعَزِيزٌ عَلَى الْفَضْلِ أَنْ يُنْكَرَ (٥) ، تَقَدَّمَ بِهِ الزَّمَانُ أَوْ تَأَخَّرَ . وَلَحَّى اللَّهُ قَوْلَهُمْ : الْفَضْلُ لِمُتَقَدِّمٍ ! فَكَمْ دَفَنَ مِنْ إِحْسَانٍ ، وَأَحْمَلَ مِنْ فُلَانٍ ! وَلَوْ اقْتَصَرَ الْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، لَضَاعَ عِلْمٌ كَثِيرٌ ، وَذَهَبَ أَدَبٌ غَزِيرٌ .

وقد أودعتُ هذا الديوانَ الذي سَمَّيْتُهُ بكتابِ الذخيرة ، في محاسن أهل (٦)
هذه الجزيرة من عجائبِ عِلْمِهِمْ ، وَغَرَائِبِ نَثَرِهِمْ وَنَظْمِهِمْ . مَا هُوَ أَحْلَى مِنْ مُنَاجَاةِ
الأَحِبَّةِ ، بَيْنَ التَّمَنُّعِ وَالرَّقَبَةِ (٧) ؛ وَأَشْهَى مِنْ مُعَاظَاةِ الْعُقَارِ عَلَى نَعَمَاتِ
المَثَالِثِ وَالْأَزْيَارِ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ — مُذْ كَانُوا — رُؤْسَاءَ خُطَابَةٍ
وَرُءُوسُ شَعْرِ وَكِتَابَةٍ ، تَدَقَّقُوا فَأَنْسَوْا الْبُحُورَ ، وَأَشْرَقُوا فَبَارَوْا الشَّمُوسَ وَالْبُدُورَ ؛
وَذَهَبَ كَلَامُهُمْ بَيْنَ رِقَّةِ الْهَوَاءِ وَجَزَالَةِ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ ، كَمَا قَالَ صَاحِبُهُمْ عَبْدُ الْجَلِيلِ
ابْنُ وَهْبُ بْنُ يَصْفَ شَعْرَهُ :

١٥

رَقِيقٌ كَمَا غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ وَجَزَلٌ كَمَا شَقَّ الْهَوَاءُ عُقَابُ
عَلَى كَوْنِهِمْ بِهَذَا الْإِقْلِيمِ ، وَمُصَاقِبَتِهِمْ لَطَوَائِفِ الرُّومِ ؛ وَعَلَى أَنْ بِلَادَهُمْ آخِرُ

(١) ر : « وضجت » (٢) ر : « على بدء »

(٣) ر : « المتكلمين » وزاد ر : « لفروع »

(٤) ب : « على من بمقصور » (٥) ب : « ينقر »

(٦) ر في ب (٧) ب : « بين التمتع من الرقة »

الفتوح الإسلاميّة ، وأقصى خطي^(١) المأثر العربيّة ؛ ليس وراءهم وأمامهم
إلا البحر المحيط ، والروم والقوط ؛ فخصّة^(٢) من هذه حاله ثبير ، وثمّده بحر
مسجور ؛ وقد حكى أبو عليّ البغداديّ^(٣) الوافد على الأندلس في زمان بني
مرّوان قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به^(٤) من أهل الأمصار ،
فأجدتهم درجات في الغباوة^(٥) وقلّة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب
والبعد ، حتّى كأنّ منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم مُحاصّة^(٦) ومُقايسة .
قال أبو عليّ : قلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم ،
بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم ، فسأحتاج إلى ترُجمان ، بهذه الأوطان !

قال ابن بسّام : قبلتني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا
الأفق في ذكائهم ويتغطّى عنهم عند المباحثة والمناقشة ، ويقول لهم : إن علمي علم
رواية ، وليس بعلم دراية ؛ فخذوا عني ما نقلت ، فلم أَلْ لكم أن صحّحت . هذا
مع إقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات ، والأخذ عن الثقات^(٧) ؛
ولولا أنّ كلّ معنى معترّض ، يزيح سهمي عن ثغرة الغرض ، المقصود في هذا
الكتاب ، لأوردت في هذا الباب^(٨) ، بعض ما وقع لأهل الأندلس من عجب ،
وسمّع لهم من نادر مستغرب . وسيمرّ منه في تضاعيف هذا التصنيف ما فيه كفاية ،
ويُرّبي إن شاء الله على الغاية ؛ ولعلّ بعض من يتصفّحه سيقول : إني أغفلت
كثيراً ، وذكرت خاملاً وتركْتُ مشهوراً . وعلى رسّله ، فإنما جمعتُ بين صعب

(١) ر : « خطي » (٢) ب : « محصّات »

(٣) راجع مور (ج ٢ ص ١٠٧) (٤) ب ، ر : « يمر بي »

(٥) مور : « العبارات » (٦) ب ، ر : « محاصّة »

(٧) انتهى ما اقتبسهُ مور (٨) ر في ب

قد ذلّ ، وغرب قد قلّ ، ونشاط قد قلّ ، وشباب ودّع فاستقلّ ؛ من تقاريق
كالقرون الخالية ، وتعاليق كالأطلال البالية « نَحَطَّ جُهَّال كخُطُوط الرّاح ^(١) ،
أو مدارج النمل بين مهابّ الرياح ؛ ضبطهم تصحيف ، ووضعهم ^(٢) تبديل
وتحريف ؛ أيأسُ الناس منها طالِبها ، وأشدُّهم ^(٣) أسترابةً بها كاتبها ؛ ففتحت ^(٤)
أنا أقفالها ، وفصّصْتُ قيودها وأغلاها ؛ فأضحت غايات تبين وبيّان ^(٥) » ووَضَحْتُ
آياتِ حُسْن وإحسان .

على أن عامّة من ذكرته في هذا الديوان ، لم أجده له أخباراً موضوعة ،
ولا أشعاراً مجموعة « تَفَسَّح لي في طريق الاختيار منها ، إنَّما انتقدت ما وجدت ؛
وخالست في ذلك الخمول ، ومارست هنالك البحث الطويل ، والزمان المستحيل ؛
حتى ضمنتُ كتابي هذا من أخبار أهل هذا الأفق ، ما لعلّي سأرني به على أهل
المشرق . وما قصدتُ به — عَلمَ الله — الطعن على فاضل ، ولا التعصّب لقائل
على قائل ؛ لأنّ من طلب عيباً وجده ، وكلُّ يعمل باقتداره ، وبجهد اختياره ؛
وما أغفل ، أكثر مما كُتِب وحُصِّل ؛ والأفكارُ مَزْن لا تنضب ، ونجومٌ
لا تغرب ؛ ومن يحصل ما تثيره القرائح ، وتتقاذف به الجوانح ^(٦) ؟ وقد قال
أبو تمام ^(٧) :

١٥

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى الشَّعْرُ أَفْنَاهُ مَا قَرَّتْ حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوَّبُ الْعُقُولِ إِذَا انْجَلَّتْ سَحَابٌ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابِ

(٢) ب : « ووقفهم »

(١) ر : « الرواح »

(٤) هـ في ر

(٣) ب : « وأسد »

(٦) اضطراب في هذه الجملة في ب

(٥) اضطراب في هذه الجملة في ب

(٧) راجع ديوانه (ص ٤٣)

وهذا الديوان إنما هو لسان^(١) منظوم ومنشور، لا ميدان بيان وتفسير. أُورِدَ
الأخبار والأشعار لا أفكُ مَعَمَّاهَا ، في شيء من لفظها ولا معناها ؛ لكن رُبَّمَا
أَلَمَمْتُ ببعض القول ، بين ذِكْرِ أَجْرِيهِ ، وَوَجْهِ عَذْرَاءٍ أُرِيهِ^(٢) ؛ لاسيَّما أنواع
البدیع ذی المَحَاسِن^(٣) ، الذي هو قِيَمُ الأشعار وقوامها ، وبه يُعَرَفُ تَفَاضُلُهَا
وتَبَايُئُهَا ؛ فلا بدَّ أن نُشِيرَ إِلَيْهِ ، وَنُنَبِّهَ عَلَيْهِ ؛ وَنَكِلُ الْأَمْرَ فِي كُلِّ مَا نُشِيتُهُ ،
ونُرَدُّ الْحُكْمَ فِي كُلِّ مَا نُورِدُهُ ، إِلَى نَقْدِ النَّقْدَةِ الْمَهْرَةِ ، وَتَمْيِيزِ الْكِتَابَةِ الشَّعْرَةِ ،
الذين هم رؤساء الكلام ، وَصَيَارِفَةُ الْفَنَاءِ وَالنِّظَامِ ؛ فَأَمَّا مِنْ رَيْنَ عَلَى قَلْبِهِ ،
وَطَبِيعَ بِالْجَهْلِ^(٤) عَلَى لُبِّهِ ، فَقَدْ وَضِعَتْ عَنَّا وَعَنَهُ ، كُفْلَةُ الْإِعْتِزَالِ مِنْهُ . وَقَدْ
كَانَ فِي وَقْتِي مِنْ فُرْسَانِ هَذَا الشَّانِ ، مَنْ كَانَ أَجْدَرَ أَنْ يَجْرِيَ بِهَذَا الْمَيْدَانِ ،
وَيُعَرِّبَ عَمَّا أَعْرَبْتُ فِيهِ عَنِ الْقَوْمِ بِأَفْصَحِ لِسَانٍ ؛ يُشِيرُ فِيهِ الْمَعَانِي مِنْ مَرَابِضِهَا ،
وَأَشَدَّ عَارِضَةً يُظْهِرُ بِهَا الْأَغْرَاضَ الْمَقْصُودَةَ فِي أَجْمَلِ مَعَارِضِهَا ؛ لَكِنِّي بِمَا
أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ ، وَتَصَدَّقْتُ إِلَيْهِ ؛ كَالنَّسِيمِ دَلَّ عَلَى الصُّبْحِ ، وَالسَّهْمِ نَابَ عَنِ
الرَّمْحِ^(٥) ؛ وَلَا أَقُولُ إِنِّي أَعْرَبْتُ ، لَكِنْ رُبَّمَا بَيَّنْتُ وَأَعْرَبْتُ ؛ وَلَا أَدْعِي
أَنِّي اخْتَرَعْتُ ، وَلَكِنِّي لَعَلِّي قَدْ أَحْسَنْتُ حَيْثُ اتَّبَعْتُ ، وَأَتَقَنْتُ مَا جَمَعْتُ ،
وَتَأَلَّفْتُ عَنْ^(٦) الشَّارِدِ ، وَأَغْنَيْتُ عَنِ الْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ ؛ وَتَغَلَّغْتُ بِقَارِيهِ^(٧) بَيْنَ
النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ، تَغَلَّغَلَ الْمَاءُ^(٨) أَثْنَاءَ النَّوْرِ وَالزَّهْرِ ؛ وَانْتَقَلْتُ^(٩) مِنَ الْحَدِّ إِلَى
الْهَزْلِ ، انْتَقَالَ الصَّحْبَانِ^(١٠) مِنَ الشَّمْسِ إِلَى الظِّلِّ ، وَاسْتَرَاخَ الْبَهِيرُ^(١١) مِنَ

(١) كذا في جميع النسخ . ولعله « بستان » (٢) ب : « أوريه »

(٣) ر : « التحاسن » (٤) هـ في ب ، ر : « بالجليل »

(٥) ب : « الريح » ، دوزي : « الربع » (٦) ب ، ر : « عين »

(٧) هـ في ب (٨) ب : « الملد » (٩) ب ، ر : « نقلته »

(١٠) ب : « الصحبان » (١١) ر : « البهي »

الْحَزَنَ إِلَى السَّهْلِ؛ وَتَخَلَّتْ مَا ضَمَّمَتْهُ ^(١) مِنَ الرِّسَائِلِ وَالْأَشْعَارِ، بِمَا اتَّصَلَتْ بِهِ أَوْ قِيلَتْ ^(٢) فِيهِ مِنَ الْوَقَائِعِ وَالْأَخْبَارِ؛ وَاعْتَمَدَتْ الْمِائَةَ الْخَامِسَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ فَشَرَحَتْ بَعْضَ مَحْنِهَا ^(٣)، وَجَلَوْتُ وَجُوهَ فِتْنِهَا، وَلَخَصْتُ الْقَوْلَ بَيْنَ قَبِيحِهَا وَحَسَنِهَا؛ وَأَحْصَيْتُ عِلَلِ اسْتِيلَاءِ طَوَائِفِ الرُّثُومِ، عَلَى الْإِقْلِيمِ؛ وَالْمَعْتُ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ مَلُوكَهَا إِلَى خَلْعِهِمْ، وَاجْتِنَاتِ ^(٤) أَصْلِهِمْ وَفِرْعِهِمْ؛ وَعَبَّرْتُ عَنْ أَكْثَرِ ذَلِكَ، بِلَفْظٍ يَتَدَبَّعُ الْهَمَّ بَيْنَ الْجَوَارِحِ، وَيُحِلُّ الْعُضْمَ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ؛ وَعَوَّلْتُ فِي ذَلِكَ عَلَى تَارِيخِ أَبِي مَرْوَانَ بْنِ حَيَّانَ، فَأَوْرَدْتُ فُصُولَهُ، وَنَقَلْتُ ^(٥) حُجْلَهُ وَتَقَاصِيْلَهُ؛ فَإِذَا أَعُوَزَنِي كَلَامُهُ، وَعَزَّنِي ^(٦) سَرْدُهُ وَنِظَامُهُ، عَكَفْتُ عَلَى طَلَلِ الْبَائِدِ، وَضَرَبْتُ فِي حَدِيدِ الْبَارِدِ؛ عَلَى حِفْظٍ قَدْ تَشَعَّبَ، وَحَظٍّ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ ذَهَبَ.

١٠

وَمَعَ أَنَّ الشَّعْرَ لَمْ أَرْضَهُ مَرَّ كَبًا، وَلَا اتَّخَذْتُهُ مَكْسَبًا، وَلَا أَلْفَتُهُ مَنَوًى وَلَا مُنْقَلَبًا؛ إِنَّمَا زُرْتُهُ لِمَا مَلَحَّتْهُ تَهَمُّمًا لَا أَهَمًّا؛ رَغْبَةً بَعْزٍ ^(٧) نَفْسِي عَنْ ذَلِكَ، وَتَرْفِيعًا لِمَوْطِئٍ أَخْمَصِي عَنْ مَحَلِّهِ؛ فَإِذَا شَعَشَعَتْ رَاحَةُ لَمْ أَذْفُقُهُ إِلَّا شَمِيمًا، وَلَا كُنْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا ^(٨)؛ وَمَا لِي وَلَهُ، وَإِنَّمَا أَكْثَرُهُ خُدْعَةٌ مُخْتَالٌ، وَخِلْعَةٌ ^(٩) مُخْتَالٌ؛ جِدُّهُ تَمَوُّيَةٌ وَتَخْيِيلٌ، وَهَزْلُهُ تَذْلِيهِ ^(١٠) وَتَضْلِيلٌ؛ وَحَقَائِقُ الْعُلُومِ ^(١١)، أَوَّلَى بِنَا مِنْ أَبَاطِيلِ الْمَشْهُورِ وَالْمَنْظُومِ؛ وَعَلَى ذَلِكَ فَقَدْ وَعَدْتُ أَنْ أُلَمِّعَ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ، بُلْمَعٍ مِنْ ذِكْرِ الْبَسِيعِ؛ وَأَنْ أُمَهِّدَ

(١) ر: «ضُمَّتْهُ»

(٢) ب: «قِيلَتْ»

(٣) ب: «مَنْحَهَا»

(٤) ر: «أَشْتَات»

(٥) ب: «أَوْتَقَلْتُ»

(٦) ب، ر: «عَزَّنِي»

(٧) ب: «تَعَرَّى»

(٨) ر: «تَشَعَّشَعَتْ رَايَحَتُهُ»

(٩) ب، ر: «قَدِيمًا»

(١٠) ر: «فِي ب»

(١١) ب: «الْعُلُومُ»

جانبًا من أسبابه ، وأُشْرَحَ جُمْلًا من أَسْمَائِهِ ^(١) وألقابه ؛ وإذا ظفرتُ بمعنى حسن ، أو وقفتُ على لفظٍ مُستحسن ؛ ذكرتُ من سبق إليه ، وأشرتُ إلى من نقص عنه ، أو زاد عليه ؛ ولستُ أقول : أخذ هذا من هذا قولاً مُطلقاً ، فقد تتوارد الخواطر ، ويقعُ الحافِرُ حيثُ الحافِرُ ؛ إذ الشعرُ ميدان ، والشعراءُ فرسان .

وَعَلِمَ اللهُ تعالى أَنَّ هذا الكتابَ لم يصدرْ إلَّا عن صدرٍ مَكْلُومِ الأحناء ، وفكرٍ حامِدِ الدِّكَاءِ ، بين دَهْرٍ مُتَلَوِّنٍ تَلَوَّنَ الحِرْبَاءُ ؛ لا تَبْذَى ^(٢) كان من شَتَرَيْنِ قاصِصَةِ الغرب ، مَقُولِ الغرب ، مُرَوِّعِ السَّرْبِ ؛ بعد أن استنفد الطريفُ والتلاد ، وأتى على الظاهرِ والباطنِ النِّقَادِ ، بتَوَاتُرِ طَوَائِفِ الرُّومِ ، عَلَيْنَا في عُقْرِ ^(٣) ذلك الإقليم ؛ وقد كُنَّا غَنِينَا هُنَاكَ بِكَرَمِ الانْسَابِ ، عن سُوءِ الاكِتِسَابِ ؛ واجتزأنا بِمَذْخُورِ العِتَادِ ، عن التَّقَلُّبِ في البلاد ؛ إلى أن تَثَرَ عَلَيْنَا الرومُ ذلك النظام ، وَلَوْ تَرَكَ القَطَا لَيْلًا لَنَامَ ؛ وَحِينَ أَشْتَدَّ الهَوْلُ هُنَاكَ ، أَفْتَحْتُمُ بَيْنَ مَعَى المسالكِ ؛ على مَهَامِهِ تَكْذِبِ فِيهَا العَيْنُ الأُذُنُ ^(٤) ، وتُسْتَشْعَرُ فِيهَا المِحَنُ :

مَهَامِهِ لَمْ تَصْحَبْ بِهَا الذَّنْبَ نَفْسُهُ وَلَا حَمَلَتْ فِيهَا الغُرَابَ قَوَادِمُهُ ^(٥)

حَتَّى خَلَصْتُ خُلُوصَ الزُّبُرِ قَانٍ مِنْ سِرَارِهِ ، وَفُزْتُ ^(٦) فَوْزَ القِدْحِ عِنْدَ قِمَارِهِ ؛ فَوَصَلْتُ حِمَصَ ، بِنَفْسٍ قَدْ تَقَطَّعَتْ شَعَاعَا ، وَذَهَبَ أَكْثَرُهَا التِّيَاعَا ؛ وَلَيْتَنِي عِشْتُ مِنْهَا بِالَّذِي فَضَّلَا ^(٧) ! فَتَغَرَّبْتُ بِهَا سَنَوَاتٍ أَتَبَوُّ مِنْهَا ظِلَّ الغِمَامَةِ ،

(١) مه في ب (٢) ر : « لا تَبْذَى » (٣) ب : « قفر » ، ر : « قعر »

(٤) لعلها « تكذب فيها العين والأذن » أخذنا من قول المتنبي (الديوان ج ٢ ص ٤٧٠)

(٥) ديوان المتنبي (ج ٢ ص ٢٤٢) والرواية في أول البيت : « مهالك »

(٦) ب : « وفوزت » (٧) عجز بيت المتنبي : راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٢٦)

وأعيا بالتحول عنها عى الحمامة ^(١) ؛ ولا أنس إلا الانفراد ، ولا تبلغ إلا
بفضلة الزاد ؛ والأدب بها أقل من الوفاء ، حامله أضيع من قمر الشتاء ؛ وقيمة
كل أحد ماله ، وأسوة كل بلد جهالة ؛ حسب المرء أن يسلم وفره ، وإن ثلِمَ
قدره ؛ وأن تكثر فضته وذهبه ، وإن قل دينه وحسبه .

- وهذا الديوان نية لم يفصح عنها قول ولا عمل ، وأمنية لم يكن منها حول ٥
ولا حول ^(٢) ؛ كامن بين العيان والخبر ، كمن النار في الحجر ؛ وجار بين
اللسان والقلب ، جرى الماء في الغصن الرطب ، إلى أن طلع على أرضها شهاب
سعدتها وتمكينها ، وهبت لها ريح دنيها ودينها ، ونفخ فيها روح تأميلها
وتأمينها ، ملك أملاكها ، وجذيل ^(٣) حكاكها ، وأسعد نجوم أفلاكها ؛ «فلان»
ثمال المظلوم ، ومال السائل والمحروم ؛ ونحى العلم ، ومرجع ^(٤) ذويه وحامليه ،
ومستدعى التأليفات الرائقة فيه ؛ جعل الله الدهر أقصى أيامه ، والنجوم مراكز
أعلامه ، والأرض نهبة سيوفه وأقلامه ؛ فحامت عليه أطيارها ، وأهل إليه
حجاجها وزوارها ، وانتشرت في يديه شمسها وأقمارها ؛ من كل أشعث ذى طمرين ،
ومشنوء الأثر والعين ، محروم محسود ، محلاً عن طريق الماء مطرود ؛ قد جعلوا
بيوتهم قبورا ، واتخذوا بنات أفكارهم ولدانا وخورا ، وركبوا الحدثان صعبا ١٥
وذولا ، وعاهدوا الحرمان كيبلته صبرا جميلا ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم
من ينتظر ، وما بدلو تبديلا ^(٥) ، فما هو إلا أن سطع لهم هذا الشهاب ، وفتح
بينهم وبين روح الله ذلك الباب ؛ حتى نفروا خفافا وثقالا ، وابتدروا بطاء وعجلا ؛

(١) اضطراب في ب (٢) ب : قول ولا حول ■

(٣) ب : «مديل» ، ر : «جديد»

(٤) ر : «مرفع» (٥) سورة ٣٣ : ٢٣

ينظرون بعيون^(١) لم ترَوْ من ماء وجهِ كريم ، ويصغون بأذان لم تأنس بِنِعْمَةِ
صديق حَمِيم ؛ قد كانوا يئسوا من هذا النُشور « كما يئس الكفار من أَصْحَابِ
الْقُبُورِ »^(٢) ؛ فسألهم أىَّ جانب يَمَمُّوا ، وبأىَّ جنابٍ خَيَّموا ، وإلى أىِّ ملكٍ
لُبَّابٍ أنْجَدُوا وأَتَمُّوا ؛ وبأىَّ رحمتا لبخُورِ أدب ، وصدورِ رُتب^(٣) ؛ كان نَظَمَنِي
وإِيَّاهم وُدُّ قَدِيم ، وَلَفَّ هَوَايَ بِهَوَاهُم عهدٌ كريم ، لا مَنَسِيٌّ وَلَا مَذْمُوم ؛ قد
طال ما عَاطَيْتُهُم أَكُوسُ^(٤) الحُمُول ، على البكاء والعويل ؛ في أَيَّامٍ أَوْحَشَ من
توديعِ الشَّبَاب ، وَلِيَالٍ أنْكَدَ من مُناقِشَةِ الحِساب ؛ أَلَا يَكُونُوا قد أَخَذُوا على
القَضَاءِ عهداً مَسْئُولا ، ومُتَّعُوا بالبَقَاءِ ولو قَلِيلا ؛ حَتَّى يَروا حَظَّ الأَدَبِ كيف
نَفَقَ ، وعِزَّ الإسلام كيف أَتَفَقَ ، وشَمْلَ الجُورِ كيف تَصَدَّعَ وتَفَرَّقَ ؛ وبأحسَرَتَا
أَلَا يَنشَقُّ عن حَاتِمِ ضَرِيحِهِ ، ويُعَاد^(٥) في جِسْمِهِ رُوحُهُ ؛ فَيَبرى أَنَّ الكَرَمَ بعده
عَلِمَ ، وَأَنَّ عُلُوَّ الهِمَمِ بغيرِهِ بُدِئَ وخُتِمَ .

ولما سمعتُ صَوْتَ المَهِيبِ ، وتَنَسَّمتُ رِيحَ الفَرَجِ القَرِيبِ ؛ وَوَجَدْتُ لِسَبِيلِ
التَّامِيلِ مَدْرَجًا ، وجعل اللهُ لِي من رِبْقَةِ الحُمُولِ مَحْرَجًا ؛ طَالَعْتُ حَضْرَتَهُ المَقْدَسَةَ
بهذا الكتابِ على حُكْمِهِ ، مُطَرِّزًا بِسِمَتِهِ وأُسْمِهِ ؛ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِ بِمَجْدِهِ ، متوسِّلًا
إِلَيْهِ بِكَرَمِ عَهْدِهِ ؛ وَلِعَلَّمَنِي أَنَّ الأَدَبَ ضَالَّةٌ اهْتَبَالُهُ ، وَنَتِيجَةُ خِلَالِهِ ، وَأَنَّ أَهْلَهُ
على ذُكْرِ من إِجْمالِهِ ، وَبِمَكَانٍ مَكِينٍ من كَمَالِهِ^(٦) ؛ وَلَمَّا سُئِلْتُ أَيضًا أَنْتَسَاخَ
هذا الدِّيوانِ ، ورأيتُ شَرَّهَ أَهْلِ الزَّمانِ ؛ إِلَى الاقْتِباسِ من نُورِهِ ، بما يَلْتَقِطُونَهُ
من شُدُورِهِ ، أَحْبَبْتُ أَنْ يَجُوبَ الآفاقُ ، وتَسِيرَ بِهِ الرِّفاقُ ، وَعَلِيهِ مِنْ اسمٍ مَنْ

(١) نه في ب (٢) سورة ٦٠ : ١٣

(٣) ب : « ريب » (٤) ر : « أبوء من »

(٥) هنا ابتداء مخطوطة لب (٦) ب : « باله »

له جُمع ، وإلى جوانبه العليّة رُفِع ، طرازُ به تنفّق سوقه ، ولا تَضِيعُ
إن شاء الله حقُّوقه .

وقسمته أربعة أقسام :

الأوّل : لأهل حَضْرَة ^(١) قُرْطُبَة وما يُصَاقِبُهَا من بلادِ مُتَوَسَّطَةِ الأندلس
ويشتمل من الأخبار وأسماء الرُؤساء وأعيانِ الكُتّاب والشُعراء على جماعةٍ هُم :
[١] المُستعين بالله أبو أيُّوبَ سُلَيْمانُ بنُ الحَكَم « وَحَرْبُهُ مع المَهْدِيِّ ابنِ
عَمِّهِ وَمَقْتَلُهُ .

[٢] والمُسْتَظْهَرُ بالله أبو المُطَرِّف عبدُ الرحمن بنُ عبد الجَبَّارِ الناصِرِيُّ
وَمَقْتَلُهُ .

[٣] والأديبُ أبو عَمْرٍو أَحْمَدُ بنُ دَرَّاجِ القَسْطَلِيِّ ، وإِمَارَةُ عَلِيٍّ بنِ حَمُودٍ وَمَقْتَلُهُ .
[٤] وأبو حَفْصِ بنِ بُرْدٍ الأَكْبَرُ ، وَمَقْتَلُ عَيْسَى بنِ سَعِيدٍ القَطَّاعِ وَزِيرِ
ابْنِ أَبِي عامر .

[٥] والكاتبُ أبو المُعِينِ بنُ حَزْم .

[٦] والفقيهُ أبو محمدِ ابْنِ عَمِّهِ الشَّافِعِيِّ وَخَبَرُ الأَمِيرِ مُنْذِرِ بنِ يَحْيَى التَّجِيبِيِّ .

[٧] والوزيرُ أبو عامرٍ أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ بنِ شَهِيدٍ « والوزيرُ أبو الوليدِ
ابْنُ عَبْدِ دُوسٍ ، والفقيهُ أبو العَبَّاسِ بنُ أَبِي الرَّبِيعِ « والأديبُ أبو عَلِيٍّ بنُ عَوْضٍ ،
والكاتبُ أبو بَكْرٍ بنُ زِيَادٍ ^(٢) .

(١) لب : « لحضرة »

(٢) ز في ب ، لب : « وقع ذكر هؤلاء في المسودة وسقط عند الانتقاء والنقل »

- [٨] والوزير أبو الوليد بن زيدون وإمارة المُستَكْنِي وخبر ولادة .
- [٩] والأديب أبو عبد الله بن الحنّاط المَكْفُوفُ ، ونصب المرتضى الناصري خليفة بشرق الأندلس ومقتله .
- [١٠] والأديب أبو بكر عبادة بن ماء السماء ، وإمارة القاسم بن حمود وتغلب القاضي ابن عبّاد عليه . ٥
- [١١] والوزير أبو حفص بن بُرْد الاصغر .
- [١٢] وأبو مروان الطنبّي ومقتله ، وأشعار الطنبّي^(١) حَفَدَتِهِ .
- [١٣] والأديب محمد بن مسعود الهذلي وابن مسعود البجائي .
- [١٤] والشيخ أبو مروان بن حيان ، وإمارة بني جهور وخلعهم .
- [١٥] [والفقهاء القاضي أبو الوليد المعروف بابن الفرضي^(٢)] . ١٠
- [١٦] والكاتب أبو جعفر بن المائي .
- [١٧] والكاتب أبو عبد الله بن البرلياني .
- [١٨] والكاتب أبو جعفر بن عباس .
- [١٩] والكاتب أبو حفص بن الشهيد .
- [٢٠] والأديب أبو عبد الله بن الحدّاد ، وإمارة بني صمّاح وخلعهم . ١٥
- [٢١] والأديب ابن مالك القرطبي .
- [٢٢] والشاعر المنفّتل ومقتل ابن نغريلا اليهودي .
- [٢٣] والأديب ابن فتوح الإسفيرياني .
- [٢٤] والأديب بكر بن ظاهر .

(١) في جميع الأصول : « الطباينة »

(٢) نه في جميع الأصول ، ولكن هذه الترجمة موجودة في موضعها من الكتاب .

- [٢٥] والأسعدُ بنُ إبراهيمَ بنِ بليطة .
- [٢٦] والأديبُ أبو عبد الله بنُ القَرَازِ .
- [٢٧] والأديبُ ابنُ مالكِ الطَغَنَرِيُّ ^(١) من أهلِ غَرَناطة ؛ وَجُمْلَةُ قَصَائِدَ لغيرِ واحدٍ في تَأْيِينَ ابنِ سِرَاجٍ .
- [٢٨] والوزيرُ أبو مروانَ بنُ شَمَاحٍ .
- [٢٩] والفقِيهُ أبو عُمرَ بنُ عيسى الإلبيريُّ .
- [٣٠] والأديبُ العالمُ أبو محمدٍ غانِمٍ .
- [٣١] وأبو عبد الله بنُ السَّرَاجِ المَالَقِيُّ .
- [٣٢] وأبو القاسِمِ المَعْرُوفُ بالسَّمِيسِرِ .
- [٣٣] وأبو العباسِ أحمدُ بنُ قاسِمِ المَحْدَثِ .
- [٣٤] والأديبُ أبو طالبِ عبدُ الجَبَّارِ المَعْرُوفُ بالمُتَنَبِّي من أهلِ جَزيرة شُقْرِ .
- والْقِسْمُ الثَّانِي : لأهلِ الجَانِبِ الغَرْبِيِّ مِنَ الأَنْدَلُسِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ حَضْرَةِ إِسْبِيلِيَّةٍ ، وَمَا اتَّصَلَ بِهَا مِنْ بِلَادِ سَاحِلِ البَحْرِ المُحِيطِ الرُّومِيِّ ، وَفِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَأَسْمَاءِ الرُّؤَسَاءِ وَأَعْيَانِ الكُتَّابِ جُمْلَةٌ مَوْفُورَةٌ وَهِيَ :
- [١] القاضِي أبو القاسِمِ بنُ عَبَّادٍ .
- [٢] والمُعْتَصِدُ باللهِ عَبَّادُ ابْنُهُ .
- [٣] والمُعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ وَكَيْفِيَّةُ خَلْعِهِ .
- [٤] والوزيرُ الفقيهُ أبو حَفْصِ الهَوْزَنِيِّ .
- [٥] والقاضِي أبو الوليدِ البَاجِي ^(٢) .
- [٦] والوزيرُ أبو عامرٍ بنُ مَسْلَمَةَ .

(٢) نه في ب ، لب .

(١) ب : الصغير «

- [٧] والوزير أبو الوليد بن المعلم .
- [٨] والأديب أبو الوليد الملقب بالحبيب^(١) .
- [٩] والأديب أبو جعفر بن الأبار .
- [١٠] والأديب أبو الحسن علي بن حصن .
- [١١] والوزير الكاتب أبو عمرو الباجي .
- [١٢] والفقهاء الأديب أبو الحسن بن الاستنجي .
- [١٣] وفصل يشتمل على مقطوعات أبيات لجماعة أدباء بعصر المعتضد .
- [١٤] والوزير الفقيه أبو العلاء بن زهر .
- [١٥] والوزير أبو عبيد البكري .
- [١٦] والوزير الخطيب الأديب أبو عمر بن حجاج .
- [١٧] وذو الوزارتين أبو بكر بن سليمان المعروف بابن القصيرة ، وذكره تغلب ابن ذي النون على قرطبة وعودتها إلى المعتضد .
- [١٨] والوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم بن الجدد .
- [١٩] والوزير الكاتب أبو محمد بن عبد الغفور وأبوه قبله .
- [٢٠] والوزير الفقيه أبو أيوب بن أبي أمية .
- [٢١] وذو الوزارتين أبو بكر بن عمار ومقتله .
- [٢٢] والوزير الكاتب أبو الوليد حسّان بن المصيصي .
- [٢٣] والوزير الفقيه أبو بكر بن الملح .
- [٢٤] والأديب أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي .

(١) ب ، لب : « إسماعيل بن حبيب . »

- [٢٥] [والوزير الأديب أبو القاسم بن مرزبان ^(١) .]
 [٢٦] والوزير الكاتب أبو بكر بن عبد العزيز .
 [٢٧] والوزير الكاتب أبو الحسين بن الجدد .
 [٢٨] والأديب أبو الحسين غلام البكري .
 [٢٩] والكاتب أبو الحسن صالح الشنتمري .
 [٣٠] وأبو الحكم وأبو الوليد أبنا حزم .
 [٣١] والأديب أبو بكر بن بقي .
 [٣٢] والأديب أبو الحسن بن هارون الشنتمري ، وكيفيته إمارة بني الأفتس والتوكل على الله منهم .
 [٣٣] والوزير الكاتب أبو عبد الله بن أيمن ، والخبر عن فتح مدينة ١٠ سبتة والتعريف بأوليته أميرها سقوت .
 [٣٤] والوزير الكاتب أبو محمد بن عبدون .
 [٣٥] والأديب أبو جعفر أحمد بن هريرة الأعمى التطيلي .
 [٣٦] والوزير الكاتب أبو بكر بن سعيد المعروف بابن القبطورنه .
 [٣٧] والوزير الكاتب أبو بكر بن قزمان .
 [٣٨] والوزير أبو زيد بن مقانا الأشبوني .
 [٣٩] والشيخ أبو الحسن القرشي الأشبوني .
 [٤٠] والأديب أبو عبد الله بن البين .
 [٤١] وذو الوزارتين أبو محمد بن هود .

(١) هو في جميع الأصول ولكن هذه الترجمة موجودة في موضعها من الكتاب .

وزاد هنا : « وأبو بكر الحولاني »

[٤٢] والشيخ الأديب أبو عمر بن فتح البطليوسي .

[٤٣] والأديب أبو عمر بن كوثر الشنتريني .

[٤٤] والأديب أبو الوليد النحلي .

[٤٥] والوزير الكاتب أبو بكر بن سوار الأشبوني .

[٤٦] والأديب أبو محمد بن سارة^(١) الشنتريني .

٥

والقسم الثالث : ذكرت فيه أهل الجانب الشرقي من الأندلس ، ومن نجم من كواكب العصر في أفق ذلك النور الأعلى ، إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك ، وفيه من القصص وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب^(٢) والشعراء طوائف منهم :

[١] مجاهد ومبارك ومظفر من فتيان ابن أبي عامر .

١٠

[٢] والوزير الكاتب أبو عبد الرحمن بن طاهر ، وتغلب العدو على

بلنسية وعود المسلمين إليها .

[٣] وذو الوزارتين أبو عامر بن الفرج .

[٤] وذو الوزارتين القائد أبو عيسى بن لبون^(٣) .

[٥] وحسام الدولة أبو مروان بن رزين .

١٥

[٦] والوزير الكاتب أبو محمد بن عبد البر ، ومقتل إسماعيل بن المعتضد

عباد ، وتغلب العدو على بر بشت وفتحها بعد .

[٧] والوزير الكاتب أبو عامر بن التاكروني ، وإمارة عبد العزيز بن

أبي عامر وأبنه ببلنسية .

(١) لب ، صارة « (٢) : « الثقات »

(٣) مر في جميع الأصول ولكن الترجمتين موجودتان في موضعهما من الكتاب .

- [٨] والوزيرُ الكاتبُ أبو المطرفُ بنُ الدِّبَّاغِ .
- [٩] والأديبُ أبو الربيعِ بنُ مَهْرانِ السَّرْقَسْطِيِّ ، وذِكْرُ ابنِ السَّكْتَانِيِّ الْمُتَطَبِّبِ .
- [١٠] والأديبُ الأستاذُ ابنُ خَلَصَةَ الضَّرِيرُ .
- [١١] والأديبُ أبو مروانَ بنُ غُصْنِ الحِجَارِيِّ .
- [١٢] والأديبُ أبو عبدِ اللهِ إدريسُ بنُ اليَمَانِيِّ .
- [١٣] والوزيرُ الكاتبُ أبو الأصبغِ بنُ أَرْقَمِ .
- [١٤] والوزيرُ الكاتبُ أبو المطرفِ بنُ مُثَنَّى .
- [١٥] والوزيرُ الكاتبُ أبو عُمرِ بنِ القَلَّاسِ .
- [١٦] والوزيرُ الكاتبُ أبو عبدِ اللهِ بنِ مُسْلِمِ .
- [١٧] والوزيرُ الكاتبُ أبو جَعْفَرِ بنِ جُرْجِ .
- [١٨] والوزيرُ الكاتبُ أبو الفضلِ بنِ حَسَدَائِي .
- [١٩] والأديبُ أبو الربيعِ القُضَاعِيُّ ، ومُجْمَلُهُ من أخبارِ هِشَامِ المُعْتَدِّ أميرِ قُوطْبَةِ يَوْمَنْدٍ ، ومَمْتَلُ وزيره الحائِكِ .
- [٢٠] والأديبُ أبو عامرِ البَهارِيِّ .
- [٢١] والأديبُ أبو إسحاقَ إبراهيمَ بنَ خَفَاجَةَ .
- [٢٢] والأديبُ أبو حاتمِ الحِجَارِيِّ .
- [٢٣] والأديبُ أبو بكرِ الدَّانِيُّ المَعْرُوفُ بابنِ اللَّبَّانَةِ .
- [٢٤] والأديبُ أبو جَعْفَرِ بنِ الدَّوْدِ بْنِ البَلَنْسِيِّ ، ورسالةُ ابنِ عَرَسِيَّةِ الشُّعُوبِيَّةِ والرَّدُّ عليه .
- [٢٥] والكاتبُ أبو جَعْفَرِ بنِ أحمدِ الدَّانِيُّ .

- [٢٦] والوزير الكاتب أبو الخطاب بن عطیون الطلیطلی .
 [٢٧] والوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبي الخصال .
 [٢٨] والأديب أبو بحر بن عبد الصمد ، وذكر الشيخ الكاتب عبد الصمد السرقسطی .
 [٢٩] والأديب أبو تمام الملقب بالحجّام .
 [٣٠] والأديب أبو إسحاق بن معلى ، وخبر وقعة بطرنة .
 [٣١] والأديب أبو عامر بن الأصیل .
 [٣٢] والأديب أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف .
 [٣٣] وفصل يشتمل على طوائف مقلّين من سکان ذلك الجانب الشرقي .

١٠ والقسم الرابع : أفردته لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدّة المورّخة من أديب شاعر ، وأوى^(١) إلى ظلّها من كاتب ماهر ؛ واتّسع فيها مجاله ، وحفظت في ملوكها أقواله ؛ ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهورى أهل تلك الآفاق ، ممن نجّم في عصرنا بإفريقية والشام والعراق ، فيشتمل منهم على جملة ، وهم :

[١] أبو القلاء صاعد اللغوی ، وتلخیص التعریف بدولة ابن أبي عامر ، من المبدأ إلى الآخر .

- [٢] وأبو الفضل البغدادي .
 [٣] وسليمان بن محمد الصقلی .
 [٤] وأبو الفتح الجرّجاني .
 [٥] والأديب عبد العزيز السوسی ، ولع من دولة ابن ذی النون ومال

(١) ب ، لب : « تولى »

حَفِيدِهِ ، وَأَخَذَ طُلَيْطَلَةَ مِنْ يَدَيْهِ ، وَدَوَّرَانِ الدَّائِرَةَ السَّوْءَ بِهَا عَلَيْهِ ؛ مَعَ مَا أُنْدَرَجَ فِي ذَلِكَ مِنْ خَبَرٍ ، وَالتَّفَّ بِهِ مِنْ قَبِيحٍ أَثَرٍ .

[٦] وَأَخْبَارُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَرَفٍ ، وَغُرُرُ أَشْعَارِهِ ، وَذِكْرُ خَرَابِ بَلَدِهِ الْقَيْرَوَانِ .

٥ [٧] وَأَخْبَارُ ابْنِ السَّقَّاءِ مُدَبِّرِ الْمَلِكِ الْجَهْوَرِيِّ بِمَرْطَبَةٍ وَمَقْتَلِهِ .

[٨] وَأَبُو الْحَسَنِ الْمَكْفُوفُ الْخُضْرِيُّ ، وَذِكْرُ تَغَابٍ ابْنِ هُوْدٍ الْمُقْتَدِرِ عَلَى دَانِيَّةٍ .

[٩] وَأَخْبَارُ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ فَضَّالِ الْخُلَوَانِيِّ .

[١٠] وَأَبُو الْعَرَبِ الصَّقَلِيُّ .

١٠

[١١] وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّبَّاحِ الصَّقَلِيُّ .

[١٢] وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَمْدِيسَ الصَّقَلِيُّ .

[١٣] وَالْحَكِيمُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَصْرِيُّ .

[١٤] وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ الطَّلَاءِ الْمُهْدَوِيُّ .

[١٥] وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ الْحَسَنِ الْمُرَادِيُّ .

١٥

[١٦] وَالْفُكَيْكُ الْبَغْدَادِيُّ .

[١٧] وَأَبُو زَكْرِيَّا يَحْيَى الزَّيْتُونِيُّ .

[١٨] وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَطَّارِ الْيَابِسِيُّ .

[١٩] وَابْنُ الْقَابِلَةِ السَّبْتِيُّ .

ذِكْرُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْمَشْرِقِ :

٢٠

[٢٠] الرَّضِيُّ الشَّرِيفُ .

[٢١] أَبُو الْقَاسِمِ الْمَغْرِبِيُّ .

- [٢٢] عبد الوهاب المالكى .
- [٢٣] أبو عبد الله^(١) بن قاضى ميلة .
- [٢٤] أبو الحسن التهامى .
- [٢٥] مهباز الديلمى .
- [٢٦] أبو منصور الثعالبى .
- [٢٧] أبو إسحاق الحضرمى .
- [٢٨] أبو علي بن رشيقي ، وذكر الحرافه عن القيروان .
- [٢٩] أبو الفتيان العسقلانى .
- [٣٠] القاضى أبو محمد بن نعمة .
- [٣١] جلال الدولة ابن عمار .
- [٣٢] المجيد بن الشخباء العسقلانى .
- وإنما ذكرت هؤلاء اثنتاء بأبى منصور ، فى تأليفه المشهور ، المترجم
بـ « يتيممة الدهر ، فى محاسن أهل العصر » .
- وتحررت فى الجملة حر النظام ، وتخيرت جيد الكلام ، وجردت جملة
الفصول والأقسام ؛ وإذا مرر معنى غريب وتعلق به خبر مشهور ، وأمكنتنى
فيه شعر كثير ، مددت أطنا به ، ووصلت أسبابه ؛ وقد أذكر الشاعر الخامل ،
وأشيد الشعر النازل^(٢) ، لأرب^(٣) يتعلق به ، أو لخبر أذكره بسببه ؛ وقد
أذكر الرجل لنباهة ذكره ، لاجودة شعره ؛ وأقدم الآخر لاشتهار إحسانه ،
مع تأخر زمانه .

(١) ب ، لب : « محمد »

(٣) ر : « لأدب »

(٢) دوزى : « المؤول »

وبدأتُ بِذِكْرِ الْكِتَابِ ، إِذْ هُمْ صُدُورُ^(١) فِي أَهْلِ الْآدَابِ ، إِلَّا أَنْ
يَكُونَ | مَنْ | لَهُ حِظٌّ مِنَ الرِّيَاسَةِ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى تَقْدِيمِهِ بَعْضُ السِّيَاسَةِ ؛
فَأَوَّلُ مَنْ ذَكَرْتُ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنْ مُلُوكِ قُرَيْشٍ فِي الْمُدَّةِ الْمَوْزَعَةِ
مِنْ أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ ثُمَّ مَنْ تَعَلَّقَ بِسُلْطَانِهِمْ ، أَوْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ^(٢) مِنْ شَأْنِهِمْ ؛
وَتَلَوَّثُهُمْ بِالْكِتَابِ^(٣) وَالْوُزَرَاءِ ، ثُمَّ بِأَعْيَانِ الشُّعَرَاءِ ، ثُمَّ بِطَوَائِفِ مِنَ الْمُقَلِّينَ ٥
مِنْهُمْ . وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ فِي كُلِّ قِسْمٍ : بَدَأْتُ بِالْمُلُوكِ ، ثُمَّ اسْتَمَرْتُ عَلَى مَا وَصَفْتُهُ
مِنَ التَّرْتِيبِ ، وَأَنْتَظِمُ عَلَى مَا شَرَحْتُ مِنَ التَّبْوِيبِ ، وَعَلَى اللَّهِ أَتَوَكَّلُ ۖ وَهُوَ
حَسْبِي فِيمَا أَقُولُ وَأَفْعَلُ ! لَا إِلَهَ سِوَاهُ^(٤) !

(١) دوزى « صدر » (٢) مد في ب . (٣) مد في ب .

(٤) هنا ينتهى ما اقتبسهُ دوزى من هذه المقدمة في مجموعته في تاريخ بنى عباد .

ذِكْرُ الْكِتَابِ وَالْوُزَرَاءِ ، وَأَعْيَانِ الْأَدْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ ، بِحَضْرَةِ قُرْطُبَةَ
وَمَا يُصَاقِبُهَا مِنْ بِلَادٍ مُتَوَسِّطَةِ الْأَنْدَلُسِ ، وَتَسْمِيَةِ مَنْ نَشَأَ مِنْ
فُرْسَانِ هَذَا الشَّانِ ، مِنْ آخِرِ دَوْلَةِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى وَقْتِنَا ،
وَإِيرَادُ مَا انتَحَبْتُهُ مِنْ نَظْمِهِمْ وَنَثَرِهِمْ ، مَعَ مَا يَتَعَلَّقُ
مِنْ فُنُونِ الْمَعَارِفِ الْمُفِيدَةِ بِذِكْرِهِمْ .

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ بَسَّامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَحَضْرَةُ قُرْطُبَةَ ، مُنْذُ اسْتُفْتِحَتِ الْجَزِيرَةُ ، هِيَ كَانَتْ مُنْتَهَى الْغَايَةِ ، وَمَرْكَزَ
الرَّايَةِ ، وَأُمِّ الْقُرَى ، وَقَرَارَةَ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْثَقَى ، وَوَطْنَ أُولَى الْعِلْمِ وَالنُّهَى ،
وَقَلْبَ الْإِقْلِيمِ ، وَيَنْبُوعَ مُتَفَجِّرِ الْعُلُومِ ، وَقُبَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَحَضْرَةَ الْإِمَامِ ، وَدَارَ
صَوِّبِ الْعُقُولِ ، وَبُسْتَانَ ثَمَرَةِ الْخَوَاطِرِ ، وَبَحْرَ دُرَرِ الْقَرَائِحِ ؛ وَمَنْ أَقْبَحُهَا طَلَعَتْ
نُجُومُ الْأَرْضِ وَأَعْلَامُ الْعَصْرِ ، وَفُرْسَانُ النَّظْمِ وَالنَّثَرِ ؛ وَبِهَا انْتَشَتِ التَّأْلِيفَاتُ
الرَّائِقَةُ ، وَصُنِفَتِ التَّصْنِيفَاتُ الْفَائِقَةُ ؛ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ، وَتَبَرُّزُ ^(١) الْقَوْمِ
قَدِيمًا وَحَدِيثًا هُنَاكَ ؛ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ، أَنَّ أَفْقَهُمُ الْقُرْطُبِيُّ لَمْ يَشْتَمِلْ قَطُّ إِلَّا عَلَى
أَهْلِ الْبَحْثِ وَالطَّلَبِ ، لِأَنْوَاعِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَأَكْثَرُ أَهْلِ ^(٢)
بِلَادِ هَذَا الْأَفْقِ أَشْرَافُ عَرَبِ الْمَشْرِقِ افْتَتَحُوهَا ، وَسَادَاتُ أَجْنَادِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ
نَزَلُوهَا ؛ فَبَقِيَ النَّسْلُ فِيهَا بِكُلِّ إِقْلِيمٍ ، عَلَى عِرْقِ كَرِيمٍ ؛ فَلَا يَكَادُ بَلَدٌ مِنْهَا
يَخْلُو مِنْ كَاتِبٍ مَاهِرٍ ، وَشَاعِرٍ قَاهِرٍ ؛ إِنْ مَدَحَ مَا كَثُرَ عِنْدَهُ بِكَثِيرٍ ، وَإِنْ

(١) ب ، لب : « تَبَرُّز » (٢) م د في ب ، لب .

هَجَا أَرْسَ لِسَانِ جَرِيرٍ، وَعَدَا عَدِيًّا عَنْ مَدْحِ ذَوِيهِ، وَأَنْسَى ^(١) جَرَوْلًا الْقَوَافِي
إِثْرَ قَوَافِيهِ ؛ وَإِنْ تَغَزَّلَ أَرْبَى عَلَى السَّاحِرَاتِ فَنُونًا، وَأَزْرَى بِالْغَانِيَاتِ مُجُونًا .
وَقَدْ وَعَدْتُ فِي صَدْرِ هَذَا الْكِتَابِ بَأَنِّ أَتَخَلَّلَ أَشْعَارَ الشُّعْرَاءِ، وَرَسَائِلَ
الْكِتَابِ وَالْوُزَرَاءِ، بِمَا عَسَى أَنْ يَتَعَلَّقَ بِأَذْيَالِهَا، وَيُسَايِرَ أَفْيَاءَ ظِلَالِهَا : مِنْ
أَنْبَاءِ فِتْنِ ذَلِكَ الزَّمَانِ الْبَعِيدِ — كَانَ — طَلَقَهَا، الْمَفْرَقِ لِشَمْلِ الْأَمْرِ فِي
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ نَسَقَهَا . وَنُلْفِعُ بِنَبَذٍ مِنْ مَشْهُورٍ وَقَائِعِهَا، وَنُشِيرُ بِأَسْمَاءِ
طَوَائِفِ تَوَابِعِهَا وَزَوَابِعِهَا ^(٢) ؛ الَّذِينَ اسْتَظْهَرُوا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ بِحَرِّ ذُيُولِهَا، وَامْتَرَوْا
بِطَالَاتِهِمْ مِنْ أَخْلَافِ أَبَاطِيلِهَا، حَتَّى شَقَوْا عَصَاهَا، وَأَدَارَوْا بِدَائِرَةِ السَّوْءِ عَلَى
الْجَمَاعَةِ رَحَاها ؛ لِيَجْمَعَ هَذَا الْمَجْمُوعُ بَيْنَ الشَّعْرِ وَالْخَبَرِ، جَمَعَ الرُّوْضَةَ بَيْنَ الْمَاءِ
وَالزَّهْرِ، وَالزَّمَانَ بَيْنَ الْأَصْنَافِ وَالْبُكَرِ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ أَكْثَرًا مَا ذَكَرَ التَّعَالِي فِي
ذَلِكَ فِي « يَتِيمَتِهِ » مَحْذُوفًا مِنْ أَخْبَارِ قَائِلِيهِ، مَبْتُورًا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي وَصَلَتْ
بِهِ وَقِيلَتْ فِيهِ ؛ فَأَمَّلَ قَارِئُ كِتَابِهِ مَنَحَاهُ، وَأَحْجُوهُ إِلَى طَلَبِ مَا أَغْفَلَهُ مِنْ ذَلِكَ
فِي سِوَاهُ .

وَسَيَنْخَرِطُ فِي سِلَكِ مَا أُوشِحُ بِهِ هَذَا التَّصْنِيفُ، مِنْ تَلْخِيصِ
التَّعْرِيفِ، بِأَخْبَارِ مُلُوكِ الْجَزِيرَةِ، وَسَرْدِ قِصَصِهِمُ الْمَأْثُورَةِ، وَوَقَائِعِهِمُ الْمُبِيرَةِ
الْمَشْهُورَةِ، لَا بِنِ حَيَّانٍ، فَضُولٍ مِنْ غَرَائِبِهِ، وَجُمْلٍ وَتَفَاصِيلٍ مِنْ عَجَائِبِهِ ؛ لِأَنِّي
إِذَا وَجَدْتُ مِنْ كَلَامِهِ فَضْلًا قَدْ أَخْكَمَهُ، أَوْ خَبْرًا قَدْ سَرَدَهُ وَنَظَّمَهُ، عَوَّلْتُ
عَلَى مَا وَصَفَ، وَوَلَّيْتُهُ خُطَّةَ مَا سَطَرَ وَصَنَّفَ، إِقْرَارًا بِالْفَرْقِ، وَإِعْفَاءً لِنَفْسِي
مِنْ مُعَارَضَةٍ مَنْ أَحْرَزَ بِأَقْفَانَا فِي وَقْتِهِ قَصَبَاتِ السَّبْقِ ^(٣)، وَبَرَّزَ فِي زَمَانِهِ عَلَى
جَمِيعِ الْخَلْقِ ^(٣) . وَأَكْثَرُ مَا يَمُرُّ فِي هَذَا الْكِتَابِ، مِنْ هَذَا الْبَابِ « فَعَلَى
٢٠

(١) لب : « وأنسى » (٢) ب ، لب : « روابعها » ، ر : « روابعها »

(٣-٣) لم تقع هذه الجملة إلا في ر .

تأريخه الكبير عوّلت ، ومن خطّ يده أكثر ما نقلت ؛ وتحرّيت جهدي
أقتضاب ما طوّل ، وتخفيف ما ثقل ، وإجمال ما شرح وفصل ؛ على أنه لم
يخلص إلى من غمامه إلا قطرة ، ولا حصلت في يدي من حسامه إلا إبرة ؛
ولذلك ما ارتشفت ثمادي ، ونفخت فيما لم أجد من كلامه رمادي ، وأنفقت
في ذلك من تافه زادي ؛ وابتدأت بمن كان في ذلك الأوان ، من ملوك بني
مروان ، من أهل هذا الشأن ، وأرسم بهذا الفن الذي تصدّيت لإقامة أوده
في هذا الديوان .

فصل في ذكر المستعين بالله أبي أيوب سليمان بن الحكم ، والأخذ
بطرف مستطرف من أخباره وأشعاره ، والسبب الموجب
لقيامه ، وما حدث من نادر مستغرب في أيامه .

١٠

(١) ونقلت بعضه من لفظ الشيخ المذکور بنصّه ، وأتيت من الحديث
بفصّه ، واعتمدت الإيجاز . وأتقت الصدور والأعجاز (١) .

هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد
ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية
ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي . بويع بقرطبة منتصف
ربيع الأول سنة أربع مائة بعد وقعة كانت له على أميرها قبله محمد [بن هشام] بن
عبد الجبار الملقب بالمهدي القائم على الدولة العامرية ؛ ثم خلع المهدي بوقعة
كانت له عليه ، ثم عاد إليها سليمان ثانية في خبر طويل ، فملك سليمان قرطبة

١٥

- فِي دَوْلَتِيهِ سِتَّ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرُ ، وَكَانَتْ كُلُّهَا — كَمَا وَصَفَ ابْنُ حَيَّانَ —
شِدَادًا نَكِدَاتٍ ، صِعَابًا مَشْثُومَاتٍ ، كَرِيهَاتِ الْمُبْدَأِ وَالْفَاتِحَةِ ، قَبِيحَةِ الْمُنْتَهَى
وَالْحَاطَةِ ؛ لَمْ يُعَدِّمْ فِيهَا حَيْفٌ ، وَلَا فُورِقَ فِيهَا خَوْفٌ ؛ وَلَا تَمَّ سُرُورٌ ، وَلَا قُفْدٌ
مَحْذُورٌ ؛ مَعَ تَغْيِيرِ السَّيْرِ ، وَحَرْقِ الْهَيْبَةِ ، وَاشْتِعَالِ الْفِتْنَةِ ، وَاعْتِلَاءِ الْمَعْصِيَةِ ،
وِظْمَنِ الْأَمْنِ ، وَخُلُولِ الْخَافَةِ : دَوْلَةٌ كَفَاهَا ذِمًّا أَنْ أَنْشَأَهَا شَانِجَةُ ، فَشَعَّهَا ٥
أَرْمُقُنْدٌ ، وَثَبَّتَهَا الْجَلَالِقَةُ ، وَمَزَقَتْهَا الْإِفْرَنْجَةُ ؛ وَدَبَّرَهَا فَاجِرُ شَقِيٍّ ، وَوَزَرَ
لَهَا حَبَّ دَنِيٍّ ^(١) ؛ فَتَمَخَّضَتْ عَنِ الْفَاقِرَةِ الْكُبْرَى ، وَآلَتْ بِمَنْ أَتَى بَعْدَهَا
إِلَى مَا كَانَ أَعْضَلَ وَأَذْنَى ، مِمَّا طَوَى بِسَاطِ الدُّنْيَا ، وَعَقَّى رُسْمَهَا ، وَأَهْلَكَ أَهْلَهَا .
وَلَمَّا تَمَّتْ بَيْعَتُهُ نُفِذَتْ عَنْهُ كُتُبُ إِلَى نَوَاحِي الْجَزِيرَةِ بِخَبَرِ فَتْحِهِ قُرْطُبَةَ ،
وَكَانَتْ مُوشِحَةً بِمَا تَوْشَّحَ بِهِ كُتُبُ الْفَتْوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى أَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ ، ١٠
مِنْ وَصْفِ حَالِ الْقَهْرِ ، وَشِدَّةِ السَّطْوَةِ وَالْاِقْتِدَارِ عَلَى الْفَتَكِ وَالْاِسْتِبَاحَةِ ؛
فَأَفْرَطَ فِي ذَلِكَ إِرْهَابًا لِلنَّاسِ بِذِكْرِهِ ، وَتَخْوِيفًا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ؛ فَكَانَ أَجَابَ
لِنِفَارِ الْقُلُوبِ ، وَقَرَفِ التُّدُوبِ ، وَبُعْدِ الشُّرُودِ ، وَنَبْشِ الْحُقُودِ ، لِمَا وَتَرَ جَمِيعَهُمْ
بِالْحَادِثَةِ فِي قُرْطُبَتِهِمْ ؛ فَاسْتَشْعَرُوا بَغْضَهُ ، وَانْقَادُوا لِكُلِّ مَنْ عَانَدَهُ وَرَدَّ أَمْرَهُ ،
مِنْ عَبْدٍ أَوْ حُرٍّ ، فَزَعَا إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، وَيَأْسًا مِنْ خَيْرٍ يَجِيهِمْ مِنْ بَرَابِرَتِهِ ؛ فَكَانَ ١٥
ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَفْرِيقِ الْبِلَادِ وَتَمَلُّكِ أَصْحَابِ الطَّوَائِفِ .

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَتَسَمَّى لَوْقَتِهِ مِنَ الْأَلْقَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ ،
وَانْتَقَلَ إِلَى مَدِينَةِ الزَّهْرَاءِ بِجُمْلَةِ جَيْشِهِ ، رَجَاءً أَنْ يَحْسِمَ عَنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ
مَعَرَّتِهِمْ ، فَضَاقَتِ الزَّهْرَاءُ عَنْهُمْ فَزَلُّوا بِمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ مَنَازِلِ النَّاسِ ، وَنَزَلَ أَبْنَا
سُحُودٍ : عَلِيٌّ وَالْقَاسِمُ ، قَائِدًا فِرْقَةَ الْمَغَارِبَةِ ، بِشَقْنَدَةَ ؛ وَامْتَحَنَ هِشَامُ الْمُؤَيَّدُ ٢٠

(١) ب ، لب : « دب جرى »

بِاللهِ مَعَ سُلَيْمَانَ عِنْدَ دُخُولِهِ الْقَصْرَ ؛ فَقِيلَ إِنَّهُ قُضِيَ عَلَيْهِ ، وَقِيلَ إِنَّهُ فَرَّ مِنْ يَدَيْهِ . وَكَانَ هِشَامٌ — عِنْدَ مَا رَأَاهُ مِنْ اضْطِرَابِ أَمْرِهِ ، وَتَيَقُّنِهِ مِنْ أَنْصِرَامِ دَوْلَتِهِ ، بِمَا مُنِيَ بِهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، مِنْ تَمَالُؤِ بَنِي عَمِّهِ آلِ النَّاصِرِ عَلَيْهِ ، وَقِيَامِهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فِي خَلْعِهِ — صَيَّرَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ وَلَايَةَ عَهْدِهِ ، وَأَوْصَى إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَرَاسَلَهُ بِذَلِكَ إِلَى سَبْتَةِ ، أَيَّامَ تَرْدِّهِ عَلَيْهَا ، بِمَعْنَى ٥
الِاسْتِمْدَادِ ، وَجَمْعِهِ طَوَائِفَ الْبَرَابِرَةِ لِلْجِهَادِ ؛ وَوَلَّاهُ طَابَ دَخْلُهُ ^(١) ، وَاسْتَكْنَتْهُ السَّرِّ فِيهِ إِلَى أَوَانِهِ ، وَبُلُوغِ زَمَانِهِ ؛ هَائِجًا لِلْحَفَائِظِ الْقُرَشِيَّةِ ، وَمُحَرِّكًَا لِلطَّوَائِلِ الطَّالِبِيَّةِ ؛ فَرَمَاهُمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَلَىِّ هَذَا بِنَائِلَةِ الْأَنَافِ ، طَوَى كَشْحَهُ مِنْهَا عَلَى مُسْتَكْنَةٍ أَرْجَاهَا لَوْقَتَهَا .

١٠ وَمِنَ الْإِتِّفَاقِ الْغَرِيبِ عَلَى سُلَيْمَانَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَوْسَقَ لَهُ الْأَمْرُ بَعْدَ فَرَاحِهِ مِنْ خَبَرِ هِشَامِ الْمَوَيِّدِ ، أَنْفَذَ عَزَمَهُ مِنْ بَيْنِ قَوَادِ جُيُوشِهِ فِي اخْتِيَارِ عَلَىِّ بْنِ حَمُودٍ الْمَذْكُورِ ، فَقَدَّمَهُ عَلَى مَدِينَةِ سَبْتَةِ ، رَأْيًا ذَهَلَ عَنْهُ ، وَنَبَذَهَا إِلَى ضِدِّهِ لَهُ مُكَاشِحٍ شَرِيكَ فِي الدَّعْوَى وَالْقِرَابَةِ ؛ فَتَلَقَّيْهَا عَلَى تَلَقُّفِ الْأَكْيَاسِ الْمُقْبِلِينَ ، وَدَبَّ لِمَغْبُونِهِ سُلَيْمَانَ مِنْ قِبَلِهَا الضَّرَاءُ دَيْبِ الْحَنِقِ الْمَوْتُورِ ، حَتَّى هَجَمَ عَلَيْهِ وَسَلَبَهُ مُلْكَهُ ، وَحَوَّلَ دَوْلَتَهُ ، وَمَزَّقَ عِثْرَتَهُ ؛ وَكَانَتْ غُلْطَةُ سُلَيْمَانَ الَّتِي ١٥
لَمْ يَسْتَقْبَلْهَا هُوَ وَلَا مَنْ بَعْدَهُ ؛ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ شَيْئًا أَمْضَاهُ !

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ بَسَّامٍ : وَذَكَرْتُ بِمَا اتَّفَقَ فِي هَذَا الْخَبَرِ ، مَا حَكَاهُ الرُّوَاةُ فِي حُلُولِ الْفَاقِرَةِ أَيْضًا بِالْمَتَوَكَّلِ جَعْفَرٍ ؛ قَالُوا : لَمَّا عَزَمَ بُغَا الصَّغِيرُ عَلَى قَتْلِ الْمُتَوَكَّلِ جَعْفَرٍ بَتَدْبِيرِ ابْنِهِ الْمُنْتَصِرِ دَعَا بِيَاغِرَ ، وَهُوَ غُلَامٌ تُرْكِيٌّ ، بَعْدَ أَنْ اصْطَنَعَهُ بِالصَّلَاتِ ؛ وَكَانَ مُقْدَامًا أَهْوَجَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا بَاغِرُ ، أَنْتَ تَعْلَمُ تَقْدِيمِي ٢٠

لَكَ ، وَأَتَى قَدْ صِرْتُ عِنْدَكَ فِي مَنْزِلَةٍ مَنْ لَا يُعْصَى لَهُ أَمْرٌ ؛ وَأُرِيدُ أَنْ أَمُرَكَ بِشَيْءٍ ، فَعَرَّفَنِي كَيْفَ إِقْدَامِكَ عَلَيْهِ ! قَالَ : قُلْ مَا شِئْتَ فَإِنِّي فَاعِلُهُ ! فَقَالَ :
 إِنَّ أَبْنِي قَدْ فَسَدَ عَلَى وَصَحِّ عِنْدِي أَنَّهُ يُحَاوِلُ سَفْكَ دَمِي ، وَأُرِيدُ إِذَا دَخَلَ عَلَى
 غَدَا أَنْ أَضَعُ الْقُلَنُوسَةَ مِنْ رَأْسِي فِي الْأَرْضِ ، فَإِذَا أَنَا وَضَعْتُهَا فَاقْتُلْهُ ! قَالَ :
 نَعَمْ ! فَلَمَّا دَخَلَ أَبْنُهُ عَلَيْهِ لَمْ يَضَعْ الْقُلَنُوسَةَ مِنْ رَأْسِهِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ نَسِيَ ، فَعَمَرَهُ
 بِحَاجِيهِ ، فَلَمْ يَرَ الْعَلَامَةَ ، وَانْصَرَفَ أَبْنُهُ . فَقَالَ لَهُ : إِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَنَّهُ وَلَدٌ
 وَحَدَّثْتُ ، وَأُرِيدُ أَنْ أُسْتَصْلِحَ . فَقَالَ لَهُ بَاغِرٌ : فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ . ثُمَّ
 أَمْسَكَ عَنْهُ مُدِيدَةً وَقَالَ لَهُ : إِنَّ أَخِي فَسَدَ عَلَى ، وَهُوَ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَقْتُلَنِي وَيَنْفِرَ
 مَكَانِي ، وَأَحِبُّ أَنْ تَبَادِرَ غَدَا إِذَا دَخَلَ عَلَى وَتَقْتُلْهُ ! قَالَ : نَعَمْ ! وَجَعَلَ لَهُ
 عَلَامَةً ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ لَمْ يَرَ الْعَلَامَةَ ، وَوَقَفَ حَتَّى خَرَجَ أَخُوهُ . فَقَالَ لَهُ : يَا بَاغِرُ ،
 هُوَ أَخِي وَعَسَى أَنْ أُسْتَصْلِحَ ؛ وَهَذَا امْرُؤٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا كَلْبٍ .
 قَالَ لَهُ بَاغِرٌ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : الْمُتَنَصِّرُ ، قَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ عَلَى الْإِيْقَاعِ بِي وَقَتْلِي .
 وَأُرِيدُ قَتْلَهُ ! فَكَيْفَ تَرَى نَفْسَكَ فِي ذَلِكَ ؟ فَفَكَرَ بَاغِرٌ سَاعَةً وَنَكَسَ رَأْسَهُ
 طَوِيلًا . ثُمَّ قَالَ : هَذَا أَمْرٌ لَا يَجِيئُ مِنْهُ شَيْءٌ . قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لَا نَقْتُلُ
 الْإِبْنَ وَالْأَبَ بَاقٍ ، إِذْ لَا يَسْتَوِي لَكُمْ شَيْءٌ وَيَقْتُلُكُمْ أَبُوهُ كُلُّكُمْ . قَالَ :
 فَمَا الرَّأْيُ ؟ قَالَ : نَبْدُ بِالْأَبِ وَيَكُونُ أَمْرُ الصَّبِيِّ أَيْسَرَ ! قَالَ : وَتَفْعَلُ هَذَا
 وَيَحْكُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! أَفْعَلُهُ وَأَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَى قَتْلِهِ ؛ وَأَدْخُلُ أَنْتَ فِي إِثْرِي ،
 فَإِنْ قَتَلْتَهُ وَإِلَّا فَاقْتُلْنِي أَنْتَ ، وَضَعُ سَيْفِكَ عَلَى وَقُلْ : أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ مَوْلَاهُ !
 فَعَلِمَ بُغَا حِينَئِذٍ أَنَّهُ قَاتِلُهُ ، فَتَمَكَّنَ لَهُ التَّدْبِيرُ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ .

وَحَدَّثَ الْبُحْتَرِيُّ الشَّاعِرُ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ الْمُتَوَكِّلِ مَعَ الثَّدْمَاءِ ،
 فَتَدَا كَرْنَا أَمْرَ السُّيُوفِ . فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَعَ عِنْدَ

رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ سَيْفٌ مِنَ الْهِنْدِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ . فَأَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ بِالْكِتَابِ فِيهِ إِلَى عَامِلِ الْبَصْرَةِ ؛ فَاتَّفَقَ أَنْ اشْتَرِيَ بَعَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ؛ فَسَرَّ الْمُتَوَكِّلُ بِجَوْدَتِهِ ، وَانْتَضَى ^(١) ؛ فَاسْتَحْسَنَهُ الْمُتَوَكِّلُ وَقَالَ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ : اظْلُبْ لِي غُلَامًا نَفِيقٌ بِنَجْدَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ ، أَدْفَعْ إِلَيْهِ هَذَا السَّيْفَ لِيَكُونَ وَاقِفًا بِهِ عَلَى رَأْسِي كُلِّ يَوْمٍ مَا دُمْتُ جَالِسًا ! قَالَ : فَلَمْ يَسْتَمِمْ الْمُتَوَكِّلُ الْكَلَامَ حَتَّى دَخَلَ بِأَغْرُ الثَّرَكِيِّ الْمَذْكُورِ ، فَدَعَا بِهِ الْمُتَوَكِّلُ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ السَّيْفَ ، وَأَمَرَهُ بِمَا أَرَادَ وَتَقَدَّمَ بِأَنْ يُزَادَ فِي مَرْتَبَتِهِ . قَالَ الْبُحَيْرِيُّ : فَوَاللَّهِ مَا انْتَضَى ذَلِكَ السَّيْفُ وَلَا أَخْرَجَ مِنْ غَمْدِهِ مُنْذُ الْوَقْتِ الَّذِي دَفَعَ إِلَيْهِ إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي ضَرَبَهُ فِيهَا بِأَغْرُ ذَلِكَ السَّيْفِ ^(٢) !

رجع الحديث :

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : فَلَمَّا كَانَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ طَلَعَ النَّبَأُ عَلَى سُلَيْمَانَ أَنَّ مُجَاهِدًا الْعَامِرِيَّ أَقَامَ عَلَيْهِ خَلِيفَةً رَجُلًا يُعْرَفُ بِالْفَقِيهِ الْمَعِيطِيِّ ، فَاسْتَغْظَمَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ بَلَغَهُ نُجُومُ عَلِيِّ بْنِ حَمُودِ الْفَاطِمِيِّ بِسَبْتِهِ ، فَسَقَطَ فِي يَدَيْهِ ، وَتَفَرَّقَتِ الظُّبَاءُ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ عَلَى أَجَلٍ مِنَ الْحَرْشِ . وَأَخَذَ فِي اسْتِدْفَاعِ ذَلِكَ جَهْدَهُ فَلَمْ يُغْنِهِ شَيْئًا ؛ وَجَاءَهُ عَلَى فِي جُمُوعِهِ بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعَ بِالْمَرْيَةِ مَعَ خَيْرَانَ صَاحِبِ الْمَرْيَةِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفَتَيَانِ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ سُلَيْمَانُ وَاقْتَتَلُوا فَأَنْهَزَمَ سُلَيْمَانُ وَقُبِضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَخِيهِ وَأَبِيهِ وَسَيَقُوا أُسَارَى إِلَى عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ . وَدَخَلَ الْقَصْرَ وَخَيْرَانُ يَطْمَعُ أَنْ يَجِدَ هَشَامًا الْمُؤَيَّدَ حَيًّا ، فَلَمْ يَوْجِدْ وَذَكَرَ أَنَّهُ قُتِلَ وَعُرِضَ عَلَيْهِ قَبْرُهُ .

(١) ر : « وسبق وانتضى »

(٢) هذه القصة المذكورة بنصها في « مروج الذهب » للسعودي (طبعة باريس : ج ٧

فَأَمَرَ عَلَى بْنَ بَشِيرٍ ، فَأَخْرَجَ الشَّخْصَ ، وَشَهِدَ أَنَّهُ هِشَامٌ ، وَسَلِمَانُ يَتَبَرَّأُ مِنْ دَمِهِ ،
وما كان في جسده شيء من أثر السلاح ، فتَوَهَّم فيه الخَنْقَ ، وَأَمَرَ عَلَى بْنَ بَجْهِيْزٍ
إِلَى أَهْلِهِ ، وَأَنْذَرَ طَبَقَاتُ النَّاسِ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ؛ فَدُفِنَ لَزِيْقُ أَبِيهِ الْحَكَمُ . ثُمَّ
دَعَا عَلَى بْنَ سُلَيْمَانَ وَدَوِيهَ فَضْرَبَ عُنُقَهُ بِيَدِهِ وَظَهَرَ مِنْهُ جَزَعٌ شَدِيدٌ عِنْدَ مِلَاحَظَتِهِ
السَّيْفِ ، خَارَتْ مِنْهُ قُوَاهُ ، فَجَعَلَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ ضَرَبَتْ عُنُقُ الشَّيْخِ أَبِيهِ
وَعُنُقُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِهِ . وَجُعِلَتْ الرُّءُوسُ الثَّلَاثَةُ فِي طَسْتٍ ، وَأُخْرِجَتْ مِنَ
القَصْرِ إِلَى الْمَحَلَّةِ يُنَادَى عَلَيْهَا : هَذَا جَزَاءُ مَنْ قَتَلَ هِشَامًا الْمُؤَيَّدَ ! ثُمَّ رُدَّتْ
الرُّءُوسُ الثَّلَاثَةُ وَنُظِفَتْ وَطُيِّبَتْ ؛ وَقَدْ كَانَتْ جُمِعَتْ رُءُوسُ رُؤَسَاءِ مِنَ الْبَرَابِرَةِ
الْمَقْتُولِينَ فِي الْوَقْعَةِ فِي قَفَّةٍ ، وَجُعِلَ رَأْسُ أَحَدِ بَنِي الدُّبِّ فِي أَعْلَاهَا ، وَعُلِقَتْ
فِي آذَانِهِمْ رِفَاعٌ بِأَسْمَائِهِمْ . وَكَانَتْ فِي الْمَحَلَّةِ تُحْمَلُ مِنْ مَضْرِبٍ قَائِدٍ إِلَى
مَضْرِبٍ سِوَاهُ^(١) . وَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ اجْتِمَاعِ رُءُوسٍ مِنْ ضَاقَتِ أَرْضُ
الْأَنْدَلُسِ بِرَحْبِهَا عَنْهَا ، وَشَمِلَهَا شَرُّهَا وَأَذَاهَا طَرَفًا فِي قَفَّةٍ ضَيِّقَةٍ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ !
وَحُكِيَ أَنَّ وَالِدَ سُلَيْمَانَ حِينَ عَاشَ قَتَلَ ابْنَيْهِ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ عَلَى :
أَهَكَذَا يَا شَيْخَ قَتَلْتُمْ هِشَامًا ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا قَتَلْنَاهُ وَإِنَّهُ لَحَيٌّ يُرْزَقُ ! فُخِنِئِدِ
عَجَلَ عَلَى بِقَتْلِ الشَّيْخِ ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَقِيًّا صَالِحًا لَمْ يَتَشَبَّثْ بِشَيْءٍ مِنْ
أَمْرِ ابْنِهِ .

وَكَانَ هِشَامٌ يَقُولُ بِرُمُوزِ الْمَلَايِمِ وَكُتُبِ الْحَدَثَانِ ، وَخَامَرَ نَفْسَهُ مِنْ
ذِكْرِ قَائِمٍ بِسَبْتِهِ أَوَّلَ اسْمِهِ عَيْنٌ مَا لَا شَيْءَ يَزِيلُهُ ، وَلَمْ يَزَلْ مُرْتَقِبًا لظُهُورِهِ ؛
فَلِذَلِكَ مَا كَاتَبَ عَلَى بْنُ حَمُودٍ لِرَفْعِ بَيْتِهِ ، وَبَعْدَ صَبْرِهِ ؛ فَكَانَ مِنْهُ فِي أَخْذِهِ
بَشَارُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ مَا كَانَ . فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ ، فَهِشَامٌ عَلَى مَشْهُورٍ عَجَزَهُ أَحَدُ كَانْدِي
٢٠

(١) بعد كلمة « سواه » في ب ، لب : « ومشورة »

الأعداء بغيره من منكوبي الملوك بما لا شيء فوقه ، فما أدرك فيه بعد هلاكه
بوتره واستفاد بدمه وسطا بعدوه ! انتهى ما لخصته من خبره مع ابن حمود .

فصل — قال ابن حيان : وأما حربه مع المهدي ، فإنه لما استوسق
الأمر لسليمان حسبا تقدم ، وتابعت البرابرة ، اجتمعوا لحرب قرطبة ، فزكوا
في سفح الجبل بها وبشرقيها يوم الخميس الحادي عشر من ربيع الأول
سنة أربع مائة . وقد كان واضح الفتي وافيها قبلهم بيومين في أجناده من رجال
الشعر ؛ فقلده المهدي أمر الحرب ، واحتشد الناس من الكور والبادية ، فعسكروا
في مجموع لم يحضرها إلا خالقهم . فتداني الزحفان يوم السبت الثالث عشر من
ربيع المورخ ، فتمسرع إليهم أهل قرطبة ، وخالفوا واضحا في تدبير حربهم ،
فاستجرتهم البرابرة ، حتى إذا تمكّنوا منهم عطفوا عليهم ، فانكشفوا عنهم
انكشافا ما سمع بمثله ، وأنهمزوا إلى منازلهم وتشعبت الطرق بهم . وعاد
تضيّق مسالك كانوا أعدوها لعدوهم سدادا دونهم ، فازدحموا وتناشّبوا وقتل
بعضهم بعضا . ووضع البرابرة والنصارى السيوف عليهم ؛ فقتل في هذه الوقعة
عالم ، وأبادوا أمة . وهي وقعة قنتيش المشهورة بالاندلس التي قطع المقال على
أنه قتل فيها عشرة آلاف قتيل وأزيد . والله أعلم !

ومال^(١) النصارى يومئذ على المنهزمين من المسلمين ، فقتلوا منهم في صعيد
واحد نيفا على ثلاثة آلاف رجل . وخرج الأمر عن يد واضح فلم يثبت
أحد ممن كان معه ، ولا كثر في تلك الوقعة عامي ولا خاصي . وكان أمره عجبا ،
ونادى واضح بشعاره ، فاجتمع إليه رجاله وثبت إلى أن أجنه الليل ، واتخذته

جَمَلًا^(١)، وَسَارَعَ قُرْطُبَةَ هَارِبًا إِلَى الثَّغْرِ. وَانْبَسَطَ الْبَرْبُرُ يَوْمَئِذٍ فِي أَرْضِ قُرْطُبَةَ يَفْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ.

قال ابن حَيَّان: وَأُصِيبَ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ مِنَ الْمُؤَدِّينَ خَاصَّةً نَيْفٌ عَلَى سِتِّينَ، أُعْزِيتَ سَقَايُهُمْ^(٢) فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ، وَتَعَطَّلَ صِبْيَانُهُمْ لَعَدَمِهِمْ. وَأُصِيبَ فِيهَا زَرْبُوطُ الطَّنْبُورِيِّ، وَأَقَامَ الطَّنْبُورِيُّونَ أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ مَأْتَمًا مَشْهُورًا. • بعد الحادثة. وَهَلَكَ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ أَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ. وَكَانَ بَعْضُ الظَّرَفَاءِ يَقُولُ: مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ أَخَذْتُ وَقْعَةً قَنْتِيشَ حَتَّى مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ؛ فَإِنِهَا أَلْصَقَتْ بِالصِّمِّ فِي قَتْلِ قَنْبُوطِ الْمُلْهِى، وَزَرْبُوطِ الْمُغْنَى وَنَمَطِهِمَا، فَهَيْهَاتَ أَنْ يُخَافَ^(٣) الدَّهْرُ مِثْلَهُمَا!

- وكان المَهْدِيُّ، إِذْ دَخَلَ قُرْطُبَةَ مُنْتَصَفَ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ ١٠
وثلَاثِمِائَةٍ وَقَتَلَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي عَامِرٍ، أَظْهَرَ مَوْتَ هِشَامِ الْمُؤَيَّدِ فِي رَمَضَانَ
مِنَ الْعَامِ، وَوَرَّى الشَّخْصَ الَّذِي مُوِّهَ بِهِ وَقَسَمَ تَرَاثَهُ. فَلَمَّا كَانَ غَدَاةُ الْآحَدِ
ثَانِي وَقْعَةٍ قَنْتِيشَ، أَظْهَرَ الْمَهْدِيُّ هِشَامًا الْمُؤَيَّدَ رَجَاءً أَنْ يَسْتَمِيلَ الْبَرَابِرَةَ بِهِ،
لَمَّا كَانُوا يُكْثِرُونَ مِنَ التَّرَحُّمِ عَلَيْهِ وَالطَّلَبِ بِدَمِهِ؛ فَأَبْرَزَهُ^(٤) لِلنَّاسِ وَعَجَبُوا
مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الْبَرْبُرُ: اللَّهُ مُحَمَّدٌ عَلَى سَلَامَتِهِ، وَنَحْنُ فَلَاحِجَةٌ لَنَا فِي إِمَامَتِهِ؛ ١٥
وَلَا نَرْضَى بِغَيْرِ سُلَيْمَانَ! فَلَمَّا سَمِعَ الْمَهْدِيُّ ذَلِكَ، خَرَجَ فِي اللَّيْلِ عَنِ الْقَصْرِ،
وَتَطَمَّرَ بِقُرْطُبَةَ إِلَى أَنْ لَحِقَ بِطَلِيطَةَ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْقِيَامِ بِنُصْرَتِهِ؛ فَجَمَعَ لَهُ
وَاضِحٌ عَسَاكِرُ الْإِفْرَنْجَةِ وَأَهْلُ الثُّغُورِ؛ وَجَاءَهُمْ مَعَ وَاضِحٍ إِلَى قُرْطُبَةَ؛ فَابْرَزَ إِلَيْهِ

(١) م في ب

(٢) ب، ر: «سلاخهم»

(٣) م في ر

(٤) ر: «فأظهره»

سُلَيْمَانُ، وَالتَّقَى الْجَمْعَانِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي شَوَّالٍ مِنَ الْعَامِ؛ فَانْهَزَمَ سُلَيْمَانُ؛ فَدَخَلَ
 الْمَهْدِيُّ قَرْطُبَةَ وَبُوعَ لَهَا بِهَا، وَتَرَدَّدَ عَلَيْهِ الْبَرْبُرُ يُحَارِبُونَهُ، فَشَرَعَ فِي حَفْرِ
 الْخَنْدَقِ حَوْلَ قَرْطُبَةَ، وَالزَّمَ أَهْلَهَا الْقِيَامَ بِأَمْرِهِ؛ فَاشْتَدَّتْ الْكُلْفَةُ عَلَيْهِمْ.
 وَدَبَّرَ وَاضِحٌ مَعَ الْمَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ الْغَدْرَ بِالْمَهْدِيِّ، وَشَغَبُوا عَلَيْهِ فِي ذِي الْحِجَّةِ
 مِنَ الْعَامِ؛ وَأَخْرَجُوا هِشَامًا الْمُؤَيَّدَ مِنْ مَحْبِسِهِ بِالْقَصْرِ، وَأَجْلَسُوهُ لِلْخِلَافَةِ بِالسَّطْحِ
 وَنَادَوْا بِشِعَارِهِ ۖ وَضَرَبُوا عُنُقَ الْمَهْدِيِّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَلْقَوْا جَسَدَهُ مِنْ أَعْلَى
 السَّطْحِ، وَرَفَعُوا رَأْسَهُ عَلَى قَنَاةٍ طِيفَ بِهَا التُّلُودُ كُلُّهُ، وَقَطَعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ. وَعَادَ
 هِشَامُ الْمُؤَيَّدُ إِلَى الْخِلَافَةِ، وَجُدِّدَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ، وَاسْتَحْجَبَ وَاضِحًا أُلْفَتِي،
 وَاسْتَوَلَى عَلَى تَدْيِيرِ الْأُمُورِ، وَأَرْسَلَ بِرَأْسِ الْمَهْدِيِّ إِلَى عَسْكَرِ سُلَيْمَانَ عَلَى مُعَاوَدَةِ
 طَاعَةِ هِشَامٍ، وَقَدَرَجَا اسْمًا لَتَهُمْ بِهِ فَأَبَوْا ذَلِكَ، وَأَغْلَظَ سُلَيْمَانُ عَلَى رُسُلِهِ، وَأَرَادَ
 قَتْلَهُمْ، وَأُظْهِرَ الْجَزَعُ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ الْمَهْدِيِّ، وَبَكَى عَلَيْهِ ^(١)، وَأَمَرَ بِتَنْظِيفِ
 الرَّأْسِ، وَأَنْقَذَهُ إِلَى طُلَيْطُلَةَ، إِلَى وَلَدِ الْمَهْدِيِّ عُبَيْدِ اللَّهِ؛ فَأَعْظَمَ قَتْلَ أَبِيهِ
 وَدَفَعَ بَيْعَةَ هِشَامٍ. وَكَانَ بِعَسْكَرِ سُلَيْمَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَتْيُوه ^(٢)، فَلَمَّا
 بَلَغَهُ مَهْلِكُ الْمَهْدِيِّ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ عَدُوَّهُ، كَاتَبَ وَاضِحًا وَتَوَقَّقَ لَهُ، فَهَرَبَ
 إِلَى قَرْطُبَةَ، فَدَبَّرَ أَمْرَ هِشَامٍ مُدَّةً بَعْدَ قَتْلِ وَاضِحٍ وَعَلَى بْنِ وَدَاعَةَ فِي أَخْبَارِ
 طَوِيلَةٍ، إِلَى أَنْ ضَعُفَ أَمْرُ هِشَامٍ. وَدَخَلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ دَوْلَتَهُ الْأَخِيرَةَ، وَدَبَّرَ
 قَرْطُبَةَ، إِلَى أَنْ وَقَعَ لَهُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ مَا وَصَفْنَاهُ. انْتَهَى مَا لَخَصَّصْتُهُ مِنْ
 كَلَامِ ابْنِ حَيَّانَ.

قال أبو الحسن بن بسام: وكان سليمان ممن مدَّتْ له في الأدب غاية،

(١) ب: «مهوه» — لب: «منهوه» — ر: «منيرة»

والتصحيح عن ابن الخطيب: «أعمال الأعلام» (ص ٢٠٤)

كَفَى دُونَهَا أَهْلَ الْآدَابِ ، وَرُفِعَتْ لَهُ فِي الشَّعْرِ رَايَةٌ ، مَشَى تَحْتَهَا كَثِيرٌ مِنَ
الشَّعْرَاءِ وَالْكِتَابِ ؛ غَيْرَ أَنَّ أَيَّامَ الْفُتُونِ أَلَوَتْ بِذِكْرِهِ ، وَأَيَّدِي تِلْكَ الْحَرْبِ
الزَّبُونِ طَوَتْ بِجُمْلَةِ شِعْرِهِ ! وَهُوَ أَحَدُ مَنْ شَرُفَ الشَّعْرُ بِاسْمِهِ ، وَتَصَرَّفَ
عَلَى حُكْمِهِ ؛ مَعَ قَعُودِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ يَوْمَئِذٍ عَنِ الْبَحْثِ عَنِ مَنَاقِبِ عَظَمَائِهِمْ ،
وَزُهْدِهِمْ فِي الْإِشَادَةِ بِمَرَاتِبِ زُعَمَائِهِمْ ^(١) . وَلَمْ أَظْفَرْ لَهُ ^(٢) إِلَّا بِقِطْعَةٍ عَارِضٍ بِهَا
هَارُونَ الرَّشِيدُ فَتَشَفَّعَتْ بِهَا الْكُؤُوسُ ، وَتَهَادَتْهَا الْأَنْفَاسُ وَالنَّفُوسُ . وَقَدْ
أَثْبَتَ الْقِطْعَتَيْنِ مَعًا لِيُرَى الْفَرْقُ ، وَيُعْرَفَ الْحَقُّ . قَالَ هَارُونُ الرَّشِيدُ :

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْإِنْسَانُ عِنْدَانِي وَحَلَلَنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
مَالِي تَطَاوَعُنِي الْبَرِيَّةُ كَأُهَا وَأُطِيعُهُنَّ ، وَهَنَّ فِي عَصِيَانِي !
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى -- وَبِهِ قَوَيْنَ -- أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي ^(٣) ١٠

فَقَالَ سُلَيْمَانُ الْمُسْتَعِينُ :

عَجَبًا ! يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي وَأَهَابُ لَحْظَ فَوَازِيرِ الْأَجْفَانِ
فَأَقَارِعُ الْأَهْوَالِ ^(٤) لَا مُتَهَيِّبًا مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْمُجْرَانِ
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالَّذِي زُهِرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ
كَكُؤَاكِبِ الظُّلُمَاءِ لِحْنٍ لِنَاظِرِي ^(٥) مِنْ فَوْقِ أَعْصَانٍ عَلَى كُشْبَانِ ١٥
هَذِي الْهَلَالُ ، وَتِلْكَ بِنْتُ الْمُشْتَرَى حُسْنًا ، وَهَذِي أُخْتُ غُصْنِ الْبَانِ
حَاكَمْتُ فِيهِنَّ الشُّلُوكَ إِلَى الصَّبَا فَقَضَى بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِي
فَأَجْنَحَ مِنْ قَلْبِي الْحِمَى وَتَرَ كُنْفِي فِي عِزِّ مُلْكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي

(١) يوجد تقديم وتأخير في هذه الجملة في ب ، لب - ز في ب ، لب : « عفى على

كثير من جلاله قدره » (٢) ز في ر : « حين نقل هذه النسخة المقررة من هذا

المجموع في وقتي المؤرخ » (٣) هذه الأبيات منسوبة أيضاً إلى العباس بن الأحنف ،

راجع ديوانه (ص ١٦٢) (٤) ر : « الأبطال » (٥) ب : « لناظري »

لا تَعْدِلُوا مَلِكًا تَذَلُّ لِلْهَوَىٰ ذُلُّ الْهَوَىٰ عِزُّ وَمُلْكُ ثَانِي
 مَا ضَرَّ أُنَى عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً وَبَنُو الزَّمَانِ وَهْنٌ مِنْ عِبْدَانِي
 إِنْ لَمْ أُطِيعْ فِيهِنَّ سُلْطَانُ الْهَوَىٰ كَلَفًا بِهِنَّ فَاسَتْ مِنْ مَرْوَانَ^(١)

فَصَلِّ فِي ذِكْرِ الْمُسْتَظْهِرِ بِاللَّهِ أَبِي الْمَطْرَفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

ابن هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ النَّاصِرِيِّ ، وَشَرَحَ مَقْتَلَهُ ،

وَإِيرَادِ جُمْلَةٍ مِنْ أَشْعَارِهِ ، مَعَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا

وَيَنْخَرِطُ فِي سِلْكِهَا مِنْ مُسْتَظْهِرِ أَخْبَارِهِ

قال أبو الحسن : نَقَلْتُ مِنْ خَطِّ أَبِي مَرْوَانَ بْنِ حَيَّانٍ قَالَ : كَانَ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا لَبِقًا ذَكِيًّا ، وَأَدِيبًا لَوْدَعِيًّا ؛ لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِهِ يَوْمٌ مِمَّا يُرْعَى
 مِنْهُ مَنَزَلَةٌ ، وَكَانَ قَدْ نَقَلَتْهُ الْمَخَافَةُ ، وَتَقَادَفَتْ بِهِ الْأَسْفَارُ ، فَتَحَنَّنَتْ وَتَخَرَّجَ ١٠
 وَتَمَرَّنَ فِيهَا ، وَكَادَ يَسْتَوِلِي عَلَى الْأَمْرِ لَوْ أَنَّ الْعَنِيَا^(٢) أَنْسَأَتْهُ . وَكَانَ عَادَ إِلَى
 قَرْطُبَةٍ بَعْدَ تَجَوَّالِهِ ؛ فَدَخَلَهَا مُسْتَخْفِيًا أَيَّامَ الْقَاسِمِ بْنِ سَمُودٍ ، وَقَدْ اضْطَرَبَ
 سُلْطَانُهُ بِهَا ؛ فَشَاهَدَ الْفِتْنَةَ الْحَادِثَةَ بَيْنَ الْبَرَابِرَةِ وَأَهْلِهَا ، وَهَمَّ فِيهَا بِالْوُثُوبِ ،
 وَبَثَّ دُعَاتَهُ إِلَى أَهْلِهَا . فَلَمْ يَصِحَّ لَهُ شَيْءٌ مِمَّا أَرَادَهُ ، وَأَنْكَرَ الْوُزَرَاءُ الْمُدَبِّرُونَ
 قَرْطُبَةَ أَمْرِهِ ؛ فَتَجَرَّدُوا^(٣) لَطْلِبِهِ وَطَلِبَتِ دُعَاتُهُ ، وَسُجِنُوا وَلَمْ يُخْرَجُوا مِنْ ١٥

(١) تَرْتِيبُ الْبَيْتَيْنِ الْآخِرَيْنِ مَعَكُوسٌ فِي ر

(٢) ب ، لب « اللبالي » (٣) ب : « فتجددوا »

الْحَبْسِ إِلَّا يَوْمَ جُلُوسِ صَاحِبِهِمْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ هَذَا لِلْإِمَارَةِ ؛ فَبَقِيَ مُسْتَخْفِيًا ، وَهُوَ يُدَبُّ الضَّرَاءَ فِي الدُّعَاءِ إِلَى نَفْسِهِ ، إِلَى أَنْ أَعْلَقُوهُ بِالشُّوْرَى عِنْدَ إِيقَاعِهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لظُهُورِ بَرَاعَتِهِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَيْهِ وَعَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُرْتَضَى ، وَعَلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْعِرَاقِيِّ . فَتَقَدَّمَ فِي إِحْضَارِ الْخَاصَّةِ ^(١) وَالْجُنْدِ وَالْعَامَّةِ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ لِمُشَاهَدَةِ بَيْعَةِ مَنْ يُخْتَارُ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ الْأَمْرَاءِ لِلْخِلَافَةِ ، فَغَدَا النَّاسُ لَذَلِكَ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ .

قال ابن حَيَّانَ : وَكُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ الْمَقْصُورَةَ يَوْمَئِذٍ فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ وَافَى مِنْهُمْ سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُرْتَضَى ، جَاءَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَاسِنِ الْوَزِيرِ فِي أُبْهَةِ وَشَارَةً دَلَّتْ عَلَى الْمُرَادِ فِيهِ ؛ فَدَخَلَ مِنْ بَابِ الْوُزَرَاءِ الْغَرْبِيِّ وَالشُّرُورُ بِادٍ عَلَيْهِ ، فَاسْتَقْبَلَهُ أَصْحَابُهُ وَقَدَّمُوهُ إِلَى بَهْوِ السَّابِاطِ ؛ فَأَجْلَسَ هُنَاكَ عَلَى مَرْتَبَةٍ لَا تَصْلُحُ ^{١٠} لِأَحَدٍ سِوَاهُ ، وَهُوَ يَهْجُ جَذْلَانُ ، لَا يَشْكُ فِي تَمَامِ الْأَمْرِ لَهُ ، وَأَصْحَابُهُ يَرْتَقِبُونَ مَجِيءَ ابْنِ عَمِّهِ الْمَذْكُورَيْنِ — وَقَدْ أَبْطَأَ — كَيْمَا يُحْصِلُوهُمَا عِنْدَهُ . فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ ، وَالْفَلَقُ عَلَى الْقَوْمِ بِادٍ ، إِذْ غَشِيَتْنَا ضُجَّةٌ وَزَعَقَةٌ هَائِلَةٌ أَرْتَجَّ لَهَا الْجَامِعُ وَاضْطَرَبَ لَهَا مَنْ بِالْمَقْصُورَةِ . فَإِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ هِشَامٍ قَدْ وَافَى شَرْقِيَّ الْجَامِعِ ^(٢) ، فِي خَلْقٍ عَظِيمٍ مِنَ الْجُنْدِ وَالْعَامَّةِ ، وَقَدْ تَكَنَّفَهُ أَمِيرُ الدَّائِرَةِ ^{١٥} مُحَمَّدٌ وَعُمَيْرٌ فِي رَجَالِهِمَا ، شَاهِرَيْنِ سَيْفَيْهِمَا أَمَامَهُ ، لَهَجَيْنِ ^(٣) بِاسْمِهِ ؛ فَرَأَى الْوُزَرَاءُ ذَلِكَ وَأَلْقَوْا لِلْوَقْتِ بِأَيْدِيهِمْ وَخَذَلَتْهُمْ حِيلُهُمْ ، وَدَخَلَ الْمَقْصُورَةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَبَوَّيَعَ لَوَقْتِهِ . وَاسْتُدْعِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُرْتَضَى وَجِئَ بِهِ مَبْهُوتًا فَقَبَّلَ يَدَهُ ، وَهَنَأَهُ فَأَجْلَسَهُ إِلَى جَنْبِهِ ، ثُمَّ وَافَى مُحَمَّدُ بْنُ الْعِرَاقِيِّ أَيْضًا فَقَبَّلَ يَدَهُ وَبَايَعَهُ ، ثُمَّ عَقِدَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ ، وَذَلِكَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ . ^{٢٠}

(١) ر : « الجماعة » (٢) به في ر (٣) ب ، لب : « هاتين »

- وكان أحمد بن برْدٍ قد تقدّم في عقدها باسم سليمان بن المرتضى فبشره
وحك اسمه ، وكتب اسم عبد الرحمن مكانه ، فكان ذلك من عجائب الدنيا .
ثم ركب وحمل مع نفسه أبنَى عمه سليمان وابن العراق فاحتبسهما عنده
وأنسهما وظهرت من عبد الرحمن لوقته عرامة ^(١) . وكان فتى لو أخطأته
المتألف . وكان استقل بما طلبه من السلطان جزاة وصرامة ، وركب أعناق
الخطوب وقد اعتاصت فأردته . وكان رفع مقادير مشيخة الوزراء من
بقايا مواليه بني مروان ، منهم أحمد بن برْدٍ وجماعة من الأغمار ، وكانوا عصاة
يحل بها الفتاة ، ويذهب بها العجب ؛ قدّمهم على سائر رجاله فأخذ بهم أهل
السياسة ، فانقضت دولته سريعاً ؛ منهم أبو عامر بن شهيد فتى الطوائف ،
كان بقرطبة في رفته وبراعته وظرفه خليعاً المنهك في بطالته ، وأعجب
الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، وأهتكمهم لعرضه ،
وأجراًهم على خالقه . ومنهم أبو محمد بن حزم ، وعبد الوهاب ابن عمه ، وكلاهما
من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة ونفاذاً في العلوم الرفيعة .
- وأقرّ المستظهر يومئذ على مراتب الخدمة طوائف ؛ منهم خدّمة المدينتين
الزهراء والزاهرة ، وخدمته كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمته الحشم ، وخدمته
القطع بالنّاض والطعام ^(٢) . وخدمته مواريث ^(٣) الخاصة ، وخدمته الطراز ،
وخدمته المبانى ، وخدمته الأسلحة وما يجرى مجراها ، وخدمته الخزانة
للقبض والتفقه ، وخدمته الهراية والقبض والدفع . وخدمته الوثائق ورفع كُتب
المظالم ، وخدمته خزانة الطب والحكمة ، وخدمته الأنزال والتزائل . وخدمته
أحكام السوق .

(١) : « صرامة » (٢) به في (٣) : « مراتب »

قال أبو الحسن : وَلِكُلِّ لَقَبٍ مِنْ أَصْنَافٍ ^(١) هَذِهِ الْخِدْمَةِ جَمَاعَاتُ
سَمَاءُ أَبُو مَرْوَانَ بْنِ حَيَّانٍ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا زُخْرُفٌ مِنَ التَّسْطِيرِ وَوُضِعَ
عَلَى غَيْرِ حَاصِلٍ ، وَمَرَاتِبُ نُصِبَتْ لِغَيْرِ طَائِلٍ ، تَنَافَسَهَا طَالِبُوهَا يَوْمِيذٍ بِالْأَمَلِ
فَلَمْ يَخْلَوْا ^(٢) مِنْهَا بَنَائِلُ ؛ وَلَا قَبِضُوا مِنْهَا مُرْتَزَقًا ، وَلَا نَالُوا بِهَا مُرْتَقًا ؛ وَغَرَّهْمُ
بَارِقُ الطَّمَعِ وَسَطَ بَلَدٍ مَحْصُورٍ ، وَعَمَلٌ مَعْصُوبٍ ، وَخَرَابٌ مُسْتَوَلٍ ، وَمَعَ سُلْطَانٍ
فَقِيرٍ ، لَا يَقَعُ بِيَدِهِ دَرَاهِمٌ إِلَّا مِنْ صُبَابَةٍ مُسْتَفْلٍ جَوْفَ الْمَدِينَةِ ، أَوْ مَهْبٍ مَغْلُولٍ
مَنْ تَقَلُّلَ عَنْهَا ؛ يُقِيمُ مِنْهَا رَمَقَهُ ، وَيُفَرِّقُ جَمَلَتَهُ عَلَى مَنْ تَكْنَفُهُ مِنْ جُنْدِهِ
وَدَائِرَتِهِ ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَى مَا يَقْبُحُ مِنْ ظُلْمِ رَعِيَّتِهِ ؛ فَلَمْ يَكُنْثِ الْأَمْرُ أَنْ تَفَرَّسَى بِهِ
فَسُفِكَ دُمُهُ ، وَانْحَسَمَ الْأَمَلُ مِنْ دَوْلَتِهِ . وَكَانَ قَدْ بَادَرَ فِي الْإِرْسَالِ عَنْ جَمَاعَةٍ
مِنْ وَزَرَانِهِ ، فَلَمَّا حَصَلَ جَمِيعُهُمْ عِنْدَهُ قَبِضَ عَلَيْهِمْ وَصَادَرَهُمْ عَلَى أَمْوَالٍ لَصُرُوفِهِمْ ١٠
عَنْهُ ، وَطَالَبَهُمْ نَجَاحُ الضَّاعِطِ يَوْمِيذٍ عَنْهَا . وَكَانَ قَدْ اسْتَرْجَحَهُ خَاصَّةُ النَّاسِ وَذَوُ
الْحِجَابِ مِنْهُمْ فِي الْقَبْضِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْوُزَرَاءِ ، وَاسْتَبْطَؤُوا إِبَادَتَهُ لَهُمْ وَرَجَوْا اسْتِظْهَارَهُ
عَلَى الْأَمْرِ بِإِزَالَتِهِمْ ، وَسَلَامَةَ تَدْيِيرِهِ مِنْ أَعْتِرَاضِهِمْ ، وَكَانَ قَدْ أَخْرَجَ رُسُلَهُ إِلَى
جَمَاعَةِ الرُّؤَسَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ يَلْتَمِسُ الْبَيْعَةَ ، وَيَسْتَنْفِرُ الْكَافَّةَ ، وَيَدْعُو إِلَى كُرَّةِ
الدَّوْلَةِ ؛ فَأَخْفَقَ مَا طَلَبَهُ وَعُوجِلَ ، وَلَمَّا تَقَبِضُ الْأَجُوبَةُ رُسُلَهُ ، وَاضْمَحَلَّ أَمْرُهُ ، ١٠
وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ !

وَكَانَ أَيْضًا مِمَّا حَرَّكَ النَّاسَ عَلَيْهِ اسْتِيفَانُهُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ وَلَدِ النَّاصِرِ ،
وَمُبَادَرَتُهُ لِحَبْسِ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُرْتَضَى وَابْنِ الْعِرَاقِيِّ الذَّكُورَيْنِ ، وَتَجَاوُزُهَا إِلَى
نَفَرٍ غَيْرِهِمَا أَعْتَقَلَ بَعْضًا وَطَلَبَ بَعْضًا ، حَتَّى شَمِلَهُمُ الْخَوْفُ ؛ فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ
جُرَّاءِ صَاحِبِهِ بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَشَاطِ الرُّعَيْنِيِّ دَاهِيَةً أَدْنَتْهُ مِنْ حِمَامِهِ ، وَسَعَى ٢٠

(١) ر : « أنواع » (٢) ر : « يخلوا »

إلى أن وثب عليه محمد بن عبد الرحمن المستكني، وأحسن المستظهر بشيء من ذلك فطلبه، فأعجزه؛ ولم يزل السعي عليه حتى قتل.

ذكر الخبر عن كيفية مقتله

قال ابن حيّان: وكان سبب ذلك أن حسن رأي في ابن عمران — أحد الرّهط الذين كان سجنهم — فأخرجته، فقال له بعض أصحابه: إن مشى ابن عمران في غير سجنك باعاً، بتر^(١) من عمرك عاماً! فعصاه المستظهر فيه لغالب هواه، فحاق به في الثالث رذاه؛ وكان ورد عليه قبل إطلاقه بيومين فوارس من البربر، فكرم مشواهم وأنزلهم معه في دار الملك، فأحتاج لذلك الدائرة وقالوا للامة: نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا، وتمكينهم من نواصينا؛ فهاجوا الامة، فوثبوا عليه بالقصر، وقتل البرابرة حيث وجدوا. ولم يشعر عبد الرحمن إلا والرجالة قد انتشروا على سقف القصر، وسمع المسجونون عنده هتاف الناس فاستغاثوهم، فدقوا الأغلاق^(٢) دونهم، واختلط بالحرم؛ فعلم عبد الرحمن أنه مقتول. وأحيط به من كل جهة؛ فاستغاث الوزراء: ابن جهور ولتمته، فلم يجدوا له مناصاً ولا خلاصاً، ولا يصدقون بنجاة أنفسهم وقد ذهلوا عنه بالحيلة في تخليصهم؛ فأشار عليهم الدائرة ١٥ الفسقة بتركه، والذهاب عنه؛ فجعل الوزراء يتسللون عنه واحداً بعد واحد إلى أن أفردوه. فنجاة عامة من تعجل الفرار من الوزراء وأهل الخدمة على باب الحمام من القصر فاهتدى إليه الدائرة، وأحلوا بمن خرج منه الفارقة؛ منهم أحمد بن بسيل متقلد المدينة، قتل يومئذ. وجاء عبد الرحمن إلى ذلك الباب

(١) ب : « بتر » (٢) ر : « الأغلاق »

يَطْمَعُ فِي الْخُرُوجِ ؛ فقام الدائرةُ فِي وَجْهِهِ وَزَرْقُوهُ وَهُمْ يَسْبُونَهُ ؛ فَارْتَدَّ عَلَى عَقِيهِ ، وَتَرَجَّلَ عَنْ فَرْسِهِ ، وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ، حَتَّى بَقِيَ فِي قَمِيصِهِ ؛ وَاسْتَخْفَى فِي أَبْزَنِ ^(١) الْحَمَامِ ، فَقَدَّ شَخْصَهُ ؛ وَاسْتَخْفَى الْبَرَابِرَةَ فِي الْحَمَامِ وَفِي أَكْنَافِ الْقَصْرِ فَبُحِثَ عَنْهُمْ وَقُتِلُوا . وَلَازَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ بِالْجَامِعِ فَمَتَّلُوا فِيهِ ؛ وَفُضِحَ حَرِيمُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسَبِيَ أَكْثَرُهُنَّ الدَّائِرَةُ وَحَمَلُوهُنَّ إِلَى مَنَازِلِهِمْ عَلَانِيَةً . وَجَرَى عَلَيْهِنَّ مَا لَمْ يَجْرَ عَلَى حُرَمِ سُلْطَانٍ فِي مُدَّةِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ .

قال : وَلَمَّا فَقَدَ شَخْصُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ظَهَرَ ابْنُ عَمِّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ النَّاصِرِ السَّاعِي عَلَيْهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مُتَطَمَّرًا ^(٢) فِيهِ فَهَتَفَ الدَّائِرَةُ بِأَسْمِهِ ، وَأَتَهَوْا بِهِ إِلَى دَارِ الْمَلِكِ ، فَإِذَا هِيَ بِلَاقِعُ ؛ فَأَجْلَسُوهُ فِي مَجْلِسِهَا الْقِبْلِيِّ مَبْهُوتًا ^(٣) . وَقَامَ الْفَاسِقَانِ ^(٤) مُحَمَّدٌ وَغَيْرُهُ عَلَى رَأْسِهِ بِالشُّيُوفِ مَقَامَهُمَا ١٠ بِالْأَمْسِ عَلَى رَأْسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَمِّهِ وَتَكَاثَرَتِ الدَّائِرَةُ وَالْعَامَّةُ عَلَيْهِ . وَافْتَقَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُسْتَظْهَرُ فَوَجَدُوهُ فِي أَبْزَنِ ^(٥) الْحَمَامِ قَدْ أَنْطَوَى أَنْطَوَاءَ الْحَيَةِ فِي مَكَانٍ حَرَجٍ ، فَأَخْرَجَ فِي قَمِيصٍ مُسْوَدٍّ بِحَالٍ قَبِيحَةٍ ؛ وَجِئَ بِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُسْتَكْنَى وَقَدْ بُويعَ يَوْمَ السَّبْتِ الثَّلَاثِ مِنْ ذِي قَعْدَةِ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَأَرْبَعِينَ ^(٦) ؛ فَبَطَّشَ بِهِ بَعْضُ الرِّجَالِ الْقَائِمِينَ عَلَى رَأْسِهِ ، فَتَهَلَّلَ وَجْهُ ابْنِ عَمِّهِ ، ١٥ وَأَخَذَ فِي تَدْيِيرِ سُلْطَانِهِ . فَكَانَتْ إِمَارَةُ الْمُسْتَظْهَرِ — إِلَى أَنْ قُتِلَ — سَبْعَةً وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا لَمْ تَنْتَشِرْ لَهُ فِيهَا طَاعَةٌ ، وَلَا أُلْتَأَمَتْ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ ؛ وَلَا تَجَاوَزَتْ دَعْوَتُهُ قَرْطَبَةَ . وَكَانَ سَنُهُ يَوْمَ قُتِلَ ثَلَاثًا وَعَشْرِينَ سَنَةً .

(١) ب ، لب : « أتون » (٢) ر : « مخفيا » (٣) ب : « مهبوبا »

(٤) ر : « الدائران » (٥) ب ، لب : « أتون »

(٦) لم تقع هذه الجملة إلا في ر

وكان على حدائق سنه ذكياً يقطاً ليدياً أديباً حسن الكلام جيد القريحة
مليح البلاغة يتصرف فيما شاءه من الخطابة بديهة وروية ، ويصوغ قطعاً من
الشعر مستجادة . وقد اقتضب بحضرة الوزراء في أيامه عدة رسائل وتوقيعات
لم يقصر فيها عن الغاية ، يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة وبراءة من شرب
النبيذ سراً وعلائية . وكان في وقته نسيج وحده ، خيم به فضله أهل بيته
الناصريين ، فلم يأت بعده مثله .

وهذه جملة ما وجد له من شعره : من ذلك قصيدة كتب بها إلى مُشَنَّفِ
زوج سليمان بن الحكم ، أيام خطب بنتها من سليمان المسماة حبيبة فلوته ؛
وكان بقلبه من هذه الأبنة مكاناً لنشأتها معاً في ذلك الأوان ؛ يقول فيها :

وَجَالِبَةٍ عُدْرًا لَتَصْرِفَ رَغْبَتِي ١٠ وَتَأْتِي الْمَعَالِي أَنْ تُجِيرَ لَهَا عُدْرًا

يُكَلِّفُهَا الْأَهْلُونَ رَدِّي جِهَالَةً وَهَلْ حَسَنٌ بِالشَّمْسِ أَنْ تَمْنَعَ الْبَدْرًا

وَمَاذَا عَلَى أُمِّ الْحَبِيبَةِ إِذَا رَأَتْ جَلَالَهَ قَدْرِي أَنْ أَكُونَ لَهَا صَهْرًا

جَعَلْتُ لَهَا شَرْطًا عَلَى تَعْبُدِي وَسَقْتُ إِلَيْهَا فِي الْهَوَى مُهْجَتِي مَهْرًا

تَعَلَّقْتُهَا مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ غَرِيرَةٍ (١) مُحَدَّرَةٍ مِنْ صَيْدٍ (٢) أَبَاهَا غَرًا

حَمَامَةٍ عَشٍّ (٣) الْعَبْشَمِيِّينَ رَفَرَفَتْ فَطَرْتُ إِلَيْهَا مِنْ سَرَاتِهِمْ صَقْرًا

أَقْدَطَالَ صَوْمُ الْحُبِّ عَنْكَ مَا الَّذِي يَضُرُّكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونِي لَهُ فِطْرًا

وَأِنِّي لَأَسْتَشْفِي بِمَرَى بَدَارِكُمْ هُدُوءًا وَأَسْتَسْقِي لِسَا كِنَهَا الْقَطْرًا

وَأَلْصِقُ أَحْشَائِي بِبَرْدِ تَرَاهِيهَا لِأَطْفِي مِنْ نَارِ الْأَسَى بِكُمْ جَمْرًا

فَإِنْ تَصْرِفْنِي يَا ابْنَةَ الْعَمِّ تَصْرِفِي - وَعَيْشُكَ! - كَمَا مَدَّ رَغْبَتَهُ سِتْرًا

وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطُوقَ مَفْخَرِي مِلْكِي لَهَا وَهِيَ الَّتِي عَظُمَتْ فَخْرًا

(١) ب ، لب : « غزيرة » (٢) ر : « صبر »

(٣) ر : « عيش » - ب ، لب : « بيت »

وَإِنِّي لَطَعَانٌ إِذَا الْخَيْلُ أَقْبَلَتْ جَرَانِدُهَا ^(١) حَتَّى تَرَى جُونَهَا شُقْرَا
وَإِنِّي لَأَوَّلَى النَّاسِ مِنْ قَوْمِهَا بِهَا وَأَنْسِبُهُمْ ذِكْرًا وَأَرْفَعُهُمْ قَدْرَا
وَعِنْدِي مَا يُضِيهِ الْحَلِيمَةُ ثَمِيًّا وَيُنْسِي الْفَتَاةَ الْخَوْدَ عُدْرَتَهَا الْبِكْرَا
جَمَالٌ وَآدَابٌ وَخُلُقٌ مُوَطَّأٌ وَلَفْظٌ إِذَا مَا شِئْتَ أَسْمَعَكَ السَّحْرَا

وإنه لمعها يومًا وأومأ بالسلام ، فلم تردده عليه خجلًا ، فسكتب إليها :

سَلَامٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَجِدْ بِكَلَامِهِ وَلَمْ يَرَنِ أَهْلًا لِرَدِّ سَلَامِهِ
سَلَامٌ عَلَى الرَّامِي ^(٢) الَّذِي كَلَّمَ رَمِي أَصَابَ فَوَادِي عَامِدًا بِسِهَامِهِ
بِنَفْسِي حَبِيبٌ لَمْ يَجِدْ لِمُحِبِّهِ بَطِيفٌ خَيَالٌ زَائِرٌ فِي مَنَامِهِ
أَلَمْ تَعْلَمْ يَا عَذْبَةَ الْأَسْمِ ^(٣) أَنَّنِي فَتَى فِيكَ مَخْلُوعٌ عَذَارُ لِحَامِهِ
وَأَنِّي وَفِيَّ حَافِظٌ لِأَذِمَّتِي إِذَا لَمْ يَقُلْ غَيْرِي بِحِفْظِ ذِمَامِهِ
يُبَشِّرُ ذَاكَ الشَّعْرُ شَعْرِي أَنَّهُ سَيُوصَلُ حَبْلِي بَعْدَ طُولِ أَنْصَرَامِهِ
وَمَا شَكَ طَرْفِي أَنَّ طَرْفَكَ مُسْعِدِي وَمُنْقِذٌ ^(٤) قَلْبِي مِنْ حَبَالِ غَرَامِهِ
عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ مِنْ ذِي تَحِيَّةٍ وَإِنْ كَانَ هَذَا زَائِدًا فِي أَحْتِرَامِهِ ^(٥)
وَلَهُ فِيهَا أَيْضًا :

تَبَسَّمَ عَنْ دُرٍّ تَنْصَدَّ فِي الْوَرَسِ وَأُسْفَرَ عَنْ وَجْهِ يَتِيهِ عَلَى الشَّمْسِ ^(٦)
غَزَالٌ بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ نُورِ عَرْشِهِ لَتَقْطِيعِ أَنْفَاسِي وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسِ
وَهَبْتُ لَهُ مُلْكِي وَرُوحِي وَمُهْجَتِي وَنَفْسِي وَلَا شَيْءَ أَعَزَّ مِنَ النَّفْسِ

(١) ر : « جوائدها » ؛ ب ، لب « جرايرها »

(٢) ر « الطي » (٣) ب ، لب « الماء »

(٤) ب ، لب « منعقد » (٥) ر : « احترامه »

(٦) ب ، لب : « ينوب عن »

وهو القائل :

طَالَ عُمُرُ اللَّيْلِ عِنْدِي مِذْ تَوَاعَتِ بِسَدِّي
يَا غَزَا لَّا نَقَضَ الْوَدَّ مَ وَلَمْ يُوفِ بِعَهْدِي
أَنَسِيتِ الْعَهْدَ إِذْ بَشَّنَا عَلَى مِفْرَشٍ ^(١) وَرَدِ
وَأَجْتَمَعْنَا فِي وَشَاحٍ وَأُنْتَظَمْنَا نَظْمَ عَقْدِ
وَتَعَانَقْنَا كَغُصْنَيْنِ وَقَدَّانَا كَقَدِّ
وَنُجُومِ اللَّيْلِ تَحْكِي ذَهَبًا فِي لَازُورِدِ !

وَرَفَعَ إِلَيْهِ شَاعِرٌ مِّنْ هَئَا هَئَا بِالْخِلَافَةِ يَوْمَ بَيْعَتِهِ ^(٢) شِعْرًا لَهُ كَتَبَهُ فِي رَقٍّ
مَبْشُورٍ ، وَاعْتَدَرَ مِنْ ذَلِكَ بِهَيْدِنِ الْبَيْتَيْنِ :

الرَّقُّ ^(٣) مَبْشُورٌ وَفِيهِ بَشَارَةٌ بَيَقَا الْإِمَامِ الْفَاضِلِ الْمُسْتَظْهِرِ ١٠
مَلِكِ أَعَادَ الْعَيْشَ غَضًّا شَخْصُهُ ^(٤) وَكَذَا يَكُونُ بِهِ طَوَالُ الْأَدُّهِ ^(٥)

فَأُجْزِلَ الْمُسْتَظْهِرُ بِاللَّهِ صَلَاتُهُ ، وَوَقَّعَ لَهُ عَلَى ظَهْرِ رُقْعَتِهِ بِهَذِهِ الْأَيَّاتِ :

قَبَلْنَا الْعُذْرَ فِي بَشْرِ الْكِتَابِ لَمَّا أَحْكَمْتَ مِنْ قُضَلِ ^(٦) الْخِطَابِ
وَجُدْنَا بِالْجِزَاءِ بِمَا لَدَيْنَا عَلَى قَدْرِ الْوُجُودِ بِلَا حِسَابِ
فَنَحْنُ الْمُنْعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَنَحْنُ الْغَافِرُونَ ^(٧) أَذَى ^(٨) الذَّنَابِ ١٥
وَنَحْنُ الْمُطَاعُونَ بِلَا أَمْتَرَاءِ شُمُوسِ الْمَجْدِ مِنْ فَلَاكِ الثَّوَابِ

(١) ب : « معرش » (٢) ب : « بئته »

(٣) موه (ج ١ ص ٣٢٠) : « الطرس » (٤) موه : « ملكه »

(٥) موه : « الأعصر » (٦) ب : « فضل » (٧) ب : « المغفرون »

(٨) ر : « أزر » ؛ وفي « البيان المغرب » (ج ٣ ص ١٤٠) : « لدى الرثاب »

وهو القائلُ أيضاً — زَعَمُوا — يَوْمَ الثُّنُبِ عَلَيْهِ ^(١) :

يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُنِيرُ كُنْ نَحْوَ شَهْبِكَ لِي سَفِيرُ
بِتَحِيَّةٍ أَوْدَعْتُهَا شَوْقًا بُنَيَاتِ الصَّدُورِ

- انتهى ما وجدناه من أشعار بني أمية القائمين من أول المائة الخامسة من الهجرة ابتداء من تاريخ هذا الديوان . وشرحنا بعض ما تعلق بذلك من خطب ، وأندرج أثناءه من ذكر حرب .

ونتلوه بذكر من تقدم زمانه ، واشتهر إحسانه ، وملا السامع والمجامع بياناً ؛ وسار في المغارب والمشارق ذكره وشأنه ، وملا ظهور السباسب وبطون المهارق سماعة وعيانه .

١٠

فصل في ذكر الأديب أبي عمر ^(٢) أحمد بن دراج القسطلّي
وإثبات جملة من نظم الفائق الدرر ، ونثره المعجز الورد والصدّر ،
واجتلاب ما يتعلق به ويتصل بسببه من خبر .

- قال ابن بسام : كان أبو عمر القسطلّي وقتَه لسان الجزيرة شاعراً
وأولاً حين عدّ معاصريه من شعرائها المشهورة ؛ وآخر حاملي لوائها ، وبهجة ١٥
أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها ؛ له عقد نخرها الجمول وشهم ، وبه
بدى ذكرها الجميل وختم ؛ حل اسمه من الأمانى محلّ الأنس ، وسار نظمُه

(١) ب ، لب : « وله مما قاله زعموا يوم وثوب البرابرة عليه بالداثرة التي أمرت إلى قتله »

(٢) ب : « عمرو »

ونثره في الأفاصي والأداني مسير الشمس ؛ وأحد من تضاءلت الآفاق عن
جلالة قدره ، وكانت الشام والعراق أدنى خطي ذكره .

وقد أجرى الشعالي طرفاً من أمره ، وأغرب بلمع من شعره ؛ فقال في
كتابه المترجم بـ « البيتية » : بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بضعة
الأندلس كالمثني بضعة الشام ؛ وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك . وكان
يُحيد ما ينظم ^(١) . انتهى كلام الشعالي .

وإنما ذكرته أنا — وكان من شعراء ابن أبي عامر — لأنه تراخت أيامه ،
وأغضى عنه حمائه ، حتى أخرجه المجن ، وسالت به تلك الفتن ، الكائنة صدر
المائة الخامسة من الهجرة .

وذكره ابن حيّان مُعجِباً من أخباره ، مُعرباً عن جلالة مقداره ؛ فقال :
وأبو عمر القسطلي سباق حلبة الشعراء العامرين ، وخاتمة مُحسني أهل الأندلس
أجمعين . وكان ممن طرحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرتته إلى النجعة ،
فاستقرى ملوكها أجمعين ، ما بين الجزيرة الخضراء ، فسرقسطة من الثغر الأعلى ؛
يهرُّ كلاً بمدحهم ، ويستعينهم ^(٢) على نكبتهم ، وليس منهم من يُضغى له ، ولا
يُحفظ ما أُضيع من حقه ، وأرخص من علقه ^(٣) ؛ وهو يخبطهم خبط العضاه
بمقوله ، فيصمّون عنه ، إلى أن مرَّ بعقوة مُنذر بن يحيى أمير سرقسطة ، فألقى
عصا سيّره عند من بواه ، ورحب به وأوسع قراه ؛ فلم يزل عنده ، وعند أبنه
بعده ، مادحاً لهما ، مُثنيّاً عليهما ، رافعاً من ذكرهما ، غير باغ بدلاً بجوارهما ،
إلى أن مضى بسبيله ، بعد أن جرت له رحمة الله ، على إحسانه الباهر ، في فتنة

(١) راجع « البيتية » (ج ٢ ص ٩٠) (٢) ب ، لب : « ويستعينهم »

(٣) ر : « علقه »

البرابر مع أملاك الجزيرة ، في طول الاعتبار والنجعة ، أخبار شاقة ، فيها
لذي اللب موعظة بالغة ^(١) .

وذكره أيضاً أبو عامر بن شهيد فقال : والفرق بين أبي عمر وغيره أن
أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر ^(٢) الكلام ؛ ثم زاد بما في أشعاره من الدليل
على العلم بأخبار اللغة والنسب ، وما تراه من حوكة الكلام ، وملكه لأحرار
الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة ^(٣) بحره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول
طلقه في الوصف ، وبقية ^(٤) للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره ، وراحته
بما يتعب الناس ، وسعة نفسه فيما يصيق الأنفاس . انتهى كلام ابن شهيد .

قال ابن بسام : وأنا أقول : إن من ذكره لم يوفه حقه ، ولا أعطاه
وفقه ، ولا استوفى تقدمه وسبقه ؛ ولو أوفى الأيام ، واستنفد القراطيس
والأقلام . ^(٥) وقد أثبت أنا من شعره بما يهزئ ربات الألباب ، ويظهر خفيات
الأسباب ، ومن نثره ما يهزئ ^(٥) العقول ، ويباهي الغرر والحجول ؛ ويسأى
التيجان والأكليل ، ويسهل ^(٦) التقليد والتأويل .

جملة من فصول اقتضبها من كلامه الطويل ،

١٥ فراراً من التطويل . فصل له من رقة ^(٧) :

يا سيدي ، ومن أبقاه الله كوكب سعد ، في سماء مجد ، وطائر يمن ، في

(١) له في ر (٢) ب : « أسرار »

(٣) ب : « وحشة » — لب : « وحشة »

(٤) ب ، لب ، ر : « وبقية »

(٥ — ٥) ب ، لب : « وقد أثبت من نظمه ونثره ما يهزئ الخ »

(٦) ب ، لب « يشعل » (٧) هذا الفصل ناقص في ر

أَفْنَاءُ أَمْنٍ ، مَرَجُوءًا لِدَفْعِ الْأَسْوَءِ ، مُؤَمَّلًا فِي اللَّأَوَاءِ ، وَكُنْتُ قَدْ نَشَأْتُ
 فِي مَعْقِلٍ مِنَ الْعَفَا وَالْوَفْرِ ، مُحَدِّقًا بِسُورٍ مِنَ الْأَمْنِ وَالسَّتْرِ ، حَتَّى أُرْسَلَ إِلَى
 سُلْطَانِ الْفَقْرِ ، رَسُولًا مِنْ نُوبِ الدَّهْرِ ، يُرِيدُ اسْتِنْزَالَ إِلَيْهِ ، وَخُضُوعِي بَيْنَ
 يَدَيْهِ ، فَأَيَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ عَلَيْهِ ؛ فَغَزَانِي بِكُتَائِبٍ مِنَ التَّوَائِبِ ، تَسِيرُ تَحْتَ أَلْوِيَةِ
 الْمَصَائِبِ ؛ تَبْرِقُ بِسُيُوفِ الرَّزَايَا ، وَتُشْهِرُ أَسِنَّةَ الْمَنَايَا ، يَرْمُونَ عَنْ قَسِيٍّ
 الْأَوْجَالَ ، وَيَضْرِبُونَ طُيُولَ الدُّعْرِ وَسُوءَ الْحَالِ ، بِأَيْدٍ بَاطِشَةٍ لَا تَكِلَلْ ،
 وَبَصَائِرَ ثَابِتَةٍ لَا تَمَلْ ، فَلَمْ يَرْعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَنْ تَلْقَيْتَهُمْ بِمَنْ مَعِيَ مِنْ جُنُودِ
 الصَّبْرِ ، فَافْتَتَحَ مَعْقِلِي سُلْطَانُ الْفَقْرِ ^(١) ، وَأَخَذَنِي أَسْرًا ، وَطَلَبَ مِنِّي فِدَاءَ
 لَا أَقُومُ بِهِ قَسْرًا ، فَأَوْتَقَنِي فِي قِيُودِ الْإِتْقِيَادِ ، وَشَدَّنِي فِي أَغْلَالِ الْإِصْفَادِ ،
 وَوَكَّلَ بِي الْخَيْرَةَ وَالتَّجَلُّدَ ، وَأَمَرَهُمَا أَلَّا يُطْلَقَا سَبِيلَ إِلَّا بِالْفِدَاءِ ، فَضَاقَتْ بِذَلِكَ
 مَذَاهِبِي حَتَّى أَتَى مِنْكَ رَسُولٌ يُسَمِّي حُسْنَ الثَّنَاءِ ؛ فَضَمِنَ لِي عَنْكَ فِدَاتِي ، مِنْ
 يَدَيَّ أَسْرَتِي ^(٢) ؛ وَسَيِّدِي أَوْلَى مِنْ وَفَى بَضْمَانِهِ ، وَصَدَّقَ قَوْلَ رَسُولِهِ عَلَى لِسَانِهِ .
 وَهُوَ مِنْ أُخْرَى إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ الْحَكَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : حَاشَا لِلَّهِ أَنْ أَسْتَشِفَّ
 الْحَسَنَى قَبْلَ جُؤْمِهِ ^(٣) ، وَأَسْتَكْرِهَ الدَّرَّ قَبْلَ حُفُولِهِ . أَوْ أَتَعَامَى عَنْ سِرَاجِ
 الْمَعْدِرَةِ ، وَأَرْغَبَ عَنْ أَدَبِ اللَّهِ فِي نَظَرَةٍ إِلَى مَيْسِرَةٍ ^(٤) . وَلَكِنْ :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرِّحٍ تُحْمَرُ الْحَوَاصِلُ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرٌ ^(٥)
 مَا أَوْضَحَ الْعُذْرَ لِي لَوْ أَنَّهُمْ عَذَرُوا وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بِي لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا !
 لَكِنَّهُمْ صَغُرُوا عَنْ أَرْزَمَةٍ كَبُرَتْ فَمَا اعْتَذَارِي عَنْ عَذْرَةِ الصَّغَرِ !

(٢) ب « أسيرى »

(١) نه في ب

(٣) ب : « استشفى الحسى قبل جوحه » (٤) سورة ٢ : ٢٧٩

(٥) هذا البيت للحطيمية (راجع ديوانه ص ٨٠) ويروى : « زغب الحواصل » —

راجع ياقوت مثلاً في « معجم البلدان » في مادة « مرخ »

وقد قَلَبْتُ^(١) لهم ظَهَرَ الْأُمُور ، وَمَيَّزْتُ بَيْنَ الْمَعْسُورِ وَالْمَيْسُورِ ، فَمَا وَجَدْتُ أَحْسَنَ بَدَأَ^(٢) ، وَلَا أَحَدَ عَوْدًا ، مِمَّا^(٣) أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ أَعْمَرَهُمْ أَرْضَهُ ، وَسَخَّرَ لَهُمْ بَرَّهُ وَبَحْرَهُ ، أَنْ يَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَيَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ^(٤) ؛ وَحَيْثُ نَتَقَلَّبُ^(٥) فِي كَرَمِكَ ، وَإِنْ نَأْمَنُ فِي حَرَمِكَ^(٦) ، وَحَيْثُ لَا تَوْحِشُنَا دَعْوَتُكَ ، وَلَا تَفُوتُنَا نِعْمَتُكَ ، مِنْ مُلْكِكَ إِلَى مُلْكِكَ^(٧) ، وَمِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ .

وَفِي فَصْلِ مِنْ أُخْرَى^(٧) :

وَأَعْلَلْتُ مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ قَدْ قَلَّبَ قَلْبُكَ الْكَرِيمَ لِلْأَطْفَالِ الْمَشْرِدِينَ ، الَّذِينَ دَعَوُكَ مُضْطَرِّينَ ، أَنْ تَحُلَّ عَنْهُمْ عُقْلَ النَّوَى ، وَتَكَلِّمَهُمْ إِلَى جَبَّارِ السَّمَاءِ ، الَّذِي أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَنْتَشِرُوا فِي أَرْضِهِ ، وَيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ^(٨) .

١٠

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى إِلَى عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ : حَسْبُكَ اللَّهُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ ،^(٩) وَعَلَى هُدًى مِنْ اللَّهِ^(٩) ، فِيمَا خَفَقَتْ إِلَيْهِ رَايَاتُكَ ،^(١٠) وَصَدَقَتْ بِهِ آيَاتُكَ^(١٠) ، جَدِيرٌ أَنْ يُعَزَّزَ بِطَاعَتِهِ نَصْرُكَ ، كَمَا شَرَحَ بِتَوْفِيقِهِ صَدْرُكَ ، وَيُتِمَّ بِتَأْيِيدِهِ أَمْرُكَ ، بِمَا أَوْلَيْتَ أَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَبْلَيْتَ فِي^(١١) عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ ، الْمُصَابِينَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِينَ ، أَيَّامَ تَرَاحَمَتْ إِلَيْهِمْ أَسْبَابُ الْقَضَاءِ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ . وَأَبْرَقَتْ عَلَيْهِمْ

١٥

(١) ب ، لب « قبلت » (٢) ب : « بدأ » (٣) ب ، لب « ممن »

(٤) سورة ٦٢ : ١٠ (٥) ب : « تنقلب » (٦) — (٦) نه في ب ، لب

(٧) هذا الفصل ناقص في ر (٨) راجع سورة ٦٢ : ١٠

(٩) — (٩) نه في ب ، لب (١٠) — (١٠) نه في ب

(١١) نه في ر

آفاقُ السماءِ بسُيوفِ الأعداءِ ، تَسَحُّ بِوَابِلِ الدِّمَاءِ ، ^(١) وتَمُوجُ بِأَسْرَابِ
السَّيِّئِ ^(٢) ، فَسُرْعَانِ مَا هَامُوا فَلَا وَزَرَ ، وَرَبَعُوا فَلَا مُسْتَقَرَّ ، وَنَادَوْا ^(٣) وَلَاتَ
حِينَ مَنَاصٍ وَلَا فَوْتَ ، إِلَّا مَنْ أَعْفَاهُ الْمَوْتُ ؛ فَأَصْبَحُوا أَنْفَاضَ ^(٤) الْجَلَاءِ ،
وَأَغْرَاضَ الْفَنَاءِ ، قَدْ جَهَدُوا بِالْبَلَاءِ ، وَعَيُّوا بِالْذَّاءِ الْعِيَاءِ ، فَلَنَنْ ^(٥) زُلْزَلَتْ بِهِمْ
الأَرْضُ ، لَقَدْ سَكَنَ بِهِمْ عِزُّ سُلْطَانِكَ ، وَلَنَنْ تَهَافَّتَ بِهِمِ الدُّعْرُ ، لَقَدْ أَطْمَأْنَوْا
فِي مِهَادِ أَمَانِكَ .

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى ^(٥) إِلَى مُنْذِرِ بْنِ يَحْيَى : حَيَّاكَ بِتَحِيَّةِ الْمَلِكِ ، مَنْ أَحْيَا
بِكَ دَعْوَةَ الْخَقِّ ، وَرَدَّاكَ رِدَاءَ الْإِعْظَامِ ، مَنْ أَعْلَى بِكَ لُؤَاءَ الْإِسْلَامِ ، مُجْرَى
الْأَقْدَارِ بِإِعْلَاءِ قَدْرِكَ ، وَمَصْرَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِإِعْزَازِ نَصْرِكَ ، وَمُظْهِرُ مَنْ
أَطَاعَكَ عَلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَمُدْمِرُ مَنْ عَادَاكَ ، بِسُيُوفٍ مِنْ وَالَاكَ . قَدْ جَعَلَ اللَّهُ
أَوَّلَ أَسْمَائِكَ ، أَوَّلَى بِأَعْدَائِكَ ، وَأَقْرَبَ اعْتِرَائِكَ ، صَفْوَاً لِأَوَّلِيَّائِكَ ؛ ثُمَّ سَمَّا بِكَ
حَاجِبُ الشَّمْسِ ، نَوْرًا وَأُنْسًا لِهَذَا الْإِنْسِ ، وَنَفْسَ حَيَاةٍ لِكُلِّ نَفْسٍ .

ثُمَّ أَحْيَيْتَ فَجَرَهُمْ يَا أَبْنَ يَحْيَى بِسِرَاجَيْنِ : نُورِ دِينٍ وَدُنْيَا
وَخَلَقْتَ السَّحَابَ ظِلًّا وَجُودًا فَوَسَّعْتَ الْإِسْلَامَ سَتِيًّا وَرَعِيًّا
وَتَحَلَّيْتَ مِنْ تَجِيبِ سَنَاءٍ كُنْتَ فِيهِ لِلدِّينِ وَالْمُلْكِ حَيًّا

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ ^(٦) :

وَأَكْرَمَ بِهَا أَعْرَاقًا سَرَتْ إِلَيْكَ ، وَأَخْلَقًا نَظِمَتْ عَلَيْكَ ، وَأَعْبَاءَ مُلْكٍ

(١-١) نه في ب ، لب (٢) لب : «وبادوا»

(٣) ر : «أنقاض» (٤) ب ، لب : «الغافلين»

(٥) في هذا الفصل اضطراب وأخطاء كثيرة في ب ، لب وإنما اعتمدنا على ر

(٦-٦) نه في ر

حَمَلَتْ عَاتِقَيْكَ ، وَأَعِنَّةَ خَيْلٍ أُسْلِمَتْ فِي يَدَيْكَ ، ^(١) فَإِلَيْكَ أَهْلَ الدَّلِيلِ ،
وَأَرْزَمَتِ الْجُمُولُ ^(٢) ، وَمِنْ نَدَاكَ سَقَى الْغَلِيلِ ، وَشَفَى الْعَلِيلِ ، وَفِي ذَرَاكَ بَرْدَ
الْمَقِيلِ ، وَقَصَرَ اللَّيْلُ الطَّوِيلِ ، وَبَعْلَاكَ أَمِنْ الْخَائِفِ وَعَزَّ الدَّلِيلِ ، وَبَسَنَّاكَ
هُدًى ابْنُ ^(٣) السَّبِيلِ ^(٣) سَوَاءَ السَّبِيلِ ^(٣) ، إِلَى الظِّلِّ الظَّلِيلِ ، وَالْأَمَلِ الْمَأْمُولِ ،
فَبُلِّ الْغَرِيبِ مَوْصُولِ . وَعُذْرُ الْمُسِيءِ مَقْبُولِ ، وَجَفَاءُ الضَّيْفِ مَحْمُولِ ، فَكَيْفَ
بُضَيْفِكَ الْمُجْتَابِ . إِيَّاكَ غَوْلَ الْفَقْرِ الْيَمَابِ ، وَهَوَلَ الْبَحْرِ ذِي الْعُبابِ ، يُهْدِي
إِلَيْكَ لُبَابَ الْأَلْبَابِ ، وَيُتَحَفُّكَ بِجَوَاهِرِ الْأَدَابِ ، مُتَضَائِلًا فِي أَسْمَالِ الْإِغْتَرَابِ ،
مُكْفَكِفًا ^(٤) مِنْ عِبَرَاتِ الْإِكْتِثَابِ ، يَتَسَلَّى بِسَلَامِ الْحُجَّابِ ، وَاسْتِثْلَامِ
الْأَبْوَابِ ، إِلَى أَنْ أَكْرَمْتَهُ بَرْفَعِ الْحِجَابِ ^(٥) . فَيَا رَوْحَ ثَنَانِهِ بِكُمْ الْأَحْسَابِ ^(٥) !
وَيَا فَوْحَ ^(٦) رِيَاضِهِ بِدِيمِ السَّحَابِ ! وَيَا طَيْبَ طُوبَى وَحُسْنِ مَأْبٍ ^(٧) ! لَعَنَ
نَصْرَتَ وَأَوَيْتَ ، وَوَصَلْتَ وَأَذْنَيْتَ ؛ مَا دَعَاكَ حَتَّى لَبَيْتَ ، وَلَا اسْتَشْقَاكَ حَتَّى
سَمَيْتَ ، ثَانِي عَظْفِهِ عَنِ الشَّكْوَى إِلَيْكَ ، نَاكِصَ طَرَفِهِ عَنِ الْإِدْلَالِ عَلَيْكَ ،
عَلِمًا أَنَّ الْهَلَالَ سَاعَ إِلَى الْكَمَالِ ، وَأَنَّ الْبَدْرَ مُؤَدِّ إِلَى الْفَجْرِ ، وَأَنَّ انْسِجَامَ
الْقَطْرِ زَعِيمٌ بِابْتِسَامِ الزَّهْرِ ^(٧) !

إِلَى شَجَا لَاعِجٍ فِي الْقَلْبِ مُضْطَرِمٍ
وَدَمْعٍ أَجْفَانِ عَيْنٍ قَدْ شَرَقْنَ بِهِ
دِينًا لَدَى أُسْرَةٍ ^(٨) دُنْيَا وَفَيْتَ بِهِ
جَاشَ إِلَيْكَ بِهِ مَجْرُمٍ مِنَ الْكَلِمِ
حَتَّى تَرَقَّرَقَ بَيْنَ الرِّقِّ وَالْقَلَمِ
وَرَحْمَةٍ ^(٩) وَصَلَتْ مِنْ بَدَى رَحِمِ

(٢) نه في لب

(٤) ب ، لب : « متكفكفا »

(٦) ب ، لب : « فيافرح »

(٨) ر : « أسوة »

(١-١) نه في ب ، لب

(٣-٣) نه في ب ، لب

(٥-٥) نه في ب ، لب

(٧-٧) نه في ب ، لب

(٩) ب ، لب : « حرمة »

إِذَا رَدَدْتُ سُيُوفَ الْهِنْدِ عَنْ دَمِهِ فَإِنَّمَا رُفِعَتْ^(١) عَنْ مُهَجَّتِي وَدَمِي
وَإِنْ ضَرَبْتُ رَوَاقًا دُونَ حُرْمَتِهِ فَإِنَّهَا سُتْرِي مُدَّتْ عَلَى حُرْمِي
لَهْفِي عَلَيْهِ، وَقَدْ أَهْوَتْ لَهُ نُكْبُ لَا تَسْتَقِلُّ لَهَا سَاقٌ عَلَى قَدَمِ
فَبَاتَ يَسْعَرُ بَرْدَ اللَّيْلِ مِنْ حُرْقٍ وَيَسْتَثِيرُ^(٢) دُمُوعَ الصَّخْرِ مِنْ أَلَمِ
وَمَا بَعَيْنِي عَنْ مَثْوَاهُ مِنْ وَسَنِ وَمَا بَأْذَنِي عَنْ شَكْوَاهُ مِنْ صَعَمِ

قال ابن بسام : وثّر أبي عمر رحمه الله دون نظمته الرائقة بكثير، فذلك ما أُلْمِعتُ منه بالشئ اليسير، وعوّلت على عارض شعره المتين الغزير .

ما أخرجته من قصائده السلطانيات :

حكى أبو مروان بن حيان قال : لما استوسق الأمرُ بقرطبة سليمان
حسبًا وصفناه ، تعرّض لمديحه من كان ثوى بقرطبة يومئذٍ من بقيّة الشعراء
العامريين رجاءً في ثمد نواله ، فصاغوا في مديحه أشعاراً حسنة استندموا فيها إلى
الدين والمروءة ، وأنشدوها أكثرهم في مجلس حفله علانية فأصغى وهش
ثم غلّ^(٣) المديح فما بلّ ولا رش ؛ وتمّ لذلك تقويض^(٤) الجماعة عن حضرة
قرطبة ، وتخلّى الكثير منهم عن ولايته ، فأحى^(٥) لذلك رسم الأدب بها ،
وغلّب عليها العجمة ، وانتقل أهلها من الإنسانيّة المتعارفة إلى العاميّة الصريحة ،
وفارقوا الحرّيّة^(٦) .

وكان ممن شهر امتداحه للخليفة سليمان يومئذٍ ، وحفظ كلامه من تلك

(١) ب ، لب : « رجعت » (٢) ر : « ينثر » — ب ، لب : « يستعر »

(٣) ب ، لب : « على » (٤) ب ، لب : « تعوض »

(٥) ب : « فاستجيا » (٦) ب ، لب : « الحرفة »

الطَّبَقَةُ الْعَلِيَّةُ كَبِيرُهَا أَبُو عُمَرَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ دَرَّاجِ الْقَسْطَلِيِّ وَقَدْ كَانَ إِلَى وَقْتِهِ ذَلِكَ ثُلُوثًا بَقْرُطَبَةً ، يَحْسَبُ أَنَّ سُلَيْمَانَ سَيَجِيرُهُ مِنَ الزَّمانِ ؛ وَكَانَ النَّجْمُ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِ . دَخَلَ عَلَيْهِ أَوَّلَ مَجْلِسٍ كَانَ لَهُ بِالْقَصْرِ فَأَنشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوَّلُهَا :

- شَهِدْتَ لَكَ الْإَيَّامُ^(١) أَنَّكَ عَيْدُهَا
وَأَضَاءُ مُظْلِمُهَا ، وَأَفْرَحَ رَوْعُهَا ،
وَصَفَتْ بِكَ^(٢) الدُّنْيَا فَشَبَّ كَبِيرُهَا
مَا كَانَ أَجْدَ قَبْلَ نَوَيْكَ^(٣) بِحَرْهَا
فَارْتاحَ بَيْنُكَ فِي أَبَاطِحِ مَكَّةِ
لِمَوَازِيهِ صَهْلَتِ إِلَيْكَ خُبُورُهَا
شَغَفًا بِدَعْوَتِكَ الَّتِي قَدْ طَالَمَا
حَتَّى ارْتَقَيْتَ مِنَ الْمَنَازِلِ رُتَبَةً^(٤)
فِي قُبَّةِ الْمَلِكِ الَّتِي صِنَاهَا
صَدَقَتْكَ أَيَّامُ النِّوَالِ سُيُوفُهَا
يَا سَاعَةً مَقْطُوعَةً أَرْحَامُهَا
يَوْمًا أَذِلَّ كِرَامُهُ لِلنَّامِ
وَتَوَاكَلَتْ أَبْطَالُهَا فِي كُرْبَةٍ
- لَكَ حَنٌّ مَوْحِشُهَا^(٥) وَأَبَّ بَعِيدُهَا
وَأَطَاعَ عَاصِيهَا ، وَلَانَ شَدِيدُهَا^(٦)
فِي إِثْرِ مَا قَدْ كَانَ شَابَ وَلِيدُهَا
فَالآنَ فُجِّرَ^(٧) بِاللَّيْلِ جُلُودُهَا
لِمَعَادِ أَيَّامٍ دَنَا مَوْعِدُهَا
وَكَتَائِبُ خَفَقَتْ عَلَيْكَ بُنُودُهَا
عَمَرَتْ تَهَائُلُهَا بِهَا وَنَجُودُهَا
عَزَّتْ بِهَا غُرُّ الرِّجَالِ وَصِيدُهَا
وَزَنَاتُهُ أَطْنَابُهَا وَعَمُودُهَا
ضَرَبًا وَفِي يَوْمِ النَّفَارِ عُهُودُهَا
لَا السَّيْرُ شَاهِدُهَا وَلَا مَشْهُودُهَا
وَسَطَتْ بِأَحْرَارِ الْمُلُوكِ عَبِيدُهَا
عَيَّتْ بِهَا سَادَاتُهَا وَمَسُودُهَا

(١) ب ، لب : « الأعياد »

(٢) لب : « عز موشحها »

(٣) لم يقع هذا البيت إلا في .

(٤) ب ، لب : « لنا »

(٥) ر : « يومك »

(٦) ب ، لب : « يجرى »

(٧) الأبيات الآتية إلى آخر القصيدة لم تقع إلا في .

لا يَهْتَدِي سَمْتَ النَّجَاةِ دَلِيلُهَا
حَتَّى طَلَعَتْ لَهُمْ بِأَسْعَدِ غُرَّةٍ
وَمِنْهَا :

- ٥ واستودَعُوا جَبِيَّ شُرُنْبَةَ وَقْعَةٍ
دَلَفُوا إِلَى شَهْبَاءِ حَانَ حَصَادُهَا
وَشِعَابِ قَنْتَشٍ وَقَدْ خُشِرَتْ لَهُمْ
تَرَكَوْا بِهَا ظَهَرَ الصَّعِيدِ وَقَدْ غَدَا
وَكَتَائِبُ الْإِفْرَنْجِ إِذْ كَادَتْكَ فِي (٢)
بَسْوَابِحٍ فِي لُجٍّ بِحَرِّ سَوَابِغٍ
وَلَقَدْ أَضَافُوا نَسْرَهَا وَغَرَابَهَا
شَلَوُ لَأَرْمَنْقُودِهَا (٣) حَشَدَتْ بِهِ
وَدَنُوا لَهَا فِي آرٍ (٤) تَحْتَ صَوَارِمٍ
مِنْ بَعْدِ مَا قَصَفُوا الرِّمَاحَ وَأَصْلَتُوا
فَكَانَ رُقَعَتْ لَهَا صُلْبَانُهَا (٥)
١٥ وَبِجَانِبٍ إِذْ قَدَّمَتْهَا . . . (٦)
ضَرَبُوا عَلَى الْأَخْدُودِ هَامَ حُمَاتِهِ
فِي وَقْعَةٍ قَامَتْ بِعُذْرِ سُيُوفِهِمْ
وَيَضِيقُ فِيهَا الْعُذْرُ عَنْ خَطِيئَةٍ

(١) ر : وهدهوا « (٢) ر : « كادت في »

(٣) ر : « شلولان منقودها » ، وفيه تصحيف وقع في اسم القومس الافرنجي المعروف

(٤) آر : اسم واد في جنوب الأندلس يسمى الآن Guadiaro Ermengaud

(٥) ر : « طلبانها » (٦) يياض في ر

فِيهَا رَأَيْتَ الْعِزَّ حَيْثُ تَرِيدُهُ وَسَوَابِغَ النَّعْمَاءِ حَيْثُ تُرِيدُهَا
فَأَقْبَلَ فَقَدْ سَاقَتْ إِلَيْكَ مُهَوَّرَهَا أَكْفَاءَ حَمْدٍ لَا يُدْمُ حَمِيدُهَا
بِدَعَا مِنْ النَّظْمِ النَّفِيسِ تَشَابَهَتْ فِيهَا الْجَوَاهِرُ دُرُّهَا وَفَرِيدُهَا
وَلَيْسَ بِهَا أَيَّامُ عِزٍّ كُلُّهَا عِيدٌ وَأَنْتَ لِمَنْ أَطَاعَكَ عِيدُهَا

وَمَدَحُهُ أَيْضًا بِقَصِيدَةٍ أُخْرَى أَوَّلُهَا :

٥

هَنِيئًا لِهَذَا الْمُلِكِ رَوْحٌ وَرِيحَانُ وَلِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا أَمَانُ وَإِيمَانُ
فَإِنَّ قَعِيدَ الْحِزْبِ قَدْ ثَلَّ عَرْشُهُ وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانُ
سَمِيُّ الَّذِي أُنْقَادَ الْأَنَامُ لِأَمْرِهِ فَلَمْ يَعْصِهِ فِي الْأَرْضِ إِنْسٌ وَلَا جَانُ
وَقَامَ فَقَامَتْ لِلْمَعَالِي مَعَالِمُ وَلِلْخَيْرِ أَسْوَاقُ وَلِلْعَدْلِ مِيزَانُ^(١)
وَجَدَّدَ لِلْإِسْلَامِ سُورَ خِلَافَةٍ عَلَيْهَا مِنَ الرَّحْمَنِ نُورٌ وَبُرْهَانُ
وَأَكْجَدَهَا عَهْدٌ لَا كَرَمَ مَنْ وَفَى بَعْدَهُ ، زَكَتَ مِنْهُ عُهُودٌ وَأَيْمَانُ
قَرِيبُ^(٢) النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَأَبْنُ عَمِّهِ ، وَوَارِثُ^(٣) مَا شَادَتْ فُرَيْشٌ وَعَدْنَانُ
وَمَا سَاقَتْ الشُّورَى وَأَوْجَبَهُ التَّمَقُّ وَأَوْرَثَ ذُو الثُّورَيْنِ عَمُّكَ عَثْمَانُ
وَمَا حَكَمَتْ فِيهِ السُّيُوفُ وَحَارَهُ إِلَيْكَ أَبُو الْأَمْلَاقِ جَدُّكَ مَرْوَانُ

١٠

وَمِنْهَا فِي صِفَةِ رِجَالٍ^(٤) حَرْبُهُ ، وَهُوَ مِنْ جَيِّدِ الْكَلَامِ^(٥) وَحُرِّ النَّظَامِ^(٦) :

١٥

وَقَدْ لَمَعَتْ حَوْلَيْكَ مِنْهُمْ أَسِنَّةٌ تُخَيِّلُ أَنْ الْحَزْنَ وَالسَّهْلَ نِيرَانُ
أَسْوَدُ هَيَاجٍ مَا تَزَالَ تَرَاهُمْ تَطِيرُ بِهِمْ نَحْوَ الْكَرِيمَةِ عِقْبَانُ

(٢) ب ، لب : « سمي »

(١) ر : « ميدان »

(٤) ب ، لب : « رجل »

(٣) بياض في ب ، لب

(٦) ب ، لب : « نظامه »

(٥) ب ، لب : « كلامه »

وَأَقْمَارُ حَرْبٍ طَالَعَاتُ كَأَنَّمَا عَمَائِهِمْ فِي مَوْقِفِ الرَّوْعِ ^(١) تَيْجَانُ ^(٢)
وَكُلُّ زَنَاقِيٍّ كَانَ حُسَامَهُ وَهَامَةً مَنْ لَاقَاهُ نَارٌ وَقُرْبَانُ
وَأَبْيَضُ صِنْهَاجٍ كَانَ سِنَانَهُ شِهَابٌ إِذَا أَهْوَى لِقَرْنٍ وَشَيْطَانُ ^(٣)

وَمِنْهَا فِي وَصْفِ صَلَاحٍ وَالتَّنْذِيرِ إِلَيْهِ :

وَقُلْتُ ^(٤) لَعَا لِلْعَاثِرِينَ كَأَنَّهُ نُشُورُ لِقَوْمٍ حَانَ مِنْهُمْ وَقَدْ حَانُوا
وَقَدْ أَمِنَ التَّثْرِيبَ إِخْوَةُ يَوْسُفٍ وَأَذَرَ كَهَمَ اللَّهِ عَفْوٌ وَغُفْرَانُ
وَحَنَّتْ لِدَاعِي الصَّلَاحِ بَكَرٌ وَتَغَلَّبَ وَشَقَّعَتِ الْأَرْحَامَ عَبَسٌ وَذُبْيَانُ
وَفَازَتْ قِدَاحُ الْمُشْتَرَى بِسُعُودِهَا وَسَلَّم ^(٥) بِهِرَامٌ وَأَعْتَبَ كَيَّوَانُ

وله من أُخْرَى فِي مُنْذِرٍ بِنِ يَحْيَى ، حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ صَاعِدُ اللَّغْوَى ^(٦) :

عَلَا فَحَوَى مِيرَاثَ عَادٍ وَتَبَعَ عِلْمَتَهُ الْعُلَيَّا وَنَسَبَتِهِ الدُّنْيَا
فَأَعْرَبَ عَنْ أَقْوَامٍ يَغْرُبُ وَاحْتَبَى ^(٧) فَلَمْ يَنْسَ مِنْ هُودٍ سَنَاءً ^(٨) وَلَا هَذِيأَ
وَمِنْ حِمِيرٍ رَدَّ الْقَنَا أَحْمَرَ الدَّرَى وَمِنْ سَبَأٍ قَادَتْ كِتَابَتُهُ السَّيْبَا
وَمَا نَامَ عَنْهُ عِرْقُ قَحْطَانٍ إِذْ فَدَى عُرُوقَ الثَّرَى مِنْ غِلَّةِ الْقَحْطِ بِالسَّقِيَا
وَمَا أَسْكَنْتَ ^(٩) عَنْهُ السَّكُونُ زِيَادَةً ^(١٠) وَلَا رَضِيَتْ طَيٌّ لِرَاحَتِهِ طَيًّا
وَلَا كَفَدَتْ أَسِيَّافُهُ مُلْكَ كِنْدَةٍ فَتَتَرَكُ فِي أَرْكَانٍ عِزَّتِهِ وَهَيَا

(٢) ترتيب هذا البيت والذي قبله معكوس في ر

(١) ر : « الحرب »

(٤) ر : « وقالت »

(٣) ر : « من القرن شيطان »

(٦) في القطعة التالية اضطراب في ب

(٥) ب ، لب : « وساعد »

(٨) ب ، لب : « هاء »

(٧) ر : « واحتوى »

(١٠) كذا في الأصل

(٩) ر : « وما استكنت »

ولا أَعَدَّتْهُ عن إجابة صَارِخٍ تُجِيبُ وَلَوْ حَبَوًّا إِلَى الطَّغْنِ أَوْ مَشِيًّا
وَكَانَ لَهُ فِي الْأَوْسِ مِنْ حَقِّ أُسْوَةٍ ^(١) يَنْصُبُ الْهُدَى جَهْرًا وَبَذَلَ النَّدَى خَفِيًّا ^(٢)
هُمْ أَوْرُثُوهُ نَصَرَ دِينَ مُحَمَّدٍ وَحَازُوا لَهُ فَخْرَ النَّدَى وَالْقِرَى وَحَيًّا
مَنَاقِبُ أَدَّوْهَا إِلَيْهِ وَرِاثَةً فَكَانَ لَهَا صَدْرًا وَكَانَتْ لَهُ حَلِيًّا
وَصَوْتُ ثَنَاءٍ أَسْمَعَ اللَّهَ ذِكْرَهُ لِيُسْمِعَ مِنْهُ الصَّمَّ أَوْ يَهْدِيَ الْعُمَيَّا ^٥
^(٣) وَمِنْهَا فِي وَرُودِ صَاعِدِ اللَّغْوِيِّ ^(٣) :

وَأَهْدَتْ لَهُ بَعْدَادُ دِيْوَانَ عِلْمِهَا هَدِيَّةً مَنْ وَالَى وَتُخْفَةً مَنْ حَيَّا
فَكَانَتْ كَمَنْ حَيَّا الرِّيَاضَ بَزْهَرِهَا وَأَهْدَى إِلَى صَنْعَاءٍ مِنْ نَسْجِهَا وَشِيًّا
وَحَسِبُ رُؤَاةِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَدَارَسُوا مَا ثَرَهُ حِفْظًا وَآثَارَهُ وَعِيًّا
ومنها ^(٤) :

وَيَكْفِي مُلُوكَ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ مَفْخَرٍ إِذَا أُمْتَثَلُوا مِنْ بَعْضِ أَعْمَالِهِ شَيًّْا
إِذَا لَعَنَتْ زُرْقُ الْأَسِنَّةِ حَوْلَهُ كَأَضْرَامِ نِيرَانِ الْهُومِ حَوَالِيًّا
وَقَدْ لَازَ أَبْطَالُ الْجِلَادِ بِعِطْفِهِ كَمَا لَازَ أَطْفَالُ الْجَلَاءِ بِعِطْفِيًّا
وَقَدْ قَصَّرَتْ عَنْهُ رِمَاحُ عُدَاتِهِ كَمَا قَصَّرَتْ عَنْهُمْ رِيَاشُ جَنَاحِيًّا
ومنها :

فِيَالِكَ مَنْ ذِكْرِي سَنَاءً وَرِفْعَةً إِذَا وَضَعُوا فِي التُّرْبِ أَيْمَنَ مَسْقِيًّا ^(٥)
وَفَاحَتْ لِيَا لِي الدَّهْرِ مَنِيَّ مَيِّتًا فَأَخْزَيْنَ أَيَّامًا دُفِنْتُ بِهَا حَيًّا

(١) ب : « الأفق » (٢) ر : « وبدل العدا »

(٣-٣) هـ في ب ، لب (٤) مكتوبة بعد هذا البيت في ب ، لب

(٥) ر ، لب : « شقيا » — ب : « سقيا »

وكان ضياعي حسرةً وتندماً
وأصبحت في دار الغنى عن ذوى الغنى
سوى حسرتي عرض وجه تضرعاً
فيا عبرتي سحى لعل مبلل
ويا زفرتي هل في وقودك جذوة
ويا خلتي إن سوف الغوث بالمنى
فقوما إلى رب السماء فأسعدا
عسى ميت الأظاء في روضة الندى^(١)
ويا أوجه الأحرار لا تتبدلي^(٢)
إذا لم يفد شيئاً ولم يغني شيئاً
وعوضت فاستقبلت أسعد يومياً
إقارعة البلوى وكانا^(٣) عتادياً
يجريك ما أنزفت من ماء خدياً
تثير لنا صبحاً نساه^(٤) الأسى نسياناً^(٥)
ويا غلتي إن أبطأ الغيث بالشغياً
تقلب وجهي في السماء وكفياً^(٦)
سيرجع عن رب السماء وقد حياً
بطل ابن يحيى بعد ظلاً ولا فياً

وله فيه من أخرى :

لبيك ! أسمعنا نداءك ودوننا
فسريت في حرم الأهل مظلماً
ظعن ألفن القفر في غول الدجى
يطلبن لج^(٧) البحر حيث تقاذفت
هيم وما يغبين دونك مؤرداً
من كل نضو الال محبوبك المنى

(٢) ر : « شاه »

(٤) ب : « الأظاع »

(٦) ب ، ب : « أحيا »

(١) في جميع النسخ : « وكان »

(٣) ر ، ب : « مسيا »

(٥) ر : « الثرى »

(٧) ر . « موج »

بُذِنُ فَدَتُ مِنَّا دِمَاءَ نُحُورِهَا
نَحَرْتُ بِنَا صَدْرَ الدَّبُورِ فَأَنْبَطْتُ
خُوصٌ نَفَحْنُ بِنَا الْبَرَى حَتَّى انْتَنَتْ
وَصَبْتُ إِلَى نَحْرِ^(٢) الصَّبَافِاسَةِ تَخْلَصْتُ
نَذَرْتُ لَنَا^(٣) أَلَّا تُلَاقِي رَاحَةَ
لِلَّهِ أَيْ أَهْلَةَ بَلَغَتْ بِنَا
فَإِنَّ صَفَا مَاءَ الْحَيَاةِ لَدَيْكَ لِي
وَأَنْ خَلَعْتَ عَلَى بَرْدًا أَخْضَرًا
وَمِنْهَا :

أَبْنَى لَا تَذْهَبُ بِنَفْسِكَ حَسْرَةً
فَلَنْ تَرَكْتَ اللَّيْلَ فَوْقَ دَاجِيَا
وَحَلَلْتَ أَرْضًا بُدَّتْ حَصْبًا وَهَاجَا
وَلَتَعْلَمِ الْأَمْلاَكُ أَنَّي بَعْدَهَا
وَرَمَى عَلَى رِذَاءِهِ مِنْ دُونِهِمْ
ضَرَبُوا قِدَاحَهُمْ عَلَى قَفَازِ بِي
عَنْ غَوْلِ رَحْلِي مُنْجِدًا أَوْ مُغَوِّرًا
فَلَقَدْ لَقِيتُ الصُّبْحَ بَعْدَكَ أَزْهَرَا
ذَهَبًا يَرِفُ لِنَاطِرِي وَجَوْهَرَا
أَلَقِيتُ كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا
مَلِكٌ تُخَيِّرُ لِلْعُصَا فَتَخَيِّرَا
مَنْ كَانَ بِالْقَدَحِ الْمَعْلَى أَجْدَرَا

وَمِنْهَا :

كَأَنَّ وَقَدْ آتَسْتُ مِنْ هُودٍ هُدًى
وَأَصَبْتُ فِي سَبَأٍ مُورَثَ مُلْكِهَا
وَلَقِيتُ يَعْرُبَ فِي الْقِيُولِ وَحَمِيرَا
يَسْبِي الْمُلُوكَ وَلَا يُدْبُ لَهَا الضَّرَا

(١) هذا البيت ناقص في ب (٢) ر : « بحر »

(٣) ب ، ب : « بنا »

فكأنما تابعتُ تبَّعَ رافعاً
والحارثَ الجفنيَّ ممنوعَ الحمي
وحطَّطتُ رَحلي بينَ نارِي حاتمٍ
ولقيتُ زَيْدَ الخَيْلِ تحتَ عَجاجةٍ
وعقدتُ في يَمَنِ مَوائِقَ ذِمَّةٍ
وأُتيتُ بِجَدِّكَ^(٣) وهو يرفعُ منبراً
وخطَّطتُ بينَ جفانِها وجُفونِها
تلكَ البُذورُ تتابعتُ وخلفتها
أعلامُهُ مَلِكاً يدينُ لَهُ الورى
بالخَيْلِ والآسادِ مَبذُولَ القرى
أَيَّامَ يَقْرِي ، مُوسِراً أو مُعْسِراً
تَكسُو غَلانِلُها^(١) الجِيادُ الصُّمرا^(٢)
مَشْدودَةَ الأسبابِ مُوثَّقةَ العرى
للدينِ والدُّنيا ويخفُضُ منبراً
حَرَمًا أَبَتْ حُرْمَتُهُ أَنْ تُخْفَرا
سَعياً فَكُنْتَ الجَوْهَرَ المُنْتَخِرا

قال أبو الحسن: أراه احتذى في هذه الأبيات الأخيرة خذو أبي

١٠ الطَّيِّبُ^(٤) في ابن العميد^(٥) حيث يقول:

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرَابِ أُنِّي بَعْدَهَا
وَلَقِيتُ بِطَلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ
وَلَقِيتُ كُلَّ الفاضِلينَ كَأَنَّمَا
نُسِقُوا لَنَا نَسَقَ الحِسَابِ مُقَدِّمًا
جَالَسْتُ رَسْطَاليسَ والإِسْكَندَرَا
مُتَبَدِّياً في مُلْكِهِ مُتَحَضِّراً
رَدَّ الإِلَهُ نَفُوسَهُمُ والأَعْصُرَا
وَأُنِّي «فَذَلِكَ» إِذْ أُتِيتُ مُوَحَّراً

١٥ وقوله «خَوْصٌ نَفَجَنَ بِنَا الْبَرَى» البيت^(٦)، مَعْنَى مشهور وهو في الشعر

كثيرٌ «ومنه قولُ بعضِ أَهْلِ العصرِ وهو أَبُو جَعْفَرِ بنِ هُرَيْرَةَ التَّطِيلِيُّ
يَصِفُ إِبِلًا:

(١) ر: «علايها» (٢) ر: «الصخرا»

(٣) ر: «مجدك» (٤) راجع ديوانه (ج ١ ص ٣٦٩)

(٥) ر: «أرى القسطلي ذهب مذهب أبي الطيب حيث يقول في قصيدة يمدح بها

(٦) راجع ص ٥٧ س ٣ ابن العميد

كَانَصَافِ الْبُرَى وَتَدَقُّ^(١) عَنْهَا شَوَاهَا دِقَّةً تَسَعُ الْجَلَالَ^(٢)
وكذلك قوله : « اللَّهُ أَيْ أَهْلُهُ^(٣) » البيت ، كقول أبي جعفر المذكور :
كُلُّ عَوْجَاءٍ^(٤) كَالْهَلَالِ عَلَيْهَا كُلُّ ذِي تُدْرَا^(٥) كَبَدْرِ الْكَمَالِ
وَأُنْشِدْتُ لَابْنَ بَيْعِ السَّبْتِي :

وَرَدْتُ بِهَا التَّنُوفَةَ وَهِيَ بَدْرٌ فَلَمْ أَصْدُرْ بِهَا إِلَّا هَلَالًا ٥
وقوله : « وَرَمَى عَلَى رِءَاةٍ مِنْ دُونِهِمْ » أشار إلى لفظ الهذلي دون معناه
وهو :

وَلَمْ أَذِرْ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِءَاةً سِوَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضٍ
وَذَكَرَ الرَّوَاةُ أَنَّهُ لَا تَعْرِفُ الْعَرَبُ رَجُلًا مَدَحَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُ أَبِي خِرَاشٍ
الْهَذَلِيِّ هَذَا ، وَكَانَ خِرَاشٌ وَعَمَّهُ عُرْوَةُ غَزَوْا فَأَخِذَا ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِمَا ، فَهَاهُمْ ١٠
بُنُو دَارِمٍ وَأَبَى بَنُو هَلَالٍ إِلَّا قَتَلَهُمَا ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي دَارِمٍ فَأَلْقَى عَلَى خِرَاشٍ
رِءَاةً ، وَشَغِلَ الْقَوْمُ بِقَتْلِ عُرْوَةَ ، وَقَالَ الرَّجُلُ لَخِرَاشٍ : أَنْجِ ، فَتَجَا إِلَى أَبِيهِ
وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ فَقَالَ الْآيَاتُ الَّتِي أَوَّلُهَا :

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَحَكَى عَلَى بْنِ الْعَبَّاسِ النَّوْبَخْتِي قَالَ : قَالَ لِي الْبُخْتَرِيُّ : أَتَدْرِي مِنْ أَيْنَ ١٥
أَخَذَ أَبُو نُوَّاسٍ قَوْلَهُ :

وَلَمْ أَذِرْ مَنْ هُمْ غَيْرَ مَا شَهِدَتْ بِهِ بِشَرِّ سَابِطِ الدِّيَارِ الْبَسَاسِ^(٦)

(١) ب : « ويرى » (٢) و : « وتدقُّ عما سواها دقة تسع الخلا »

(٣) راجع ص ٥٧ س ٦ (٤) ر : « هوجاء »

(٥) ر : « تدرك » (٦) راجع ديوان أبي نواس (ص ٢٩٥)

فقلتُ : لا ، قال : مِنْ قَوْلِ أَبِي خِرَاشٍ : « وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِداءَهُ »
الْبَيْتُ ، قلتُ لَهُ : وَالْمَعْنَى مُخْتَلِفٌ ، قال : أَمَا تَرَى حَدَوْهُ الْكَلَامَ وَاحِدًا ؟

وقال القسطلي يمدح الوزير أبا الأصْبَغِ عيسى بن سعيد القطّاع :

أَفِي مِثْلِهَا تَنْبُو أَيَادِيكَ عَنْ مِثْلِي وَهَدَى الْأَمَانِي فِيكَ جَامِعَةَ السُّبُلِ
وقد أَمِنَ الْمِقْدَارُ مَا كُنْتُ أَتَّقِي وَأَرْخَصْتَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتُ أَسْتَعْلِي
وَأَدْعَنَ صَرْفُ الدَّهْرِ سَمْعًا وَطَاعَةً إِمَّا فَهَتَ مِنْ قَوْلٍ وَأَمَضَيْتَ مِنْ فَعْلٍ
وَنَادَيْتَ بِالْإِنْعَامِ فِي الْأَرْضِ وَالتَّقَاتِ بِيَمْنَاكَ أَشْتَاتُ الطَّرَائِقِ وَالسُّبُلِ
وَهَذَا مُقَامِي مُنْذُ تِسْعٍ وَأَرْبَعٍ رَجَائِي فِي قَيْدٍ وَحَظِّي فِي غُلٍّ
كَأَنِّي لَمْ أَخْلُلْ ذَرَاكَ وَلَمْ أَقِمْ مُنَاخَ الْمَطَايَا فِيهِ مُرْتَهَنَ الرَّحْلِ
وَأَغْضَى عَنِ الْبَرْقِ الَّذِي شِمَّ^(١) لِلْحَيَا وَأَعْقَدَ بِجَبَلٍ مِنْكَ بَيْنَ الْوَرَى حَبْلِي
وَلَمْ تُصَفِّنِي خُلُقًا أَرْقَ مِنَ الْهَوَى وَلَمْ تُوَانِي نُعْمَى أَلَدَّ مِنَ الْوَصْلِ
وَلَمْ تَتَّنِ عَنِّي فِي مَوَاطِنَ^(٢) حَجَّةٍ سَيْوَفًا حَدَادًا قَدْ سُلِّنَ عَلَى قَتْلِي
وَلَمْ أَطُو سِنَّ الْإِكْتِهَالِ مُحَاكَاً إِلَيْكَ خُطُوبًا شَتَبَتْ مَفْرَقَ الطُّفْلِ
وَكُنْتُ وَمِفْتَاحُ الرِّغَائِبِ ضَائِعٌ مَلَاذِي فَهَذَا بَابُهَا ضَائِعُ الْقُفْلِ
وَإِنِّي فِي أَفْيَاءِ ظِلِّكَ أَشْتَكِي شَكِيَّةً مُوسَى إِذْ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ^(٣)

^(٤) وهذا البيت من لفظ القرآن العزيز^(٥) ، وقد أقدمت على مثل هذا جماعة
من الشعراء من محدثين وقدماء ؛ فمن غالٍ مُتَسَوِّرٍ وَمِنْ آخِذٍ مُعْتَدِرٍ^(٦) ، قال
أبو العلاء المعري^(٧) :

(١) مر في ب (٢) ر : « مواصل » (٣) هذان البيتان ناقصان في ب

(٤) يبدأ من هنا خرم قدر ملزمة في مخطوطة لب وسينبه على رجوع الكلام فيها بعد

(٥) راجع سورة ٢٨ : ٢٤ (٦) لب : « مقتدر »

(٧) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٥٣)

كُنْتُ مُوسَى وَافْتُهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فَيْكُمَا مِنْ فَقِيرٍ
وَأَخَذَهُ بَعْضُ أَهْلِ عَصْرِنَا وَهُوَ حَسَّانُ بْنُ الْحَبِيبِ فَقَالَ لِلْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ :
كَيْنَتْ شُعَيْبٍ إِذْ زُفَّتْ لِمُوسَى وَلَكِنْ لِلثَّرَاءِ هُنَا مَزِيدُ
وَمِنْ آخِرِ مَنْ رَكِبَ هَذَا الْأُسْلُوبَ فِي مُكَابَرَةِ الْحَقَائِقِ ، وَأَضَلَّ مَنْ ذَهَبَ
هَذَا الْمَذْهَبَ الْغَرِيبَ ، مِنْ الْأَجْتِرَاءِ عَلَى الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ ، الْمُنْفَتِلُ بِقَوْلِهِ :
وَقَدْ كَانَ مُوسَى حَائِقًا مُتَرَقِّبًا فَقِيرًا وَأَمَنْتَ الْمَخَافَةَ وَالْفَقْرَ
وَسَتَأْتِي قَصِيدَتُهُ هَذِهِ فِي مَوْضِعِهَا ، وَتَنْظُمُ الْقِصَّةِ عَنْهُ بِأَجْمَعِهَا ، فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ
يَقُولُ الْقُسْطَلِيُّ :

وَلِيَ النَّدَى أَصْبَحْتُ فِي دَوْلَةِ النَّدَى كَأَنِّي عَدُوُّ الْبُخْلِ فِي دَوْلَةِ الْبُخْلِ
يُقْتَلُ أَحَقُّ النَّاسِ أَحْيَا مَطَالِي لِيَأْتِيَ جَلَّ الْوَعْدُ عَنْ رُتْبَةٍ ^(١) لِلطَّلِ
وَأُبْدَى لِلْسَّعْرِ الدَّبْرِ وَجْهِي مُنَازَعًا وَقَدْ فَازَ غَيْرِي سَالِمًا بِجَنَى النَّحْلِ
وَقَالَ ابْنُ سَارَةَ الشَّنْتَرِيْنِي :

لَهَا قِسْمَةٌ بَيْنَ الرُّوَاةِ وَبَيْنَكُمْ فَمِنْ قِسْمَةٍ ضَيَّرَ وَمِنْ قِسْمَةٍ عَدَلِ
بِأَفْوَاهِكُمْ مِنْهَا جَنَى النَّحْلِ كُلَّمَا رَوَوْهَا وَفِي أَسْتَاهِكُمْ إِبْرُ النَّحْلِ ^(٢)

وَمِنْهَا :

أَوَاصِلُ آثَاءِ الْأَصَائِلِ بِالضُّحَى وَزَادِي مِنْ جَهْدِي ، وَرَاحِلَتِي رِجْلِي
وَهَذَا مِمَّا شَرَحَهُ وَأَوْضَحَهُ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ مِنَ الْمُنْسَرَحِ ^(٣) :

(١) ب : « ريبة »

(٢) هذان البيتان ناقصان في ر

(٣) نه في ر

لَا نَأَقِي تَقَبُّلُ الرَّدِيفِ ، وَلَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا ، وَمِشْفَرُهَا
وَمِنْهَا :

إِذَا أَحَفَتِ الْفُرْسَانُ غُرَّ جِيَادِهِمْ
وَأِنْ أَقْبَلُوا وَالْمِسْكُ يَنْدَى عَلَيْهِمْ
وَأِنْ شَغِلُوا لَهُوًّا بِأَنْعَمِ كَفِّهِ
أَقْرُ عِيُونَ الشَّامِتِينَ وَلَيْتَنِي
أَمْرُ بِهِمْ أَلْقَى الثَّرَى وَكَأَنَّمَا
إِذَا الْأَسَدُ الضَّرْعَا مُنْفَذَ مَقْتَلِي
وَأِنْ ذَابَ خُرُّ الْوَجْهِ مِنْ حَرِّ نَارِهِمْ
وَمِنْ شَيْمَةِ الْمَاءِ الْقَرَّاحِ — وَإِنْ صَفَا —
وَلَا وَرَرَ إِلَّا وَزِيرُهُ لَهُ يَدُ
أَبَا الْأَصْبَغِ الْمَغْنَى هَلْ أَنْتَ مُضَرِّخِي
فَأَكْسُولِكَ الْأَيَّامِ مِنْ حُرِّ مَا أَتْنِي
وَحَتَّى مَتَى أُعْطِيَ الزَّمَانُ مَقَادَتِي
أَيَحْتَقِبُ^(١) الرُّكْبَانُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَيَنْتَقِلُ الشَّرْبُ الدَّمَائِي بَدَائِعِي
وَضَيْفُ بَحِيثِ الطَّيْرِ تُدْعَى إِلَى الْقَرَى

خَصَّفْتُ بِرَجُلِي^(٢) مَا تَمَزَّقَ مِنْ نَفْعِي
أَتَيْتُ وَقَدْ ضَمَخْتُ مِسْكَانَ الْوَحْلِ^(٣)
فَخِدْمَتُهُ لَهْوِي وَطَاعَتُهُ شَغْلِي
أَبْرَدُ مَا تَطْوِي الصُّدُورُ مِنَ الْغِلِّ
فَوَادِي مِنْ أَخْدَاقِهِمْ غَرَضُ النَّبْلِ
فَمَا فَرَعِي إِلَّا إِلَى الْأَرْقَمِ الصَّلِّ
فَمَا مُسْتَعَاثِي مِنْهُ إِلَّا إِلَى الْهَمْلِ
إِذَا اضْطَرَمَّتْ مِنْ تَحْتِهِ النَّارُ أَنْ يَغْلِي
تُمْلُ عَلَى أَيْدِي الرَّبِيعِ فَتَسْتَمْلِي
وَهَلْ أَنْتَ لِي مُغْنٍ وَهَلْ أَنْتَ لِي مُعْلِي؟
وَأَمَّا سَمْعُ الدَّهْرِ مِنْ سِحْرِ مَا أُمْلِي
وَقَدْ قَبَضْتُ كَفِّي عَلَى قَائِمِ النَّصْلِ؟
عَرَائِبُ أَنْفَاسِي وَالْفَاكُ فِي الرَّجْلِ؟^(٤)
وَهَيْهَاتَ لِي مِنْ لَذَّةِ الشَّرْبِ وَالنَّقْلِ
يَضِيقُ بِهِ رَحْبُ الْمَبَاءَةِ وَالنَّزْلِ

(١) راجع ديوان المتنبي (ج ١ ص ١٩٨) (٢) ب : بوجهي

(٣) ر : « أيجنب »

(٤) ر : « الرجل »

(٥) ب : « الرجل »

وَسَيْفٌ يُقَدُّ الْبَيْضَ وَالزَّغْفَ مُقَدِّمًا يَرْوَحُ بِلا غَمْدٍ وَيَعْدُو بِلا صَقْلٍ
وَذُو غُرَّةٍ مَعْرُوفَةُ السَّبْقِ فِي الْمَدَى وَقَدْ قَرِحَ التَّحْجِيلُ مِنْ حَلْقِ الشَّكْلِ

قوله : « وَمِنْ شَيْمَةِ الْمَاءِ الْقَرَّاحِ » البيت ، هو قول ابن أبي عُمَيْنَةَ الْمُهَاجِي :
وَلَا بُدَّ لِلْمَاءِ فِي مِرْجَاسٍ عَلَى النَّارِ مَوْقُودَةً أَنْ يَفُورَا

وَيَنْظُرُ أَيْضًا مَعْنَاهُ — مِنْ طَرَفٍ عَلِيلٍ — إِلَى بَيْتِ عُمَارَةَ بْنِ عَقِيلٍ ^(١) :

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا نَظْفَةٌ بِقَرَارَةٍ إِذَا لَمْ تُكَدَّرْ كَانَ صَفْوًا غَدِيرُهَا
وَأَخَذَهُ الْمَعَرِّي ^(٢) وَزَادَ فِيهِ حَتَّى كَادَ يُخْفِيهِ فَقَالَ :

وَالْحِلُّ كَالْمَاءِ تَبْدُو لِي ضَامِرُهُ مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الْكَدَرِ
وقوله : « وَذُو غُرَّةٍ » البيت ، مِنْ قول أَبِي الطَّيِّبِ ^(٣) :

وَإِنْ تَكُنْ مُحْكَمَاتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُنِي ظُهُورَ جَرِي فَلِي فِيهِنَّ تَضْهَالُ ^(٤)
وقال أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّي ^(٥) يَصِفُ قَصِيدَتَهُ مِنْ جُمْلَةِ أَبْيَاتٍ فَقَالَ :

حُجِلَتْ فَلَمْ يَرَهَا الَّذِي قِيدَتْ لَهُ وَعَدَتْ بِآفَاقِ الْبِلَادِ تَجُولُ
كَالطَّرْفِ يُقْلِقُهُ الْمَرَّاحُ صَبَابَةً بِالْجَرِيِّ وَهُوَ مَقِيدٌ مَشْكُولُ
وقال أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ زَيْدُونَ ^(٦) :

تَوَى صَافِنًا فِي مَرَبِطِ الْهُونِ يَشْتَكِي بِتَضْهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَدَى الشَّكْلِ

(١) راجع « الكامل » للمبرد (ص ١٩)

(٢) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٣٣) (٣) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٦٩)

(٤) من قوله : « قوله وَمِنْ شَيْمَةِ الْمَاءِ » إلى هنا لم يقع كله في باب وإنما هو مذكور

في باب بعد البيت : « وَمِنْ شَيْمَةِ الْمَاءِ الْقَرَّاحِ »

(٥) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ١٨٦) (٦) راجع ديوانه ص ١١٤

وكرّره ابن زَيْدُون في مَوْضِعٍ آخَرَ^(١) ، فقال :
وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّوِصَافِينَ تَخَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطٌ
وقال عبدُ الجليل^(٢) للمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّاد^(٣) من حُجَّةِ أَيْيَاتٍ هِيَ ثَابِتَةٌ فِي مَوْضِعِهَا
من هذا المَجْمُوعِ^(٤) :

• أَنْتَ عَلَى خَلَائِفِهَا حِيَاصٌ وَإِنْ كَانَ الصَّيَاحُ لَهَا شِكَالاً

وقال القسطلاني يمدح المرتضى ، آخر ملوك بني مروان ، من قصيدة أولها :
جِهَادُكَ حُكْمُ اللَّهِ ، مَنْ ذَا يَرُدُّهُ ؟ وَعَزْمُكَ أَمْرُ اللَّهِ ، مَنْ ذَا يَصُدُّهُ ؟
وَطَائِرُكَ الْيَمْنُ الَّذِي أَنْتَ يَمْنُهُ وَطَائِعُكَ السَّعْدُ الَّذِي أَنْتَ سَعْدُهُ

يقول فيها :

١٠ وَبَيْعَةُ رِضْوَانٍ رَعَى اللَّهُ حَمَمَهَا
فَأَصْبَحَ فِي رَأْسِ الرِّيَاسَةِ تَاجُهُ
مَسَرَّتُهُ مَأْوَى الْغَرِيبِ وَسِترُهُ ،
وَأَجْنَادُهُ^(٥) فِي مَوْقِفِ الرُّوعِ رَوْضُهُ
نَلَاعِبُ آرَامِ الْفَلَاحِ مِنْ هَبَاتِهِ ،
وَنَفْتَرَشُ^(٦) الدِّيبَاجِ مِنْ جُودِ كَفِّهِ
١٥ وَمَنْ بَرَّحَ الْبَيْضُ الْحِسَانُ بِوَجْدِهِ
وَكُلُّ إِمَامٍ نَاصِرٍ أَنْتَ صِنُوهُ
إِمْنٌ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ إِذَا غَابَ جَدُّهُ
وَنُظْمٌ فِي جَيْدِ الْخِلَافَةِ عَقْدُهُ
وَلَدَّتْهُ خَيْرُ الْمُقَلِّ وَرَفْدُهُ
وَأَعْلَامُهُ فِي مَوْرِدِ الْمَوْتِ^(٧) وَرَدُّهُ
وَأَرَامُهُ غُرُ الطَّرَادِ وَجُرْدُهُ
وَمَا فَرَشُهُ إِلَّا الْجَوَادُ وَلِبْسُهُ
فَبِالْبَيْضِ فِي الْهَيْجَاءِ بَرَّحَ وَجْدُهُ
وَكُلُّ إِمَامٍ قَاهِرٍ أَنْتَ نَدُّهُ

(١) راجع ديوانه ص ١٥ (٢) يعني عبد الجليل بن وهبون

(٣-٣) نه في ر (٤) ب : « وأجندته »

(٥) ر : « المزن » (٦) ب : « ويفترس »

نَمَوْكَ إِلَى بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَابْتَنَوْا لَكَ الشَّرَفَ الْفَرْدَ الَّذِي أَنْتَ فَرَدُهُ
فَأَفْخِرْ بِمَنْ قُرْبُ النَّبِيِّينَ فَخْرُهُ وَأَعْجِدْ بِمَنْ مَجْدُ الْخَلَائِفِ مَجْدُهُ^(١)

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى فِي الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى وَأَنَّ بَيُوتَ الْعَاجِزِينَ^(٢) قُبُورُ
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَأَنَّهُ لَتَقْبِيلِ كَفِّ الْعَامِرِيِّ سَفِيرُ
ذَرِينِي أَرِدْ مَاءَ الْمَقَاوِزِ آجِنًا إِلَى حَيْثُ مَاءَ الْمَكْرُمَاتِ نَمِيرُ
فَإِنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضُمَّنُ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ

وَمِنْهَا فِي وَصْفٍ وَدَاعِهِ لِمَنْ تَخَلَّفَهُ ، وَذَكَرَ أُنْبَاهِ الصَّغِيرِ ، بِمَا لَا شَبِيهَ لَهُ
وَلَا نَظِيرَ^(٣) ، وَلَا مَثِيلَ وَلَا عَدِيلَ :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّهُ وَزَفِيرُ
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمُدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْعُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ^(٤)
عَيَّ بِمَرْجُوعِ الْخَطَابِ ، وَلَفْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ الثُّفُوسِ خَبِيرُ
نَبَوًّا مَمْنُوعِ الْقُلُوبِ وَمُهْدَتُ لَهُ أَذْرُعُ مُحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
فَكُلُّ مُفْدَاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعُ وَكُلُّ مُحْيَاةِ الْمَحَاسِنِ ظِيرُ
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ^(٥) وَقَادِنِي رَوَاحُ بَتْدَابِ^(٦) الشَّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ
لَنْنُ وَدَعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي عَلَى عَزْمِي مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ

(١) لم تقع هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة إلا في . (٢) ب : « الفاجرين »

(٣) ر : « بما ليس له من شبيه ولا نظير » (٤) لم يقع هذا البيت إلا في .

(٦) ر : « إعداده »

(٥) نه في ب

وَلَوْ شَهِدْتَنِي وَالْهَوَاجِرُ تَلْتَطِي
أُسَلِّطُ حَرَ الْهَاجِرَاتِ ^(١) إِذَا سَطَا ^(٢)
وَأَسْتَشِقُّ النَّكْبَاءَ وَهِيَ بَوَارِحُ
وَالْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبَانِ تَلَوْنُ
عَلَى وَرَقَرَأَقُ السَّرَابِ يَمُورُ
عَلَى حُرٍّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ
وَأَسْتَوِطِي الرَّمْضَاءَ وَهِيَ تَقُورُ
وَاللِّدْعَرُ فِي سَمْعِ الْجَرَى صَفِيرُ

وَمِنْهَا ^(٣) :

وَقَدْ خَيَّلَتْ طُرُقَ الْمَجَرَّةِ أَنَّهَا
وَدَارَتْ نَجُومُ الْقُطْبِ حَتَّى كَانَهَا
لَقَدْ أَيقَنْتُ أَنَّ الْمَنَى طَوْعُ هَمَّتِي
عَلَى مَفْرَقِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ قَتِيرُ
كُوُوسُ مَهَا وَالْيَ بَيْنَ مُدِيرُ
وَأَنِّي بَعْطَفِ الْعَامِرِيِّ جَدِيرُ

وَمِنْهَا :

وَلَمَّا تَوَافَوْا لِلسَّلَامِ وَرُفِّعَتْ
وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ دُونَهَا
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ أَعَزَّازَهَا
وَكَيْفَ أَسْتَوَى بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَجْلِسُ
فَجَاءُوا عَجَالًا وَالْقُلُوبُ خَوَافِقُ
عَنِ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ سُتُورُ
صُفُوفُ وَمِنْ بَيْضِ السُّيُوفِ سُطُورُ
وَأَيَاتِ صُنْعِ اللَّهِ كَيْفَ تُنِيرُ
وَقَامَ بَعْبُ الرَّاسِيَّاتِ سَرِيرُ
وَوَلَّوْا بَطَاءً وَالنَّوَاطِرُ صُورُ

وَمِنْهَا : ١٥

وَضَاءَلْ قَدْرِي فِي ذَرَاكَ عَوَاقِقُ
وَمَا شَكَرَ النَّخَعِي ^(٣) شُكْرِي، وَلَا وَفِي
أَثَرِنِي لِخَطْبِ الدَّهْرِ وَالْدَّهْرِ مُعْضِلُ
جَرَتْ لِي بَرَحًا وَالْقَضَاءُ عَسِيرُ
وَفَائِي — إِذْ عَزَّ الْوَفَاءُ — قَصِيرُ
وَكِلْنِي لِلْيَثِّ الْغَابِ وَهُوَ هَصُورُ

وَقَدْ تُخَفِّضُ الْأَسْمَاءَ وَهِيَ سَوَا كِنْ وَيَعْمَلُ فِي الْفِعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِيرُ
وَتَلْبُو الرُّدَيْنِيَّاتُ وَالطُّولُ وَافِرٌ وَيَبْعُدُ وَقَعُ السَّهْمِ وَهُوَ قَصِيرٌ
وله من أخرى ^(١) في ابن أَرْزَقٍ ^(٢) ، وهي ^(٣) أَيْضًا مِنْ حُرِّ كَلَامِهِ ،
وَسِحْرِ نِظَامِهِ ^(٤) :

- أَخُو ظَمًا يَمْضُ ^(٥) حَشَاهُ سَبْعُ وَأَرْبَعَةٌ وَكُلُّهُمْ ظَمَاءُ
كَأَنَّهُمْ يُوسِفُ عَدَدًا وَلَكِنْ هَذِهِ بَرَحَ الْخَفَاءِ
خُطُوبٌ حَاطَبَتُهُمْ مِنْ دَوَاهِ يَمُوتُ الْحَزْمُ فِيهَا وَالذَّهَاءُ ^(٦)
تَرَاءَتْ بِالْكَوَاكِبِ وَهِيَ ظُهُرٌ وَأَذَنَ فِيهِ بِالشَّمْسِ الْعِشَاءُ
فَهَلْ نَظَرِي تَخَقُّ ^(٧) أَوْ بَصْدَرِي وَضَاقَ الْبَحْرُ عَنْهَا وَالْفَضَاءُ
وَكُلُّهُمْ كَيُوسُفَ إِذْ فَدَاهُ مِنْ الْقَتْلِ التَّغْرُبُ وَالْجَلَاءُ
وَإِنْ سَجَنُ حَوَاهُ فَكَمْ حَوَاهُمْ سُجُونُ الْفُلْكِ وَالْقَفْرِ الْقَوَاهُ
نَقَائِدُ فِتْنَةٍ ^(٨) وَخُلُوفُ دُلٍّ أَلَدُّ مِنَ الْبَقَاءِ بِهِ ^(٩) الْفَنَاءُ ^(١٠)
وَإِنْ أَقْوَتْ مَعَانِي الْعِزِّ مِنْهُمْ فَكَمْ عَمِرَتْ بِهِمْ بَنَى ^(١١) خَلَاءُ
وَإِنْ ضَاقَتْ بِهِمْ أَرْضٌ فَأَرْضُ مَا بَكَتْ لِمِثْلِهِمُ السَّمَاءُ
شُمُوسٌ غَالَهَا ذُعْرُهُ وَبَيْنَ فَهَنْ لِكُلِّ ضَاحِيَةٍ هَبَاءُ ^(١٢)
فَكَمْ لَبِسُوا مِنَ النُّعْمَى بُرُودًا جَلَاهَا عَنْ جُسُومِهِمُ الْجَلَاءُ

(١-١) نه في ر (٢-٢) نه في ب (٣) ب : « ممض »

(٤) ر : « يروي » (٥) في ب تداخل هذا البيت في الذي قبله

(٦) كذا في الأصل — لم يقع هذا البيت إلا في ر

(٧) ب : « فقايد له » (٨) ر : « لها » (٩) ب : « العناء »

(١٠) ر : « نفر » (١١) لم يقع هذا البيت إلا في ر

رَمَتْ بِهِمُ الْحَوَادِثُ نَحْوَ مَوْلَى
وَكَمْ عَسَفُوا إِلَيْهِ لَجَّ بَحْرُ
فَمَا ظَفِرُوا بِمِثْلِكَ نَجْمٍ سَعْدٍ
وَلَكِنْ عَدَلُوا مِنْهُ حَسَابًا
كَمَا زَجَرُوا مِنْ اسْمِ أَبِيكَ فَأَلَّا
وله من أخرى (٢) :

فَمَا تَجَاوَزْتَ قَرْنَ الْمَوْتِ مُعْتَسِفًا
تَحْيِي مِنْهُ تَقْبِيلٌ وَمُعْتَنِقٌ
لَمْ أَخْلَعْ الدَّرْعَ إِلَّا حِينَ شَقَّقَهُ (٣)
وَلَا تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ
غَضَنْ تَجَرَّعَ أَنْدَاءَ الْغَمَامِ (٤) فَمَا
يَمِيسُ طَوْرًا وَسُكْرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ
فَاسْتَفْرَغَ الْخَضِرُ كُثْبَانًا (٥) تَبَاعِدُهُ
فَبِتْ تَحْتَ رُواقِ اللَّيْلِ ثَانِيَهُ
وَالسَّحَرُ يُسْحَرُ مِنْ لَفْظٍ يَنَازِعُنِي
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاها نُورُ رَاحَتِهِ
كَأَنَّمَا ذَابَ (٦) فِيهَا وَرْدُ وَجْنَتِهِ

(٢) اضطراب كثير في هذه القصيدة في

(٤) ر : « وما تحوى »

(٦) ب : « يطوق المدر »

(٨) ر : « ذيب »

(١) لم يقع هذا البيت إلا في ر

(٣) ب : « خففه »

(٥) ب : « التميم »

(٧) ب : « كُثبان »

فِيَا ظَلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ عَدِمَتْ بَدَرَ السَّمَاءِ وَفِي حِجْرِي مَضَاجِعُهُ
وَيَا حَنِينَ ظِبَاءِ الْقَفْرِ إِذْ فَقَدْتُ غَزَالَهِنَّ وَفِي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ
فَجَالَ طَرْفِي وَمَا حَازَتْ لَوَاحِظُهُ وَحَنَ صَدْرِي وَمَا ضَمَّتْ أَضَالِعُهُ^(١)
وَالطَّرْفُ مِرْآةٌ عَيْنِي أَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الصَّبَاحِ إِذَا مَا خِيفَ سَاطِعُهُ
جَوْنًا أَرِيدُ بِهِ لَيْلَ الرَّقِيبِ دُجَى وَيَسْتَنِيرُ^(٢) لِي الْإِصْبَاحَ لَا مِعَهُ
فَبَاتَ يَعْجَبُ مِنْ ظَنِّي يُصَارِعُنِي وَقَدْ يَرِقُّ عَلَى لَيْثٍ أَصَارِعُهُ
وَمَا رَأَى قَبْلَهَا قِرْنًا أَعَانِقُهُ إِلَّا وَودَّعَ نَفْسًا لَا تَرَا جِعُهُ
حَتَّى بَدَا الصُّبْحُ مُشْمَطًا ذَوَائِبُهُ يُطَارِدُ اللَّيْلَ مَوْشِيًّا أَكَارِعُهُ
كَأَنَّ جَمْعَ ضَلَالٍ حَانَ^(٣) مَضْرَعُهُ وَأَنْتَ بِالسَّيْفِ يَا مَنْصُورُ صَارِعُهُ

- قال أبو الحسن : قوله « مَوْشِيًّا أَكَارِعُهُ » : جَعَلَ ذَوَائِبَ الصُّبْحِ ١٠
مُشْمَطَةً مِنْ مُمَازَجَةِ اللَّيْلِ لَهُ ، وَجَعَلَ أَكَارِعَ اللَّيْلِ مَوْشِيَّةً مِنْ مُمَازَجَةِ الصُّبْحِ
لَهَا ، وَجَعَلَ آخِرَ اللَّيْلِ مِنْ مَوَاحِرِهِ وَهِيَ الْمُتَّصِلَةُ بِأَوَّلِ الصُّبْحِ ، وَآخِرَ الصُّبْحِ مِنْ
مَقَادِمِهِ وَهِيَ الْمُتَّصِلَةُ بِآخِرِ اللَّيْلِ ؛ وَأَصَابَ فِي الْإِشَارَةِ إِلَى التَّشْبِيهِ لِأَنَّهُ أَوْمَأَ
إِلَى أَنَّ الصُّبْحَ كَالنُّورِ الْوَحْشِيِّ وَهُوَ أَبْيَضٌ ، وَالتَّيْرَانُ الْوَحْشِيَّةُ كُلُّهُمَا بَيْضٌ ،
وَأَكَارِعُهَا مَوْشِيَّةٌ خَاصَّةٌ . وَإِنَّمَا أَلَمَ الْقَسْطَلِيُّ فِي هَذَا بِقَوْلِ أَعْرَابِيٍّ يَصِفُ ١٥
لَيْلَةً : خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ أَلْقَتْ عَلَى الْأَرْضِ أَكَارِعَهَا فَمَحَتْ صُورَ
الْأَبْدَانِ ، فَمَا كِدْنَا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِالْأَذَانِ . وَقَوْلُهُ : « فِيَا ظَلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ »
الْبَيْتُ ، مِنْ مَلِيحِ الْعَمَانِيِّ « وَقَدْ أَخَذَهُ إِدْرِيسُ بْنُ الْيَمَانِيِّ » فَقَالَ مِنْ مُجْمَلَةِ أَبْيَاتِ
هِيَ تَابِتَةٌ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ هَذَا الْمَجْمُوعِ :

(١) لم يقع هذا البيت والذي قبله إلا في ر (٢) ب : « ويسترد »

(٣) ب : « جار » — ر : « حاز »

بَدْرُ أَلَمٍ وَبَدْرُ اللَّيْلِ مُمَحَّقٌ وَالْأَفْقُ مُحْلَوْلُكَ الْأَرْجَاءِ مِنْ حَسَدٍ
تَحَيَّرَ اللَّيْلُ فِيهِ أَيْنَ مَطْلَعُهُ أَمَّا دَرَى اللَّيْلِ أَنَّ الْبَدْرَ فِي عَصْدِي؟

وله من أخرى في علي بن حمود: قال ابن بسام: وهذه القصيدة له
طويلة^(١)، وهي من الهاشميات الغر، بناها من المسك والذّر، لا من الحص
والأجر، لا بل خلدّها حديثاً على الدهر، وسرّ بها مطالع النجوم الزهر^(٢)؛
لو قرعت سمع دُعيل بن علي الخزاعي، والكُميت بن زيد الأسدي، لأمسكا
عن القول، وبرّثا إليها من القوة والحول؛ بل لو رآها السيّد الحميري، وكثير
الخراعي؛ لأقاماها بينة على الدعوى، ولتلقياها بشارة على زعمهما بخروج
الخيّل من رضوى؛ وقد أثبت أكثرها إعلاناً بجلالة قدرها، واستحساناً
لِعجزها وصدرها، وأولها:

لَعَلَّكَ يَا شَمْسُ عِنْدَ الْأَصِيلِ شَجِيتِ إِشْجُوَ الْغَرِيبِ الدَّلِيلِ^(٣)
فَكُونِي شَفِيعِي إِلَى ابْنِ الشَّفِيعِ وَكُونِي رَسُولِي إِلَى ابْنِ الرَّسُولِ
فَإِنَّمَا شَهِدْتُ فَازَ كَيِّ شَهِيدِ وَإِنَّمَا دَلَلْتُ فَأَهْدِي دَلِيلِ
عَلَى سَابِقِ^(٤) فِي قُبُودِ الْخُطُوبِ^(٥) وَنَجْمِ سَنَّا فِي غُثَاءِ الشُّيُولِ
يُنَادِي الثَّرَى لِسَقَامِ الضَّيَاعِ وَيَشْكُو إِلَى الْمَلِكِ دَاءَ الْخُمُولِ
وَعَزَّ عَلَى الْعِلْمِ مَتَوَاهُ أَرْضًا عَلَى حُكْمِ دَهْرٍ ظُلُومٍ جُهُولِ^(٥)
وَيَعْجَبُ^(٦) كَيْفَ دَنَا مِنْ عَلِيٍّ وَلَمْ تَنْفَصِمِ حَلَقَاتُ الْكُبُولِ

(١-١) نه في ر وإنما وقعت فيها بعض الألفاظ

(٢) يصح أن تقرأ هذه القصيدة بسكون اللام

(٣) ب: «سابل»

(٤) ب: «سابل»

(٥) لم يقع هذا البيت والذي قبله إلا في ر

(٦) نه في ب

وَكَيْفَ تَنْسَمُ (١) آلَ النَّبِيِّ
وَأَطْلُ وَاذْ عِزِّهِمْ مَائِلَاتُ
وَأَبْجَرُهُمْ زَاخِرَاتُ إِلَيْهِ
تَجَرَّأُ مِنْ جَنَّتِي مَأْرِبِ
وَأَبْطَأَ عَنْهُ شِفَاءُ الْعَلِيلِ
لَهُ وَهُوَ يَرْنُو (٢) بِطَرْفِ كَلِيلِ (٣)
وَيَرشُفُ (٤) فِي التَّمَدِّ الْمُسْتَحِيلِ
بِحَمَطٍ وَأَثَلٍ وَسِـدْرٍ قَلِيلِ (٥)

ومنها :

شَرِيدُ السُّيُوفِ وَقَلُّ الْحُتُوفِ
تَهَاوَتْ بِهِمْ مُضْعِقَاتُ الرُّعُوفِ
بَوَارِقُ ظُلَمَانٍ تَسِيحُ دَمًا
فَأَذْهَلْ مَرْضِعَةً عَنْ رَضِيعِ
فَمَا تَهْتَدِي الْعَيْنُ فِيهَا سَبِيلًا
وَلَا يَعْرِفُ الْمَوْتُ فِيهَا طَرِيقًا
يَكِيدُ بِأَفْلَازِ قَلْبِ مَهُولِ
دِ فِي مُدْجِنَاتِ الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
مِنْ حَمٍّ أَوْ دَمًا مِنْ قَتِيلِ (٦)
وَأَنْسَى الْحَمَامُ ذِكْرَ الْهَدِيلِ
سِوَى سُبُلِ الْعَبْرَاتِ الْهُمُولِ ١٠
إِلَى النَّفْسِ إِلَّا بَعْضُ صَقِيلِ (٧)

ومنها :

رَكِبْتُ (٨) لَهَا مَحْمَلًا لِلنَّجَاةِ
فَرُدَّتْ عَلَى عَقَبَيْهَا الْمُنُونِ
وَصِيرْتُ قَصْدَكَ فِيهِ عَدِيلِ
بَوَارِقِ مُجِيرِ وَرَأْيِ أَصِيلِ

(١) ر : « تبسم »

(٢) ب : « فريق »

(٣) ب : « كحيل »

(٤) ر : « يرجف »

(٥) لم يقع هذا البيت إلا في - (٦) لم يقع هذا البيت والذي قبله إلا في - ،

ولعله :

بوارق ظلماتها تستبيح ذمام حي أو دما من قتيل

(٧) لم يقع هذا البيت والذي قبله إلا في - (٨) ر : « وكنت »

وَقَدْ سُمِّيَتْهَا بِنَفِيسِ التَّلَادِ عَلَى أَنْفُسِ ضَاعَاتِ الدُّحُولِ
نُفُوسٌ حَنَتْ قَوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَا فَكُنَّ سِهَامَ قِسِيِ الْخُمُولِ^(١)

وَمَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ كَقَوْلِ الرَّضِيِّ مِمَّا أَنْشَدَهُ الشَّعَالِيُّ :

هُنَّ الْقِسِيُّ مِنَ الدُّحُولِ فَإِنْ سَمَا طَلَبُ فَهِنَّ مِنَ النَّجَاءِ الْأَسْهَمِ^(٢)

■ قَالَ الشَّعَالِيُّ : وَمَا أَحْسَنَ مَا جَمَعَ بَيْنَ الْقِسِيِّ وَالْأَسْهَمِ ، وَمَا أَرَاهُ سُبِقَ إِلَيْهِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ عَصْرِنَا وَهُوَ عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ عَبْدِ دُونٍ مِنْ جُمْلَةِ أَبْيَاتِ هِيَ ثَابِتَةٌ بِمَوْضِعِهَا مِنْ هَذَا الْمَجْمُوعِ :

جَوَانِحُ كَالْقِسِيِّ رَمَتْ ثَبِيرًا بِفَتَيَانٍ — أَقِلِّي — بَلْ نَبَالِ

وَقَالَ أَبُو الْعَرَبِ الصَّقَلِيُّ :

١٠ وَحَطَّ بِنَا عَنْ نَاجِيَاتٍ كَأَنَّهَا قِسِيٌّ رَمَتْ مِنَّا الْبِلَادَ بِأَسْهَمِ

وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ الْقَسْطَلِيُّ :

وَمِنْ دُونِنَا آنَسَاتُ الدِّيَارِ نِهَابَ الْحِمَى مُوحِشَاتِ الطُّلُولِ

مَعَانِي الشَّرُورِ لِبَسَنَ الْحِدَادِ عَلَى لَابَسَاتِ ثِيَابِ الدُّهُولِ

خَطِيبَاتِ خُطْبِ النَّوَى وَالْمُهُورِ مِهَارَى عَلَيْهَا رِحَالُ الرَّحِيلِ

١٥ فَمِنْ حُرَّةٍ جُلِيتْ بِالْجَلَاءِ وَعَذْرَاءُ نُصَّتْ بِنَصِّ الزَّمِيلِ

وَلَا حَلَى إِلَّا تُجْمَانُ الدُّمُوعِ تَسِيلُ عَلَى كُلِّ خَدٍّ أَسِيلِ

قَبْدَلْنِ مِنْ طَوْلِ خَفْضِ النِّعَمِ بِشَقٍّ^(٣) الْحُزُونِ وَوَعَتْ الشُّهُولِ

(١) ر : « الخيول » (٢) راجع « يتيمة الدهر » للشَّعَالِيِّ (ج ٣ ص ١١٨ — ١١٩)

(٣) ب : « بسوء »

- وَمِنْ قِصْرِ اللَّيْلِ تَحْتَ الْحِجَالِ
وَمِنْ عَلَلِ الْمَاءِ تَحْتَ الظَّلَالِ
وَمِنْ طَيْبِ نَفْحِ بَنُورِ الرِّيَاضِ
وَمِنْ أَنْسِهَا بَيْنَ ظَنَرٍ وَتَرْبِ
وَمِنْ كُلِّ مَرَأَى مُحَيًّا جَمِيلِ
لَعَلَّ عَوَاقِبَهُ أَنْ تَسْمَ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ ، إِلَى الطَّالِبِيِّ ،
فَسَمَّى جَدُّكَ عَمْرُو الْكَرَامِ
وَضَيْفَ حَقِّي وَخُوشَ الْفَلَاةِ
وَإِنَّ أَبَا طَالِبٍ لِلضُّيُوفِ
يَرْوُحُ عَلَيْهِمْ بَغِضَ الْجَفَانِ
فَأَنْتُمْ هُدَاةُ حَيَاةٍ وَمَوْتِ
وَسَادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنَاتِ عَدْنِ
وَأَنْتُمْ خَلَائِفُ دُنْيَا وَدِينِ
وَوَالِدُكُمْ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ
تَلَدُّ بِحَمْلِكُمْ عَانِقَاهُ
وَرَحْبٌ عَلَى صَمِّكُمْ صَدْرُهُ
وَيَطْرُقُهُ الْوَحْيُ وَهَنًا وَأَنْتُمْ
وَزَوَّدَ كُمْ كُلَّ هَدْيٍ زَكِيِّ
- بِهَوْلِ الشَّرَى تَحْتَ لَيْلٍ طَوِيلِ
صِلَاءِ الْقُلُوبِ بِحَرِّ الْغَلِيلِ
تَلَطَّى أَفْجَحِ بِنَارِ الْعَقِيلِ
شُرَى لَيْلَاهَا بَيْنَ ذَنْبٍ وَغُولِ
تَلَقَّى الْخُطُوبِ بِصَبْرِ جَمِيلِ
فِيَهْدِي الْغَرِيبُ سَوَاءَ السَّبِيلِ
إِلَى الْقَاطِمِيِّ الْعَطُوفِ الْوَصُولِ
بِهَشْمِ الثَّرِيدِ زَمَانَ الْمُحُولِ^(١)
وَأَهْدَى الْقَرَى لِهَضَابِ الْوُغُولِ
لَأَطْلَبُ مِنْ صَافِيهِهِ لِلزُّوْلِ
وَيَغْدُو لَهُمْ بِالْغَرِيضِ النَّشِيلِ
وَأَنْتُمْ أَتَمُّهُ فِعْلٍ وَقِيلِ
جَمِيعِ شَبَابِهِمْ وَالْكُهُولِ
يُحْكَمُ الْكِتَابُ وَحُكْمُ الْعُقُولِ
لَكُمْ مِنْهُ مَجْدٌ حَقِّي كَفِيلِ
عَلَى حَمْلِهِ كُلُّ عِبٍّ ثَقِيلِ
إِذَا ضَاقَ صَدْرُ أَبِي عَنْ سَلِيلِ
ضَجَّعِيَاهُ بَيْنَ يَدَيِ جَبْرِئِيلِ
وَأَوْدَعَكُمْ كُلَّ رَأْيٍ أَصِيلِ

(١) هذا البيت والأبيات التي تليه إلى آخر القصيدة لم تقع إلا في ب

قوله : « من حُرِّقَ جُلِّيتَ بالجلَاء » البيت ^(١) ، كقول أبي عبد الله بن شَرَفَ الْقَيْرَوَانِي من جملة أبيات :

بَاتَ كَرْسِيهَا الْجَلَاءُ فَأَضَحَتْ فِي ثِيَابِ الْجَلَاءِ لِلنَّاسِ تُجَلَّى

قال ابن بسَّام : وانتَحَى ابنُ شَرَفٍ ، فيما وصفَ من فِتْنَةِ قَيْرَوَانِهِ .

٥ مَنَحَى الْقَسْطَلِيَّ فِي شَكْوَى زَمَانِهِ ، والحديثُ عن الفِتنِ ، فكأثرَ الْبَحْرِ بَوْشَلٍ مَشْفُوهٍ ، وجَارَى الرِّيحَ بِكَوْدُنٍ لَا فَضْلَ فِيهِ . وفي القسمِ الرَّابِعِ من هذا الديوان ^(٢) جملةٌ من شعره ، شاهدةٌ على ما أُجريتُ من ذِكْرِهِ .

وقال أبو عُمَرَ ^(٣) في الخليفة خَيْرَانَ الْعَامِرِيَّ صَاحِبَ الْمِرْيَةِ ، وهو متوجِّهُ إلى سَرَقِسطَةَ سنة سَبْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، ورأيتُ إثباتَ بَعْضِهَا لِحُسْنِهَا ^(٤) :

لَكَ الْخَيْرُ قَدْ أَوْفَى ^(٥) بَعْدَكَ خَيْرَانُ ١٠ وَبُشْرَاكَ قَدْ وَاظَكَ عَزٌّ وَسُلْطَانُ
هُوَ النَّجْمُ لَا يُدْعَى إِلَى الصُّبْحِ شَاهِدُ هُوَ النُّورُ لَا يُبْغَى عَلَى الشَّمْسِ بُرْهَانُ
إِلَيْكَ شَحَنَّا الْفَلَكَ تَهْوِي كَأَنَّهَا وَقَدْ دُعِرَتْ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غَرْبَانُ
عَلَى لُجَجٍ خُضِرَ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا تَرَامِي بِنَا فِيهَا ثَبِيرٌ وَنَهْلَانُ
مَوَائِلَ ^(٦) تَرَعَى فِي ذَرَاهَا مَوَائِلًا كَمَا عُبِدَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْثَانُ
وَفِي طَيِّ أَسْمَالِ الْغَرِيبِ غَرَائِبُ سَكَنَ شِغَافَ الْقَلْبِ شَيْبٌ وَوِلْدَانُ
يُرَدِّدُنْ فِي الْأَحْشَاءِ حَرًّا مَصَائِبُ تَزِيدُ ظَلَامًا لَيْلَهَا وَهِيَ نِيرَانُ ١٥

(٢) ب : « الكتاب »

(١) راجع من ٧٢ س ١٥

(٣) لم يقع ما يلي إلى آخر الأبيات الآتية إلا في ب

(٤) صححنا بعض روايات هذه القصيدة من كتاب « اليتيمة » للثعالبي (ج ٢ ص ٩٢ —

٩٤) ومن كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب (س ٢٤٥ — ٢٤٧)

(٦) ب : « قوائِل »

(٥) ب : « وافي »

- إِذَا غِيضَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْهَا مَدَدْنَهُ
وَأِنْ سَكَنْتْ عَنْهَا الرِّيحُ جَرَى بِهَا
يَقْلُنَ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَالْهَمُّ وَالذَّجَى
أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادُ وَهَلْ لَنَا
وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الْأَرْضِ هَلْ لَنَا
وَصَرْفُ الرَّدَى مِنْ دُونِ أَذْنَى مَنَازِلِ
تَقْسَمُهُنَّ السَّيْفُ وَالْحَيْفُ وَالْبَلَى
كَمَا اقْتَسَمَتْ أَخْدَانَهُنَّ يَدُ النَّوَى
ظَعَانُ، عُمْرَانُ الْعَاهِدِ مُقْفَرُ
هَوَتْ أَثْمُهُمْ مَاذَا هَوَتْ بِرِحَالِهِمْ
كَوَاكِبُ إِلَّا أَنْ أَفْلَاكَ سِيرَهَا
فَإِنْ غَرَبَتْ أَرْضُ الْمَغَارِبِ مَوْئِلِي
فَكَمْ رَحِبَتْ أَرْضُ الْعِرَاقِ بِمَقْدَمِي
وَإِنْ بِلَادًا أَخْرَجْتَنِي لِعَطْلُ
سَلَامٌ عَلَى الْإِخْوَانِ تَسْلِيمَ يَأْسِ
نُودَعُهُمْ شَوْقًا^(٥) بِشَجْوٍ كَمِثْلِ مَا
وَيَصْدَعُ مَا ضَمَّ الْوَدَاعُ تَفَرَّقُ
إِذَا شَرَّقَ الْحَادِي بِهِمْ غَرَبَتْ بِنَا
- بِدَمْعِ عُيُونٍ تَمْتَرِينَ أَشْجَانُ
زَفِيرُ إِلَى ذِكْرِ الْأَحِبَّةِ حَنَّانُ
تَمُوجُ بِنَا فِيهَا عُيُونُ وَآذَانُ
سِوَى الْبَحْرِ قَبْرُ أَوْ سِوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ
مِنْ الْأَرْضِ مَأْوَى أَوْ مِنْ الْإِنْسِ عِرْفَانُ
تَبَاهَى إِلَيْنَا بِالشَّرُورِ^(١) وَتَرَدَّانُ
وَشَطَّتْ بِنَا عَنْهَا^(٢) عَصُورُ وَأَزْمَانُ
فَهُمُ لِلرَّدَى^(٣) وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ^(٣) إِخْوَانُ
لَهُنَّ وَقَعْرُ الْأَرْضِ مِنْهُنَّ عُمْرَانُ
إِلَى نَازِحِ الْآفَاقِ سُمْفُ وَأُظْعَانُ^(٤) ١٠
زِمَامٌ وَرَحْلُ أَوْ شِرَاعٌ وَسُكَّانُ
وَأُنْكَرْنِي فِيهَا خَلِيطُ وَخِلَّانُ
وَأَجَزَلَتْ الْبُشْرَى عَلَى خُرَاسَانُ
وَإِنْ زَمَانًا خَانَ عَهْدِي لِخَوَّانُ
وَسَقِيًّا لِدَهْرِ كَانَ لِي فِيهِ إِخْوَانُ ١٥
أَجَابَتْ خَفِيفَ السَّهْمِ عَوَّجَاهُ مِرْنَانُ
كَالْشَّعْبِ تَحْتَ الْعَوَاصِفِ أَعْصَانُ
نَوَى يَوْمَهَا يَوْمَانِ وَالْحَيْنُ أَحْيَانُ

(١) ب : « بالسرى » (٢) ب : « عنهم » (٣-٣) بياض في ب

(٤) كذا في ب ، وهذا البيت والذي بعده لم يوجد في « أعمال الأعلام »

(٥) ب : « شجوا »

فَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَهِيقُ وَزَفْرَةٍ
وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أَحَبَّةٍ
فَيَا عَجَبًا لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّا
قَضَى عَيْشَهُمْ بَعْدَى وَعَيْشِي بَعْدَهُمْ
وَأَفْجَعُ مِنْ آوَى صَفِيحٍ وَجِلْمَدٍ
وَجُوهُ تَنَافَتْ فِي الْبِلَادِ قُبُورُهَا
وَمَا بَلَيْتُ فِي التُّرْبِ إِلَّا تَجَدَّدْتُ

ومنها:

هُمْ اسْتَخْلَفُوا الْأَخْبَابَ أَمْوَاجَ لَجَّةٍ^(١)
وَلَا يَأْسَ مِنْ رَوْحٍ وَفِي اللَّهِ مَطْمَعٌ
مَتَى تَلَحَّظُوا قَصْرَ الْمَرِيَّةِ تَنَزَّلُوا^(٢)
وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجٍ بَحْرٍ شَجَاكُمْ
فَتَى سَيْفُهُ لِلدِّينِ أَمْنٌ وَإِيمَانُ
فَقَضَتْ سَيْوْفُ حَارِبَتُهُ وَأَيُّمُنُ
وَبِالْخَيْرِ فَتَّاحٌ^(٣) وَبِالْخَيْرِ عَائِدُ
لَهَا الْكَرَّةُ الْغَرَاءُ عَنْ كُلِّ شَارِدٍ
وَرَدَّ بِهَا يَوْمَ اللَّقَاءِ زَنَاتَهُ

هِيَ الْمَوْتُ أَوْ فِي الْمَوْتِ عَنْهُمْ سُلُوفَانُ
وَلَا بُعْدَ مِنْ خَيْرٍ وَفِي الْأَرْضِ خَيْرَانُ^(٤)
بِبَحْرِ نَدَى يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجَانُ
بِمَوْجٍ^(٥) لَكُمْ مِنْهُ لُجَيْنٌ وَعِغْيَانُ
وَإِيمَانُهُ لِلْأَهْلِ رَوْحٌ وَرَيْحَانُ
وَشَاهَتْ وَجُوهٌ فَأَخْرَجَتْهُ وَتَبِيجَانُ
وَبِالْخَيْلِ طَعْمَانُ وَبِالْخَيْلِ طَعْمَانُ
أَضَاءَتْ لَهُمْ مِنْهَا دِيَارٌ وَأَوْطَانُ
كَمَا انْقَلَبَتْ يَوْمَ الْهَبَاءَةِ ذُبْيَانُ

(١) ب: « الأبواب » (٢) ب: « ولا بد »

(٣) ب: « تلحقوا » (٤) ب: « نظفروا »

(٥) ب: « يبحر » (٦) ب: « فاتح »

- بِكُلِّ كَيْمٍ عَامِرٍ يَسُوقُهُ
حُلِيِّهِمْ بَيْضُ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا
فَأَيُّ صُفُورٍ قَلَبَتْ أَيْ أَعْيُنٍ
عُيُونُ بِهَا كَادُوا الْعَلَا بَعَمَامِهَا
وَمَا لَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ بَعْدُ كَوْكَبُ
تَضِيقُ بِهِمْ رُحْبُ الْقُصُورِ وَوُدُّهُمْ
وَأَنْسَيْتُهُمْ حُلَّ الْقَنَا ، بِسِلَاحِهِمْ
وَأَنَّى لِفُلِّ الْقَبْطِ فِي مِصْرٍ مَوْتِلُ
حَفَرَتْ لَهُمْ فِي يَوْمٍ قُبْرَةٌ بِالْقَنَا
يَطِيرُ بِهَا هَامٌ وَنَسْرٌ وَنَاعِبُ
فَلَوْ نَشَرَ الْأَمْلاَكُ يَوْمَكَ فِيهِمْ
وَلَوْ رُدَّ فِي الْمَنْصُورِ رُوحُ حَيَاتِهِ
وَنَادَيْتَ لِلْهِجَاءِ أَبْنَاءَ مُلْكِهِ
جِبَالُ إِذَا أُرْسِيَتْهَا حَوْمَةُ الْوَعْيِ
كِتَابُ بَلْ كُتِبَ بِنَصْرِكَ سَطَرَتْ
هُوَ السَّيْفُ لَا يَرْتَابُ أَنَّكَ سَيْفُهُ
وَأَسْمَرُ يَسْرِي فِي بَحَارٍ مِنَ الرَّدَى
تَلَالُأُ نُورًا مِنْ سَنَاكَ سِنَانُهُ
فَلِلَّهِ مَاذَا أَنْجَبَتْ مِنْكَ عَامِرُ
وَلِلَّهِ مَنَّا أَهْلُ بَيْتِ رَمَتِهِمْ
- ٥
لِحَرِّ الْوَعْيِ قَلْبُ عَلَى الدِّينِ حَرَّانُ
لَهَا وَحُلَاهُمْ سَابِغَاتُ وَأَبْدَانُ
إِلَى أَيْ لَيْثٍ رَدَّهَا وَهِيَ خَيْلِدَانُ
فَهُمْ فِي سَبِيلِ^(١) الرُّشْدِ وَالْعَيِّ عُمَيَّانُ
وَمَا لَهُمْ فِي مُقَلَّةٍ بَعْدُ إِنْسَانُ
لَوْ اخْتَارَهُمْ عَنْهَا كُفُوفٌ وَغَيْرَانُ
عَلَيْكَ — إِذَا لَأَقُولُكَ — ذُلٌّ وَإِذْعَانُ
وَقَدْ غِيلَ فِرْعَوْنُ وَأَهْلِكَ هَامَانُ
قُبُورًا هَوَاءَ الْجَوِّ مِنْهُمْ مَلَانُ
١٠
وَيَعْدُو بِهَا ذَيْبٌ وَذِيخٌ وَسِرْحَانُ
لَأَلْقَى إِلَيْكَ التَّاجَ كِسْرَى وَخَفَافَانُ
غَدَاةَ لَقِيَتْ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ غَرَّ ثَانُ
فَلَبَّكَ أَسَادُ عَيْبِيدُ وَفَتَيَّانُ
وَإِنْ تَدْعُهُمْ يَوْمًا إِلَيْهَا فَعَقَبَانُ
١٥
وَوَجْهَكَ «بِسْمِ اللَّهِ» وَالسَّيْفُ عُقْوَانُ
إِذَا نَارَلَ الْأَقْرَانُ فِي الْحَرْبِ أَقْرَانُ
يُبْمَنَّاكَ لَكِنْ تَفْتَنْدِي وَهُوَ ظَمَّانُ
وَقَدْ دَعَتِ الْفُرْسَانُ لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ
وَلِلَّهِ مَاذَا نَاسَبَتْ مِنْكَ قَحْطَانُ
٢٠
إِلَى يَدِكَ الْعُلْيَا بِحُورٍ وَبُلْدَانُ

وَكَلَّمَهُمْ يُزْهِمِي عَلَى الشَّمْسِ بِالضُّحَى وَبَدَّرَ الدَّيَّاجِي ۖ إِنَّهُمْ لَكَ جِيرَانُ
وَقَدْ رَادَ أَبْنَاءَ السَّبِيلِ وَسَيْلَةَ وَحَلُّوا فَرَادُوا أَنَّهُمْ لَكَ ضَيْفَانُ
فَمَا قَصَّرَتْ بِي عَنْ غُلَاكَ شَفَاعَةُ وَلَا بِكَ عَنْ مِثْلِي جَزَاءُ وَإِحْسَانُ

إيجاز الخبر عن إمارة علي بن حمود^(١)

٥ قَالَ أَبُو مَرْوَانَ : هُوَ عَلِيُّ بْنُ حَمُودَ بْنِ مَيْمُونِ بْنِ حَمُودِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .
وَذَكَرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ^(٢) أَنَّ نَفَرًا مِنْ وَلَدِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ
أَيَّامَ طَلْبَةِ الرَّشِيدِ فَحَبَسَهُ عِنْدَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى فَرَوُّوا إِلَى الْمَغْرِبِ فَوَقَعُوا بِلَادِ
إِفْرِيقِيَّةَ ، ثُمَّ رَفَضَتْهُمْ^(٣) آفَاقُهَا إِلَى طَرَفِ بِلَادِ الْبَرْبَرِ^(٤) فَنَكَحُوا إِلَيْهِمْ
١٠^(٥) وَتَبَزَّرُوا مَعَهُمْ^(٥) .

قال أبو الحسن : وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ عَقِبَهُمْ إِلَى الْيَوْمِ هُنَالِكَ وَقَدْ قَدِّمْتُ فِيمَا
نَقَلْتُهُ مِنْ كِتَابِ ابْنِ حَيَّانٍ فِي أَخْبَارِ الْخَلِيفَةِ^(٦) سُلَيْمَانَ السَّبَبَ الَّذِي أَوْطَأَ لِعَلِيِّ
ابْنِ حَمُودٍ ثَبَجَهَا ، وَأَوْضَحَ لَهُ مَنَهِجَهَا ۖ حَتَّى خَرَجَ مِنْ عَمَائِهَا^(٧) ، وَعَرَجَ إِلَى
سَمَائِهَا . وَنَكْتُبُ هَاهُنَا مَا نَصَّهُ أَيضًا أَبُو مَرْوَانَ مِنْ كَيْفِيَّةِ^(٨) مَقْتَلِهِ وَخَبَرِهِ ،
١٥ بِقَرُطُبَةِ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ، بَعْدَ أَنْ نَبْرَأَ مِنَ التَّطْوِيلِ ، وَنَحْذِفُ إِنْ احتَجَجْنَا
إِلَى ذَلِكَ بَعْضَ الْفُصُولِ .

(١) ز في ر : « الذي ذكر » (٢) ب : « العتي »

(٣) ب : « لفظهم » (٤) ب : « طرف من بلاد المغرب »

(٥ — ٥) ه في ر (٦) ه في ب

(٧) ر : « عمائها » (٨) ب : « شرح »

قال ابن حيان : بُويعَ عَلِيُّ بْنُ سَمُودٍ فِي بَابِ السُّدَّةِ مِنْ قَصْرِ قُرْطُبَةَ
يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِسَبْعِ بَقِينٍ ^(١) لِمَحَرَّمِ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، ثَانِي الْيَوْمِ الَّذِي أَدْرَكَ
فِيهِ بَشَارَ هِشَامِ الْمُؤَيَّدِ ؛ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ عَنْ بَيْعَتِهِ ، وَوَصَلُوا إِلَيْهِ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ ،
فَكَرَّمْ مَنْازِلَهُمْ ، وَأَجْمَلَ خِطَابَهُمْ ، وَتَسَمَّى لِيَوْمِهِ مِنَ الْأَلْقَابِ السُّلْطَانِيَّةَ ^(٢)
بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ : لَقَبُ ^(٣) قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ بِالْمَشْرِقِ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ
الْعَبَّاسِيُّ ، وَتَبِعَهُ فِيهِ أَيْضًا ^(٤) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ هَذَا الْأَفْقِيُّ ^(٥)

وَلَمَّا صَارَتْ لِعَلِيِّ بْنِ سَمُودٍ الْخِلَافَةُ تَقَدَّمَ مِنَ الْقَهْرِ لِلنَّاسِ بِالْغَلْبَةِ وَالْإِرْهَابِ
لَهُمْ بِمَا حَامَرَ الْقُلُوبَ مِنْ هَوْلِ سَطْوَتِهِ ، وَلَا سِيَّامَا بَرَا بَرَّةَ الْعَسْكَرِ لِمَا أَحْلَى بِهِمْ
مِنَ الذِّلِّ وَالْقَتْلِ فَدَهَشُوا مِنْهُ . وَقَادَهُمْ مُدَيَّدَةٌ قَوْدَ الْإِيلِ الْمَخْطُومَةِ ، وَأَعْدَى
عَلَيْهِمُ الْخُصُومَ ، حَتَّى صَارَ أَقْلُ الرَّعِيَّةِ يَرْفَعُ أَعْتَاهُمْ إِلَى الْحُكَّامِ بِمَا شَاءَ مِنْ وَجْهِ
الدَّعَاوَى فَتَجَرَّى عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامُ ؛ فَتَرَقَّتْ لِلْعَدْلِ يَوْمُئِذٍ بَارَقَةٌ خُتِبَتْ لَمْ تَسْكُدْ
تَقْدُ حَتَّى خَبَتْ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْبَرَّابِرَ أَطْوَعُ خَلْقَ اللَّهِ ^(٦) لِمَنْ أَخَافَهُمْ . وَجَلَسَ عَلَى
بِنَفْسِهِ لِمَطَالِمِ النَّاسِ ^(٧) ، وَهُوَ مَفْتُوحُ ^(٨) الْبَابِ ^(٧) ، مَرْفُوعُ الْحِجَابِ ^(٩) ، لِلْوَارِدِ
وَالصَّادِرِ ^(٩) ، يُقِيمُ الْحُدُودَ مُبَاشِرًا بِنَفْسِهِ ، لَا يُحَاشِي أَحَدًا مِنْ أَكْبَرِ قَوْمِهِ .
فَانْتَشَرَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ ^(١٠) فِي الْأَرْضِ ، ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ^(١٠) ، وَسُيْلِكَتِ
السُّبُلُ ، وَرَخَا السَّعْرُ ، وَأَرْقُوا الْأَغْذِيَّةَ ، وَشَامُوا النِّسَاءَ ، وَطَلَبُوا النَّسْلَ ، وَكَانَ

(٢) ب : « الأسماء الخلافية »

(١) بياض في ب

(٤) ر : « قبله »

(٣) ب : « وهو اسم »

(٦) ب : « أطوع البشر »

(٥) ب : « صاحب الأندلس »

(٨) ب : « مفتوح »

(٧-٧) نه في ر

(١٠-١٠) نه في ر

(٩-٩) نه في ر

أَكْثَرُهُمْ يَقُولُ بِالْعَزْلَةِ ، وَاتَّخَذُوا الْحُلُوءَ عَلَى طُولِ عَهْدِ بَيْتِهَا ، وَرَجَوْا الْإِفَالَةَ
فَخَانَهُمُ الْأَمَلُ عَمَّا قَلِيلٍ ، وَارْتَكَسُوا فِي الْمِحْنَةِ .

وَمِنْ بَعْضِ مَا جَرَى فِي مَجْلِسِ لَهُ مِنْ مُبَاشَرَتِهِ إِقَامَةَ الْحُدُودِ بِنَفْسِهِ ،
وَجُلُوسِهِ حَيْثُ لَمْ يَجْلِسْ قَطَّ خَلِيفَةً أَنَّهُ قُدِّمَ إِلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْبَرَابِرِ الْأَكْبَرِ ، فِي
جَرَائِمٍ تَجَاوَزَتْ حَدَّ النَّكَالِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ ^(١) وَعَشَائِرُهُمْ يَنْظُرُونَ

خِفَوةً لَا يَنْبَسُونَ ، وَلَا يَجْسُرُونَ عَلَيْهِ ^(٢) فِي شَفَاعَةٍ . وَبِهِذَا الْمَجْلِسِ وَشِبْهِهِ
مَا فَتِنَ أَهْلُ قَرْطَبَةَ بَابَنُ حُمُودٍ أَشَدَّ فِتْنَةٍ . وَخَرَجَ يَوْمًا عَلَى بَابِ عَامِرٍ فَالتَقَى
بِفَارِسٍ مِنَ الْبَرَابِرِ قَدَّامَهُ حِمْلُ عِنَبٍ ^(٣) ، فَاسْتَوْقَفَهُ وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا
الْعِنَبُ ؟ قَالَ : أَخَذْتُهُ كَمَا يَأْخُذُ النَّاسُ ! فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ وَسَطَ
الْحِمْلِ . وَطِيفَ بِهِ الْبَلَدُ كُلُّهُ . وَكُلُّ أَفْعَالِهِ كَانَتْ حَسَنَةً عِنْدَ الرَّعِيَّةِ إِلَى أَنْ
أَوْقَعَهُمْ فِي أَعْظَمِ بَلِيَّةٍ .

وَكَانَ عَلَى بْنِ حُمُودٍ تَلَقُّاعَةٌ ، شَدِيدَ الْإِصَابَةِ بِعَيْنِهِ ، لَا يَكَادُ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ
عَلَى شَيْءٍ يَسْتَحْسِنُهُ إِلَّا أَسْرَعَتْ الْآفَةُ إِلَيْهِ ؛ وَلَهُ فِي ذَلِكَ نَوَادرٌ عَجِيبَةٌ ،
وَلَرُبَّمَا قَالَ لِلنَّفِيسَةِ مِنْ نِسَائِهِ : وَارِى مَحَاسِنَكَ عَنْ عَيْنِي مَا اسْتَطَعْتَ ! فَإِنِّي
شَاحٍ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنِي وَأَنَا أَحَبُّ الِاسْتِمْتَاعِ بِكَ ، أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ ، أَخَذَتْهُ
عَنْ حَظِيَّةٍ لَهُ زَادَتْهُ مِنْ عَجَائِبِهِ .

وَاسْتَمَرَّ مَعَ أَهْلِ قَرْطَبَةَ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ فِي أَحْسَنِ عِشْرَةٍ ، ثُمَّ
آتَسَ مِنْهُمْ الْكَرَاهِيَةَ لِدَوْلَتِهِ . وَبَلَغَهُ أَيْضًا قِيَامُ الْمُرتَضَى بِشَرِّقِ الْأَنْدَلُسِ .
فَعَزَمَ عَلَى إِبَادَةِ أَهْلِ قَرْطَبَةَ وَإِخْلَاقِهَا ، فَلَا يَعُودُ لِأَتَمَّتْهُمْ الْمَرْوَانِيَّةُ سُلْطَانُ
آخِرِ الدَّهْرِ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى سَاحِلِهِ ، وَيَجْمَعُ شَمْلَ بَرَابَرَتِهِ ، فَيَضْرِبُ بِهِمْ جَمِيعَ

(١) ب : « رَقَابِهِمْ » (٢) م في ر (٣) بياض في ب

- الأندلس ، فانقلبَ سريعاً عن التجمل الذي كان يظهره لهم ^(١) وانصرفَ إلى حزيه البربري ، فأثره ، وأغصى على سوء ما كانوا عليه من الظلم والحيف ، فوقع أهل قرطبة وغيرهم في حالتهم مدة سليمان ، من استطالبتهم عليهم . وصب على أهل قرطبة ضرراً ^(٢) من التنكيل ^(٣) والمغارم ، وانتزع السلاح منهم ، وهدم دورهم ، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم ، وأغرم عاقبتهم ، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم ، ففتحوا له أبواباً من البلايا أهلكوا بها الأمة ، وتقرّبوا إليه بالسعاية ، وقرن بجميع الناس الأشرار ، ووكل بهم الضغاط ، وما شئت من مكشّف عن اليمين والشمال ، متلّول الجبين مذلّ القذال ^(٤) ، قد صار شطرُ الناس أشراراً على سائرهم ، قلما تلقى أحداً منهم إلاّ بمؤكلٍ عليه ، حتّى كأنّ الكرام الكاتبين بدّوا للأبصار ، فأخذت على الناس الأقطار ؛ فأظلمت الدنيا ، وأبليس أهلها ، وغشيتهم ^(٥) من أمر الله ما غشيتهم ^(٥) ؛ فلزموا البيوت ، وتطمّروا في بطون الأرض ، حتّى قلّ بالنهار ظهورهم ؛ وخلّت أسواقهم ^(٦) ، فإذا دنا المساء وكفّ الطلب عنهم ، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجتهم ^(٦) .
- وامتحن معه جماعة من الأعيان ، ممن خدّم في مدة سليمان ، فاعتقلوا ١٥ وضودروا بأموال ، وامتنع بعضهم بالضرب ^(٧) فقدّوا أنفسهم وأمر بإطلاقهم ^(٧) ؛ فلما أحضرت دوابهم للرّكوب ، قبضت جميعها ، وانطلق القوم رجلاً إلى بيوتهم ، فكانت عندهم أعظم آفة جرّت عليهم ؛ وكان منهم أبو الحزم

(١) ب : « لأهل الأندلس » (٢) هـ في ب

(٣) هـ في ر (٤) ر : « مزال العدل »

(٥-٥) هـ في ر (٦-٦) هـ في ر

(٧-٧) ب : « حتّى صانعوا على أنفسهم بجملة من المال »

ابن جهور، وأحمد بن برزئ الأكبر^(١)، وغيرهما. فهذه جملة من أخباره، في حال صلاحه وفساده، ووقتي رضاه وسخطه.

كَيْفِيَّةُ مَقْتَلِهِ^(١):

فَلَمَّا سَنَّائُهُ^(٢) الْقُلُوبَ، وَأَثْقَلَتْهُ الْأَوْزَارُ، وَالتَّقَتْ عَلَيْهِ الْأَكْفُ، وَخَلَصَتْ فِيهِ النَّجْوَى، وَتَوَالَى عَلَيْهِ الدُّعَاءُ^(٣)، نَظَرَ اللَّهُ إِلَى عِبَادِهِ^(٤)، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ أَوْفَعِ الْخَلِيقَةِ صَبِيئًا أَغْمَارًا مِنْ صَقَالِبَةٍ^(٥) بَنَى مَرَوَانَ كَانُوا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَأَذْنَاهُمْ مِنْ حُرْمَتِهِ وَأَحَقَرَهُمْ فِي عَيْنِهِ^(٦)، جَسَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى^(٧) عَلَى الْوُثُوبِ عَلَيْهِ بِمَوْضِعِ أَمْنِهِ فِي حَمَامٍ قَصْرِهِ^(٨)؛ لَا عَنْ مُوَاطَاةٍ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَا أَلْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَفْسِهِمْ لَهُ؛ وَكَانُوا ثَلَاثَةً مِنَ الصَّقَلْبِ رُفَقَاءَ، فِيهِمْ وَصِيفُ حَسَنِ الْوَجْهِ جَدًّا كَانَ يَخْفُ عَلَيْهِ اسْمُهُ: مُنْجَحٌ، وَلَيْبٌ، وَعَجِيبٌ؛ دَبَّرُوا^(٩) جَمِيعًا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ لَيْلًا غُرَّةَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ. وَقَدْ دَخَلَ الْحَمَامَ سَحَرًا فابْتَدَرَهُ مُنْجَحٌ بِكُوبٍ نُحَاسٍ ثَقِيلٍ صَبَّهُ عَلَى رَأْسِهِ^(١٠)، فَشَجَّهُ فَغَشَّى عَلَيْهِ، وَنَادَى صَاحِبِيهِ فَوَدَّجُوهُ^(١١) بِالْخَنَاجِرِ^(١٢) حَتَّى بَرَدَ^(١٣)، وَسَدُّوا عَلَيْهِ بَابَ الْحَمَامِ، وَتَسَلَّلُوا وَصَعِدُوا إِلَى سَقْفِ بَعْضِ الْقُصُورِ^(١٤)، وَكَمَنُوا فِي مَخَابِ هُنَالِكَ كَانُوا يَعْرِفُونَهَا فَلَمْ يُحَسَّ بِهِمْ^(١٥). وَلَمَّا اسْتَطَالَ نِسَاؤُهُ بَقَاءَهُ بِالْحَمَامِ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرَعْ عَنْهُ إِلَّا مَسِيلُ دَمِهِ، وَهُوَ قَتِيلٌ مُمَزَّقٌ

(١-١) نه في ر (٢) ر: «سننته» (٣-٣) نه في ر

(٤-٤) نه في ر (٥-٥) ب: «على مواثبه في قصره، وموضع محله وأمنه»

(٦) ب: «بدروا» (٧) ب: «هاتمه» (٨) ب: «فصره»

(٩-٩) نه في ر (١٠-١٠) نه في ر

الإهاب . ولم يَسْتَمِ النَّهَارُ حَتَّى صَحَّ عِنْدَ النَّاسِ مَقْتَلُهُ ^(١) وَخَبَرُ الْفَتْكِ بِهِ ^(٢) ؛
فَفُرِّجَ عَنْهُمْ ^(٣) غَمٌّ عَظِيمٌ ، وَابْتَهَلُوا بِشُكْرِ خَالِقِهِمْ .

وَاجْتَمَعَتْ زَنَاتُهُ وَوَجَّهُوا مِنْ حِينِهِمْ إِلَى أَخِيهِ الْقَاسِمِ صَاحِبِ إِشْبِيلِيَّةَ
يَوْمَئِذٍ . فَوَافَى قُرْطُبَةَ رَسُولُهُ لِيَقِفَ عَلَى صِحَّةِ وَفَاةِ أَخِيهِ بِالْمَعَايِنَةِ ، وَخَافَ أَنْ
تَكُونَ حِيلَةً مِنْهُ عَلَيْهِ هُنَالِكَ ^(٤) ، فَكُشِفَ لَهُ عَنْهُ وَتَحَقَّقَهُ ، فَانْكَفَأَ ^(٥) إِلَى
صَاحِبِهِ ، وَلَحِقَ الْقَاسِمُ فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ جَسَدَ أَخِيهِ ، فَصَلَّى عَلَيْهِ وَأَمَرَ بِإِنْفَاذِهِ
إِلَى مَدِينَةِ سَبْتَةَ فَدُفِنَ بِهَا .

وَكَانَتْ مُدَّةُ عَلَى بْنِ حَمُودٍ — مِنْ يَوْمِ قَتْلِ سُلَيْمَانَ إِلَى يَوْمِ قَتْلِ — وَاحِدًا ^(٦)
وَعِشْرِينَ شَهْرًا وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ ؛ فَانْقَضَى أَمْرُ عَلِيٍّ عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ . وَصَارَ خَامِسًا
لِمُغْتَالِي جَبَابِرَةِ الْمُؤَلُوكِ فِي الْإِسْلَامِ بِأَيْدِي عَبِيدِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ فِي الْحَمَامِ خَاصَّةً :
أَحَدُهُمُ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ ذُو الرِّيَّاسَتَيْنِ وَزَيْرُ الْمَأْمُونِ ، ثُمَّ أَبُو سَعِيدِ الْجَنْبَابِيِّ ^(٧)
صَاحِبُ الْقَرَامِطَةِ ، ثُمَّ الدَّيْلَمِيُّ الْمُنتَزِي بِأَصْبَهَانَ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ ، ثُمَّ نَاصِرُ الدَّوْلَةِ
الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدَانَ الْمُنتَزِي بِالْمَوْصِلِ وَأَعْمَالِهَا فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ ؛ وَآخِرُهُمْ عَلِيُّ بْنُ
حَمُودٍ هَذَا الْمُنتَزِي بِالْأَنْدَلُسِ بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ ، مَعَ مَزِيَّتِهِ عَلَيْهِمْ بِبِرَاعَةِ الشَّرَفِ
وَحُرْمَةِ الْقَرَابَةِ ، فَاغْتَدَى ^(٨) عَلَى ذَلِكَ الْقِرَانِ بِسُوءِ مَصَارِعٍ هُوَ لَا الْمَبْعُوثِينَ ١٥
آيَةً وَمَوْعِظَةً . عَلَى أَنْ قَتَلَ الْمُؤَلُوكِ وَالْأَئِمَّةَ بِأَيْدِي الْفُجُولِ مِنْ عَبِيدِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ —
مِنْ غَيْرِ هَذَا النَّمَطِ وَعَلَى خِلَافِ هَذَا — كَثِيرٌ يَشُقُّ إِحْصَاؤُهُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بَأَنْبَاءِهِمُ الْبَالِي سَرَائِرَهُمْ . وَكَانَ الْأَغْلَبُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ السَّخَاءُ وَالشَّجَاعَةُ
عَلَى عَطُولِهِ مِنَ الْفَهْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَبِرَاءَتِهِ ^(٩) مِنَ الْخَيْرِ جُمْلَةً .

(١-١) نه في ر (٢) نه في ب (٣) في ب

(٤) ر : « فانكفأ » (٥) ب ، ر : « إحدى » (٦) ب ، ر : « الجباني »

(٧) ب : ر : « فاعتوى » (٨) ر : « برازته »

فَصَلُّ فِي ذِكْرِ الْوَزِيرِ الْكَاتِبِ أَبِي حَفْصِ بْنِ بُرْدٍ الْكَبِيرِ
وَإِثْبَاتِ مُجَلَّةٍ مَا انتَخَبْتُهُ مِنْ نَظْمِهِ وَنَثَرِهِ

مع ما يتعلّق بِذِكْرِهِ

قال أبو الحسن : كان أبو حفص في ذلك الأوان واسطة السلّك ،
وقُطِبَ رَحَى الْمَلِكِ ؛ اسْتَقَلَّ بِبَهَائِهِ وَجَلَالِهِ ، وَرَقَلَ فِي بُكْرِهِ ^(١) وَأَصَالِهِ ،
وَبَرَزَ عَلَى نَظَرَانِهِ ^(٢) وَأَشْكَالِهِ . وَبَنُو بُرْدٍ يَنْتَمُونَ لِبَنِي شُهَيْدٍ بِالْوَلَاءِ .
وَقَدْ أَبُو حَفْصٍ هَذَا دِيْوَانَ الْإِنْشَاءِ بَعْدَ ابْنِ الْجَزِيرِيِّ ، ثُمَّ كَتَبَ عَنْ سُلَيْمَانَ
الْمُسْتَعِينِ وَغَيْرِهِ مِنْ أُمَرَاءِ الْفِتْنَةِ فَأَسْمَعَ الصَّمَّ بَيَانًا ، وَاسْتَنْزَلَ الْعَصَمَ إِبْدَاعًا
وَإِحْسَانًا ؛ ^(٣) وَقَدْ أَخْرَجْتُ مِنْ رَسَائِلِهِ مَا يُعَرِّبُ عَنْ فَضَائِلِهِ ، وَيُوضِّحُ
مَشْهُورَ دَلَائِلِهِ ^(٤) ؛ وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِسَرَقُسْطَةِ سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ . وَقَدْ
نَيْفَ عَلَى الثَّمَانِينَ .

ما أَخْرَجْتُهُ مِنْ دِيْوَانِ رَسَائِلِهِ فِي أَوْصَافٍ مُخْتَلِفَةٍ

^(٥) فُصُولُ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ الْمَعْقُودِ لِلنَّاصِرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ :
هَذَا مَا عَهْدَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ^(٦) هِشَامُ الْمُؤَيَّدُ بِاللَّهِ — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ! —
إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ، وَعَاهَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ خَاصَّةً ، وَأَعْطَى بِهِ صَفَقَةً يَمِينَةً ،
بَيْعَةً تَامَةً ، بَعْدَ أَنْ أَمَعْنَ النَّظَرَ ، وَأَطَالَ الْاسْتِخَارَةَ ؛ وَأَهَمَّهُ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ
مِنْ إِمَامَةٍ ^(٧) الْمُسْلِمِينَ ، وَعَصَبَ بِهِ مِنْ إِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاتَّقَى حُلُولَ الْقَدَرِ

(٢) ب : « نظائره »

(١) ب : « ذكره »

(٣-٣) تروى في ر : « ولم أجد حين إخراج هذه النسخة من رسائله إلا ما لا يكاد

يعرب ولا يوضح مشهود دلائله ، وقد أثبت منها على ذلك بعض ما ألفتني هناك »

(٥) ر : « إمارة »

(٤-٤) ب : « فصل : عهد عقد هشام الخ »

بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء^(١) بما لا يُصَرَف ، وخشى — إِبْنُ هَجَمٍ
مَحْتُمٌ ذَلِكَ عَلَيْهِ ۖ وَنَزَلَ مَقْدُورُهُ بِهِ ، وَلَمْ يَرْفَعْ لَهُدَاةَ الْإِمَّةِ عَلَمَا تَأْوَى إِلَيْهِ ،
وَلَمْ يُوجِزْهَا مَلْجَأً تَنْعَطِفُ عَلَيْهِ — أَنْ يَكُونَ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مُفَرِّطًا فِيهَا ، سَاهِيًا
عَنْ أَدَاءِ الْحَقِّ إِلَيْهَا . وَنَظَرَ عِنْدَ^(٢) ذَلِكَ طَبَقَاتِ الرِّجَالِ مِنْ أَحْيَاءِ قُرَيْشٍ
وغيرها ، مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ^(٣) أَنْ يُسْنَدَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ ، وَيُعَوَّلَ فِي الْقِيَامِ بِهِ عَلَيْهِ ،
مِمَّنْ يَسْتَوْجِبُهُ بِيَدِينِهِ وَأَمَانَتِهِ وَهَدْيِهِ وَرَعِيهِ ، بَعْدَ اطِّرَاحِ الْهَوَادَةِ ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ
الْهَوَى ، وَالتَّحَرُّيِ لِلْحَقِّ^(٤) ، وَالتَّزَلُّفِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَا يُرْضِيهِ ، وَإِنْ قُطِعَ
الْأَوَاصِرَ وَأَسْخَطَ الْأَقَارِبَ ، عَالِمًا أَنَّ لَشَفَاعَةِ عِنْدَهُ أَعْلَى مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ،
^(٥) وَمُوقِنًا أَنَّ لَا وَسِيلَةَ إِلَيْهِ أَزْكَى مِنَ الدِّينِ الْخَالِصِ^(٥) ؛ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا هُوَ
أَجْدَرُ أَنْ يُقَلِّدَهُ عَهْدَهُ ، وَيُفَوِّضَ أَمْرَ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ بَعْدَهُ ، فِي فَضْلِ نَفْسِهِ ،
^(٦) وَكَرَمِ خِيَمِهِ^(٦) ، وَشَرَفِ مَرْكَبِهِ ، وَعُلُوِّ مَنْصِبِهِ ۖ مَعَ تَقْوَاهُ وَعِفَافِهِ ۖ وَمَعْرِفَتِهِ
وإِشْرَافِهِ ، وَحَزْمِهِ وَثِقَافِهِ ، مِنَ الْمَأْمُونِ الْغَيْبِ ، النَّاصِحِ الْجَبِيْبِ ، النَّازِحِ
عَلَى كُلِّ عَيْبٍ ۖ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ أَبِي الْمَطَرِّفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ
وَقَفَّهَ اللَّهُ .

وفي فصلٍ منه :

١٥

مَعَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — أَيَّدَهُ اللَّهُ ! — بِمَا طَالَعَهُ مِنْ مَكْنُونِ الْعِلْمِ ، وَوَعَاةٍ مِنْ
مَخْزُونِ الْأَثَرِ ۖ أَمَّلَ أَنْ يَكُونَ وَلِيَّ عَهْدِهِ الْقَحْطَانِيَّ الَّذِي حَدَّثَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

(١) ر : « القدر » (٢) ر : « نفذ عن » — يياض في ب ، والنصحيح

عن ابن عذارى « البيان المغرب » (ج ٣ ص ٤٤) (٣) ب : « عما يستحسن »

(٤) هـ في ب — ر : « التحرى للخلق » (٥-٥) هـ في ب

(٦-٦) هـ في ب

عمر بن العاص بتحقيق ما أسنده أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم :
 « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » . فلما
 استوت له به الأخبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهبا ،
 ولا إلى غيره معدلا ، خرج إليه عن تدبير الأمور في حياته ، وفوض إليه
 النظر في أمر الخلافة بعد وفاته ^(١) .

وله فصل من رُقعة كتبها عن الظفر بن أبي عامر ، يقول فيها :

وإن من أعجب العجائب ما يجترئ عليه بعض أهل خدمتنا من نبذ عهدنا
 إليهم بعد توكيدها ، وحل عقودنا عليهم بعد تشديدها ، ساهين عما يتعرضون
 له من النكمة لا يحذرون وفوق المخذور ، ولا يتوقعون حلول التغيير ؛ قد ولّه
 أفندتهم جهل الواجب ، ورأى على قلوبهم ما أضاعوه ^(٢) من الحق ، فلم يرجوا
 لله وقارا ^(٣) ، ولا وقوا سلطانَه إجلالا وإكبارا . وقد قال بعض السلف
 الصالح : إن من إجلال الله إجلال السلطان عادلا كان أو جائرا . ولا أحسب
 الذي غرهم بنا ، وجراً هم علينا ، إلا ما وهب الله تعالى لنا من الحلم مع المقدرة ^(٤) ،
 والكظم ^(٥) عند الحفيظة . وذلك وإن كان سحيفة غالبة ، وخلق لازمة .
 فرب شنع ^(٦) تحت محيل النعماء ، وغصص في شهي الغذاء ، وشرق في بئر الماء !
 وبين أيديكم — معسر الخدمة ! — ولا أخص بندائي صغيراً ولا كبيراً ، ولا أعني

(١) هذا العهد بتمامه في « البيان المغرب » لابن عذارى (ج ٣ ص ٤٤ — ٤٦)

ونقله ابن الخطيب وابن خلدون والنويري والمقرئ عن ابن عذارى . (٢) ب : « ما ادعوه »

(٤) ب : « القدرة »

(٣) سورة ٧١ : ١٣

(٥) ب : « والظم »

(٦) ر : « سبع » — وفي ب اضطراب كثير في هذه القطعة

بَعِيداً دُونَ قَرِيبٍ ، وَلَا أُنْبَهُ غَائِباً دُونَ شَاهِدٍ — وَنُصِبَ أَعْيُنُكُمْ ، وَحَسُوَ
 أَسْمَاعُكُمْ عَهْدُ الْمَنْصُورِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لَمْ يَقْدُمْ زَمَانُهُ فَيُنْسَى ، وَلَا أَتَتْ دُونَهُ
 الدُّهُورُ فَيُبْلَى ، ثَابِتٌ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ ، وَلَا زِمٌ لَكَافَتِكُمْ ، مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ ،
 وَدَانٍ وَشَاحِطٍ ؛ صَدْرُهُ التَّوْبِيخُ بِاسْتِكْتَابِ الْجَهْلَةِ ، وَاسْتِعَانَةِ الضَّعْفَةِ ، وَاسْتِكْفَاءِ
 الْعِجْزَةِ ، مِمَّنْ قَلَّتْ مَعْرِفَتُهُ ، وَاتَّضَعَتْ هِمَّتُهُ ، فَلَمْ يَبْلُغْ أَنْ يُحْكِمَ الْخَطَّ فَيُقِيمَ
 حُرُوفَهُ ، وَيُرَاعِيَ الْمَدَادَ فَيَجِيدَ صَنْعَتَهُ ، وَيُمَيِّزَ الرِّقَّ فَيُحَسِّنَ اخْتِيَارَهُ ، وَعَجْزُهُ
 الْحَزْمُ ^(١) النَّافِذُ وَالْحُكْمُ الصَّادِعُ ، بَأَنْ يَكُونَ صُدُورُ كُتُبِ الْاِعْتِرَاضَاتِ
 وَعُنْوَانَاتِهَا وَتَوَارِيخُهَا وَالْأَعْدَادُ فِي رُءُوسِ رُسُومِهَا ، بِمُخْطُوطِ أَيْدِي الْقَوَادِ وَالْعُمَّالِ ،
 مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَاتِباً فَبَيْدِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَكْتُبْ فَبِخَطِّ كَاتِبٍ لَهُ مَعْرُوفٍ ، وَأَنْ
 تَكُونَ تَسْمِيَةُ طَبَقَاتِ الْأَجْنَادِ فِيهَا بَيِّنَةُ الْحُرُوفِ ، قَائِمَةٌ الْخُطُوطِ . وَفِي تَضَاعُفِهِ
 أَلَيَّةٌ نَحْنُ أَوْلَى مِنْ أَبْرَئِهَا ، وَوَفَى بِهَا ؛ عَلَى أَنَّهُ إِنْ وَرَدَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخِدْمَةِ بَعْدَ
 وَصُولِ ذَلِكَ الْعَهْدِ إِلَيْهِ كِتَابٌ اِعْتِرَاضٍ أَوْ عَمَلٍ فِي رَقٍّ رَدِيٍّ ، أَوْ بِمَدَادٍ دَنِيٍّ ،
 أَوْ خَطٍّ خَفِيِّ ، فِيهِ لَحْنٌ ، أَوْ كِتَابٌ عَلَى بَشَرٍ فِي عَدَدٍ ^(٢) أَوْ رَأْسٍ رَسْمٍ مَا لَمْ
 يَخَفْ أَوْ يَقَعُ فِي حَسْوِ الْكِتَابِ وَيَعْتَدِرُ مِنْهُ ، لَيَبْطُلَنَّ سَعْيُ كَاتِبِهِ فِيمَا كَتَبَ ،
 وَلَيُعَاجِلَنَّ بِعُقُوبَةِ الْعَزْلِ وَإِغْرَامِ الْمَالِ الثَّابِتِ عَدَدُهُ فِي ذَلِكَ الْقُنْدَاقِ ^(٣) !

١٥

وفي فصلٍ منها :

وَإِنْ قَوْمًا مِنْ خِدْمَةِ الْحَضْرَةِ قَدِ عَادُوا لِإِمَانِهِوَا عَنْهُ ، فَكَتَبُوا الْخَطَّ الدَّقِيقَ
 فِي دَنِيِّ الرِّقِّ دِقَّةً مِنْ هِمَمِهِمْ ، وَدَنَاءَةً فِي اخْتِيَارِهِمْ ، وَجَهْلًا بِأَنَّ الْخَطَّ جَاءَ

(١) ب : « العزم » (٢) ر : « في عدة »

(٣) ب : « الكتاب »

الكتاب ، وسلك الكلام ، به ينظم منشوره ، وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجنته لاحقة بكاتبه ؛ إلى ما اقترفه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلف السلطان ؛ وأنا أعطى الله عهداً لنن ارتفع إلى — بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة وانهائه أبعد أقطار الطاعة — كتاب على الصفات المذمومة ، والأحوال المسخوطة ، من رِق أو مداد أو خط ، لا وفين^(١) لصاحبه بما قدم إليه من الوعيد إن شاء الله ؛ فليحذر من حصر منهم أو غاب أن يخالف ما حدّذناه ، أو يجاوز ما شرعناه .

وله عنه إلى هذيل بن رزين^(٢) :

أما بعد — آتاك الله رشدك ، وأجزل من توفيقه قسطك ! — فإن الله تعالى خلق الخلق غنيا عنهم ، وأنسأهم بهل غير مهمل ، بل ليخصي آثارهم ؛ وليبلو أخبارهم ؛ وجعلهم أخفافاً^(٣) متباينين ، وأطواراً مختلفين ؛ فمنهم المختص بالطاعة ، ومنهم المبتلى بالمعصية ، وبين الفريقين أقوام خطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم^(٤) ؛ ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ولا يرألون مختلفين ، ولذلك خلقهم^(٥) . والسعيد من خاف ربه ، وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فواتها ، واستعطى الرحمة قبل منحها . وإن كنت تركت قصدك ، وخالفت رشدك ، ونكبت^(٦) عن سبيل سلفك ، فلم يوحشك ممن شردت^(٧) عليه مكروه نالك به ، ولم يؤنسك ممن جنت

(١) ب ١ « لأفين » (٢) ب : « وله من أخرى عن سليمان بن هذيل بن رزين »

(٤) سورة ٩ : ١٠٢

(٣) ب : « أجناساً »

(٦) ر : « بكيت »

(٥) سورة ١١ : ١١٩

(٧) ر : « شررت »

إليه^(١) ، أمل لم تطمع فيه إلا لديه ؛ بل كنت آمناً من المخاوف ، بعيداً من
المكاره ، قريب المكاتب ، رفيع الدرجة ، مُصدِّراً في أهل النصيحة والثقة ،
خلاً أنه حدث بينك وبين الحاجب ما لم يزل يحدث بين القواد والعمال على
قديم الزمان مما لم يبلغ أن يخرج ذا الرأي الأصيل عن طبقته ، ولا يجاوز
أن يزيد المحقق على المحل في خصوصيته ، والله أعلم أن أمير المؤمنين لم
يبخسك في تلك الهبات حظاً ، ولا أولئك إعراضاً ، ولقد اعتنى بمصلحتك ،
وعزم على إزاحة علتك ، حتى يتهياً من ذلك ما ينفي بأمك لو انتظرت واستقام
فيه ما يزيد على طليبتك ، لو صبرت عليه ، ولك في القدر المقدور فُسحة ، وفي
القضاء المحتوم مندوحة^(٢) ؛ ولن تضيق بك السبيل عند أمير المؤمنين .
وأنت بين طاعة سالفة ، واستقامة موروثة ، وبين إنابة مُنتظرة ، وتوبة
مُستقبلة . فباحدي الحاليتين تحط الذنوب الكبيرة ، ويُعطى على العيوب
الكثيرة ؛ فالآن — عصمك الله ! — واللَّبُّ رَخِي ، والمرْكَبُ وَطِي ،
وبابك إلى رضا أمير المؤمنين مفتوح ، وسبيلك إلى حسن رأيه سهل ،
ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة — إياك ومصارع الناكثين .
وحذارِ موارط الغادرين !

١٥

وله من أخرى عن سليمان إلى جماعة العبيد :

إن الله تعالى قسم لأهل بيتنا بني أمية من السلطان الموصول لهم
بخلافة النبوة ما حازه لهم دون سائر قريش ، وسراة رجالها وافر ، ويوت
شرفاً عامرة ، فكان أول من أجمع عليه خيار الصحابة بالشورى والاختيار
عثمان بن عفان أمير المؤمنين ذو الثورين ، وصهره عليه السلام مرتين . فلم

٢٠

(٢) ر : « مندرجة »

(١) ب : « صلحت إليه »

يُنْكِرُ فَضْلَهُ هَاشِمِيًّا ، وَلَا دَافِعَ إِمَامَتِهِ قُرَشِيًّا ، وَلَا نَارِعَهُ خِلَافَةَ عَرَبِيًّا
وَلَا عَجَمِيًّا ؛ ثُمَّ غَلَبَ الشَّقَاءُ عَلَى أَقْوَامٍ فَنَالُوا مِنْهُ مَا انْفَتَحَ عَلَيْهِ بَابُ الْفِتْنَةِ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيَا لَهَا ^(١) مُصِيبَةً صَدَعَتْ شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَوْهَنْتْ أَرْكَانَ
الدِّينِ ! وَافْتَرَقَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ بَعْدَهُ فِرْقَتَيْنِ ، ثُمَّ لَمْ تَجْتَمِعَا إِلَّا عَلَى رَجُلٍ مِنَّا ،
لِرِضَاءِ اللَّهِ عَنْ سِيرَتِنَا وَأَمْنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى حُسْنِ مَا خَذْنَا ، ^(٢) وَفَضْلِ سِيَاسَتِنَا ^(٣) ؛
فَكَانَتْ الْجَمَاعَةُ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ كَاتِبِ الْوَحْيِ وَصِهرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَرَدِيهِ ؛ فَبَلَغَ مِنْ ضَبْطِ الْأَمْرِ ، وَلَيْنِ الْوَلَايَةِ ، وَجِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَجَبَايَةِ النَّفْيِ ،
وَبَثِّ الْعَدْلِ ، ^(٤) وَإِذْرَارِ الْعَطَايَا ^(٥) ، مَا لَا يَجْهَلُهُ مَلِيٌّ ^(٦) وَلَا ذَمِّيٌّ . وَوَرِثَهُ
ابْنُهُ وَابْنُ ابْنِهِ ؛ ثُمَّ صَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى خِلَافَتَهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ جَدَّنَا الْأَعْلَى
^(٧) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَوْسَرَ ^(٨) قُرَيْشٍ الْمُفْتِيَّ بِنُورِ بَيْتِهِ ، وَالْحَاكِمَ فِي الْأُمَّةِ بِتَسْدِيدِهِ ^(٩) ؛
فَأَلْقَتْ إِلَيْهِ بِالْمَقَالِيدِ الْكَافَّةُ ، وَتَدَاوَلَهَا بَنُوهُ ^(١٠) آبَاؤُنَا الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ^(١١)
بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، ^(١٢) وَاللَّهُ مُتِمُّ ^(١٣) نِعْمَتِهِ عَلَيْنَا كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى
آبَائِنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ ! ^(١٤)

وَفِي فَضْلِ مِنْهَا :

وَلَمْ تَزَلْ الْأُئِمَّةُ مِنَّا مُقْبِلَةً عَلَى مَوَالِيهَا ، مُخْتَصَّةً لِعَبِيدِهَا ، تُقَدِّمُهُمْ فِي الثَّقَةِ ،
وَتُقَرِّبُهُمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَتُعَدُّهُمْ لِحَوَادِثِ الْأُمُورِ ، وَتَقْدِفُ بِهِمْ فِي مُغْضَلَاتِ الْخُطُوبِ ،
فَيَتَوَلَّوْنَ مِنْ اجْتِهَادِهِمْ لَهُمْ مَا أَوْجَبَتْ لَهُمْ الْمَحَبَّةُ الْخَالِصَةُ ، حَتَّى شَرُفَ الْقَوْمُ

(١) نه في ر (٢-٢) نه في ر (٣-٣) نه في ر

(٤) ب : « مسلم » (٥-٥) نه في ر (٦) ب : « ذو سن »

(٧-٧) نه في ر (٨-٨) نه في ر (٩) ب : « متمم »

وَنُبَلُوا ، وَسَمَّا ذِكْرَهُمْ وَنُسِبُوا إِلَى مَشْهُورِ أَنْسَابِهِمْ ، ^(١) وَمَذْكُورِ بَيُوتَاتِهِمْ ^(٢) ؛ فَهُمْ الَّذِينَ تَسْمَعُونَ عَنْهُمْ وَتَعْرِفُونَ رِيَاسَتَهُمْ كَالِ خَالِدِ ، وَبَنِي أَبِي عَبْدِةَ ، وَبَنِي شُهَيْدٍ ، وَبَنِي بَسِيلٍ ، وَبَنِي حُدَيْرٍ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَشْرَافِ مَوَالِينَا . وَقَدْ أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَيْكُمْ ، مَعْشَرَ الْمَوَالِي ! فَهَذَا اسْمُكُمْ إِذْ قَدْ رَفَعَ اللَّهُ عَنْكُمْ الْعُبُودِيَّةَ بِهِ ، وَأَخْرَجَكُمْ مِنْ رِقِّ الْمَلَكَةِ ، وَصَيَّرَكُمْ مَنَّا وَخَلَطَكُمْ بِنَا ، وَأَفْضَى بِأَنْسَابِكُمْ إِلَيْنَا ، وَالْوَلَاءَ لِحُمةٍ ، فَمَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، وَمَلْعُونٌ مَنْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ ، وَادْعَى إِلَى ^(٣) غَيْرِ مَوَالِيهِ . هَذَا حُكْمُ الدِّيَانَةِ عَلَى لِسَانِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَمَّا حُكْمُ الدُّنْيَا وَسَيَرُ أَهْلِ السَّدَادِ وَالصَّلَاحِ فِيهَا ، فَلَا يَخْرُجُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ ضَلْعُكُمْ مَعَنَا ، وَمِثْلُكُمْ إِلَيْنَا . وَتَعْصِبُكُمْ لَنَا ، فَتَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِكُمْ ، وَأَجْدَرُ أَنْ تَعْمَلَ عَمَلِ آبَائِنَا فِي أَمْثَالِكُمْ ، مِنْ مَوَالِيهِمُ الَّذِينَ أَجَرَيْنَا ذِكْرَهُمْ ، فَإِنْ تَقَمُّمُ حَالًا ١٠ مَرَقَتْ ^(٤) الشَّمْلُ ، وَنَعَيْتُمْ أَمْرًا صَدَعَ الْجَمْعُ ، فَتِلْكَ الْفِتْنَةُ الَّتِي يَعْقُ فِيهَا الْإِبْنُ أَبَاهُ ، وَيَقْتُلُ لَهَا الْمُسْلِمُ أَخَاهُ ! ^(٥) أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا ، وَكَشَفَ لَنَا ظُلْمَتَهَا !

وفي فصلٍ منها :

وَلَعَلَّنَا فِيمَا سَاءَ كَمْ مِنْ تِلْكَ الْهَنَاتِ ، وَنَالَكُمْ مِنَ الْفَجَعَاتِ ، أَوْجَعُ قُلُوبًا ، وَأَشَدُّ غُموماً . فَسُبْحَانَ مَنْ لَوْ شَاءَ لَأَطْلَعَكُمْ عَلَى غَيْبِنَا فِيكُمْ ، وَعَرَفَكُمْ إِشْفَاقَنَا ١٥ عَلَيْكُمْ ؛ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمَا زِلْتُمْ الشَّعَارَ وَالذُّنَارَ ، لَا تُؤْثِرُ عَلَيْكُمْ ، وَلَا تَنْثِقُ ^(٦) إِلَّا بِكُمْ ؛ فَإِنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ قَدْ نَزَعَ بِمَا نَزَعَ بِهِ بَيْنَ ابْنِي آدَمَ فَمَنْ بَعْدَهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، فَقَدْ آتَى أَنْ تَتَوَبَّ الْحُلُومُ فَتَعُودَ الشُّيُوفُ فِي أَعْمَادِهَا .

(١-١) هـ في ر (٢) هـ في ب (٣) ب : « فرقت »

(٤-٤) هـ في ر (٥) ب : « نوثق »

وَالنَّبَالُ فِي كَنَائِهَا ، ^(١) وَنَحْنُ نُعَاهِدُ اللَّهَ أَلَّا نُوْأْخِذَ أَحَدًا بِذَنْبٍ ، وَلَا نَنَالَهُ بِعُقُوبٍ لَهُ وَلَا بِأَذَى ، وَلَا نَنْطَوِيَّ لَهُ عَلَى إِحْنَةٍ ، بَلْ نَغْفِرُ وَنَصْفَحُ وَنَزِيدُ فِي الْعَطَاءِ ، وَنَتَرَكُكُمْ بِمَوَاضِعِكُمْ الَّتِي ارْتَضَيْتُمُوهَا ، نَدْرُ عَلَيْكُمْ جِبَابَاتِهَا ، وَنَخْصُكُمْ مَنَافِعَهَا ، وَلَا نُنْسِيْ فِي أُمُورِكُمْ إِذَا سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ^(١) .

وله عنه إليهم في مثل ذلك من رُقعة ، يقول في فصلٍ منها :

زَعَمَ كَاتِبُ حَيِّفَتِكُمْ أَنَّهُ مَا دَامَتْ خِلَافَةُ سَلَفِنَا إِلَّا بَطَبَقْتُمْ ، وَلَا عَزَّتْ إِلَّا بِدَعْوَتِكُمْ . وَهَذَا قَوْلُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ ، فَلَمْ تَظْفَرْ طَبَقْتُمْ إِلَّا حَدِيثًا ، وَلَا كَثُرَ عَدَدُكُمْ إِلَّا قَرِيبًا ، وَلَمْ تَزَلِ الْخِلَافَةُ عَزِيزَةً ، وَالسُّلْطَانُ قَائِمًا بِأَوْلِيَاءِ الْحَقِّ وَأَنْصَارِ الدِّينِ . هُمُ الْعَارِفُونَ بِفَضْلِ الطَّاعَةِ وَمَوْقِعِهَا مِنْ رِضَاهُ تَعَالَى ، وَبِنَقْصِ الْعَصِيَةِ وَمَوْقِعِهَا مِنْ سُخْطِهِ . وَالْمِنَّةُ عَلَيْكُمْ لِمَنْ عَرَفَكُمْ — مَعْشَرَ الْعَبِيدِ ! — بِاللَّهِ ، وَأَدْخَلَكُمْ فِي دِينِهِ ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ ، وَأَخْرَجَكُمْ مِنَ الْكُفْرِ ، ثُمَّ اصْطَنَعَكُمْ وَنَوَّهَكُمْ بِالتَّصَرُّفِ فِي الْحِدْمَةِ . فَنِلْتُمْ بِذَلِكَ النِّعْمَةَ ، وَهِيَ هَاتِ أَنْ تَقْضُوا الْحَقَّ كُلَّهُ ، فَأَقْصِرُوا عَنْ شَأْوِكُمْ ، فَذَلِكَ أَوْلَى بِكُمْ !

وفي فصلٍ منها :

وَأَقْسَمْتُ عَلَى أَنَّ مَنْ حَسَبَنَاهُ مِنْ رُؤَسَائِكُمْ كَانَ أَوْلَى بِالسِّيَاسَةِ ، فَأَنَّى لَكُمْ ذَلِكَ وَمَا أَتَمُّ مِنْهُ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُدَبَّرُونَ مَسْئُوسُونَ ، أَتَبَاعُ مَرْبُوبُونَ ؛ وَسِرُّ التَّدْبِيرِ نَازِحٌ عَنْكُمْ ، وَالسِّيَاسَةُ الْقَوِيْمَةُ مَحْجُوبَةٌ دُونَكُمْ ؛ وَمَتَى بَلَغَكُمْ قَطُّ عَنْ عَبْدٍ تَرَبَّ عَلَى مَوْلَاهُ فَأَفْلَحَ ، أَوْ سَمِعْتُمْ بِجُنْدٍ شَعَبَ عَلَى مُدَبِّرِهِ فَأَنْجَحَ ؟ وَالْحَقُّ لَا يَصْرُهُ قَلَّةُ أَهْلِهِ . وَالْبَاطِلُ لَا يَنْفَعُهُ كَثَرَةُ جَمْعِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمَتِّينِ ، وَحِزْبُ

الله هم الغالبون ؛ مع أن سفهاء كل طبقة أكثر من حلمائها ، وقد رأيتم قديماً نتيجة آراء السفهاء ، وكيف أخنى على أهله بموت ذلك التسيير ، وطالما جهدنا في الصلاح ، وحاولنا قطع الشغب ، ودفع الفتنة ، فأبى الله إلا ما أراد على أيدي رؤسائكم ، الذين أتيتهم على عهدهم ^(١) . وأما من طلبنا من أصحابكم فإنهم قوم خدموا العائلات ، وتصرفوا في الولايات ، وعابوا على الجبابة ، وخلدت عليهم في الديوان الحسابات ؛ فهم الذين طولبوا في سبيل الحق ، ورمى منهم دون الكل بالبعض ، وأخذ فيهم وفي أسبابهم بالرفق دون العنف فاعتدوه ظالماً ، وإلى صلاح مآل أمرهم إذ قوربوا . والجميع على ذلك في خير من العافية ، ويحظ من الكافية ، وأمد من النظرة ، إلى أن يأذن الله ببُلوغ ما يشاء من المدى . وليس كل ما يبلغكم من التشنيع ويتصل بكم من الإرجاف يكتفت إليه ١٠ ذوو العقول ، ولا يصغى إليه أهل التحصيل .

وفي فصل منها :

وأما ما أُلصق بكم كاتب صحيفتكم إذ قال : إن لم يعمل بما أردتم أجبت دعوة من يناديكم ؛ فليت شعري من ذا النادى الذى إليه تلوى الأعناق عنا . أم إلى [من] تفرعون إن فارقت عصمتنا ؟ أما إن غرركم الشيطان ، وأسلمكم الخذلان ، ١٥ لتقرعن من الندم الأسنان ، بحيث لا ينفعكم أسف ، ولا يطوى عليكم لهف ؛ والله تعالى ودينه وخلافته في غنى عن عند عليه وحده ^(٢) ، وألحد في الإسلام عنه وشاقه ، وخرج عن الجماعة ، وشق عصا الأمة ، واستخف بحقوق الأئمة ، ونازع الأمر أهله ، واعترض من الرأى فيما ليس من شأنه على من صيره الله

(١) ب : « عهدكم » (٢) ب : « وحده »

إليه ، وأسلمه في يديه ، واجتنبه واصطفاه على علم به . ولولا أن أمير المؤمنين عَرَفَ ^(١) أن ملاًكم لم يجتمع على هذا الكتاب ، وتيقن أن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب ، لكان في ذلك نظر يُقيم الأود ، ويعدل الميل ، مع أن الحلم والكظم من أخلاقه ، والرفق والأناة من شيمه ؛ فاقبلوا أدبه ، وانتفعوا بموعظته ، فلو كشف لكم الغطاء ، واجتلي عليكم الغيب ، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا يتأمن عن مصالحكم ، ولا يني في منافعكم ، ولا يسعى إلا فيما يرُدُّ ألفتكم ، ويجمع كلمتكم .

وله عنه من أخرى ^(٢) إلى ابن ... ^(٢)

إن العاقبة للتقوى ، وإن كلمة الله هي العليا ، ولا تبئس فإن الحق دافع الباطل وإن لاحت للكذب بارقة ، وهبت له نائحة ، فإنما ذلك استدراج لأهله ، وإملاء لحزبه ؛ ثم يأخذهم بما اجتروا ، ويؤبقهم بما اكتسبوا ؛ وقد علم الناس أن هذين الخارجين علينا ، الناكثين بيعتنا ، مؤسومان بإحساننا . أمّا الطالبي فرقعناه من أوضع ملاحق الجند إلى أعلى مراتب أهل الخطط ، ونوّهنا بذكره ، وأشدنا باسمه ، وأشر كناه في سلطاننا ، وصرفنا إليه طائفة من جندنا ، ووثقناه [فيما] هم من أعمالنا . وأمّا المعيطي فإن البلاد نبت بجده ، فلفظته إلى جدنا رضي الله عنه ، فأواه وواساه ^(٣) وامتثلنا مثل ذلك في هذا الضعيف المتعير ، فوهبنا له خطير ما استوهب ، ويسرنا عليه عسير ما طلب ، وألحقناه بثقاتنا ^(٣) . فاستبقا في ميدان الغدر ، وجمعا إلى مدى الغمط والكبر ، جاحدين

(٢-٢) نه في ر والاسم غير واضح في ب

(١) ب : « يعلم »

(٣-٣) نه في ر

بِحَقِّنَا ، مُنْتَحِلَيْنِ لِمَا لَمْ يَجْعَلْهُمَا اللَّهُ لَهُ أَهْلًا . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ دَافِعٌ لَهَا بِحَقِّهِ
عَلَيْهَا ، وَمُسْتَعِينٌ بِاللَّهِ ثُمَّ بِإِحْسَانِهِ إِلَيْهَا .

وفي فصلٍ منها ^(١) :

وَأَمَّا مَا وَصَفْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، وَعَرَضْتَهُ عَلَيْنَا مِنْ مُجَاهَدَةِ الْمَارِقِينَ ، وَمُنَاضَلَةِ
النَّاكِثِينَ ، وَضَمْنَتَهُ مِنْ حَشْدِ الْأَجْنَادِ قِبَلَكَ ، وَاسْتِنْفَارِ أَهْلِ عَمَلِكَ ، ٥
وَمَا سَمَحْتَ بِهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى جَمِيعِهِمْ مِنْ مَالِكَ ، فَأَنْتَ أَهْلٌ لِكُلِّ ذَلِكَ ،
وَخَلِيقٌ بِالْوَفَاءِ بِهِ ، وَقَدْ بَذَلْتَ جَهْدَكَ وَقَضَيْتَ حَقَّ إِمَامِكَ ، فَأَرْضَيْتَ رَبَّكَ ،
وَزَكَّيْتَ نَفْسَكَ ؛ وَرَفَعْتَ فِي الْغَابِرِينَ ذِكْرَكَ ؛ وَصَدَّقْتَ ظَنَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
وَحَقَّقْتَ تَقَرُّسَهُ فِيكَ ، وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَجْتَزِيَ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَنْصَارِهِ ، وَيَكْتَفِيَ
بِمَنْ فِي حَضْرَتِهِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَهُمْ عَلَى أَجْمَلِ بَصِيرَةٍ فِي نَصْرِهِ . ١٠
وَعَلَى أَثْبَتِ
نِيَّةٍ فِي الذَّبِّ عَنْ سُلْطَانِهِ ، وَاللَّهُ يُعِينُهُ وَإِيَّاهُمْ وَيُؤَيِّدُهُ مَعَهُمْ . وَإِنْ احتَاجَ
إِلَيْكَ فَمَا أَطْيَبَ نَفْسَهُ عَلَيْكَ ، وَأَوْثَقَهُ بِإِجَابَتِكَ أَوْ دُعَاؤِكَ ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ،
وَمَتَّعَهُ بِكَ ، فَأَنْتَ سَيِّفُهُ الْفَاصِلُ ^(٢) ، وَسَهْمُهُ النَّافِذُ .

وله عنه إليه أيضاً :

وَيَجِبُ أَنْ تَزِيدَ فِي رُتْبَتِكَ ، وَتَهْدِبَ جَمَالَ جِهَتِكَ ، وَتَسْعَى فِي تَوْفِيرِ ١٥
مَحَاسِنِكَ ، وَتَكْثِيرِ مَنَاقِبِكَ ؛ وَإِنْ كُنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَنِّهِ كَامِلَ الْأَدَوَاتِ ،
كَثِيرَ الْحَسَنَاتِ ؛ وَلَكِنَّ الزِّيَادَةَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ مُحِبُّوهُ مِنَ النُّجَبَاءِ ، مَطْلُوبَةٌ
مِنَ الثَّبَلَاءِ ؛ وَأَنْتَ صَدْرُهُمُ السَّابِقُ وَهَادِيهِمُ الْمُبَرِّزُ ؛ وَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكَ فِي كِتَابِنَا

(١) هذا الفصل وما يليه ناقص في . (٢) ب : « الناضل »

مع فلان نُبَذَةً لم نَضَعْهَا دُونَ غَايَةِ الْبَيَانِ ، ولم يَسْعُنَا إِلَّا إِضَاحُ الدَّلِيلِ
وإِقَامَةُ الْبُرْهَانِ .

وله عنه إلى مُنْذِرِ بْنِ يَحْيَى :

وَأَمَّا أَمْرُ عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ فَعَلَى مَا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهَنِ ، وَإِنَّمَا
يَطْمَعُ فِيمَنْ عِنْدَنَا وَاللَّهُ يُبْطِلُ طَمَعَهُ . وقد أَوْحَشْنَا بَطْءَ أَخْبَارِكَ عَنَّا ، وَإِنْ كُنَّا
لَا نَشْكُ فِي أَنَّكَ عَلَى جَمِيعِ مَا تَصَرَّفْتَ بِهِ ، وَفِي كُلِّ مَا تَقَلَّبْتَ فِيهِ كَمَا نُحِبُّهُ
وَنَهْوَاهُ ، فَذَاكَ حَظُّكَ مِنَّا ، وَمَوْعِدُكَ مِنْ ثِقَتِنَا ، وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنْ بَوَّاعْتَ الْإِشْفَاقِ
جَمَّةً ، وَعَوَارِضَ التَّوَقُّى كَثِيرَةً ، وَقَدْ تَوَالَتْ الْمِحْنُ ، وَطَالَتِ الْفِتْنُ ، وَنَجَمَ
التَّفَاقُ ، وَشَاعَ الْخِلَافُ [بَيْنَ] أَهْوَاءِ أَوْلِيَائِنَا .

وله من أُخْرَى إِلَى ابْنِ صُمَادِحَ :

وَإِنَّ اللَّبْغِيَّ مَصَارِعَ لَا تَعْدُو أَهْلَهُ ، وَلِلنَّكَثِ عَوَاقِبَ لَا تُخْطِئُ مُعْتَقِدَهُ .
وقد عَلِمْتَ الْكَافَّةُ مَا أَوْلَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَلَانًا مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَأَفَاضَهُ عَلَيْهِ مِنْ
مَعْرُوفِهِ ، فَرَفَعَهُ مِنَ الْحَضِيضِ ، وَانْتَعَشَهُ عِنْدَ الْجَرِيضِ ^(١) ، وَنَوَّهَ بِهِ بَعْدَ الْخُمُولِ ،
وَكَثَّرَهُ وَهُوَ قَلِيلٌ ، فَلَمْ يَشْكُرْ لِلَّهِ نِعْمَةً ، وَلَا وَفَّى لَهُ بِذِمَّةٍ ، وَظَلَّ يَبْنِي الْغَدْرَةَ
عَلَى غَيْرِ أَسَسٍ فَخَرَّ بِنَاؤُهُ ، وَانْتَضَلَ فِي الرَّمِيَّاتِ فِي غَيْرِ هَدَفٍ فَصَافَتْ سِهَامُهُ ، وَأَصْحَابُهُ
يَتَسَاقَطُونَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ حِينٍ أَفْوَاجًا ، وَيَتَتَابِعُونَ إِلَيْنَا زُرْعًا أَرْسَالًا ، لِمَا يَبْدُو مِنْ
ضَعْفِ آرَائِهِ ، وَخُبْثِ مَذَاهِبِهِ ، وَقُبُحِ غَدْرِهِ ، وَتَنَاقُضِ أَمْرِهِ ، حَتَّى اتَّسَعَ عَلَيْهِ
الْخَرَقُ ، وَأَعْضَلَهُ الْفَتَقُ ، وَاسْتَنْفَرَ لَهُ وَجْهُ الْخِلَاقِ ، وَأَسْلَمَهُ غُرُورُ الشَّيْطَانِ ،
فَأَصْبَحَ نَادِمًا سَادِمًا ، وَأَمْسَى حَائِرًا بَائِرًا ، وَنَكَالُ اللَّهِ تَعَالَى نَازِلًا بِهِ ،
وَسُخْطُهُ مُنْزَلًا عَلَيْهِ ، وَبَأْسُهُ مُنْصَرِفًا إِلَيْهِ .

(١) ب : « المريض »

وفي فصلٍ من أخرى :

أنا لك في فلتاتٍ تحجبُ حُسنَ الظنِّ بمن أُسبغتُ عليه النعمة ، ووجبتُ
 لربِّه الحُجَّةُ في أداءِ النصيحة . وقد اندرجت في أنساءِ هذه الفتنةِ خطوبُ
 استعملَ فيها أميرُ المؤمنين الثقةَ بمن لم يتقِ الله في النصيحة له ولرسوله عليه
 السلامُ ولخليفته ولجماعة المسلمين . ولم تصدق نيته ولم يصحَّ خبره ولا رأى له
 لمكروبٍ فأوطأه عشوةً . وزخرفَ له كذبةً على إثر كذبة ، ومثَّى الأمانى ،
 وقرب المواعيد ، وتمقَّ الزور ، ولبسَ الأمور ، وأميرُ المسلمين يُوجسُ الخيفة ،
 ويخشى الخديعة ، ويرى أعلامَ الريبة . حتى وضحَ الفجرُ . وصرَّحَ عن
 زُبْدته المخض ، وليس هو بأول من أحسنَ فضاءَ إحسانه ، واصطنعَ فسقَظتُ
 صنائعه . وفي فضل الله عوضٌ من كلِّ فائت ، وفي جزائه خلفٌ من كلِّ
 ضائع . وفي إقبالِ رحمته غنى عن كلِّ مُدبر . وللأيام عُقبٌ تُدِيلُ الكره^(١)
 بالرضى ، وتنسخُ الشدةَ بالرخا^(٢) .

وله من أخرى عن علي بن حمود إلى مُنذر بن يحيى :

وما أنكرنا شيئاً مما ذهبت إليه من التآنى والتثبت ، ولا اعتقدنا إلا رأيتك
 في نظر الاجتماع ، وترقب الألتئام ، لترفعَ الشبهةَ وينجلي الشك ، وإن كان
 مذهبنا في هذه الأمة مشهوراً ، واحتسابنا الأجر في صلاحها معروفاً ، وقيامنا
 لنصرها وسخاؤنا بأنفسنا وأموالنا لاستنقاذها ، لا ننوى إلا وجهه تعالى ، وإلا
 فقد علم من عرفنا ، وأيقن من أنصفنا ، أننا كنّا [في] عيشٍ هنيءٍ ، ولبسٍ رخيٍّ ،
 وعملٍ واسعٍ ، ومالٍ وافرٍ ، وجُندٍ مُطيعٍ ، وحِصنٍ منيعٍ ؛ وفي دون ذلك ما أقنع
 من عرف الدنيا بحقيقتها ، وأجزأ من أنزلها منزلتها ؛ وما كفى من لا يعدلُ بالسلامة^{٢٠}

(١) ب : « الكره »

(٢) ب : « بالرضى »

ولا يبيع بالعَيْن ، ولا يركبُ الأهوال ، ولا يفتحُ للمهالك ، مُغرراً بدمه ، مُحاطِراً
بنفسه لحطامِ تافه ، وظلٍّ زائل ، ومتاعٍ قليل ، وإنَّا لنرجو منه تعالى أنه
لم يُيسِّرْ لنا ما يَسِّرْ من آمالنا إلا عند إطلاعه على نيتنا فيها . فنحنُ بعينِ الله ،
ونواصينا بيده ، والملِكُ والأمرُ له !

وفي فصل :

والشروطُ التي خطَطَها بيدك ، وأردتَ معرفةَ رأينا في إمضاها . فإنها
لعمُرُ الله قليلةٌ في استحقاقك ، ولو اتسعتِ البلادُ لأضعافٍ ما تليها ، لكنتَ لذلك
عندنا أهلاً في كفايتك وضلاعتك وضبطك وحزمك . فأما الاعتمادُ عليك في
الرأى ، والقصدُ إليك بالمشورةِ فهو الذي لا نعدوه بك ولا نُجاوزُهُ فيك ،
ونحنُ بذلك أخطى ، والفائدةُ لنا فيه أعلى . ١٠

وقد أنفذنا كلَّ ما دعوتَ إليه من تنفيذِ سِجِّلاتك على ما في يدك من
الأعمال ، واعتقدنا لك ولجميعِ أهلِ الشُّعور — حرَّسَهُمُ اللهُ ! — الأيمانَ المنعقدةَ
والأقسامَ المغلظةَ لا تدخلُ عليهم داخلةٌ يكرهونها ، ولا يُكلفونُ كلفةً
يستنقلونها ؛ ولا يخالفُ بهم طريقةَ يرضونها ، ما سمعوا وأطاعوا .

وفي فصل :

ووصيتك بأهلِ قرطبةَ وغيرهم مقبولةٌ ، ونصيحتك فيهم متبوعةٌ . ولن
يروا منا ، ولن تسمعَ فيهم عنّا ، إلا كما يُعجبُك ويسرُّك . ويُجذِّلك
ويُهيجُك ؛ وإنما هدى اللهُ أولَهم بأولنا ، وأسبغَ النعمَ على سلفهم بسلفنا ؛
وهل يؤثِّلونَ أحنى عليهم وأزأفَ بهم منا ؟ أم هل لمن آتاه اللهُ رُشدَه ، وشرَّحَ
بالإيمانِ صدرَه ، رغبةً عنّا ؟ وهل يُنكرُ فضلنا إلا جاهلٌ مكابرٌ ، أو يُدافعُ
حقَّنا إلا معاندٌ خاسرٌ ؟ ٢٠

وله من أخرى :

بلغنا جواؤك ناكباً عن الحق ، بعيداً من الإنصاف ، خلوا من حسن
 المعاملة « بدايةً بالامتنان بما كان منك ، بما لو اقتنعت فيه بما بذلناه من
 الشكر لركبت سنن المنصفين ، وسلكت سبيل المحسنين ؛ فقد قيل : إن
 الشكر وإن قل ، ثمن لكل نوال وإن جل »^(١) ؛ كما قيل : إن المنية^(٢) تُفسد
 الصنعة^(٣) . ولو نظرت في أخبار الماضين ، وكشفت عن سير الأولين ؛ لوجدت
 ملوك الأمم على قديم الزمان قد تعاملت بالتعاون ، وتواصت بالترافد ، وإن
 شحطت ديارها ، واختلفت أديانها ؛ وجعلت ذلك بينها حقوقاً تقضى ، وفروضاً
 تؤدى ، فالدهر أطوار ، والأيام دُول . وقد علمت أن الذي ساحتنا فيه لم تُقدم
 إليه إلا على شروطٍ اشترطتها ، وأطاع استدعيتها ، فقضيناك كل ما ملكناه ،
 ولم نمطلك بشيء أدر كناه . وذكرت أنك فعلت بنا ما فعلت دون معرفة
 تقدمت ، ولا محبة سلفت . ولو هربت عن الجفاء دهرك ، وأنفقت في السلامة
 من هذا الخطل عمرك ؛ لكنت لنفسك ناصراً ، وفي صفقتك تاجراً ؛ فإن
 كنت أردت معرفة العي ، كفى بذلك عيياً من القول ، وزلاً من الرأي .
 وإن قلت إنك لم تعرف مكاننا من الخلافة « ووراثتنا الإمامة ، عن أسلافنا
 الماضين « وأجدادنا الأقربين ؛ جهلت أننا في نصالها وذروتها ، وأقمعد الناس بها
 وأقواهم عليها « فقد كابرَت العيان ، ودافعت البرهان .
 وله عنه في معنى الرعية^(٤) :

إن الله تعالى قلدني من رعاية عباده « وحماني من سياسة خلقه ، وعصب

(٢) ب : « المنية »

(١) ب : « وأرجل »

(٣) من اجتهاد هذا الفصل إلى هنا في (٤) لم يقع هذا الفصل إلا في

ي من تدبير أموريهم وإصلاح شؤنيهم ، وألزمي من النظر لهم ، والعمل بما
يصلحهم مالا حول لي فيه ولا قوة عليه إلا بعونه وتأيسده ، ولا هداية
إلا بتوفيقه وتسديده ، وإن الرعية من السلطان ، بمكان الأشباح من الأرواح ،
صلاحيهما وفسادهما متصلان ، ونماؤهما ونقصاهما منتظران . إذ كانت الرعية
عنصر المال ، ومادة الجباية ، بها قوام الملك ، وعز السلطان ، ورزق الأجناد ،
التي بها يُقاتل العدو ، وينصر الدين ، وتحصى الحرم . ولما تأملت أحوال
أهل عملك من كورة جيان وذواتها ، وحصلت ما يلزمهم أداؤه هذا العام من
الطعام في العصور الواجبات ، تكتفهم من شفتي ، وأحاط بهم من عواطف ،
ما أدى إلى رفع مؤونة طعامهم ، وإعفاهم مما يلحقهم فيه من العنت ، ويرجع
عليهم من الدرك ، وكلف الحمولة إلى الأهراء ، وما يتبع ذلك من الانتقاص ،
ويتصل بالكيل من التطفيف ، وتسقط التبعات ، ويخف الثقل . فانظر
عندما يرد كتابي في توزيع ما يجب على أهل عملك من الناض عن كذا
وكذا من القمح والشعير ، حساب كل مدي من القمح ستة دنانير ، ومن
الشعير ثلاثة ؛ واشمل بتوزيعها الناس كافة غير محاش منهم أحدا . وليكن
ذلك على العدل ، وتحري الحق ، واعتماد الصدق ، بمشاهدة قاضي الجهة .
وموافقة شيوخ الرعية ووجوهها ، وأهل المعرفة بمواقع وظائفها إن شاء الله .
وله من أخرى ، عن المظفر بن أبي عامر ، حين قتل عيسى بن سعيد
القطاع وزيره :

أيها الناس — وفقكم الله لعصمته ، واستنقذكم برحمته ! — إن من علم منكم
حال الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى مبلغ النعمة عليه بالمحاضرة ،
فقد اكتفى بما شهد ، واجترأ بما عاين وحضر ؛ ومن غاب عنه كنه ذلك من

عَوَامِّكُمْ بِاتِّزَاحِ مَنْزِلٍ أَوْ لَا تَتَّصِلَ شُعْلٌ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّا أَخَذْنَاهُ مِنَ الْخَضِيضِ الْأَوْهَدِ ،
وَاتَّشَلَّنَاهُ مِنْ شَطَفِ الْعَيْشِ الْأَنْكَدِ ، فَرَفَعْنَا خَسِيسَتَهُ ، وَأَتَمَمْنَا تَقِيصَتَهُ ، وَخَوَّلْنَاهُ
صُنُوفَ الْأَمْوَالِ ، وَصَيَّرْنَا حَالَهُ فَوْقَ الْأَحْوَالِ ؛ فَذَلَّلَهُ بِذَلِكَ الْمَنْصُورُ مَوْلَايَ رَضِيَ
اللهُ عَنْهُ ، فَاعْتَمَدْتُهُ وَمَهَّدْتُ لَهُ فَرَشَ الْكَرَامَةِ ، وَبَوَّأْتُهُ دَارَ الْفَخَامَةِ ، وَأَسْبَغْتُ
مِنْ نِعْمِي عَلَيْهِ ، مَا أُحَوِّجُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ إِلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَقُمْ اللهُ تَعَالَى بِمَحَقٍّ ، وَلَا
قَابِلَ إِحْسَانِهِ بِصِدْقٍ ، وَلَا عَامِلَ رِعْيَتِنَا بِرِفْقٍ ، وَلَا تَسَاوَلَ خِدْمَتِنَا بِحِذْقٍ ؛
بَلْ أَعْلَنَ بِالْمُعَاصِي ، وَاسْتَذَلَّ الْأَعِزَّةَ وَذَوِي الْهَيْثَاتِ وَالْمَرْوَةَ ، وَنَافَرَهُمْ وَأَنَسَ
بِأَضْدَادِهِمْ ، وَنَبَذَ عُهْدَنَا ، وَخَالَفَ سُبُلَنَا ، وَكَدَّرَ عَلَى النَّاسِ صَفْوَنَا ؛ حَتَّى إِذَا
مَلَكَه الْأَشْرُ ، وَتَنَاهَى بِهِ الْبَطَرُ ، وَغَلَتْ^(١) بِهِ الْأُمُورُ ، وَغَرَّهُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ، حَاوَلَ
شَقَّ عَصَا الْأَمَّةِ ، وَهَدَّرَ رُكْنَ الْخِلَافَةِ وَالْأَمَانَةِ ، بِمَا احْتَجَجَ مِنْ حَرَامِ الْمَالِ ، وَاسْتَمَالَ
مِنْ طَعَامِ الرِّجَالِ ؛ فَحَجَّجْتُهُ نِعْمًا عِنْدَهُ ، وَخَصَّمْتُهُ عَوَارِفُنَا لَدَيْهِ ، وَكَشَفَ لَنَا سِرَّ
نَيْتِهِ حَتَّى صَرَغَهُ بَغْيُهُ ، وَأَسْلَمَهُ غَدْرُهُ^(٢) ، وَأَخَذَهُ اللهُ بِمَا اجْتَرَمَ^(٣) ، وَأَوْبَقَهُ بِمَا
اِكْتَسَبَ ، فَأَعْجَلْنَاهُ عَنْ تَدْيِيرِهِ ، وَصَارَ إِلَى نَارِ اللهِ وَسَعِيرِهِ .

قَوْلُهُ : « فَحَجَّجْتُهُ نِعْمًا عِنْدَهُ ، وَخَصَّمْتُهُ عَوَارِفُنَا لَدَيْهِ » مَحْلُولٌ مِنْ قَوْلِ

أَبِي تَمَّامٍ حَيْثُ يَقُولُ :

١٥

أَلَيْسَ هُجْرَ الْقَوْلِ مَنْ لَوْ هَجَوْتُهُ إِذَنْ لَهَجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي؟^(٤)

وَأَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ مِنْ قَوْلِ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانٍ إِذْ ظَفِرَ بِهِ الْحَجَّاجُ فَقَالَ :
اضْرِبُوا عُنُقَ ابْنِ الْفَاجِرَةِ ، فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ : بَلَسَا أَدَبَكَ أَهْلُكَ يَا حَجَّاجُ ! كَيْفَ

(٢) : « حذرته »

(١) ر : « وغت »

(٤) راجع ديوانه ص ١١٥

(٣) ب : « اجترح »

أَمِنْتَ أَنْ أُجِيبَكَ بِمِثْلِ مَا لَقَيْتَنِي بِهِ؟ أَبَعْدَ الْمَوْتِ مَنَزَلَةٌ أَصَانِعُكَ عَلَيْهَا؟ فَأَطْرَقَ
الْحَجَّاجُ اسْتَحْيَاءً وَقَالَ: خَلُّوا عَنْهُ. فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَطْلَقَكَ
إِلَّا اللَّهُ فَارْجِعْ إِلَى حَرْبِهِ مَعَنَا، قَالَ: هِيَاتِ! غَلَّ يَدًا مُطْلِقُهَا، وَاسْتَرْقَ رَقَبَةً
مُعْتَقُهَا؛ ثُمَّ قَالَ الْأَنْبِيَاءُ الَّتِي أَوَّلَهَا:

تَاللَّهِ لَا كِدْتُ الْأَمِيرَ بَالَةً وَجَوَارِحِي وَسِلَاحُهَا آلَاتُهُ.

وفي فصلٍ منها:

وَقَدْ زَالَتِ التَّقِيَّةُ وَوَجِبَ الصَّدْقُ. أَلَا مَنْ سَمِعَ هَذَا الْكِتَابَ وَأُخْبِرَ
عَنْهُ مِنْ تِلْكَ الطَّبَقَةِ فَلْيُرِدْ إِلَيْنَا مَالَنَا، وَلِيُخْرِجْ لَنَا عَنْ حَقِّنَا؛ وَلِيَحْذَرُ
أَنْ يَجْعَلَ لَنَا عَلَيْهِ سَبِيلًا. فَإِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءُ غَلَبَ عَلَيْهَا إِمَامٌ مِنْ صَمِيمٍ مَالِنَا فَلَمْ
يَتَوَرَّعْ^(١) فِيهِ عَنِ الْخِيَانَةِ، وَإِمَامٌ مِنْ أَمْوَالِ اللَّهِ بِأَيْدِينَا فَلَمْ يُوَدِّ فِيهَا الْأَمَانَةَ،
وَمَا ظَهَرَ نَأْيُهُ عَنْهَا فَصُرِفَتْ إِلَى سَبِيلِهِ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَرْزَاقِ أَجْنَادِهِمْ
وَنَفَقَاتِ ثُغُورِهِمْ. وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ سَارَعَ بِمَا فِي يَدَيْهِ، وَبَادَرَ بِمَا عِنْدَهُ، أَنْ نَعْرِفَ لَهُ
طَاعَتَهُ، وَشُكْرَ مُبَادَرَتِهِ؛ وَمَنْ تَوَانَى وَتَرَبَّصَ، وَقَعَدَ وَنَكَّصَ، أَنْ نَضَعَهُ
بِحَيْثُ وَضَعَ نَفْسَهُ مِنَ الظَّنَّةِ، وَاثْبَتَ عَلَيْهَا مِنَ التُّهْمَةِ، وَتَنْتَهَى بِهِ نِهَايَةُ
النِّكَالِ الْبَالِغِ؛ فَلَا يَنْظُرَنَّ حَازِمٌ لِرَبَّنَا^(٢) إِلَّا فِي ذِمَّةٍ.

تلخيصُ التعريفِ بخبرِ الوزيرِ عيسى بنِ سعيدٍ

المذكور، من الأولِ إلى الآخر، ومقتله على

يَدَيِ الْمُظَفَّرِ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ.

قال ابنُ بسَّامٍ: وكان عيسى بنُ سعيدٍ المعروفُ بابنِ القطَّاعِ قِيَمَ دَوْلَةَ ابْنِ

(١) ب: «يتروع» (٢) كذا في ب ولعلها: «لدينا إلا في ذمته»

أبي عامر وحاميل لوانها ، والمستقل بأعبائها ، ومالك زمام إعادتها وإيدائها .
طلع في فلكها قبل دورانه ، ودل على ما أخفاه طي كتابها دون عنوانه ؛ وأنا
أشرح حين أفضى بي القول إلى ذكره ، كيف كان غروبه وطلوعه ، ومن أين
اتفق طيرانه ووقوعه ؛ على ما قدمت والتزمت ،^(١) وحسبنا ضمنت ونظمت^(٢) .

- قال ابن حيان : لم يكن عيسى بن سعيد مأثرة سلف ، ولا بيت تقدم ،
خلا أنه عربي النجار ، من قوم يعرفون بيني الجزيرة من كورة باغه^(٣) . وكان
أبوه معلما فاختلف عيسى إلى الديوان ، وصحب محمد بن أبي عامر وقت حر كته
في دولة الحكم ؛ فبلغ به المنازل الجليلة ، وكان عنده مشهورا بيمن النقية .
وأخباره معه كثيرة . وتبجح عيسى بعد مهلك المنصور بن أبي عامر في دولة
ابنه عبد الملك ،^(٤) فتناهى في الاكتساب بالحضرة وجميع أقطار الأندلس .
ضياعا ودورا ، فات الناس إحصاؤها . واشتمل على الملك^(٥) هو وولده وصناعه .
وكان لهم مع ذلك في سائر أعمال السلطان نصيب ، وعلى كل عامل وظيف ، ولم
ينفذ توقيع إلا بأمره ، ولا تم أمر إلا بمشورته . وكثر أعداء عيسى لوقته ؛
فاحترس منهم جهده ،^(٦) وتيقظ في حراسة نفسه ، وإلى كثير من وجوه أهل
الدولة ، تصاهر لهم^(٧) بينيه وبناته ؛ فسمت جماعته ، ثم^(٨) تصاهر أخيرا إلى ابن
أبي عامر والذكر من عنده ، زوج ابنه المكنى أبا عامر أخت عبد الملك الصغرى
من بنات المنصور ، فتمت تلك المصاهرة في سنة ست وتسعين وثلثمائة .
وكانت وليمة عظيمة . وتناهى بعد أمور عيسى في الجلالة ، وأخذته الألسنة .

(٢) ب : « يفه »

(١-١) ه في ر

(٤-٤) ه في ر

(٣-٣) ه في ر

(٥) ب : « تظاهر »

وَاتَّفَقَ أَيْضًا عَلَيْهِ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْمَنْصُورِ انْتَبَسَطَ عَلَى أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي أَوَّلِ دَوْلَتِهِ بِصُحْبَةٍ طَائِفَةٍ تُخَلِّئُ بِهِ ، فَعَرَفَ عَيْسَى أَخَاهُ عَبْدَ الْمَلِكِ بِذَلِكَ ؛ فَحَمَلَهُ عَلَى كَفِّ^(١) عَبْدَ الرَّحْمَنِ عَنْهُ . فَحَقَّقَ عَلَى عَيْسَى وَرَصَدَ السَّعْيَ عَلَيْهِ ، وَاسْتَفْسَدَ أَيْضًا السَّيِّدَةَ الذَّلْفَاءَ أُمَّ عَبْدِ الْمَلِكِ^(٢) وَأَسَاءَ إِلَى صَنِيعَتَيْهَا خِيَالَ أُمِّ وَلَدِهِ ، وَالغَالِبَةِ كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ يَتَّصِلُ بِهِمَا بِسَبَبٍ نِكَاحِ عَبْدِ الْمَلِكِ^(٣) بِنْتُ الْجِنَانِ مَوْلَاتِهِ . كَانَتْ قَدْ تَادَّبَتْ بِأَدَبِ أَهْلِهَا وَأَخَذَتْ الْغِنَاءَ مِنْ مُحْسِنَاتِ قِيَانِهِ . فَظَرَّهَا عَبْدُ الْمَلِكِ يَوْمًا ، فَرَأَتْهُ ، وَهَانَ عَلَيْهِ لِقَرَطِ عِفَّتِهِ زَوَاجُهَا ؛ فَأَنْكَرَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَالدُّنْهَ ، فَاسْتَرَاحَ فِي الْأَمْرِ مَعَ عَيْسَى فَصَوَّبَهُ لَهُ وَأَمْضَاهُ . وَبَنَى عَبْدُ الْمَلِكِ بِهَا ، فَحَقَّقَتْ^(٤) أُمُّهُ عَلَى عَيْسَى . ثُمَّ اتَّهَمَ آخِرًا بِالْعُظْمَى مِنْ مُدَاخَلَتِهِ لِلْوَلَدِ أَبِي بَكْرٍ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ لِلْقِيَامِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَخَذَ الْمَلِكُ عَنْهُ . وَكَانَ عَيْسَى لَا يَحْضُرُ مَجْلِسَ شَرَابِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَّا فِي النَّذْرَةِ أَوِ الدَّعْوَةِ تَقَعُ ؛ اسْتَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ لَضَعْفِ شُرْبِهِ فَأَمَكَنَ أَعْدَاءَهُ الْقَوْلُ فِيهِ لِعَيْبَتِهِ بِمَا شَاءُوا ، وَزَادَ الْأَمْرُ حَتَّى تَنَكَّرَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ ، فَفَهِمَ عَيْسَى بَعْضَ ذَلِكَ لِقُوَّةِ حِسِّهِ^(٥) ، وَهَمَّةِ^(٥) نَفْسِهِ ، وَأَعْمَلَ الْحِيلَةَ فِي خِلَاصِهَا ؛ فَسَمَّا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الْغَدْرِ بِالْعَامِرِيَّةِ أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِهِ ، وَالْإِنْقِلَابِ مَعَ الْمُرَوَّاتِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ بِدَوْلَتِهِ . وَإِقَامَةِ الْوَلَدِ أَبِي بَكْرٍ هِشَامِ الْمَذْكُورِ عَلَى الْخَلِيفَةِ هِشَامِ الْمُؤَيَّدِ^(٦) ابْنِ الْحَكَمِ ، وَأَخَذَ الْخِلَافَةَ عَنْهُ لَضَعْفِ اسْتِقْلَالِهِ وَالْقَطْعِ لِدَوْلَةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ قَطْعًا لَا بُقْيَةَ مَعَهُ . وَكَانَ عَيْسَى خَلِيطًا لِهِشَامٍ بَعْدَ الْمَنْصُورِ صَاحِبِهِ ، مَحْمُولًا مَا بَيْنَهُمَا عَلَى السَّلَامَةِ ، فَدَعَا هِشَامًا إِلَى

(١) ب : « كف يد » (٢-٢) هـ في ر

(٣) ب : « خنقت » (٤) ب : « حسبه » ، هـ في ب

(٥) ب : « وأهمته » (٦-٦) هـ في ر ، واضطراب كثير في ب ، ولما

صححه عن « البيان المغرب » لابن عذارى (ج ٣ ص ٣٠)

ذلك ورأسه سرّاً ولقيه خفية ، وقرب له مأخذه على يده لئلا ينزله من آل
 العامرية ، وأن جندها لا تخالفه بحيلة . فاستجاب له هشام فيما ذكرُوا ، وأخذ
 بيعته عليه وساعده جماعة ، وكاد يتم الأمر ، وأعد رجالاً للفتك بعبد الملك ،
 فسار أحدهم إلى نظيف الفتى الكبير مولى ابن أبي عامر ، فتنصّح له بالقضية (١)
 فأعلم عبد الملك بها لوقتِه ، فاشتغل بالله ، وترجّع في أمر عيسى وخاف أن
 السعاية من كياد عدوه إلى أن أنهى إليه صاحب المظالم أبو حاتم بن ذكوان
 ما أقلقهُ . ولم يرتب به لئقته . وحده أن رجلاً يعرف بابن القارح الوزان
 كان متخصّصاً من العامة ، وله بالولد أبي بكر هشام المذكور اتصال ؛ فحكى عن
 نفسه أنه رأى نزول عيسى عليه ببعض بساتينه ، وأنه سمع ابن عبد الجبار
 يقول له : يا أبا الأصبع ، والله إني أخاف والخطر عظيم ! فقال له عيسى : ومن
 تخاف ؟ أو ليس الملك بيدي ، والجند طوعى ، والناس راضون بفعلى ؟
 ثم افترقا ، فجاء ابن القارح ، فأعلم ابن ذكوان ، فطار إلى عبد الملك بالخبر
 فبطش عبد الملك بعيسى . وكانت صورة قتله [أن] واطأ عليه أخاه عبد الرحمن
 ومن يليه من أصحابه ، فشددوا عزيمته ، وعقد معهم مجلساً للشرب ، وبعث
 عن أكثر أصحاب عيسى فجلس للشرب بالجلس الكبير المشرف على النهر
 لعشر خلت من ربيع الأول سنة سبع وتسعين (٢) . ثم أرسل عن عيسى وقد
 مضى من الشرب وقت ، فجاء رسوله وهو قد بدأ يشرب أيضاً مع نفر من
 أصحابه فيهم أبو حفص بن برود وغيره .

قال أبو حفص : فلم ترتب بدعائه ، وبادر بالركوب نحو عبد الملك ،

(١) ب : « بالقصة » (٢-٢) في هذه المجل تقديم وتأخير وتلخيص في

والقضاء قد جدَّ به^(١)، فلما وصل إليه أظهر الاستبشار به وأقبل عبدُ الملك عليه
بوجهه وأعلى مجلسه وأخذوا في شأنهم. فلما دارت الكؤوس أخذ عبدُ الملك
في معاتبته والتعريض لما قُرف به عنده ؛ وعيسى ينزعج من ذلك ، ويُقلد
الكأس ملامته هنالك ، إلى أن صرَّح عبدُ الملك بما في نفسه ، وألقى القدح ،
وأقبل يسُّبه ويُغلظُ له ؛ فأحسَّ عيسى بالشرِّ ، ورأبه نظرُ القوم إلى العيون ،
وطبق يعتذر ويحتج في إبطال ما قُرف به ويشدُّ القسم على فسادِه ، ويناشده
في إراقة الدَّم وعبدُ الملك لا يلتفتُ إليه ، إلى أن اعتلى الكلام وكثر اللَّجب ،
فقبض عبدُ الملك على سيفه من جانب الفراش فصَّبه على عيسى ، وقد قام
فرعاً ؛ فاستقبل وجهه بضربة ؛ فسقط عيسى ثم أعاد عليه وشاركه أصحابه
بُسوفهم حتى هَبَّروه^(٢) ، وحزَّ رأسه ووضع جانباً ؛ وأمر عبدُ الملك أيضاً بقتل
صاحبه ابن خليفة وابن فتح فُهَّرا^(٣) بالسُّيوف ، واختلط المجلس ، ولحق
كثيراً من أهله دهشةً حملت بعض مَنْ كان يقربه من الأعاجم إلى أن رمى
بنفسه في النهر هرباً من القتل فطاح في اللجة . وأمر برفع رأس عيسى بباب
الزَّاهرة ، وما زال هنالك إلى أن فُتحت الزَّاهرة على يد ابن عبد الجبار
المهدي ، وذهبت الدَّولة العامرية .

وقام عبدُ الملك من ذلك المجلس ، وأمر بتغيير ما وقع ثم لم يعد إلى
الشُّرب فيه — زعموا — حياته . وأنفذ في الوقت ثقات خدمه إلى منازل عيسى

(١) ر : « جذبه »

(٢) ب : « برد »

(٣) ر : « خبرا » — ب : « قهرا »

وَأَصْحَابِهِ وَكُتَابِهِ^(١) ، فَاسْتَصَفَى^(٢) مَا فِيهَا وَسَجَنَ أَوْلَادَ عِيسَى الْأَكْبَرِ بِمُطَبَقِ الزَّاهِرَةِ ، وَأَمَرَ ابْنَهُ بِطَلَاقِ أُخْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَطَلَّقَهَا وَلَمْ تَزَلْ خَلِيَّةً إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ قَوْمِهَا فَرَاغَهَا . وَكَانَ النَّاسُ يُحْسِبُونَ مَالَ عِيسَى كَالثَّرَابِ كَثْرَةً ؛ فَمَا وَجَدَ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ ؛ وَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى إِنَّ أَوْلَادَهُ إِلَى آخِرِ أَمْرِهِمْ مَا فَارَقَهُمُ الْإِقْلَالُ وَالْمُسْغَبَةُ . وَأَعْظَمَ النَّاسُ قَتْلَ عِيسَى لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ ؛ وَسَارَ^(٣) •
مِنْهُمْ إِلَى الزَّاهِرَةِ خَلْقٌ عَظِيمٌ يَنْظُرُونَ إِلَى رَأْسِهِ .

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَكُنْتُ فِي جُمْلَةٍ مَنِ نَظَرَ إِلَيْهِ وَاسْتَبَنَتْهُ الضَّرْبَةُ بِخَدِّهِ الْأَيْمَنِ . وَكَانَ أَبُو الْعَلَاءِ صَاعِدُ بْنُ الْحَسَنِ^(٤) الْفُغَوِيُّ^(٥) مُنْقَطِعًا إِلَى عِيسَى فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَنْشَدَ عَبْدِ الْمَلِكِ « عَلَى سَبِيلِهِ مِنْ سُرْعَةِ الْإِقْلَابِ ، شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ :

فِتْلَكَ هَامَتُهُ فِي الْجَوِّ نَاطِقَةً تُحَدِّثُ النَّاسَ مِنْ آيَاتِهَا^(٦) عِبْرًا
مَكْتُوبَةُ الْوَجْهِ بِالْهِنْدِيِّ يَقْرُؤُهُ مَنْ لَيْسَ يَقْرَأُ مَكْتُوبًا وَلَا سَطْرًا
وَمَنْ أَغْرَبَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الرُّؤْيَا بَعْدَ قَتْلِهِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الصُّلَحَاءِ^(٧) رَأَى
فِي النَّوْمِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يُنْشَدُ عَلَى الْخَشَبَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا :

بَانَ الْخَلِيطُ وَشَفَّنِي وَجَدِي وَبَقِيتُ أَنْدُبُ رُبْعَهُمْ وَخَدِي
فَأَوَّلَتْ^(٨) الرُّؤْيَا بَيْنَ آلِ أَبِي عَامِرٍ وَصَدَقَتْ إِلَى مُدِيدَةٍ . انْتَهَى مَا لَخَّصْتُهُ مِنْ
كَلَامِ ابْنِ حَيَّانَ فِي خَبَرِهِ .

(١) ر : « أسبابه » (٢) ب : « وقبض جميع »

(٣) ب : « وصار » (٤) هـ في ب (٥) هـ في ر

(٦) ب : « آياته » (٧) هـ في ر

(٨) ب ، ر : « فأذنت » ، والتصحيح عن « البيان المغرب » (ج ٣ ص ٣٥)

ومن شعر أبي حفص بن بُردٍ، ممّا خاطبَ به أبا العلاء صاعداً اللّغويّ
من أبياتٍ يقولُ فيها :

أهدى لك الودّ محضاً غيرَ مقطوبٍ أبا العلاء استمعَ تعريضَ ذي مقّة
وكمّ دنيّ قصيّ في المناسيبِ ناءً بغربته والفهمُ نسبته
أما كفى الدهرَ عَضُّ دُونِ^(١) تغريبِ وصارَ في غربةِ الآدابِ مُغْتَرِباً
لا يصلحُ الحمدُ إلّا بعدَ تجريبِ أوْلاكَ^(٢) محمّدةٍ من بعدِ تجريبِ
في العلمِ والظرفِ والآدابِ والطيبِ أنتَ الذي لمَ يعاشِرْ مثلهُ رجلاً
وكُنْه علمك شئٌ غيرُ محسوبِ تحصيلُ فضلكَ للحسادِ مُعْجِزَةٌ
وعيتَ منها ولا أشياخُ يعقوبِ أمّا اللغاتُ فلا يعقوبُ يبلغُ ما
تُحدّى وسيقتهُ في كلّ أسلوبِ وأنتَ ربُّ القوافي السارداتِ به
طبُّ تعاليجٍ فيها كلّ مطلوبِ^(٣) إنا نناديكَ للجلّي وأنتَ لها
رخصَ البنانِ كحيلِ العينِ مخضوبِ؟ فهلَ شعرتَ بيدِ طافٍ بي غلساً
لم تعدُّ بي مزجَ تصديقٍ بتكذيبِ أهدى إلى أرقٍ^(٤) لو حازها سنة
قناعَ وجهِ طويلِ الصّونِ^(٥) محجوبِ حياءَ تحيةِ ذي أنسٍ بناً وجلاً
ليلاً؟ فردّ بتأهيلٍ وترحيبِ فقلتُ: أهلاً ورحباً! من هداك لنا
ثوبِ احمرارٍ من الظلّماءِ غريبِ^(٦) وقال: ماذا ترى؟ قلتُ: الغزاةُ في
فقال: حللاً. فقلتُ: الحلُّ مطاوي! قال: اتنّدتُ! قلتُ: قد أبصرتهما قبلاً!

(١) ب : « عيش غير » (٢) ب : « أولاه »

(٣) هذا البيت والذي قبله ناقصان في ب (٤) ر : « أرقا »

(٥) ر « الصور » (٦) لم يقع هذا البيت في

قال: تحرّ فلا تشطّ بنا سرفاً
ثمّ اعلمى أنّي من حبّكم دنف
قلت: الوصال، فقالت: منه! إلى وعسى
ثمّت ولّت فأبقت في الحشا ضرمًا
فالآن فازجر أو اسجع إن همّت به
هذي عبارتها فالأمر^(٢) مشترك

فأجابه أبو العلاء صاعِدُ أبياتٍ يقولُ فيها :

لبّيك ألفاً، أباحفص، إجابة من
أبعد خمسٍ وسبعين التحفّت بها
رَمَيْتَنِي بِسَهَامٍ غَيْرِ طائِشَةٍ
يا من يرّقع بالآمال ما خرقت
ناديتني لخيال عزّ طائفه
حتّى أقيك شدا الأيام عن عضد
إياك والموعد الخوان تقبله
فاكتب على حمد ما قد وأتاك به
ولا تكونن قرحانا نصن له
الله في قلبك المزجور عن دده
فقد نجوت وما صدقت فورته
شيخ الوزارة جنى الكتابة إن

يدلي إليك بود^(٣) غير مأشوب
حتّى قرعت لهذا الدهر ظنوب
حور زرين على صمّ الأنابيب
يدا الليلي، قبيح صبوّة الشيب
ألا ليوم عصب إذ تنادي بي
ملدد وحسام غير مخشوب
فلا أمانة للعس الحاضيب
وضعه في الشمس يذهب غير مخشوب
حتّى عدون عليه عدوة الذيب
لا تسلمنه لتسفيد وتعذيب^(٤)
مشمّم القدح مهضوم الأنابيب
ركبت منها طريقاً غير مرّكوب

(١) لم يقع هذا البيت في ب — ر : « موحوب » (٢) ب : « فالعلم »

(٣) ب : « برد » (٤) لم يقع هذا البيت في ب

فَلَا تَسُومَنَّ شَيْخًا طَارَ طَائِرُهُ سَوْمَ الشَّيْبَةِ فِي لَهْوِ الْخِرَاعِيبِ
وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ الْمَضَامِرِ مُنْصِلُهُ عَمْرُ الْبَدِيهِ رَوَّاضُ الْمَصَاعِيبِ
قَوْلُهُ: « وَلَا أَمَانَةَ لِلنَّفْسِ الْمَخَاضِيبِ » من قول كثير^(١):

وإِنْ حَلَفْتَ لَا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَهَا فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ

وقوله: « فَاكْتُبْ عَلَى حَمْدِ » البيت، كقول ابن العميد:

مُتَقَلِّبُ يَأْتِيكَ أَثْبَتُ عَهْدِهِ كَالْخَطِّ يُرْسَمُ فِي بَسِيطِ الْمَاءِ

فصل في ذكر الوزير الكاتب أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم

وإثبات ما تخيرت له من النثر والنظم، مع

ما يتعلق به، ويذكر بسببه.

١٠ قال ابن بسام: كان أبو المغيرة هذا طيبة الحسام، وواسطة النظام،

وفارس ميدان البيان، وذات^(٢) صدر الزمان، حلّ من زهر الفضائل، محلّ

السنان من العاقل، والزبرقان^(٣) من المنازل، وتمّت به غرر المحامد، تمام

الصلوات بالعوائد^(٤)، ومجهول اللغة بمعلوم الشواهد. ودولة عبد الرحمن بن

هشام المستظهر المتقدّمه الذّكر كانت مهبة الذي منه عصف، ومجاله الأول الذي

١٥ فيه تصرف، ألقى إليه زمامه، وأخدمه أيامه؛ ثمّ عتب عليه في بعض الأمر،

فلحق ببلاد الثغر، فهناك تسحب على الدول، تسحب الهوى على العذل؛ وامتزج

(١) راجع ديوانه (ج ١ ص ٢٦٥) (٢) ر: « وأذات »

(٣) ب: « والقمر »

(٤) ب: « الصلة بالعائد »

بِعُلُوكِ الْعَصْرِ ، امْتِزَاجِ الْمَاءِ بِالْخَمْرِ ، وَلَوْ طَالَ مَدَاهُ لَمْ يُذَكَّرْ مَعَهُ سِوَاهُ ^(١) ،
وَلَا عَتَرَفَ بِتَفْضِيلِهِ أَحَبَّتُهُ وَعِدَاهُ .

نَقَلْتُ مِنْ خَطِّ أَبِي مَرْوَانَ بْنِ حَيَّانَ قَالَ :

وَلَحِقَ أَبُو الْمُغِيرَةِ بِلِلَادِ الثَّغَرِ وَقَدْ اعْتَلَتْ طَبَقَتُهُ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ، وَكُتِبَ
عَنْ عِدَّةٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ ، وَنَالَ حِظًّا عَرِضًا مِنْ دُنْيَاهُمْ ، إِلَّا أَنَّهُ اعْتَبِطَ شَابًّا بَعْدَ
أَنْ أَلْفَ عِدَّةَ تَوَالِيفَ « وَشَجَرَ الْأَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَقِيرِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ حَزْمٍ ابْنِ
عَمِّهِ ، وَحَدَّثَ ^(٢) بَيْنَهُمَا هَنَاتٌ ظَهَرَ عَلَيْهِ فِيهَا أَبُو الْمُغِيرَةِ وَبَكَتُهُ حَتَّى أَسْكَنَتْهُ ،
لَأَنَّهُ كَانَ أُنْبَى مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ فِي حُضُورِ شَاهِدِهِ ، وَذَكَاءِ خَاطِرِهِ ، وَحُسْنِ هَيْئَتِهِ «
وَبِرَاعَةِ ظَرْفِهِ ، وَجُودَةِ أَدَبِهِ ، وَهُوَ كَانَ فِي زَمَانِهِ فِي الْجِدِّ وَالْهَزْلِ صَاحِبَ اللَّوَاءِ
فِي مَجَالِسِ الْأُمَرَاءِ مُسْتَنْجِزًا لِلبَيْضَاءِ ، مَمْتَطِيًّا ^(٣) لِلشَّقَرَاءِ ، وَتَصَوَّرَ فِي قُلُوبِ
الرُّؤَسَاءِ ؛ فَأَجْزَلُوا أَرْزَاقَهُ فَعَظُمَتْ صِلَاتُهُ وَهَبَاتُهُ ^(٤) . اِتَّهَى كَلَامُ ابْنِ حَيَّانَ .
قُلْتُ أَنَا : وَقَدْ أَخْرَجْتُ مِنْ رَسَائِلِهِ الْعَمِيدِيَّةِ « وَقَصَائِدِهِ اللَّبِيدِيَّةِ ،
وَمِمَّا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ مَا يَسْجَرُ الْأَلْبَابَ ، وَيَهْرُ الشُّعْرَاءَ وَالْكِتَابَ .

جُمْلَةٌ مِنْ رَسَائِلِهِ فِي أَوْصَافِ شَيْءٍ :

كُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ الرَّبِيبِ الْقَرَوِيُّ رُقْعَةً يَقُولُ فِيهَا :
إِنِّي فَكَّرْتُ فِي بَلَدِ كُمْ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ إِذْ كَانَ قَرَارَةٌ كُلِّ فَضْلٍ ، وَمَقْصِدِ
كُلِّ طَرْفَةٍ ، وَمُورِدِ كُلِّ تَحْفَةٍ ، إِنْ بَارَتْ تِجَارَةٌ أَوْ صِنَاعَةٌ فَإِلَيْكُمْ تُجَلِّبُ ،
وَإِنْ كَسَدَتْ بَضَاعَةٌ فَعِنْدَكُمْ تَنْفَقُ ، مَعَ كَثْرَةِ عُلَمَائِهِ ، وَوُفُورِ أَدْبَائِهِ « وَجَلَالَةِ

(١) نه في ر (٢) ب : « وجرت »

(٣) ر : « مقتصاً » (٤) ب : « واجهاته »

مُلُوكِهِ وَمَحَبَّتِهِمُ لِلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ ، وَرَفَعِهِمْ مَنْ رَفَعَهُ أَدَبُهُ ، وَكَذَلِكَ سِيرَتُهُمْ فِي رِجَالِ
الْحَرْبِ يُقَدِّمُونَ مِنْ قَدَمَتِهِ شَجَاعَتُهُ ، وَعَظُمَتْ فِي الْحُرُوبِ نِكَايَتُهُ ؛ فَشَجِعَ
عِنْدَكُمْ بِذَلِكَ الْجَبَانَ ، وَأَقْدَمَ الْهَيْبَانَ ، وَنَبَهَ الْخَامِلَ ، وَعَلَّمَ الْجَاهِلَ ، وَنَطَقَ الْعَيْيَ ^(١)
وَشَعَرَ الْبَكِيَّ ، وَاسْتَنْسَرَ الْبُعَاثَ ، وَتَمَعَّنَ الْحَبَاثَ ^(٢) ، وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي الْعُلُومِ .
ثُمَّ هُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ التَّقْصِيرِ وَنِهَايَةِ التَّفْرِيطِ ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ عُلَمَاءَ الْأُمُصَارِ
دَوَّنُوا فَضَائِلَ أَعْيَانِهِمْ وَقَلَّدُوا ^(٣) الْكُتُبَ مَا تَرَوْا أَقْطَارَهُمْ ^(٤) ، وَأَخْبَارَ الْمُلُوكِ
وَالْأُمَرَاءِ ، وَالْكَتَابِ وَالْوُزَرَاءِ ، وَالْقُضَاةِ وَالْعُلَمَاءِ ^(٥) ، فَأَبْقَوْا لَهُمْ ذِكْرًا فِي الْغَابِرِينَ ،
وَلِسَانًا صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ؛ وَعُلَمَاؤُكُمْ مَعَ اسْتَظْهَارِهِمْ عَلَى الْعُلُومِ ، كُلُّ امْرِئٍ
مِنْهُمْ قَانَمٌ فِي ظِلِّهِ لَا يَبْرَحُ ، وَثَابِتٌ عَلَى كَعْبِهِ لَا يَتَزَحَّزَحُ ؛ يَخَافُ أَنْ صَنَّفَ
أَنْ يُعْتَفَ ، أَوْ تَخْطِفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ^(٦) ، لَمْ يُتَعَبْ
نَفْسًا أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي مَقَاخِرِ بَلَدِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلْ نَفْسًا فِي فَضَائِلِ مُلُوكِهِ ، وَلَا بَلَّ
قَلَمًا بِمَنَاقِبِ كُتَّابِهِ وَوُزَرَائِهِ ، وَلَا سَوَّدَ قِرْطَاسًا بِمَحَاسِنِ قُضَاتِهِ وَعُلَمَائِهِ ؛ عَلَى
أَنَّهُ لَوْ أَطْلَقَ مَا عَقَلَ الْإِغْفَالُ مِنْ لِسَانِهِ ، وَبَسَطَ مَا قَبِضَ الْإِهْمَالُ مِنْ بَيَانِهِ ،
لَوَجَدَ لِلْقَوْلِ ^(٧) مَسَاغًا ، وَلَمْ تَضِقْ عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ هُنَاكَ ، وَلَكِنْ هُمْ كُلُّ أَحَدٍ
مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُبَ شَأْنًا مِنْ تَقَدُّمِهِ مِنْ رُؤَسَاءِ الْعُلَمَاءِ ، لِيَحْزُرَ ^(٨) قَصَبَ السَّبْقِ ^(٩)
وَيَفُوزَ بِقُدْحِ ابْنِ مُقْبِلٍ ، وَيَأْخُذَ بِكَعْظِمِ دُعْبِلٍ ، وَيَصِيرَ شَجِيًّا فِي حَلْقِ
أَبِي الْعَمَيْثِلِ ؛ فَإِذَا أَدْرَكَ تِلْكَ الْبُعْيَةَ ، وَجَاءَتْهُ بَعْدُ الْمَنِيَّةُ ، دُفِنَ عِلْمُهُ مَعَهُ .
وَمَاتَ ذِكْرُهُ ، وَانْقَطَعَ خَبْرُهُ .

(١) ب : « الخارس » (٢) ب : « الحيات »

(٣) ب : « نخلدوا » (٤-٤) هـ في ر

(٥) سورة ٢٢ : ٣١ (٦) ب : « للقبول » (٧-٧) هـ في ر

وَمَنْ قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ احْتَالُوا لِبَقَاءِ ذِكْرِهِمْ ، فَالْقُوا دَوَائِنَ
يَبْقَى لَهُمْ بِهَا ذِكْرٌ يَتَجَدَّدُ طُولَ الْأَبَدِ .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ كَانَ ذَلِكَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ ، وَالْقُوا كُتِبْنَا لَكُنْهَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْنَا ،
فَهَذِهِ دَعْوَى لَمْ يَصَحِّحْهَا تَحْقِيقٌ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا رَوْحَةُ رَاكِبٍ ،
أَوْ دَلْجَةُ قَارِبٍ ، لَوْ نَفَثَ بَيْلِدٌ كَمْ مَصْدُورٍ ، لَأَسْمَعَ بَيْلِدَانَا مَنْ فِي الْقُبُورِ ، فَضْلًا عَمَّنْ ٥
فِي الدُّورِ وَالْقُصُورِ ، وَتَلَقَّوْا قَوْلَهُ بِالْقَبُولِ ، كَمَا تَلَقَّوْا دِيوانَ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ مِنْكُمْ
الَّذِي سَمَّاهُ بـ « الْعِقْدِ » . عَلَى أَنَّهُ يَلْحَقُهُ فِيهِ بَعْضُ اللَّوْمِ ، إِذْ لَمْ يَجْعَلْ فَضَائِلَ بَلَدِهِ ،
وَاسْطَةً عِقْدِهِ ، وَمَنَاقِبَ مَلُوكِهِ يَتِيْمَةً سِلْكِهِ ، لَكِنَّهُ أَكْثَرَ وَطُولَ ، وَأَخْطَأَ
الْمِفْصَلَ ، وَأَطَالَ الْهَزَّ بِسَيْفٍ غَيْرِ مِقْصَلٍ ، وَقَعَّدَ بِهِ مَا قَعَّدَ بِأَصْحَابِهِ مِنْ تَرْكِ
مَا يَعْنِيهِمْ ، وَإِغْفَالِ مَا يَهْمُهُمْ ؛ فَأَرْشِدُ أَخَاكَ — أَرْشَدَكَ اللَّهُ — إِنْ كَانَ عِنْدَكَ (١) ١٠
فِي ذَلِكَ الْجَلِيَّةِ ، وَبِيَدِكَ فَضْلُ الْقَضِيَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَرَاغَهُ أَبُو الْمُغِيرَةِ بَرْقَعَةً حَذَفَتْ أَكْثَرَ فُصُولِهَا لِطُولِهَا ، مِنْهَا :
أَبْقَاكَ اللَّهُ مِنْ حَمِيمٍ صَرِيحٍ الْوُدِّ ، أَهْدَى تَحِيَّتَهُ عَلَى الْبُعْدِ ؛ فَإِنَّ الْفَهْمَ
رَجِمَ ، وَالْأَدَبَ مَا يَنْبَغِي أَهْلَهُ وَسَائِلُ وَذِمَّةٌ ؛ وَلَيْسَ عَدَمُ التَّرَائِي وَالْعِيَانِ ، بِقَاطِعٍ
لِلْأَسْبَابِ وَالْأَقْرَانِ ، وَلَا تَنَائِي الدِّيَارِ وَالْمَنَازِلِ ، بِقَادِحٍ فِي الْأَذِمَّةِ وَالْوَسَائِلِ ؛ ١٥
فَالْكِتَابُ عَوَضٌ عَنِ الْكَلَامِ ، وَالتَّوَاصُلُ بِالنَّفُوسِ لَا بِالْأَجْسَامِ ، وَمَا زِلْتُ
أَتَنَسَّمُ ذِكْرَكَ ، فَأَتَرَسَّمُ قُدْرَكَ ، وَأَسْمَعُ خَبْرَكَ فَأَرَى خُبْرَكَ ، حَتَّى أَرَادَتِ الْأَيَّامُ
كَشْفَ السَّرِّ ، وَرَفَعَ السِّرِّ ؛ فَوَقَفْتُ عَلَى الصَّحِيفَةِ الَّتِي ظَاهِرُهَا دِيْبَاجٌ
مَرْكُومٌ ، وَبَاطِنُهَا لَوْ لَوْ مَنْظُومٌ ، وَوَشْيٌ مُخَوِّكٌ ، وَذَهَبٌ مَسْبُوكٌ ؛ فَرَأَيْتُ صُورَ (٢)
الْأَدَبِ بَاهِرَةً الْمُرَأَى وَالْعِيَانِ ، زَاكِِيَّةَ الْمَخْبَرِ وَالْامْتِحَانِ ، شَاهِدَةً لَكَ بِأَذَلِّ ٢٠

(١) ب : « بَانَتْ » (٢) ب : « عَمْرُوة »

لسان ، وأصدق بيان ، أنك أبو عذرتيها ، ومالك جملتها ، وواحد فنونها ، ووارد
معينها ، وقادمة جناحها ، وصبا رياحها ؛ فسألت سؤال العالم ، وبحث بحث
اليفظان المتغافل ، وادعيت الحيرة وأنت أهدى في تلك الفلا ، من فارط
القطا ، لتعلم أين المخطئ والمصيب ، وكيف الجواب والمجيب ؛ والله يوفق
من المراجعة لما يرضيك ، ويكون وفق أمانيك ؛ وما أجهل أنى على نفسى
أبتهل بهذا الدعاء ، لمن أسر حسوا في ارتقاء .

فأول ما قدمت في كتابك ما يقدمه ذو الفضل والتبيل من الثناء على بلدنا
وأهله ؛ ووصفت الجميع على اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم ، من آرائهم
التي نحوها ، وعلمهم التي وعوها ، بأوفر الأقسام ، واحتلالهم من ذلك
بالغارب والسنام ؛ حتى عارض الجبان الأسد ، وناطح الجوزاء الجملد ؛ وناطق
الأعجم الفصيح ، وبارى^(١) الجاهل العالم ؛ وجارى القاعد القائم ، تحاسدا على
الفضائل . هذا معنى كلامك لم أورد ألفاظه ، وإن أصميت أغراضه ؛ إشفافا
من أن أفصح كلامي به ، وأدل على قصور آلتى بمجملته ، فأكون كمن جمع
بين الشبه والذهب ، وقرن الدر إلى المخشلب ؛ ثم قلت : إن ذكر الفتى عمره
الثاني ، والميت المجهول لا الفانى ؛ فكلم من هالك آثاره كاشفة عيانه ، وواصفة
قدره وشانه ، وحي أثوابه كفنه ، وجهله جننه . وهؤلاء الذين أنصت في
وصفهم جياذ مدحك ، وهتكت ظلامهم بغرة^(٢) صبحك ، على غير هذا
الرأى مقيمون ، وبخلاف هذا المذهب قائلون . فوليت في حيز وعزلت ،
وارتفعت في حال ونزلت ، وأتيت بغاية المحال ، وهو إثبات الضدين في حال ؛

(١) ب : « ماري » (٢) ب : « بعزة » — ر : « بقوة »

ثم زدت في التعليل ، وبألفت في الاجتماع على التمثيل ، باعتمادك تكذيب من قال : إن الذي قاله غيرك لو وقع لكان قرب المسافة التي هي شوط جار ، بل غمضة سار ، توجب حل الشك ، وانجلاء الإفك ؛ فعجبت من أمرك مراجعاً لا يقصد في أدب المقابلة قصدي ، ولا يعقد على سانح أخوتك عقدي ؛ يجعل جوابك قول القائل :

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ^(١) حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تَنَادِي
وَعَفْرًا عَفْرًا لِهَذَا الْعُتُوقِ ! وَخُذْهُ يَا زَاءُ^(٢) قَوْلِكَ : « تَخْطِفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي
بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ^(٣) » . وعلى كل حال فقد نادينا لو سمعنا ، وطرننا لو
وقعنا ؛ وما أشبهنا بالقرينة التي خيرها يذفن ، وشرها يعلن ، يتعب أحدنا
نفسه ، ويُرهِف حسه ، ويعارض السيف بفهمه ، والبحر بعلمه ، والنار بذكائه ،
والزمان بمضائه ، ونتألم فكره محجوبة ، وبنات صدره غير مخطوبة .
إِنْ يَسْمَعُوا رَيْبَةً طَارُوا لَهَا فَرَحًا عَنْهُ ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَاحٍ دَفَنُوا^(٤)

وفي فصل منها :

وَلَوْ لَمْ يَعْلَمْ لَنَا خَبَرٌ ، وَلَا ظَهَرَ مِنَّا أَثَرٌ ؛ وَبَقِينَا لَا يَعْرِفُ مَكَانَنَا ، إِلَّا بِإِخْرَاجِ
قِسْمَةِ الْأَقَالِمِ لَنَا ؛ وَالْحَاجَةُ مِنَ الْجُغْرَافِيَّا إِلَى ذِكْرِ صُفْعِنَا^(٥) ، لَكَانَ عَذْرُنَا^(٦)
فِي التَّقْصِيرِ عَنْ اشْتِهَارِ الْفَضْلِ لَأَمْحَا ، وَإِنْ كَانَ نَهْجُنَا إِلَى أَخْذِهِ وَالْعِلْمِ بِهِ وَاضِحًا ؛
وَإِنْ كُنْتَ بِإِطْلَاقِ قَوْلِكَ قَدْ جَاهَرْتَنَا — وَحَقَّقْتَ — بِالظُّلْمِ مُجَاهَرَةً أَنَا

(١) ب : « لقد ناديت لو أسمعت » (٢) ر : « بآداب »

(٣) سورة ٢٢ : ٣١ (٤) لم يقع هذا البيت إلا في ر

(٥) ر : « ضفعا » (٦) ر : « عدنا »

أعجب كيف انقاد كريم طبعك لها ، وأعجب أيضاً من نجوى لك ، ووقوفي
عن الانتصاف منك ، وأنا أعلم أن عندكم لنا تواليف تطيرون بها ، وأشهد
بتقصير أربابها فيها ؛ وإن وُدّاً عقل لك لسانى ، ولم يُجْرِ إلا بما توتره وتختاره
بنانى ، لو دُفِّضَ الرّوض فى حزنه ، برائق حسنه ؛ ورّضوى فى هضبه ، بنقل
وزنه ، ونوء السماء فى هتنه ، بوابل مزنه ؛ وماهى إلا شيمة قديمة فيكم أهل
الجهة الظاهرة أعلامها ، الباهرة علومها وأفهامها .

قال ابن بسّام : وخرج أبو المغيرة فى رسالته هذه إلى التّطويل ، وبالغ
فى الاحتجاج بفصول ، هى عادة عن هذه السّبل ؛ وختّمها بذكر جملة من
تواليف أهل الأندلس ، أضربت عن تسميتها لشهرتها .

وله فصل من رقعة :

وعسى أن يكون شراء ذلك الديوان شراء^(١) التجار الأكياس^(٢) ، من
المديرين القائلين بارتضاع الكاس ؛ وهك^(٣) أن يكون أبو الحسن^(٤) وسيطك ،
وجماله شفيعةك ، فهو ممن كان له فى الحسن لواء مرفوع ، وحلة ترزى بالوشى
الصّنيع ، فعفى تلك الآثار ما سال من عذاره ، وطمس ليل اللّحية ما كان أشرق
من نهاره ؛ لاجرم لقد بقيت خيلان كالآثار الدّالة على الدّيار ، والحلّ
السّقيط ، المخبر عن بين الخليط ؛ وإذا تأملتّها قد اشتمل الشعر عليها ،
وزحف من كل جانب إليها ، ذكرّت قول أبى الطيّب^(٥) :

برسوم كأنهنّ نجوم فى عراص كأنهنّ ليال

(١) نه فى ب (٢) ر : « والأكياس » (٣) ر : « وتعد »

(٤) ب : « أبو الحسن » (٥) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٣٨)

وله حديثٌ سَتَسْتَظَرُّهُ إِذَا سَهَلْتَ لَهُ إِذْنَكَ ، وَأَعَرْتَ لَهُ أُذُنَكَ .

وأبو المغيرة في دعابته هذه كما قرأته في فصل كتبه أبو عبد الرحمن بن طاهر إلى الوزير ابن عبد العزيز مع غلامٍ وسيمٍ ، قال فيه : هذا الفتى كما تراه يُطْلَبُ خِدْمَةً ، وبه حِشْمَةٌ ؛ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَحْمِلُ حِمْلَهُ ، وَيُؤْتِي كُلَّ حِينٍ أَكْلَهُ ؛ وَقَدْ مَّا عَهْدُكَ تَحْنُ إِلَى هَذِهِ الْعَصَافِيرِ ، فَإِنَّهَا تُحْمَرُ الْحَوَاصِلِ صُفْرُ الْمَنَاقِيرِ .

وَعُرِضَتْ عَلَى أَبِي الْمَغِيرَةِ رِسَالَةٌ بَدِيعِ الزَّمَانِ فِي الْغَلَامِ الَّذِي خَطَبَ إِلَيْهِ وَدَّهَ بَعْدَ أَنْ عَذَّرَ ، وَبَقَلَ وَجْهَهُ وَأَزْهَرَ ، فَعَارَضَهَا بِرُقْعَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

وَرَدَّ كِتَابُكَ تَنْشُدُ ضَالَّةً وَدُّنَا ، وَتَرْقَعُ خَلْقَ عَهْدِنَا ، وَتَطْلُبُ مَا أَفَاتَتْهُ
جَرِيرَتُكَ إِلَيْنَا ، وَذَهَبَتْ بِهِ جَنَائِثُكَ عَلَيْنَا ، أَيَّامَ غُصْنِكَ نَاضِرٍ ، وَبَذْرُكَ زَاهِرٍ ؛
لَا نَجِدُ رَسُولًا إِلَيْكَ غَيْرَ لِحْظَةٍ تَخْرُقُ حِجَابَ الدُّمُوعِ ، أَوْ زَفْرَةٍ تُقِيمُ مُنَادَ ١٠
الضُّلُوعِ ؛ فَإِنْ رُمْنَا شَكْوَى يَنْفُثُ بِهَا مَصْدُورُنَا ، أَوْ يَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا مَهْجُورُنَا ، لَقِينَا
دُونَهَا أَمْنَعَ سَدٍّ ، وَأَفْدَحَ رَدٍّ ^(١) . وَقُلْتُ ^(٢) : أَهَذَا الطَّامِعُ ، فِي أَنْ يُطَالِعَ الْقَمَرَ
الطَّالِعَ ، وَالرَّاعِبُ ، فِي أَنْ يُصَاحِبَ النَّجْمَ الثَّاقِبَ ؟ لَشَدَّ مَا زَادَ ، وَأَبْعَدَ مَا أَرَادَ !
حَاوَلْ تَأَلَّفَ الطَّبِيبُ الشَّارِدَ ، وَهَضَرَ الْغُصْنُ الْمَائِدَ ، بِدَمْعَةٍ صَبَّهَا ، وَزَفْرَةٍ شَبَّهَا !
أَمَّا عِلْمٌ أَنْ لَحِظِي سَهْمَ الْقُلُوبِ أَغْرَاضُهُ ، وَأَتَى ظَبْيُ النُّفُوسِ رِيَاضُهُ ؟ ١٥
فَنَنْصَرِفُ عَنْكَ كَمَا أَتَيْنَا ، وَنَقِفُ كَمَا جَرَيْنَا ، وَنَعُودُ إِلَى نَارِ الْوَجْدِ بِكَ نَصْلَاهَا ،
وَنَارِ الْبُعْدِ عَنْكَ لَا نَبْرَحُ مَغْنَاهَا ^(٣) ؛ حَتَّى ^(٤) إِذَا طَفِئَتْ تِلْكَ النَّيْرَانِ ، وَانْتَصَفَ
لَنَا مِنْكَ الزَّمَانُ ، بِشَعْرَاتٍ أَغْشَتْ هَلَالَكَ كُشُوفًا ، وَقَلَبَتْ دِيبَاجَكَ صُوفًا ،

(١) ب : أشنع سد . وأقبح ... وصد ، وأفدح رد .

(٢) ما يلي ناقص في ر (٣) في الأصل : « معناه »

(٤) رجع الكلام في « بعنوان » وفي فصل منها .

وَأَعَادَتْ نَهَارَكَ لَيْلًا ، وَنَاحَتْ عَلَيْكَ تَلَهَّمًا وَوَيْلًا ، وَأَطَارَ حَمَامَكَ غُرَابُهَا ، وَحَجَبَ ضِيَاءَكَ ضِيَابُهَا ؛ فَصَارَ غُرْسُكَ مَاتَمًا ، وَعَادَ وَصْلُكَ مَحْرَمًا :

وَبِتَّ مُدَامًا تَسُرُّ النَّزِيْفَا فَأَصْبَحْتَ تُجْرَعُ خَلًّا ثَقِيْفَا

وَصِرْتَ حِجَارًا جَدِيبَ الْمَحَلِّ م وَقَدْ كُنْتَ لِلطَّالِبِ الْحِصْبِ رِيْفَا

٥ أَقْبَلْتَ تَنْسَلُ إِلَيْنَا لَوَازِدًا ، وَتَطْلُبُ مِنَّا عِيَادًا ؛ قَدْ أَنْسَاكَ ذُلُّ الْعَزْلِ عِزًّا

الْوَالِيَةِ ، وَأَوَّلَاكَ طَمَعًا نَسِيَانُكَ تِلْكَ الْجِنَايَةِ ، أَيَّامَ تَرْشُقْنَا سِهَامُ الْحَاطِظِ رَشْقًا ،

وَتَقْتُلُنَا سَيْوْفُ الْأَفَاطِظِ عَشْقًا ؛ وَتَمِيسُ غُصْنَا ، فَتُشِيرُ حُزْنَا ، وَتَطْلُعُ شَمْسُنَا ،

فَتَقْيِبُ (١) نَفْسًا ، خُدُودُنَا (٢) أَرْضُ نِعَالِكَ ، وَصُدُورُنَا حَدَّ مَجَالِكَ ، وَنَفُوسُنَا مِهَادُ

[جَنْبِكَ] (٣) ، وَقُلُوبُنَا مَيْسِدَانُ حَرْبِكَ (٤) ؛ فَالآنَ نَلْقَاكَ بِدَمْعٍ قَدْ جَفَّ ،

١٠ وَوَجَدَ قَدْ كَفَّ ؛ وَعِزَاءُ قَدْ أَبَدَ ، وَصَبْرٌ قَدْ غَارَ وَأَنْجَدَ ، وَهَوَى (٥) قَدْ أَرَاخَ

رَوَاحِلَهُ ، وَأَطَاعَ عَازِلَهُ ، وَسَلُوٌّ قَدْ قَرَّبَ رَكَابَهُ ، وَأَسْعَدَ طَالِبَهُ (٦) ؛ وَنَنْظَرُ

مِنْكَ إِلَى رَوْضٍ قَدْ صَوَّحَ ، وَسَارٍ قَدْ أَصْبَحَ ، وَأَعْجَمَ قَدْ أَفْصَحَ ، وَمُبْهِمٌ قَدْ

صَرَاحَ ؛ فَلَا شَكَّ وَقَدْ رُفِعَ الْغِطَاءُ ، وَلَا إِفْكَ وَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ ، وَلَا لَوْمْ وَقَدْ

وَقَعَ الْجَزَاءُ ؛ فَهَلَاذَ كَرَّتِ الْمَثَلُ الْمُتَمَهِّنُ : « الصَّيْفُ ضَمِيعَتِ اللَّبَنِ ! » ، وَلَسِيْتَ

١٥ مِنْ أَحْرَقْتَ قَلْبَهُ صَدًّا ، وَأَقْلَقْتَ جَنْبَهُ (٧) رَدًّا ؛ وَمَلَأْتَ جَوَاحِجَهُ (٨) نَارًا ،

وَتَرَكْتَ نَوْمَهُ غِرَارًا ؛ أَنْ يُوقِيَكَ قَرَضًا ، وَيُجَازِيكَ (٩) حَتَّى تَرْضَى ، حِينَ

نُكْسَ عِلْمُكَ ، وَعَثَرَتْ قَدَمُكَ ، وَضَاقَتْ طَرُقُكَ (١٠) ، وَأَظْلَمَ أَفْقُكَ ،

وَوَحَى (١١) نَجْمُكَ ، وَخَابَ قَدْحُكَ ، وَفُلَّ سَيْفُكَ ، وَحُطَّ رُمْحُكَ ؛ فَاطُوبَى تَوْبَ

(١) ر : « قَتَيْتِ » (٢-٢) نه في ر (٣) ؟ — ب : « بَنِكَ »

(٤-٤) نه في ر (٥) لب : « أَقْلَقْتَ جَنْبَهُ » — ر : « وَأَقْلَعْتَ خَلْبَهُ »

(٦) ر : « جَوَارِحَهُ » (٧) ب : « يُجَازِيكَ » (٨) نه في ب

(٩) ب : « هَوَى »

وَصَلِّكَ ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى لِبَاسِهِ ، وَازْوَ طَارِقَ شَخْصِكَ ، فَلَا رَغْبَةَ لَنَا فِي
إِيْنَاسِهِ ؛ فَمَا نَشْتَهِي الْيَوْمَ زِيَارَةَ رَمْسٍ مِنْ زَهْدٍ فِينَا أَمْسٍ .

حَانَتْ مَنِيتُهُ فَاسْوَدَّ عَارِضُهُ كَمَا تُسْوَدُّ بَعْدَ الْمَيِّتِ الدَّارُ
قَوْلُهُ : « وَبِتَّ مَدَامًا تَسْرُ النَّزِيْفَا » ، الْبَيْت : أَخَذَهُ ابْنُ عُبَادَةَ الْمَعْرُوفُ
بِابْنِ الْقَرَّازِ ، وَأَوْجَزَهُ غَايَةَ الْإِيجَازِ ، فَقَالَ :

يَا عُقَارًا صَارَ خَلًّا وَمَلَاذًا لِلْبَعُوضِ
سِرٌّ فَمَا لِي فِيكَ حَظٌّ كَانَ ذَا قَبْلَ الْحُمُوضِ
مَا أَبَالِي بَعْدَ أَكْلِ السَّرْبِدِ مِنْ طَرَحِ الْمَخِيضِ
وَالْبَيْتُ الَّذِي تَمَثَّلَ بِهِ أَحْيَرًا لَعَلِّي بِنِ بَسَامٍ الْبَغْدَادِيَّ ، مِنْ جُمْلَةِ آيَاتِ قَالَهَا فِي
أَخِيهِ جَعْفَرٍ ، مِنْهَا :

يَا مَنْ نَعْتُهُ إِلَى الْإِخْوَانِ لِحِمَّتِهِ
قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ يَهْشُ النَّاطِرُونَ لَهُ
لِلَّهِ دَرْ قَتَّى وَلَّتْ شَيْبَتُهُ
فِيَا لَدَهْرٍ مَضَى مَا كَانَ أَحْسَنَهُ
أَيَّامَ وَجْهِكَ مَصْقُولٍ عَوَارِضُهُ
حَانَتْ مَنِيتُهُ فَاسْوَدَّ عَارِضُهُ
أَذْبَرْتَ وَالنَّاسُ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
تُغَضُّ دُونَكَ أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ حَدٌّ وَمِقْدَارٌ^(١)
إِذْ أَنْتَ مُمْتَنِعٌ وَالشَّرْطُ دِينَارٌ
وَاللِّرْيَاضُ عَلَى خَدَيْكَ أَنْوَارٌ
وَكَانَ ابْنُ بَسَامٍ هَذَا فِي أَوَانِهِ بَاقِعَةً زَمَانِهِ ، لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ عَصْرُهُ أَمِيرٌ
وَلَا وَزِيرٌ ، وَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ ؛ وَكَانَ أَخُوهُ جَعْفَرُ الَّذِي ذُكِرَ
مِنْ أَهْلِ الْجَمَالِ الْفَائِقِ « وَفِيهِ يَقُولُ :

(١) هذا البيت والذي قبله ناقصان في ر

(٢) هذا البيت ناقص في ر (٣) هذه الفقرة إلى آخر الأبيات ناقصة في ر

حَانَ الْمَنِيَّةُ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ فَدَعَ الْمِكَّاسَ فَلَاتَ حِينَ مِكَّاسٍ
مَا بَالُ وَجْهِكَ بَعْدَ كَثْرَةِ نُورِهِ قَدْ سَوَّدُوهُ بِحَالِكَ الْأَنْقَاسِ
أَيْنَ الدَّنَائِيرُ الَّتِي عُوذْتَهَا هَيْهَاتَ جَاءَ الشَّعْرُ بِالْإِفْلَاسِ !
كَانَتْ تُجَدُّ شِيَابُهُ دِيْبَاجَةً فَاسْتَبَدَلَتْ حِلْسًا مِنَ الْأَخْلَاسِ
وَكَذَا الْبَقَاءُ بِغَيْرِ مُرْتَفَعٍ إِذَا كَانَتْ بَلِيَّةً مِنْهُ مِنَ الْآسَاسِ

وهو القائل في ابنه وقد بنى دارًا :

شِدْتُ دَارًا خِلْتَهَا مُكْرَمَةً سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْفَرْقَا
وَرَأَيْتُكَ صَرِيحًا وَسَطَهَا وَرَأَيْتُنَا صَاعِدًا زَلَقَا

واشتهار شعره في ابنه وأخيه وأهل عصره ، يَمْنَعُنِي عَنْ ذِكْرِهِ ^(١) ؛
وَيُذَكِّرُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ إِذَا كَانَ مِنْ وَادِيهِ ، أَوْ نَظَرَ إِلَى الْفَظِ أَوْ مَعَانِيهِ ^(٢) .

وَلَمَّا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ عَلَى بْنِ بَسَّامٍ هَذَا سَمِيًّا ، وَاجْتَمَعَتْ بِالْوَزِيرِ أَبِي مُحَمَّدٍ
عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ عَبْدِوْنٍ أَوَّلَ لِقَائِي لَهُ بِشَنْتَرِينَ فِي جُمْلَةِ أَصْحَابِ الْمُتَوَكِّلِ ،
فَأَوَّلُ مَجْلِسٍ اجْتَمَعَتْ مَعَهُ فِيهِ ، وَسَمِعَ بَعْضُ ^(٣) الْإِخْوَانِ يَدْعُونَنِي بِاسْمِي ، فَقَالَ
لِي : أَنْتَ عَلَى ابْنِ بَسَّامٍ حَقًّا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : أَوْتَهْجُو حَتَّى الْآنَ أَبَاكَ
أَبَا جَعْفَرٍ وَأَخَاكَ جَعْفَرًا ؟ قُلْتُ لَهُ : وَأَنْتَ أَيْضًا عَبْدُ الْمَجِيدِ ؟ قَالَ : أَجَلُ ، قُلْتُ :
وَحَتَّى الْآنَ فَيْكَ ابْنُ مُنَازِرٍ يَتَغَزَّلُ ؟ فَضَحِكَ مَنْ حَضَرَ لِهَذَا الْجَوَابِ الْحَاضِرِ .
وَخَبِرْتُ ابْنَ مُنَازِرٍ مَعَ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيِّ أَوْضَحَ مِنْ أَنْ يُشْرَحَ .
وَكَانَ مِنْ أَجْمَلِ فِتْيَانِ ذَلِكَ الْأَوَّانِ ، وَأَدْبِهِمْ وَأَظْفَرِهِمْ ، فَكَالِفٌ بِهِ ابْنُ مُنَازِرٍ
وَتَعَشَّقَهُ فَأَعْتَبْتُ لِعِشْرِينَ سَنَةً فَرَثَاهُ بِذَلِكَ الْقَصِيدِ الْفَرِيدِ ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ :

فَلَوْ أَنَّ الْأَيَّامَ أَخْلَدَنَ حَيًّا لَعَلَّاهُ أَخْلَدَنَ عَبْدَ الْمَجِيدِ
وَأَمَّا صِفَاتُ الْمُعَذِّرِينَ مِنَ الْعِلْمَانِ ۖ فَقَدْ جَرَتْ خِيُولُ فُرْسَانِ هَذَا الشَّانِ ،
بِهَذَا الْمَيْدَانِ ، وَتَفَنَّنُوا فِي ذَلِكَ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَمَدَحًا وَذَمًّا . وَمَنْ ذَمَّهُمْ مِنْ أَهْلِ
عَصْرِنَا عَبْدُ الْجَلِيلِ ^(١) ، حَيْثُ يَقُولُ :

وَأَمْرَدَ يَسْتَهِيمُ بِكُلِّ وَادٍ وَيَنْصِبُ لِلشَّجَا خَدًّا صَلِيبًا
دَعَوْتُ دُعَاءَ مَظْلُومٍ عَلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ مُسْتَمِعًا مُجِيبًا
فَطَوَّقَهُ الزَّمَانُ بِمَا جَنَاهُ وَعَلَّقَ مِنْ عِذَارِيهِ الذُّنُوبَا
وَأَخَذَهُ أَبُو بَكْرٍ الدَّائِي فَقَالَ :

بَدَا عَلَى خَدِّهِ عِذَارٌ فِي مِثْلِهِ يُعَذِّرُ الْكَثِيبُ
وَلَيْسَ ذَلِكَ الْعِذَارُ شَعْرًا لَكِنَّمَا سِرُّهُ عَجِيبٌ ^(٢)
لَمَّا أَرَأَى الدَّمَاءَ ظُلْمًا بَدَتْ عَلَى خَدِّهِ الذُّنُوبُ

ولعبد الجليل في هذه الصفات عِدَّةُ مَقْطُوعَاتٍ فَتَحَ بِهَا جِرَابَ الشُّخْفِ ،
وَلَمْ يَسْتَتِرْ فِيهَا مِنَ الْعَقْلِ بِسَجْفٍ ؛ وَقَدْ كَتَبْتُ مِنْ شِعْرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ وَسِوَاهُ ،
فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ بَعْضَ مَا اخْتَرَنَاهُ . وَلَمْ أَسْمَعْ فِي ذَمٍّ مِنْ غَزَلٍ
عَنْ وَلَايَةِ حُسْنِهِ ، أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِ أَهْلِ عَصْرِنَا وَهُوَ أَبُو الْحَسَنِ الْبَرْقِيُّ ^{١٠}
فِي أُبْيَاتٍ تُسْتَنْدَرُ بِجُمْلَتِهَا وَهِيَ :

الْآنَ لَمَّا رَوَّضْتَ وَجَنَاتَهُ شَوْكَاً وَأَضَحْتَ سَلْوَةَ الْعُشَاقِ
وَأَسْتَوْحَشْتَ مِنْكَ الْحَاسِنُ وَأَكْتَسَتْ أَنْوَارُ وَجْهِكَ وَاهِيَّ الْأَخْلَاقِ
أَنْشَأْتَ تَبْدُلَ لِي الْوِصَالِ تَصَنُّعًا خُلِقَ اللَّيْمُ وَشَيْمَةُ الْمَذَاقِ
هَلَا وَصَلْتَ إِذِ الشَّمَائِلُ قَهْوَةً وَإِذِ الْمُحَيَّا رَوْضُهُ الْأَحْدَاقِ ^{٢٠}

(١) ر : « عبد المجيد » (٢) ب : « غريب »

فَلَكُمْ أَطَلْتَ غَرَامَ قَلْبٍ مُوجِعٍ كَمْ قَدْ أَلَبَّ إِلَيْكَ بِالْأَشْوَاقِ
مَا كُنْتَ إِلَّا الْبَدْرَ لَيْلَةً تَمَّ حَتَّى قَضَتْ لَكَ لَيْلَةً بِمِحَاقِ
لَا حَ الْعِذَارُ فَقُلْتُ: وَجْهٌ^(١) نَارِخُ إِنْ ابْنُ دَايَةَ مُؤَذِّنُ بِفِرَاقِ
وَلَأَبَى الْحَسَنِ فِي هَذِهِ أَيْضًا عِدَّةُ مُحَاسِنٍ ، إِذْ كَانَ قَدْ خَلَعَ عِذَارَهُ فِي صِفَاتِ
الْمُعْذِرِينَ كَقَوْلِهِ :

وَأَزْهَرَ حَيًّا بَرِيحَانَةً تَضَوَّعَ مِنْ عَرْفِهَا الْمُنْدَلُ
وَزَادَ بِنَفْسِهِ أَصْدَاغَهُ فَقُلْتُ الزِّيَادَةُ قَدْ تُقْبَلُ
وَقَالَ أَيْضًا :

بَابِي^(٢) الَّذِي خَطَّ الْجَا لُ يَوْجِهِ لَامًا وَنُونُ
وَأَطْنَتْهُ جَعَلَ الْمَدَا دَ سَوَادَ أَحْدَاقِ الْجُفُونِ
حَافُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعُيُونِ نِ فَعَوَّذُوهُ بِالْعُيُونِ

وهذا كقول عبد الجليل :

وَمُعْذِرِينَ كَأَنَّمَا بِحُدُودِهِمْ طُرُقُ الْعُيُونِ وَمَنْهَجُ الْأَرْوَاحِ
وَكَأَنَّمَا صَقَلُوا الْجَمَالَ وَأَظْهَرُوا مَشَى النَّالِ عَلَى مُتُونِ صِفَاحِ

١٥ وَمَنْ عُنِيَ بِهَذَا الْوَصْفِ الْمَعْرِيُّ ، حَيْثُ يَقُولُ فِي ذِكْرِ السِّيفِ :

وَدَبَّتْ فَوْقَهُ مُخْرُ الْمَنَابِيَا وَلَكِنْ بَعْدَمَا مُسِخَتْ نِمَالًا^(٣)

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ :

وَلَا حَسِبْتُ صِفَارَ التَّمَلِّ يُمَكِّنُهَا سَعَى عَلَى اللَّحْجِ أَوْ مَشَى عَلَى الشُّعْرِ^(٤)

(١) لب : « وجد » — ب ب : « نجبه » (٢) ر : « إذا »

(٣) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٢٨)

(٤) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٣٨)

وقال بعض أهل عصرى وهو الوزير أبو محمد ابن عبد الغفور :

تُريه المنايا الحُمُرُ فيه وجوهها^(١) مُحَاتِلَةَ الأزواحِ في صورِ الذرِّ

وقال أيضاً بعض أهل أفقنا^(٢) :

جَدَاوِلُ ماءٍ مَا تَسُوغُ^(٣) لِوَارِدٍ تَرَى النَّمْلَ غَرَقَ فِيهِ غَيْرَ الْكَارِعِ

وقد كرَّرَ عبدُ الجليل مَعْنَى بَيْتِهِ الْمُتَقَدِّمِ فقال :

وَمَشَتْ لِحَاطِي فِي جَوَانِبِ خَدِّهِ حَتَّى أَثْرَنَ بِصَفْحَتَيْهِ طَرِيقًا

وقال أبو محمد بن سارة^(٤) الشَّنْتَرِيّ :

وَمُعَذَّرَ رَقَّتْ حَوَاشِي حُسْنِهِ فَقَلُّوْنَا وَجُدًا عَلَيْهِ رَفَاقُ

لَمْ يَكُنْ^(٥) عَارِضُهُ السَّوَادُ وَإِنَّمَا نَثَرَتْ عَلَيْهِ سَوَادَهَا^(٦) الْأَحْدَاقُ

وقال أيضاً بعض أهل عصرى وهو ابن رباح أبو تمام الملقَّبُ بِالْحَجَّامِ :

يَا لُعْبَةَ بَذْوَى الْأَلْبَابِ لَاعِبَةً فِي أَصْلِ حُسْنِكَ مَعْنَى غَيْرُ مُتَّفِقِ

خُلِقْتَ بَيَضاءَ كَالْكَافُورِ نَاصِعَةً فَصِرْتَ سَوْدَاءَ^(٧) مِنْ مَثْوَالِكِ فِي الْحَدَقِ

وهو أيضاً القائلُ في هذا المَعْنَى :

وَسَوْدَاءَ الْأَدِيمِ إِذَا تَبَدَّتْ تَرَى مَاءَ النَّعِيمِ جَرَى عَلَيْهِ

رَأَاهَا^(٨) نَاطِرِي فَصَبَا إِلَيْهَا وَشَبَّهَ الشَّيْءَ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ

(١) ب ، لب : « وجوها » (٢) هـ في ب ، لب ، والبيت الآتي منسوب

في هاتين النسختين إلى الوزير أبي محمد بن عبد الغفور المذكور

(٣) ب ، لب : « تصوح » (٤) لب : « صارة »

(٥) ب ، لب : « لم يكن » (٦) ب ، لب : « نقضت عليه صباغها »

(٧) ب ، لب ، هـ : « سمراء » (٨) ر : « رماها »

وَسَمِعَ الْوَزِيرُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جُرْجٍ مِنْ أَهْلِ أَفْقِنَا قَوْلَ ابْنِ الْجَهْمِ :
وَعَائِبُ اللَّسْرِ مِنْ جَهْلِهِ مُقْضًى لِلْبَيْضِ ذِي مُحْكٍ
قُولُوا لَهُ عَنِّي : أَمَا تَسْتَحْيِي ^(١) ؟ مَنْ جَعَلَ الْكَافُورَ كَالْمِسْكِ ؟

فَعَارَضَهُ بِقَوْلِهِ :

وَعَائِبُ اللَّبِيبِ ذِي إِفْكٍ مَعَارِضُ الْكَافُورِ بِالْمِسْكِ
دَغَّ عَنْكَ هَذَا وَانْقَلَبَ خَاسِئًا مَا الثُّورُ مِثْلُ الطُّلَمِ الْحَكِّ

ثُمَّ سَاعَدَ ابْنَ الْجَهْمِ فَقَالَ :

غُضُنْ مِنَ الْآبَنُوسِ أَبَدَى مِنْ مِسْكِ دَارَيْنِ لِي ثَمَارَا
لَيْلُ نَعِيمٍ أَظْلُ فِيهِ لِلطَّيِّبِ لَا أَشْتَهِي نَهَارَا

١٠ وَابْنُ جُرْجٍ أَيْضًا فِي مِثْلِهِ :

وَسَمَرَاءُ بَاهَى كُلْفَةَ الْبَدْرِ وَجْهَهَا إِذَا لَاحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّعْرِ الْجَعْدِ
مُحِبَّةٌ مِنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ لَوْنُهَا وَطَيِّبَتُهَا لِلْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ رَشِيقٍ :

دَعَا بِكَ الْحُسْنُ فَاسْتَجِيبِي يَا مِسْكَ فِي صِبْغَةٍ وَطِيبِ
تَهَيَّ عَلَى الْبَيْضِ وَاسْتَطِيلِي تَبِهَ شَبَابٍ عَلَى مَشِيبِ
وَلَا يَرُوعُكَ اسْوَدَادُ لَوْنِ بِمُقَالَةِ الشَّادِنِ الرَّيِّبِ
فَإِنَّمَا الثُّورُ عَنْ سَوَادِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَالْقُلُوبِ

١٥

قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ : هَذَا مِنَ الْكَلَامِ الرَّائِقِ ، الْمُتَأَخَّرِ الصَّادِقِ ، فِي تَفْضِيلِ

(١) ب : « يستحي »

السَّوَادِ عَلَى الْبَيَاضِ ، مع أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ لَمْ يَدْعُ فِيهِ لِأَحَدٍ مِنْ اعْتِرَاضٍ ،
وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ أَبُو حَفْصِ الشُّطْرَنْجِيُّ قَالَ :

أَشْبَهَكَ الْمِسْكُ وَأَشْبَهْتَهُ قَائِمَةً فِي لَوْنِهِ قَاعِدَةً
لَا شَكَّ إِذْ لَوْنُكُمَا وَاحِدٌ أَنْكُمَا مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ

وَلَمَّا كَانَتْ شِدَّةُ الْبَيَاضِ مِمَّا يُعَابُ ، وَأَنَّ أَكْفَ بَعْضِ السُّودَانِ مُشَقَّقَةٌ ،
وَأُطْرَافُهُمْ لَيْسَتْ بِنَاعِمَةٍ لَيِّنَةٍ ، وَأَنَّ عَرَقَهُمْ خَبِيثٌ مَعَ الْفَلَحِ الْمَلَاذِمِ لِأَوْسَاطِ
الشَّفَاءِ ، وَسَائِرِ مَا فِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَشْبَاهِ ، نَفَى ابْنُ الرُّومِيِّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَقَالَ
يَصِفُ جَارِيَةَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحِ السَّودَاءِ :

سَوْدَاءُ لَمْ تَنْتَسِبْ إِلَى بَرَصِ الشُّقْرِ وَلَا كُفَّةٍ وَلَا بَهَقٍ ^(١)

لَيْسَتْ مِنَ الْعَبْسِ ^(٢) الْأَكْفُ وَلَا الْفُلَحِ الشَّفَاءِ الْخَبَائِثِ الْعَرَقِ ١٠

وَبَعْضُ مَا فَضَّلَ السَّوَادُ بِهِ وَالْحَقُّ ذُو سُلْمٍ وَذُو نَفَقٍ

أَلَّا تَعِيبَ السَّوَادَ حُلُكَّتُهُ وَقَدْ يُعَابُ الْبَيَاضُ بِالْبَهَقِ

أَكْسَبَهَا الْحُبُّ أَنَّهَا صُبِغَتْ صِبْغَةَ حَبِّ الْقُلُوبِ وَالْحَدَقِ

فَانْصَرَفَتْ نَحْوَهَا الضَّمَامُ وَالْأَبْصَارُ يُعْنِقُنَ أَيَّمَا عُنُقٍ

وَلَمَّا سَمِعَ ابْنُ الرُّومِيِّ قَوْلَ أَبِي نُوَّاسٍ وَقَدْ نَبَّهَ نَدِيمًا لِلصُّبُوحِ فَأَخْبَرَ عَنْ ١٥

حَالِهِ وَهُوَ مِنْ جَيِّدِ تَشْبِيهَاتِهِ :

فَقَامَ وَاللَّيْلُ يَجْلُوهُ الصَّبَاحُ كَمَا جَلَا التَّبَسُّمُ عَنْ غُرِّ الثَّنِيَّاتِ ^(٣)

قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقَقٍ مِنْ تَغْرِهَا كَاللَّالِيءِ النَّسَقِ

(١) رُوِجَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ عَلَى النُّسخَةِ الْمَخْطُوطَةِ لَدِيَوَانَةِ « الْحَفْوُظَةِ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

(تَحْتَ رَقْمِ ١٣٩ أَدَبِ)

(٢) ر : « الْعَمْسُ » — وَه : « الشَّنْ » (٣) رَاجِعِ دِيَوَانَ أَبِي نُوَّاسٍ (ص ٢٥٠)

كَأَنَّهَا وَالْمِزَاجُ يُضَحِّكُهَا لَيْلٌ تَقَرَّرَى^(١) دُجَاهُ عَنْ فَلَقِ
وَفَضْلُ كَلَامِ ابْنِ الرُّومِيِّ عَلَى سِوَاهُ ، أَنَّهُ قَدَّمَ فِي التَّشْبِيهِ لِمَعْنَاهُ مُقَدِّمَةً
أَيَّدَتْهُ وَوَطَّأَتْ لَهُ الْأَذَانَ ، وَأَصْغَتْ الْأَفْهَامَ إِلَى الْإِسْتِحْسَانِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : « يَفْتَرُ
ذَلِكَ السَّوَادُ عَنْ يَقِي » وَكَانَ سُئِلَ أَنْ يَسْتَفِرَّقَ فِي صِفَاتِ مُحَاسِنِهَا الظَّاهِرَةِ
وَالْبَاطِنَةِ فَقَالَ :

لَهَا حِرٌّ يَسْتَعِيرُ^(٢) وَقَدَّتَهُ مِنْ قَلْبٍ صَبٍّ وَصَدْرٍ ذِي حَنْقٍ
كَأَنَّمَا حَرُّهُ لِدَائِقِهِ مَا أَلْهَبَتْ فِي حَشَاهُ مِنْ حُرْقٍ
يَزْدَادُ ضَيْقًا عَلَى^(٣) الْمِرَاسِ كَمَا تَزْدَادُ ضَيْقًا أَنْشُوطَةُ الْوَهَقِ
وَفَكَرَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِيمَا فَكَّرَ فِيهِ النَّابِغَةُ إِذْ أَمَرَهُ الشُّعَانُ بِوَصْفِ الْمُتَجَرِّدَةِ
فَوَصَفَ مَا يَجُوزُ ذِكْرُهُ مِنْ ظَاهِرِ مُحَاسِنِهَا ثُمَّ كَرِهَ^(٤) أَنْ يَذْكُرَ مِنْ بَاطِنِهَا^(٥)
مَا لَا يَسُوغُ لِمِثْلِهِ أَنْ يَذْكُرَهُ مِنْهَا ، فَرَدَّ الْإِخْبَارَ عَنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ إِلَى صَاحِبِهَا
وَهُوَ الْمَلَكُ فَقَالَ :

زَعَمَ الْهَامُ بِأَنِّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شَيْئُ الْمَوْرِدِ
الْأَبْيَاتِ ، فَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

وَصَفْتُ فِيهَا الَّذِي هَوَيْتَ عَلَى الْوَهْمِ وَلَمْ أَنْتَبِذْ وَلَمْ أَذُقْ
إِلَّا بِأَخْبَارِكَ الَّتِي وَقَعَتْ مِنْكَ إِلَيْنَا عَنْ ظَبْيَةِ الْبَرْقِ

(١) لب : « تفرى » — ب : « تفرى » (٢) ر : « تستعير »

(٣) ر : « عنده » (٤) ر : « كر »

(٥) ب ، لب : « فضائلها »

حَاشَا لِسَوْدَاءَ مَنْظَرٍ سَكَنْتُ دَارَكَ إِلَّا مِنْ نَحْبَرٍ ^(١) يَتَقَي
وَلَمَّا سَمِعَ الْفَرَزْدَقُ يَرْثِي امْرَأَةً تُوَفِّيَتْ حَامِلًا ، حَيْثُ يَقُولُ ^(٢) :

وَجَفَنَ سِلَاحٌ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنْحُ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ عَلَيْهِ الْبَوَاكِيا
وَفِي بَطْنِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لِيَالِيَا

قال ابن الرومي :

أَخْلَقَ بِهَا أَنْ تَقُومَ عَنْ ذَكَرٍ كَالسَّيْفِ يَفْرِي مُضَاعَفَ الْحَلَقِ
إِنْ جُفُونَ السُّيُوفِ أَكْثَرُهَا أَسْوَدُ ، وَالْحَقُّ ^(٣) غَيْرُ مُخْتَلِقٍ
فَزَادَ زِيَادَةً بَيِّنَةً ، وَعِبَارَةً وَاضِحَةً ، لَمْ تَفْتَقِرْ إِلَى تَفْسِيرِ أَصْحَابِ الْمَعَانِي ،
وَبَلَغَ مِنَ الْإِجَادَةِ ، فَوْقَ الْإِرَادَةِ ؛ وَمُنَاسِبَةُ الشَّعْرِ فِي الْمَعْنَى وَاللَّفْظِ كَثِيرَةٌ .

ونرجع إلى رسائل أبي المغيرة :

فَصَلُّ مِنْ رُقْعَةٍ لَهُ ^(٤) : مُؤَدَّى كِتَابِي هَذَا قَصَدَ حَضْرَةَ الْحَاجِبِ الْفَاضِلِ ،
وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ سَبَبٍ وَاصِلٍ ، إِلَى رَجَاءٍ حَاصِلٍ ؛ وَأَنْتَ هُنَاكَ فِي كُلِّ مَطْلَبٍ
صَالِحٍ ، وَمَذْهَبٍ رَاجِحٍ ، الدَّلْوُ وَالرِّشَاءُ ، وَالنَّهْيَةُ وَالْإِبْتِدَاءُ ؛ وَلِلْقُرَشِيِّينَ ^(٥)
الْأَسِنَّةُ بِالْثَنَاءِ فَصَاحٍ ، وَمَنْ أَوْلَاهُمْ يَدًا فَقَدْ حَمَلَ مَحَاسِنَهُ أَجْنَحَةَ الرِّيَّاحِ ، وَكَبَّهَا
فِي عُزَّةِ الصَّبَاحِ .

فَصَلُّ مِنْ رُقْعَةٍ شَفَاعَةٍ أَيْضًا :

إِذَا شَرِبَ رَوْضُ الشُّكْرِ ، مِنْ حَوْضِ الْبَرِّ ، أَطْلَعَ مِنَ الزَّهَرِ ، مَا يُخْجَلُ مِسْكَ

(١) ر : « مجر » (٢) ديوان الفرزدق (ج ١ ص ٢٢٩)

(٣) ر : « والخلق » (٤) هذا الفصل ناقص في ر

(٥) ب ، لب : « والعربيين »

الطُّرَرُ ؛ وَتَنْفَسَ عَنْ نَسِيمٍ ، يَشْفِي حَرَارَةَ الْقُلُوبِ الْهِيمِ ، وَبِحَسَبِ الْقَائِلِ يَكُونُ
 الْمَقَالُ . وَعَلَى قَدَرِ الْجَائِلِ يَتَّسِعُ الْمَجَالُ ، وَأَبُو الرَّبِيعِ مَنْ عُلِمَ لِسَانُهُ إِنْ قَالَ ،
 وَبَيَانُهُ قَصْرٌ أَوْ طَالُ ؛ وَأَنَّهُ أَشَدُّ بُنَاةَ الْكَلَامِ حِرْصًا ^(١) ، إِذَا وَجَدَ أَجْرًا وَجْصًا ؛
 وَأَعْظَمُ حَيَادِهِ تَهَاوُتًا ، إِذَا وَجَدَ مَيْدَانًا مُتَفَاوِتًا ، فَمِنْ أَوْثَقِهِ بَرًّا ، طَوَقَهُ شُكْرًا ،
 وَمَنْ خَلَعَ عَلَيْهِ ثِيَابَ الْفَضْلِ مِنْ طِرَازِ الْإِكْرَامِ ، نَزَعَ إِلَيْهِ بِحِيَادِ الْحَمْدِ مِنْ
 مَرْبِطِ الْكَلَامِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ يَمْرِي خِلْفَ الطَّلَبِ . بَيْدِ الْأَدَبِ ، وَيَسْرِي فِي
 ظِلَامِ ^(٢) الْأُمُورِ . بِسِرَاجِ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ ، حَتَّى إِذَا رَأَى تِلْكَ الْأَسْبَابَ
 رِثَانًا ، وَعَايَنَ مُبْرَمَ وَسَائِلَهَا أَنْكَانًا ، طَلَّقَ عُرْسَ الشَّعْرِ ثَلَاثًا ، وَصَارَ لَا يَرَى نُجْعَةً
 لِأَدَبٍ ، وَلَوْ أَوْطَأَتْهُ عَلَى أَرْضِ الذَّهَبِ ؛ فَمَنْ سَمَّاهُ بِأَدِيبٍ فَقَدْ عَقَّه ، أَوْ سَمَّاهُ
 بِشَاعِرٍ فَقَدْ أَبْطَلَ حَقَّه ؛ حَتَّى إِذَا لَقِيَ مِنْ كَرِيمٍ صَوْنًا ، وَعَلَى مَا يُحَاوِلُهُ عَوْنًا ، ذَكَرَ
 فَشَكَرَ ، بِنَاءً كَالزَّهَرِ ، تَحْتَ أَنْدَاءِ السَّحَرِ ، وَأَمْسَكَ مِنَ الْأَدَبِ ، عَلَى هَذَا
 الذَّنَابِ ، وَلَوْ لَا أَنْ يَسْرَّ بِهَذَا الْقَدْرِ ذَا قَدَرٍ ، لَصَدَقَ الْحَمْلَةُ ، وَنَحَاها مِنْ صَدْرِهِ
 حُمْلَةً ، وَنَزَعَ إِلَى تَصَوُّفٍ يُحْمَدُ فِيهِ رَأْيُهُ ، وَيُحْنِيهِ ثَمَرُ الْعَيْشِ مِنْهُ سَعْيُهُ ؛ فَقَدْ
 سَمِعَ تَشْبِيهُهُ بِالْعِيَالِ . وَدُخُولَهُ تَحْتَ الْمِنَنِ السَّابِقَةِ الْأَذْيَالِ ^(٣) . وَغَرَضُهُ مِنْكَ
 — أَعَزَّكَ اللَّهُ — رَأَى أَصِيلَ ، وَإِشَادُ جَمِيلَ ، وَتَأْنِيسُ يَسْهَلُ بِهِ وَغَرُ
 الزَّمَانِ ، وَيُثْنَى إِلَيْهِ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — شَارِدُ الْأَمَانِ .

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى : أَعَزَّكَ اللَّهُ ! فِي الْإِحْتِمَاءِ حَسْمُ الدَّاءِ ، وَلَا عَدُوٌّ لِلْإِنْسَانِ
 إِلَّا نَفْسُهُ ، وَلَا حَيَّةٌ وَلَا عَقْرَبٌ إِلَّا جِنْسُهُ ؛ وَلَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ ، أُخْبَثُ فِي ذَاتِهِ
 مِنَ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْإِحْتِرَاسُ كُلُّ الْإِحْتِرَاسِ ، وَالْمَعَاشِرَةُ الْجَمِيلَةُ لِلنَّاسِ ؛ فَأَبْصِرْ
 بَصِيرَتَكَ ، وَأَحْسِنْ سَرِيرَتَكَ ، وَلَا تُلْدَغَنَّ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ ، وَادْكُرِ الْمَثَلَ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ (٢) لَب : « ظَلَم » (٣) ب ، لَب : « الْأَنْدَال »

السَّائِرِ فِي اللَّاعِبِ بَيْنَ وَتَدَيْنَ ؛ وَالْعَاقِلُ مِنْ حَمَلِهِ كُلُّ بَلَدٍ ، وَنَفَقَ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ ؛ وَأَعْقَلَ مِنْهُ مَنْ عَرَفَ النَّاسَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ ، فَاسْتَرَاخَ مِنْ أَجْنَبِيٍّ مُتَكَلِّفٍ ، أَوْ قَرِيبٍ ^(١) غَيْرِ مُنْصِفٍ ، وَلَمْ يَفْتَقِرْ إِلَّا إِلَى رَبِّهِ ، وَلَمْ يَأْنَسْ إِلَّا بِنُورِ لَبِّهِ .

وله من أخرى :

فَالْأَرْضُ قَدْ نَشَرَتْ مُلَاءَهَا ، وَسَجَبَتْ رِءَاءَهَا ، وَلَبَسَتْ جِلْبَابَهَا ، وَتَقَلَّدَتْ سِخَابَهَا ^(٢) ، وَبَرَزَ الْوَرْدُ مِنْ كِمَامِهِ ، وَاهْتَزَّ الرَّوْضُ لَتَغْرِيدِ حَمَامِهِ ؛ وَالْأَشْجَارُ قَدْ نَشَرَتْ شُعُورَهَا ، وَهَزَّتْ رُءُوسَهَا ، وَالذُّنْيَا قَدْ أَبَدَتْ بَشَرَهَا ، وَأَمَاطَتْ عُيُوسَهَا ؛ وَكَأَنَّ بِهَا قَدْ أَطْلَعَتْ مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ضُرُوبًا ، وَأَبَدَتْ مِنْ جَنَاهَا مَنْظَرًا عَجِيبًا ؛ وَإِنْ كُنَّا لَا نُشَارِكُ فِي تِلْكَ إِلَّا بِالْعِيَانِ لَا بِاللِّسَانِ ، وَبِالطَّرْفِ لَا بِالْكَفِّ ، ^(٣) وَنَنَاقُلُهَا بِالِاخْتِلَاسِ لَا بِالِاضْرَاسِ ^(٤) ؛ وَلِلدَّهْرِ قِسْمٌ مِنْ ١٠ أَقْسَامِ اللَّذَّةِ ، وَصِنْفٌ مِنْ أَصْنَافِ الشَّهْوَةِ :

شَهْدَنَا إِذْ رَأَيْنَاهُمْ [بَانَا] ^(٥) عَلَى اللَّذَاتِ فِي الدُّنْيَا شُهُودُ

^(٥) وَحَالِي حَالٍ لِلسَّقَامِ بِهَا اتِّصَالٌ ، وَلِلصَّحَّةِ عَنْهَا انفِصَالٌ ؛ يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ ضَعْفُ الْبَيْنَةِ ، وَفَسَادُ الْأَهْوِيَةِ ، وَالتَّخْلِيْطُ فِي الْأَغْذِيَةِ ؛ وَبَعْضُ صَلَاحِهَا بَلْ كَلُّهُ تَعْجِيلُكَ مُطَالَعَتِي بِحَالِكَ ، لِأَسْكُنَ إِلَى مَا أُوتِرُهُ مِنْ ذَلِكَ ^(٦) ، وَشَفَعَ لِي بِخَيْرِ فُلَانٍ ^(٧) ، وَأُشْرَحَ لِي مِنْ خَيْرِ فُلَانٍ ، وَأَيْنَ بَلَغَ مِنْ تَكْسِيهِهِ ^(٨) ، وَحَيْثُ أَنْتَهَى

(١) ر : « غريب » (٢) ب ، لب : « سحاب » — ر : « شخاب »

(٣-٤) ر في ر (٤) ر : « قارا » — ر في ب ، لب

(٥-٥) ر في ، ورجع الكلام بعنوان : وفي فصل منها

(٦) ر : « لاسكن إليها أوتره من تلك » ، وفي هذه الجملة اضطراب في ب ، لب

(٧) ر : « تلبسه »

من تطببه ، وكيف ظرؤفه وخزائنه ، ولعوقاته ومعاينه ، وهل ينفذ طبه ،
وينفق بختجه وحبه ؛ وصف لي ما يقوله على الماء ، ويبيديه من الأدواء ،
وأهد إلي ما ينمقه من المقال ، على الكيد والطحال ، ويرقشه من الكلام ،
في الفالسج والزكام ؛ فالحمد لمن قرن له ذلك إلى القيام بشريعة الإسلام ،
والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفالج عند الجدال والخصام .
وله من أخرى (١) :

فكم ليث كامن في غايه ، سمعت صريف أنياه ، وقفر أنست في يبابه ،
إلى عواء ذنابه ؛ لا أمر إلا باللص المستلب ، ولا ألقى غير الحارب المنتهب ؛
وشعاري عند النائبة ألقاها فأتخطاها ، والنازلة أراها فأتعداها ، قول
أبي الطيب : ١٠

فإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام (٢)
وأنا أرقب من الزمان صنيعه ، وأنظر الحمام وأتخيل وقوعه ؛ وهو يذهب بي
إلى قبلة الآمال وأنا لا أصدق ، ويسوقني إلى محط الرجال وأنا لا أحقق ،
ويؤم بي البحر الذي لا تحصى فوائده ، والغيث الذي لا يحيب رائده ؛ وهلت
إحمداً لما سقطت عليه ، وعلمت أني في الحرم الذي لا يوطأ رحابه ؛ ولا يطار
غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمنع ثمره ، ولم ألبث أن نزلت باليقاع
الخصيب ، وتمكنت من الرشاء والقليب . ١٥

وفي فصل :

وما أعلم نائبة كفراقك أهدد لمتن ، ولا نازلة كنائيك أجلب لحزن ،

(١) لم يقع هذا الفصل والذي يليه إلا في (٢) ديوانه (ج ٣ ص ٤٠٣)

وما كنتُ أريـمُ رَبِّكَ لو كانَ لي الخيارُ ، ولا أبرحُ منزلَكَ لو ساعدتني الأقدارُ .
فقد كنتُ أدركتُ المني غيرَ أني يعيـرنِي قومي بإدراكِهَا وحدي
وله فصلٌ من أخرى :

لم أزلُ أزجرُ للقاءِ سيدي^(١) السَّاحِجَ ، وأستمطرُ الغاديَ والرائحَ ، وأرومُ
اقتناصه ولو بشرِكِ المنامِ ، وأحولُ اختلاسه ولو بأيدي الأوهامِ ، وأعاتبُ
الأيامَ فلا تُعْتَبُ ، وأقودها إليه فلا تُصِيبُ . حتى إذا غلب اليأسُ ، وشمتِ
النَّاسُ ، وضربت بي الأمثالُ ، فقليلُ أكثرِ الآمالِ ضلالُ ؛ تنبّه الدهرُ من
رقدته ، وحلَّ من عُقْدته ، وقيلَ مني ، وأظهر الرضا عني ؛ وقال دونك ما جمح^(٢) ،
فقد سمح ؛ وإليك فقد دنا ، ما كان في المني ؛ فطرتُ بجناحِ الارتياحِ ،
وركبتُ إلى الغمامِ كواهلَ الرياحِ ؛ وقلتُ فرصةً تُغنمُ ، ورُكنُ يُستلمُ ، وطرقتُ
روضةَ العلمِ عجميةَ الأزاهرِ ، فصيحةَ الطائرِ ، رياءَ الجدائلِ ، باردة الضحى
والأصائلِ ، وطفتُ بكعبةَ الفضلِ مصونةَ الحبرِ ، ملثومةَ الحجرِ ، عزيزةَ المقامِ ،
معمورةَ المشعرِ الحرامِ ، فماشتت من محاضرة تجمع بين الدنيا والآخرة ؛ بين يدي
نثر يري^(٣) الإعجازَ ، ونظمٍ ما أشبه الصدورَ بالأعجازَ ، وحديثٍ تتفُّ العُتولُ
بإزائه ، وترَوى بصفائِ مائه . فحين شَمَخَ بالظفرِ أنفي ، وأهتزَّ لنيلِ الأملِ
عطفي ؛ والدهرُ يضحكُ سرًّا ، ويتأبطُ شرًّا ؛ وقد أذهلني الجدُّ عن سوء ظني
به ، وأوهمني^(٤) نزوعه عن ذميمِ مذهبه ، آلت ألوانه ، وفسا ظربانه ، ونادى
ليقم من قعد ، وينتبه من رقد . إنما فترتُ تلك الفترة ، ليكون ما رأيت

(٢) لب : « طمح »

(١) ر : « سيري »

(٤) ر : « أو سمعني »

(٣) ب ، اب : « يولى »

عليك حسرة؛ وسمحت لك مرة، لتذوق من الأسف عليها كأساً مرة. فرأيت،
وقد كان غطى على بصرى، وعقلت، وكنت في غمياء من خبرى؛
وقلت، هذا الذي أعهد من لؤمه، وأعرفه من شوئمه، ما وهب إلا ما سلب،
ولا أعطى إلا ساعات كإبهاام القطا؛ فيا له من قادر ما ألام قدرته، وذابح
ما أخذ شفرته | ولو تسلط علينا من يظهر إلينا شخصه، لأذر كته رماخنا |
وعصفت به رياخنا؛ وطاح بين مؤثورين منا: قاصد أبوه قحطان، ومقصود
أبوه كسرى أنوشروان. وما ظنك بصرى يثوب إليه من يعرب ثائبها،
ومن بنى ساسان كسرى حقت به مرازبها! لكنه أمير من وراء سجنف،
يسعى بلا رجل ويصول بلا كف.

وهذا محلول من قول أبي الطيب حيث يقول^(١):

وما الموت إلا سارق دق شخصه
يصول بلا كف ويسعى بلا رجل
وأخذه المعتمد بن عبّاد فقال:

ولكنها الأيام تردى بلا ظبي وتضمنى بلا نبل وترمى بلا يد
وهو معنى متداول مشهور، وهو في نثرهم ونظمهم كثير. وفي هذه الرسالة
ألفاظ كثيرة حلها من مفعود الشعراء أبو المغيرة، منها قول محمد بن هانيء
الأندلسي:

وركنت شأو مارب ومطالب حتى امتطيت إلى الغمام الرياح^(٢)
وله^(٣): قد أغنى الله ما يشاء بنبينا، وثبات أركانه، عن تعاطي

(١) راجع ديوانه (ج ٣ ص ٤٦)

(٢) راجع ديوانه ص ١٤٧

(٣) لم يقع هذا الفصل في

الْقَوْلِ فِي تَقْرِيطِهِ وَوَصْفِهِ ، وَرَأَيْتَ مَا هَزَزْتَ مِنِّي فِي خِدْمَةِ إِزَادَتِكَ مَاضِيَ
الْحَزِّ ، لَيْنَ الْمَهْزِ ، لَوْ صَادَفَ مَضْرِبًا وَوَقَعَ عَلَى مَحَزٍّ ! وَإِذَا احْتَجَجْتَ إِلَى دَلِيلٍ
عَلَى مُعْتَقَدِي فِي تَأْتِي أَوْطَارِكَ وَمَارِيكَ ، وَحَظِّي فِي شُعْبِ أَنْحَائِكَ وَمَذَاهِبِكَ ،
« فَالْجُزْءُ أَصْغَرُ مِنَ الْكُلِّ » مَفْتَقِرٌ إِلَى الْبُرْهَانِ ، وَكُلُّ مُتَقَدِّمَةٍ مَوْجُودَةٍ بِالْعَقْلِ
مُحْتَاجَةٌ إِلَى الشَّرْحِ وَالْبَيَانِ . وَإِذَا كَانَتْ حَالِنًا مَبْنِيَّةً عَلَى هَذَا الْأَبْسِ ،
وَبَدَّتْ صُورَتُهُ هَذِهِ فِي النَّفْسِ ، فَقَدْ عَمِيَتْ ^(١) إِذْ قَصَرَتْ بِي الْأَقْدَارُ ، عَنْ
مَوْقِفِ الْاِعْتِذَارِ .

وله من أخرى :

وَأَمَّا فَلَانٌ فَالْكَلَامُ وَإِنْ طَالَ فِيهِ قَصِيرٌ ، وَالوَاصِفُ دُونَ بُلُوغِ مَدَاهِ حَسِيرٌ .
لِلَّهِ أَبُوهُ ، صِحَّةَ إِخَاءٍ ، وَنَحْضَ وِفَاءٍ ! وَحَسْبُكَ أَنَّهُ فِي الرَّغِيلِ الْأَوَّلِ مِنْ
إِخْوَانِي ، وَفِي الصَّدْرِ الْمُقَدَّمِ مِمَّنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِي ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ
ذُو السَّرْوِ وَالْفَضْلِ ، وَالنَّبَاهَةِ وَالنُّبْلِ

وَكُلُّ لَهُ فَضْلُهُ ، وَالْحُجُو لُ يَوْمَ التَّفَاضُلِ دُونَ الْغُرُ
وَلِيَالِي الْخَرِيفِ خُضْرٌ وَلَكِنْ زَهْدَتْنَا فِيهَا لِيَالِي الرَّيِّعِ

وله من أخرى :

١٥

وَإِنْ رَأَيْتَ تَأْنِيْسِي بِكِتَابٍ أَجْتَلِي مِنْهُ وَجُوهَ الْبُدُورِ ، وَجَوَاهِرَ الشُّحُورِ ،
وَدُرَرَ الشُّعُورِ ، وَأَجْتَنِي بِهِ ثَمَرَ الشُّرُورِ ، وَأَرْتَعُ مِنْهُ فِي رِيَاضِ الْعُلُومِ ، مَا بَيْنَ
مَنْشُورٍ وَمَنْظُومٍ ، نَفَسْتُ مِنْ خِنَاقِ مُشْتَقٍ كَثِيبٍ ، وَأَنْسَتَ مِنْ وَخْشَةِ مُنْفَرِدٍ

(١) لب : « عَمِيَتْ »

غريب، بحيث لا أخ كريم، ولا ولي حميم، فقد صرْتُ، ولا أُحِيلُ عَلَى الأَثَرِ
بعد العين، كما قال أحمد بن الحسين^(١):

ما مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

وَعَرَّفَنِي بَعْلُو مَكَارِمِكَ، وَوَضَّحَ مَعَالِمِكَ، فِي دَرَجِ كِتَابِكَ، وَطَى
خطابك، بِحَالِي شَقِيقِي فِي النَّسَبِ، وَشَفِيعِي فِي الْأَدَبِ^(٢) أَبِي فَلَانٍ وَفَلَانِ^(٣):

هُمْ الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي فِي الْهَوَى رَقَدُوا
وَلِلَّهِ أَيَّامٌ جَلَالِي الدَّهْرِ شَخْصِيهِمَا شَجَنِي نَوْرَ، بِقُلُوبِ أَسَدٍ وَالْحَاظِ صُفُورَ،
إِذْ كُنْتُ كَالْعُرُوسِ وَهَاقِرُطَايَ، أَوْ كَالْفَلَكَ الدَّوَّارِ وَهَاقِمَرَايَ، وَأُنْسَنَا
كَلْمَشْتَرِي نَازِلًا بِبُرْجِ الْقَوْسِ، وَسَعَدْنَا كَسَعَدِ مُحْتَبِيَا بَيْنَ الْخَزَرَجِ وَالْأَوْسِ.

وله من أخرى^(٤) يُخَاطِبُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ الْفَقِيهَ أَبَا عُمَرَ ابْنَ عَبْدِ الْبَرِّ:

وَلَقَدْ بَقِيتُ حَالِي بَعْدَكَ مَرِيضَةً، وَعَيْنُ أَمَالِي مَغْضُوضَةٌ، وَأَيْدِي أُنْسِي^(٥)
مَقْبُوضَةٌ، وَجُيُوشُ صَبْرِي عَنْكَ مَقْضُوضَةٌ؛ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْبُعْدُ الطَّوِيلُ أَحْدَثَ
بَعْضَ السُّلُوفِ، وَأَتَى بِمَا فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ مِنَ النِّسْيَانِ؛ وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ
لَا يُقَالُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ عَلَى الْإِضَافَةِ لِمَا فِي الْحَالِ بِحَدِيثِ الْإِفْتِرَاقِ؛ حَتَّى
إِذَا وَقَعَ اللَّقَاءُ تَأْجَجَ مِنْ ذَلِكَ الْإِلْتِياعِ خَامِدُهُ، وَثَارَ^(٦) رَاكِدُهُ، وَسَالَ جَامِدُهُ،
وَكَانَتْ حَالُنَا مَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

افْتَرَقْنَا حَوْلًا فَلَمَّا التَّقَيْنَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعًا^(٧)

(١) راجع ديوان المتنبي (ج ١ ص ٢٠٦) (٢-٢) نه في ر

(٣) لم يقع هذا الفصل في (٤) في الأصل: «الشيء»

(٥) في الأصل: «وتاب» (٦) راجع ديوانه (ج ١ ص ٤٣٧)

وله من أخرى :

بانعكاس الزمان . انعكست أمثال^(١) البيان ، كما يروى في خبر الفقي
المدعى للكتابة عند عمرو بن مسعدة ، أنه عاياه بكتاب من عند صاحب
البريد بخبر بقرّة ولدت غلاماً ، فأنشأ خطبة مفتتحها : الحمد لله خالق الأنعام
في بطون الأنعام . فجذب الرقعة من يده ، وبلغ في إجزال صفده . وإذا تأملت
انقلاب الزمان ، وما وقع لي مع فلان ، انقلبت الخطبة فصارت : الحمد لله خالق
الأنعام في بطون الأنعام .^(٢) وأبدأ بحديث اليهودي موصل كتابك : دخل
الحضرة عقب جولة كانت لي مع ابن خماس — حشر الله كليهما مع صاحبه —
فوالله لا أعلم حال من منهما أضعف وأظلم ، أحوال اليهودي بمضادة الدين أم حال
هذا المسلم ؟ فوافي^(٢) وقد كشفت عوراته ، وما زالت مكشوفة ، وعرفت
سوأته ، وما زالت معروفة ، إخباراً عنه ، وتحذيراً منه ، وإعلاماً بما يستتره ذنبه ،
ويستمل عليه ليئه ، من قبائح يملئها العار ، ويكتبها الليل والنهار^(٣) .

وفي فضل منها :

وجاء في مقدمة صهرٍ يصهرُ به جنبه . وفي نكاحٍ ينكحُ الردى منه
قلبه ، يمشي مشى من جمع بين المشتري والزهرة ، لا مشى من سعى
لتزكيبٍ حرٍ على كمره ، وأى ذرة حاول إخراجها من صدفة ، ما أشبه
النكرة هاهنا بالمعرفة ، قبّح الله زماناً يُقربُ إلى اللئيم حصاناً ، وإلى
الكريم أتاناً !

(١) ب ، لب : « أعلام » (٢-٢) نه في ر ، و

(٢-٣) ر : « مقابح يملئها العار ، ويكشفها الليل والنهار »

وله من أخرى ، خاطب بها الفقيه أبا محمد ابن حزم أثبت منها بعض
الفصول فراراً من التطويل ، ^(١) وافتتحها ببني أبي نواس ^(٢) :

ألا لا أرى مثل أميرائي في رسم
أنت صورة الأشياء بيني وبينه
توهمه عيني ويرفضه وهي ^(٣)
فظني كلاً ظنٍ وعلمي كلاً علم

وقفت — كلاك الله — وأنت عين التمام ، وعلم الأعلام ، على كتاب
عنوانه باسمك أسما ، كأنه طلل بال ؛ فكلمها هز زته هوم ، أو سألتها استعجم ؛
معنى كصدي الإنسان ، ولفظ كمنهجات الألفان ؛ وأغراض لا يدب فيها
سهم مقرطس ، وإظلام لا وضح فيه لصبح متنفس ، ورطانة تمجها الأسماع ،
وتجتويها الطباع ، فأقمت متبدلاً ، وعدت على نفسي وقرحتي متردداً ،
فقلنا : أفق ^(٤) أيها الإنسان ، لست بالنبى سليمان ، متى وعدناك أن نفهمك
كلام الحُكل ، وسرار النمل ^(٥) ؟ ألم نسلك بك في شعاب الكلام فتغلغلت ؟
ألم تسر في صحرائه بنا فأوغلت ؟ ألم تجر في ميدانه فسبقت ؟ ألم تنز في ظلماته
فأشرقت ؟ هل أحسست بنكول جنان ، أو قصور لسان ، فيما نظمت
كالعقود ، على ترائب الفتاة ^(٦) الرؤود ، ونثرت كالنجوم ، في صفحة الليل
البهم ؟ قلت : بلى ! قلنا : فأعرض عن رطانة الزط ، وصغير البط ^(٧) ،
ولا تعج على طلل باند ، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد ^(٨) ، فقلت :
أشرقاً طاعيتين ، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان ، ولعلم نوع الإنسان ،

(١-١) به في ر (٢) راجع ديوانه ص ٣٢٥

(٣) ر : « ارفق » (٤) ر : « النحل »

(٥) ب : « الغادة » (٦) ب ، لب : « القط »

(٧) اقتباس من القرآن سورة ١٦ : ٢٦

إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا كَذَبَ الْعُنْوَانُ ، وَنُحِلَ ذَلِكَ الْهَذْيَانُ ؛ فَأَعَدْتُ النَّظَرَ ، فَإِذَا بَكَ
أَبَا مُحَمَّدٍ صَاحِبُهُ ، كِتَابٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الظُّلْمِ الْعَبْقَرِيِّ ، وَالْبُهْتَانِ الْجَلِيِّ ، وَمُكَابَرَةِ
الْعِيَانِ ، وَمُدَافَعَةِ الْبُرْهَانِ ، قَدْ طَمَسَ اللَّهُ أَنْوَارَهُ ، وَأَظْهَرَ عَوَارَهُ ، فِجَاءً كَالْفَلَاةِ
الْعَوْرَاءِ ، لَا مَاءَ وَلَا شَجَرَ ، وَاللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ ، لَا نَجْمَ وَلَا قَمَرَ .

وفي فصل منها :

فَاسْتَقْصَرْتُ مَنْ دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابَكَ فَقُلْتُ : مَنْ لِي بِمِثْلِ غَاشِيَتِكَ مِنْ
هَذِهِ الْعِصَابَةِ ، وَبِأَشْبَاهِ الْمُلَمِّينَ بَكَ مِنْ تِلْكَ الْبَابَةِ ، وَنَسِيتُ أَبَا مُحَمَّدٍ حَاشِيَتَكَ
وَشَيْعَتَكَ ، الَّتِي صِرْتَ رَئِيسَ مَدْرَاسِهِمْ ^(١) ، وَكَبِيرَ أَحْرَاسِهِمْ ، تُحَدِّثُهُمْ عَمَّا كَانَ
فِيهِمْ مِنَ الْعِبَرِ ، وَتُخَبِّرُهُمْ بِمَا تَعَاقَبَ عَلَيْهِمُ مِنَ الْعَمَّا وَالْكَدَرِ ؛ فَتَارَةً عَنِ السَّامِرِيِّ
وَالْعَجَلِ ، وَتَارَةً عَنِ الْقَمَلِ وَالنَّمْلِ ، وَطَوْرًا تُبْكِيهِمْ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ، وَطَوْرًا ^{١٠}
تُضْحِكُهُمْ بِقَوْمِ جَالُوتَ وَذَوِيهِ ؛ حَتَّى كَأَنَّ التَّوْرَةَ مُصْحَفُكَ ، وَبَيْتَ الْحَزَّانِ
مُعْتَكُفُكَ ؛ ^(٢) وَأَنَا بِمَعْزِلٍ ، وَأَنْتَ تُحَدِّثُ وَتَعْزِلُ ؛ وَتَعْجَبْتُ مِنْ حِرْصِي ،
وَنَسِيتُ نَفْسَكَ أَبَا مُحَمَّدٍ حِينَ قَطَعْتَ الْبَيْدَاءَ تَبْلُكَ السَّمَاءَ ، وَتُرْعِدُكَ الْجَرِييَاءُ ،
فِي وَقْتٍ تَكْمُنُ فِيهِ أَنْوَاعُ الْحَيَوَانِ ، وَأَحْقُهَا بِالْكُمُونِ نَوْعُ الْإِنْسَانِ ، لَتَرِثَ
حَيًّا قَائِمًا عَلَى حَالِهِ ، مَالِكًا لِمَالِهِ ، يَدْعُو اللَّهَ عَلَيْكَ ، أَنْ اسْتَطَلَّتْ عُمرُهُ ، ^{١٥}
وَنَعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ^(٣) .

وفي فصل منها :

وَمِنْ ظَرِيفٍ مَا فِي كِتَابِكَ قَوْلُكَ : أَقْصَرُهَا وَأَتَأَخَّهَا . وَمِنْ أَيْنَ نَفَذَ
بَصْرُكَ ، حَتَّى هَمَزَتْهَا هَمَزَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ ، قَرَنَهُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ ، وَمَا أَظُنُّكَ
جَعَلْتَهَا إِلَّا تَمِيمَةً ، لِتِلْكَ الْقِطْعَةِ الْكَرِيمَةِ ، امْتِثَالًا لِقَوْلِ الْقَائِلِ : ^{٢٠}

(١) ر : « مدارسهم »

(٢) (٢-٢) مه في ر

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى عَيْبٍ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْنِ
وَمَنْ لَكَ بَأْنُ نَصِيرٍ عَلَيْكَ ، وَتَتَأَنَّى بِكَ ، وَهَذَا الْجَوَابُ كَمَا تَرَاهُ ابْنَ
الْوَقْتِ وَنَتِيجَةُ السَّاعَةِ ، وَنَفْثَةُ مَنْ لَا يُخْرِجُ لَهُ الْكَلَامُ عَنْ طَاعَةِ ، وَمَنْ تَشْغَلُهُ
عَنِ التَّفْسِيرِ كَلَفُ السُّلْطَانِ ، وَتُنْقَلُهُ أَعْبَاءُ الزَّمَانِ ؛ كَادَ يَنْتَقِشُ فِي ظَهْرِ
كِتَابِكَ قَبْلَ حُصُولِهِ بِيَدِي :

فَقُلْ فِيمَا يَجْنُ عَلَيْهِ لَيْلٌ وَيَمْضِي فِي صِيَاعَتِهِ نَهَارٌ
هُنَالِكَ تَظْهَرُ الْآيَاتُ حَتَّى يُقَالَ تَنَازَرُ الْفَلَكَ الْمُدَارُ

فَرَاغَهُ الْفَقِيهَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِرُقْعَةٍ قَالَ فِيهَا :

سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وَسَلَّمْتُ وَانْقَدْتُ
لِحَدِيثِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ؛ وَرَضِيتُ بِقَوْلِ
الْحُكَمَاءِ : كَفَاكَ انْتِصَارًا مِمَّنْ تَعَرَّضَ لِأَذَاكَ إِعْرَاضُكَ عَنْهُ . وَأَقُولُ :

تَبِعْ سِوَايَ امْرَأً يَبْتَغِي سَبَابَكَ ، إِنَّ هَوَاكَ السَّبَابُ
فَإِنِّي أَبَيْتُ طِلَابَ السَّمَاءِ هِ وَصُنْتُ مُحَلِّيَّ عَمَّا يُعَابُ
وَقُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ بَعْدِ ذَا وَأَكْثَرُ فَإِنْ سَكُوتِي جَوَابٌ^(١)

١٥ وأقول :

كَفَانِي ذِكْرُ النَّاسِ لِي وَمَا بَرِي كَفَانِي ذِكْرُ النَّاسِ لِي وَمَا بَرِي
عَدُوِّي وَأَشْيَاعِي كَثِيرٌ كَذَلِكَ مَنْ عَدُوِّي وَأَشْيَاعِي كَثِيرٌ كَذَلِكَ مَنْ
وَمَالِكَ فِيهِمْ مِنْ عَدُوٍّ فَيَتَّقِي وَمَالِكَ فِيهِمْ مِنْ عَدُوٍّ فَيَتَّقِي
وَقَوْلِي مَسْمُوعٌ لَهُ وَمُصَدَّقٌ وَقَوْلِي مَسْمُوعٌ لَهُ وَمُصَدَّقٌ
وَإِنِّي وَإِنْ آذَيْتَنِي وَعَقَقْتَنِي وَإِنِّي وَإِنْ آذَيْتَنِي وَعَقَقْتَنِي

٢٠

(١) ب ، لب : « خطاب »

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رُفَعته : قرأت هذه الرُقعة العاقبة حين استوعبتها
أنشدتني :

نَحْنَحَ زَيْدٌ وَسَعَلَ لَمَّا رَأَى وَقَعَ الْأَسَلُ

فأردت قطعها ، وترك المراجعة عنها ، فقالت لي نفس قد عرفت ذكاءها : تالله
لا قطعها إلا يده ! فأنبتت على ظهرها ، ما يكون سبباً لصونها ، وقلت :

نَعَمْتَ وَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ الْجَوَابُ وَأَخْطَأْتَ حَتَّى أَتَاكَ الصَّوَابُ
وَأَجْرَيْتَ وَحَدَكَ فِي حَلْبَةٍ نَأَتْ عَنْكَ فِيهَا الْجِيَادُ الْعِرَابُ
وَبِتَ مِنَ الْجَهْلِ مُسْتَنْبِحًا لَغَيْرِ قَرَى فَأَتَتْكَ الذَّنَابُ
فَكَيْفَ تَبَيَّنْتَ عُقْبَى الظُّلُمِ إِذَا انْتَفَضَتْ فِي الْخَمِيسِ الْعُقَابُ
لِعَمْرِكَ مَالِي طَبْعًا تُذَمُّ وَلَا شِيْمَةً يَوْمَ مَجْدٍ تُعَابُ
أَنِيلُ الْمَنَى وَالظُّبَى سَخَطُ وَأَعْطَى الرِّضَا وَالْعَوَالِي غِضَابُ
وأقول :

وَعَصِبَ حَقٌّ أَوْ بَقْتُهُ الْمَقَادِرُ « يُذَكِّرُنِي حَامِيمُ وَالرُّمَحُ شَاوِرُ »
غَدَا يَسْتَعِيرُ الْفَخْرَ مِنْ خِيَمِ خَصْمِهِ وَيَجْهَلُ أَنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ ظَاهِرُ
أَلَمْ تَتَعَلَّمْ يَا أَخَا الظُّلْمِ أَنِّي بَرَعْتُكَ نَاهٍ مِنْذُ عَشْرِ وَأَمْرُ
تُذَلِّلُ لِي الْأَمْلاكَ حُرَّ نَفْسِهَا وَأَرْكَبُ ظَهَرَ النَّسْرِ وَالنَّسْرُ طَائِرُ
وَأَبْعَثُ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ شَوَارِدًا تَأَلَّفَهُمْ وَهِيَ الصَّعَابُ النَّوَافِرُ
فَإِنْ أَتَوْا فِي أَرْضٍ فَإِنِّي سَائِرُ وَإِنْ أَنَا عَنْ قَوْمٍ فَإِنِّي حَاضِرُ
وَحَسْبُكَ أَنَّ الْأَرْضَ عِنْدَكَ خَاتَمُ وَأَنْتَ فِي سَطْحِ السَّلَامَةِ عَائِرُ
إِذَا كُنْتُ فِي ظَهْرِ مِنَ الْعَدْلِ مُنْجِدًا فَإِنَّكَ فِي بَطْنٍ مِنَ الْجَوْرِ غَائِرُ

ولا لَوْمْ عِنْدِي فِي اسْتِرَاحَتِكَ الَّتِي تَنْفَسُ عَنْهَا وَالْخُطُوبُ فَوَاقِرُ
فَإِنِّي لِلْحَلْفِ الَّذِي مَرَّ حَافِظُ^(١) وَاللِّزْغَةِ^(٢) الْأُولَى لِحَامِيمٍ ذَاكِرُ
هَنِيئًا لِكُلِّ مَا لَدَيْهِ فَإِنَّهَا عَطِيَّةٌ مَنْ تُبْلَى لَدَيْهِ السَّرَائِرُ

^(٢) قول أبي المغيرة: « فَإِنْ أَتَوْا فِي أَرْضِي »، البيت، أخذه من قول البُحْتَرِيِّ:

وَشُهِرْتُ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا فَكَأَنَّنِي فِي وَسْطِ نَادٍ جَالِسٍ^(٣)
قال ابن بسّام: وكان نقش خاتم أبي محمد:

يَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدٍ اتَّقِ اللَّهَ تَرَشُدِ

فقال له أبو المغيرة: « عَلَيْكَ بِفَحْصِ التَّيِّبَةِ »، البيت^(٢).

وإذ قد انتهى بنا القول إلى ذكر أبي محمد ابن حزم، فإننا أُلْمِعُ في هذا
الموضع بلمعة من خبره، حتى أدل على عينه بأثره؛ فإنه كان كالبخري لا تكف
غواربه، ولا يروى شاربُه. وقد وجدت للشيخ أبي مروان بن حيّان فصلاً
أورد فيه ذكره، وجرده — زعم — لشرح أمره، وأنا أثبتته بأثره.

قال ابن حيّان: كان أبو محمد حاملاً^(٤) فنون من حديث وفقه وجدل
ونسب، وما يتعلّق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم
القديمة من المنطق والفلسفة. وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة، غير أنه
لم يخل فيها من الغلط والسقط، لجبرأته في التسوّر على الفنون لا سيما المنطق؛
فإنهم زعموا أنه زلّ هنالك، وضلّ في سلوك تلك المسالك، وخالف أرسطاطاليس
واضعة مخالفة من لم يفهم غرضه، ولا ارتاض في كتبه، ومال به أولاً النّظر

(١) ب، ب: « وللزّعة » (٢-٢) لم تقع هذه الفقرة إلا في

(٣) راجع ديوان البحتري (ج ١ ص ٢٤٥) (٤) ب، ب: « حافظ »

فِي الْفِقْهِ إِلَى رَأْيِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَنَاضَلَ عَنْ مَذْهَبِهِ ،
وَانْحَرَفَ عَنْ مَذْهَبٍ غَيْرِهِ ، حَتَّى وَصِمَ بِهِ ، وَنُسِبَ إِلَيْهِ « فَاسْتَهْدَفَ بِذَلِكَ لِكَثِيرٍ
مِنَ الْفُقَهَاءِ وَعِيبَ بِالشُّذُودِ ، ثُمَّ عَدَلَ فِي الْآخِرِ إِلَى قَوْلِ أَصْحَابِ الظَّاهِرِ ، مَذْهَبِ
دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ ، فَتَفَحَّحَهُ وَنَهَجَهُ وَجَادَلَ عَنْهُ » وَوَضَعَ
الْكِتَابَ فِي بَسْطِهِ ، وَثَبَتَ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ مَضَى لِسَبِيلِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَكَانَ يَحْمِلُ ٥
عِلْمَهُ هَذَا وَيُجَادِلُ مَنْ خَالَفَهُ فِيهِ ، عَلَى اسْتِرْسَالٍ فِي طِبَاعِهِ ، وَمَثَلٍ بِأَسْرَارِهِ «
وَاسْتِنَادٍ^(١) إِلَى الْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ مِنْ عِبَادِهِ ، لَيَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ
وَلَا يَكْتُمُونَهُ^(٢) ؛ فَلَمْ يَكْ يُلَطِّفْ صَدْعَهُ بِمَا عِنْدَهُ بِتَعْرِيزٍ ، وَلَا يَزُفُّهُ بِتَدْرِيجٍ ،
بَلْ يَصُكُّ بِهِ مُعَارِضَةً صَكَّ الْجَنْدَلِ « وَيُنَشِّقُهُ مُتَلَقِّمَهُ^(٣) إِنْشَاقَ الْخَرْدَلِ ،
فَيَنْقَرُّ عَنْهُ الْقُلُوبُ ، وَيُوقِعُ بِهَا التَّدُوبَ ، حَتَّى اسْتَهْدَفَ إِلَى فُقَهَاءِ وَقْتِهِ ، قِمًا لِأَوَا ١٠
عَلَى بُغْضِهِ ، وَرَدُّوا قَوْلَهُ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى تَضْلِيلِهِ ، وَشَنَعُوا^(٤) عَلَيْهِ ، وَحَذَرُوا سَلَاطِينَهُمْ
مِنْ فِتْنَتِهِ ، وَنَهَوْا عَوَامَّهُمْ عَنِ الدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالْأَخْذِ عَنْهُ ، فَطَفِقَ الْمُلُوكُ يُقْصُونَهُ
عَنْ قُرْبِهِمْ « وَيُسَيِّرُونَهُ عَنْ بِلَادِهِمْ « إِلَى أَنْ اتَّهَمُوا بِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ بِتَرْبَةِ
بَلَدِهِ مِنْ بَادِيَةِ لَبْلَكَةِ ، وَبِهَا تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَهُوَ
فِي ذَلِكَ غَيْرُ مَرْتَدٍّ وَلَا رَاجِعٍ إِلَى مَا أَرَادُوا بِهِ ، يَبْتَثُّ عِلْمَهُ فِيمَنْ يَنْتَابُهُ ١٥
بِبَادِيَتِهِ تِلْكَ « مِنْ عَامَّةِ الْمُقْتَبِسِينَ مِنْهُ « مِنْ أَصَاغِرِ الطَّلَبَةِ الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ فِيهِ^(٥)
الْمَلَامَةَ ، يُحَدِّثُهُمْ وَيُفَقِّهُهُمْ وَيُدَارِسُهُمْ وَلَا يَدْعُ الْمُنَابَرَةَ^(٦) عَلَى الْعِلْمِ ، وَالْمُوَاضَبَةَ عَلَى
التَّأْلِيفِ ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ التَّصْنِيفِ ، حَتَّى كَمُلَ مِنْ مُصَنِّفَاتِهِ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ

(١) ر : « واستنناد »

(٢) راجع سورة ٣ : ١٨٧

(٣) لب ، ر : « متلقمه »

(٤) ر : « وشغبوا »

(٥) ر : « فيهم »

(٦) ر : « المناظرة »

وَقَرُّ بَعِيرٍ ، لَمْ يَعُدْ أَكْثَرُهَا عَتَبَةً بَابَهُ لَتَزْهِيْدِ الْفُقَهَاءِ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِيهَا حَتَّى أُحْرَقَ بَعْضُهَا بِإِسْبِيلِيَّةٍ ^(١) وَمُرُقَتِ عِلَانِيَةٍ ، لَا يَزِيدُ مُؤَلِّفَهَا ذَلِكَ إِلَّا بَصِيرَةً فِي نَشْرِهَا ، وَجِدَالًا لِّلْمُعَانِدِ فِيهَا ^(٢) ، إِلَى أَنْ مَضَى لِسَبِيلِهِ .

وَأَكْثَرُ مَعَايِبِهِ — زَعَمُوا — عِنْدَ الْمُنْصِفِ لَهُ جَهْلُهُ بِسِيَاسَةِ الْعِلْمِ الَّتِي هِيَ أَعْرَضُ مِنْ إِيْعَابِهِ ، وَتَخَلَّفَهُ عَنْ ذَلِكَ عَلَى قُوَّةِ سَبْحِهِ فِي غِمَارِهِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ فَلَمْ يَكُنْ بِالسَّلِيمِ مِنْ اضْطِرَابِ رَأْيِهِ ، وَمَغِيبِ شَاهِدِ عِلْمِهِ عَنْهُ عِنْدَ لِقَائِهِ .
إِلَى أَنْ يُحَرِّكَ بِالسُّؤَالِ فَيُفَجِّرُ مِنْهُ بَحْرَ عِلْمٍ لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ ، وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ الرِّشَاءُ ^(٣) ، وَعَلَى كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ دَلَالٌ مُثَالَةٌ ، وَأَخْبَارٌ مَأْثُورَةٌ ^(٤) .

وَكَانَ مِمَّا يَزِيدُ فِي شَنَائِهِ تَشْيِيعُهُ لَأَمْرَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ ، مَاضِيَهُمْ وَبَاقِيَهُمْ بِالشَّرْقِ وَالْأَنْدَلُسِ . وَاعْتِقَادُهُ لَصِحَّةِ إِمَامَتِهِمْ . وَانْحِرَافُهُ عَنْ سِوَاهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ ، حَتَّى نُسِبَ إِلَى النَّصَبِ لِنَعِيرِهِمْ . وَقَدْ كَانَ مِنْ غَرَائِبِهِ انْتِمَاؤُهُ فِي فَارِسَ ، وَاتِّبَاعُ أَهْلِ بَيْتِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ حَقْبَةٍ مِنَ الدَّهْرِ تَوَلَّى ^(٥) فِيهَا أَبُوهُ الْوَزِيرُ الْمُعَقَّلُ فِي زَمَانِهِ ، الرَّاجِحُ فِي مِيزَانِهِ ، أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ حَزْمِ بْنِ أُمَيَّةٍ أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِهِ ، لَا عَنْ صِحَّةٍ وَلَا يَلِيَةٍ لَهُمْ عَلَيْهِ . فَقَدْ عَهْدَهُ النَّاسُ خَامِلَ الْأَبُوَّةِ . مُوَلَّدَ الْأَرْوَمَةَ مِنْ عَجَمٍ لِبَنَاتِهِ ، جَدُّهُ الْأَذَنِيُّ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ ، لَمْ يَتَقَدَّمْ لِسَلَفِهِ نَبَاهَةً ، فَأَبُوهُ أَحْمَدُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي بَنَى بَيْتَ نَفْسِهِ فِي آخِرِ الدَّهْرِ بِرَأْسِ رَايَةٍ . وَعَمَدُهُ بِالْخِلَالِ الْفَاضِلَةِ مِنَ الرَّجَاحَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالذَّهَاءِ وَالرَّجُولَةِ وَالرَّأْيِ . فَاغْتَدَى جُرْثُومَةً شَرَفٍ لِمَنْ نَمَاهُمْ ، أَغْنَتْهُمْ عَنِ الرُّسُوخِ فِي أَوَّلِي السَّابِقَةِ ، فَمَا مِنْ شَرَفٍ إِلَّا مَسْبُوقٌ عَنْ خَارِجِيَّةٍ . وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلًّا وَلَا ، حَتَّى تَخْطَى عَلَيْهِ

(١-٢) نه في ر ، هـ (٢-٢) نه في ر ، هـ

(٣) ب ، لب : « قول »

هذا رَأْيُ بَيْتِ لَبْلَةٍ ، فارتقى قَلْعَةً اضْطَحَرَ مِنْ أَرْضِ فَارِسَ ، فَاللهُ أَعْلَمُ كَيْفَ تَرَقَّاهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يُؤْتَى مِنْ خَطَلٍ وَلَا جِهَالَةٍ ، بَلْ وَصَلَهَا بِهَا وَسْعُ عِلْمٍ وَوَشِيجَةُ رَحِمٍ مَعْقُومَةٍ بَلَّهَا بِمَسْتَخْرِ الصَّلَةِ رَحِمَهُ اللهُ . فَتَنَاهَتْ حَالَهُ مَعَ فَقْهَاءِ عَصْرِهِ إِلَى مَا وَصَفْتُهُ . وَحِسَابُهُ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ النَّاسَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ عَزَّتْ قُدْرَتُهُ ۱

٥

- (١) ولهذا الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ مَعَ يَهُودَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَعَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَوْلَى الْمَذَاهِبِ الْمَرْفُوضَةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَجَالِسُ مُحَفُوظَةٌ ، وَأَخْبَارُ مَكْتُوبَةٌ (١) ؛ وَلَهُ مَصْنُفَاتٌ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفَةٌ ، مِنْ أَشْهَرِهَا فِي عِلَلِ الْجَدَلِ كِتَابُهُ الْمُسَمَّى : « الْفِصْلُ ، بَيْنَ أَهْلِ الْآرَاءِ وَالنَّحْلِ » . وَمِنْ تَوَالِيْفِهِ « كِتَابُ الصَّادِعِ وَالرَّادِعِ » [فِي الرَّدِّ] عَلَى مَنْ كَفَرَ أَهْلَ التَّأْوِيلِ مِنْ فِرْقِ الْمُسْلِمِينَ وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ قَالَ ١٠
بِالتَّقْلِيدِ . وَلَهُ كِتَابٌ فِي شَرْحِ حَدِيثِ الْمُوطَّأِ ، وَالْكَلَامِ عَلَى مَسَائِلِهِ ؛ وَلَهُ « كِتَابُ الْجَامِعِ » فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ بِاخْتِصَارِ الْأَسَانِيدِ ، وَالِاقْتِصَارِ عَلَى أَصَحِّهَا وَاجْتِلَابِ أَكْمَلِ الْأَفَاطِيهَا وَأَصَحِّ مَعَانِيهَا ؛ وَ« كِتَابُ التَّلْخِيصِ وَالتَّخْلِيصِ » فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ وَفُرُوعِهَا الَّتِي لَا نَصَّ عَلَيْهَا فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ ۱
و« كِتَابُ مُنْتَقَى الْإِجْمَاعِ وَبَيَانِهِ مِنْ جُمْلَةٍ مَا لَا يَعْرِفُ فِيهِ اخْتِلَافٌ » ، وَكِتَابُ ١٥
« الْإِمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ » فِي قَسَمِ سِيرِ الْخُلَفَاءِ وَمَرَاتِبِهَا وَالتَّنَدُّبِ إِلَى الْوَاجِبِ مِنْهَا ، وَ« كِتَابُ أَخْلَاقِ النَّفْسِ » ، وَكِتَابُهُ الْكَبِيرُ الْمَعْرُوفُ بِـ « الْإِيصَالِ » ، إِلَى فَهْمِ كِتَابِ الْخِصَالِ ۱ وَكِتَابُ « كَشْفِ الْإِلْتِبَاسِ » ، مَا بَيْنَ أَصْحَابِ الظَّاهِرِ وَأَصْحَابِ الْقِيَّاسِ ۱ إِلَى تَوَالِيْفٍ غَيْرِهَا . وَرَسَائِلَ فِي مَعَانٍ شَتَّى كَثِيرٍ عَدَدُهَا .
وَمِنْ شِعْرِهِ يَصِفُ مَا أَحْرَقَ لَهُ مِنْ كُتُبِهِ ابْنُ عَبَّادٍ قَوْلُهُ :
٢٠

فَإِنْ تُحْرِقُوا الْقِرْطَاسَ لَا تَحْرِقُوا الَّذِي
يَسِيرُ مَعِيَ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رِكَائِي
(١) دَعُونِي مِنْ إِحْرَاقِ رَقِيٍّ وَكَأْغِدٍ
وَإِلَّا فَعُودُوا فِي الْمَكَاتِبِ بَدَأَةً
تَضَمَّنَهُ الْقِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزَلَ وَيُذْفَنُ فِي قَبْرِي
وَقُولُوا بَعْلَمَ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَنْ يَذَرِي
فَكُمْ دُونَ مَا تَبْغُونَ لِلَّهِ مِنْ سِتْرٍ !

وله :

مَنْ ظَلَّ يَبْغِي فُرُوعَ عِلْمٍ
فَكُلَّمَا أَزْدَادَ فِيهِ سَبْعِيًّا
بَدَأَ وَلَمْ يَذَرِ مِنْهُ أَصْلًا
زَادَ لَعَمْرِي بِذَلِكَ جَهْلًا

وقال :

كَأَنَّكَ بِالزُّوَارِ لِي قَدْ تَنَادَرُوا
فِيَا رَبِّ مَحْزُونٍ هُنَاكَ وَضَاحِكٍ
عَفَا اللَّهُ عَنِّي يَوْمَ أَرَحَلُ ظَاعِنًا
وَأَتْرُكُ مَا قَدْ كُنْتُ مُغْتَبِطًا بِهِ
فَوَا رَاحَتِي إِنْ كَانَ زَادِي مُقَدَّمًا
وَقِيلَ لَهُمْ أَوْدَى عَلِيٌّ بْنُ أَحَدٍ
وَكَمْ أَدْمَعُ تَذَرِي وَخَدَّيْ مُخَدَّدٍ
عَنِ الْأَهْلِ مَحْمُولًا إِلَى بَطْنِ مَلْحَدٍ
وَأَلْقَى الَّذِي أَنْتَ دَهْرًا بَمَرْصَدٍ
وَيَا نَصِيَّ إِنْ كُنْتُ لَمْ أَتَزَوَّدَ !

(٢) وَيَا لِبَدَائِعِ هَذَا الْحَبْرِ عَلَى بَنِ حَزْمٍ وَغَرَّهِ ! مَا أَوْضَحَهَا عَلَى كَثَرَةِ
الدَّافِنِينَ (٣) لَهَا ، وَالطَّامِسِينَ لِحَاسِنِهَا ! وَعَلَى ذَلِكَ فَلَيْسَ يَبْدَعُ فِيمَا أُضِيعَ مِنْهُ ،
فَإِزْهَدْ النَّاسَ فِي عَالِمِ أَهْلِهِ . وَقَبْلَهُ أَرْدَى الْعُلَمَاءُ تَبْرِيزُهُمْ عَلَى مَنْ يَقْصُرُ عَنْهُمْ .
وَالْحَسَدُ دَائِمٌ لَا دَوَاءَ لَهُ . انْتَهَى مَا لَخِصَّتْهُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ حَيَّانَ فِي خَبَرِهِ .
قُلْتُ أَنَا : وَلَعَمْرِي مَا عَقَّه . وَلَا بَخَسَهُ حَقَّه . وَأَخْبَرَنِي الْفَقِيهَ الْحَافِظُ

(١) لم تقع الآيات الآتية في ر ، هـ (٢) رجع الكلام في ر ، هـ

(٣) ر ، هـ : « الرافعين »

أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْفَقِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ ابْنِ الْعَرَبِيِّ عَنِ الْفَقِيهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُمَيْدِيِّ قَالَ :
كَانَ لَشَيْخِنَا الْفَقِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ ابْنِ حَزْمٍ فِي الشَّعْرِ وَالْأَدَبِ نَفْسٌ وَاسِعَةٌ ، وَبَاعٌ
طَوِيلٌ . وَمَا رَأَيْتُ أَسْرَعَ بَدِيهَةً مِنْهُ ؛ وَشِعْرُهُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ جَمَعْتُهُ عَلَى حُرُوفٍ
الْمُعْجَمِ ، وَمِنْهُ مَا كُتِبَ عَنْهُ :

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا مَا رَأَيْنَا وَأَدْرَكْنَا ؟ فَجَاءَهُ تَبَقَى وَلَدَاتُهُ تَقْنَى ٥
إِذَا أُمَكَنْتَ فِيهِ مَسَرَّةُ سَاعَةٍ تَوَلَّتْ كَمَرُ الطَّرْفِ وَاسْتَخَلَفَتْ حُزْنًا
إِلَى تَبِعَاتٍ فِي الْمَعَادِ وَمَوْقِفٍ نَوَدُّ لَدَيْهِ أَنْتَا لَمْ نَكُنْ كُنَّا
حَصَلْنَا عَلَى هَمٍّ وَإِثْمٍ وَحَسْرَةٍ وَفَاتَ الَّذِي كُنَّا نَلْذُّ بِهِ عَيْنًا (١)
حَنِينٌ لِمَا وَلَّى ، وَشُعْلٌ بِمَا آتَى وَغَمٌّ لِمَا يُرْجَى ، فَعَيْشُكَ لَا يَهْنَأُ
كَأَنَّ الَّذِي كُنَّا نُسَرُّ بِكَوْنِهِ إِذَا حَقَّقَتْهُ النَّفْسُ لَفْظًا بِلَا مَعْنَى ١٠

قَالَ : وَلَهُ أَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ خَاطَبَ بِهَا قَاضِيَ الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنَ بَشِيرٍ يَفْخَرُ فِيهَا بِالْعِلْمِ ، وَيَذْكُرُ أَصْنَافَ مَا عِلْمٌ ، يَقُولُ فِيهَا :

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوْ الْعُلُومِ مُنِيرَةٌ وَلَكِنْ عَيْنِي أَنْ مَطْلَعِي الْغَرْبُ
وَلَوْ أَنَّ نِيَّ مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ لَجَدَّ عَلَى مَاضَاعٍ مِنْ ذِكْرِي التَّهَبُّ
وَلِي نَحْوُ أَكْنَفِ الْعِرَاقِ صَبَابَةٌ وَلَا غُرُوبَ أَنْ يَسْتَوْحِشَ الْكَلِفُ الصَّبُّ ١٥
فَإِنْ يُنْزِلِ الرَّحْمَنُ رَجُلِي يَنْهَمُ فَحِينَئِذٍ يَبْدُو التَّأْسُفُ وَالْكَرْبُ
فَكَمْ قَائِلٍ ، أَغْفَلْتُهُ وَهُوَ حَاضِرٌ وَأَطْلُبُ مَا عَنْهُ تَجِيءُ بِهِ الْكُتُبُ
هُنَالِكَ يَذَرِي أَنَّ لِلْبُعْدِ غُصَّةً (٢) وَأَنْ كَسَادَ الْعِلْمِ آفَتُهُ الْغَرْبُ
(٣) فَوَاعَجَبَا مَنْ غَابَ عَنْهُمْ تَشَوَّقُوا لَهُ ، وَدَنُوءُ الْمَرْءِ مِنْ دَارِهِمْ ذَنْبٌ

(١) في « كتاب المعجب » لعبد الواحد المراكشي (ص ٣٣) : « وفات الذي كنا نقر به عيناً »

(٢) في الأصل : « قصة »

(٣) ما يلي ناقص في ر ، وه ، وسينبه على رجوع الحديث بعد

وَإِنَّ مَكَانًا ضَاقَ عَنِّي لَضَيِّقٌ
وَأَنَّ رِجَالًا ضَيَّعُونِي لَضِيعٌ
وَمِنْهَا فِي الْاِعْتِذَارِ مِنْ مَدْحِ نَفْسِهِ :
وَلَكِنِّي لِي فِي يُوسُفَ خَيْرَ أُسْوَةٍ
يَقُولُ - وَقَالَ الْحَقُّ وَالصَّدَقُ - إِنَّنِي
وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

لَا يَشْمَتُنْ حَاسِدِي إِنْ نَكَبْتُ عَرَضْتُ
ذُو الْفَضْلِ كَالْتَّبَرِ طَوْرًا تَحْتَ مِيقَعَةٍ
وَأَنْشَدَنِي أَيْضًا لَهُ :

لَئِنْ أَصْبَحْتُ مُرْتَحِلًا بِشَخْصِي ١٠
وَلَكِنْ لِلْعَيَانِ لَطِيفُ مَعْنَى
وَقَدْ كَرَّرَ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا فَقَالَ :

يَقُولُ أَخِي : شَجَاكَ رَحِيلُ جِسْمٍ
فَقُلْتُ لَهُ : الْمُعَايِنُ مُطْمَئِنٌّ
لِذَا طَلَبَ الْمُعَايِنَةَ الْخَائِلُ

١٥ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَمِيدِيُّ : وَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : قَالَ أَبُو نَوَاسٍ (٢) :

عَرَّضَنُ لِلَّذِي تُحِبُّ بِحُبِّ
ثُمَّ دَعَا يَرُوضُهُ إِبْلِيسُ
فَقُلْتُ أَنْتَ فِي طَرِيقِ التَّحْقِيقِ ، فَقَالَ :

أَبْنِ قَوْلَ وَجْهِ الْحَقِّ فِي نَفْسِ سَامِعٍ
وَدَعَا فَنُورُ الْحَقِّ يَسْرِي وَيُشْرِقُ

سَمِئُونِسُهُ رِقْقًا فَيَنْسَى نِفَارَهُ كَمَا نَسِيَ الْقَيْدَ الْمُوثِقَ مُطْلَقُ
اتَّهَى كَلَامُ الْحُمَيْدَى .

(١) وَأَنْشَدْتُ لَهُ أَيْضًا فِيمَا كَانَ يَعْتَقِدُهُ مِنَ الْمَذْهَبِ الظَّاهِرِيِّ مِنْ جُمْلَةِ
أَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

وَذِي عَذَلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ يُطِيلُ مَلَامِي فِي الْهَوَى وَيَقُولُ :
أَفِي حُسْنٍ وَجْهِ لَاحٍ ، لَمْ تَرَ غَيْبَهُ (٢)
فَقُلْتُ لَهُ : أَسْرَفْتَ فِي اللَّوْمِ ظَالِمًا وَلَمْ تَذَرِ كَيْفَ الْجِسْمِ ، أَنْتَ قَتِيلُ ؟
أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِيٌّ ، وَأَنْبِي وَعِنْدِي رَدٌّ — لَوْ أَرَدْتَ — طَوِيلُ
عَلَى مَا بَدَأَ حَتَّى يَتُومَ دَلِيلُ !

مَا أَخْرَجْتُهُ مِنْ شِعْرِ أَبِي الْمُعِيرَةِ فِي أَوْصَافِ شَيْءٍ

لَهُ مِنْ قَصِيدَةِ أَوْلَهَا :

١٠

أَحَاجِيكُمْ : مَنْ قَلَدَ الْقَمَرَ الْقُرْطَا ؟ وَأَسْأَلُكُمْ : مَنْ أَلْحَفَ الْفُصْنَ الْمِرْطَا ؟
فَمَا جَزَعِي إِنْ جَاوَزُوا الْجِرْعَ ظَاعِنًا وَلَا سَاقِطُ حُزْنِي إِذَا جَاوَزُوا السَّقَطَا
وَمِنْهَا :

١٥

وَلَيْدَةُ سِرِّ الْمَجْدِ تَبْدَحُ نَخْوَةً وَقَدْ عَظُمَتْ مَجْدًا وَقَدْ كَرُمَتْ رَهْطَا
وَلَمْ تَرْضَ بِالْجَوَازِ عَقْدًا وَدُمْلَجًا وَلَا قَنَعَتْ بِالنَّجْمِ شَنْفًا وَلَا قُرْطَا
تَقْنَصُهَا وَالْعُمُرُ فِي عُنْفُوَانِهِ فَلَا غُصْنِي أَحْنَى وَلَا لِمَتِّي شَمْطَا
وَلَيْلٍ غَطَّى وَالنَّجْمُ فِي الْأَفْقِ حَايِرٌ فَغَطَّى عَلَى الْأَعْلَامِ مِنْهُ الَّذِي غَطَّى
وَلَيْسَ وَشَاحِي غَيْرَ غَضَبٍ مُهِنْدٍ أَبِي حَدُّهُ أَنْ يَسَامَ الْقَدَّ وَالْقَطَا

(١) رَجَعَ السَّكَّامُ فِي ر . هـ (٢) لَب : غَيْرُهُ ■

تَشَابَهَ عَزَمِي وَالْحُسَامُ وَهَمَّتِي ثَلَاثَةُ أَسْيَافٍ بِأَمْثَالِهَا يُسْطَى
وهذا كقول أبي تمام (١) :

الْعِيسُ وَالْبَيْدُ وَاللَّيْلُ التَّمَامُ مَعًا ثَلَاثَةُ أَبَدًا يُقَرَّنُ فِي قَرْنٍ
وَأَخَذَهُ الْبُحْتَرِيُّ (٢) فَقَالَ :

• اَطْلُبْنَا ثَالِثًا سِوَايَ فَإِنِّي رَابِعُ الْعِيسِ وَاللَّجَى وَالْبَيْدِ
وقال الصَّنَوْبَرِيُّ أَيْضًا :

حَتَّى تَكُونَ لِي الطَّمِرَةُ خِلَّةً وَالْبَيْدُ دَارًا وَالْحُسَامُ رَفِيقًا
وقال أبو الحسن السَّلَامِيُّ :

فَكُنْتُ وَعَزَمِي فِي الظَّلَامِ وَصَارِمِي ثَلَاثَةُ أَشْبَاهٍ (٣) كَمَا اجْتَمَعَ النَّسْرُ (٤)
وقال بعضُ أَهْلِ عَصْرِنَا :

وَالْأَثَلَاتُ الشُّفْعُ لَمْ يَزَلِ الْهَوَى لَهَا رَابِعًا فِي أَعْيُنِ وَقُلُوبِ (٥)
وله من أُخْرَى أَوْهَاهَا :

سَرَّتْ مِنْ لَوَى خَبْتٍ إِلَيْنَا تَعَسَّفُ مَهَامِهِ ذَاتِ الْجَهْلِ (٦) وَالْجَوُّ أَكْلَفُ
يقولُ فيها :

تَبَيَّتْ بِذِي الْأَرْضَى وَقَدْ بَاتَ طَيْفُهَا لَنَا صَمًا نَحْنُو عَلَيْهِ وَنَعْكُفُ
هَبِيكَ سَرَيْتِ اللَّيْلَ، فَرَعُكَ أَسْحَمُ وَتَغْرُكَ بَسَامُ ، وَلَحْظُكَ أَوْطَفُ

(١) راجع ديوانه ص ٢٩٧ (٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٩٤)

(٣) ب : « أشباح » — لب : « أشياخ »

(٤) لب : « النسر » (٥) هذا البيت ناقص في ، و ، و

(٦) كذا بالأصـول ، ولعلها « ذات المجمل »

فَأَنَّى أَطَقْتَ الْمَشَى ، قَدْ كُفِّ مَائِدُ
سَقَى رُبْعَكَ الْمَأْلُوفَ ، حَيْثُ تُصَدِّعْتُ
فَكَمْ لِي فِيهِ مِنْ جَنَابٍ وَطِئْتُهُ
وَقَدْ شَقَقْتُ فِيهِ الْبُرُوقُ جُيُوبَهَا
لِيَالِي بَاتَ الْبَنَانُ فَوْقَ كَثِيبِهِ
إِذَا زَجَّجَ مِنْ رَدْفٍ كَثِيبٌ مُرْجَرَجُ
يُمَدُّ عَلَيْنَا لِلْسَحَابِ (٢) سُرَادِقُ
وَلِلَّهِ دَرَى مَا أَدْرُ مَدَامِعِي
بَدَا الْعِلْمُ الْفَرْدُ الَّذِي كُنْتُ عَالِمًا
يَذْكُرُنِي سَعْدَايَ بِالْغُورِ مَا تَنِي
وَلِلَّهِ سَلَمَى يَوْمَ أَهْدَى سَلَامَهَا
وَمِنْهَا :

وَمَا ظَنَيْتُ أَدْمَاءَ تَعْرُو أَرَاكَهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا يَوْمَ رِيَعْتُ لَزُورَتِي
وَقَالَتْ : أَمَا تَتَنَبَّأُ رِقْبَةَ حَارِسِ
وَدُونَ الَّذِي أَمَلْتُ أَجْرَدُ سَابِحُ
فَقُلْتُ لَهَا : بَعْضُ الَّذِي بِكَ إِفَانْتَنَتْ
وَنِلْتُ سِقَاطًا مِنْ حَدِيثٍ وَعَاقَنِي
وَتَعَطَّوْا وَقَدْ وَافَى بَرِيرُ وَعُفَّ
فَرَاغَتْ إِلَى أَتْرَابِهَا تَتَشَوَّفُ
وَأَنْيَابُ لَيْثٍ فِي الْعَرِينَةِ تَصْرِفُ ؟
وَأَسْمَرُ عَرَّاصٍ وَأَبْيَضُ مُرْهَفُ
وَأَنْجَزَ مِيعَادًا بِخَيْلٍ مُسَوَّفُ (٤)
تَتَرُّهُ حُرٌّ عَنْ خَنَى وَتَعَقُّفُ

(١) ب : « العين » — ر : « الليل » (٢) لب : « بالسحاب »

(٣) ر ، ه : « للجنائب » (٤) ر : « وأنجز ميعاد الخيل مسوف »

يُسَاعِدُنِي تَحْتَ النَّقَابَيْنِ مَنْظَرٌ وَيُسْعِدُنِي تَحْتَ اللَّثَامَيْنِ مَرْشَفٌ

ومنها:

وَرَكِبَ سَرَّوًا وَاللَّيْلُ مُرْخٌ عَلَيْهِمْ خَبَطْتُ بِهِمْ أَكْنَافَهُ، وَنَجُومُهُ عَلَى كُلِّ قِنْعَاسٍ كَانَ لِفَامِهِ هَذَا يَأْخُطُوبُ بَاتٍ يَنْحَرُّهَا الشَّرَى إِلَى أَنْ أَنَافَ الصُّبْحُ يَنْفُضُ عُرْفَهُ ^٥ ^(١) فَمَا الشَّقُّ إِلَّا عَنُ مُنَادِي ابْنِ مُنْذِرٍ

سُتُورًا مِنَ الظَّلَمَاءِ لَا تَتَكَشَّفُ رَوَائِمُ أَظَارٍ عَلَى الْبَذْرِ عُكْفُ - وَقَدْ سَمِ الْإِزْقَالَ - قَطْنٌ مُنْدَفُ وَلَكِنَّهَا مِنْ بَاطِنِ الْخَفِّ تَرَعَفُ وَطَائِرُهُ فِي غُرَّةِ الْفَجْرِ يَهْتِفُ نَذِيرًا بِصَرْفٍ عَاقِبُهُمْ عَنْهُ يُصْرِفُ

ومنها:

وَيَارُبَّ مَيْدَانٍ أَتَى فِيهِ سَابِقًا وَمَا نَامَ حَتَّى لَمْ مُفْتَرِقَ الْعَلَا إِيَّاسٌ وَيَسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ وَحَاتِمٌ وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَقَاوِلُ إِذَا مُضَرُّ الْحَمْرَاءِ أَدَلَّتْ بِمَجْدِهَا سَمَا لَكَ قَحْطَانُ بَيْنَانٍ سُودِدِ ^{١٥}

وَعُودِرَ مَنُكُوتًا هَجِينٌ وَمُتَرَفٌ فَهَذَا هِيَ عِقْدٌ فِي يَدَيْهِ مُؤَلَّفٌ وَقَسٌّ وَلَقَمَانُ بْنُ عَادٍ وَأُحْنَفُ تَلَّتْ سُورًا مِنْ مَجْدِهِ وَهُوَ مُصْحَفٌ وَجَرَّتْ ذُبُولُ الْفَخْرِ قَيْسٌ وَخِنْدِفٌ يُنِيفُ عَلَى تِلْكَ الْمَبَانِي وَيُشْرِفُ

وله من أخرى:

أَمِنْ الْبُرَاقِ التَّاحِ بَرَقَ مَا سَرَى أَتَبَعْتُهُ نَظَرَ الْمَشُوقِ بِمُقْلَةٍ عَايَنْتُهُ كَالصَّقْرِ صَفَقَ طَائِرًا

إِلَّا وَرَدَّ الْأَفَقَ مِرْطًا أَحْمَرًا؟ لَمْ تَدْرِ، مُدْعَاهُ الْأَثِيمَةَ، مَا الْكَرَى؟ فَغَدَّتْ غَرَايِبُ الدِّيَاجِي تُفَرَا

(١) الأبيات الآتية إلى آخر القصيدة لم تقع في ، ، و

ومنها :

وَسَلَّاتُ مِنْ نَارِ الصَّبَابَةِ صَارِمًا
وَمَشَيْتُ مُنْسَابًا فَقُلْتُ فِي أَرْقَمِ
بَيْتِنَا ، وَبَاتَ الْمِسْكُ فِينَا وَاشْيَا
وَرَنْتُ بِالْحَاطِ تَدِيرُ كُؤُوسَهَا
وَاللَّيْلُ يُلْحِفُنِي سَرَابِيلَ الدَّجَى
لَوْ جِئْتَنَا لَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرٍ
وَلَقَدْ رَقِيتُ مِنَ الْحَمَى أَعْلَامَهُ
لَمْ أَلْقَ إِلَّا مَشْرِفِيًّا أَيْضًا

ومنها :

إِلَّا تَرَى الْمَنْصُورَ تَحْتَ لَوَائِهِ
أَوْ لَا تَجِدُ فِي الْحَمَلِ عَاقِدَ خُبُوءَةٍ
أَوْ تَفْتَقِدُ صَمَّامَ عَمْرٍو فِي الْوَعَى
لَا غَرَوْ جِئْتُ الْبَحْرَ إِذَا أَجَلَى الْحَيَا
فَإِذَا دَعَوْنَا مَنْ يُجِيبُ لِنَكْبَةِ
شَيْمٍ غَدَتِ (٢) قُرْطُ الزَّمَانِ فَلَمْ أَنْمِ
لِلَّهِ دَرْكُ وَالرَّمَّاحُ شَوَارِعُ
وَمَقَامَةُ لَكَ فِي الْأَعَادَى قَدْ حَمَتْ
كَانَ اللَّسَانُ لَهَا الْحُسَامُ الْمُنتَضَى

وَجَرَزْتُ مِنْ وَفْدِ النَّصَابِيِّ عَسْكَرًا (١)
وَضَحَّ النَّهَارُ لَهُ فَعَادَ غَضَنْفَرًا
بِمَكَانِنَا ، وَالْحَلَى عَنَّا مُخْبِرًا
فِينَا فَتَشْرِبُهَا حَلَالًا مُسْكِرًا
جَهْلًا وَقَدْ عَانَقَتْ صُبْحًا مُسْفِرًا
أَسَدُ تَوْسَدَ كَفَّ ظَبْيٍ أَغْفَرًا
وَشَكَّتْ لَمَّا شِمْتُهُ مُتَغَيِّرًا
مِنْ دُونِنَا أَوْ زَاعِيًّا أَسْمَرًا

١٠

تَلَقَّ ابْنُهُ طَلَقَ الْجَبِينِ مُظْفَرًا
هُودًا فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا حَمِيرًا
فَلَقَدْ سَلَّلْنَا ذَا الْفَقَارِ مُذْ كَرَا
وَرَأَيْتُ يُحْيِي حِينَ لَمْ أَرُ مُنْدِرًا
لَبَّتْ تُجِيبُ فَخِلَتْهَا سَيْلًا جَرَى
حَتَّى نَظَمْتُ عَلَيْهِ شِعْرِي جَوْهَرًا (٣)
وَالْبَيْضُ تَقَطَّعُ لِأَمَّةٍ وَسَنُورًا
أَيَّامَ قَوْمٍ قَبْلَهَا أَنْ تُذْكَرَا
وَالْمَنْبَرُ الْعَالِي الْأَغْرَ الْأَشْقَرَا

١٥

(١) : « وجازت من وفد النصارى عسكرا » (٢) لب : « عدت »

(٣) هذا البيت والذي قبله ناقضان في « » ، و

غَادَرَتْ أَحْشَاءَ الْبُنُودِ خَوَافِقًا فِيهَا وَمُرَّانَ الْوَشِيحِ مُكْسَرًا
أَنْسَيْتَنَا جَذَلَ الطَّعَانِ وَعَامِرًا وَعُتَيْبَةَ بْنَ الْحَارِثِيِّ ^(١) وَمُسْهَرًا
فَإِذَا أَتَيْتُكَ مَادِحًا لَكَ لَمْ يَجِئْ شِعْرِي لِيَسْأَلَ ، بَلْ أَتَاكَ لِيَفْخَرَا
غَيْرِي الَّذِي اتَّخَذَ الْمَدَائِحَ مَكْسَبًا وَسِوَايَ مَنْ جَعَلَ الْقَوَافِي مَتَجَرَا
أَنَا مَا شَعَرْتُ لِأَنْ أُنْبَهَ خَامِلًا لَكِنْ لَأَمْنَعُ شَاعِرًا أَنْ يَشْعُرَا

قوله: «أَوْ نَفْتَقِدُ صَمَّصَامَ عَمْرٍو»، البيت، لفظ حبيب ومعناه، نقله أبو المغيرة:
أَوْ نَفْتَقِدُ ذَا النُّونِ فِي الْهَيْجَا فَقَدْ جَلَّى الْإِلَهِ لَنَا عَنِ الصَّمَّصَامِ ^(٢)

لَمَعَ مِنْ أَخْبَارِ مُنْذِرِ الَّذِي ذُكِرَ

قال: وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّ أَبِي مَرْوَانَ بْنِ حَيَّانَ، قال: كان مُنْذِرُ بْنُ يُحْيَى
صَاحِبُ سَرَقِطَةَ رَجُلًا مِنْ عُرُضِ الْجُنْدِ، وَتَرَقَّى إِلَى الْقِيَادَةِ آخِرَ دَوْلَةِ ابْنِ
أَبِي عَامِرٍ، وَتَنَاهَى أَمْرُهُ فِي الْفِتْنَةِ إِلَى نَيْلِ الْإِمَارَةِ، وَالْإِنْتِبَازِ مِنَ الْعَسْكَرِ
إِلَى الثَّغْرِ الْأَعْلَى بَلَدِهِ، وَاقْتِطَاعِهِ لِمَا صَيَّرَ فِي يَدِهِ. وَكَانَ أَبُوهُ يُحْيَى مِنَ الْفُرْسَانِ
غَيْرِ الثَّبَّاءِ؛ فَأَمَّا ابْنُهُ مُنْذِرٌ فَكَانَ فَارِسًا لَبِقَ الْفُرُوسِيَّةِ، بِهِيَّةِ الشَّارَةِ، مَلِيحَ
التَّقَلُّبِ عَلَى الدَّابَّةِ، سَخِيًّا كَرِيمًا خَارِجًا عَنْ حَدِّ الْجَهْلِ، يَتَمَسَّكُ بِطَرْفٍ مِنَ
الْكِتَابَةِ السَّادِجَةِ. وَأَمَّا غَدْرُهُ فَالنَّارُ بِرَأْسِ الْيَفَاعِ، مِنْ أَفْحَشِهِ صُنْعُهُ بِهَشَامِ
الْمَخْلُوعِ مَوْلَى نِعْمَتِهِ، وَمُعَلِّي رُتْبَتِهِ، وَبَاعِثُهُ إِلَى الثَّغْرِ لِنُصْرَتِهِ؛ فَانْقَلَبَ
نَاصِرًا لِعَدُوِّهِ، وَغَزَاهُ فِي عَقْرِ دَارِهِ. وَأَنْزَلَهُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَأَسْلَمَهُ لِحَتْفِهِ، وَبَاعَ
دِمَاءَ عَشِيرَتِهِ أَهْلَ قُرْطُبَةَ حِجَّانًا بَاطِلًا بِلَا ثَمَنِ مِنَ الْبَرَابِرَةِ عَلَى غَيْرِ عُدْرِ وَلَا ضَرُورَةٍ.

(١) ب، لب، ر: «عتيبة بن أبي الحباب»

(٢) راجع ديوان أبي تمام (ص ٢٤٦) وفي رواية البيت اختلاف

وعادَ بِمِثْلِهَا لِحَمْدِ بْنِ سُلَيْمَانَ أَثِيرِهِ عِنْدَمَا اسْتَجَارَ بِهِ فِي نَكْبَتِهِ ، فَقَتَلَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، فَجَاءَ بِهَا صَلَواتُ مَشْهُورَةٍ لَمْ تَغْسِلْهَا مَعْدِرَةً ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ كَرِيمًا ، وَهَبَ لِقُصَادِهِ مَالًا عَظِيمًا ، فَوَفَدُوا عَلَيْهِ . وَتَطَارَحَتِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ . وَاتَّفَقَ عَلَى تَقْضِيهِ ، وَعَمَرَتْ لِنَدْلِكَ حَضْرَتُهُ سَرَقُسْطَةَ ، حَتَّى أَشْبَهَتْ الْحَضْرَةَ الْكُبْرَى قُرْطُبَةَ أَيَّامِ الْجَمَاعَةِ ، فَحُسِنَتْ أَيَّامُهُ ، وَهَتَفَ الْمَدَاحُ بِذِكْرِهِ .

وكان مع شُمُوهِ الْعَالِي مِنَ الْإِيثَارِ لَشَهَوَاتِهِ ، وَالْمَسَارَعَةِ لِقَضَائِهِ لَدَاتِهِ ، وَالِانْهِتَاكِ فِي طَلَبِ رَاحَتِهِ ، وَالشَّغْفِ بِزِيِّ دُنْيَاهُ ، وَالْكَلْفِ بِزُخْرُفِهَا ، وَالتَّهَالُكِ فِي حُبِّهَا ، عَلَى أَضْلَعِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ تَفَرَّدَ بِشَأْنِهَا ، فَاتَّخَذَ الْجَوَارِي الْحِسَانَ ، وَمِلَاحَ الْفُلَمَانَ . فَجُلِبَ إِلَيْهِ كُلُّ عِلْقٍ خَطِيرٍ ، وَحَصَلَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ مَا وَصَفْنَاهُ كَثِيرٌ .

١٠

وكان لَأَوَّلِ وَلَايَتِهِ قَدْ سَاسَ عِظَمَاءَ الْإِفْرَنْجِ وَهَادَاهُمْ حَوْطًا لِلشَّغْرِ وَأَهْلِهِ ، وَتَأَنَّبًا لِلْجَمَاعَةِ ^(١) حَتَّى ثَوَّبَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، يُنَاهِضُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ . وَكَانَ رُؤْسَاءَ الْجَلَالَةِ يَوْمُنْدُ رَيْمُنْدُ الْجَلِّيِّ وَشَانِجُهُ الْقَشْتَلِيُّ ، فَسَلَكَ مَعَهُمَا سَبِيلَ الْإِسْتِرْضَاءِ ، وَالْمُوَافَقَةِ وَالِاسْتِخْذَاءِ ، فَحَفِظَتْ أَطْرَافُهُ وَكَفَّتِ الْمَعْرَةُ عَنْ عَمَلِهِ . وَرَبَّمَا أَوْقَعَ بَعْضُ أَصَاغِرِ الْقَوَامِسِ فِي أَطْرَافِهِمْ وَسَبَى مِنْهُمْ ، وَرَيْمُنْدُ وَشَانِجُهُ بَاقِيَانِ عَلَى مُعَاقَدَتِهِ إِلَى أَنْ مَضَى بِسَبِيلِهِ ، وَالثَّغْرُ مُسَدُودٌ لَا ثَغْرَةَ فِيهِ وَلَا وَهْيَ فِي حَالِهِ ^(٢) . وَبَلَغَ مِنْ اسْتِمَالَةِ الْحَاجِبِ مُنْذِرٍ لِهَذَيْنِ الطَّاعِيَتَيْنِ أَنْ أَجْرِيَا تَصَاهُرَهَا عَلَى يَدَيْهِ ، وَكُتِبَ عَقْدُ النِّكَاحِ بَيْنَهُمَا بِحَضْرَةِ سَرَقُسْطَةَ فِي حَقْلِ مِنْ أَهْلِ الْمَلَّتَيْنِ ، فَفَرَّقَتِ الْأَلْسِنَةُ مُنْذِرًا لِسَعْيِهِ فِي نَظْمِ سِلَكِ الطَّاعِيَتَيْنِ لِمَا فِيهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ .

(١) ب : « وتأسى لجماعة » — لب : « وتأنبا لجماعة »

(٢) لب : « برجاله »

وقد قيل إن رأى مُنذرٍ كان في ذلك أَحَصَف، مِنْ رَأْيٍ مَنْ قَدَحَ فِيهِ وَقَرَفَ،
لِنَظَرِهِ فِي شَأْنٍ وَقْتِهِ ۖ وَعِلْمِهِ بِانْصِدَاعِ عَصَا أَهْلِ كَلِمَتِهِ ۖ فَأَثَرَ مِنَ الْمَوَادِعَةِ
مَا سَتَرَ بِهِ الْعُورَةَ، وَشَرَّاهُ بِغَلِيظِ الْكُلْفَةِ ۖ وَاخْتَدَعَ بِهِ عَظِيمِي الْجَلَالَةِ رَيْمُنْدُ
وَشَانِجُهُ الْمُحَدَّثَيْنِ أَنْفُسَهُمَا يَوْمُنَا بِمَنَاهَضَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ، فَأَلْهَاهُمَا عَنِ الْحَرْبِ
وَحَبَّبَ إِلَيْهِمَا الدَّعَاةَ ۖ وَأَعَقَّبَ الْحَاجِبُ مُنْذِرُ أَهْلِ الثَّغْرِ فِي مَعْبَةِ ذَلِكَ
عَاجِلِ السَّلَامَةِ ۖ وَاسْتَظْهَرُوا بِهِ عَلَى الْعِمَارَةِ، فَحَيُّوا وَعَاشُوا فِي نِعْمَةٍ ضَافِيَةٍ ۖ
وَعِدْشَةٍ رَاضِيَةٍ، لَمْ يَتَغَيَّرْ بِهِ عَنْهَا حَالٌ؛ إِلَى أَنْ أَلَوَتْ بِمُنْذِرِ الْمَنِيَةِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ
النَّاسُ لِرَأْيِهِ ۖ وَأَقْرَأُوا بِسِيَاسَتِهِ ۖ وَلَمْ يَأْتِ بَعْدَهُ مِنْ يَسُدُّ مَسَدَّهُ، وَلَمْ يَنْفَعِ اللَّهُ
الطَّاعِيَتَيْنِ بِصَهْرِهِمَا الَّذِي كَانَا عَقْدَاهُ لِلتَّأْلِيفِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، إِذْ أُعْجِلَ عَنْهُ شَانِجُهُ
ابْنُ غَرْسِيَّةَ شَيْطَانُهُمُ الرَّجِيمُ ۖ وَهَوَى أَمِيرُهُمْ رَيْمُنْدُ ظَهِيرُ الْمَذْكُورِ، وَابْنُهُ بَعْدَهُ؛
فَشَتَّ اللَّهُ شَمْلَ تِلْكَ الطَّوَاعِيَتِ يَوْمُنَا وَكَفَى الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ ۖ وَاشْتَمَلَ
مُنْذِرٌ عَلَى قَوَادِ تِلْكَ الثُّغُورِ ۖ وَاسْتَوْسَقَتْ لَهُ هُنَالِكَ الْأُمُورُ، وَاسْتَكْتَبَ عِدَّةَ
كِتَابٍ كَأَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْوَسٍ^(١) مِنْ تَذْمِيرٍ، وَكَأَبِي عَامِرِ بْنِ أَرْزَقٍ، وَابْنِ
وَاجِبٍ وَغَيْرِهِمْ ۖ

١٥ قَالَ ابْنُ حَيَّانَ: وَأَخْبَرَنِي الْكَاتِبُ أَبُو أَمِيَّةَ ابْنُ هَاشِمٍ^(٢) الْقُرْطُبِيُّ — وَكَانَ
مِنْ وَجُوهِ مَنْ خَرَجَ عَنَّا أَيَّامَ الْفِتْنَةِ وَاسْتَوْطَنَ ثَغَرَ تُطَيْلَةَ، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ فِي
أَوَّلِي الْبَيْتُوتَاتِ فَضْلًا — قَالَ: اجْتَازَ الْقَوْمُسُ شَانِجُهُ بْنُ غَرْسِيَّةَ صَاحِبُ
قَشْتِيلَةَ بِيَابِ تُطَيْلَةَ صَدَرَ أَيَّامِ الْحَاجِبِ مُنْذِرٍ، وَعَلَيْنَا يَوْمُنَا مِنْ قَبْلِهِ سُلَيْمَانُ
ابْنُ هُودٍ صَاحِبُهُ، فَسَلَكَ مُجْتَازًا يُرِيدُ طَرَفَ الثَّغْرِ الْأَعْلَى لِلْاجْتِمَاعِ هُنَالِكَ بِالْقَوْمُسِ
رَيْمُنْدُ صَاحِبُ بَرْشُلُونَةَ، لِعَقْدِ الْمُصَاهَرَةِ بَيْنَهُمَا، وَالْأَنْتَى مِنْ عِنْدِ شَانِجِهِ، وَاطْنًا ٢٠

(١) ر: «مدوش» (٢) ب، لب، وه: «هشام»

لأَرْضَنَا عَنْ عِلْمٍ مِنْ مُنْذِرٍ وَالْيَنَّا ، وَضَمَانٍ مِنْهُ لِكَفِّ عَادِيَةِ جَيْشِهِ عَنَّا ؛ فَأَنْكَرَهُ أَهْلُ تَطِيلَةَ وَهُمْ يَوْمُنْذٍ بِحَالِ عِزَّةٍ وَقُوَّةٍ ، وَذَهَبُوا إِلَى عَصِيَّانٍ أَمِيرِهِمْ مُنْذِرٍ فِيهِ تَفَادِيًا مِنْ وَصْمَتِهِ ؛ فَنَمَى ذَلِكَ إِلَى الطَاغِيَةِ شَانِجُهُ ، فَلَمَّا شَارَفَ الْبَلَدَ أَرْسَلَ يَسْتَدْعِي قَوْمًا مِنْ أَعْيَانِهِمْ ، يُكَلِّمُهُمْ فِي سَبِيلِهِ .

- قال أبو أمية : فَكُنْتُ فِي عَدَدٍ مِنْ مَضَى ، فَدَخَلْنَا مَحَلَّتَهُ يَوْمُنْذٍ فَخَرَصْتُهَا (١)
- خيلاً وَرَجُلًا زَهَاءً سِتَّةَ آلَافٍ ، وَلَمْ يَكُنْ احْتِفَلْ فِي حَشْدِهِ ، وَوَصَلْنَا إِلَى مَضْرِبِهِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى مَرْتَبَتِهِ عَلَيْهِ ثِيَابٌ مِنْ ثِيَابِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَأْسُهُ مَكْشُوفٌ أَصْلَعٌ كَهْلٌ ، لَمْ يَغْلِبْ عَلَيْهِ الشَّيْبُ بَعْدُ . أَسْمَرُ اللَّوْنِ جَمِيلُ الصُّورَةِ ؛ فَكَلَّمْنَا بِكَلَامٍ لَطِيفٍ حَسَنٍ بَيْنَ فِيهِ وَجْهَ سَيْرِهِ ، وَذَكَرَ مَا فَارَقَ وَالْيَنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْحَالَفَةِ مَعَهُ ، فَعَرَفْنَاهُ بِكُرٍّ مِنْ وَرَاءِنَا لِاجْتِيَازِهِ ، وَذَهَابِهِمْ إِلَى التَّمَرُّسِ بِهِ . فَهَنَانَا عَنْ ذَلِكَ وَذَكَرَ الْحَرْبَ وَعُدُوءَهَا ؛ فَانْصَرَفْنَا عَنْهُ وَأَدِينَا قَوْلَهُ إِلَى مَنْ خَلْفَنَا فَلَمْ يَتَقَبَّلْهُ عَوَاطِمُ النَّاسِ ، وَحَمَلَهُمُ الْأَنْفُ عَلَى أَنْ خَرَجُوا إِلَى عَجَلٍ أَبْطَأَتْ فِي سَاقَتِهِ تَحْمِيلُ أَرْوَادِ عَسْكَرِهِ يَرِيدُونَ نَهَبَهَا عَاصِمِينَ لِلْمَشِيشَةِ ؛ فَأَنْهَى إِلَيْهِ ذَلِكَ ، فَصَرَفَ مِنْ أَصْحَابِهِ مِقْدَارَ خَمْسِمِائَةِ فَارَسٍ ثَارُوا فِي وَجْهِ النَّاسِ . فَخَرَجَ الْبَلَدُ بِأَسْرِهِ لِدِفَاعِهِمْ . فَحَمَلَ مِنَ الْخَمْسِمِائَةِ قِطْعَةً ، فَوَلَّى النَّاسُ الْأَذْبَارَ حَتَّى اقْتَحَمُوا بَابَ الْمَدِينَةِ . ١٥
- فَمَا رَأَيْتُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ يَوْمُنْذٍ رَجُلًا مِثْلَ رَجَالِهِ ، وَلَا فِي مُلُوكِ الطَّوَاغِيَةِ مَنْ أَعْدَلُهُ بِهِ فِي رَكَانَةِ مَجْلِسِهِ وَرُجُولِيَّتِهِ وَدَهْنِهِ وَكَمَالِ أَدَوَاتِهِ ، وَصُدْرِهِ كَلِمَاتِهِ . إِلَّا مَا كَانَ مِنْ صَهْرِهِ وَسَمِيِّهِ شَانِجُهُ بْنُ غَرْسِيَّةٍ صَاحِبِ الْبَشْكَشِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِالرَّئَاسَةِ بَعْدَهُ فَكَانَ مِثْلَهُ ، بَدَّدَ اللَّهُ شِعْرَهُمْ .

- ٢٠ وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا حَبَا اللَّهَ بِهِ الْإِسْلَامَ يَوْمُنْذٍ عِنْدَ مُنْبَعَثِ فِتْنَتِهِمْ ، وَنُحْدَثِ

(١) ر : « غرستها » — ب : « محاسنها » ولعلها « غسبتها »

فُرِقَتْهُمْ ۖ وَتَشْتَبِهَتْ كَلِمَتُهُمْ ، بعد الدولة العاصمية بأفُقنا ، تعجيله حَتَفَ أُمْلَاكِ
النَّصْرَانِيَّةِ الْمُتَمَرِّسِينَ بِهِمْ ، وَتَلَاخُفُهُمْ فِي الْمَدَّةِ الْقَرِيبَةِ ، وَإِلْقَاؤُهُ بَيْنَ مَنْ أُنْظِرَ
مِنْهُمْ الشَّتَاتَ وَالْعَدَاوَةَ ، حَتَّى صَارُوا أُسْوَةَ الْمُسْلِمِينَ حَذْوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، فِي افْتِرَاقِ
الكَلِمَةِ وَزَوَالِ أَمْرِ الْمَمْلَكَةِ ؛ فَإِنَّ الْفِتْنَةَ بِأَفُقْنَا جَاءَتْ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَزُعْمَاءِ الطَّاعِيَةِ حُضُورُ ، وَفِيهِمْ عَدُوُّ اللَّهِ شَانِجُهُ بْنُ فَرْدِزَنْدَ الَّذِي تَمَرَّضَ بِالنُّصُورِ
ابْنِ أَبِي عَامِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ذُو الْعِزَّةِ وَالسَّطْوَةِ ، فَأَعْيَا عَلَيْهِ حَتَّى قَعَهُ ، وَضَرَبَ بَعْدَهُ
فَرِيقَ الْفِتْنَةِ ، وَمَالًا الْخَوَارِجَ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، حَتَّى تَسْكُنَ مِنْ هَشْمِ الْبَيْضَةِ ؛
وَطَمَحَ أَمْلُهُ إِلَى الْكَرَّةِ ، فَقَطَعَ اللَّهُ بِهِمْ ۖ وَأَهْلَكَهُمْ فِي مَدَّةٍ قَرِيبَةٍ .

ذِكْرُ الْخَبَرِ عَنْ مَقْتَلِ مُنْذِرٍ

١٠ قال ابْنُ حَيَّانَ : وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيِ رَجُلٍ مَارِدٍ مِنْ بَنِي عَمَّةٍ ، يُقَالُ لَهُ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَكَمٍ ، وَكَانَ مُقَدِّمًا فِي قَوَادِ مُنْذِرٍ ، أَضْمَرَ الْفِتْكَ بِهِ دَهْرًا ، فَدَخَلَ
عَلَيْهِ يَوْمًا فِي مَجْلِسِهِ غُرَّةَ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَهُوَ غَافِلٌ فِي
غِلَاظِهِ ۖ لَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا نَفَرٌ مِنْ خَوَاصِّ خِدْمَةِ الصَّقَلَبِ ۖ قَدْ أَكَبَّ عَلَى كِتَابٍ
يَقْرُؤُهُ ۖ فَعَلَاهُ بَسْكَينٌ قَدْ أَعَدَّهُ ، فَفَرَى بِهِ أَوْدَاجَهُ وَلَا مَانِعَ مِنْهُ . وَهَرَبَ
خُدَّامُ السَّرِّ^(١) الْغُلَمَانُ الْحَصِيانُ ، الَّذِينَ كَانُوا عَلَى رَأْسِهِ ، وَخَلَوْهُ فِي يَدَيْهِ ، إِلَّا
١٥ خَادِمًا شَهْمًا مِنْهُمْ مَشَى إِلَيْهِ وَهُوَ حَاسِرٌ ، فَضَرَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بِخَنْجَرِهِ فَقَفَضَى عَلَيْهِ
مَعَ مَوْلَاهُ . وَأَخْرَجَ رَأْسَ الْمُنْذِرِ لِلْوَقْتِ مِنْ قَصْرِهِ فَوْقَ قَنَازٍ يَنَادِي عَلَيْهِ :
هَذَا جَزَاءُ مَنْ عَصَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَشَامًا وَدَفَعَ حَقَّهُ ، يَرِيدُ بِذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي
كَانَ يُدْعَى لَهُ يَوْمَئِذٍ بِإِسْبِيلِيَّةٍ ، تَعَاقَمًا مِنْ هَذَا الْمَارِدِ لَوْلَايَتِهِ ، وَتَوَطُّعًا^(٢) لِقِيَامِهِ ،

(١) ب ، لب ، م : « السوء » (٢) ب ، لب ، م : « وتوطيدا »

إِذْ كَانَ هَذَا الْقَتِيلُ مِمَّنْ رَدَّ طَاعَةَ هِشَامٍ تَأْسِيًّا بِوَالِدِهِ يَحْيَى وَبِحَالِهِ إِسْمَاعِيلُ
ابْنُ ذِي النُّونِ ؛ فَزَلَتْ بِسَرَقِشْطَةَ يَوْمَئِذٍ حَادِثَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَشْرَفَ أَهْلُهَا عَلَى
فِتْنَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَاضْطَرَبَتْ لَهَا حَالُهَا ، وَطَمِعَ فِيهِمْ أَكْثَرُ مَنْ كَانَ يُجَاوِزُهُمْ .
وَأَدْعَنُوا لِهَذَا الْغَوِيِّ ^(١) الْمُتَوَثِّبِ عَلَيْهِمْ آتِفًا ، وَرَهْبُوه لَاسْتِجَاشَتِهِ الْغَوَاءَ
وَالسَّمْلَةَ ؛ فَمَلَكَ الْبَلَدَ لِنَفْسِهِ .

٥

وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ هُودٍ الْجُدَائِيُّ صَاحِبُ لَارِدَةٍ وَقَتَهُ مُقِيمًا بِتَطِيلَةَ بِجَمْعِهِ ،
فَسَارَعَ إِلَى سَرَقِشْطَةَ سَاعَةً سَمِعَ بِخَبَرِ مُنْذِرٍ رَجَاءً فِي دُخُولِهَا ، فَمَنَعَهُ هَذَا الْقَتِيُّ
الْقَاتِلُ ، ثُمَّ جَاءَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ ذِي النُّونِ خَالُ مُنْذِرٍ مُتَمَعِّضًا لِمَا جَرَى عَلَى ابْنِ
أَخْتِهِ ، فَاِمْتَنَعَ ابْنُ حَكَمٍ بِالْقَصْبَةِ ، وَاتَّصَلَتِ الْفِتْنَةُ ، وَنَالَ أَهْلُ سَرَقِشْطَةَ يَوْمَئِذٍ
جَهْدٌ شَدِيدٌ وَخَرِبَتْ أَحْوَالُهُمْ .

١٠

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَكَانَ رَكِيبُ ابْنِ حَكَمٍ الْقَاتِلُ مِنْ خُطَّةِ التَّقْدِيرِ مَرَكَّبًا
لَمْ يَجْسُرْ عَلَيْهِ فَاتِكَ قَبْلَهُ لِنَفَرْدِهِ وَوُثُوبِهِ عَلَى الْأَمِيرِ مُنْذِرٍ جَوْفَ قَصْرِهِ فِي قَرَارَةٍ
بِمَجْلِسِهِ بَيْنَ غِلْمَانِهِ وَأَهْلِهِ وَتَحْتَ أَغْلَاقِهِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَابِ الْأَقْصَى مِنْ قَصْرِهِ
مَالًا يُحْصَى مِنْ حُجَابِهِ وَقَهَارِمَتِهِ ؛ فَلَمْ يَفْكُرْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَحَمَلَ نَفْسَهُ
عَلَى التَّصْمِيمِ فِيهِ ، وَهُوَ عَلَى الْمَوْتِ دُونَهُ ؛ فَلَمَّا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي الْخِصْيَانِ ١٥
الْعَبْدِيُّ الَّذِينَ حَضَرُوا مَجْلِسَ مُنْذِرٍ سَاعَتَيْهِ فَضِلَّ لِلدَّفَاعِ عَنْهُ وَالْوُثُوبِ بِابْنِ
حَكَمٍ ، عَلَى كَثَرَتِهِمْ وَتَفَرُّدِهِ وَسَطَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَزِيدُوا عَلَى الْهَرَبِ قُدَّامَهُ ،
فَجَاءَ بِفَتْكَةٍ أَسْقَطَتْ كُلَّ مَنْ فَتَكَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَهُ ؛ ثُمَّ لَحِقَ طَمَعُهُ بِرِيَاسَةِ
الْمَلِكِ فَمَلَكَهُ ، وَلَمْ يَفْكُرْ فِي ابْنِ ذِي النُّونِ خَالِ مُنْذِرٍ لَمَّا دَنَا إِلَيْهِ . وَفَعَلَ ذَلِكَ
بِسُلَيْمَانَ بْنِ هُودٍ ، وَقَدْ جَاءَ نَاشِرًا أَذْنِيَهُ ، فَارَبَّهُ وَدَافَعَهُ . وَكَانَ فِي قَصْرِ مُنْذِرٍ ٢٠

(١) ب ، لب ، م : « العربي »

وَقَتَ فَتِكَ بِهِ مِنْ حَاشِيَتِهِ وَغِلْمَانِهِ أَزِيدُ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ سِوَى نِسَائِهِ ؛ فَطَارَ
الرَّجَالُ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَرَعًا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يَأْخُذُ عَلَى يَدِهِ ، وَقَامَ بَيْنَهُمْ كَالْأَسَدِ
الْوَرْدِ ، فَحَزَّ رَأْسَ الْفَتَى مُنْذِرٌ لِلْوَقْتِ ، وَأَخْرَجَهُ إِلَى النَّاسِ ، فَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ
وَأُبْلِسُوا ، وَلَمْ يَنْطِقْ مِنْهُمْ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ .

٥ وأرسل من حينه ، يستدعى قاضي البلد والمشيخة ، فدخلوا عليه وهو
قاعدٌ على فراشٍ مُنْذِرٍ قَتِيلِهِ ، وَمُنْذِرٌ إِلَى جَانِبِ الْفِرَاشِ مُزْمَلٌ (١) فِي دِمَائِهِ ،
مُغَطَّى بِثِيَابِهِ ؛ وَوَصَفَ أَنَّهُ جَرَى فِي سَبِيلِ الْإِصْلَاحِ عَلَيْهِمْ ، وَالشَّدَّ لِسُلْطَانِهِمْ ،
وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بَتْسَكِينَ مَنْ خَلَفَهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ ؛ وَأَظْهَرَ الدَّعَاءَ أَوَّلًا لِسُلَيْمَانَ بْنِ
هُودَ ، فَأَرَوْهُ قَبُولَ مَا وَصَفَهُ ، وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ ، وَكَلِمَتُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ عَلَيْهِ ، إِلَى أَنْ
ثَارُوا بِهِ وَقَاتَلُوهُ ؛ فَخَرَجَ مِنْ بَابِ بَظْهَرِ الْقَصْرِ ، وَنَجَا مِنْهُ بِفَاحِرٍ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ
١٠ مِنْ ذَخَائِرِ آلِ مُنْذِرٍ ، وَلَحِقَ بِحِصْنِ رُوطَةِ الْيَهُودِ ، أَحَدِ مَعَاوِلِ سَرَقُوسْطَةِ الْمَنِيْعَةِ ،
وَقَدْ كَانَ أَعَدَّهُ لِنَفْسِهِ ، فَأَقَامَ بِهِ يَرْصُدُ الْفِتْنَةَ جَهْدَهُ . وَكَانَ قَدْ حَمَلَ مَعَ نَفْسِهِ
الْعُلَامِينَ أَخَوَى مُنْذِرٍ قَتِيلِهِ ، وَحَمَلَ أَبَا الْمُغِيرَةِ بْنِ حَزْمٍ وَزِيرَهُ وَغَيْرَهُمْ مِنْ
وُجُوهِ رِجَالِ مُنْذِرٍ الَّذِينَ نَكَبَهُمْ عِنْدَ قَتْلِهِ مَقْتِدِينَ « فُجِسَتْهُمْ عِنْدَهُ ،
يُطَالِبُهُمْ بِالْأَمْوَالِ » . ١٥

وَنَهَبَ الْعَوَامُّ قَصْرَ سَرَقُوسْطَةِ إِثْرَ خُرُوجِهِ نَهَبًا مَا سُمِعَ أَكْبَرُ مِنْهُ ، حَتَّى
قَلَعُوا مَرْمَرَهُ ، وَطَمَسُوا أَثَرَهُ ، لَوْلَا تَعَجُّيلُ ابْنِ هُودٍ مَلِكَ الْبِلَدِ إِثْرَ ذَلِكَ فِي
الْحَرَمِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ حَيَّانَ .

قال ابنُ بَسَّامَ : وَأَذْكُرُ بِهَذِهِ الْغَدْرَةِ الصَّلَاءَ « وَالْفِتْكَةِ الشَّهِيرَةِ الشَّوْهَاءِ »
٢٠ — إِذِ الشَّيْءُ يُذَكَّرُ مَعَ مَا جَانَسَهُ ، وَيُضَمُّ إِلَى مَا التَّفَّ بِهِ وَلَا يَسَهُ — مَا اتَّفَقَ

من مثلها في مُلْكِ المَنَادِيِّينَ^(١) الغالبيين إلى وقتنا هذا على طَرَفِ إفريقية الأذنى إلى الأندلس ، المستقرّة رياستهم بقلعَتهم المنسوبة إلى جدِّهم حمّاد ؛ وذلك أَنَّهُ لَمَّا أَفْضَى مُلْكُهُمْ إلى بُلْقَيْنِ بنِ مُحَمَّدٍ منهم ، أَحَدِ جبابرة الإسلام . المفتاتين على الأنام ، من رَجُلٍ كَانَ لَا يَمْلَأُ يَدَهُ إِلَّا مِنْ لِبْدَةِ أَسَدٍ ، وَلَا يُسْرِّحُ لِحْظَهُ إِلَّا فِي نِهَابِ بَلَدٍ مُضْطَهَدٍ . وَلَا يُرَاحُ إِلَّا وَبَحْرُ الْمَوْتِ يَلْتَطِمُ ، وَلَا يَكَلُمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ ، قَدْ تَجَاوَزَ فِي شُدُودِ^(٢) أُمْنِيَّتِهِ ، وَقَهْرِهِ لِرَعِيَّتِهِ . وَالْإِخَافَةِ لِأَقْرَانِهِ ، وَالِاسْتِبْدَادِ عَلَى زَمَانِهِ ، غَايَةَ مَنْ سَلَفَ مِنْ جَبَابِرَةِ الْأَرْضِ ، وَسَمِعَ بِهِ مِنْ فِرَاعِنَةِ الْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ ، إِلَى شُهْرَةِ آتَارِهِ ، وَتَطَاوُحِ^(٣) أَسْفَارِهِ . وَمَا لَا يَحْصَى مِنْ عَجَائِبِ أَخْبَارِهِ .

- ١٠ حَدَّثْتُ أَنَّهُ أَبَ مَرَّةً مِنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ الْأَفْرَادِ ، الْمُقْلَقَةِ^(٤) لِأَحْشَاءِ الْأَنَامِ . وَالْبِلَادِ ؛ فَكَانَتْهُ ارْتِاحٌ إِلَى مَا يَرْتَاحُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ إِرَاحَةٍ نَفْسِهِ ، وَالخَلْوَةِ . وَلَوْ سَاعَةً بَوَجهِ أَنَسِهِ ؛ فَجَلَسَ لَدُنْكَ مَجْلِسًا حَشَدَ لَهُ شَهَوَاتِهِ ، وَتَقَدَّمَ فِي إِحْضَارِ مَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ آلَاتِهِ وَأَدَوَاتِهِ ؛ وَأَمَرَ قِيَمَةَ جَوَارِيهِ بِاسْتِحْضَارِ عَقِيلَةِ أَتْرَافِهَا يَوْمَئِذٍ جَلَالَةَ سُلْطَانِ ، وَحُسْنَ سَمَاعٍ وَعِيَانِ ، إِحْدَى بَنَاتِ عَمِّهِ دُنْيَا ، لَمْ يَرِ بَعْدَهَا — زَعَمُوا — وَلَا قَبْلَهَا أَبْرَعُ ظَرْفًا ، وَلَا أَقْتَلُ طَرْفًا مِنْهَا ؛ فَجَاءَتْ تَوَدُّ الثَّرِيًّا لَوْ تَكُونُ نَعْلَهَا ، وَالشَّمْسُ لَوْ تَصَوَّرُ مِثْلَهَا ، وَقَدْ خَطَرَتْ بِنَفْسِهِ إِحْدَى هَنَاتِهِ . وَتَمَثَّلَتْ لَهُ بَعْضُ غَزَوَاتِهِ ؛ فَأَخَذَ يُدِيرُ وَيَدَبِّرُ ، وَطَفِقَ يُورِدُ وَيُصْدِرُ . قَالَتْ قِيَمَتُهُ : وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْكَاسِ فِي يَدِهِ ، وَإِلَى ابْنَةِ عَمِّهِ قَائِمَةً عَلَى رَأْسِهِ ، مِنْ لَدُنْ صُلِّيَتِ الْعَصْرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، وَحَانَتْ مِنْهُ بَعْدَ طُولِ لَيْلَتِهِ نَظْرَةً فَرَأَاهَا ،

(١) يعني بنى زيرى بن مناد ملوك إفريقية والمغرب

(٢) ب ، لب : « شروود » (٣) ب ، لب ، هـ : « وتطارح »

(٤) ب ، لب : « المقلقة »

فاعتذر إليها واستدناها ، ووعدّها ومَنّاها ، وقام من حينه فوضع الكأس مَلَاى
فى طاقٍ وطبع عليها ، وأمر بالركوب من حينه . فعزّا غزوته المشهورة إلى
الغرب من العُدوة ، بلغ فيها مدينة فاس ، فوطئ الدّول ، ودوخ السهل والجبل ؛
ثم رجع فجلس ذلك المجلس بعينه . واستدعى كأسه تلك وابنة عمّه ، فخلأ بأنسه ،
وقضى وطره من لذة نفسه ، بعد أيام كثيرة ، وحروب مُبيرة .

ولمّا تنهى أمره ، وتجاوز الشها ذكره ، وظنّ أنّ البلاد تحت ختمه ،
وأنّ الناس على حكمه ، سمّا إليه فى بعض أسفاره ابن عمّه الناصر ، أصغر
خلق الله عنده شأنًا ، وأهولهم عليه سرًّا وإعلانًا ، من فتى علمه الخوف كيف
يجسر ، وهجم به ضيق التسلك على الموت وهو ينظر ، لم يشاور إلا الحسام .
ولا استصحب إلا الإقدام ؛ وقد كان بعض نصحاء بلقين خوفه منه ، لكلمة
أخذت يومئذ عنه . فجعلها بلقين نُقْلَةً (١) ركابه ، وسمّر أحبابه . وكان قلما
يركب إلا دارعا ، أخذًا بما يأخذ به من دُعر القلوب ، ووتر البعيد والقريب ؛
وكان مولعا بالإدلاج إذا ارتحل ، مؤثرا للانفراد كلما ركب ونزل ؛ فأقسم
تلك الليلة ألا يُدليج إلا حاسرا ، وليقتلن الناصر إذا نزل ولو كان أسدا خادرا ؛
فأعجبه عن الأمر ، ولمّا تبدّ وضح الفجر ؛ لقيه كأنه يسلم عليه ، أو يسير بين
يديه . فما راجعه الكلام ، إلا وقد جلّه الحسام . وأراح منه البلاد والأنام ؛
ثم قام مقامه ، واستظلّ أعلامه ، وأمر برأسه فرُفع على بعضها وسير به أمامه ،
والناس يظنون أنّ بلقين ، قد قتل بعض أتباعه الممتحنين ، فهم يتساءلون عن
قتل ، ويرجمون الظنّ فيما فعل ، حتى طلعت الشمس ، وارتفع اللبس ؛ فأمر
برفع مضاربه ، وحشر زُعماء ذويه وأقاربه ، فقال : أتم تعلمون أنّ بلقين

(١) لب : « تعله »

قَتَلَ أُخْتِي ، وَفَجَعَنِي بِأَكْرَمِ حُرْمَتِي ؛ وَإِنَّمَا شَفَيْتُ صَدْرِي ، وَأَخَذْتُ بُوتْرِي ،
لَا أَتَى حَدَثُ نَفْسِي بِسُلْطَانِكُمْ ، وَلَا رَأَيْتُنِي أَهْلًا لِلدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنْ شَأْنِكُمْ .
فَرَدُّوا عَلَيْهِ جَمِيلًا ، وَرَأَوْا إِمَاهِلَهُ قَلِيلًا ، وَظَنُّوا أَنَّهُ لَمْ يَجْسُرْ عَلَى مَا فَعَلَ إِلَّا وَلَهُ
أُشْيَاعٌ ، وَحَوْلَهُ أَعْوَانٌ عَلَى ذَلِكَ وَاتِّبَاعٌ ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدِ ارْتَابَ بِمَنْ يَلِيهِ ،
وَأَهْمُهُ مَا هُوَ فِيهِ ؛ وَأَمْرُ لِحِينِهِ بِخَزَائِنِ بُلْقَيْنَ فَأَنْهَبَهَا ذُوْبَانَ الْعَرَبِ وَصُقُورَةَ •
زَنَاتَةَ ، فَاسْتَخْلَصَ بِذَلِكَ غُيُوبَهُمْ ، وَأَمَالَ إِلَيْهِ قُلُوبَهُمْ ، وَرَحَلَ تَحْتَ لَيْلَتِهِ
يَطْوِي الْمَرَاحِلَ ، وَيَعْتَسِفُ الْمَجَاهِلَ ، فَسَبَقَ الْأَخْبَارَ إِلَى الْقَلْعَةِ فَوُطِئَ الْحَرِيمُ ،
وَتَمَلَّكَ الظَّاعِنَ وَالْمَقِيمَ .

فَصْلٌ فِي ذِكْرِ الْوَزِيرِ الْكَاتِبِ أَبِي عَامِرٍ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

ابن شهيد ، وسياقة جملة وافرة من نظمته ونثره . ١٠

قال ابن بسام : وكان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ
الغاية القصوى ومُنْتَهَاهَا ، وَيَنْبُوعُ آيَاتِهَا ، وَمَادَّةُ حَيَاتِهَا ، وَحَقِيقَةُ ذَاتِهَا ، وَابْنُ
سَاسَتِهَا وَأَسَاتِهَا ، وَمَعْنَى أَسْمَائِهَا وَمُسَمِّيَاتِهَا ، نَادِرَةُ الْفَلَكَ الدَّوَّارِ ، وَأَعْجُوبَةُ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ؛ إِنْ هَزَلَ فَسَجَّعُ الْحَمَامِ ، أَوْ جَدَّ فزَيْرُ الْأَسَدِ الضَّرْغَامِ ؛ نَظْمٌ
كَمَا اتَّسَقَ الدُّرُّ عَلَى الشُّحُورِ ، وَنَثْرٌ كَمَا خُلِطَ الْمِسْكُ بِالْكَافُورِ ؛ ^(١) إِلَى نَوَادِرِ ١٥
كَأَطْرَافِ الْقَنَا الْأُمُودِ ، تَشَقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ ، وَجَوَابٍ يَجْرِي بِجَرَى النَّفْسِ •
وَيَسْبِقُ رَجْعَ الطَّرْفِ الْخِطَّاسِ ^(٢) .

وقد ذكره أبو مروان ابن حبان في غير ما موضع من كتابه فقال : كان
أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام ، وإذا تأملته ولسنته ، وكيف يجرُّ

في البلاغة رَسَنَهُ ، قلتَ عبدُ الحميدِ في أوَانِهِ ۝ والجاحظُ في زمانِهِ . والعَجَبُ منه
أنَّهُ كَانَ يَدْعُو قَرِيحَتَهُ إِلَى مَا شَاءَ مِنْ نَثَرِهِ وَنَظْمِهِ فِي بَدِيعَتِهِ وَرَوِيَّتِهِ ، فَيُقَوِّدُ
الْكَلَامَ كَمَا يُرِيدُ مِنْ غَيْرِ اقْتِنَاءٍ لِلْكِتَابِ ۝ وَلَا اعْتِنَاءٍ بِالطَّلَبِ ، وَلَا رُسُوخٍ فِي
الْأَدَبِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُوَجِّدْ لَهُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — فِيمَا بَلَغَنِي بَعْدَ مَوْتِهِ كِتَابٌ يَسْتَعِينُ
بِهِ عَلَى صِنَاعَتِهِ ، وَيَشْحَذُ مِنْ طَبْعِهِ إِلَّا مَا لَقَدَرَهُ ؛ فَرَادَ ذَلِكَ فِي عَجَائِبِهِ ،
وإِعْجَازِ بَدَائِعِهِ . وَكَانَ فِي تَنْمِيقِ الْهَزْلِ وَالنَادِرَةِ الْحَازَةِ ^(١) أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى سَائِرِ
ذَلِكَ . وَشَعْرُهُ حَسَنٌ عِنْدَ أَهْلِ التَّقْدِ ۝ تَصَرَّفَ فِيهِ تَصَرُّفَ الْمُطْبُوعِينَ ، فَلَمْ
يُقَصِّرْ عَنْ غَايَتِهِمْ .

وله رسائلُ كثيرةٌ في فُنُونِ الْفُكَاهَةِ وَأَنْوَاعِ التَّعْرِيضِ وَالْأَهْزَالِ ، قِصَارُ
وِطْوَالِ ، بَرَزَ فِيهَا شَأْوُهُ ، وَبَقَاها فِي النَّاسِ خَالِدَةً بَعْدَهُ . وَكَانَ فِي سُرْعَةِ الْبَدِيعَةِ
وَحُضُورِ الْجَوَابِ وَحِدَّتِهِ ، مَعَ رِقَّةٍ حَوَاشِي كَلَامِهِ ۝ وَسُهُولَةٍ أَلْفَاظِهِ ، وَبَرَاعَةٍ
أَوْصَافِهِ ، وَنَزَاهَةٍ شَمَائِلِهِ وَخِلَاقِهِ ۝ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ خَالِقِهِ ؛ ^(٢) مِنْ رَجُلٍ
غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْبَطَالَةُ فَلَمْ يَحْفَلْ فِي آثَارِهَا بِضِيَاعِ دِينٍ وَلَا مُرُوءَةٍ ، فَحَطَّ فِي هَوَاهُ
شَدِيدًا حَتَّى اسْقَطَ شَرَفَهُ ، وَوَهَّمَ نَفْسَهُ رَاضِيًا فِي ذَلِكَ بِمَا يَلِذُّهُ ، فَلَمْ يُقَصِّرْ
عَنْ مُصِيبَةٍ ، وَلَا ارْتِكَابِ قَبِيحَةٍ ^(٣) .

وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَصَحِّ النَّاسِ رَأْيًا لِمَنْ اسْتَشَارَهُ ۝ وَأَضْلَمَهُمْ عَنْهُ فِي ذَاتِهِ ۝
وَأَشَدَّهُمْ جِنَايَةً عَلَى حَالِهِ ^(٣) وَنِصَابَهُ . وَكَانَ لَهُ فِي الْكِرَامِ وَالْجُودِ انْهِمَاكٌ ، مَعَ
شَرَفٍ وَبِطَالَةٍ ، حَتَّى شَارَفَ الْإِمْلَاقَ ، فَضَى عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ رَحِمَهُ اللَّهُ . انْتَهَى
كَلَامُ ابْنِ حَيَّانَ .

(١) ب ، لب ، وه : « الحادة » (٢-٢) هـ في ر ، وه

(٣) ب ، لب : « ماله »

قال ابن بسّام : وقد أخرجت من أشعاره الشاردة ٥ ورسائله الباقية الخالدة ٥ ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة سير الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويحس معه الكبير إلى صباه .

مُجَلَّةٌ مِنْ كَلَامِهِ فِي أَوْصَافِ شَتَّى

- ٥ فصول من رُقعةٍ خاطب بها المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبي عامر :
لَوْ لَا أَنَّ مِنَ الْعَادَةِ بَيْنَ السَّادَةِ وَالْمَسُودِينَ ، وَالْمَالِكَةِ وَالْمَتَمَلِّكِينَ ، تَطَارُحُ
الْأُدْمَةِ ، وَتَدَارُسُ لَطَائِفِ الْحُرْمَةِ ، لَأَكْبَرْتُهُ — أَيْدَهُ اللَّهُ — عَمَّا أَرْعَبُ ذِكْرَهُ ،
وَأَكْرَمْتُهُ عَمَّا أَطْلُبُ نَشْرَهُ ؛ وَلَوْلَا أَنَّ مِنَ السِّيَاسَةِ وَعَقْدِ الْحِزَامَةِ تَذَكِيرَ أَهْلِ
الْعُلْيَاءِ ٥ بِسَوَالِفِ النِّعْمَاءِ ٥ لَرَبَّاتُ بِمَا بَنَتْهُ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ ، وَضَرَبَتْ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْآفَاتِ بِالْأَسْدَادِ ٥ عَنْ أَنَّ أُحْرِزَ مِنْهُ بِتَذَكِيرٍ ، أَوْ أُدْفَعَ عَنْهُ بِتَقْدِيرٍ .
١٠ وَلَوْلَا أَنَّ التَّطْوِيلَ فِيمَا أَقْصِدُ قَصْدَهُ وَأَنْحُو نَحْوَهُ عَلَى زَمَنِنَا وَشَاغِلِهِ ، وَنُحِجُّ
خَطْبِنَا وَهَازِلِهِ ٥ مُوجِبُ الْقَوْلِ وَمُوجِدُ السَّبِيلِ إِلَى الطَّعْنِ مِمَّنْ ضَعْفُ حِجَّاهُ ،
وَقَصَرُ بِهِ مَرَمَاهُ ، لَرَسِمَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْوَرَقِ ٥ أَعْدَادُ الْوَرَقِ ٥ وَلَرَقَمَتْ إِلَيْهِ مِنَ
الْمَهَارِقِ ، أَشْبَاهُ النَّارِقِ .

وَفِي فَصْلِ أَيْضًا :

- ١٥ وَأَقْلُ مَا أُمْتُ بِهِ ، وَأَنْطِقُ عَنْهُ ، مُتَدِّعِنَانِ الْأَمَلِ ، كَارِعًا فِي بَحْرِ الرَّجَاءِ
لَا الْوَشَلِ ، مِنْ مَوَاتِيٍّ بِالْمَنْصُورِ جَدِّهِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — أُنِّي نَشَأْتُ فِي حِجْرِهِ ،
وَرَبَّيْتُ فِي قَصْرِهِ ، وَارْتَضَعْتُ تَدْنَى كَرَائِمِهِ ، وَاعْتَجَرْتُ رِدَاءَ^(١) مَكَارِمِهِ ؛
وَاعْتَذَنْتُ مِنْ فِيهِ ٥ أَكْلًا زَقْنِيهِ ٥ وَمَاءَ عَلَنِيهِ ، فَصَرْتُ مِنْ أَفْرَاحِ نِعْمَائِهِ
٢٠ الْحُمْرِ الْحَوَاصِلِ ، وَلَحَقْتُ بِأُخُوَّةِ أَبْنَائِهِ الْغُرِّ الْعَبَاهِلِ .

(١) ب ، لب ، م ، ه : « برد »

وَمِنْ مَوَاتِي بِالْمُظَفَّرِ عَمَّهُ — عَمَّتْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ — أَنَّ أَبِي عَبْدَ مَنِكُم لَمَّا بَعْدَ
أَمَلُهُ ، وَبَانَ خُشُوعُهُ ، وَسَالَتْ دُمُوعُهُ ، نَكَبَ عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَزَمَى
مَرَمِيَّيْ مِنْ مَرَامِي أَهْلِ الْأُخْرَى « فَكَسَرَهُمَنِي ، وَحَلَقَ لَمَتِي ، وَسَلَبَنِي بَزِي ،
وَعَرَّانِي مِنْ خَزْيٍ ، فَكَانَتْ أَفْدَحَ نَازِلَةٍ نَزَلَتْ بِصَبَوَتِي ، وَأَقْلَقَ حَادِثَةٍ سَلَبْتُ
رَوْنَقَ بَهْجَتِي ؛ وَأَنَا إِذْ ذَاكَ ابْنُ ثَمَانٍ ، قَدْ هَجَنْتُ فِي مَدَارِعِ الْكَتَّانِ ؛
وَلَقِيتُنِي الْوَزِيرُ ابْنَ مَسْلَمَةَ وَقَدْ عَادَ أَبِي إِثْرَ إِبْلَالٍ ، وَعِنْدَ نَقْوِهِ مِنْ اعْتِلَالٍ .
فَسَأَلَنِي عَنْ الْحَالِ ، وَعَمَّا شَغَلَ الْبَالِ « فَلَمْ يَكُنْ جَوَابِي غَيْرَ النَّشِيجِ وَالْعَجِيجِ ،
وَسَوَى الْعَوِيلِ وَالضَّجِيجِ ؛ وَلَقِيَ الْمُظَفَّرَ عَلَى حِينِهِ ، وَأَدَّى إِلَيْهِ مَا شَاهَدَ مِنِّي ،
فَوَجَّهَ عَنِّي « فَلَمَّا صِرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَمَرَ بِي فَأَلْبَسْتُ ثِيَابَ الْحَرِيرِ ، وَضَمَخْتُ
بِنَفَّاحِ الْعَبِيرِ ، وَحَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ بِسَرَجِهِ وَلِجَامِهِ ، يَهْلُ مِنْ أَعْطَافِهِ مَا هِجَامِهِ .
وَاتَّبَعَ ذَلِكَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي طَبَقٍ ، كَأَنَّهَا عَيُونُ التَّرَجِيسِ الصُّفْرِ الْحَدَقِ ، وَعَقَدَ
لِي عَلَى الشُّرْطَةِ ، وَكَانَتْ لِسِنِّي أَرْفَعُ خُطَّةً ، فَانْصَرَفْتُ وَأَنَا أَنْظُرُ عِطْفِي عَنْ
شَوْسٍ ، وَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي عَلَى أَبِي عَنْ سَعَةِ نَفْسٍ .

وَمِنْ مَوَاتِي بِالنَّاصِرِ أَبِيهِ — بَرَّدَ اللَّهُ مُضْجَعَهُ ، وَبَعَثَ مَهْجَعَهُ — أَتَى صِرْتُ
بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ « فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسٍ ، أَذْكَرُ ذَلِكَ ذِكْرِي لَمَّا
كَانَ بِالْأُمْسِ ، وَكَانَ مِنْ إِكْرَامِهِ لِي « وَلَطِيفِ اهْتِمَامِهِ بِي « مَا يَطُولُ بِهِ
الْكِتَابُ ، وَلَا يَحْتَمِلُهُ الْخِطَابُ . وَعَيْنُهُ وَمَحْضُهُ « وَصَرِيحُهُ وَزُبْدُهُ : أَنَّهُ وَهَبَنِي
يَوْمًا تَفَاحَةً كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَبِيرَةً ، وَرَأَى أَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَ الْكَلِفِ ، وَأَنَا مَلُمًا
تَأْمَلُ الشَّرَّهَ ، فَأَمَرَنِي بِالْقَبْضِ عَلَيْهَا ، وَالْعَضِّ فِيهَا ، فَضَاقَ فَمِي عَنْ أَنْ أُحِيطَ
بِحِزْمٍ مِنْ أَجْزَاءِ كُرَّتِيهَا ، وَصَغُرَتْ كَفِّي عَنْ أَنْ تَقْبِضَ إِلَّا بِمَخْنَقٍ مِنْ تَحَاقٍ
أَنْحَاطِهَا ، فَجَعَلَ يَقْطَعُ لِي بِفَمِهِ ، وَيَطْعُمُنِي عَلَى حُكْمِهِ ؛ وَدَعَا النَّاصِرَ ، وَمَعَهُ

- فتى سمعهم يكنونه أباشاكر^(١) ، فقال له : أحمله إلى أمك . وارفق به في أمك ؛ فأخذا بيدي أمامه . وابتدرا يسيران بي قدّامه ، وأنا لا أسمع في القياد لشدة ذلك الوابل ، وتتابع قطر ذلك الهاطل . فصاح بهما : أقلاه فأحمله على أعناقكما ، وسوقا به سوقا رفيقا أحسن مساقكما . فلما أعضدتهما لفا ، ووصلا أذرعهما بأعناقهما وصلا ، وامتطيت العاتق الكريم ، على عين الملك الزعيم ، ٥
امتطاء امتنان ، لا امتطاء امتهان ، ومرّا بي حتى أنزلاني بين يدي السيّدة ، وإليها أمر كل قيمّة ؛ فاستوت بي على سريرها . وعلى مفرقها إكليل من مهابة أميرها ؛ فلا أنسى ذلك البهاء في ذلك البهو . وذلك الحُشور إلى من قناع الزهو ؛ وطار الخبر بقدومي في مقاصير العقائل . وحجرات الكرائم . فأرقلن من تلك المصانع . تطير بهن أجنحة الصنائع ، فيا لها من كسّي وخلع ، ١٠
وغرائب وبدع ! وأمرت السيّدة بألف تحمل معي عن نفسها ، وثلاثة آلاف عن سيّدها ؛ فانصرفت بالغنى . من ذلك الجنى ، ولم أضرف إلى المنصور حتى صرت عند أبي ، وقد ظننت أنه متجاف عنه لي ، أو تارك منه معي ؛ وكانت لي فيه آمال من التوزيع على الخدمة والعمال من الصبيان وصبايا الجيران . أمر ففرّق منه على بطانته ، وأشار بحمل باقيه إلى خزانته ، فظلت واجما ، وطفقت ١٥
راغما ، أظنى من جمرتي فتذكو ، وأخني من لوعي فتبدو . وبلغ ذلك المنصور ، فوجه نحوي بخمسمائة دينار ، وأقسم على أبي بحياته ألا يمنعني منها ، وأن يدعني بحكمي فيها ؛ فبادرت بالركب والرجل ، وأخذت في البذل والعطاء ، وحبوت بأجل الحباء ، والخيّل إذ ذاك نخب من قصب ، والدرق قشور من خشب ، فيومي مذكور في منية المغيرة إلى الآن ، إذ كان مسكننا بدار ابن النعمان . ٢٠

(١) ب ، لب : « يدعونه بشاكر »

وَأَعْرَبُهَا مَاتَةً ، وَالْطَفَهَا وَصَلَةً ، أَنَّ أَخِي مُوسَى انْتَزَعَهُ الْمَنْصُورُ مِنْ أَبِيهِ ،
وَأَحْلَهُ مَحَلَّ بَنِيهِ ، فَاجْتَمَعَتِ الْأَفْوَاهُ عَلَى الثَّدِيِّ ، وَالتَّقَتِ الشَّفَاهُ عَلَى الدَّرِّ الْمَرِيِّ ؛
وَقَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَقَدْ رَتَعَ فِي مَرَاتِعِكُمْ وَجَنَّمَ فِي مَضَاجِعِكُمْ ، فَنَحْنُ عُمَّارُ مَقَاصِرِكُمْ
أَحْيَاءُ ، وَقُطَّانُ مَقَابِرِكُمْ أَمْوَاتَا . جَمَعْنَا بِذَلِكَ عِشْرَةَ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَحَصَلْنَا
عَلَى صُحْبَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

هذه — أَيْدِيَهُ اللَّهُ — لَمَعَةُ أَبْدِيَّتِهَا لَهُ مِنْ وَصَائِلِي ، وَغَرَّةُ أَطْلَعَتْهَا إِلَيْهِ مِنْ وَصَائِلِي .

وفي فصل :

وَمَلُوكَ عَاكِفٌ عَلَى الْوَطَنِ ، عُكُوفَ الرَّاهِبِ عَلَى الْوِثَنِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ
النَّعْمَةِ غَيْرُ مُصَاصَةٍ بَلَّةٍ ^(١) قَدْ آنَ لَهَا أَنْ تُرْتَشَفَ ، وَتَقَاهَةِ ثَمَرَةٍ قَدْ حَانَ لَهَا أَنْ
تُخْتَرَفَ ؛ وَعَرَّجَ لِمَا لَهُ ، وَالنَّظَرَ لِعَاقِبَةِ حَالِهِ ، عَلَى اسْتِخْرَاجِ مَا يُمْكِنُ مِنْ أُصُولِ
نَعْمَتِكُمْ ، لِيَصُونَ بِهَا حُجَّةً ^(٢) وَجَنَّتَهُ ، وَيَقَرَّ عَلَيْهَا نُظْفَةً صَفْحَتِهِ ، إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى
التَّعْرِيجِ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ قَطْعًا ، وَلَا إِلَى الْإِلْتِبَاسِ بِسِوَاهِ حَتْمًا ، وَلَوْ لَحَسَ التُّرَابُ ،
وَذَابَ فِي الثِّيَابِ ، فَإِنَّهُ يَنْتَفِسُّ عَنْ نَفْسٍ هَمَّتْهَا الْكُؤُوبُ ، وَهَمَّتْهَا الْغَيْهَبُ ؛
فَلَوْلَا هَمَّتْهَا لِأَظْلَمِ الدَّهْرِ ، وَلَوْلَا هَمَّتْهَا لِأَسْفَرِ الْأَمْرِ ؛ وَهَذَا مَوْضِعُ الْحَدْسِ لَا أَمْتِئَاءَ ،
وَحَلِيقَةُ النَّفْسِ لَا ادِّعَاءَ ! وَوَعَدَ الْوَزِيرُ عَبَّاسٌ بِصَرْفِ ضَيْعَةٍ لِي بِحِجَّةٍ تُذْمِرُ ،
حَالَتِ الْفِتْنُ دُونَهَا ، وَاضْطَرَّابُ الْأَحْوَالِ عَنْ مَطَالَعَتِهَا . وَأَنَا أَسْأَلُ فَضْلَكَ سُؤَالَ
الْمَدِلِّ فِي اسْتِنْجَازِ مَا وَعَدَ ، فَإِنَّهُ يَغْتَاظُ مِنْ شُكْرِي لَهُ ، وَثَنَائِي عَلَيْهِ .
وَصَدَعِي فِي الْحَافِلِ بِفَضْلِهِ ، أَجَلَ فَائِدَةٍ يَصْطَفِيهَا ، وَأَكْرَمَ نَفِيسَةٍ يَقْنَنِيهَا !
وَأَصْلُ اصْطِفَائِنَا لِتِلْكَ الضَّيْعَةِ وَسَائِرِ أَخَوَاتِهَا أَنَّ الْمَنْصُورَ — رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ — اسْتَعْمَلَ أَبِي عَبْدَهُ عَلَى تِلْكَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ تِسْعَةَ أَعْوَامٍ تَوَالَتْ بُتْدَمِيرُ
وَبَلَنْسِيَّةٍ ، فَلَمَّا سَمِعَ الْعَمَلَ خَاطَبَهُ بِرُقْعَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

(١) ملة : ماء (٢) ملة : ماء

إِنَّ كَبِيرَ حَقِّ الْمَوْلَى لَا يَذْهَبُ بِصَغِيرِ حَقِّ الْعَبْدِ ، وَلِي حُرْمَةٌ أُدِلَّ بِهَا ۥ
 وَذِمَّةٌ أَنْبَسَتْ لَهَا ۥ وَقَدْ طَالَتْ عَلَى الْغُرْبَةِ ۥ وَسُمْتُ الْحِدْمَةِ ۥ وَمَلِئْتُ مِنَ النِّعْمَةِ ،
 فَالْإِدَالَةَ الْإِدَالَةَ ۥ فَأَدَالَهُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — عَلَى رِضَاهُ ۥ وَأَشْخَصَهُ إِلَيْهِ عَلَى
 هَوَاهُ ؛ فَوَرَدَ قَرْطُبَةَ بَارِعِمَائَةَ أَلْفَ دِينَارٍ نَاضَةً ، وَمِائَةَ أَلْفٍ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَةً ،
 وَوَنَاقٍ خَمْسِمِائَةَ زَوْجٍ مُكْتَسَبَةً ۥ وَمِائَتِي نَسَمَةٍ مِنْ رَقِيقِ الصَّقَابِ مُنْتَقَاةً ،
 وَالسَّعْرَ إِذْ ذَاكَ بِهَا سَامٍ جَدًّا ، وَنَفَقَةَ أَبِي رَأْسٍ كُلِّ شَهْرٍ سَبْعُونَ مُدِّيًّا مِنْ
 قَمْحٍ ، وَعَلَفُ ثَمَانِينَ دَابَّةً مِنْ شَعِيرٍ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَعْزِضُ عَلَيْهِ مَا جَاءَهُ بِهِ ۥ
 وَيُحْكِمُهُ فِيهِ ۥ وَيَسْأَلُهُ أَخْذَهُ ، أَوْ الْأَخْذَ مِنْهُ ، فِجَاوَبِهِ يَقُولُ : لَوْ أَرَدْنَا أَخْذَ
 مَا أُعْطِينَاكَ ۥ مَا قَدَّمْنَاكَ ، وَنَحْنُ نَخَافُ أَنْ تَسْتَصِفِي نَفَقَتَكَ مَا اسْتَقْتَهُ ۥ وَتَأْتِي
 عَلَى مَا اجْتَلَبْتَهُ ، بَارْتِقَاعِ ثَمَنِ الطَّعَامِ ۥ وَأَنْتَ لَمْ تَرُدِّ مِنْهُ عَلَى ذَخِيرَةٍ ۥ وَقَدْ ١٠
 صَكَّكُنَا لَكَ بِالْقِيَمَةِ بِشَطْرَيْنِ مِنْ قَمْحٍ وَشَعِيرٍ تَسْتَظْهَرُ بِهِمَا عَلَى زَمَانِكَ ،
 فَاقْبِضْهُمَا مِنْ أَهْرَاءِ فَلَانَةٍ لَقُرْبَاهَا مِنْ مَكَانِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

مَكْرُومَةٌ — أَعَزَّ اللَّهُ الْمُؤْتَمِنَ — لَمْ تُعْهَدْ لَغَيْرِ عَامِرِيٍّ ، وَلَا سَمِعَ بِمِثْلِهَا
 لَغَيْرِ مَعَاوِرِيٍّ ، وَلَمَّا عَزَّ الْخَطَّابُ ، وَوَقَعَ الْكِتَابُ ، وَكَانَ عَبْدُكَ مَنْسُوبًا إِلَى
 شَيْءٍ مِنْ نَظْمِ الْكَلَامِ ، قَالَ عَلَى كَلَّةِ الدَّهْنِ وَفَلَّةِ الْغَرَبِ بِالْحَالِ ، وَشَغْلِ الْبَالِ ١٥
 مَا عَلِمَ وَفَهُم :

أَمَّا الرِّيحُ بِجَوِّ عَاصِمٍ فَحَلَبَيْنِ أَخْلَافَ الْغَائِمِ

يقول فيها :

سَهَرَ الْحَيَا بِرِيَاضِهَا فَاسَّالَهَا وَالنَّوْزُ نَائِمٌ
 حَتَّى اغْتَدَتْ زَهْرَاتِهَا كَالْفَيْدِ بِاللَّجِّ الْعَوَائِمِ ٢٠
 مِنْ ثِيَبَاتٍ لَمْ تُبَلِّ كَشَفَ الْخُدُودِ وَلَا الْمَعَاصِمِ

وَصِفَارِ أَنْكَارِ شَكَتْ
 وَزْدُ كَمَا خَجَلَتْ خُدُو
 وَشَقِيقُ نَعْمَانِ شَكَتْ
 وَغُصُونُ أَشْجَارِ حَكَتْ
 بَكَرَ الْحِسَانُ يَرْدَنَهَا
 وَضَحِكُنْ عُجْبًا فَالْتَقَتْ
 ضَحَكَتْ وَأَوْمَضَ ^(١) بَارِقُ
 وَتَشَوَّفَتْ فَتَطَامَنْتْ ^(٢)
 وَرَنْتْ فَبَادَرَ نَرْجِسُ
 طَارَدَتْهُنَّ بِفَتْيَةٍ
 وَكَأَنَّ فِيهِمْ لَقِيَةً
 وَتَكَاوَسَتْ فِيهَا الْأَبَا
 وَكَأَنَّهَا أَظْبِ رَعْفُ
 وَجَرَى بِهَا فَلَكَ الصَّابَا
 وَكَأَنَّهَا فِيهَا الْعَفَا
 وَعَلَا بِنَا سُكْرُ أَبِي
 نَرْمِي قَلَانِسْنَا لَهُ
 وَتَرْنَمَتْ فِيهَا الْقِيَا
 قَمْنَا نَصْفَقُ بِالْأَكُفِّ
 وَأَغْنٍ مِنْ سَدَنِ الْمُلُو
 خَجَلًا فَعَادَتْ بِالْكَأَمِ
 دُ الْعَيْنِ مِنْ لَحَظَاتِ هَائِمِ
 صَفْحَانَهُ مِنْ لَطْمِ لَاطِمِ
 رَقَصَ الْمَائِمِ لِلْمَائِمِ
 مِنْ كُلِّ وَاضِحَةِ الْمَلَاغِمِ
 فِيهَا الْمَبَاسِمُ بِالْمَبَاسِمِ
 فَظَلَّتْ لِلْبَرْقَيْنِ شَائِمِ
 أَجِيَادُ أَظْيَاهَا الْحَوَائِمِ
 يَشْكُو عَمَاهُ إِلَى حَمَائِمِ
 حُرِدَ عَلَى حَرْبِ الْمُسَالِمِ
 طُ قَادَ مِنْ أَحْيَاءِ دَارِمِ
 رَقُ وَهِيَ فَاهِقَةُ الْحَلَاقِمِ
 نَ قَتْرَنَ دَامِيَةَ الْخِيَاشِمِ
 بِاللَّهْوِ ، وَالْقُضْبُ اللِّوَائِمِ
 رَتُ وَالْكُؤُوسُ مِنَ الرِّوَاغِمِ
 إِلَّا الْإِنَابَةَ لِلْمَحَارِمِ
 وَنَجَرْتُ مِنْ عَذَبِ الْعَمَائِمِ
 نَ لَنَا وَرَجَعَتْ الْبَوَاغِمِ
 لَهَا وَنَرَقَصُ بِالْجَمَائِمِ
 لِكِ سَلِيلِ أَقْيَالِ خَضَارِمِ

(٢) ر : « فضامنت »

(١) ب ، لب ، وه : « وأزعج »

- يَشْكُو الرَّعَاثَ تَنَعُّمًا وَيَضِجُ مِنْ حَمَلِ التَّمَائِمِ
لَا تَسْتَحِيهِ الرَّاشِفَا تٌ وَلَا تُبَالِيهِ اللَّوَائِمِ
يُجْنِبُنِيهِ ثَمَرَ النُّحُو رِ وَيَعْتَلِينَ بِهِ الْمَخَازِمِ
مُتَجَاهِـلَاتٍ أَنَّهُ يَهْوَى وَهْنٌ بِهِ عَوَالِمِ
لَا زَمْتُ بَابَ مَحَلِّهِ وَالتَّجَحُّجُ مِنْ قَنْصِ الْمَلَازِمِ
حَتَّى إِذَا وَثِقَتْ بِنَا عُجْزُ الْحَوَاضِنِ وَالْخَوَادِمِ
أَيَقَنْتُ مِنْ أَخْذِي لَهُ وَتَلَوْتُ مِنْ سُورِ الْعَزَائِمِ
وَاقْتَدْتُهُ بِشَكَائِي فَانْقَادَ فِي تِلْكَ الشَّكَايِمِ
فَوَرَدْتُ جَمَّاتِ الْمُنَى وَكَرُمْتُ عَنْ لَوْمِ الْمَائِمِ
وَأَغْرَ قَدْ لَبَسَ الشُّجَى بُرْدًا فَرَاقَكَ وَهُوَ فَاحِمِ
يَحْكِي بِفُرَّتِهِ هِلَا لَ الْفِطْرِ لَاحَ لَعَيْنِ صَائِمِ
فَكَانَمَا خَاضَ الصَّبَا حَ فَجَاءَ مُبَيِّضَ الْقَوَائِمِ
وَيَسِيرُ فِي يَبَسِ الثَّرَى ^(١) وَكَأَنَّهُ فِي الْبَحْرِ رَعَائِمِ
حَتَّى إِذَا عَلِمَ الصَّبَا حَ أَشَارَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
وَتَمَايَلَتْ أَيْدِي الثَّرِيَّا وَهِيَ مُذْهَبَةُ الْخَوَائِمِ
وَرَنْتَ دُكَاءَ بِنَاطِرِ رَمِدٍ مِنَ الْأَقْدَاءِ سَالِمِ
طَلَعَ الصَّوَارُ لِحَيْنِهِ وَكَأَنَّهُ الْمَوْجُ الْمَرَاكِمِ
أَوْ عَسْكَرُ رَكِبُوا الْخُيُو لَ الشَّهْبَ وَاحْتَقَرُوا الْأَدَاهِمِ
فَاشْتَدَّ سُبْقُنَا لَهُ يَكْشِرْنَ عَنْ مِثْلِ اللَّهَادِمِ
وَكَأَنَّـنَا فِي رَمِيهَا نَسْتَلُّ مِنْ بَيْضِ الصَّوَارِمِ

(١) هـ : « الكرى »

فَحَمَىٰ أَوَاخِرَهُ أَغْرُ م مُعَاوِدُ تِلْكَ الْمَلَا حِمِ
يَهْوَىٰ بِرَوْقِي مَحْرَبِ طَبْنِ بِحَرْبِ الْغُضْفِ حَا زِمِ
وَكَأَنَّمَا أَرْوَاقُهُمَا مُسْوَدَّةٌ أَقْلَامُ عَالِمِ
فَتَبَادَرَ الْفَتَيَانُ مِنْ جَنَبَاتِهِ أَشْهَىٰ الْمَطَاعِمِ
شَيْئًا وَمُطَبَّخًا عَلَىٰ حَجَرٍ زَهَّتْهُ الرِّيحُ جَا حِمِ
وَبَعِيدَةً الْأَرْجَاءِ نَا زِحَةً عَلَىٰ أَيْدِي الرِّوَاسِمِ
لَا تَدْعِي جُوبًا لَهَا ذَاتُ الْخَوَافِ وَالْقَوَادِمِ
مِنْ فِتْنَةٍ قَدْ أُسْبِلَتْ ظُلُمَاتُهَا بِيَدِ الْمَظَالِمِ
عَمَتْ لَهَا ^(١) أَحْلَامُنَا وَكَأَنَّمَا ^(٢) أَضْغَاثُ حَالِمِ
وَتَضَاءَلَتْ أَجْرَامُنَا فِيهَا بِمُؤَبَقَةِ الْجَرَائِمِ
وَتَحَوَّلَتْ قَيْنَا الذَّنَا بَى الرُّأْسِ، وَابْنُ الْمَجْدِ رَا غِمِ
وَأَدَارَ كُلِّ صَغِيرٍ قَدْ رِ الْمُتَمَتَّى أَرْجَى الْعِظَائِمِ
فَكَأَنَّمَا عُمِّي نُسَا قُ عَلَى الْعَمَى فِي ظِلِّ عَاتِمِ
حَتَّىٰ انْتَضَىٰ عَبْدُ الْعَزِيزِ زِ عَزِيمَةً مِنْ صَدْرِ عَا زِمِ
فَبَدَتْ لَنَا سُبُلُ الْهُدَىٰ بِنَوَاجِمِ غَيْرِ الْهَوَاجِمِ ^(٣)
ضَرَبَ الْأَعَا جِمَ سُودَهَا بِالسِّدِّ مِنْ بَيْضِ الْأَعَا جِمِ ^(٤)
فَأَسْتَجَفَلُوا فَكَأَنَّمَا ضَرَبَ الشَّعَالِبُ بِالضَّرَا غِمِ
أَبْنَاءَ مَلِكٍ حَمِيرِي م قَامَ بِالْغُرِّ الْقَاقِمِ

(٢) ب، لب: «فكأنتا»

(١) ب، لب: «له»

(٤) كذا بالأصول

(٣) كذا بالأصول — و: «التراجم»

- مِنْ عَامِرٍ أَهْلِ الْمَصَا نَعِ وَالصَّنَائِعِ وَالْكَرَائِمِ
الْكُفْرُ عَنْهُمْ قَاعِدٌ قَدِمًا وَدِينُ اللَّهِ قَائِمٌ
حَكَمَ الزَّمَانُ بِظُلْمِهِمْ دَهْرًا وَصَرَفُ الدَّهْرِ ظَالِمٌ
فَارْتَدَّ بِهِجَاةٌ مُلْكُهُمْ كَرُّ الْخُبْعَيْنَةِ الضُّبَارِمْ
وَاشْتَدَّ يَنْظُمُ حَزْمِهِمْ شَيْحَانُ طَلَّاعُ الْمُخَارِمِ
ذَكَرُ عَلَى ذَكَرٍ يَصُورُ لُ وَصَارِمٌ يَسْطُو بِصَارِمِ
إِيهِ هَيَا عَبْدَ الْعَزِيزِ وَأَنْتَ رَجَاؤُ الْمَرَايِمِ (١)
قَمَرٌ تَضِيءُ لَهُ الْخَطْوُ بُ عَلَى دَادِيهَا الْفَوَاحِمِ
تَسْرِي الرِّيَّاحُ بِمَجْدِهِ فَتَسِيْمُهَا بِالْعَوْرِ فَالْغَمِ
لَمْ يَرَوْ مِنْ مَاءِ الشَّابَا بِ وَكُلُّ أَشْيَبَ عَنْهُ خَائِمِ
رَعِيًّا الْمَوْتَمَنِ رَعَى فِينَا الْحَدَايِثَ وَالْقَدَائِمِ
بَدَأَتْ أَوَائِلُهُ وَعَا دَ لِكَشْفِ غَاشِيَةِ الْغَيَاهِمِ
لَا تَتَرَكْنِ صَرَمَ الزَّمَا نِ عَلَى ظُلِي تِلْكَ الصَّوَارِمِ
وَارَمِ الْخُطُوبَ بِمِثْلِهَا عَزَمًا فَأَنْتَ لَهَا مُسَاهِمِ
وَالْيَكْمَا مِنْ نَاطِقٍ يَدْعُوكَ إِذْ صَمَتَ الْبَهَائِمِ

وله مِنْ جَوَابٍ عَلَى خِطَابٍ :

وَرَدَ كِتَابُكَ الْكَرِيمَ ، بِفَضْلِهِ الْعَمِيمِ ، يَتَبَلَّجُ تَبَلُّجُ الْبَرْقِ ، وَيَتَحَلَّبُ
تَحَلُّبَ الْوَدْقِ ، مُتَكَسِّرًا فِي الْمَشْيَةِ ، جَالِيًا لِلَّيْلِ الشَّكِّ وَالْمِرْيَةِ ، قَائِدًا بِأَزِمَّةِ
الْمُنَى وَالْبُغْيَةِ ، كُلَّمَا اشْتَقَّ مَوْجًا (٢) غَمْرَهُ ، أَوْ لَاعَبَ مَرَجًا بِهِرَهُ (٣) ،

(١) ب ، لب ، و : « زحام المزاحم » (٢) ب ، و : « صرحا »

(٣) لب : « قهره »

أَوْ جَزَعَ وَادِيًا ^(١) أَمَدَهُ مِنْ أَيْتِهِ ، وَنِعِمَّ مِنْ أَنْبُوبِ بَرْدِيَّةٍ ، أَوْ مَرَّ بِرَوْضٍ
شَقَّ عَلَيْهِ رِداءٌ وَزُدَ ، وَأَثَارُهُ عَجَاجٌ نَدَّ ^(٢) ، أَوْ عَارِضٌ حَمَامَةٌ حَيْثُ بَغْنَائِهَا ،
أَوْ سَامَتْ لَقَوَّةٌ نَزَلَتْ إِلَيْهِ مِنْ هَوَائِهَا ، أَوْ مَسَحَ بَعْضُ حَنْتٍ إِلَيْهِ ، أَوْ خَطَرَ
بِأَسَدٍ تَهَالَكَتْ عَلَيْهِ ؛ كِتَابٌ مُنِعَ جَالِيَهُ ۥ وَحُمِيَ حَامِلُهُ ، كُلَّمَا خَبَطَ بِطَحَاءٍ
كُتِبَتْ بِالْكَتَائِبِ ، أَوْ رَكِبَ جَرَعَاءُ رُقِمَتْ بِالْأَرَاقِمِ ، كَانَتْ لِهَذِهِ مُدْيَةٌ ،
وَلَتِلْكَ رُقِيَّةٌ ؛ وَكُلَّمَا كَحَلَ مُقَلَّةٌ شَوْسَاءَ ^(٣) خَشَعَتْ ، أَوْ لَمَسَ كَفًّا خَشْنَاءَ
نَخَعَتْ ؛ أَوْ وَقَعَ إِلَى رِئِيسٍ وَضَعَهُ عَلَى رَأْسِهِ ، أَوْ دُفِعَ إِلَى ذِي بَأْسٍ أَخَذَهُ
مِنْ بَأْسِهِ ، أَوْ لَمَحَتْهُ شَفْرَاءُ حَمَحَمَتْ ، أَوْ بَصُرَتْ بِهِ بَيْضَاءُ تَرَنَّمَتْ ، هُوَ
الْحَدِيقَةُ ۥ تُسَاقُ سَوَاقُ الْوَسِيقَةِ ، أَوْ اللَّطِيمَةُ فِي ثَنِيهَا الْغَنِيمَةُ ؛ فَتَرَتْ إِلَيْهِ فَأَمَّا ،
وَرَفَلَتْ نَحْوَهُ سَاعِيَا ، وَكَانَ أَوَّلَ تَحِيَّتِي لَهُ أَنْ قَبَّلْتُهُ وَوَضَعْتُهُ عَلَى رَأْسِي ، وَحَبَسْتُ ^(٤)
عَلَيْهِ أَنْفَاسِي ۥ ثُمَّ فَضَضْتُ خَنْفَهُ ، وَاسْتَرْقْتُ شَهَّهُ ، فَفَتَّقَ عَلَى نَسِيمِ الْعَبِيرِ لُخْلُخَ
بِهِ صُدُورُ الْحُورِ ، وَأَهْدَى إِلَى عَبَقِ الْيَاسْمِينِ ، ذَرَّ عَلَيْهِ مِسْكَ دَارِينِ ، فَأَنْعَمْتُ
فِي نَشْرِ طَيِّهِ ، وَضَرَبْتُ فِي مَدْرَجِ لَيْهِ ، فَإِذَا بَيْنَاتٍ ^(٥) مِنَ الْبَرِّ مُسَلِّمَةً عَلَيَّ ، وَتَغَوَّرَ
مِنَ الْإِكْرَامِ ضَاحِكَةً إِلَيَّ ۥ وَفَاضَ الْأَلَاءُ ، وَكَثُرَ الْهَتَافُ وَالْإِيْمَاءُ ، فَكَلَّتْ عَيْنِي
عَنْ ذَلِكَ الرَّوْنَقِ ، وَحُبِسَتْ أُذُنِي عَنْ ذَلِكَ الْمَنْطِقِ ۥ فَلَمْ أَتَمَلَّكْ أَنْ غَطِيتُ
وَجْهِي حَيَاءً ، وَقَدْ تَصَبَّبَتْ مَاءً ، وَتَقَبَّضْتُ فِي رَدَنِي ، وَقَدْ ضَاقَ بِهِ ^(٦) عَطَنِي .

وفي فصل :

فَتَنَفَّضْتُ تَنَفُّضَ الْعُقَابِ ۥ وَهَزَّتْنِي أَرْيَحِيَّاتُ الشَّبَابِ ^(٦) ، وَقَامَ بَوْهَمِي

(١-١) م د ف ر (٢) ب ، لب : « شوهاء »

(٣) ب ، ر ، لب : « وحسبت » (٤) ب ، لب : « بئباب »

(٥) م د : « بي » (٦) ب ، لب : « أريحية كأريحية الشباب »

أَنِّي مَلَأْتُ الْأَرْضَ بِجِسْمِي ، فَأَوْمَأْتُ إِلَى الْجَوَازِ بِكَفِّي أَنْ تَأْمَلِي ، وَإِلَى
الْعَوَاءِ أَنْ أَقْبِلِي ، وَقَلَّتِ الْمَجْرَةُ فِي عَيْنِي أَنْ تَكُونَ لِي مِندِيلًا ، وَصَغُرَ
الزَّبْرُ قَانَ عِنْدِي أَنْ أُتَخِذَهُ إِكْلِيلًا ، فَقُلْتُ : هَكَذَا يَكُونُ الْأَلُوكُ ، وَبِمِثْلِ هَذَا
تَنْفَعُ (١) الْمُلُوكُ (٢) .

وفي فصلٍ منها :

وَلَمَّا طَالَ الْكَلَامُ — أَيْدَ اللَّهِ الْمُؤْتَمَنَ — وَلَمْ يَبْلُغْ مَمْلُوكُهُ الْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا
قَصَدَ ، وَلَا اسْتَوْفَى مِنَ الْإِيرَادِ مَا إِلَيْهِ اعْتَمَدَ ، خَشِيَ أَنْ يُصِيبَهُ مَا يُصِيبُ التَّطْوِيلَ
مِنَ السَّامَةِ الْخُصُوصَةِ بِهِ ، وَالْمَلَالِ الْمَوْقُوفِ عَلَيْهِ ، فَفَصَّلَهُ بِنَظْمٍ فِيهِ عَوْنٌ عَلَى
الدَّرْسِ ، وَتَنْبِيهُ لَشَهْوَةِ النَّفْسِ • وهو :

هَاتِيكَ دَارُهُمْ فَفَقِفْ بِمَعَانِهَا	تَجِدِ الدُّمُوعَ تَحْدُ فِي هَمَلَانِهَا	١٠
عُجْنَا الرَّكَابَ بِهَا فَهَيَّجْ وَجَدَنَا	دَمِنْ دَعَرْنَ (٣) السَّرْبِ مِنْ إِدْمَانِهَا (٤)	
دَارُ عَهْدَتْ بِهَا الصَّبَا لِي دَوْحَةً	أَتَقِيَّ الْفَرَخَاتِ مِنْ أَفْنَانِهَا	
أُرْعَى عَلَى بَقَرِ الْأُنَيْسِ بِجَوَّهَا	وَأُحْكَمُ الصَّبَوَاتِ فِي غِزْلَانِهَا	
وَإِذَا تَهَادَّتْ بِالشُّمُوسِ نَوَاعِمًا	فِيهَا الْغُصُونُ جَنَيْتُ مِنْ رَمَانِهَا	
قَضَتِ النَّوَى بِذِيَادِ رُجَحِ عَيْنِهِمْ	ظُلُمًا (٥) وَكَانَ اللَّهْرُ مِنْ أَعْوَانِهَا	١٥
زَجَرُوا اغْتِرَابًا مِنْ نَعِيبِ غُرَابِهِمْ	وَقَضَوْا بَيْنَ مِنْ مُغَرِّدِ بَانِهَا	
فَبَدَا لَهُمْ وَجْهُ الْفِرَاقِ مُوقِحًا	آتٍ عَلَى خَبَرِ النَّوَى بِعِيَانِهَا	
يَقْذِفْنَ دُرَّ الدَّمْعِ فِي يَوْمِ النَّوَى	عَنْ جُمَّةٍ لَعِبَ الْأَسَى بِجُمَانِهَا	

(١) وه : « تفخر » (٢) ز في ب ، لب ، وه : « فوادها أنك من نيله »

والحقني أنك من نسله • (٣) ر : « دعون »

(٤) لم يقع هذا البيت في ب ، لب (٥) ب ، لب ، وه : « صلفا »

وَدَعَتْهُمْ وَبَنَاتُ قَرْحٍ فِي الْحَشَا
وَأَسْلَمَتْهَا ذَوْبٌ (١) الْجُفُونِ كَأَنَّهَا
يَا صَاحِبِي إِذَا وَنَى حَادِيكُمَا (٢)
وَحَذَا لِمُرْتَبِعِ الْحِسَانِ فَرُبَّمَا
عَاوَدْتُ ذِكْرَ الْعَيْشِ فِيهِ وَمَا انْقَضَى
فَبَكَيتُ مِنْ زَمَنِ قَطَعْتُ مَرَّاحِلًا
وَرَعَيْتُ مِنْ وَجْهِ السَّمَاءِ خَمِيلَةً
وَكَانَ نَثْرُ النَّجْمِ ضَائًا وَسَطَهَا
وَكَأَنَّمَا فِيهِ الثَّرِيَّا جَوْهَرٌ

٥

١٠ ومنها يفخر :

أَنَا طَوْدُهَا الرَّاسِي إِذَا مَا زَلَزَلْتُ
وَعَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مُقَاضَةً
وَالنَّفْسُ نَفْسٌ مِنْ شَهِيدٍ سَنَحُهَا
مَا أَحْوَلَ نَحْوِي لِحَظٍ مُقَلَّةٍ سَاخِطٍ
وَلَوْ أَنَّهُ نَطَحَ النُّجُومَ بِقَرْنِهِ
وَقَضَتْ بَعِزُّ النَّفْسِ مَنَى دَوْحَةٍ
يَا ابْنَ الْأَبَالِجِ مِنْ مَعَاوِرِ وَالَّذِي
أَعْلَى كِتَابِكَ فِي مُهْمِي (٥) حُرْمَتِي

١٥

(١) و : « صوب » (٢) هذا البيت والذي قبله لم يقع إلا في ر ، و

(٣) ب ، لب : « هاديكما » (٤) و : « فكن »

(٥) ب ، و : « في مهانة » (٦) لم يقع هذا البيت في ب

فَلْيُطْلَعَنَّ إِلَيْكَ مِنْ زَهْرِ الْحِجَا أَبْكَارَ شُكْرِ لُحْنٍ فِي إِبَانِهَا
حُرُّ الْقَوَائِي مَا جِدُّ فِي أَهْلِهَا وَالشُّعْرُ عَبْدٌ فِي بَنِي ^(١) عِبْدَانِهَا
مَدَحَ الْمُلُوكِ وَكَانَ أَيْضًا مِنْهُمْ وَلَقَدْ يُرَى وَالشُّعْرُ مِنْ ذُوبَانِهَا ^(٢)
أَمْسَى الْفَرَزْدَقُ كُفُوَهَا فِي حَوَكِهِ وَجَرَى الْقَضَاءُ لَهَا عَلَى صَلَاتِهَا

هذا — أَيْدِ اللَّهِ الْمُؤْتَمَن — جَوْهَرُ رَطْبٍ ، نُظِمَ بِلا ثَقْبٍ ، غَايَةُ حُسْنِهِ ٥
لَوْ لَفَظَهُ بِحَرْهٍ عَلَى قُرْبٍ ، وَقَدْ كَانَ أَقْلَ حُقُوقِ مَوْلَايَ أَنْ أَقِفَ بِيَابِهِ ، وَأُخِجَ
بِفَنَائِهِ ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ الشُّكْرَ غَضًا ، وَأَنْشُرَ عَلَيْهِ الْمَدْحَ نَضًا ، وَلَكِنِّي مَمْنُوعٌ
وَعَنْ إِرَادَتِي مَقْمُوعٌ ^(٣) ، يَمْلِكُنِي سُلْطَانٌ قَدِيرٌ ، وَأَمِيرٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ أَمِيرٌ ، شَيْءٌ ^(٤)
غَلَبَ صَبْرَ الْأَتْقِيَاءِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى عِزِّمِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَهُوَ الْعِشْقُ ، بَاطِلٌ يَلْعَبُ
بِالْحَقِّ ، لَيِّبِينَ ضَعْفُ الْبَشَرِ ، وَتَلُوحُ قُدْرَةُ مُصَرِّفِ الْقَدَرِ ؛ وَالَّذِي أَشْكُو مِنْهُ ١٠
أَغْرَبُ الْغَرَائِبِ ، وَأَعْجَبُ الْعَجَائِبِ ، بَثٌّ شَاغِلٌ ، وَبَرْحٌ ^(٥) قَاتِلٌ ، وَصَبْرٌ يَفِضُ
وَدَمْعٌ يَفِضُ ، لِعَجُوزٍ بَخْرَاءٍ سَهِيكَةٍ دَرْدَاءٍ ، تُدْعَى قُرْطَبَةً :

عَجُوزٌ لَعَمْرُكَ الصَّبَا فَانِيَةٌ لَهَا فِي الْحَسَا صُورَةُ الْغَانِيَةِ
زَنْتٌ بِالرِّجَالِ عَلَى سَنَنِهَا فَيَا حَبَّ—ذَا هِيَ مِنْ زَانِيَةِ
تُرِيكَ الْعُقُولَ عَلَى ضَعْفِهَا تُدَارُ كَمَا دَارَتِ السَّانِيَةِ ١٥
فَقَدْ عَنِتَّ ^(٦) بِهَوَاهَا الْحُلُوفِ مُ فَمَنْ بَرَا حَتَّى—عَانِيَةِ
تَقَاصَرُ عَنْ طُولِهَا قُونُكَةً وَتَبْعُدُ عَنْ غَنَجِهَا دَانِيَةِ
تَرَدَّيْتُ مِنْ حُزْنٍ عَيْشِي بِهَا غَرَامًا فَيَا طُولَ—أَحْسَرَانِيَةِ !

(١) ب ، لب ، هـ : « يدي » (٢) كذا — ر : « ديوانها » — لب : « دونانها »

(٣) ب ، لب : « مخلوع » (٤) ر : « شهم »

(٥) ب ، هـ : « قرح » (٦) ب ، لب ، هـ : « عبت »

طَابَ لِي الْمَوْتُ عَلَى هَوَاها ، وَلَدَّ عِنْدِي سَقَى دَمِي لِتَرَاهَا ،

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارَبُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ^(١)
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عُهُودَ الصَّبَا فِيهَا فَحَنُوا لِنَالِكَ

وَلَمَّا اسْتَطَرَدَ طَيْبُ هَذَا الْمَسَاقِ ۖ وَارْفَضَ كَلِمَةُ كَلِمَاءِ الْمُهْرَاقِ ۖ وَخَفَقَ
جَنَاحُ الْعِشْقِ الْمَذْكُورِ ، وَتَدَحَّرَجَ وَصْفُهُ كَاللُّوْلُؤِ الْمُنْثُورِ ، تَحَرَّكَتْ لِي أَطْرَابُ ،
وَاهْتَزَّ لِرِداءِ شَوْقِي أَهْدَابُ ، وَتَمَحَّضَتْ نَفْسِي فَصَارَتْ نَفْسًا ، وَتَرَاكَمَ ذَاكَ
النَّفْسُ فَصَارَ كَلَامًا ، وَانْتَظَمَ ذَلِكَ الْكَلَامُ فَصَارَ عِقْدًا ، فَقُلْتُ مُتَغَزِّلًا ، وَبِمَا
صَدَرَ فِي أَيَّامِ السُّرُورِ^(٢) مَتَمَثِّلًا :

سَقِيًّا لَطِيبِ زَمَانِنَا وَسُرُورِهِ وَعَزِيزِ عَيْشٍ مُسْعِفٍ بَغْزِيرِهِ
وَتَكْفَرِي بَرْدَاءِ وَصَلٍ مُقَرَّطِي^(٣) كَتَبُوا بِنَفْسِ الْمَسْكِ فِي كَافُورِهِ
مُتَلَفِّعٍ بِحَرِيرِهِ ، مُتَضَمِّنٍ بَعِيرِهِ ، مُتَزَنِّجٍ بِفَتْوَرِهِ
وَسَنَانُ نَاوَلَنِي مُدَامَةَ طَرْفِهِ فَشَرِبْتُهَا وَسَمِعْتُ مِنْ طُنْبُورِهِ
يَدْعُو بِلُكْنَةٍ بَرَبْرِيٍّ لَمْ يَزَلْ يَسْتَفُّ بِالصَّخْرَاءِ حَبَّ بَرِيرِهِ
مُتَقَدِّمٍ بِمَضَاهِيهِ ، مُتَلَفِّعٍ بِرِدَائِهِ ، مُتَكَلِّمٍ فِي عِيرِهِ
مُسْتَفْتَحٍ لِبَيَانِهِ بِنَبَاهِهِ يُهْدِي السَّلَامَ إِلَى رِجَالِ عَشِيرِهِ
مُتَنَصِّبٍ كَالْعُصْنِ إِلَّا أَنَّهُ يَهْتَزُّ مِنْ أَعْجَازِهِ وَصُدُورِهِ
طَارِحَتُهُ كَلِمًا وَكُنْتُ زَعِيمُهُ غَرْدًا أَحْرَكُ مِنْكِ لَزِيمِهِ
فَمَشَى إِلَيَّ فَتُرْتُ غَيْرَ مُعَفَّرٍ كَاللَّيْلِ مُطَرَّدًا^(٤) إِلَى يَغْفُورِهِ
وَمَلَكْتُهُ بِالْكَفِّ مِلَكَةً قَادِرٍ فَانْصَاعَ مُؤْتَمِرًا لِحُكْمِ أَمِيرِهِ

(١) راجع ديوان ابن الرومي (ص ١٣) (٢) ب ، لب : « الشباب »

(٣) ب ، لب : « بحسن » (٤) ب ، لب : « كاليت مطروحا »

فَقَضَيْتُ مَا لَمْ أَقْضِ فِيهِ بَرِيَّةً ^(١) يَا بَنِي الْعَفَافِ وَعِصْمَتِي بِحُضُورِهِ
زَمَنٌ قَضَى ثُمَّ انْقَضَى فَكَأَنَّهُ حُلُمٌ قَرَأْتُ الْمَوْتَ فِي تَفْسِيرِهِ

ومنها :

وَبِرَاحَتِي مِنْ فِكْرَتِي ذُو ذِكْرَةٍ عَهَدْتُ تُذَا كِرْمِي بِطَبْعِ ذِكْرِهِ
فَرْدٌ إِذَا بَعَثَتْ دِيَاغِي صَرْفَهُ هَوْلًا عَلَى ، خَبَطْتُ فِي دِيحُورِهِ
حَتَّى بَدَأَ عَبْدُ الْعَزِيزِ لِنَاطِرِي أَمَلِي ، فَمَزَقَتِ الدَّجَى عَنْ نُورِهِ
مَلِكٌ تَبَقَّى الْمَجْدُ نَاصِرُهُ لَهُ ، وَتَقِيلَ الْعَلِيَاءُ عَنْ مَنْصُورِهِ
طَلَبَ الْحَوَادِثُ مُعْرِبًا عَنْ ثَارِهِ فَجَرَتْ دِمَاهُ الْخَطْبُ فِي مَأْثُورِهِ
وَرَأَى الزَّمَانُ يَحِيدُ عَنْ تَأْمِيرِهِ ^(٢) فَسَقَى سِهَامَ الْمَجْدِ مِنْ تَأْمُورِهِ

فإن طعن طاعن على نسب هذا الشعر ، وقال : إن الملوكة لا تقابل بمثله ،
والعظماء لا تتلقى بشبهه . قلنا : ذلك لجهله بأخبارهم . وقلة روايته لآثارهم ؛
ولوشئت أن أملاً الصحف وأرقم القراطيس بما جرى عند الملوكة ومعهم .
وما استعمل لهم . وتوصل به إليهم ، لفعلت ، ولكنى اقتصرت من ذلك على
قريب معجب ، واكتفيت منه بحديث مطرب .

قال ابن بسام : وأنشد أبو عامر إثر هذا قطعة شعر لأبيه ، هي ثابتة ^{١٥}
في القسم الرابع من هذا التصنيف ، قال فيها :

قَهَقَهُ الْإِبْرِيْقُ مِنِّي ضَحِكًا وَرَأَى رِعْشَةَ رِجْلِي فَبَكَى
ثم قال : فإن استهل الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر ، وهكذا الطبع ،

(١) هـ : « ومحنتي بجديره » — لب : « بجديره » — ب : « بجديره »

(٢) ر ، هـ : « تأمير »

وهذا الماء رقةً وعذوبةً ، والهواء لطافةً وسهولةً ، لا ما كنا فيه من الشنائع والقعاقع ، قلنا له :

أَذَنَ الدِّيكُ فَتُبُ أَوْ ثَوَّبَ
وَتَأَمَّلْ آيَةً مُعْجِزَةً
رَكَعَ الْإِبْرِيْقُ مِنْ طَاعَتِهِ
وَلَوْلَ الْمِزْهَرُ يُنْفِي كُرْبِي
وَرَيْبٍ قَامَ فِينَا سَاقِيَا
ظَنِيَّةٌ دُونَ الصَّبَايَا قُصِّصَتْ
فُتِّحَ الْوَرْدُ عَلَى صَفْحَتِهَا
فَمَشَتْ نَحْوِي وَقَدْ مُلِّكْتُهَا ١٠

ومنها :

وَعَمَامٍ بَاكَرْتَنَا عَيْنُهُ
مِثْلَ بَحْرِ جَاءَنَا مِنْ فَوْقِنَا ،
فَدَنَا حَتَّى حَسِبْنَا أَنَّهُ
فَسَّالُنَا ، وَقَدْ أَعْجَبَنَا
أَنْتَ مَاذَا ؟ قَالَ : مُزْنٌ عَلَّمَتْ
سَامِنِي بِالشَّرْقِ أَنْ أَسْقِيَكُمْ
فَسَّالُنَا : أَبِنْ ذَاكَ لَنَا ،
مَلِكٌ نَاصَبٌ مَنْ خَالَفَكُمْ
فَعَلِمْنَا أَنَّهَا نَفَحَتْهُ مَنْ ٢٠

تُتْرَعُ الأفقُ بِدَمْعٍ صَيَّبِ
جِرْمُهُ مِنْ لَوْلُو لَمْ يُثْقَبِ
يَمْسَحُ الْأَرْضَ بِفَضْلِ الْهَيْدَبِ
حَسُوهُ الْعَيْنَ بِمَرَأَى مُعْجِبِ :
كَفَّهُ النُّجْمَةَ كَمَا دَرَبِ
رَحْمَةً مِنْهُ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِ
قَالَ : هَلْ يَخْفَى ضِيَاءُ الْكَوْكَبِ ؟
عَامِرِي الْمُنْتَمَى وَالْمُنْصَبِ (١)
وَرِثَ الْجُودَ أَبَا بَعْدَ أَبِ

(١) لم يقع هذا البيت في ب ، لب

لَكَ كَفٌّ بِالْثَرِيَّا فَيَضُهَا وَلَهَا بَسْطُ النَّدَى مِنْ كَشَبِ
كَقَلْبٍ دَلُوهَا مُتَرَعَةً أَشْرَقَتْ بِالْمَاءِ عَقْدَ الْكَرْبِ
تُبْصِرُ الْعَيْنَانِ مِنْهُ إِنْ بَدَا قَمَرَ السَّرِجِ وَشَمْسَ الْمَوَكِبِ
أَنْجَبَتْهُ لِلْعَالِي أُسْرَةٌ (١) نَزَلُوا لِلْمَجْدِ أَعْلَى الرُّتَبِ
بُنُفُوسٍ مِنْ سَنَا غَضَّةٍ فِي جُسُومٍ بَضَّةٍ مِنْ حَسَبِ
وَوُجُوهِ مُشْرِقَاتٍ أَوْمَضَتْ ضَا حِكَاكِ فِي وَجْهِ الْكَرْبِ
لَهُمْ أَيَّامُ حَرْبٍ كَثُرَتْ فِي عِدَاهُمْ دَاعِيَاتِ الْحَرْبِ
لَمْ يُطِيقْ عَامِرٌ قَدَمًا مِثْلَهَا لَا وَلَا عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبِ
سَحَبُوا مِنْ ذَيْلِ مَجْدٍ إِذْ هُمْ لِلْوَعَى فِي ظِلِّ نَقْعٍ أَشْهَبِ
يَا ابْنَ أُمِّ الْمَجْدِ خُذْهَا عِبْرَةً جِدِّ قَوْلٍ يُشْتَهَى كَاللَّعِبِ
مِنْ بَنَاتِ اللَّبِّ زَانَتُكَ كَمَا زَانَ صَدْرَ الْمُهْرِ حَلَى اللَّبِّ
خَسِرَةٌ مِنْ طَيْبِهَا قَدْ سُبِّتْ قَطَعْتَ نَحْوَكَ عَرْضَ السَّبَبِ

فَإِنْ يُرَاجِعْ — أَعَزَّكَ اللَّهُ — الْمُؤْمِنَ مِنْصِفًا فَهُوَ أَوْلَى بِهِ وَأَسِيرٌ لَهُ ،
لَا كَقَوْمٍ عِنْدَنَا ، حَظُّهُمْ مِنَ الْفَهْمِ الْحِفْظُ ، وَمِنْ الْعِلْمِ الدِّكْرُ ، وَهَذَا حَظُّ
الْقُصَّاصِ ، وَأَعْلَى مَنَازِلِ النُّوَّاحِ . فَتَرَى الْمَخْرُوقَ مِنْهُمْ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الشَّعْرُ
يَزُورِي أَنْفَهُ ، وَيَكْسِرُ طَرْفَهُ ؛ وَإِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْخُطْبَةُ يُمِيلُ شِقَّهُ ، وَيَلْوِي
شِدْقَهُ . فَإِنْ تَنَاوَلَهُمَا لَمْ يُبْقِ مِلْحَةً إِلَّا حَسَدَهَا ، وَلَا أَبْقَى عَفْصَةً فَجَّةً إِلَّا جَلَبَهَا .
وَأَصْلُ قِلَّةِ هَذَا الشَّانِ . وَعَدَمُ الْبَيَانِ ، فَسَادُ الْأَرْزَمَةِ ، وَنُبُوُّ الْأَمَكِنَةِ ؛ وَإِنْ
الْفِتْنَةُ نَسَخُ لِلْأَشْيَاءِ ، مِنَ الْعُلُومِ وَالْأَهْوَاءِ ، تَرَى الْفَهْمَ فِيهَا بَاثِرَ السَّلْعَةِ ، خَاسِرَ
الصَّفْقَةِ ، يُلَمَّحُ بِأَعْيُنِ الشَّنَّانِ ، وَيُسْتَثْقَلُ بِكُلِّ مَكَانٍ . هَذَا دَأْبُنَا (٢) وَحَرْبُنَا .

(١) ر : « أسوة » (٢) ر ، و ، لب : رأينا

إِنَّا طَلَبْنَا الْبَيَانَ ، فَأَذْرَكْنَاهُ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَالتَّمَسْنَا الْإِبْدَاعَ فَأَثْبَتْنَاهُ كُلَّ مُعْجَبٍ ،
وَأَتَيْنَا عَلَى كُلِّ مُطْرَبٍ ، فَمَا سَقَطْنَا عَلَى سُوقَةٍ يَهْشُ إِلَيْنَا ، وَلَا دَفَعْنَا إِلَى مَلِكٍ
يَضُوبُنَا ؛ وَلَيْتَ إِذْ لَمْ يَكُنْ غُفْمٌ ، أَلَّا يَكُونَ غُرْمٌ أَوْودِدْنَا أَنَّا بَرَاذِخُ لَا حَرْبُ
وَلَا سَلَمٌ ، وَلَا يَقْطَعُ وَلَا حُلْمٌ ؛ كَفَى بِذَلِكَ إِنْجَاءً عَلَى الزَّمَنِ . وَلَوْلَا أَنَّ الْمُؤْتَمَنَ نَجْمٌ
مِنْ تِلْكَ الْأَنْجُمِ الْكَرِيمَةِ ، وَفَرَعٌ مِنْ تِلْكَ الدَّوْحَةِ الْقَدِيمَةِ ، أُمْسَكَ عَلَى الدُّنْيَا
عَيْنَهَا ، وَحَفِظْ عَلَيْهَا زِينَهَا ، لَقُلْتَ : إِنَّهَا نَسَخٌ ، وَإِنَّ أَصْلَهَا مَسْنَخٌ ، سَنَاوْهَا لِلنَّيْمِ
أَوْوَعْدٌ ، وَزِمَامُهَا بَيْدٌ بَوْمٌ أَوْ قِرْدٌ .

وله من أخرى ، إلى الوزير ابن عباس :

وَلَمَّا أَسْنَدْتُ مِنْكَ إِلَى هَضْبَةٍ لَا انْخِرَامَ مَعَهَا ، وَاسْتَمْسَكْتُ بِعُرْوَةٍ
لَا انْفِصَامَ لَهَا ، إِذْ وَرَدَ عَلَيَّ كِتَابُ رَسُولِي إِلَيْكَ ، يَذْكُرُ تَغْيِيرَكَ لَهُ ، وَأَنْكَرْتُ
ذَلِكَ عَلَيْكَ ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ قَوْلَهُمْ : مَا نَزَلَ حَتَّى رَحَلَ ، وَقَوْلُ الْآخِرِ :
كَرِيْشَةٍ بِهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ ^(١)

وفي فصل :

وَقُلْتُ : أَيْسْتَنَوِقُ الْجَمْلَ ، وَيَتَضَعُ الْكُوكَبَ ، وَتَخِفُ حَصَاةُ الْحِلْمِ ،
وَيَتَضَعُ جَبَلُ الْعَمَلِ وَالْعِلْمُ ، وَيَكْبُو جَوَادُ الْهَمِّ ، وَتَزِلُّ نَعْلُ الْكَرَمِ ، وَتَغَابُ
الدُّنْيَا الدِّينَ ، وَيَسْطُو الشَّكُّ بِالْيَقِينِ ؟ ثُمَّ تَذَكَّرْتُ عِلْمِي بِكَ ، وَقَوْلِي فَيْكَ :
غَيْرَ أَنِّي مَعَ الْوَزِيرِ أَبِي الْقَا سِمَ حِزْبٍ مُحَضٍّ مِنَ الْأَحْزَابِ
التَّقِيُّ النَّقِيُّ كَهْلًا وَطِفْلًا فَارِسُ الْجَيْشِ رَاهِبُ الْمِحْرَابِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ صَاحِبُ مِحْرَابٍ ، وَمُؤْمِنٌ بِآيَةِ الْكِتَابِ ؛ فَتَلَلْتُ الْأَوْهَامَ

للجِبَاهِ^(١)، وَكَبِحتُ الظُّنُونُ كَبْحَةً أَقْعَدَتْهَا عَنِ الْأَشْبَاهِ^(٢) . وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا بَقِيَّةٌ
مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ :

وَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ الْمُلُوكَ لَأَحْسَنُوا وَلَكِنَّ أَوْلَادَ الزَّنَاءِ كَثِيرٌ
فَبَحِثْتُ عَنْ طَرَأٍ عَلَيْكَ مِنَ الْأَنْدَالِ . وَحَلَّ بِسَاحَتِكَ مِنَ الْأَعْلَاجِ ،
فَقِيلَ لِي : ابْنُ فَتْحٍ . فَأَنْعَمْتُ الْبَحْثَ ، وَأَعْمَلْتُ لَطَائِفَ الْكَشْفِ ، حَتَّى صَحَّ
عِنْدِي أَنَّهُ كَدَّرَ صَفْوَكَ عَلَى . وَغَيْرَ شَرِّكَ لَدَيَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَاهُنَا أُتِينَا ،
وَمِنْ هَذِهِ الْقَوْسِ اللَّثِيمَةِ رُمِينَا ! وَقَصَصِي مَعَ هَذَا الْعِلْجِ طَوِيلٌ .

وَفِي فَصْلِ مِنْهَا :

وَلَمْ يَزَلْ يَسْعَى لِإِفْسَادِ تِلْكَ النَّيَّاتِ حَتَّى فَسَدَتْ وَانْتَقَضَتْ ، وَزَادَ فِي
إِفْسَادِ الضَّائِرِ ، وَرَامَ التَّذْيِيرَ مِنْ غَيْرِ طُرُقِ الْأَكْبَرِ ، حَتَّى تَلَفَ وَأَتْلَفَ . ١٠
وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ مَا عَايَنْتُ ، وَالْمَغَبَّةُ مَا شَاهَدْتُ ؛ وَلَقَدْ سَأَلَنِي أَبُو جَعْفَرٍ أَنْ يَنْفَرِدَ
ذَاتَ يَوْمٍ بِأَكْبَرِ وَزِيرَيْنِ عِنْدَنَا ، وَوَجَّهَنِي فِيهِمَا ، وَحَضَرَا ، فَفَنَفَثَ هَذَا السَّاحِرُ
فَانْصَرَفَا . فَاخْطَبْتُهُ بِأَيَّاتٍ أَقُولُ فِيهَا :

هَلَّا سَتَرْتَ الشَّيْنَ بِالزَّيْنِ مِنْ قَبْلِ إِحْضَارِ الْوَزِيرَيْنِ ؟
قَدْ عَلِمَا أَنَّهُمَا أُحْضِرَا لِخَلْوَةٍ أَثْقَلَ مِنْ دِينِ ١٥
لَمَّا تَدَانَتْ قَابَ قَوْسَيْنِ أَصَابَهَا الْحَاسِدُ بِالْعَيْنِ
فَانْصَرَفَا مِثْلَ انْصِرَافِ الْفَتَى أَسْلَمَ الْفَأْ لِيَدِ الْبَيْنِ
صَدَّهُمَا^(٣) مِنْ قِرْدِكَ الْمُصْطَفَى نَطَحَهُ نَطَاحَ بَرَوْقَيْنِ
وَمَا رَأَى النَّاسُ عَلَى مَا مَضَى مِنْ قَبْلِهِ قِرْدًا بَقَرَتَيْنِ

(١) ب ، لب : « للحياة » (٢) ب ، لب ، وه : « على الأستاذة »

(٣) ر : « حددها »

أَرْبَعَةٌ فِي مَجْلِسٍ جُمِعُوا فَطَارَ هَذَانِ بِهِذَيْنِ
قَدْ لَزِمَا جَنْبَيْكَ لَمْ يَبْرَحَا لَهْنِي عَلَى ضَمِيْعَةِ جَنْبَيْنِ
فَأَنْتَ مَا بَيْنَهُمَا جَالِسٌ جُلُوسَ أَيْرٍ بَيْنَ خُصَيْنِ
وَمَا كَانَ هَذَا الْقَرْدُ أَهْلًا لِأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ حُرٌّ كَلَامٍ ، وَلَا يُرْمَى بِفَضْلِ
بَيَانٍ . وَبِالْحَرِّ أَنْ يُرْقَمَ عَلَى عَتَبَةِ دُكَّانٍ ، ^(١) أَوْ يُصَوَّرَ عَلَى بَابِ حَمَامٍ ^(٢) ،
وَقَدْ غُرِسَ فِي وَجْعَائِهِ رَأْسُ نَخْلَةٍ ، وَحَيَّ فِي سَعَفِهَا عُشُّ نَحْلَةٍ ؛ أَوْ يُنْقَشَ فِي
خَاتَمٍ ^(٣) ، وَقَدْ عَلَاهُ خَنْزِيرٌ ، وَعَطِسَ مُسْتَنْجَاهُ بِإِبْرَةِ زُنْبُورٍ ، فَإِنَّهُ بَقِيَّةٌ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اسْتَحَلُّوا الْحَرَامَ ، وَاجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ وَالْآثَامَ ؛ فَلَمَّا عَتَوْا
عَمَّا نَهَوْا عَنْهُ ، قِيلَ لَهُمْ كُونُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ . فَجُعِلَتْ نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا
وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ^(٤) .

١٠ وَلَوْلَا أَنَّهُ مُنْتَسِبٌ إِلَى آلِ هَاشِمٍ ، إِلَى عِصَابَةِ أَقْلَى كَرَمِهِمْ ، وَأُظْلِمَتْنِي
نِعْمَتُهُمْ ، وَمُسْنَدٌ عَلَى الْعِلَاتِ ^(٥) مِنْ أَبِي جَعْفَرٍ ، إِلَى وَزِيرٍ كَانَ لِي وَدَرًا ، رَقَرَقَ
شَرَابِي ، وَأَخْصَبَ بِهِ جَنَابِي ؛ لَأَدْرْتُ بِدَارِهِ دَائِرَةَ السَّوْءِ ، وَسَرَيْتُ إِلَيْهَا فِي لُغْمَةٍ
مِنْ صَعَالِيكَ الْأَحْرَارِ ، وَصَمِيمِ الرِّجَالِ ، فَأَحْرَقْتُهَا عَلَى نَازِلِهَا ، وَجَعَلْتُ عَالِيهَا
سَافِلَهَا ، امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ ^(٦) ؛ فَالْشَّاعُ لَدَيْنَا أَنَّهَا قَرَارٌ لِبَنَاتِ
السَّحْقِ ، وَبِرَكَّةٍ لِسَمَكَاتِ الْعِشْقِ . يَتَنَا كَيْحُ بِهَا النَّسْوَانُ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ
بِالْصَّدَقَاتِ . وَيَسْتَعْمِلْنَ خَرَزَ جُلُودِ الْبَقَرِ فِي الْكَبِيرِ نَجَاتٍ ^(٧) . فَاللَّهُ اللَّهُ فِي
قَبُولِ هَذَا الْقَرْدِ وَالْإِتْبَاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ قُدَّارٌ مَنْ لَزِمَهُ . وَهُوَ وَالْفَرَضِيُّ رَضِيْعَا لِبَنَانٍ ،
وَفَرَسَا رِهَانٍ ، وَلِذَا لَمْ يُؤَثَّرْ فِيهِ إِذْ نَقَرَهُ عَلَى الرَّأْسِ ، لِأَنَّ الْأَفْعَى لَا تَقْتُلُهَا نَهَشُهُ

(١-١) ر. ه. في ب. لب (٢) ر. : « خاتم قيار » — ب. لب « خاتم قيار »

(٣) راجع سورة ٢ : ٦٥ ، ٦٦ (٤) ر. لب : « الثلاث »

(٥) راجع سورة ١١ : ٨٢ (٦) في جيم الأصول : « الكرنجات »

الأففى . وأخافُ عليكَ عاديتَه ، وأتقى على أَيْامِكَ بادرتَه ؛ كان اللهُ خليفَتِي
 عليكَ يا أبا القاسم ! واللهُ اللهُ في إعادةِ نَفْحَةٍ من كرائمِ نَفَحَاتِكَ على قَرْيَةٍ
 أَبِي الجُودَى ، فلو أَنَّها الجُودَى كرامة ، وقَرْيَةُ النَّملِ عِمارة ، لَقَلَّتْ في جَنْبِ
 ما أَتَغْنَى به من شُكْرِكَ ، وأَتَرَتْنِمُ به من تَقْرِيطِكَ ومَدْحِكَ . والذي أَسْتَقْبَلُهُ من
 ذلكَ أَكْثَرُ . على^(١) أَنْ أَهْدِي من ذلكَ لَطِيْمَةً إلى جارتِكَ القَيْرَوَانِ ، وأُخْرَى
 إلى حَبِيبَتِكَ مَكَّةَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ ، بكلامِ عَذْبٍ ، ومَساقِ رَطْبٍ ، يُبْكِي الحَجِيجَ ،
 وَيَقْدَحُ نارَ العَجِيجِ ، تَحْنُ لَهُ الرَّبابُ ، وَتَرْقُ لَهُ الأَعْرَابُ . واعلمْ أَنَّ نِعْمَتَكَ
 فيها ، لَشَهْرَتُها بك ، وارتفاعُها بارتفاعِكَ ، مَكْتُوبَةٌ بِكَفِّ الثَّرَيَّا في مَفْرِقِ السَّما ،
 نُونُها الهَنْعَةُ ، وَعَيْنُها الشَّوْلَةُ ، ومِمْها النَّثْرَةُ ، فَإِنْ أَعْقَبَتْها « لا » ، كانَ الدَّبْرَانُ
 كاتِبَها عَلَيْكَ ، تَرُمُّفُها الأَبصارُ ، على انْتِزاحِ الأَقطارِ .

١٠

وفي فصل :

وَبَحَثْتُ عَلَى مَنْ تَجَرَّدَ لِلتَّنْبِيهِ على مِثْلِ ذلكَ وتَفَرَّغَ للاسْتِغْلالِ به ،
 فَوَقَعْتُ على الكاتِبِ الوزِيرِ ، اليَقِظِ النَّحْزِيرِ ، خالِدِ بنِ يَزِيدِ الكَيْمِيائِيِّ
 أَبِي عبدِ اللهِ الفَرَضِيِّ ، قُلْتُ : شِدْشِدَةً أَعْرِفُها مِنْ أَخْزَمِ ، لا يَصْلُحُ للأَفْعى مَرادُ
 الرَّوْضِ ، ولا وَرودُ الحَوْضِ ، ولا يَدْفَعُ لَوْمَ الكَلْبِ ، كَرَمُ الصَّخْبِ ، وإِنما
 الأخلاقُ ، جاريةٌ على الأعْراقِ والأفْعالِ ، مأخوذةٌ عن الأعمامِ والأخْوالِ ،
 وهذا المذْكورُ مَشْثومٌ ، أدْوَى مِنْ مُومٍ ، وأَشامُ مِنْ بَوْمٍ ، يُسِيءُ لِمَنْ أَحْسَنَ
 إِلَيْهِ ، ومن أَجارَهُ تَجَنَّى عَلَيْهِ ؛ مَنَنْتَهُ نَفْسُهُ على ضَيْقِ نَفْسِها مُلْكُ المُلُوكِ ، وإِحْيَاءُ
 وقائِعِ اليَزْمُوكِ ، فارتَبَكَ فيما ارتَبَكَ ، ولولا القَدَرُ لَطَحَنَتِ الرَّهْكَ ، لقد أَخْطأتِ
 اسْتِهُ الحَفْرةُ ، وما ثَبَتَ عندَ الثُّفْرةِ ! أَوْلَى لَهُ ! لقد خَبِثَ مَغْرِسُهُ عما حَاولَ .

٢٠

(١) في الأصول : « منى »

وَلَوْ مَمَّعُطُسُهُ عَمَا تَنَاوَلْ؛ وَهِيَهَاتَ لَا تُبْصِرُ الشَّمْسُ الْعُمُشَ، وَلَا تَهْتَدِي السُّبُلَ
الْخُفْشَ . وَإِنِّي لِأَخَافُ عَلَى سَعْدِكَ نَحْسَهُ، وَأَحْذَرُ عَلَى يَوْمِكَ أَمْسَهُ ۖ أَفْقَدَهُ
اللَّهُ حِسَّهُ، وَأَوْرَدَهُ الْكَنِيفَ رَمْسَهُ ۖ فَإِنَّهُ لَوْ جَاوَزَ الْبَحْرَ لَسَدَّهُ، وَلَوْ جَاسَ
أَبَا قُبَيْسٍ لَهَدَّهُ . وَمَا أَبْعَدُ أَنْ تُمْنِيَهُ نَفْسُهُ الْخَبِيثَةُ الْفَتَكُ بِكَ، وَالْوُثُوبَ عَلَيْكَ،
فَإِنَّ أَمْرَهُ ^(١) أَسْخَفَ، وَصَفَاقَةً يُحِبُّهُ أَشْفَ، مِنْ أَلَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى، وَلَا يَرِمِي
هَذَا الْمَرْمَى؛ وَرَبِّمَا سَاعَدَهُ الْقَدَرُ؛ هَذَا حِمْزَةٌ قَعَصَهُ وَحَشِيٌّ، وَبِسْطَامٌ صَرَعه
عَاصِمٌ، وَكِسْرَى فَتَكَ بِهِ مَرَازِبَةً لَهُ .

وَكَتَبَ الْوَزِيرُ أَبُو مَرْوَانَ ابْنَ الْجَزِيرِيِّ، إِلَى الْوَزِيرِ أَبِي عَامِرٍ
ابْنِ شَهِيدٍ ^(٢) :

١٠ قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِي بَأَنْتَ فَضَائِلُهُ وَقَامَ فِينَا مَقَامَ الْغَيْثِ نَائِلُهُ
إِذْ بَانَ فَضْلُهُ مَسَاعِيهِ وَهَمَّتْهُ بَيْنَ لَنَا شَرْحَ مَعْنَى سَالٍ سَائِلُهُ :
أَوَاخِرُ الْوَرْدِ إِذْ تَجَنَّبَهُ مُلْتَقِطًا أَزْكَى وَأَعْطَرَ نَشْرًا أَمْ أَوَائِلُهُ ؟
وَأَيُّ حَالِهِ مَوْجُودًا وَمُفْتَقِدًا أَوْلَى وَأَجْدَرُ أَنْ تُرْعَى وَسَائِلُهُ ؟
وَقَدْ أَتَاكَ لِتَوَدِّعٍ عَلَى عَجَلٍ خُضْرًا مَقَانِعُهُ، حُمْرًا غَلَائِلُهُ
فَأَمْنَحُهُ مِنْكَ قَبُولًا وَأَقْضِ نَهْمَتَهُ مِنْ الْوَدَاعِ فَقَدْ زَمْتَ رَوَاجِلُهُ
فَأَجَابَهُ :

٢٠ يَا سَيِّدًا أَرْجَتْ طَيْبًا شَمَائِلُهُ وَشَاكَهَتْ شَعْرَهُ حُسْنًا رَسَائِلُهُ
وَسَائِلًا لِي عَمَّا لَيْسَ يَجْهَلُهُ وَلَا الَّذِي كُفِّفَ التَّفْصِيلُ جَاهِلُهُ
الْوَرْدُ عَهْدًا وَنَشْرًا صِنُوعُ عَهْدِكَ، لَا تُنْسِي أَوَاخِرَهُ طَيْبًا أَوَائِلُهُ
وَوَصْلُهُ فِي كَلَالِ الْحَالَيْنِ مُفْتَرَضٌ سَيِّانٍ قَاطِعُهُ جَهْلًا وَوَاصِلُهُ

(٢) لم يقم هذا الفصل إلا في ب ، لب

(١) ب ، لب ، وه : « سره »

فَالْعُودُ يَخْفُقُ ، وَالْمِزْمَارُ يَتَّبَعُهُ ۥ وَهَاجِرُ الرِّاحِ قَدْ هَاجَتْ بِلَابُهُ
تُخْبِرُ بِمِثْلِ الَّذِي أَنْتَ الْعَلِيمُ بِهِ أَيَّامُنَا وَالصَّبَا تُعْصِي عَوَازِلَهُ

قال أبو الحسن : وقد ضارَعَ أبو عامر هذا محاسن الطبقة العالية
البغدادية المضارعة التي بآت فيها قوتُهُ ، وَلَدَنْتْ اختراعاتُهُ وَمَقْدِرَتُهُ (١) ۥ
فصار يتناول المعنى الحسن فيصيرُهُ مُحَسَّنًا مُحْسِنًا مَسَاقِهِ ، فَمِنْهَا وَصَفُهُ لِلنَّحْلِ
وَالْعَسَلِ : وَاسِعَةُ الْأَكْفَالِ وَالصُّدُورُ مُرْهَفَةٌ . وَوَصَفَ الْبُرْعُوثَ فَقَالَ : أَسْوَدُ
زَنْجِيٍّ . وَوَصَفَ الْبُعُوضَةَ فَقَالَ : مَلِيكَةٌ لَا جِيْشَ لَهَا سِوَاهَا . وَوَصَفَ الثَّعْلَبَ
فَقَالَ : أَدْهَى مِنْ عَمْرُو . فَهَذِهِ أَوْصَافٌ لَوْ رَامَهَا غَيْرُهُ لَكَبَا جَوَادُ بَنَانِهِ ، وَنَبَا
حُسَامُ لِسَانِهِ . وَقَدْ عَارَضَهُ فَقَالَ فِي صِفَةِ النَّحْلَةِ :

وَطَائِرَةٌ تَهْوِي كَأَنَّ جَنَاحَهَا ضَمِيرٌ خَفِيٌّ لَا يُحَدِّدُهُ وَهْمٌ
مُلَازِمَةٌ لِلرَّوْضِ حَتَّى كَأَنَّمَا لَهَا كُلُّ مَا تَقْتَرُّ عَنْهُ الرَّبِّي طُعْمٌ
تَمُجُّ فِيهَا الشَّهْدَ صِرْفًا وَيَخْتَفِي لِمُسْتَارِهِ مَا بَيْنَ أَحْشَاءِهَا سَهْمٌ
مُنَافِرَةٌ لِلْإِنْسِ ، تَأْنَسُ بِالْفَلَا مُفَرِّقَةٌ لِلشَّهْدِ ، مِنْ بَعْضِهَا الشَّمُّ
فَإِذَا نَاوَهَا رُشْدٌ ، وَهَتَكَ حِجَابَهَا إِذَا احْتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أَيَّامِهَا ظُلْمٌ

وقال في صفة البرعوث :

وَمُنْفَرٌّ لِلنَّوْمِ مَسْكَنُهُ ، إِذَا نَامَ الْمَلَكُ ، بَيْنَ أَثْنَاءِ الثِّيَابِ
يَسْرِي إِلَى الْأَجْسَامِ يَهْتِكُ عَدُوَّهُ عَنْ كُلِّ جِسْمٍ صَيَغَ النَّعْمَى حِجَابٌ
وَيَعُضُّ أَرْدَافَ الْحِسانِ وَمَالَهُ كَفُّ وَلَكِنْ فُوهُ مِنْ أَعْدَى الْحِرَابِ
مُتَحَكِّمٌ فِي كُلِّ جِسْمٍ نَاعِمٌ مُتَدَلِّلٌ مَا بَيْنَ الْخَاطِ الْكَعَابِ
فَإِذَا هَمَمْتَ بِزَجْرِهِ وَلَّى وَلَا يَثْنِيهِ (٢) عَمَّا قَدْ تَعَوَّدَهُ طِلَابُ

(١) ب ، لب : « معذرتة » (٢) كذا بالأصل (٣) في الأصل : « لم يثنه »

وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّ مَخْضُوبَةٍ ۖ بَدَمِ الْقُلُوبِ وَمَا تَعَاوَرَهُ خِضَابُ
قَرْمٍ مِنَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ مُكَوَّرٍ يَمْشِي الْبَرَّازَ وَمَا تُوَارِيهِ ثِيَابُ
عَظُمَتْ رَزِيَّتُهُ وَلَكِنْ قَدَرُهُ أَخْزَى وَأَهْوَنُ مِنْ ذُبَابٍ فِي تَرَابٍ
رَجْعٌ. وَلَهُ (١):

تَخَلَّصَكَ اللَّهُ مِنْهُ ! ثَلَاثَةُ شُمُومٍ : سُمٌّ أَفْعَى وَعَقْرَبٌ وَيَعْسُوبٌ نَحْلٌ . شَرِبَ
الْمَاءَ وَارِدًا وَعِنْدَهُ حَشَائِشٌ اسْتَفَادَهَا مِنْ كِيمْيَائِهِ ، تَكْفِيهِ (٢) وَعِثَاءٌ عَنَائِهِ ، إِذَا رَامَ
فَتْكًا أَوْ حَاوَلَ وَثْبًا . وَإِذَا قَدْ اطَّرَدَ هَذَا الْقَوْلُ ، وَانْثَلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ ،
فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفِ الْمُوَفَّقِ — وَفَقَّهِ اللَّهِ — أَصْلَ هَذَا الْفَاسِقِ وَفَرَعَهُ ، وَإِنْ
كَلَّفْتُهُ تَطْوِيلَهُ وَسَجَّعَهُ : صَحَبْتُهُ مِنْذُ أَعْوَامٍ ، أَيَّامَ اخْتِلَافِنَا إِلَى الزَّاهِرَةِ ، وَإِذْ تِلْكَ
الْمَوَاطِنُ قَائِمَةٌ غَيْرُ دَائِرَةٍ ، وَبِالْغُرُرِ مِنْ آلِ عَامِرٍ عَامِرَةٍ ، وَكُنَّا كَثِيرًا مَا نَتَدَارَسُ
ضُرُوبَ الْعِلْمِ : مِنْ أَدَبٍ وَخَبَرٍ وَفِقَةٍ وَطِبِّ وَصُنْعَةٍ وَحِكْمَةٍ ؛ عَلَى أَنَّهُ فِي أَهْلِ
الْفَهْمِ (٣) «أَوُوعَمَرُو ، أَوْ لِسَانُ بَطْرٍ . وَكَانَ — وَلَا أَشْعُرُ — يُدَالِسُ وَيُوَالِسُ »
قَدْ اسْتَهْتَرَ عَلَى الْفُلُوسِ ، وَاسْتَهْلَكَ عَلَى التَّدْلِيسِ ، وَصَارَ فِي ذَلِكَ وَضَحَ النَّهَارِ ،
وَنَفْخَةُ الْمِزْمَارِ ؛ لَوْلَمْسَ الْبُدُورِ لَعَادَتْ زُيُوفًا ، أَوْ تَنَاوَلَ الشُّمُوسَ لَغَشَّاهَا كُسُوفًا .
وَقَصَدْتُهُ يَوْمًا « عَلَى جَهْلٍ بِتِلْكَ الْخَلِيقَةِ مِنْهُ ، لِأَسْتَرِيحَ إِلَيْهِ ، وَالْقَى مِنْ شَيْئِي
عَلَيْهِ . فَأَلْفَيْتُهُ قَدْ خَلَا بَابَهُ ، وَغَابَ بَوَّابُهُ ، فَوَلَجْتُ فَنَارَ إِلَى صَبِيٍّ غَرِيرٍ أَصَابَتْهُ
هَنَالِكَ قَائِلًا لِي : طَالَ انْتِظَارُنَا لَكَ ! وَتَقَدَّمَنِي وَسِرْتُ حَتَّى اتَّهَيْتُ إِلَى دَارِ
ذَاتِ أَجْوَانٍ « قَدْ غَشِيَهَا دُخَانٌ ، كَقِطْعِ الْعَنَانِ ، تَعَبَقُ مِنْهَا صُنَانٌ ، مِنْ
زَرْنِيخٍ وَكِبْرِيتٍ ، وَزَنْجَفُورٍ وَأَنْزُرُوتٍ ؛ فَتَدَّ كَرَّتُ « يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ

(١) رجع الكلام في ، و (٢) ب ، لب : « بكفيه »

(٣) ب ، لب : « العلم »

- مُبِينٌ يَغْشَى النَّاسَ ، هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١) » ، فَاسْتَشَعَرْتُ الشَّرَّ ، وَأَرَدْتُ الْفَرَ ،
ثُمَّ التَّفْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَكْدَاسِ جَجْرٍ ، وَأَلَاتِ تَبَرٍ ، وَأَشْخَاصِ سُودٍ وَصُفْرِ ؛ ثُمَّ
أَفْضَيْتُ إِلَى بَيْتٍ فِيهِ عِدَّةُ أَشْبَاحٍ ، كَأَنَّهَا قُبَاضُ الْأَرْوَاحِ ، غَرَابِيبُ ، بِأَيْدِيهِمْ
كَلَالِيبُ ؛ رَزَادِقُ ، قَدْ تَقَلَّدَتْ مَطَارِقُ ؛ فَلَمَّا رَأَوْنِي صَاحُوا : فَضَحَكُمُ الْوَاعِلُ ۖ
فَاسْتَحْقَوْهُ^(٢) مِنْ عَاجِلٍ ؛ فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْمَنِيَّةِ ، وَخَشِيتُ فَضْلَ الْقَضِيَّةِ ، ضَحِكْتُ ۖ
إِلَيْهِمْ وَقُلْتُ : تَخَطَّطَكُمْ النِّعْمَةُ ، وَلَا هُدَيْتُمْ سَبِيلَ الْحِكْمَةِ ، أَهْكَذَا تَعْبَجُونَ ۖ
وَلَا تَدْرُونَ مَنْ تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا : وَمَنْ أَنْتِ ؟ قُلْتُ : مَنْ أَخَذَ الطَّلُقَ ، فَسَحَقَهُ
بِالْمِدَقِّ^(٣) ، وَشَقَّ بِيَدِ الدَّكَاءِ ، عَنْ زَهْرَةِ الْأَشْيَاءِ ، فَبَشَّرَ الْآبَاءَ بِالْأَبْنَاءِ . فَقَالُوا :
بِنَارِ أُمِّ بَاءٍ ؟ قُلْتُ : بِهِمَا جَمِيعًا وَبِهَوَاءٍ . فَأَوَمَّضُوا إِلَيَّ ضَاحِكِينَ ، وَاسْتَقْبَلُونِي
مُعْتَذِرِينَ ، وَقَالُوا : كِدْتَ وَاللَّهِ أَنْ تُكَلِّمَهُمْ ، وَتَكُونَ السَّوَادَ الْمُخْتَرَمَ ! قُلْتُ : وَأَيْنَ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ؟ قَالُوا : انْفَرَدَ يُرْفِقُ مَاءَ بَيْضٍ ، وَيُصَفِّقُ دَمَ حَيْضٍ ، وَغَرَضُهُ اسْتِخْرَاجُ
دُهْنِ الْحَجَرِ الْكَرِيمِ ! فَقُلْتُ : حَبْسٌ^(٤) حَدِيثٌ أَوْ قَدِيمٌ ؟ فَنَادَوْا : أَوَاهُ ، أَوَاهُ !
عَلَى الْخَيْرِ سَقَطْتُمْ . ثُمَّ تَلَطَّفْتُ وَخَرَجْتُ ، تَطِيرُ بِي رِجَالِي وَقَدْ حَقَّنَ اللَّهُ دَمِي
بِعَظْفِهِ ، وَاسْتَنْقَذَنِي مِنْ يَدَيِ مَنِيَّتِي بِلُطْفِهِ . وَوَصَّيْتُ لِمَنْ اسْتَوْثَقْتُهُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ
اسْتَكْتَمْتُهُ ، فَجَاسَ وَخَاسَ ، وَكَأَنِّي أَوْدَعْتُ سِرِّي رِيحًا ؛ فَاضْطَغَنَ ذَلِكَ عَلَيَّ ، ١٥
وَأَكَّدَ ذَلِكَ أَيْضًا مُعَامَلَةً عَامَلَنِي بِهَا أَيَّامَ حَرْبِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ حِبَالُهَا إِذْ ذَاكَ
مَنِينَةً ، أَعْقَبَتْهُ وَقَعَ السَّوْطِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَعَضَّ الْحِجْلُ عَلَى سَاقِهِ ؛ وَكَانَ الْأَمِيرُ
بِهَا أَبُو أَيُّوبَ ابْنُ الْمُرْتَضَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَأَعْدَدْتُ شِعْرًا نَوَيْتُ أَنْ أُشِيدَهُ إِيَّاهُ
أَوَّلَ بَيْعَتِهِ ، وَكَانَ مَا كَانَ ، وَبَلَغَهُ الشَّعْرُ ، فَزَادَتْ نَفْسُهُ لِي حُبْنًا ، وَمِنْهُ :
فَلَمَّا بَدَأَ فِيهِمْ سُلَيْمَانُ عِنْدَهَا وَصَاحَ ابْنُ ذَكْوَانَ فَتَارَ رِجَالُ ٢٠

(٢) ب ، لب ن « فاستحقوه » .

(٤) هـ : « نفس »

(١) راجع سورة ٤٤ : ١٠

(٣) لب ، هـ : « بالبرق »

هَدَى مِنْ ضَلَالِ الْحَاثِرِينَ مُحَمَّدٌ وَأَذَنَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ بِلَالٌ
وَقَامَ أَبُو عِمْرَانَ يَرَاهُ صَدْعُهُمَا بِسَعْيٍ ^(١) تَجَلَّى عَنْ هُدَاهُ ضَلَالٌ
وَزِيرُهُ مَتَى يَسْتَوِزِرُ الْمَلِكُ رَأْيَهُ أُمِرَتْ لَهُ فِي النَّائِبَاتِ حِبَالٌ
وَلَيْسَ كَمَنْحُوسٍ مِنَ الْقَوْمِ مُنَحِسٌ تَعَاظَمَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ يُنَالُ
أَعَانَتْهُ أُمُوالٌ تَخُونُ عَيْنَهَا وَأَعْلَتْهُ غُثْرُ سُوْقَةٍ وَسِفَالٌ
لَهُ كَعْبُ نَحْسٍ لَمْ يُصَاحِبْ بِهِ أَمْرًا ^(٢) عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا رَدًّا وَهُوَ ^(٣) خِيَالٌ
فَفِي كُلِّ عَصْرِ مِنْ عَصُورِ حَيَاتِهِ تُثَلُّ عُروُشُ أَوْ تُدَكُّ جِبَالٌ
هُوَ الدَّاءُ فَاسْتَأْصَلَهُ تَلْبَسُ جَمَالُهَا وَدَاءُ كُعُوبِ الْمُنَحْسِينَ عُضَالٌ
ولما قُضِيَ مَا قُضِيَ ، وَوَقَعَتْ تِلْكَ الْهَنَاتُ ، وَدَرَجَ أَبُو أَيُّوبَ وَعَظُمَ تَأَسُّفِي ،
رَمَيْتُهُ بِأُبْيَاتٍ بَلَغَتْهُ ، فَاصْطَكَّتْ أَجْرَامُ عِدَاوَتِهِ ، وَأَخَذَ فِي وُجُوهِ مُطَالِبَتِهِ ، مِنْهَا :
نَالَتْ سُلَيْمَانُ مِنْهُ رِجْلٌ مِنْ قَبْلُ مَا أَرْجَلَتْ أَبَاهُ
فَاسْتَدْرِجَا كَاشِفِي دُجَاهُ يَا وَيْلَةَ الْمَرْءِ ! مَا دَهَاهُ !
يَا سُخْطَ رَبِّ الْعَالَا عَلَيْهِ إِذْ أَدَّتْ ^(٤) الْمُرْتَضَى يَدَاهُ
لَمْ يُبْقِ مِنْ زُمَرَةِ الْمَعَالِي إِلَّا هِشَامَ الْعُلا أَخَاهُ
يَا رَبِّ فَاحْرُسْهُ لِي بَعِينٍ تَمْنَعُهُ الدَّهْرُ مِنْ أَذَاهُ

وفي فصل :

وقال فيه أيضاً مسأمة بن عبد الملك :

لَا تَعْرِضَنَّ لِإِمَامٍ فَبَحْرُ نَحْسِكَ طَامِي

(١) ر : « بسعد » (٢) ه : « بها » (٣) ه ، ب : « وهي »

(٤) ه : « دعت »

أَصْمَيْتَهُمْ دُونَ رَمِي وَاللَّهِ إِنَّكَ رَامِي
ثُمَّ اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ هَذَا الْخَبِيثِ أَيَّامَ الْمُسْتَظْهِرِ ، فَلَمْ يُبْقِ غَايَةً مِنْ اهْتِضَامِي
إِلَّا امْتَدَّ لَهَا ، وَأَجْرَى نَحْوَهَا ، وَقَصَّرتْ بِهِ الْأَقْدَارُ دُونَهَا ، وَظَاهَرَ صَاحِبَهُ
أَبَا الْحَسَنِ عَلَى ، وَقَادَ مَضَرَّتَهُ إِلَى ، وَصَنَعَ شِعْرًا يَحْمِلُنِيهِ عِنْدَهُ : وَهُوَ :

- يَا كَسْرَةً دَهَمْتَنَا لَيْسَ تَنْجِبُهُرُ وَسُوءَةً لَحِقْتَنَا مَا لَهَا عُذْرُ ٥
بَأْتَتْ قُعُودًا رِجَالُ طَابَ مُحْتَدُهَا وَقَامَ نَذْلَانِ فِي سَنَخِيهِمَا ^(١) بَخْرُ
أَمْسَى فِدَارُ يَسُوسُ الْأَمْرَ أَجْمَعُهُ لَقَدْ تَأَنَّقَ فِيمَا سَاءَنَا الْقَدْرُ
وَذَا أَبُو الْيُسْرِ قَدْ أَمْسَى لَهَا وَزَرًا إِنَّا إِلَى اللَّهِ ، يُسْرُ جَرَّهُ عُسْرُ !
نَذْلَانِ مَا حَرَّكَ إِلَّا فُشَا ^(٢) ذَفَرُ نَفَحَ ^(٣) الْكِدَابُ إِذَا مَا مَسَّهَا الْمَطَرُ
لَوْ أَنَّ أَشْيَاخَنَا كَانَتْ لَهُمْ هِمَمُ تَبَقَى رِيَّاسَتَنَا لَمْ تَرَأْسِ الْبَقَرُ ١٥
لَكِنِّهِمْ — وَقَضَاءُ اللَّهِ مُحْتَمَلُ — لَيْسُوا مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَنَّهُمْ صُورُ
إِذَا هُمْ اجْتَمَعُوا يَوْمًا لِمُغْضَلَةٍ رَأَيْتَ نَارَ التَّقَالِي كَيْفَ تَسْتَعِرُ
يَوْمُ يُرَى ^(٤) الشُّومُ يَادِ فِي صَحِيفَتِهِ ^(٥) وَقَرَدُ سُوءٍ عَلَى صَفْحَاتِهِ وَبَرُ

فَأُغْرِيَا بِي ، وَأَرْصَدَا لِي ، فَكَفَى اللَّهُ شَرَّهَا ؛ فَشَبَّا حَرْبَ الْبُسُوسِ .
وَتَنَاقَرَا عَلَى الرَّيُوسِ ، وَكَانَتْ هَامَةٌ أَحَدُهُمَا صِينِيَّةٌ . أَوْ مَرَأَةً هِنْدِيَّةً ، فَكَبَا
الْجَدُّ بَيْنَ كَبَا ، وَنَبَا الْمَجْدُ عَنْ هَامَةٍ مِنْ نَبَا ، لِيَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَيَقْضِيَ
اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

فَكَيْفَ يُضْفِي الْمَوْقِقُ — أَيَّدَهُ اللَّهُ — إِلَى رَجُلٍ هَذِهِ صِفَتُهُ .
وَيَبْنِي وَبَيْنَهُ مَا قَدْ شَرَحْتُهُ وَأَوْضَحْتُهُ ؟ فَلْيُجِرْنِي مِنْ قَبُولِ حَدِيثِ هَذَا

(١) هـ : « وَنَامَ مِنْ كَانَ فِي سَبِيحَتِهَا حَجَرٌ » (٢) ر ، هـ : « بَدَا »

(٣) هـ : نَبَحَ (٤) ر : « يَوْمَا تَرَى » — ب ، ل ، هـ : « يَوْمَ »

(٥) ل : « صَبِيحَتُهُ »

الخبِيثِ فِي ، وإصغائه إلى كذبه عَلَى^(١) ، وليُجِرْ نَفْسَهُ مِنْ عَادِيَّتِهِ ، وَيَنْظُرُ
مِنْ وَجْهِ فَائِدَتِهِ ، يَجِدُهُ أَشَقَى الْأَشْقِيَاءِ ، وَأَضْعَفَ الضُّعَفَاءِ . إِنَّمَا هُوَ لَطِيفٌ
إِكْسِيرٌ ، أَوْ لَشْدٌ قَصْدِيرٌ ، أَوْ لِنَقَشٍ فِي ذِكِيرٍ ، أَوْ لَادْعَاءِ أَعْمَالٍ ، أَوْ لِنَغْشِيَةٍ^(٢)
مِثْقَالٍ ، أَوْ إِقَامَةٍ طَلْسَمَاتٍ ، وَهُوَ خَلِيٌّ^(٣) مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَالْحَقِيقَةُ نَائِيَةٌ عَنْهُ ،
وَالشَّعْوَذَةُ غَيْرُ مُسْتَمْلَحَةٍ مِنْهُ ، لِبَرْدِ طِبَاعِهِ ، وَقِصْرِ بَاعِهِ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ لِأَدِيبٍ
ظَرِيفٍ ، ذِي فَهْمٍ لَطِيفٍ . فَأَمَّا هُوَ فَأَبْرَدُ مِنْ ثَلْجَةٍ ، وَأَشَدُّ عُفُوصَةً مِنْ عَفْصَةٍ
فَجَّةٍ ، إِذَا تَقَبَّضَ أَنْفُهُ ، وَشَمَخَ طَرْفُهُ . وَلَوْلَا أَنَّ الْمُلُوكَ لَا تَهَادَى بِالْوَضِيعِ
وَلَا تَعْتَمِدُ^(٤) فِي تَحْفِهَا غَيْرَ الرَّفِيعِ ، لَرَأَيْتَ أَنَّ تَهْدِيَهُ إِلَى الْبَلِيَّةِ مِلْكَةَ الْبَحْرِ ،
وَالْقِيَمَةَ بِالْأَمْرِ ، لِيَنْصَرِفَ^(٥) الْبَارِدُ إِلَى عُنْصُرِهِ ، وَعَسَى أَنْ يُخْرِجَهُ الْبَحْرُ بَعْدَ
حِينَ فِي عُنْبَرِهِ ، فَيَكُونُ أَحَرَّ قَلِيلًا ، وَأَهْدَى إِلَى ذَلِكَ^(٦) سَبِيلًا ! وَلَوْلَا أَنْ
وَصَفَ هَذَا الْخَبِيثَ دَاخِلٌ فِي مُعَاتَبَةِ الْمُوَفَّقِ ، لَمَا ارْتَضَيْتُ سَوْقَهُ ، وَلَا غَشِيَتْهُ^(٧)
مِنْ كَلَامِي رَوْقَةٌ ، فَإِنَّمَا يَتَعَاتَبُ الْأَكْفَاءُ ، وَيَتَمَارَحُ الْأَخِلَاءُ^(٨) .

فُصُولٌ قِصَارٌ اقْتَضَبَتْهَا مِنْ طَوِيلٍ كَلَامُهُ

فصل :

جَلَا الشُّكُوكَ بَيَقِينِهِ ، وَاسْتَنْبَطَ مَعْرِفَةَ الْأَعْمَالِ مِنْ شُؤْنِهِ ؛ وَقَسَمَ لَيْلَهُ
نِصْفَيْنِ : نِصْفًا لِلتَّلَاوَةِ ، وَنِصْفًا لِلسِّيَاسَةِ ؛ وَيَوْمَهُ شَطْرَيْنِ : شَطْرًا لِلْمِيدَانِ ،
وَشَطْرًا لِلدِّيَوَانِ ؛ فَاسْتَجَمَّ دَرَّ الْخَرَاكِ ، وَنَزَفَ دِمَاءُ الْأَعْلَاجِ ، مِنْ الْأَوْدَاجِ .

(١) ب « كذبه وإصغائه على » (٢) م : « لنغشية »

(٣) ب : « خلو » (٤) ر : « ترى »

(٥) ر : « لتصرف » (٦) ب ، م : « إذ ذاك »

(٧) م : « ولا تجشمت » (٨) ب ، م : « الأشباه »

فصل :

لَا نِعْمَةَ لِلخَالِقِ عَلَى الْخَلْقِ ^(١) أَجَلُ عَاقِبَةٍ ، وَأَحْمَدُ مَعَبَّةٍ ، وَأَرْوَقُ بَهَاءٍ ،
وَأَسْبَغُ رَدَاءٍ ، وَأَبْعَدُ مَأْتِرَةٍ ، وَأَيْسَرُ مَكْرُمَةٍ ^(٢) ، مِنْ تُقَى يُشْعِرُهَا قَلْبَهُ ، وَأَدَبٍ
يَزِينُ بِهِ عَقْلَهُ ، وَلِسَانٍ مُبِينٍ يُفِيضُهُ عَلَيْهِ فَيُعْرِبُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَكْشِفُ عَنْ
حَقِيقَةِ ذَاتِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ » ^(٣) ، وَقَالَ :
« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » ^(٤) ، وَقَالَ : « سَلَقُوا كُمْ بِأَلْسِنَةٍ
حَدَادٍ » ^(٥) ، وَقَالَ : « أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » ^(٦) ،
وَقَالَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ ، وَقَالَ : الْمَرْءُ مَحْبُودٌ
تَحْتَ لِسَانِهِ . وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْمُلُوكُ تَعْدِلُ بَيْنَهَا عَنِ التَّنَعُّمِ إِلَى شَطَفِ الْعَيْشِ ،
وَتُذْنِي مَحَالِّهِمْ ^(٧) مِنَ الْبَادِيَةِ وَتَبَوُّهُمْ مَنَازِلَ الْفَصَاحَةِ ، لِتَحْتَدَّ أَفْئِدَتُهُمْ ، وَتَمْتَدَّ
أَلْسِنَتُهُمْ ، وَيَنْسَابُوا فِي لِبَاصِ الدَّهَاءِ ، وَمَزَاحِفِ النِّكَرَاءِ ، فَيُجِيدُوا الْحَزَّ ،
وَيُطَبِّقُوا الْمَفْصِلَ ، وَيَسُوسُوا الثُّوبَ ، وَيَكْتُبُوا ^(٨) الْخُصُومَ ، وَيَخْرُجُوا مِنَ
الْغَمَاءِ ، وَيَمْضُوا قُدُمًا فِي ^(٩) الشَّنْعَاءِ ، كَمَا قَالَ عَمْرُو لِمُعَاوِيَةَ :

فَإِنْ تُعْطِنِي مِصْرًا فَأَرْبِحْ بِصَفْقَةٍ أَخَذْتَ بِهَا شَيْخًا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

وَإِنْ أَمْرًا يَقَابِلُ ابْنَ هِنْدٍ بِهَذَا وَهُوَ هُوَ ، لَفَضْفَاضُ قَمِيصِ الْأَدَبِ ، طَوِيلُ ١٥
نَجَادِ الْمَعْرِفَةِ ، مَوْقُوفٌ عَلَى ذِرْوَةِ الْفَضْلِ ^(٩) .

(٢) سورة ٤٩ : ١٣

(١-١) م في ر ، م

(٤) سورة ٣٣ : ١٩

(٣) سورة ٣٩ : ٩

(٦) م : « مجالهم »

(٥) سورة ٤٣ : ١٨

(٨) م : « من »

(٧) م : « ويكفوا »

(٩) ب ، م : « موف على ذروة العقل »

فصل ١

وَاصِلَ الْجِهَادِ ، وَاسْتَأْصَلَ الْكُفْرَ وَالْعِنَادَ ، وَاتَّخَذَ ظَهَرَ الْجَوَادِ بَيْتًا ،
وَوَظَلَ اللُّوَاءَ كِنْفًا^(١) ، وَاسْتَبَدَّلَ مِنْ نَقَرِ الْكِرَانِ قَرَعَ الطُّبُولِ ، وَمِنْ نَعَمِ الْقِيَانِ
شَجَا الصَّهِيلِ ، وَمِنْ وَجِبَةِ الْمَعَارِفِ^(٢) لَجَبَ الْجِيُوشِ ؛ يَمْشِي فِي الْهَجِيرِ ،
وَيَسْرِي فِي الزَّمْهَرِيرِ ۝ وَيَحْنُ إِلَى الْأَذَانِ وَالتَّكْبِيرِ ؛ فِي خِطَّةِ إِبْلِيسَ ۝
وَمَصْدَحِ النَّاقُوسِ .

فصل :

كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ هَذِهِ الْمَآثِرِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلَ نَفْحِ الصَّيْبَا ، وَيَقْرَعُ أُذُنِي
مِنْهَا جَرَسُ أَلْدُّ مِنْ نَعْمَةِ الصَّيْبَا ، فَلَا أَكْذِبُ ، لَصِدْقِ الشَّاهِدِ ، وَأَمَانَةِ النَّاوِلِ ،
وَكَثْرَةِ الْقَائِلِ . وَالْحَكِيمُ أَبُو فَلَانِ خَادِمُ الشَّيْبِ ، وَمُصْلِحُ الْعَيْبِ ، وَلَهُ
جَوَارِشَاتُ مَوْلَانَا ، حَارَّةٌ مَفْلَقَةٌ ، تَكَادُ تَرُدُّ الْخَصِيَّ فَحَلًا ۝ وَالنُّورُ الْمُسِنَّعُجَلَا .

فصل (٣) :

أَجَلُّ مَا بَيْنَنَا ارْتِضَاعُ الْكَاسِ ، وَشَمُّ الْآسِ ، وَالْجَرِيُّ فِي حَافَاتِ الصَّيْبَا ، وَالصَّيْدُ
بِالسُّكْرِ فِي الرُّبَى ؛ وَإِنْ كَانَتْ هَنَاتٌ مُخْلَقَةٌ ، وَأَوْقَاتٌ مُوَبَّقَةٌ ، ذَهَبَتْ وَبَقِيَ
وَزُرُّهَا ، وَطَعَنْتْ وَأَقَامَ شَرُّهَا ، فَإِنَّ الْمَرْجُوعَ لِلْعَلِيمِ الْحَكِيمِ ، رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

وَلَهُ مِنْ رُقْعَةٍ خَاطَبَ بِهَا مُجَاهِدًا أَمِيرَ دَانِيَّةٍ وَقْتَهُ :

(٤) قَدْ يُخْلِفُ الْغَمَامُ ، وَتَغْدِرُ اللَّثَامُ ۝ وَتُقَطَّعُ الْأَرْحَامُ (٤) . مِنْ عَزَّ بَزَّ ،

(٢) ر ، ب : « المعارف »

(١) ب ، لب : « كنفنا »

(٤-٤) نه في ر ، و

(٣) هذا الفصل لم يقع في ر ۝ و

وَمَنْ رَيْشَ طَارٍ ، وَمَنْ سَارَتْ بِهِ الْإِيَّامُ سَارَ ، وَعَلَى الْجَدِّ الْمَدَارُ . جَدُّ كَبَا ،
وَحُسَامُ نَبَا ، وَأَمَالٌ تَفَرَّقَتْ أَيْدِي سَبَا . كَلِمَاتُ أَنْثُرُهَا عَلَيْكَ ، وَأَمَالٌ أَصْرِفُهَا
إِلَيْكَ ، كُنَّا قَبْلَ أَنْ تَرْمِيَ بِنَا النَّوَى مَرَامِيهَا ، وَتُلْقِيَ الْخَطُوبُ عَلَيْنَا مَرَاسِيهَا ،
وَتَمَخَّضْنَا الْإِيَّامُ نَحْضًا ، وَتَرْكُضَ بِنَا اللَّيَالِي رَكُضًا ، تَرَبُّنِي مُحْبَةً ، وَحَلِيفِي صَبُوءَةً ؛
قَدْ تَخَلَّيْنَا ^(١) عَنِ الْأَنْسَابِ ، وَانْتَسَبْنَا إِلَى الْآدَابِ ، وَالذَّارُ إِذَا ذَاكَ صَقَبَ ، وَالْمَلْتَقَى
كَشَبَ ؛ ^(٢) فَإِذَا شَمَخَ بِأَحَدِنَا مَارِنَ ، وَثَارَ بِهِ كَدُّ سَاكِنَ ، بَعَثَ عَلَى زَمَنِ
وَتَقْصِيرَ بِإِرَادَةٍ عَنْ سَكَنِ ، تَعَاطَيْنَا كَأْسَ الشُّكْوَى ، وَتَجَاذَبْنَا حَبْلَ الْبَلْوَى ^(٣) ،
وَالزَّمَانُ غَرٌّ ، وَحَوَاصِلُنَا صُفْرٌ ، نَتَرْتُمُ تَرْتُمُ الْحَمَامَ ، عَلَى زُرْقِ الْحِمَامِ ؛ ثُمَّ أَلَقْتُ
الْإِيَّامُ عَلَيْنَا بِكُلِّ كَلٍّ ، وَأَنَاخْتُ مِنْ فَوْقِنَا بِحِرَانٍ ، فَنَثَرْنَا ^(٤) بِكُلِّ فَيْجٍ
عَمِيقٍ ، وَأَفْقٍ سَحِيقٍ ، ^(٥) نَثَرُ الدَّرَرَ ، شَذَرَ مَذَرَ ^(٦) ؛ وَنَفَحْتُ عَلَيْكَ رِيَّاحَ السَّعْدِ ،
وَجَاءَتْكَ الْمُنَى مِنْ تِهَامَةٍ وَنَجْدٍ ، وَامْتَطَيْتَ ظَهَرَ الْجَوْزَاءِ ، وَافْتَرَشْتَ لِبْدَةَ الْعَوَاءِ ؛
وَكَلَّمَا دُعِيتَ إِلَى النَّزَالِ وَالْعِرَاكِ ، تَتَرَسَّتَ بِالْثُرَيَّا وَطَعَنْتَ بِالسَّيَّكِ ، فَرَحِمْتَ
مَنْكِبَ الدَّهْرِ ، وَقَضَيْتَ أَرْبَكَ مِنْهُ عَلَى قَهَرٍ . فَكَانَ أَوَّلَ حَيْصَتِكَ عَنْ الْوَفَاءِ
وَحَيْدَتِكَ عَنْ رِعَايَةِ قَدِيمِ الْإِخَاءِ . أَنْ تَرَكْتَ الْمُخَاطَبَةَ ، وَأَضْرَبْتَ عَنْ
الْمُكَاتَبَةِ ، خَشِيَّةً أَنْ يَكُونَ كَلْنًا عَلَيْكَ ، وَرَغْبَتُنَا فِيمَا لَدَيْكَ ، وَهَيْهَاتَ أَيَّامِي
ذَلِكَ كَرَّمُ مُحَضٍّ ، وَهَيْهَاتَ عَلَيَّاهُ مَا لَهَا خَفَضٌ . ثُمَّ قُلْتُ : حَمْلُ أَحْسَنِ ^(٧) الظَّنِّ
أَجْمَلُ ، وَالْقَضَاءُ بِأَكْرَمِ الْعَهْدِ أَقْبَلُ ، قَدْ تَشْتَغِلُ الرُّؤْسَاءُ ، وَتَتَجَاذِبُ الْعُظَمَاءُ ،
وَعَيْنُهُ مَعَ ذَلِكَ رَاعِيَّةٌ ، وَأَذُنُهُ وَاعِيَةٌ ، وَإِنَّمَا الْوَصْلُ بِالْفُؤَادِ لَا بِالْمِدَادِ ، وَالِاتِّقَاءُ

(١) ب : « جلينا » (٢-٢) هـ في ر ، و

(٣) ر : « فنشدتنا » — و : « فنشمرنا » (٤-٤) هـ في ر ، و

(٥) و : « أحمل على حسن »

بالحُلُومِ لا بالجُسُومِ ، فانطَوَيْتُ عَلَى وُدٍّ ، وَثَبْتُ عَلَى صِحَّةِ عَقْدٍ ^(١) . ثُمَّ دَارَتْ
 الدُّهُورُ ، وَطَلَعَ البَشِيرُ ، أَنْ قِيلَ طَالَعَكُمْ عَسْكَرُ جَزَّارٍ ، فِيهِ لَأَسَدُ الْعَرِينِ نَارٌ ، قُضِيَ
 لَكُمْ بِهِ الْأَمْرُ ، وَخَفَقَتْ عَلَيْكُمْ أَلْوِيَةُ النَّصْرِ ، فَقُلْتُ : مَنْ زَعِيمُ هَذَا الْجَيْشِ ؟
 قِيلَ لِي : أَخُوكَ أَبُو الْحَبِيشِ ، قُلْتُ : رَهْوفٌ عَطُوفٌ ، شَقَاقٌ لِلصُّفُوفِ ، وَوَاحِدٌ
 يُعَدِّلُ بِالْوُفِّ . وَقُلْتُ : رُدَّ شَهِيدِي ^(٢) أُمَّتِكَ مِنْ أُمِّ ، وَجَاءَتْكَ تَسْعَى عَلَى
 قَدَمٍ ، وَضَحَ الصَّبْحُ لَدَى عَيْنَيْنِ ، وَأَمَكَنَّ الْبَطْشُ ذَا يَدَيْنِ ؛ هَذَا حَبِيبُكَ قَائِدٌ
 أَعْنَتَهَا ، وَذَا خَلِيلُكَ مَالِكُ أَرْمَتِهَا ، هَذَا أَبُو الْحَبِيشِ مُضْعَبٌ عَلَى مُقَرَّبٍ ،
 وَمُغْضَبٌ يَضْرِبُ بِمِقْضَبٍ ، أَنْ لَذَهَبَ الْعِلْمُ أَنْ يَزِفَ ، وَحَانَ لَجُوهَرُ الْفَهْمِ أَنْ
 يَشِفَ ؛ وَيَلُجُّ لِلْجَهْلِ وَبَنِيهِ ، وَعَسِيرَتِهِ وَأَقْرَبِيهِ !

١٠. وفي فصل :

^(٣) وَلَقِيتُ إِخْوَانًا لَقُوكَ ، فَوَالَّذِي جَعَلَ الْغَدْرَ مِنْ شِعَارِهِمْ ، وَالْحَذَرَ مِنْ دِنَارِهِمْ ،
 مَا أَجْرُوا فِي ذِكْرِكَ ، فَضْلًا عَلَى أَنْ يُجْرُوا ذِكْرِي لَكَ . وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَرَمَائِي غَيْرُ
 مَرَمَائِهِمْ . وَمَغْزَايَ سِوَى مَغْزَائِهِمْ ، وَيُوقِنُونَ أَنَّ ^(٤) أَبْعَدَ أَمَالِي فِي صَدِيقِي إِذَا
 سَمَا ، وَأَرْفَعَ رَغْبَاتِي لَدَيْهِ ^(٥) إِذَا طَمَى ، انْفِرَاجُ بَابِهِ ، وَانْهَتَاكَ حِجَابِهِ ، يُمْتَعْنِي
 بِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ ، وَيُورِدُنِي غَدِيرَ بَشَرِهِ ، وَيَزْنِي بَغْيَرِي مِنْ إِخْوَانِهِ ، وَيَضْرِبُنِي
 بِسِوَايَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ ^(٥) وَلَا يُقَلِّلُ حَظِّي مِنْ إِكْرَامِهِ ، وَلَا يَهْجُرُ قِسْطِي
 مِنْ لَطِيفِ اهْتِمَامِهِ ^(٥) ، بَعْدَ أَنْ يُعَدِّلَ الْقِسْطَاسَ ، وَيُمَيِّزَ الذَّهَبَ مِنَ الثُّجَاسِ .

(١) هـ : « عهد » (٢) ر : « شهيدى »

(٣-٣) هـ فى ر ، هـ (٤) هـ : « إليه »

(٥-٥) هـ فى ر ، هـ

وفي فصل :

- (١) وهذا أَخَفُّ حِمْلٍ وَأَيْسَرُ (١) . فَأَذَرَكْنِي (٢) مَا يُدْرِكُ مَنْ طَابَ غَرَسُهُ ، وَكُرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَأَزْمَعْتُ عَلَى الْمَقَاطِعَةِ ، فَقُلْتُ : الصَّبْرُ أَوَّلَى ، وَالْإِنْصَافُ أَحَبُّ (٣) ، لَا بُدَّ أَنْ تُوَفَّى الرَّجَالُ مَقَادِيرَهَا فِي أَزْمَانِهَا ، وَيُسْتَحَالَ لَهَا عِنْدَ اسْتِحَالَةِ أَعْيَانِهَا ؛ وَتَحْشَعُ مَنْ أَوْهَدَ لِمَنْ أَصْعَدَ سَدَادَ ، وَتَلَيْنُ مَنْ أَتَمَّهُ لِمَنْ أَنْجَدَ رَشَادَ ، فَتَقَلِّقْتُ وَاضْطَرَبْتُ ، وَتَجَمَّعْتُ لِي وَانْقَبَضَتْ ، ثُمَّ جَاشَتْ كَمَا يَجِيشُ الْبَحْرُ ، لَهُ هَمَمَةٌ وَزَخْرٌ ، فَقَالَتْ : تَكَلَّنْتَ الْمَكَارِمُ يَا ابْنَ الْأَكْرَامِ ! أَلَسْتُ مِنْ أَشْجَعِ فِي الْعَلَا ، وَمِنْ شَهِيدٍ فِي الذُّرَى ، وَلِلْخَالِقِ فِي صَدْرِكَ حِكْمَةٌ ، وَلِلرَّازِقِ فِي حَبْرِكَ نِعْمَةٌ ؟ تَقُولُ بِهِذِهِ فَتَسْمَعُ ، وَتَغْنَى بِتِلْكَ فَلَا تَخْضَعُ ، وَسَاوَيْتَ امْرَأً لَمْ تَحْتَجِجْ إِلَيْهِ ، وَوَارَنْتَهُ مَا لَمْ تَطْمَعُ فِيمَا لَدَيْهِ ؟ لَا أُسِرُّ إِلَّا مَا أُعْلِنُ . قِيمَةُ كُلِّ امْرَأٍ مَا يُحْسِنُ . قُلْتُ لَهَا : فَأَيْنَ الْيَأْسُ ؟ قَالَتْ : هُوَ فِي الْقَلْبِ وَالرَّأْسِ ، لَئِنْ أَصَابَهُ غَيْرُكَ فَارِسًا ، إِنَّكَ لَغَيْرُ بَعِيدٍ مِنْهُ رَاجِلًا ، فَقُلْتُ : لَقَدْ أَدْرَكْتُكَ عَجْرَفِيَّةً ، وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْكَ أَعْرَابِيَّةٌ ، لَا بُدَّ مِنْ قَصْدِي إِلَى الْجُبَيْشِ ، قَالَتْ : لِيَهْنِكَ الْعَيْشُ ، فِي أَرْضٍ مِنْ ظِلِّ الْخَيْشِ ! وَقَصْدُكَ مِنْ جَهْتِي ، فَلَمْ أَشُكَّ وَلَمْ أَقِرَّ ، وَلَمْ أَعْرِفْ وَلَمْ أَنْكِرْ ، وَانْصَرَفْتُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ ، لَا قُرْبَ وَلَا شُحْطَ ، وَلَا رِضًا وَلَا سُخْطَ . ١٥

[وَعَرَضْتُ] فصولًا من كلامه على الكاتب أبي بكر المعروف

باشمكياط ، فقال : فَقَرَّ حَسَانُ إِلَّا أَنَّهُ عَثَرَ عَلَيْهَا . فَوَصَلَ كَلَامُهُ إِلَى أَبِي عَامِرٍ

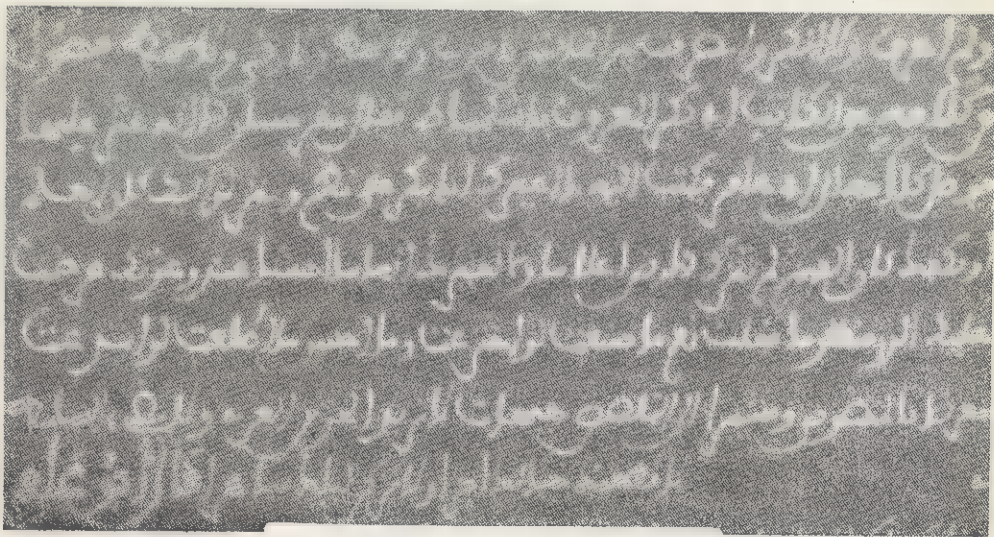
فَكُتِبَ إِلَيْهِ :

(١-١) ز في ب (٢) ب : « وقدا حرر لي »

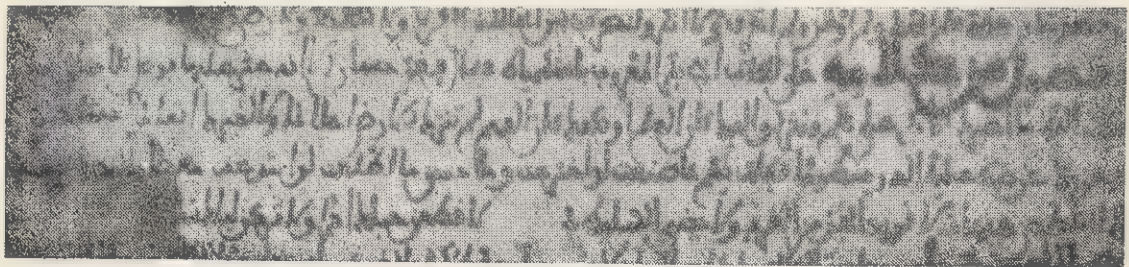
(٣) هـ : « الصبر أحب ، والإنصاف أولى »

ما أَغْيَرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر، لو إليك كان العلم، أو بكفك كان الفهم،
لم تترك الأرض اعلاما، ولا لغيرك انعاما؛ أخشى عند رعدتك عرضت عليك
الدَّرَّ منظوما. فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت. وما أحسن ما أطلعت لو ابتدعت.
مُعَرَّضًا بالتَّقْصُص، ومشيرا إلى التلصُّص. هيهات لأزيد الحر من العرب. ولا
يُضِيءُ السَّلَيطُ في [...] [لأَقْطَعَنَّ حبالك هاجرا، ولأَتَرْكَنَ ليلك ساهرا] ^(١).

(١) لم يرد هذا الفصل إلا في مخطوطي ب، لب؛ وقد آثرنا نشر صورته الشمسية
فيهما لعدم وضوحه واضطراب معناه ورغبة في وضعه كما هو تحت نظر القارئ.



صورة الفصل في مخطوطة ب



صورة الفصل في مخطوطة لب

وله في فصل :

وإصابة^(١) البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع^(٢) مع وزنه من هذين^(٣) ؛ ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه ، كان مطبوعاً روحانياً ، يُطْلَعُ صُورَ الكلام والمعاني في أجل هيئتها ، وأزوق لبساتها ؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه ، كان ما يُطْلَعُ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ ناقصاً عن الدرجة الأولى في الكمال والتَّامُّ ، وحسن الرِّوْنَقِ والنَّظَامِ . فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأقَّتْ منه في حُسْنِ النظام ، صوراً رائعةً من الكلام ، تملأ القلوب ، وتشفِّفُ النفوس . فإذا فتشت لجسمنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها أساً^(٤) لم تعرفه ؛ وهذا هو الغريب ، أن يتركب الحُسنُ من غير حُسن^(٥) . كقول امرئ القيس :

* أَلَا عِمَّ صَبَّاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي *

وقوله :

١٥ تنوَّرتُها مِنْ أَذْرَعَاتِ وَأَهْلُهَا بِيَثْرِبَ أَذْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِي
فإن هذه الديباجة إذا تطلَّبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده ،^(٦) وكقول أبي نواس^(٧) :

طَرَحْتُمْ مِنَ التَّرْحَالِ ذِكْرًا فَعَمَّنَا فلو قد شَخَّصْتُمْ صَبَّحَ الْمَوْتُ بَعْضَنَا^(٨)

(١) ب : « صناعة الكلام وإصابة ... » (٢) ب : « وإنما يقوم بها الطبع »

(٣) ز في ب : « النحو والغريب » (٤) و : « وجهاً » (٥) و : « الحسن »

(٦-٦) هـ في ر ، و (٧) راجع ديوانه ص ٤٥

(١) ثم قال فيها :

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَاكِ ، لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
فهذا من الكلام الغث ، واللفظ الرث ، الذي لو رآه حمار الكساح
لأذركه (١) ، ولكن له من التعلق بالنفس ، والاستيلاء على القلب ما ترى .

وفي فصل له :

وقول الجاحظ : إنا إذا أكثرنا من يعلم صبياننا النحور والغريب قنع منا
بِعِشْرِينَ درهماً (٢) في الشهر (٣) ، ولو أكثرنا من يعلمهم البيان لما قنع
منا بألف درهم . ولم يقل هذا إلا وقد ألف « كتاب البيان » . ولو كشف فيه
عن وجه التعليم ، وصوّر كيفية التدريج ، لأرى كيف وضع الكلام ،
وتزين (٤) البيان ، وكيف التوصل إلى حسن الابتداء ، وتوصيل اللفظ بعد
الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع ، فإنها معادن (٥) الصنعة ،
ومواضع مفاتيح الطريقة ؛ ولكنه استمسك بفائده ، وضم بما عنده ، غيرة
على العلم ، وشحاً بشمرة الفهم ، وعرف أن النفع كثير ، والشاكر قليل ، فلم يفد
بما أوضح من أمر البيان فائدة غير أهله ، ومن كرع في حوضه ، واستأنف من
نذره (٦) . وأما أن يخرج مبتدئاً ، أو يعلم جاهلاً فلا ألبته .

(١ — ١) هـ في ر ، و ب : « ديناراً »

(٢) ب ، لب : « رأس كل شهر » (٤) و : « وتنزيل »

(٥) و : « مغاني »

(٦) ب : « واشتار من ثمره » — و : « واستأنف من ثمره »

وفي فصل له :

قال أبو عامر : ^(١) وقد كُنَّا أَطْعَمْنَا مِنْ هَذَا الطَّعَامِ بَعْضَ التَّلَامِيذِ ، فَاسْتَطَابَهُ وَعَلِمَ مِقْدَارَهُ ، وَلَكِنَّ الْبَطَالََةَ عَلَى الْفَتَيَانِ غَالِبَةٌ ، وَالسَّامَةُ عَلَيْهِمْ مُسْتَوْلِيَةٌ ^(٢) ؛ فَمَنْ بَنَى عَلَى تَعْلِيمِ هَذَا الشَّانِ فَلَا يَعْلَمُ إِلَّا أَهْلَ النِّجَابَةِ ^(٣) وَالْمَثَابِرَةَ عَلَى التَّعْلِيمِ ^(٤) ، لِأَنَّهُ مَنْ لَمْ يَنْجُبْ لَهُ تَلْمِيزَ مُحِلٍّ عَلَيْهِ ذَلِكَ النَّقْصَ ، وَظَنَّ بِهِ الْعَجْزَ .

جلسَ إِلَى يَوْمَا يَوْسُفَ بْنِ إِسْحَاقَ الْإِسْرَائِيلِيِّ ^(٥) ، وَكَانَ أَفْهَمَ تَلْمِيزَ مَرَبِّيٍّ . وَأَنَا أَوْصِي رَجُلًا غَزِيرًا عَلَى مَنْ أَهْلُ قُرْطُبَةَ ، وَأَقُولُ لَهُ : إِنْ لِلْحُرُوفِ أَنْسَابًا وَقَرَابَاتٍ تَبْدُو فِي الْكَلِمَاتِ ، فَإِذَا جَاوَرَ النِّسَبُ النِّسَبَ ، وَمَازَجَ الْقَرِيبُ الْقَرِيبَ ، طَابَتِ الْأَلْفَةُ ، وَحُسْنَتِ الصُّحْبَةُ ؛ وَإِذَا رُكِّبَتْ صُورُ الْكَلَامِ مِنْ تِلْكَ ، حَسُنَتْ الْمَنَاطِرُ ، وَطَابَتِ الْخَبَائِرُ ، أَفْهَمْتُ ؟ قَالَ لِي : إِي وَاللَّهِ ! قُلْتُ لَهُ : وَلِلْعُدُوبَةِ إِذَا طُلِبَتْ ، وَالْفَصَاحَةِ إِذَا تُسِمَتْ ، قَوَانِينُ مِنَ الْكَلَامِ ، مِنْ طَلَبَ بِهَا أَذْرَكَ . وَمَنْ نَكَّبَ عَنْهَا قَصَرَ ، أَفْهَمْتُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَكَمَا تَخْتَارُ مَلِيحَ اللَّفْظِ . وَرَشِيقَ الْكَلَامِ ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَخْتَارَ مَلِيحَ النَّحْوِ ، وَفَصِيحَ الْغَرِيبِ . وَتَهَرَّبَ عَنْ قَبِيحِهِ ، قَالَ : أَجَلْ . قُلْتُ : أَتَفْهَمُ شَيْئًا مِنْ عُيُونِ كَلَامِ الْقَائِلِ :

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ بَانُوا ، فَلَمْ أُمْتُ خُفَاتًا عَلَى آثَارِهِمْ ، لَصَبُورُ
غَدَاةَ التَّقِينَا إِذْ رَمَيْتِ بِنَظَرَةٍ وَنَحْنُ عَلَى مَتْنِ الطَّرِيقِ نَسِيرُ
فَقَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ حَتَّى كَانَهَا لِنَظَرِهَا غُضْنُ يَرَاحٍ مَطِيرُ
فَقَالَ : إِي وَاللَّهِ ، وَقَعْتُ « خُفَاتًا » مَوْعًا لَنِيذَا . وَوَضِعْتُ « رَمَيْتِ »

(١-١) هـ في ر ، هـ (٢-٢) هـ في ر ، هـ

(٣) ر ، هـ : « يَوْسُفَ الْإِسْرَائِيلِيِّ »

و «مَتْنِ الطَّرِيقِ» وَضَعًا مَلِيحًا . وَسَرَى «غُصْنُ يِرَاحُ مَطِيرُ» مَسْرَى لَطِيفًا . فَقُلْتُ لَهُ : أَرْجُو أَنَّكَ تَنْسَمَتَ شَيْئًا مِنْ نَسِيمِ الْفَهْمِ ، فَأَغْدُ عَلَى بَشَى تَصْنَعُهُ . قَالَ أَبُو عَامِرٍ : وَكَانَ ذَلِكَ الْيَهُودِيُّ سَاكِنًا يَعْى مَا أَقُولُ ؛ فَقَدْ ذَكَ الْقَرُطُبِيُّ فَأَنْشَدَنِي :

حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْحِمَالِ لَقَدْ وَزَنْتُ كُرُوبِي بِالْجِبَالِ
فِي آيَاتٍ تُشَبِّهُهُ . وَجَاءَ الْيَهُودِيُّ فَأَنْشَدَنِي :

أَيَّعَمَ رُكْبَانُهُمْ مَنَعِجًا وَقَدْ ضَمَّنُوا قَلْبَكَ الْهُودَجَا ؟
وَاسْتَمَرَّ إِلَى آخِرِ قَصِيدَتِهِ ، فَأَتَى بِكُلِّ حَسَنٍ (١) . فَقَالَ لِي ذَلِكَ الْقَرُطُبِيُّ :
شِعْرُ الْيَهُودِيِّ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِي ، قُلْتُ : وَلَا بَأْسَ بِفَهْمِكَ إِذْ عَرَفْتَ هَذَا .
وَلَمْ يَزَلْ يَتَدَرَّبُ بِاخْتِلَافِهِ إِلَى حَتَّى نَدَى تَرْبُهُ ، وَطَلَعَ عُشْبُهُ ، ثُمَّ تَفَتَّحَ زَهْرُهُ .
وَضَاعَ عَبْقُهُ . وَرَأَى أَنِّي أَسْتَعْمِلُ وَحْشِي الْكَلَامِ فِي مَوَاضِعِهِ ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِحُسْنِ
الْوَضْعِ ، فَاسْتَعْمَلَ شَيْئًا مِنْهُ وَعَرَضَهُ عَلَيَّ . فَقُلْتُ : اسْتَرْهُ ، فَقَالَ : تَبْخَلُ عَلَى بِهِ .
وَعَرَضَهُ عَلَى ابْنِ الْإِفْلِيلِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : تَنْكِبُ هَذَا الْكَلَامَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ أَبَا عَامِرٍ
يَسْتَعْمِلُهُ . فَقَالَ : يَضَعُهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَهُوَ أَذْرَبُ مِنْكَ فِي اسْتِعْمَالِهِ (٢) .

وَفِي فَصْلِ لَهُ :

وَرُبَّمَا لَازَبَنَا الْمُسْتَطْعِمُ بِاسْمِ الشَّعْرِ مِنْ يَحْبِطُ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ بِسْوَالِهِ .
فِيصَادِفُ مَنَّا حَالَةً غَيْرَ ذَاتِ فَضْلَةٍ ، لَا تَتَّسِعُ لَهُ فِي كَبِيرِ مَبْرَةٍ . فَنُشَارِكُهُ وَنَعْتَذِرُ
لَهُ ؛ وَرُبَّمَا أَفْدَنَاهُ بِآيَاتٍ يَعْتَمِدُ (٣) بِهَا الْبِقَالِينَ وَمَشِخَةَ (٤) الْقَصَائِينَ ، فَإِذَا

(١) ب : « بکل شیء حسن » (٢) هـ فـ ر ، و هـ — ز ف ب ، لب :
فانصرف إلى ، وعرفني بما جرى ، وسألني أن أكشف له السر فقلت :
(٣) و هـ « يعتمد » (٤) و هـ : « ومشايخ »

قَرَعَتْ^(١) أَسْمَاعَهُمْ ، وَمَا زَجَتْ أَفْهَامَهُمْ ، دَرَّ حَلَبُهُمْ ، وَانْحَلَّتْ عُقْدُهُمْ^(٢) ، وَجَلَّ شَخْصُ ذَلِكَ الْبَائِسِ فِي عُيُونِهِمْ . فَمَا شِنْتَ إِذْ ذَاكَ مِنْ خُبْرَةٍ وَثِيرَةٍ يُحْشَى بِهَا كُمُهُ^(٣) ، وَرَقَبَةٍ سَمِينَةٍ تُدْفَنُ فِي مَخْلَاتِهِ . وَمِنْ كُوزِ قُقَاعٍ يُصَبُّ فِي فَمِهِ ، وَتِينَةٍ رَطْبَةٍ يُسَدُّ بِهَا حُلُقُومُهُ ، وَسَنْبُوسَقَةٍ وَدِكَةٍ تُدَسُّ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَفَالْوَذَجَةُ رَطْبَةٍ يُحْنَكُ بِهَا حَنَكُهُ ، فَلَا يَكَادُ الْبَائِسُ يَسْتَقِمُّ ذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَنَا فَيُكَبِّ عَلَى أَيْدِينَا يُقَبِّلُهَا ، وَأَطْرَافِنَا يَلْطَعُهَا ، رَاغِبًا فِي أَنْ نَكْشِفَ لَهُ السَّرَّ الَّذِي حَرَّكَ الْعَامَّةَ فَبَذَلَتْ مَا عِنْدَهَا لَهُ ، وَبَادَرَتْ بِدَرْهَا^(٤) إِلَيْهِ . وَتَعْلِيمُهُ ذَلِكَ النَّحْوَ مِنْ أَتْحَاءِ السَّحْرِ لَا نَسْتَطِيعُهُ ، لِأَنَّ هَذَا الَّذِي يُرِيدُهُ مِنَّا هُوَ تَعْلِيمُهُ الْبَيَانَ ، وَبَيْنَ فِكْرِهِ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ ؛ وَلِكُلِّ ضَرْبٍ مِنَ النَّاسِ ضَرْبٌ مِنَ الْكَلَامِ ، وَوَجْهٌ مِنَ الْبَيَانِ ؛ وَالْمَرَّةُ لَا يَفْجَرُ صَفَاةَ غَيْرِهِ إِلَّا أَنْ يُوفَى عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ بِفَهْمِهِ ١٠ التَّبْيِينِ وَالتَّيْبِينَ . وَيَكُونُ مِنَ الْمُسْتَنْبِطِينَ بَوْجُوه^(٥) الْحَيْلِ عَلَى قَوَانِينِ قَائِمَةٍ . وَأَصُولٌ ثَابِتَةٌ ، فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ مَا سَمِعْتَ .

وفي فصل :

وَأَصْعَبُ مِنْ هَذَا تَحْرِيكُ الْبُخْلَاءِ مِنَ الْكِبَرَاءِ إِلَى الْبَذْلِ ، لِأَنَّهِمْ بَعَادَتُهُمْ لَا تُمْكِنُ نُقْلَتُهُمْ لِعَزِّزَتِهِمْ ، وَلَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ثِيَابُ مَجْدِهِمْ ، فَلَا يَنْجِعُ تَقْرِيطُهُمْ^(٦) ؛ فَهَاهُنَا يُحْتَاجُ إِلَى أَثْقَبِ مَا يَكُونُ مِنَ الدَّهْنِ ، وَأَوْسَعِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الْحِيلَةِ ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لَا يَتِمَكَّنُ لَذَى التَّفَاهَةِ تَحْرِيكُهَا ، وَلَا بَدَّلَ لَهَا مِنْ طَبَقَةٍ

(١) ب ، لب : « قارعت » (٢) ر : « عهدهم »

(٣) ب ، لب : « كنه » (٤) ر : « بزبدها »

(٥) ب ، لب : « جميع » — ه : « لوجوه »

(٦) ب ، لب : « تقريضهم »

يكون لها في العين بعض التصويب والتقصيد . ولهذا صار سب الأشراف عسيراً
عويصاً ؛ فإنك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعضهم خبيث^(١)
الكلام . لقوة بنيانهم ، وثبات أركانهم ؛ فهدم بنيان هؤلاء صعب^(٢) ،
ولذلك فخرت العرب بمن لا يمكن له ذلك فيهم من أهل الكلام^(٣) ، ولذلك
[. . .]^(٤) سب الأشراف ، واستحسنوا من ذلك قول ابن صفوان في شبيب ؛
ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية^(٥) .

وفي فصل له :

قال أبو عامر :^(٦) وكما أن لكل مقام مقالا ، فكذلك لكل عصر
بيان ، ولكل دهر كلام^(٧) ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ،
وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه .^(٨) وكما أن للدنيا دولا ،
فكذلك للكلام نقل وتغاير في العادة^(٩) . ألا ترى أن الزمان لما دار كيف
أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع
وسهل بن هارون وغيرهم^(١٠) من أهل البيان ؟ فالصنعة معهم أفسح باعا ، وأشد
ذراعا ، وأنور شعاعا ، لرُجحان تلك العقول . واتساع تلك القرائح في العلوم .
ثم دار الزمان دورانا . فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس

(٢) ب ، ع ، لب : « أضعف »

(١) لب : « خبيث »

(٤) كذا بالأصل

(٣-٣) نه في ر ، نه

(٦-٦) نه في ر ، نه

(٥) يياض قدر كلتين

(٧-٧) مقدم في ر على قوله : ولكل طائفة الخ

(٨) ر : وأصحابهم

ومحمد بن الزيات وابن وهب ونظرانهم^(١) ، فرقت الطباع^(٢) ، وخفّ ثقل النفوس^(٣) . ثم دار الزمان فاعتري أهله باللطائف صلف ، وبرقة الكلام كلف ، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما .

- وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان ، وطلب كل ذي عصر ما يجوز فيه ، وتهش له قلوب أهله^(٤) ، فكان من صريع الغواني^(٥) وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان ، من استعمال أفانينه ، والزيادة في تفریع فنونه . ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس ، وخرج عن العادة . وطاب ذلك منه ، وامتنله الناس ،^(٥) فكل شعر لا يكون اليوم تجنيساً أو ما يشبهه تمجّه الأذان^(٥) ، والتوسط في الأمر أعدل ؛ ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام . لأنه ليس ديباجة المحدثين على لأمة العرب ، فتركب ١٠ له من الحسن بينهما ما تركب .

وفي فصل له :

قال أبو عامر : وأهل صناعة الكلام متباينون في المنزلة^(٦) ، متفاضلون في شرف المرتبة . على مقدار إحسانهم وتصرفهم^(٦) .

- فإنهم الذي ينظم الأوصاف ، ويخترع المعاني ، ويحرز^(٧) جيد اللفظ . ١٥ إلا أنه يصعب عليه الكلام . ويكثّر قريحته التأليف ، حتى إنه ربما قصر في

(١) هـ في ب ، لب (٢-٢) هـ في ر ، هـ

(٢) ب ، لب : « ويطيب على قلوب أهليه » .

(٣) ب ، لب : « مسلم بن الوليد » (٥-٥) هـ في ر ، هـ

(٤-٤) هـ في ر ، هـ (٧) هـ ، ر : « ويحرر »

الوصف ، وأساء الوضع . فهذا في الأبيات القليلة^(١) نافر ، وفي القريبة المأخذ سائر ، وفي طريقة الجمهور الأعظم^(٢) ذاهب ، حتى إذا ازدحمت عليه ، وانحسدت إليه ، وطالبت بهاء البهجة ، وشرف المنزلة ، وقف وانقل ، وتلاشى واضمحل .

٥ ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، القادح بشعاع البراعة ، الذي يمر مر السيل في اندفاعه ، والشؤبوب في انصبابه . لا يشكو الفشل ، ولا يكمل على طول العمل ، إذا ازدحمت في الكلام عليه المطالب ، وعلفت بجواشي فكره المارب ، وحشرت عليه الصعائب والغرائب . استقل بها كاهله . واضطلع بثقلها غاربه . وأعارها من نظره لمحة ، ومن فكره قدحة ، ثم رمى بها عن جانبيه ، قد رويت بما فيها . وليست شعاع بهايتها . وبقى كاللقوة في المرقب ، سام نظره ، قد ضم جناحيه . ووقف على مخالبه ، لا تتاح له جراحة إلا اقتصها^(٣) . ولا تنازله طائفة إلا اختطفها ، جرأت كسفرته . وبديته فكرته . فذلك الألسن يوم حرب الكلام ، لا تخطي ضربته ، ولا تصاب غرته .

١٥ ومنهم من يتجافى الكلام ، ويروغ عن المقال ، فإذا مني به ، أخذ بأطراف المحاسن ، وشارك في أنحاء من الصنعة ، وجل ما عنده تليق وحيلة . وبذلك يصاحب الأيتام ، ويجاري أبناء الزمان ؛ ما كان له عقل يغطي على نقصانه . وسياسة يسوس بها فحول زمانه . ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في أهل صناعة الكلام .

(١) ب ، لب : « الفلائل الأعداد »

(٢) ب ، لب : « اهتضها »

(٣) نه في ر ، نه

وفي فصل له :

قال أبو عامر : وقوم من المعلمين بقرطبتنا^(١) ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على^(٢) أ كباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون^(٣) إلى فطن^(٤) حمة ، وأذهان صدئة ، لا منفذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان . سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها^(٥) فيما يجري عندهم^(٥) تصريف من لم يرزق آلة الفهم . ومن لم تكن له آلة الصناعة مما هي مخصوصة بها ، لا تقوم تلك الصناعة إلا بتلك الآلة^(٦) ؛ فهو كالجارح لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور ، لتوئد^(٧) رُسغته ، واستدارة حافره ، ولا له بنان يجس^(٨) به على دسنان . ولو جاز أن يكون حمار يغني :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك ؟

وشبهه ، من أجل أن له حنكا ولسانا وقصة رنة ، لما جاز أن يقع بالضراب على الأوتار ، ويتم بجس الأنامل ، ويرخي الوتر في مجرى السبابة والبصر ، فيبذل بنشيدته ، ويؤلول في ضربه على بسيطه .

١٥

فهذه حال العصابة من المعلمين^(٩) : يُدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة^(١٠) .

(١) ب ، لب : « عندنا » (٢) ب ، لب : « ينعنون من »

(٣) هـ في ر : « (٤) ب ، لب : « أفكار »

(٥-٥) هـ في ر : « (٦) هـ : « الآلات »

(٧) هـ : « لتدوير » (٨) ب ، لب : « لمس »

(٩) ب ، لب : « المعلمين » (١٠) ب ، لب : « بالآلة »

وتَقْصِيرُهُمْ بِالْآلَةِ هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْعِلَلِ الدَّاخِلَةِ مِنْ فَسَادِ الْآلَةِ الْقَابِلَةِ لِلرُّوحَانِيَّةِ «
وَالْخَادِمَةِ لآلَاتِ الْفَهْمِ» الْبَاعِثَةَ لِرَقِيقِ الدَّمِّ فِي الشَّرِّيَّاتِ إِلَى الْقَلْبِ، وَزِيَادَةِ
غِلَظِ أَعْصَابِ الدِّمَاغِ وَتَقْصَانِهَا عَنِ الْمَقْدَارِ الطَّبِيعِيِّ. وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدْسِ
وَطَرِيقِ الْفِرَاسَةِ فَسَادُ الْآلَةِ الظَّاهِرَةِ، كَفَرَطَحَةِ الرَّأْسِ وَتَسْفِيطِهِ ^(١)، وَتَتَوَّءُ
الْقَمَحْدُوءَةُ «وَالْتَوَّاءُ الشَّدَقِ، وَخَزَرِ الْعَيْنِ، وَغِلَظِ الْأَنْفِ، وَانْزَوَاءُ الْأَرْزَبَةِ.
فَنَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ أَلَّا يَشُوَّهَ خَلْقَةَ قُلُوبِنَا، وَلَا يُجْسِي أَجْرَامَ أَكْبَادِنَا، وَيَضُمَّ أَوَارِنَا
وَأَعْصَابِنَا، ^(٢) وَلَا يَعْظُمَ أَنْفُونَا ^(٣). وَلَا يَجْعَلُنَا مَثَلَةً لِلْعَالَمِينَ.

وَفِي فَصْلٍ لَهُ :

وَلَيْسَ الْعَجَبُ فِي هَذِهِ الْعِصَابَةِ إِلَّا مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ «فَإِنَّ زَادَ عَلَيْهِمْ فِي
الصَّنَاعَةِ، وَبَزَّهَمَ بُوْفُورِ الْبِضَاعَةِ. دَخَلَ فِي الشُّعْرَاءِ فَأَخَذَ لِبَاقَتِهِمْ « وَصَارَ فِي
جُمْلَةِ الْكُتَّابِ فَاسْتَعَارَ صَلَفَهُمْ وَرَشَاقَتَهُمْ، وَبَاشَرَ أَهْلَ الْحِسَابِ فَاسْتَفَادَ طَرِيقَةَ
الْبَرَاهِينِ، وَنَظَرَ أَهْلَ الْجَدَلِ فَتَعَلَّمَ الْقَوَانِينَ « وَعَرَفَ عُنَاصِرَ الْكَلَامِ ^(٣)؛ فَكُلُّ
عِلْمٍ يَزْعُمُهُ قَبْضُ يَدِهِ ^(٣)، وَكُلُّ جِدٍّ وَهْزَلٍ فَالِيهِ مَنْسُوبٌ، وَعَنْهُ مَا خُودُ! وَهُوَ
مَعَ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَحِيَّ بِهِ، أَشَدُّهُمْ صَبَابَةً ^(٤) بِالْأَلَّا يَكُونُ
بِالْأَنْدُلُسِ مُحْسِنٌ سِوَاهُ، وَلَا مُجِيدٌ حَاشَاهُ. وَكَانَ الرَّأْيُ عِنْدِي لَهُ أَنْ يَسْكُنَ أَرْضَ
جَلِيقِيهِ، ^(٥) أَوْ قَطْرًا بَعْدَ عَنِ الْإِسْلَامِ ^(٥) حَتَّى لَا يَسْمَعَ فِيهِ لَخَطِيبٍ ذِكْرًا،
وَلَا يُحْسِنَ لِسَاعِرٍ رِكْزًا ^(٦)، ^(٧) فَيَكُونُ هُنَاكَ فَرْدًا ^(٧).

(١) ب، لب : « تسبطه » — ر : « تبسيطه » (٢-٢) نه في ر، هـ

(٣-٣) في ب، لب : « فكل فضل على زعمه من عنده » وكل علم قبض يده «

(٤) ب، لب : « ضنائة » (٥-٥) نه في ر، هـ

(٦) نه : « شعرا » (٧-٧) نه في ر، هـ

(١) ومن العجب أيضاً في أمره أن كل كاتب كتب للسلطين عندنا ، وكل شاعر مدحهم ، رويت أشعاره ورسائله غير أبي القاسم وحده . على أنه إنما جلس للتعليم على هذا المعنى . وربما عرض بأن يؤخذ منه شيء من أشعاره ورسائله ولا يجيبه تلميذ . والمحروم محروم . ولو أنه اشترى الزبيب لصبيان المساجد وقشور أصل الجوز لصنع شفاة حراحيات الخانات ، وروى الطبقتين ما عنده .
 لعرضتكم رسومته وجعائله ، ورويتاً أشعاره ورسائله . وغنتا بها على قوارع الطرق ومناقع المياه ومطارج الزبول ، كما تغنيان أشعارهما ، وتسعان حماقتهما ، فيكون ذلك سبباً إلى أن تدب وتدرج ، وتعتاد الطيران فتطير ، ويراها الناس فتعرفا وهو مع هذا كله (١) يسمينا الهمج الهامج ، ويسمى البديع والصابي وشمس المعالي العضاريط (٢) . وهو أبخل أهل الأرض لا محالة . ولم يقصر بنا عنده إلا توقيفنا لثغامته . وهو يرى أن بعض صبياننا قد أفلقوه حين قالوا : ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب . ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نعمته نعمة شاعر . وحكوا أنه ، إذا مشى الخيزلي ، وتقدم قليلاً ثم رجع القهقري ، والقصبه في يده ، والخروج على عاتقه ، أحدى الناس في إخراج لُعبة اليهودي . فألقوه بما يسمع (٢) . فكيف لو عضته أنياب غير مفولة ، وخذشته أظافر غير مقلمة ؟

وفي فصل له :

ذكريوماً عند أبي القاسم سهل بن هارون والجاحظ ، فغرب فيهما مثل العامة : بينهما ما بين الملائكة وصبيان الحرس . هذا من الإنحاء العظيم على سهل . والأولى أن يسميا مُحسنين ، إلا أن سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ

(١-١) له في ر (٢) ب ، لب : « نرى »

مؤلف دواوين . وقد يودى النظر إلى أنهما في طريقتين مختلفتين ، وكلاهما
مُحَسَّنٌ في بابِه ؛ إلا أنه لم يُرَ أغْبَنُ مِنَ الجاحِظِ لنفسه . إن كان واحدَ البلاغةِ
في عصره ، فما باله لم يلتَمِسْ^(١) بها شَرَفَ المنزلةِ بِشَرَفِ الصَّنعةِ ، وقد رأى ابنَ
الزِّيَّاتِ وإبراهيمَ بنَ العباسِ بَلَّغًا بها ما بَلَّغَا ، وهو يلتَمِسُ فوائِدَها وَالجاءَ بهما ؟
فلا يخلو في هذا إمَّا أن يكونَ^(٢) مُقَصِّرًا عن الكتابةِ وَجَمَعَ أدواتِها ، أو يكونَ
ساقطَ الهِمَّةِ ، أو يكونَ إفراطُ جُحُوظِ عَيْنَيْهِ قَعَدَ به عنها ، كما قَصَرَ بي أنا فيها
ثِقَلُ سَمْعِي ، وبأبي القاسمِ وَرَمَ أَنفَهُ . إذ لا بدَّ للمَلِكِ مِنْ كاتبٍ مقبولِ الصورةِ تَقَعُ
عليها عينُه ، وأُذِنَ ذَ كَيْفَهُ تَسْمَعُ منه حِسَّهُ . وأنفِ نَقِيٍّ لا تُذَمُّ أنفاسُهُ عندَ
مُقَارَبَتِهِ له . ولذلك استَحَسَّنُوا مِنَ الكاتبِ أن يكونَ طَيِّبَ الرَّائِحَةِ ، سليمَ آلاَتِ
الحَواسِّ ، نَقِيَّ الثَّوبِ ، ولا يكونَ وَسِخَ الضَّرْسِ ، مُنْقَابَ الشَّفَةِ ، مُكَحَّلَ
الْأُظْفُورِ ، وَضِرَّ الطَّوْقِ . وربما أنكَرَ مُنكَرُ قولنا في شَرَطِ جَمْعِ أدواتِ
الكتابةِ فقال : وأى أداةِ نَقَصَتِ الجاحِظُ ؟ فنقول : أولُ أدواتِ الكاتبِ العقلُ .
ولا يكونُ كاتبٌ غيرَ عاقلٍ . وقد نجدُ عالِمًا غيرَ عاقلٍ ، وجدَّ لِيًّا غيرَ حَصيفٍ ،
وفقيهاً غيرَ حَلِيمٍ . وقد وجدنا مَنْ يَنْسِبُ العقلَ إلى سَهْلٍ أَكْثَرَ مِنْ نِسْبَتِهِ^(٣)
إلى الجاحِظِ . لو شهدَ الجاحِظُ سَهْلًا يُخَادِعُ للرَّشِيدِ مُلْكا ، ويدبِّرُ^(٤) له حَرْبًا ،
ويعاني له إطفاءَ جمرَةٍ فتنةً ، مُسْتَضِلًّا في ذلك كُلِّهِ بِعَقْلِهِ . وجَوْدَةً^(٥) علمِهِ ،
لرأى أَنَّ تلكَ السَّياسَةَ غَيْرُ تَسْطِيرِ المَقالِ . في صِفَةِ غَرَامِيلِ البِغالِ ، وغيرِ
الكلامِ في الجُرْدَانِ . وبناتِ وَرْدانٍ . ولَعَلِمَ أن بينَ العالمِ والكاتبِ فَرْقًا .

(١) ر : « يلبس » (٢) ب ، لب ، ت : « من أن يكون »

(٣) هـ : « ممن ينسبه » — لب : « مما ينسبه »

(٤) ب ، لب : « يدبر » (٥) ب ، لب ، هـ : « وتجربة »

وفي فصل له :

ومن دليل تقصير عصابة المعلمين أنهم لا يُقدّمون أن يجعلوا^(١) ما يحملون من المعرفة تصنيفا ، ولا تغزّر مادّتهم أن ينشئوها تأليفا ؛ وإنما تقسو به أنقاسهم فسوا بين تلاميذهم ، ولا يقدر أن يزيد في النفخ^(٢) فيضطرّ به ضراطا يُسمع . فهم في ذلك أمثال الجنادب ، وقرناء الخنافس ، لا توازن الظربان في قوة فسائه . وإن زادت عليه في نقته . ولا يبلغون درجة الحمار الوحشي في شدة ضراطه ، وإن شاركوه في اسمه ، ولا تروى لهم نادرة . ولا تؤثّر عنهم في البلاد شاردة .

قال : ومما علم من خلق هذه العصابة إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالملق . وهم منطوون على حسدٍ وحنق . فإذا جمعتنا المحافل ، وضممتنا المجالس ، ١٠ تراهم إلينا مبصّبين ، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني زائعين . وإنما يتبين تقصير المقصّر ، وفضل السابق المبرز ، إذا اصطكت الركب ، وازدحمت الحلق ، واستعجل المقال ، ولم توجد فسحة لفكرة ، ولا أمكنت نظرة لروية ؛ أو في مجالس الملوك عند أنسها وراحتها ، فإنه يقع فيها ، ويجري لديها ، ما لا ينفع^(٣) له الاستعداد ، ولا ينفذ فيه غير الطبع والغريزة المتدفقة . فترى الجواد السابق إذا ذاك ١٥ متشوقا بأذنه ، باحثا^(٤) لكديد الإحسان بيده . طامح النظر ، صهّلق الصهيل . وأهل الصنعة خرس ، لا يسمع لهم جرس ، ولا شيء عندهم غير حسو الكاس ، وشمّ الآس ، وتنفس الصعداء ، قد اصفرّت ألوانهم . وقلصت شفاههم ، كأنهم من رجال عُذرة . وما أذكر أني فزت من هذا المجلس بخطير غير مرة . بين

(١) لب : « يجعلوا »

(٢) وه : « يرد النفخ »

(٣) ب ، لب ، وه : « يقع »

(٤) ب ، لب : « باعنا »

يَدَى هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وَالْمَجْلِسُ قَدْ غَصَّ بِالْعَائِمِ وَالطَّاهِمِ ^(١) مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ ^(٢) لِيُجَوِّبَ بَعْضَ الرُّسَاءِ عَنْ فُصُولٍ خَبِيثَةٍ حَادَّةٍ لَا جَوَابَ فِيهَا وَلَا عُذْرَ عَنْهَا . فَجَرَى مَا أَكْرَهُ ذَكَرَهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِتَعَجِيزِ أَهْلِ الْبَيْضَةِ ، وَالغَضِّ مِنَ الْأَصْحَابِ ■ عَلَى أَنَّهُمْ جُدْرَاءُ بِذَلِكَ ، لِقَلَّةِ إِنْصَافِهِمْ لَنَا ، وَتَسَلُّطِهِمْ عَلَيْنَا ، وَإِسْرَافِهِمْ فِي ثَلِينَا .

فُصُولٌ مِنْ رِسَالَةٍ سَمَّاها بِالتَّوَابِعِ وَالزَّوَابِعِ ، وَإِنْ صَدَرَتْ عَنْهُ مَصْدَرٌ هَزَلٌ ، فَتَشْتَمِلُ عَلَى يَدَائِعِ رَوَائِعِ .

قال في صدرها مخاطباً لأبي بكرٍ ابنِ حَزْمٍ :

^(٣) اللَّهُ أبا بكرَ ظَنُّ رَمَيْتِهِ فَأَصْمَيْتِ ، وَحَدَسُ أَمَلْتِهِ فَمَا أَشَوَيْتِ ! أَبَدَيْتَ ١٠
بِهِمَا وَجْهَ الْجَلِيلَةِ ، وَكَشَفْتَ عَنْ غُرَّةِ الْحَقِيقَةِ ^(٤) ، حِينَ لَحْتَ صَاحِبَكَ الَّذِي تَكَسَّبَتْهُ وَرَأَيْتَهُ قَدْ أَخَذَ بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ ، فَأَلَّفَ بَيْنَ قَمَرَيْهَا ، وَنَظَّمَ فَرْقَدَيْهَا ، فَكَلَّمَا رَأَى ثَغَرًا سَدَّهُ بِسُهَاهَا ، أَوْ لَمَحَ خَرْقًا رَمَّهُ بِزُبَانِهَا ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . فَقُلْتَ : كَيْفَ أُوتِيَ الْحُكْمَ صَبِيًّا ، وَهَزَّ بِجَذَعِ نَخْلَةِ الْكَلَامِ فَاسْأَقَطَ ^(٥) عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا ؟ أَمَا إِنْ بِهِ شَيْطَانًا ^(٥) يَهْدِيهِ ، وَشَيْصَبَانًا يَأْتِيهِ ! وَأَقْسِمُ أَنَّ لَهُ تَابِعَةً تَنْجِيْهُهُ ، وَزَايِعَةً تُؤَيِّدُهُ ، لَيْسَ هَذَا فِي قُدْرَةِ الْإِنْسِ ، وَلَا هَذَا النَّفْسُ لَهُذِهِ ١٥
النَّفْسُ . فَأَمَّا وَقَدْ قُلْتَهَا أبا بكرٍ فَأَصِخْ أَسْمَعُكَ الْعَجَبَ الْعُجَابَ :
كَنتُ أَيَّامَ كُتَّابِ الْهَجَاءِ ، أَحِنُّ إِلَى الْأَدْبَاءِ ، وَأُضْبُو إِلَى تَأْلِيفِ الْكَلَامِ ؛

(٢) ر : « البصرة »

(١) ب ، لب : « بالجماحم »

(٤) ب ، لب : « فتساقطت »

(٣-٣) نه في ر ، وه

(٥) ب ، لب : « أولى أن له سلطاناً ■ »

فَاتَّبَعْتُ الدَّوَّابَّ ، وَجَلَسْتُ إِلَى الْأَسَاتِيدِ ، فَنَبَضَ لِي عِرْقُ الْقَهْمِ ، وَدَرَّ لِي
شِرْيَانُ الْعِلْمِ ، بِمَوَادِّ رُوحَانِيَّةٍ ؛ وَقَلِيلُ الْإِلْتِمَاحِ مِنَ النَّظَرِ يَزِيدُنِي ^(١) ، وَيَسِيرُ
الْمُطَالَعَةُ مِنَ الْكِتَابِ يُفِيدُنِي ، إِذْ صَادَفَ شَنْ الْعِلْمِ طَبَقَةً . وَلَمْ أَكُنْ كَالثَّلَجِ
تَقْتَبَسُ مِنْهُ نَارًا ، وَلَا كَالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . ^(٢) فَطَعَنْتُ ثَغْرَةَ الْبَيَانِ دِرَاكًا ،
وَأَعْلَقْتُ رِجْلَ طَيْرِهِ أَشْرَاكَ ، فَانْتَالَتْ لِي الْعَجَائِبُ ، وَانْهَالَتْ عَلَى الرِّغَائِبِ ^(٣) .
وَكَانَ لِي أَوَائِلَ صَبُوتِي هَوًى أَشْتَدَّ بِهِ كَلْفِي ، ثُمَّ لَحِقَنِي بَعْدُ مَلَلٌ فِي أَثْنَاءِ
ذَلِكَ التَّهَيُّلِ . فَاتَّفَقَ أَنْ مَاتَ مَنْ كُنْتُ أَهْوَاهُ مَدَّةً ^(٤) ذَلِكَ الْمَلَلِ ، فَجَزَعْتُ
وَأَخَذْتُ فِي رِثَائِهِ يَوْمًا فِي الْحَائِرِ ، وَقَدْ أَهْمَمْتُ عَلَى أَبْوَابِهِ ، وَانْفَرَدْتُ فَقُلْتُ :

تَوَلَّى الْحِمَامُ بَطْنِي الْخُدُورِ وَفَارَزَ الرَّدَى بِالْغَزَالِ الْغَرِيرِ

إِلَى أَنْ أَتَيْتُ إِلَى الْإِعْتِذَارِ مِنَ الْمَلَلِ الَّذِي كَانَ ، فَقُلْتُ :

وَكُنْتُ مَلِئْتُكَ لَا عَنْ قَلِي وَلَا عَنْ فُسَادِ جَرَى فِي ضَمِيرِي

فَأَرْتَبِجُ عَلَى الْقَوْلِ وَأُفْحِمْتُ ، فَإِذَا أَنَا بِفَارِسٍ بِيَابِ ^(٥) الْمَجْلِسِ عَلَى فَرَسٍ
أَذْهَمَ كَمَا بَقَلَ وَجْهُهُ ، قَدْ أَتَكَأَ عَلَى رُحْمِهِ ، وَصَاحَ بِي : أَعْجَزًا يَا فَتَى الْإِنْسِ ؟
قُلْتُ : لَا وَأَبِيكَ ، لِلْكَلامِ أَحْيَانًا ، وَهَذَا شَأْنُ الْإِنْسَانِ ! قَالَ لِي : قُلْ بَعْدَهُ :

كَمِثْلِ مَلَالِ الْفَتَى لِلنَّعِيمِ إِذَا دَامَ فِيهِ وَحَالِ الشَّرُورِ

فَأُثْبِتُ إِجَازَتَهُ ، وَقُلْتُ لَهُ : بِأَبِي أَنْتَ ! مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا زُهَيْرُ بْنُ نُصَيْرٍ مِنْ
أَشْجَعِ الْجَنِّ . فَقُلْتُ : وَمَا الَّذِي حَدَاكَ إِلَى التَّصَوُّرِ لِي ؟ فَقَالَ : هَوًى فِيكَ .

(١) ب ، لب : « يوقدني » (٢-٢) نه في ب ، لب

(٣) ب ، لب : « لائر » (٤) ب ، لب : « على باب »

وَرَغْبَةٌ فِي اصْطِفَائِكَ قُلْتُ : أَهْلًا بِكَ أَيُّهَا الْوَضَّاحُ ، صَادَفَتْ قَلْبًا إِلَيْكَ
مَقْلُوبًا ، وَهَوَى نَحْوَكَ مَحْنُوبًا ^(١) . وَتَحَادَّثْنَا ^(٢) حِينًا ثُمَّ قَالَ : مَتَى سِتُّ
اسْتِحْضَارِي فَأَنْشِدْ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ :

وَإِلَى زُهَيْرِ الْحُبِّ يَا عَزَّ إِنَّهُ إِذَا ذَكَرْتَهُ الذَّاكِرَاتُ أَتَاهَا
إِذَا جَرَتْ الْأَفْوَاهُ يَوْمًا بِذِكْرِهَا يُخَيَّلُ لِي أَنِّي أَقْبَلُ فَاهَا
فَأَغْشَى دِيَارَ الذَّاكِرِينَ وَإِنْ نَأَتْ أَجَارِعُ مِنْ دَارِي هَوَى لَهَا

وَأَوْتَبَ الْأَدَمَ جِدَارَ الْحَائِطِ ثُمَّ غَابَ عَنِّي . وَكُنْتُ أَبَا بَكْرٍ مَتَى أُرْتَبَجَ عَلَيَّ ،
أَوْ انْقَطَعَ بِي مَسَلِّكَ ، أَوْ خَانَنِي أُسْلُوبُ أَنْشِدُ الْأَبْيَاتَ فَيُمَثِّلُ لِي صَاحِبِي ، فَأَسِيرُ
إِلَى مَا أَرْغَبُ ، وَأُذْرِكُ بِقَرِيحَتِي مَا أَطْلُبُ . وَتَأَكَّدْتُ صُحْبَتُنَا وَجَرَتْ قِصَصُ
لَوْلَا أَنْ يَطُولَ الْكِتَابُ لَذَكَرْتُ أَكْثَرَهَا ، لَكِنِّي ذَاكِرٌ بَعْضَهَا . ١٠

فصل:

تَذَاكَرْتُ يَوْمًا مَعَ زُهَيْرِ بْنِ نُمَيْرٍ أَخْبَارَ الْخُطَبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ ، وَمَا كَانَ
يَأْلَفُهُمْ مِنَ التَّوَابِعِ وَالزَّوَابِعِ ، وَقُلْتُ : هَلْ حِيلَةٌ فِي لِقَاءِ مَنْ اتَّفَقَ مِنْهُمْ ^(٣) ؟
قَالَ : حَتَّى أَسْتَأْذِنَ شَيْخَنَا . وَطَارَ عَنِّي ثُمَّ انْصَرَفَ ^(٤) كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ^(٥) ، وَقَدْ
أَذِنَ لَهُ ، فَقَالَ : حُلَّ عَلَى مَتْنِ الْجَوَادِ ^(٦) . فَصَرْنَا ^(٧) عَلَيْهِ ؛ وَسَارَ بِنَا كَالطَّائِرِ
يَجْتَنِبُ الْجَوَّ فَالْجَوَّ ، وَيَقْطَعُ الدَّوَّ فَالدَّوَّ ، حَتَّى التَّمَحَّتْ أَرْضًا لَا كَأَرْضِنَا ،
وَشَارَفَتْ جَوًّا لَا كَجَوِّنَا ، مَتَفَرِّعَ الشَّجَرِ ، عَطِرَ الزَّهْرِ ؛ فَقَالَ لِي : حَلَّتْ

(١) ب ، لب : « محبوبا » (٢) من هنا إلى نهاية هذا الفصل ناقص في ر ، و

(٣) ب ، لب : « هذه الطوائف » (٤ — ٥) ر في ر ، و

(٥) ب ، لب ، و : « الأدم » (٦) ر ، و ، لب : « فسرنا »

أَرْضَ الْجَنِّ أَبَا عَامِرٍ ، فَمَنْ تُرِيدُ أَنْ نَبْدَأَ ؟ قُلْتُ : الْخُطْبَاءُ أَوَّلِيَّ بِالْتَّقْدِيمِ .
لَكِنِّي إِلَى الشُّعْرَاءِ أَشْوَقُ . قَالَ : فَمَنْ تُرِيدُ مِنْهُمْ ؟ قُلْتُ : صَاحِبَ امْرِئِ
الْقَيْسِ . فَأَمَّا الْعِنَانُ إِلَى وَادٍ مِنَ الْأَوْدِيَةِ ذِي دَوْحٍ تَتَكَسَّرُ أَشْجَارُهُ . وَتَقَرَّبُ
أُطْيَارُهُ ، فَصَاحَ : يَا عَتِيبَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، بِسِقْطِ اللَّوَى فَحَوِّمِلْ ، وَيَوْمَ دَارَةِ
جُلْجُلٍ ، إِلَّا مَا عَرَضْتَ عَلَيْنَا وَجْهَكَ ، وَأَنْشِدْنَا مِنْ شِعْرِكَ . وَسَمِعْتُ مِنْ
الْإِنْسِيِّ « وَعَرَفْتُنَا كَيْفَ إِجَازَتُكَ لَه ! فَظَهَرَ لَنَا فَارِسٌ عَلَى فَرَسٍ شَقْرَاءَ كَانَهَا
تَلْتَهَبُ ، فَقَالَ : حَيَّاكَ اللَّهُ يَا زُهَيْرُ ، وَحَيَّا صَاحِبَكَ ! أَهَذَا فَتَاهُمْ ^(١) ؟ قُلْتُ : هُوَ
هَذَا ، وَأَيُّ حَجَرَةٍ ^(٢) يَاعْتِيبَةُ ! فَقَالَ لِي : أَنْشِدْ ، فَقُلْتُ : السَّيِّدُ أَوَّلِيَّ بِالْإِنْشَادِ .
فَتَطَامَحَ طَرْفُهُ ، وَاهْتَزَّ عِطْفُهُ ، وَقَبِضَ عِنَانَ الشُّقْرَاءِ ، وَضَرَبَهَا بِالسَّوْطِ ، فَسَمِعْتُ
تُخَضِرُ طَوْلًا عَنَّا ، وَكَرَّرَ فَاسْتَقْبَلْنَا بِالصَّعْدَةِ هَازًا لَهَا ، ثُمَّ رَكَرَهَا وَجَعَلَ يُنْشِدُ :
* سَمَّاكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا ^(٣) *

حَتَّى أَكْمَلَهَا ثُمَّ قَالَ لِي : أَنْشِدْ . فَهَمَمْتُ بِالْحَيْصَةِ ، ثُمَّ اشْتَدَّتْ قُوَى نَفْسِي
وَأَنْشَدْتُ :

* شَجَّتُهُ مَعَانٍ مِنْ سُلَيْمَى وَأَدْوُرُ *

١٥

حَتَّى انْتَهَيْتُ فِيهَا إِلَى قَوْلِي :

وَمِنْ قُبَّةٍ لَا يُدْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَهَا تَزَلُّ بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَتَحْدَرُ
تَكَلَّفْتُهَا ^(١) وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بِحَرِّهِ وَقَدْ جَعَلَتْ أُمُوجُهُ تَتَكَسَّرُ
وَمِنْ تَحْتِ حِصْنِي أَيْضٌ ذُو سَفَاسِقٍ وَفِي الْكَفِّ مِنْ عَسَالَةِ الْخَطِّ أَسْمَرُ
هُمَا صَاحِبَايَ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يَافِعًا مُقِيلَانِ مِنْ جَدِّ الْفَتَى حِينَ يَعْتَرُ

(١) هـ : « أَهَذَا هُوَ فُلَانٌ » (٢) ب ، لب : « حَجَرَةٌ هُوَ »

(٣) العقد الثمين ص ١٢٨ (٤) ب ، لب : « تَكَلَّفْتُهَا »

فَذَا جَدُولٌ فِي الْعَمْدِ تُسْقَى بِهِ الْمُنَى وَذَا غُصْنٌ فِي الْكَفِّ يُجْنَى فَيْثُمُ
فَلَمَّا اتَّهَيْتُ تَأَمَّلْنِي عُتْبِيَّةُ ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَقَدْ أَجَزْتُكَ . وَغَابَ عَنَّا ، فَقَالَ
لِي زُهَيْرٌ : مَنْ تُرِيدُ بَعْدُ ؟ قُلْتُ : صَاحِبَ طَرْفَةٍ . فَجَزَعْنَا وَادَى عُتْبِيَّةَ ، وَرَكَضْنَا
حَتَّى اتَّهَيْنَا إِلَى غَيْضَةِ شَجَرِهَا شَجَرَانِ : سَامٌ يَقُوحُ بِهَارَا ، وَشَجَرٌ يَعْبِقُ ^(١)
هَنْدِيًّا وَغَارَا . فَرَأَيْنَا عَيْنًا مَعِينَةً تَسِيلُ ، وَيَدُورُ مَاؤُهَا فَلَكِيًّا وَلَا يَحُولُ . فَصَاحَ
بِهِ زُهَيْرٌ : يَا عَنَتْرُ بْنُ الْعَجَلَانَ ، حَلَّ بِكَ زُهَيْرٌ وَصَاحِبُهُ ، فَبِخَوَلَةٍ ، وَمَا قَطَعْتَ
مَعَهَا مِنْ لَيْلَةٍ ، إِلَّا مَا عَرَضْتَ وَجْهَكَ لَنَا ! فَبَدَأَ إِلَيْنَا رَاكِبٌ جَمِيلُ الْوَجْهِ ، قَدْ
تَوَشَّحَ السَّيْفَ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِسَاءُ خَزٍّ ، وَبِيَدِهِ خَطِيٌّ ، فَقَالَ : مَرَحَبًا بِكُمَا
وَاسْتَنْشَدَنِي فَقُلْتُ : الزَّعِيمُ أَوْلَى بِالْإِنْشَادِ ۖ فَأَنْشَدَ :

* لِسُعْدَى بِحَزَانِ الشَّدِيفِ طُلُولُ ^(٢) *

١٠

حَتَّى أَكْمَلَهَا ، فَأَنْشَدْتُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

* أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ بِالْعَقِيقِ مُحِيلِ ■

حَتَّى اتَّهَيْتُ إِلَى قَوْلِي :

وَلَمَّا هَبَطْنَا الْغَيْثَ تُذَعْرُ وَخَشُهُ عَلَى كُلِّ خَوَارٍ الْعِنَانِ أُسِيلُ
وَنَارَتْ بَنَاتُ الْأَعْوَجِيَّاتِ بِالضُّحَى أَبَابِيلَ مِنْ أَعْطَافٍ غَيْرِ وَبِيلِ
مُسَوِّمَةً نَعْتَدُهَا مِنْ خِيَارِهَا لَطَرْدٍ قَنِيصٍ أَوْ لَطَرْدٍ رَعِيلِ
إِذَا مَا تَغَنَّى الصَّحْبُ فَوْقَ مُتُونِهَا ضَحِيًّا أَجَابَتْ تَحْتَهُمْ بِصَهِيلِ ^(٣)
نَدُوسُ بِهَا أَبْنَكَارَ نَوْرٍ كَأَنَّهُ رَدَاءُ عَرُوسٍ أُودِنَتْ بِحَلِيلِ
رَمَيْنَا بِهَا عَرَضَ الصَّوَارِ ^(٤) فَأَقْعَصَتْ أَغْنَى قَتْلَنَاهُ بِغَيْرِ قَتِيلِ

١٥

(٢) رواية العقد الثمين ص ٦٨ « لهند ... »

(١) هـ ١ « يقضم »

(٤) هـ . « السواد »

(٣) هـ في ب ، لب

- وبادَرَ أُنْحَابِي النُّزُولَ فَأَقْبَلْتُ كَرَادِيسُ مِنْ غَضِّ الشَّوَاءِ نَشِيلِ
نُمَسِّحُ بِالْجُودَانِ مِنْهُ أَكُفْنَا إِذَا مَا اقْتَنَصْنَا مِنْهُ غَيْرَ قَلِيلِ ^(١)
فَقَلْنَا لَسَاقِيهَا ^(٢) أَدْرِهَا سُلَاقَةً شَمُولًا وَمِنْ عَيْنَيْكَ صِرْفَ شَمُولِ
فَقَامَ بِكَاسِئِهِ طُيْعًا لِأَمْرِنَا يَمِيلُ بِهِ الْإِذْلَالُ كُلَّ مَمِيلِ
وَشَعَشَعَ رَاحِيَهُ ^(٣) فَمَا زَالَ مَائِلًا بِرَأْسِ كَرِيمٍ مِنْهُمْ وَتَلِيلِ
إِلَى أَنْ ثَنَاهُمْ رَاكِدِينَ لِمَا احْتَسَوْا خَلِيعِينَ مِنْ بَطْشٍ وَفَضْلِ عُقُولِ
نَشَاوَى عَلَى الزَّهْرَاءِ، صَرَغَى كَانَهُمْ ^(٤) أَسَاطِينُ قَصْرِ ^(٥) أَوْ جُدُوعُ نَخِيلِ
فَصَاحَ عَمْتَرُ: اللَّهُ أَنْتَ ! اذْهَبْ فَإِنَّكَ مُجَارٌ ^(٦) . وَغَابَ عَنَّا. ^(٧) ثُمَّ مَلْنَا
عَنهُ ^(٧) ، فَقَالَ لِي زُهَيْرٌ : إِلَى مَنْ تَتَوَقُّ نَفْسُكَ بَعْدُ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ ؟ قُلْتُ :
كَفَانِي مَنْ رَأَيْتُ ؛ أَصْرَفَ وَجْهَ قَصْدِنَا إِلَى صَاحِبِ أَبِي تَمَّامٍ ؛ فَرَكَضْنَا
ذَاتَ الْيَمِينِ حِينًا ، وَيَشْتَدُّ فِي إِثْرِنَا فَارَسٌ كَأَنَّهُ الْأَسَدُ ، عَلَى فَرَسٍ كَأَنَّهَا الْعُقَابُ .
وَهُوَ فِي عَدُوهِ ذَلِكَ يُنْشِدُ :
طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرٍ لَهَا نَقْدٌ لَوْلَا السَّمَاعُ أَضَاءَهَا ^(٨)
فَاسْتَرَبْتُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِي زُهَيْرٌ : لَا عَلَيْكَ ، هَذَا أَبُو الْخَطَّارِ صَاحِبُ قَيْسِ
ابْنِ الْخَطِيمِ . فَاسْتَجَبِي لُبِّي مِنْ إِنْشَادِهِ الْبَيْتَ ، وَازْدَدْتُ خَوْفًا لَجُرْأَتِهِ ، وَأَنَا لَمْ
نُعَرِّجْ عَلَيْهِ . فَصَرَفَ إِلَيْهِ زُهَيْرٌ وَجْهَ الْأَذْهَمِ ، وَقَالَ : حَيَّاكَ اللَّهُ أَبَا الْخَطَّارِ !
فَقَالَ : أَهَكَذَا يُحَادُّ عَنْ أَبِي الْخَطَّارِ ، وَلَا يُحْطَرُّ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : عَلِمْنَاكَ صَاحِبَ

(٢) م : « لساقينا »

(١) هذا البيت ناقص في ر ، م

(٤) ر ، م : « حتى »

(٣) ب ، لب : « ساقيه »

(٦) ب ، لب : « فقد أجزتك »

(٥) ب ، لب : « ترى »

(٨) راجع ديوانه ص ٣

(٧-٧) م في ر ، م

قَنْصَ، وَخِفْنَا أَنْ نَشْغَلَكَ . فَقَالَ لِي : أَنْشِدْنَا يَا أَشْجَعِي ، وَأَقِمْ أَنْكَ إِنْ لَمْ تُجِدْ
لِيَكُونَنَّ يَوْمَ شَرٍّ . فَأَنْشَدْتُهُ قَوْلِي مِنْ قَصِيدَةٍ :

* مَنَازِلُهُمْ تَبْكِي إِلَيْكَ ^(١) عَفَاءَهَا *

ومنها ^(٢) :

٥ خَلِيلِي عُوْجًا بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ
فَلَمْ أَرِ أَسْرَابًا كَأَسْرَابِهَا الدُّمَى ^(٣)
وَلَا كَضَالٍ كَانَ أَهْدَى لَصَبُوتِي
وَمَا هَاجَ هَذَا الشَّوْقُ إِلَّا حَمَائِمُ
عَجِبْتُ لِنَفْسِي كَيْفَ مُلِّكَهَا الْهَوَى
وَلَوْ أَنَّي أَنْحَتُ عَلَى أَكَارِمُ
١٠ وَلَكِنْ جِرْدَانِ الثُّغُورِ رَمَيْتَنِي
إِلَيْكَ أَمَا مَرَوَاتِ أَلْقَيْتُ رَابِيًا
هَزَزْتُكَ فِي نَضْرِي ضُحَى فَكَانَنِي
نَقَضْتُ عُرَى عَزَمِ الزَّمَانِ وَإِنْ عَتَا
بِدَارَتِهَا الْأُولَى نُحَى فِنَاءَهَا
وَلَا ذِئْبَ مِثْلِي قَدَرَعَى شَمَّ شَاءَهَا
لِيَالِي يَهْدِينِي الْغَرَامُ خِبَاءَهَا
بَكَيْتُ لَهَا لَمَّا سَمِعْتُ بُكَاءَهَا
وَكَيْفَ اسْتَفَزَّ الْغَايَاتِ إِبَاءَهَا ؟
تَرَضَّيْتُ بِالْعَرَضِ الْكَرِيمِ جَزَاءَهَا
فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ تُرِيقَ دِمَاءَهَا
بِحَاجَةٍ نَفْسٍ مَا حَرَبْتُ خَزَاءَهَا ^(٤)
هَزَزْتُ وَقَدْ جِئْتُ الْجِبَالَ حِرَاءَهَا
بِعِزْمَةٍ نَفْسٍ لَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا

١٥ فَلَمَّا انْتَهَيْتُ تَبَسَّمْ وَقَالَ : لَنِعَمَ مَا تَخَلَّصْتَ ! اذْهَبْ فَقَدْ أَجَزْتُكَ . ثُمَّ
انْصَرَفْنَا وَرَكَضْنَا حَتَّى اتَّهَيْنَا إِلَى شَجَرَةٍ غِيْنَاءَ ، يَتَفَجَّرُ مِنْ أَصْلِهَا عَيْنٌ كَقَلَّةِ
حَوْزَاءَ . فَصَاحَ زُهَيْرٌ : يَا عَتَّابُ بْنُ حَبْنَاءَ ، حَلَّ بِكَ زُهَيْرٌ وَصَاحِبُهُ ، فَبِعَمْرٍو
وَالْقَمَرِ الطَّالِعِ ، وَبِالرُّقْعَةِ الْمَكْشُوكَةِ ^(٥) الطَّابِعِ ، إِلَّا مَا أَرَيْتُنَا وَجْهَكَ ! فَانْفَلَقَ

(١) ب ، لب : « عليك » (٢) مايلي إلى آخر القصيدة ناقص في م

(٣) ب ، لب : « الأولى » (٤) الأبيات الثلاثة الأخيرة ناقصة في ر

(٥) م : « المكشوفة »

ماء العين عن وجهه فتى كفلقة القمر ، ثم اشتق الهواء صاعداً إلينا من قعرها
حتى استوى معنا . فقال : حيّاك الله يا زهير ، وحيا صاحبك ! فقلت : وما الذي
أسكنك قعر هذه العين يا عتاب ؟ قال : حياي من التحشّن باسم الشعر وأنا
لا أحسنه . فصحت : ويلي منه ، كلامٌ محدث وربّ الكعبة ! واستنشدني فلم
أنشده إجلالاً له ، ثم أنشدته :

* أبكيت^(١) ، إذ ظعن الفريق ، فراقها ■

حتى انتهيت فيها إلى قولي^(١) :

إني امرؤٌ لعب الزمان بهمتي وسقيت من كأس الخطوب دهاقها
وكبوت طرفاً في العلاف استضحكت حمر الأنام فما تريم نهاقها
وإذا ارتمت نحوي المنى لأنالها وقف الزمان لها هناك فعاقها^(٢) ١٠
وإذا أبو يحيى تأخر نفسه فمتى أوئل في الزمان لحاقها ؟

فلما انتهيت قال : أنشدني من ربائك . فأنشدته :

أعينا امرأاً نزحت عيْنُه ولا تعجبا من جفون جِداد^(٣)
إذا القلب أحرقه بشه فإن المدامع تلو^(٤) الفؤاد
يود^(٥) الفتى مهلاً خالياً وسعد النية في كل واد^(٦) ١٥
ويصرف^(٧) للكون ما في يديه م وما الكون إلا نذير الفساد^(٨)

(١-١) هـ في ب ، لب (٢) هذا البيت والذي يليه ناقصان في ر ■ هـ

(٣) هذا البيت والذي يليه ناقصان في ب ، لب (٤) هـ : « تلوى »

(٥) هـ : « يرود » (٦) بهامش نسخة لب : « اشارة الى المثل : في كل واد

بنو سعد » (٧) ر : « ويطوف » (٨) هذا البيت ناقص في ب ، لب

لَقَدْ عَثَرَ الدَّهْرُ^(١) بِالسَّابِقِينَ وَلَمْ يُعْجِزِ الْمَوْتَ رَكْضُ الْجَوَادِ
لَعَمْرُكَ مَا رَدَّ رَيْبَ الرَّدَى^(٢) أَرَيْبٌ وَلَا جَاهِدٌ^(٣) بِاجْتِهَادِ
سِهَامُ الْمَنَاءِ تُصِيبُ الْفَتَى وَلَوْ ضَرَبُوا دُونَهُ بِالسَّدَادِ^(٤)
أَصَبْنَ^(٥) عَلَى بَطْشِهِمْ جُرْهُمَا وَأَصْمَيْنَ فِي دَارِهِمْ^(٦) قَوْمَ عَادِ
وَأَقْعَضَنَ كَلْبًا عَلَى عِرِّهِ فَمَا اعْتَزَّ بِالصَّافِنَاتِ الْحِيَادِ

إلى أن انتهت فيها إلى قولي :

وَلَكِنِّي خَانِي مَعْشَرِي وَرُدْتُ يَفَاعًا وَبَيْلَ الْمَرَادِ
وَهَلْ ضَرَبَ السَّيْفُ مِنْ غَيْرِ كَفٍّ؟^(٧) وَهَلْ ثَبَتَ^(٨) الرَّأْسُ فِي غَيْرِ هَادٍ؟
فَقَالَ : زِدْنِي مِنْ رِثَائِكَ وَتَحْرِضِكَ ، فَأَنشَدَنِي :

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَضْرَعٌ لِعَظِيمٍ؟^{١٠} أَصَابَ الْمَنَاءُ حَادِي وَقَدِيمِي
هَوَى قَمَرًا قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ أَنْفًا وَأَوْحَشَ مِنْ كَلْبٍ مَكَانُ زَعِيمِ
فَكَيْفَ لِقَائِي الْحَادِثَاتِ إِذَا سَطَتْ وَقَدْ فُلَّ سِنِّي مِنْهُمْ وَعَزِيمِي؟
وَكَيْفَ اهْتِدَائِي فِي الْخُطُوبِ إِذَا دَجَّتْ وَقَدْ فَقَدْتُ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِ؟
مَضَى السَّلَفُ الْوَضَّاحُ إِلَّا بَقِيَّةً كَغُرَّةٍ مُسَوِّدٍ الْقَمِيصِ بَهِيمِ

١٥ وَمِنْهَا :

رَمَيْتُ بِهَا الْآفَاقَ عَنِّي غَرِيبَةً نَتِيجَةً خَفَاقِ الضُّلُوعِ كَظِيمِ

(١) ب ، لب : « الموت » (٢) ب ، لب : « المنون »

(٣) ب ، لب : « حازم » (٤) هذا البهت ناقص في ب ، لب

(٥) ب ، لب : « أصاب » (٦) ب ، لب : « وأصبي بدارهم »

(٧) ب ، لب : « يضرب » (٨) و : « ثبت »

لأُبْدِي إِلَى أَهْلِ الْحِجَا مِنْ بَوَاطِنِي وَأُذِلِّي بِعُذْرٍ فِي ظَوَاهِرِ ^(١) لُومِ
أَنَا السَّيْفُ لَمْ تَتَّعِبْ بِهِ كَفَّ ضَارِبِ ^(٢) صَرُومٌ إِذَا صَادَفْتُ كَفَّ صَرُومِ ^(٣)
سَعَيْتُ بِأَحْرَارِ الرِّجَالِ فَخَانَنِي رِجَالٌ وَلَمْ أَنْجِدْ بِجِدِّ عَظِيمِ
وَضِيْعِي الْأَمْلَاكُ بَدْءًا وَعَوْدَةٌ ^(٤) فَضِغْتُ بِدَارِ مِنْهُمْ وَحَرِيمِ

■ فقال : إِنْ كُنْتَ وَلَا بُدَّ قَائِلًا ، فَإِذَا دَعَنْتَ نَفْسَكَ إِلَى الْقَوْلِ فَلَا تَكْذُبْ قَرِيحَتَكَ ،
فَإِذَا أَكْمَلْتَ فَجَاهُ ثَلَاثَةَ لَا أَقْلَ . وَنَفِّحْ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتَذَكَّرْ قَوْلَهُ :

وَجَشَّعَنِي خَوْفُ ابْنِ عَفَّانَ رَدَّهَا فَتَقَفَّتْهَا حَوْلًا كَرِيئًا وَمَرْبَعًا
وَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي عَلَيْهَا زِيَادَةٌ فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَنْ أُطِيعَ وَأُسْمَعَا

وما أنت إِلَّا مُحْسِنٌ عَلَى إِسَاءَةِ زَمَانِكَ . فَقَبَّلْتُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَغَاصَ فِي الْعَيْنِ .
ثم قَالَ لِي زُهَيْرٌ : مَنْ تُرِيدُ بَعْدَهُ ؟ قُلْتُ : صَاحِبَ أَبِي نُوَّاسٍ ، قَالَ : هُوَ ^{١٠}
بَدِيرُ حَنَّةَ ^(٥) مِنْذُ أَشْهَرِ ^(٥) ، قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْحَمْرُ ، وَدِيرُ حَنَّةَ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ .
وَعَرَضَهُ عَلَيَّ ، فَإِذَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَرَاخٌ . فَرَكَضْنَا سَاعَةً ، وَجُرْنَا فِي رَكْضِنَا بِقَصْرِ
عَظِيمٍ قَدَّامَهُ نَاوَرْدُ ^(٦) يَتَطَارَدُ فِيهِ فُرْسَانٌ ، فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ يَا زُهَيْرُ ؟
قَالَ : لَطَوْقِ بْنِ مَالِكٍ ؛ وَأَبُو الطَّبَّعِ صَاحِبُ الْبُحْتَرِيِّ فِي ذَلِكَ النَّوَرْدِ ، فَهَلْ
لَكَ فِي أَنْ تَرَاهُ ؟ قُلْتُ : أَلْفُ هَلْ ^(٧) ، إِنَّهُ لِمَنْ أَسَاتِيذِي ، وَقَدْ كُنْتُ أَنْسِيْتُهُ . ^{١٥}
فَصَاحَ : يَا أَبَا الطَّبَّعِ ! أَخْرِجْ إِلَيْنَا فَتَقَى عَلَيَّ فَرَسٍ أَشْعَلَ ، وَيَبِيدُهُ قَنَاةٌ ،

(١) ب ، لب ، وه : « بواطن » (٢) ب ، لب : « له »

(٣) وه : « صريم » (٤) ب : « عوداً وبدءاً »

(٥-٥) وه في ر ، وه (٦) ب ، لب : « ماء ورنده »

(٧) وه : « أجل »

(١) فقال له زهير: إنك مُؤتمنا، فقال: لا، صاحبك أشمخُ مارنا من ذلك لولا أنه ينقصه. قلت: أبا الطبع، على رسلك، إن الرجال لا تُكالُ بالقُفران. أنشدنا من شعرك (١). فأنشد:

* ما على الركب من وقوف الركب (٢) *
 حتى أكملها، ثم قال: هات إن كنت قلت شيئا (٣). فأنشدته:
 * هــذِهِ دَارُ زَيْنَبِ وَالرَّيَّابِ *

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي:

وارتكضنا حتى مضى الليل يسعى
 فكان النجوم في الليل جيش
 وكان الصباح قانص طير
 وفتور سروا وقد عكف الله
 وكان النجوم لما هدتهم
 يتقرون جوز (٥) كل فلاة
 عن ذكرى لمدحهم فتأهوا
 همة (٦) في السماء تسحب ذيلاً
 ولو أن الدنيا كريمة نجر
 وأتى الضبح قاطع الأسباب (٤)
 دخلوا الكُمون في جوف غاب
 قبضت كفهُ برجل غراب
 ل وأزخى مُعدودن الأطناب
 أشرقت للعيون من آداب
 جُنح ليل جوزاؤه من ركب
 من حديدي في عرض أمر عجاب
 من ذيول العلا وجد (٧) كابي
 لم تكن طعمة لفرس (٨) الكلاب

(١-١) هـ في ب، لب (٢) راجع ديوان البحتری (ج ٢ ص ١٠٩)

(٣) ر: «ان قلت شيئا» — ب، لب، هـ: «إن كنت شيئا»

(٤) هذا البيت ناقص في ر، هـ (٥) هـ: «جو» — ب: «جون»

(٦) ب، لب: «سمة» (٧) هـ: «وجدى»

(٨) ب، لب، هـ: «لبرس»

جَيْفَةً أَنْتَنْتَ فَطَارَ إِلَيْهَا مِنْ بَنِي دَهْرٍهَا قِرَاحُ الذُّبَابِ
وَمِنْهَا يَفْخَرُ :

مِنْ شُهَيْدٍ فِي سِرِّهَا ثُمَّ مِنْ أَشْ جَجَعَ فِي السَّرِّ مِنْ لُبَابِ اللُّبَابِ
خُطْبَاءُ الْأَنَامِ إِنْ عَنْ خُطْبٍ وَأَعَارِبُ فِي مُثُونِ عِرَابِ

- (١) حتى أكلتها (١). فكأنما غشي وجهه (٢) أبي الطبع قطعة من الليل . وكرر
راجعا إلى نأوردده دون أن يسلم . فصاح به زهير : أأجزته ؟ قال : أجزته (٣) ،
لا بورك فيك من زائر ، (٤) ولا في صاحبك أبي عامر (٥) ! فضرب (٥) زهير
الأدهم بالسوط ، فسار بنا في قننته (٥) ، وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير
حنّة ، فشق (٦) سمعى قرع النواقيس ، فصحت : من منازل أبي نواس ورب
الكعبة القلياء ! وسرنا نجتأ أديارا وكنائس وحانات . حتى انتهينا إلى دير
عظيم تعبق روائحه . وتصوك نوافحه (٧) . فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على
أهل دير حنّة ! فقلت زهير : أو هل صرنا (٨) بذات الأكيراح ؟ قال : نعم .
وأقبلت (٩) نحونا الرهّابين ، مُشدّدة (١٠) بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز .
بيض الحواجب واللحى ، إذا نظروا إلى المرء استحيا ، مكثرين للتسبيح ، عليهم
هذى المسيح . فقالوا : أهلا بك يا زهير من زائر . وبصاحبك أبي عامر ! ١٥

(١-١) هـ في ر ، و (٢) ب ، لب : « على »

(٣) ر ، و : « أجزت » (٤-٤) هـ في ر ، و

(٥-٥) هـ في ب ، لب (٦) و : « ففتق »

(٧) ر ، ب : « نوافحه » (٨) ب ، لب : « أو قد صرنا »

(٩) ب ، لب ، و : « وأرقلت »

(١٠) و : « مشدودة » - ب ، لب : « مشتدة »

ما بُعِثْتُكَ؟ قال: حُسَيْنُ الدَّنان. قالوا: إِنَّهُ لَفِي شُرْبٍ ^(١) الْحَمْرَةِ، منذُ أَيَّامٍ عَشْرَةٍ، وما نَرَاكُمَا مُنْتَفِعَيْنِ بِهِ. فقال: وعلى ذلك. ونزلنا وجاءوا بنا إلى بَيْتٍ قد اصْطَفَتْ دِنَانُهُ، وعَكَفَتْ غِزْلَانَهُ، وفي فُرْجَتِهِ شَيْخٌ طَوِيلُ الْوَجْهِ وَالسَّبِيلَةِ، قد افْتَرَشَ أَضْغَاثَ زَهْرٍ، وَاثَكَا عَلَى زِقِّ خَمْرٍ، وبِيَدِهِ ^(٢) طَرْجَهَارَةٌ، وَحَوَالِيهِ صِنِيَّةٌ كَأَنْظَبٍ تَعْطُو إِلَى عَرَّازَةٍ. فصاح به زُهَيْرٌ: حَيَّاكَ اللهُ أبا الإحسان! فجوابٌ بجوابٍ لَا يُعْقِلُ لَغَلْبَةِ الْخَمْرِ عَلَيْهِ. فقال لى زُهَيْرٌ: اقْرَعِ أُذُنَ نَشْوَتِهِ ^(٣) بِإِحْدَى خَمْرِيَّاتِكَ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَنَبَّهَ لِبَعْضِ ذَلِكَ. فصَحَّتْ ^(٤) أَنْشِدُ مِنْ كَلَمَةٍ لى طَوِيلَةٍ:

وَلَرُبَّ خَانَ قَدْ أَدْرَتْ بِدِيرِهِ خَمْرُ الصَّبَا مُزَجَّتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ
فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا الزَّقَاقَ تِكَاءَهُمْ مُتَصَاغِرِينَ تَحْشُشًا لِكَبِيرِهِ
وَالَى عَلَى بَطْرِفِهِ وَبِكَفِّهِ فَأَمَّا مَنْ رَأَى لِعَبِّ كَبِيرِهِ
وَتَرَنَّمَ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ فَفَتَحَتْ مِنْ عَيْنِي لِارْجَعِ هَدِيرِهِ
يُهْدِي إِلَيْنَا الرِّيحَ كُلُّ مُعْصِفٍ ^(٥) كَالْخِشْفِ خَفَرُهُ التِّمَاحُ خَفِيرِهِ ^(٦)

فصاح من حَبَائِلِ نَشْوَتِهِ: أَأَشْجَعِي؟ قلتُ: أَنَا ذَاكَ! فاستدعى ماءً قَرَّاحًا، فَشَرِبَ مِنْهُ وَغَسَلَ وَجْهَهُ، فَأَفَاقَ واعتذر إلىَّ مِنْ حَالِهِ. فأدرَكْتَنِي مَهَابَتُهُ، وَأَخَذْتُ فِي إِجْلَالِهِ، لِمَكَانِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّعْرِ. فقال لى: أَنْشِدْ، أَوْ حَتَّى أَنْشِدَكَ؟ فقلتُ: إِنَّ ذَلِكَ لِأَشَدُّ لَتَأْنِيسِي ^(٧). على أَنَّهُ ما بعدُكَ لِمُحْسَنِ إِحْسَانٍ، فَأَنْشِدْ:

(١) ب، لب، وه: «شرك» (٢) ب، لب: «ويمينه»

(٣) ر: «أذنيه» (٤) ب، لب: «فصرخت»

(٥) ب: «مصفر» — لب: «مصفن» (٦) هذا البيت ناقص في ر، وه

(٧) ر: «لأشد من تأنيسي» — ب، لب، ت: «لأهدأ تأنيسا»

يَا دَيْرَ حَنَّةٍ مِنْ ذَاتِ الْأَكْبَرِاحِ مِنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي ^(١)
يَعْتَادُهُ كُلُّ مُحْفُوفٍ مَفَارِقُهُ مِنْ الدَّهَانِ ، عَلَيْهِ سَحَقُ أَمْسَاحِ
لَا يَذْلِفُونَ إِلَى مَاءٍ بَأْنِيَّةٍ إِلَّا اغْتِرَافًا مِنَ الْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ
فَكَدْتُ وَاللَّهِ أَخْرِجُ مِنْ جِلْدِي طَرَبًا . ثُمَّ أَنْشَدَ :

* طَرَحْتُمْ مِنَ التَّرْحَالِ أَمْرًا فَعَمْنَا ^(٢) *

وَأَنْشَدَ أَيْضًا :

لِمَنْ دِمْنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ ^(٣) عَلَى طِيبِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ
تَجَافَى إِلَيَّ عَنْهُمْ حَتَّى كَأَنَّمَا لَبِسْنَ مِنَ الْإِقْوَاءِ ثَوْبَ نَعِيمِ ^(٤)
وَاسْتَمَرَّ فِيهَا حَتَّى أَكْمَلَهَا . ثُمَّ قَالَ لِي : أَنْشُدْ . فَقُلْتُ : وَهَلْ أَبْقَيْتَ ^(٥) لِلْإِنْشَادِ
مَوْضِعًا ؟ قَالَ : لَا بَدُّ لَكَ ، وَأَوْعِثْ بِي وَلَا تُنَجِدْ . فَأَنْشَدْتُهُ :

١٠

أَصْفِيحُ شِيمِ أُمِّ بَرَقٍ بَدَا أُمِّ سَنَا الْمُحْبُوبِ أَوْرَى أَرْزُدَا
هَبْ مِنْ مَرَقِدِهِ مُنْكَسِرًا مُسْبِلًا لَكُمْ مُرْخَ لِلرَّدَا
يَمْسَحُ النَّعْسَةَ مِنْ ^(٥) عَيْنِي رَشَا صَائِدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسَدَا
قُلْتُ : هَبْ لِي يَا حَبِيبِي قُبْلَةً تَشْفِي مِنْ عَمَلِكَ تَبْرِيحَ الصَّدَى
فَانْثَنِي يَهْتَزُّ مِنْ مَنَكِبِهِ قَائِلًا : لَا أُمَّ أَعْطَانِي الْيَدَا ^(٦)
كُلَّمَا كَلَّمَنِي قَبْلَتُهُ فَهُوَ إِمَّا ^(٦) قَالَ قَوْلًا رَدَدَا
كَأَدَّ أَنْ يَرْجِعَ ، مِنْ لَثْمِي لَهُ وَارْتَشَفِي الثَّغْرَ مِنْهُ ، أَدْرَدَا
قَالَ لِي يَلْعَبُ : خُذْ لِي طَائِرًا فَتَرَانِي الدَّهْرَ أَجْرِي بِالْكَدَا

١٥

(١) راجع ديوانه ص ٧٥

(١) راجع ديوانه ص ١٢٨

(٢) ر ، ه : « تركت »

(٣-٤) ه في ر ه

(٦) ب ، لب : « مهما »

(٥) ب ، لب : « عن »

- وإذا استنجزت يوماً وعده^(١) قال لي يَظُلُّ : ذَكَرَنِي غَدًا
شَرَبْتُ أَعْطَافَهُ خَمْرُ الصَّبَا وَسَقَمَهُ الْحُسْنُ حَتَّى عَرَبَدَا
وإذا بَثُّ بِهِ فِي رَوْضَةٍ أَعْيَدًا يَعْرُو نَبَاتًا أَعْيَدًا^(٢)
قَامَ فِي اللَّيْلِ بِحَيْدٍ أَتْلَعُ يَنْفُضُ اللَّهْمَةَ مِنْ دَمْعِ النَّدَى
رَشَاءً بَلْ غَادَهُ مَمْكُورَةٌ عَمَّمَتْ صُبْحًا بَلِيلِ أَسْوَدَا
أَحَحْتُ مِنْ عَضَّتِي فِي نَهْدِهَا ثُمَّ عَضَّتْ حُرًّا وَجْهِي عَمْدًا
فَأَنَا الْمَجْرُوحُ مِنْ عَضَّتِهَا لَا شَفَانِي اللَّهُ مِنْهَا أَبَدًا
فلما انتهيت قال : لله أنت ! وإن كان طبعك مخترعاً منك^(٣) . ثم قال لي :
أنشدني من رثائك شيئاً^(٤) . فأنشدته من قولي في بنية صغيرة :
١٠ (٥) أَيْهَا الْمُعْتَدُّ فِي أَهْلِ النَّهْيِ لَا تَذُبْ إِثْرَ فَقِيمِدٍ وَلَهَا
حتى انتهيت إلى قولي^(٥) :
وإذا الأسدُ حَمَتْ أَغْيَالَهَا لَمْ يَضُرَّ الْخَيْسَ صَرَخَاتِ الْمَهَا
وَعَرِيبٌ يَا ابْنَ أَفْأَرِ الْمَلَا أَنْ يُرَاعَ الْبَدْرُ مِنْ فَقْدِ الشَّهَا
فلما انتهيت قال لي : أنشدني من رثائك أشدَّ من هذا وأفصح . فأنشدته
١٥ من رثائي في ابنِ ذَكْوَانَ . ثم قال : أنشدني جَعْدَرِيَّتَكَ مِنَ السَّجْنِ ،
فأنشدته :

* قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الْهَوَانِ بَعِيدُ *

(١) هذا البيت ناقص في ب ، لب

(٢) هذا البيت إلى آخر القصيدة ناقص في ب ، و (٣) ب ، لب : « مخترعاً »

(٤) و : « دشا » (٥-٥) هـ في ب ، لب ، و

حتى انتهت فيها إلى قولي :

فَإِنْ طَالَ ذِكْرِي بِالْمُجُونِ فَإِنِّي شَقِيٌّ بِمَنْظُومِ الْكَلَامِ سَعِيدُ
وَهَلْ كُنْتُ فِي الْعِشَاقِ أَوَّلَ عَاشِقٍ هَوَتْ بِحِجَاهِ أَعْيُنٍ وَخُدُودُ؟
فَمَنْ مُبْلَغُ الْفَتَيَانِ أَنِّي بَعْدَهُمْ ^(١) مُقِيمٌ بِدَارِ الظَّالِمِينَ ^(٢) طَرِيدُ
وَلَسْتُ بِذِي قَيْدٍ يَرِقُّ وَإِنَّمَا عَلَى اللَّحْظِ مِنْ سُخْطِ الْإِمَامِ قِيُودُ ٥

فبكي لها طويلاً ^(٣). ثم قال : أنشدني قطعة من مجونك ^(٤) ، فقد بعد عهدي بمثلك .
فأنشدته :

وَنَاطِرَةٌ تَحْتَ طَيِّ الْقِنَاعِ دَعَاهَا إِلَى اللَّهِ وَالْخَيْرِ دَاعِي
سَعَتْ بِأَنْبِيَا تَبْتَغِي مَنَزِلًا لَوْصَلِ التَّبَتُّلِ وَالْإِنْقِطَاعِ
فَجَاءَتْ تَهَادَى كِمِثْلِ الرَّءُومِ تُرَاعِي غَزَايَا بِأَعْلَى ^(٥) يَفَاعِ ١٠
أَتَنَّا تَبَخَّرْتُ فِي مَشْيِهَا فَحَلَّتْ بِوَادٍ كَثِيرِ السَّبَاعِ
وَرِيعَتْ حِذَارًا عَلَى طِفْلِهَا فَنَادَيْتُ : يَا هَذِهِ لَا تُرَاعِي !
فَوَلَّتْ وَلِلْمِسْكِ مِنْ ذَيْلِهَا عَلَى الْأَرْضِ خَطٌّ كَظْهَرِ ^(٦) الشَّجَاعِ

فلما سمع هذا البيت قام يرقص به ويردده ، ثم أفاق ، ثم قال : هذا والله شيء لم
نلهمه نحن . ثم استندنا فدنوت منه فقبل بين عيني ، وقال : اذهب فإنك مجاز
على بظر أم الكاره . فانصرفنا عنه والحدونا من الجبل ، فقال لي زهير : ومن تريد
بعد ؟ قلت له : خاتمة القوم صاحب أبي الطيب ، فقال : أشد له حيازيمك ،

(١) ب ، لب : « بعيدهم » (٢) ب ، لب : « الظاعين »

(٣) ب ، لب : « طربا » (٤) ب ، لب : « عيونك »

(٥) ب ، لب : « بروض » (٦) ب ، لب : « كخط »

وعطره^(١) له نسيمة^(١) ، وانثر عليه نجومك . وأمال عنان الأدهم إلى طريق ،
فجعل يركض بنا ، وزهير يتأمل آثار فرس لمحناها هناك . فقلت له : ما تتبعك
لهذه الآثار ؟ قال : هي آثار فرس حارثة بن المغلس صاحب أبي الطيب . وهو
صاحب قنص^(٢) . فلم يزل يتقراها حتى دفعنا إلى^(٣) فارس على فرس بيضاء كأنه
قضيبي على كشيبي ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء ،
قد أرخى لها عذبة صفراء . فحياه زهير ، فأحسن الرد ناظراً من مقلّة شوساء ، قد
مليت^(٤) تيتها وعجبها . فعرفه زهير قصدي^(٥) ، وألقى إليه رغبتي^(٥) . فقال :
بلغني أنه يتناول^(٦) ، قلت : للضرورة الدافعة ، وإلا فالقريحة غير صادعة ،
والشفرة غير قاطعة ، قال : فأنشدني ، وأكبرته أن أسنشدته . فأنشدته
(٧) قصيدتي التي أولها^(٧) :

١٠

* أبرق بدا أم لمع أبيض قاصل ؟ *

حتى انتهت فيها إلى قولي :

تردد فيها البرق حتى حسبتُه
رُبى نسجت أيدى الغمام للنسها
سهرت بها أرعى التجوم وأنجما
وقد فغرت فاهها ، بها كل زهرة
ومرت جيوش المزن رهوا^(٨) كأنها
يشير إلى نجم الرُبى بالأنايل
غلائل صفراً فوق بيض غلائل
طوالع للرّاعين غير أوافل
إلى كلّ ضرع للعمامة حافل
عساكر زنج مذهبات المنايل

١٥

(٢) ب ، لب : « ذو قنص »

(١-١) نه في ر

(٤) ب ، لب : « حشيت »

(٣) ب ، لب : « لاح لنا »

(٦) ب ، لب : « أنك تتناول »

(٥-٥) نه في ر ، هـ

(٨) ر : « زهوا » — ب ، لب : « زهرا »

(٧-٧) نه في ر ، هـ

- وَحَلَقَتِ الْخَضْرَاءُ فِي غُرِّ شُهِبِهَا^(١)
تَخَالُ بِهَا زَهْرَ الْكَوَاكِبِ نَرْجِسًا
وَتَلْعُحُ مِنْ جَوَازِمِهَا فِي غُرُوبِهَا
وَتَحْسَبُ صَقْرًا وَاقِعًا دَبْرَانِهَا
وَبَذَرَ الدُّجَى فِيهَا غَدِيرًا وَحَوْلَهُ
كَأَنَّ الدُّجَى هَمَّى ، وَدَمَعِي نُجُومُهُ
هَوَتْ أَنْجُمُ الْعُلْيَاءِ إِلَّا أَقْلَهَا
وَأَصْبَحْتُ فِي خَلْفٍ إِذَا مَا لَحَقْتُهُمْ^(٢)
وَمَا طَابَ فِي هَذِي الْبَرِيَّةِ آخِرُهُ
أَرَى حُمْرًا فَوْقَ الصَّوَاهِلِ حِمَّةً
وَرُبَّتْ كِتَابٌ إِذَا قِيلَ : زَوْرُوا .
وَنَاقِلٍ فَقِهِ لَمْ يَرَ اللَّهُ قَلْبُهُ
وَحَامِلٍ رُمَحٍ رَاحَ فَوْقَ مَضَائِهِ
حُبُوا بِالْمُنَى دُونِي وَغَوْدِرْتُ دُونَهُمْ
وَمَا هِيَ إِلَّا هِمَّةٌ أَشْجَعِيَّةٌ
وَفَهْمٌ لَوْ الْبَرْجِيسَ جِئْتُ بِجَدِّهِ
وَلَمَّا طَلَا بِحَمْرُ الْبَيَانِ بِفِكْرِي
رَحَلْتُ إِلَى خَيْرِ الْوَرَى كُلِّ حُرَّةٍ
- كُلْجَةٌ بِحَمْرِ كُتِلَتْ بِالْيَعَالِ
عَلَى شَطِّ وَادٍ لِلْمَجَرَّةِ سَائِلِ
تَسَاقُطَ عَرْشٍ وَاهِنِ الدِّعْمِ مَائِلِ
بِعُشِّ الثَّرِيَّا فَوْقَ حُمْرِ الْحَوَاصِلِ
نُجُومٌ كَطَلْعَاتِ الْحَمَامِ^(٣) النَّوَاهِلِ^(٤)
تَحْدَرُ إِشْفَاقًا لِذَهْرِ الْأَرَاذِلِ
وَعَيْنٌ بِمَا يَحْطَى بِهِ كُلُّ عَاقِلِ
تَبَيَّنْتُ أَنَّ الْجَهْلَ إِحْدَى الْفَضَائِلِ
إِذَا هُوَ لَمْ يُنْجَدْ بِطِيبِ^(٥) الْأَوَائِلِ
فَأَبْكِي بِعَيْنِي ذُلَّ تِلْكَ الصَّوَاهِلِ
بَكَتُ مِنْ تَأْنِيهِمْ^(٦) صُدُورُ الرِّسَالِ
يَظُنُّ أَنَّ الدِّينَ حِفْظُ الْمَسَائِلِ
بِهِ كَاعِبًا فِي الْحَيِّ ذَاتَ مَغَازِلِ
أُرُودُ الْأَمَانِي فِي رِيَاضِ الْأَبَاطِلِ
وَنَفْسُ أَبْتٍ لِي مِنْ طَلَابِ الرِّذَائِلِ
إِذَا لَتَلَقَّانِي بِنَحْسِ الْمَقَاتِلِ
وَأَغْرَقَ قَرْنُ الشَّمْسِ بَعْضَ جَدَائِلِي
مِنَ الْمَدْحِ لَمْ تَحْمُلْ بِرَعْيِ الْحَمَائِلِ^(٧)

(١) ب ، لب ، وه : « نجيبها » (٢) ر : « الجمام »

(٣) لب ، وه : « التمتعهم » (٤) ب ، لب : « ينجده طيب »

(٥) ر : « تأنيهم » (٦) ترتيب هذا البيت والذي يليه معكوس في ب ، لب

وَكِدْتُ لِفَضْلِ الْقَوْلِ أَبْلَغُ سَاكِتًا وَإِنْ سَاءَ حُسَادِي مَدَى كُلِّ قَائِلٍ
فَلَمَّا انْتَهَيْتُ قَالَ : أَنْشُدْنِي أَشَدَّ مِنْ هَذَا . فَأَشَدُّهُ قَصِيدَتِي :

هَاتِيكَ دَارُهُمْ فَقِفْ بِمَعَانِهَا ■

فَلَمَّا انْتَهَيْتُ^(١) قَالَ لَزُهَيْر : إِنْ امْتَدَّ بِهِ طَلْقُ الْعُمَرِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْفَثَ
بِدُرَرٍ ، وَمَا أَرَاهُ إِلَّا سَيُحْتَضَرُ ، بَيْنَ قَرِيحَةٍ كَالْجَمْرِ ، وَهَمَةٍ تَضَعُ أَحْمَصَهُ عَلَى
مَفْرِقِ الْبَدْرِ . قُلْتُ : هَلَّا وَضَعْتَهُ عَلَى صَلَعةِ النَّسْرِ ! فَاسْتَضَحَكَ إِلَيَّ وَقَالَ :
أَذْهَبْ فَقَدْ أَجَزْتُكَ بِهِذِهِ التُّكْتَةِ . فَقَبَّلْتُ عَلَى رَأْسِهِ وَانْصَرَفْنَا . فَقَالَ لِي زُهَيْرُ :
مَنْ تَرِيدُ بَعْدَهُ ؟ قُلْتُ : مِلَّ بِي إِلَى الْخُطْبَاءِ ■ فَقَدْ قَضَيْتُ وَطَرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ .
فَرَكَّضْنَا حِينًا طَاعِنِينَ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ^(٢) وَلَقِينَا فَارِسًا أَسْرًا إِلَى زُهَيْرٍ ■ وَانْجَزَعَ
عَنَّا^(٣) . فَقَالَ لِي زُهَيْرُ : جُمِعَتْ لَكَ خُطْبَاءُ الْجَنِّ بِمَرْجِ دَهْمَانٍ^(٤) ، وَبَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ فَرَسَخَانٌ^(٥) ، فَقَدْ كَفَيْتَ الْقَنَاءَ إِلَيْهِمْ عَلَى انْفِرَادِهِمْ .^(٦) قُلْتُ : لَمْ
ذَاكَ ؟ قَالَ : لِلْفَرْقِ بَيْنَ كَلَامَيْنِ اخْتَلَفَ فِيهِ فِتْيَانُ الْجَنِّ^(٧) . وَانْتَهَيْنَا إِلَى الْمَرْجِ
فَإِذَا بِنَادٍ عَظِيمٍ ، قَدْ جَمَعَ كُلَّ زَعِيمٍ ، فَصَاحَ زُهَيْرُ : السَّلَامُ عَلَى فُرْسَانِ الْكَلَامِ .
فَرَدُّوا وَأَشَارُوا بِالنُّزُولِ . فَأَفْرَجُوا حَتَّى صِرْنَا مَرَكِزَ هَالَةِ مَجْلِسِهِمْ ، وَالْكَلُّ مِنْهُمْ
نَاطِرٌ إِلَى شَيْخٍ أَصْلَعٍ ، جَاوِظِ الْعَيْنِ الْيُمْنَى ■ عَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ بِيضَاءُ طَوِيلَةٍ .
قُلْتُ سِرًّا لَزُهَيْرُ : مَنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : عُتْبَةُ بْنُ أَرْقَمٍ صَاحِبُ الْجَاوِظِ ، وَكُنْيَتُهُ
أَبُو عُيَيْنَةَ . قُلْتُ : بَأَبِي هُوَ ! لَيْسَ رَغْبَتِي سِوَاهُ ■ وَغَيْرَ صَاحِبِ عَبْدِ الْحَمِيدِ .
فَقَالَ لِي : إِنَّهُ ذَلِكَ الشَّيْخُ الَّذِي إِلَى جَنْبِهِ . وَعَرَفَهُ صَغَوِي إِلَيْهِ وَقَوْلِي فِيهِ .
فَاسْتَدْنَانِي وَأَخَذَ فِي الْكَلَامِ مَعِيَ ■ فَصَمْتُ أَهْلَ الْمَجْلِسِ ، فَقَالَ : إِنَّكَ

(١) ب ، لب : « حتى إذا سمعها » (٢-٢) ز في ب ، لب

(٣-٣) ز في ر ، و (٤-٤) ز في ر ، و

- لخطيب ، وحائِكُ للكلام مُجيدٌ « لولا أَنَّكَ مُغرَى بالسَّجْعِ » فكلامُك نظمٌ لا تثر . فقلتُ في نفسي : قرعَكَ — بالله — بقارِعَتِهِ « وجاءك بمُماثلَتِهِ . ثم قلتُ له : ليسَ هذا — أعزَّكَ اللهُ — مِنِّي جهلاً بأمرِ السَّجْعِ » وما في المُمائلةِ والمُقابِلَةِ من فَضْلٍ ، ولكِنِّي عَدِمْتُ بِلَدِي فُرْسَانَ الكلامِ ^(١) ، ودُهَيْتُ بغبَاوَةِ أهلِ الزمانِ ، وبالحَرَائِنِ أَن أُحرِّكَهم ^(٢) بالازدواجِ . ولو فرشتُ للكلامِ ^(١) فيهم طَوَلَقًا ، وتحركتْ لهم حركة مشوْلُم ، لكان أرفعُ لِي عندهم ، وأولجُ في نفوسِهِم ، فقال : ^(٣) أهذا على تلكِ المناظر ، وكِبَرِ تلكِ المُحَاوِرِ ، وكَمالِ تلكِ الطيَالِسِ ؟ قلتُ : نعم ، إنها إحياءُ الشجرِ ^(٤) ، وليسَ ثمَّ ثَمَرٌ ولا عَبَقٌ ^(٥) . قَالَ لِي : ^(٥) صدقتَ ، إِنِّي أراك قد ماثلتَ معي . قلتُ : كما سمعتَ ^(٥) . قَالَ : فكيف كلامُهُم بينهم ؟ قلتُ : ليسَ لِسَبِيوِيهِ فِيهِ عَمَلٌ ، ولا لِفَرَاهِيدِي إِيْلِهِ طَرِيقٌ ، ولا لِلْبَيَانِ عَلَيْهِ سِمَةٌ . إِنَّمَا هِيَ لَكِنَّةٌ أَعْجَمِيَّةٌ يُؤدُّونَ بِهَا المعانيَ تَأْدِيَةَ المَحوِسِ والنَّبَطِ . فصاحَ : إِنَّا لِلَّهِ ، ذهبتِ العربُ وكلامُها ! ارمِهِم يا هذا بسَجْعِ الكُفَّانِ « فَعَسَى أَن يَنْفَعَكَ عِنْدهم » ^(٦) وَيُطِيرَ لَكَ ذِكْرًا فِيهِمْ . وما أراك مع ذلكِ إِلَّا ثَقِيلَ الوِطْأَةِ عَلَيْهِم « كَرِيهَ المَجْبِيءِ إِلَيْهِم » ^(٦) . فقال الشَّيْخُ الَّذِي إِيْلَ جَانِبِهِ ، وقد علمتُ أَنَّهُ صاحبُ عبد الحميد ، ونفسي مرتَقِبَةٌ إِيْلَ ما يَكُونُ مِنْهُ ^(٧) : لا يَغُرَّنكَ مِنْهُ أبا عِيْنَةَ ١٠ ما تَكَلَّفَ لَكَ مِنَ المُمائلةِ . إِنَّ السَّجْعَ لَطَبْعُهُ « وَإِنَّ ما أَسْمَعُكَ كُلفَةً . ولو امتدَّ بِهِ طَلَقُ الكلامِ ، وجرت أفراسُهُ في مَيْدَانِ البَيانِ ، لصلَّى كَوَدْنُهُ « وَكَلَّ

(١-١) هـ في ب ، لب (٢) هـ : « أحدهم »

(٣-٣) هـ في ب (٤) هـ : « إِنما يجني الشجر »

(٥-٥) هـ في ب (٦-٦) هـ في ب ، لب

(٧) ب ، لب : « لما يأتي منه »

بُرْتَنَّهُ . وما أراه إلا من الأكن الذين ذَكَرَ ، وإلا فَمَا للفصاحة لا تهدير .
ولَا للأعرابية لا تومض ؟ فقلت في نفسي : طبع عبد الحميد ومساقه ورب الكعبة !
فقلت له : لقد عجبتَ أبا هُبَيْرَةَ — وقد كان زهيرٌ عَرَفَنِي بِكُنْيَتِهِ — إِنَّ
قَوْسَكَ لَنَبْعَ ، وَإِنَّ مَاءَ سَهْمِكَ لَسَمٌّ ، أَحْمَارًا رَمِيتَ أُمَ إِنْسَانًا ، وَقَعَقَعَةً طَلَبْتَ
أُمَ بَيَانًا ؟ وَأَيُّكَ إِنَّ الْبَيَانَ لَصَعْبٌ ، وَإِنَّكَ مِنْهُ لَفِي عِبَاءَةٍ تَتَكَشَّفُ عَنْهَا أَسْتَاهُ
مَعَانِيكَ ، تَتَكَشَّفُ اسْتِ الْعَنْزِ^(١) عَنْ ذَنَبِهَا . الزَّمانُ دَفَنٌ لَاقَرٌ ، وَالْكَلَامُ
عِرَاقِيٌّ لَا شَامِي . إِنِّي لَأَرَى مِنْ دَمِ^(٢) الْيَرْبُوعِ بِكَفِّكَ^(٣) ، وَأَلْمَحُ مِنْ كُشَى
الضَّبِّ عَلَى مَاضِغَيْكَ . فَتَنَبَّسْ إِلَى وَقَالَ : أَهَكَذَا أَنْتَ يَا أَطْيَلِسَ ، تَرَكْبُ لِكُلِّ
نَهْجَةٍ ، وَتَعَسُجُ إِلَيْهِ عَجَّةً ؟ فقلت : الدُّنْبُ أَطْلَسَ ، وَإِنَّ التَّيْسَ مَا عَلِمْتَ !
فصاح به أَبُو عِيْنَةَ : لَا تَعْرِضْ لَهُ ، وَبِالْحَرَا أَنْ تَخْلُصَ مِنْهُ . فقلت : الْحَمْدُ لِلَّهِ
خَالِقِ الْأَنْعَامِ فِي بَطُونِ الْأَنْعَامِ ! فَقَالَ : إِنَّهَا كَافِيَةٌ لَوْ كَانَ لَهُ حِجْرٌ فَبَسَطَانِي
وَسَأَلَانِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْهِمَا مِنْ رِسَالِي ، فَقَرَأْتُ رِسَالَتِي فِي صِفَةِ الْبَرْدِ وَالنَّارِ وَالْحَطَبِ
فَاسْتَحْسَنَاهَا ، وَمِنْ رِسَالَتِي فِي الْحُلُوءِ حَيْثُ أَقُول :

خَرَجْتُ فِي لَمَعٍ مِنَ الْأَصْحَابِ ، وَثُبَّةٍ مِنَ الْأَتْرَابِ ، فِيهِمْ قَقِيهٌ ذُو لَقَمٍ .
وَلَمْ أَعْرِفْ بِهِ ، وَغَرِيمٌ بَطْنِي ، وَلَمْ أَشْعُرْ لَهُ ، رَأَى الْحُلُوءِ فَاسْتَحَفَّهُ الشَّرَّهَ .
وَاضْطَرَبَ بِهِ الْوَلَهَ ، فَدَارَ^(٤) فِي ثِيَابِهِ ، وَأَسَالَ مِنْ لَعَابِهِ ، حَتَّى وَقَفَ بِالْأَكْدَاسِ ،
وَخَالَطَ عُمَارَ النَّاسِ ، وَنَظَرَ إِلَى الْقَالُودِجِ فَقَالَ : يَا بَنِي هَذَا اللَّمَّصِ ، انْظُرُوهُ كَأَنَّهُ
الْفَصَّ ، مُجَاجَةً الزَّائِيرِ ، أُجْرِيَتْ عَلَى شَوَايِرِ ، وَخَالَطَهَا لُبَابُ الْحَبَّةِ ، فَجَاءَتْ
أَعَذَبَ مِنَ أَلْسِنَةِ الْأَحِبَّةِ .

(١) ب ، لب : « العير » (٢) و : « جحر »

(٣) ب ، لب : « بكفك » (٤) ب ، لب : « فبال »

ورأى الخبيص فقال : بأبي هذا الغالي الرخيص ، هذا جليدُ سماءِ الرَّحمة ،
تمخضتْ به فأبرزتْ منه زُبْدَ النِّعمة ، يُجْرَحُ باللَّحْظ ، ويذوبُ من اللفظ .
ثم ابيض ، قالوا بماء البيض البض . قال : غَضٌّ مِنْ غَضٍّ ، ما أطيبَ خَلْوةَ
الحبيب ، لولا حضرةُ الرقيب !

• ولمح القبيطاء^(١) ، فصاح : بأبي نُقْرةُ الفضة البيضاء ، لا تَرُدُّ عنِ
العَصَّةِ^(٢) . أبنار طُبِخَتْ أَمْ بِنُور ؟ فإني أراها كقطعِ البَلُور ؛ وبلوزٍ مُجِنَتْ أَمْ
بِجَوْز ؟ فإني أراها عَيْنِ^(٣) عَجِينِ الموز . ومشى إليها وقد عدل صاحبها أرتال
نحاسه . وعلق قسطاسه مِنْ أُمَّ راسه ؛ فقال : رطلٌ بدرهمَيْن ، واتهشها
بالتَّابَيْن ، فصاح : القارعةُ ما القارعة . هيه ! ويلٌ للمرءِ مِنْ فِيهِ !

• ورأى الزَّلابِيَّةَ ، فقال : ويلٌ لأمِّها الزانية ، أبا حشائي نُسِجَتْ ، أَمْ مِنْ
صِفَاقِ قَلْبِي أُلْتَتْ ؟ فإني أجدُ مكانها مِنْ نَفْسِي مَكِينًا ، وَحَبْلَ هَوَاهَا عَلَى^(٤)
كَبِدِي مَتِينًا ، فَمَنْ أَيْنَ وَصَلَتْ كَفُّ طابِخِها إِلَى باطِنِي ، فاقْتَطَعَتْها مِنْ دَوَاجِنِي ؟
والعزيز الغفار ، لأطْلُبَنَّها بالنَّارِ ! ومشى إليها ، فتلمَّظَ لَهُ لسانُ المِيزانِ . فَأَجْفَلَ
يَصِيحُ : الثُّعْبَانُ الثُّعْبَانُ !

• ورفَع له ثمرُ النِّشَا ، غَيْرَ مَهْضُومِ الحِشَا ، فقال^(٥) : مَهْشِيمٌ ! مِنْ أَيْنَ لَكُمْ جَنَى
نَخْلَةٍ مَرِيمٍ ؟ ما أُنْتُمْ إِلَّا السُّحَّارُ ، وما جَزَاؤُكُمْ إِلَّا السَّيْفُ والنَّارُ . وَهُمْ أَنْ يَأْخُذَ
مِنْهَا . فَأُثْبِتَ فِي صَدْرِهِ العَصَا ، فجلس القُرْفُصَا ، يَذْرِي الدُّمُوعَ ، وَيُبْدِي الخُشُوعَ .
وما منا^(٦) أَحَدٌ إِلَّا عَنِ الضَّحِكِ قَدْ تَجَلَّدَ . فَرَقَّتْ لَهُ ضُلُوعِي ، وَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ فِيهِ

(١) ر ، وه : « القبيطى » (٢) ب ، لب : لا يؤذى على العضة ■ — وه فى ر

(٣) ب ، لب ، وه : « غير » (٤) وه : « من »

(٥) ب ، لب : « فصاح » (٦) ب ، لب : « وهل هنا ■

غير مُضِيِّعٍ . وقد تَجُمِّلُ ^(١) الصَّدَقَةَ عَلَى ذَوِي وَفَرٍ ، وَفِي كُلِّ ذِي كِبِدٍ رَطْبَةٌ ^(٢) أَجْرٌ . فَأَمَرْتُ الْحُلَوَانِيَّ بِابْتِياعِ أَرْطَالٍ مِنْهَا تَجْمَعُ أَنْوَاعَهَا الَّتِي أَنْطَقْتَهُ ، وَتَحْتَوِي عَلَى ضُرُوبِهَا ^(٣) الَّتِي أَضْرَعْتَهُ . وَجَاءَ بِهَا وَسَرَّنَا إِلَى مَكَانٍ خَالٍ طَيِّبٍ ، كَوْصَفِ الْمُهَلَّبِيِّ :

٥ حَانَ تَطْيِبُ لِبَاغِي النَّسِكِ خَلْوَتُهُ وَفِيهِ سَتْرٌ عَلَى الْفَتَاكِ إِنْ فَتَكُوا ^(٤)
فَصَبَّهَا ^(٥) رَطْبَةُ الْوُقُوعِ ، كِرَادِيسَ كَقِطْعِ الْجُدُوعِ ؛ ^(٦) فَجَعَلَ يَقْطَعُ
وَيَبْلَعُ ^(٧) ، وَيَدْخُوفَاهُ وَيَدْفَعُ ، وَعَيْنَاهُ تَبْصَانُ ^(٨) ، كَأَنَّهُمَا جَمْرَتَانِ ، وَقَدْ بَرَزَتَا
عَلَى وَجْهِهِ كَأَنَّهُمَا خُصِيَّتَانِ ، وَأَنَا أَقُولُ لَهُ : عَلَى رِسْلِكَ أَبَا فَلَانِ ! الْبِطْنَةُ تُذْهَبُ
الْفِطْنَةُ ! فَلَمَّا التَقَمَ جُمْلَةَ جَمَاهِيرِهَا ، وَأَتَى عَلَى مَا خَيْرِهَا ^(٩) ، وَوَصَلَ خَوَزَنَتَهَا
بَسْدِيرِهَا ، تَجَشَّأَ فَهَبَّتْ مِنْهُ رِيحٌ عَقِيمٌ ، أَيْقَنَّا لَهَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ . فَفَنَثَرْنَا ١٠
شَذَرَ مَذَرٍ ، وَفَرَقْنَا شَفَرَ بَغَرٍ ، فَالْتَمَحْنَا مِنْهُ الظَّرْبَانِ ، وَصَدَّقَ الْخَبَرَ فِيهِ الْعِيَانُ .
نَفَخَ ذَلِكَ فَشَرَّدَ الْأَنْعَامَ ^(١٠) ، وَنَفَخَ هَذَا فَبَدَّدَ الْأَنَامَ ، فَلَمْ يَجْتَمِعْ بَعْدَهَا وَالسَّلَامُ .
فَاسْتَحْسَنَاهَا ۖ وَضَحِكَ عَلَيْهَا ، وَقَالَ : إِنْ لَسَجِعُكَ مَوْضِعًا ^(١١) مِنْ
الْقَلْبِ ، وَمَكَانًا مِنَ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَعْرَتَهُ مِنْ طَبْعِكَ ، وَحَلَاوَةِ لَفْظِكَ ، وَمَلَا حَقِ
سَوِّقِكَ ، مَا أَزَالَ أَفَنَّهُ ، وَرَفَعَ عَيْنَهُ . وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّكَ لَا تَجَاوِزِي ^(١٢) فِي أَبْنَاءِ ١٥
جِنْسِكَ ، وَلَا يُمَلُّ مِنَ الطَّعْنِ عَلَيْكَ ، وَالْإِعْتِرَاضِ لَكَ . فَمَنْ أَشَدُّهُمْ عَلَيْكَ ؟

(١) لب : « محمل » — و : « تحل » (٢) و : « حرى »

(٣) ب ، لب : « صنوفها » (٤) ب ، لب : « الفتاك إن فتكا »

(٥) و : « فصفتها » (٦—٦) و في ر (٧) ب : « تبصران »

(٨) ب ، لب : « آخرها » (٩) ب ، لب ، و : « النعام »

(١٠) ب ، لب : « مرجعاً » (١١) ب ، لب : « لا تجارى » — و :

« لا تجارى »

قلت : جازان دارهما صَقَب ، وثالثُ نَابَتَه نُوبٌ ، فامتطى ظَهَرَ النَّوَى ، وألقت به في سَرَفُسطَةِ الْعَصَا .^(١) فقالا : إلى أبي محمد تُشير ، وأبي القاسم وأبي بكر ؟ قلت : أجل . قالوا : فأين بلغت فيهم ؟ قلت : أمّا أبو محمد^(٢) فانتضى على لسانه عند المستعِين ، وساعدته زُرَافَةٌ استهواها^(٣) من الحاسدين ، وبلغنى ذلك فأنشدته شعراً ، منه :

وَبُلِّغْتُ أَقْوَامًا تَجِيشُ صُدُورَهُمْ عَلَى ، وَإِنِّي مِنْهُمْ فَارِغُ الصَّدْرِ
أَصَاخُوا إِلَى قَوْلِي فَأَسْمَعْتُ مُعْجَزًا وَغَاصُوا عَلَى سِرِّي فَأَعْيَاهُمْ أَمْرِي
فَقَالَ فَرِيقٌ : لَيْسَ ذَا الشَّعْرِ شِعْرُهُ وَقَالَ فَرِيقٌ : أَيْمَنُ اللَّهِ ، مَا نَذْرِي
أَمَّا عَلِمُوا أَنِّي إِلَى الْعِلْمِ^(٤) طَامِحٌ وَأَيُّ الَّذِي سَبَقَا عَلَى عِرْقِهِ يَجْرِي
وَمَا كُلُّ مَنْ قَادَ الْجِيَادَ يَسُوسُهَا وَلَا كُلُّ مَنْ أَجْرَى يُقَالُ لَهُ : مُجْرِي ١٠
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْبُرْ فَإِنِّي حَاضِرٌ وَلَا شَيْءَ أَجَلٍ لِلشُّكُوكِ مِنَ الْخُبَرِ

وأما أبو بكر فاقصر واقصر على قوله : لَهُ تَابِعَةٌ تُؤَيِّدُهُ . وأمّا أبو القاسم الإفليلي فمكانه^(٥) من نفسي مَكِين ، وَحُبُّهُ بُقُودِي دَخِيل . على أنه حامل^(٥) على ، ومنتسب^(٦) إلى . فصاحا : يَا أَنْفَ النَّاقَةِ ابْنَ مَعْمَرٍ ، مِنْ سُكَّانِ خَيْبَرَ ! فقام إليهما جَنِيٌّ أَشْمَطُ رُبْعَةٍ^(٧) وَارِمُ الْأَنْفِ^(٧) ، يتظالم^(٨) في ١٥
مَشِيَّتِهِ ، كاسِرًا لَطَرَفِهِ ، وَزَاوِيَا لَأَنْفِهِ ، وَهُوَ يُنْشِدُ :

قَوْمُهُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّي بَأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا

(١-١) هـ في ب ، لب ، هـ (٢) هـ في ر ، هـ

(٣) هـ : « النظم » (٤) هـ : « فانه »

(٥) هـ : « متحامل » (٦) ر : « ومتسلب »

(٧-٧) هـ في ب ، لب (٨) ر ، هـ : « بتصانع » — ب ، لب : « بتضالم »

فقال لى : هذا صاحبُ أبي القاسم ، ما قولك فيه يا أنفَ الناقة ؟ قال :
 فتى لم أعرف على من قرأ . فقلتُ لنفسي : العصا من العصية ! إن لم تُعري عن
 ذاتك ، وتُظهرى بعضَ أدواتك ، وأنت بين فرسان الكلام ، لم يطر لك
 بعدها طائر ، وكنت غرضاً لكل حجير عابر . وأخذتُ للكلام أهبتة^(١) ،
 ولبستُ للبيان بزته^(٢) . فقلتُ : وأنا أيضاً لا أعرف على من قرأت . قال :
 المثلَى يُقال هذا ؟ فقلت : فكان ماذا ؟ قال : فطارخني كتاب الخليل .
 قلتُ : هو عندي في زنبيل . قال : فناظرني على كتاب سيبويه . قلتُ :
 خربت الهرة عندي عليه ، وعلى شرح ابن درستويه . فقال لى : دغ
 عنك . أنا أبو البيان . قلت : لآها الله ! إنما أنت كمغنٍ وسط ، لا يحسن
 فيطرب ، ولا يسى فيلهي . قال : لقد علمنيهِ المؤدبون . قلت : ليس هو من
 شأنهم ، إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » . ليس من شعر يُفسر ، ولا أرض تُكسر . هيات حتى
 يكون المسك من أنفاسك ، والعنبر من أنفاسك^(٣) ، وحتى يكون مساقك
 عذبا ، وكلامك رطباً . ونفسك من نفسك^(٣) ، وقلبيك من قلبك ؛ وحتى
 تتناول الوضيع فترفعه ، والرفيع فتضعه ، والقبیح فتحسنه ! قال : أسمعني مثالا .
 قلت : حتى تصف برغوئا فتقول : أسود زنجي ، وأهلي وخشي ؛ ليس بوان
 ولا زميل ، وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل ؛ وشونيزة ، أو ثقتها^(٤) غريزة ،
 أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب قراد ؛ شربه عب ، ومشيه وثب ؛ يكمن

(١) ب ، لب ، و : « سكتته » (٢) و : « فروته »

(٣-٢) و في (٤) ب ، لب ، و : « أوثبتها »

نَهَارَهُ . وَيَسْرِي لَيْلَهُ ؛ يَدْرِكُ بَطْنَ مُؤْمٍ . وَيَسْتَحِلُّ دَمَ كُلِّ مُسْلِمٍ ؛ مُسَاوِرٌ
لِلْأَسَاوِرَةِ ، يَجْرُ ذَيْلُهُ عَلَى الْجَبَابِرَةِ ؛ يَتَكَفَّرُ بِأَرْفَعِ الشَّيَابِ . وَيَهْتِكُ سِتْرَ كُلِّ
حِجَابٍ ، وَلَا يَحْفَلُ بِبَوَابٍ ؛ يَرُدُّ مَنَاهِلَ الْعَيْشِ الْعَذْبَةِ ، وَيَصِلُ إِلَى الْأَحْرَاجِ
الرَّطْبَةِ ، لَا يَمْنَعُ مِنْهُ أَمِيرٌ ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهِ غَيْرُهُ غَيْرٌ ، وَهُوَ أَصْغَرُ^(١) كُلِّ حَقِيرٍ ؛
شَرُّهُ مَبْثُوثٌ ، وَعَهْدُهُ مَنْكُوثٌ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ بُرْغُوثٍ ؛ كَفَى بِهِذَا نَقْصًا
لِلْإِنْسَانِ ، وَدَالًا عَلَى قُدْرَةِ الرَّحْمَنِ .

وحتى تصف ثعلبًا فنقول : أدهى من عمرو . وأفتك من قاتل خذيفة
ابن بدر ؛ كثير الوقائع في المسلمين ، مغرى بإراقة دماء المودنين ؛ إذا رأى
الفرصة اتهمها ، وإذا طلبته الكفاة أعجزها ؛ وهو مع ذلك بقراط في إدامه ،
وجالينوس في اعتدال طعامه ؛ غداؤه حمام أو دجاج . وعشاؤه تدرج أو دراج .

قال أبو عامر :

وكان فيما يقابلني من ناديتهم فتى قد رما في بطرفه ، واتكأ لي على كفه ،
فقال : تحيّل على الكلام لطيف وأبيك ! فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أوما
علمت أن الواصف إذا وصف شيئاً^(٢) لم يتقدم إلى صفته ، ولا سلط^(٣) الكلام
على نعمته ، اكتفى بقليل الإحسان ، واجتزى بيسير البيان ؛ لأنه لم يتقدم وصف
يقرن بوصفه . ولا جرى مساق يضاف إلى مساقه . وهذه نكتة بغذاذية .
أننى لك بها يا فتى المغرب ؟ فقلت : زهير : من هذا ؟ قال : زبدة الحقب ،
صاحب بديع الزمان . فقلت : يا زبدة الحقب ، اقترح لي . قال : صف

(١) ب ، لب ، وه : « أحقر » (٢) ب ، لب : « موصوفاً » — وه :

(٣) ب ، لب : « سرد »

« وصفاً »

جارية . فوصفتها . قال : أحسنت ^(١) ما شئت أن تحسن ^(١) ! قلت : أسمعني وصفك للماء ، قال : ذلك من العقم ^(٢) . قلت : بحياتي هاته ، قال ^(٢) : أزرق كعين السنور ، صاف كقضب البلور ؛ انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة .

قلت : انظره يا سيدي كأنه عصير صباح ، أو ذوب ^(٣) قمر ليّاح ؛ ينصب ^(٤) من إنائه ، انصباب الكوكب من سمانه ؛ العين حانوته ، والقم عفريته . كأنه خيط من غزل فلق ، أو مخصر يضرب به من ورق ؛ يرفع عنك فتزدي ، ويصدع به قلبك فتحيا .

فلما انتهيت في الصفة ، ضرب زبدة الحقب الأرض برجله ، فانفجرت له عن مثل برهوت ، وتدهدى إليها . واجتمعت عليه ، وغابت عينه ، ^(٥) وانقطع أثره . فاستضحك الأستاذان من فعله ، واشتد غيظ أنف الناقة على ، فقال : وقعت لك أوصاف في شعرك تظن أنني لا أستطيعها ؟ قلت له : وحتى تصف عارضا فتقول :

وَمُرْتَجِزٍ أَلْقَى بِذِي الْأَثَلِ كَلْكَلًا
وَحَطَّ بِجَرَاءِ الْأَبَارِقِ مَا حَطًّا
سَعَى فِي قِيَادِ الرِّيحِ يُسْمِحُ لِلصَّبَا
فَأَلْقَتْ عَلَى غَيْرِ التَّلَاعِ بِهِ مِرْطًا
وَمَا زَالَ يُرْوِي الثُّرْبَ حَتَّى كَسَا الرُّبَى
دَرَانِكَ ، وَالْغَيْطَانِ مِنْ نَسْجِهِ بُسْطًا
وَعَنْتَ لَهُ رِيحٌ تُسَاقِطُ قَطْرُهُ
كَمَا نَثَرَتْ حَسَنَاءُ مِنْ ^(٦) جِيدِهَا سَمَطًا
وَلَمْ أَرْ دُرًّا بَدَدَتْهُ يَدُ الصَّبَا
سِوَاهُ ، فَبَاتَ النُّورُ يَلْقُطُهُ لَقَطًا

(١-١) نه في ر ، نه (٢-٢) نه في ب ، لب

(٣) ر : ذى ، — نه : « دب » (٤) ب ، لب ، ر : « له »

(٥-٥) نه في ر ، نه (٦) ب ، لب : « عن »

وَبِتْنَا نُرَاعِي اللَّيْلَ لَمْ نَطْوِ بُرْدَهُ وَلَمْ يَجْرِ شَيْبُ الصُّبْحِ فِي فَرْعِهِ وَخَطَا
تَرَاهُ كَمَلِكِ الزَّيْنَجِ فِي فَرْطِ كِبَرِهِ إِذَا رَامَ مَشْيًا فِي تَبَخُّثِهِ أَبْطَا
مُطْلًا عَلَى الْآفَاقِ وَالْبَذْرِ تَاجُهُ وَقَدْ عَلَّقَ الْجَوَازِءَ مِنْ أُذُنِهِ قُرْطَا

وحتى تصف ذئبا فتقول :

إِذَا اجْتَنَزَ عُلُوِّي الرِّيحَ بِأَفْقِهِ أَجَدَّ لِعِرْفَانِ الصَّـبَا يَتَنَفَّسُ
تَذَكَّرَ رَوْضًا مِنْ^(١) شَوِيٍّ وَبَاقِرٍ تَوَلَّتهُ أَحْرَاسُ مِنَ الدُّعْرِ^(٢) تُحْرَسُ
إِذَا انْتَابَهَا مِنْ أَذُوبِ الْقَفْرِ^(٣) طَارِقُ حَمِثٌ إِذَا مَا اسْتَشْفَرَ اللَّحْظَ يَهْمِسُ^(٤)
أَزَلُّ كَسَا جُمَانَهُ مُتَسَلِّتًا طِيَالِسَ سُودًا لِلدُّجَى وَهُوَ أَطْلَسُ
فَدَلَّ عَلَيْهِ لَحْظُ خَبٍ مُخَادِعٍ تَرَى نَارَهُ مِنْ مَاءِ عَيْنَيْهِ يُقَبَسُ

فصاح فتیانُ الجِنِّ عندَ هذا البيتِ الأخير : زَاهِ ! وعلتْ أنفَ الناقةِ
كأَبَةٍ . وظهرتْ عليه مَهَابَةٌ ، واختلطَ كلامُهُ . وبدأ منه ساعتئذٍ بَوَادٍ في خطابه ،
رَحِمَهُ لَهَا مَنْ حَضَرَ ، وأشفقَ عليه من أَجْلِهَا مَنْ نَظَرَ . وشَمَّرَ لِي فَتَى كَانَ إِلَى
جَانِبِهِ عَنْ سَاعِدٍ ، وقال لِي : وهل يَضُرُّ^(٥) قَرِيحَتَكَ ، أَوْ يَنْقُصُ مِنْ بَدِيهِتِكَ
لَوْ تَجَافَيْتَ لِأَنْفِ النَّاقَةِ . وصبرتَ لَهُ ؟ فإنه على عِلَاتِهِ زِيرٌ عِلْمٌ ، وَزَنْبِيلٌ فَهْمٌ .
وَكُنْتُ رَوَايَةَ . فقلتُ لَزُهَيْرٍ : مَنْ هَذَا ؟ فقال : هو أَبُو الْآدَابِ صَاحِبُ^(٦)
أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ حَمَامٍ جَارِكَ . فقلتُ : يَا أَبَا الْآدَابِ ، وَزَهْرَةَ رِيحَانَةِ الْكِتَابِ ،
رِفْقًا عَلَى أَخِيكَ بَغْرِبِ لِسَانِكَ ! وهل كَانَ يَضُرُّ أَنْفَ النَّاقَةِ . أَوْ يَنْقُصُ مِنْ

(١) ب ، لب : « ذَا » (٢) ب ، لب ، وه : « الصَّب »

(٣) ب ، لب : « اللَّيْل » (٤) ترتيب هذا البيت والذي قبله معكوس في ب ، لب

(٥) وه : « يَسُو » (٦) ب ، لب : « تَابَةِ »

علمه ، أو يفل شفرة فهمه ، أن يصبر لي على زلة تمر به في شعر أو خطبة ، فلا يهتف بها بين تلاميذه ، ويجعلها طرمذة من طراميده ؟ فقال : إن الشيوخ قد تهفوا أحلامهم في النذرة . فقلت : إنها المرة بعد المرة . ثم قال لي الأستاذان عتبة بن أرقم وأبو هيرة صاحب عبد الحميد : إننا لنخبط منك ببذاء حيرة . وتقتق أسمعنا منك بعيرة ، وما ندرى أقول : شاعر أم خطيب ؟ فقلت : الإنصاف أولى . والصدع بالحق أحجى ، ولا بد من قضاء . فقالا : اذهب فإنك شاعر خطيب . وانفض الجمع والأبصار إلى ناظرة ، والأعناق نحوى مائلة . قال ابن بسام : وامتد بأبي عامر الكلام في هذا الباب ، ومد فيه أطناب الإطناب والإسهاب ؛ فلذلك وقفت دون الغاية ، وقطعت قبل النهاية .

قوله ، لَمَّا^(١) عراض به لصاحب أبي تمام : « بعمر والقمير الطالع ، والرقيقة المفكوك الطابع » أشار إلى قول أبي تمام^(٢) في غلامه :

يا عمرو قل للقمير الطالع اتسع الخرق على الراقع
يا طول فكري فيك من حامل لرقيقة مفكوك الطابع
ما أنت إلا رشا خاذل حل بمغنى أسد جائع

وحكى الصولي في أخباره قال :

كان أبو تمام يتعشق غلاماً خزرياً للحسن بن وهب . وكان الحسن يتعشق غلاماً رومياً لحبيب . فرآه يعبت بغلامه ، فقال له : والله لئن سرت إلى الرومي لأسيرن إلى الخزري . فقال الحسن : لو شئت حكمتنا واحتكمت ! فقال أبو تمام : أنا أشبهك بداود عليه السلام ، وأشبهني أنا بنخضمه . فقال الحسن : لو كان هذا منظوماً ! فقال أبو تمام من جملة أبيات :

(١) ب ، لب : « فيما » (٢) راجع ديوانه (ص ٤٤٩)

أَذْكَرْتَنِي أَمْرَ دَاوُدَ وَكُنْتُ فَتًى مُصَرَّفَ الْقَلْبِ فِي الْأَهْوَاءِ وَالْفِكَرِ
أَعِنْدَكَ الشَّمْسُ لَمْ يَحْطِ الْمَغِيبُ بِهَا وَأَنْتَ مُسْتَفِلُّ الْأَحْطَاظِ بِالْقَمَرِ ؟
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَتْرُكِ السَّيْرَ الْحَنِثَ إِلَى جَاذِرِ الرُّومِ أَغْنَقْنَا إِلَى الْخَزَرِ
وَرُبَّ أَمْنَعٍ مِنْهُ جَانِبًا وَحِمَى أَمْسَى وَتَكَّاهُ مِنِّي عَلَى خَطَرِ
جَرَدْتُ فِيهِ جُنُودَ الْعَزَمِ فَاكْشَفْتُ عَنْهُ غِيَاهِبَهَا عَنْ نَيْكَةِ هَدَرِ
أَنْتَ الْمُقِيمُ فَمَا تَعْدُو رَوَاحِلُهُ وَأَيُّرُهُ أَبَدًا مِنْهُ عَلَى سَفَرِ
وَقِيلَ لِأَبِي تَمَّامٍ : غُلَامُكَ أَطْوَعُ لِلْحَسَنِ مِنْ غُلَامِهِ لَكَ . قَالَ : أَجَلُ ! لِأَنَّ
غُلَامِي يَجِدُ عِنْدَهُ مَا لَا ، وَأَنَا أُعْطِي غُلَامَهُ قِيلًا وَقَالَ .

وكان ابن الزيات قد وقف على ما كان بينهما في غلاميهما ، فاتفق أن عزم
يومًا غلام أبي تمام على الاحتجام ، فكتب إلى الحسن يعلمه بذلك ، ويستدعيه
مطبوخًا . فوجه إليه بمائة زق^(١) ومائة دينار ، وكتب إليه بشعر يقول فيه :
لَيْتَ شِعْرِي يَا أَمْلَحَ النَّاسِ عِنْدِي هَلْ تَدَاوَيْتَ بِالْحِجَامَةِ بَعْدِي ؟
دَفَعَ اللَّهُ عَنْكَ لِي كُلَّ سُوءٍ بَاكِرٍ رَائِحٍ وَإِنْ خُنْتُ عَهْدِي
قَدْ كَتَمْتُ الْهَوَى بِمَبْلَغِ جَهْدِي فَبَدَا مِنْهُ غَيْرُ مَا كُنْتُ أَبْدِي
وَخَلَعْتُ الْعِذَارَ إِذْ عَلِمَ النَّا سُبَّانِي إِيَّاكَ أَصْفِي بُوْدِي
فَلْيَقُولُوا بِمَا أَحْبَبُوا إِذَا كُنْ تَ وَضُولًا وَلَمْ تَرُعْنِي بِصَدِّ
وَاتَّفَقَ أَنْ وَضَعَ الرُّقْمَةَ تَحْتَ مُصَلَّاهُ . وَبَلَغَ مُحَمَّدُ بْنُ الزِّيَاتِ خَبْرَهَا ، فَوَجَّهَ
إِلَى الْحَسَنِ مَنْ سَفَلَهُ بِالْحَدِيثِ ، وَأَمَرَ مَنْ جَاءَهُ بِتِلْكَ الرُّقْمَةِ ، فَفَكَهَا وَقَرَأَهَا
وَكَتَبَ فِيهَا عَلَى لِسَانِ أَبِي تَمَّامٍ :

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ لَيْتَ شِعْرِكَ هَذَا أَهْزَلِ تَقُولُهُ أَمْ بِيَجْدُ ؟

فَلَمَّا كُنْتَ فِي الْمَقَالِ مُجِدًّا يَا ابْنَ وَهْبٍ لَقَدْ تَطَرَّفْتَ بَعْدِي
وَتَشَبَّهْتَ بِي وَكُنْتُ أَرَى أَنَّي أَنَا الْعَاشِقُ الْمُتَمِّمُ وَخُدِي
لَا أَحِبُّ الذِي يَلُومُ وَإِنْ كَانَ نَ حَرِيصًا عَلَى صَلَاحِي وَرُشْدِي
بَلْ أَحِبُّ الْأَخَ الْمُشَارِكَ فِي الْحُبِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ مِثْلُ وَجْدِي
كَنْدِيمِي أَبِي عَلِيٍّ وَحَاشَا لِنَدِيمِي مِنْ مِثْلِ شِقْوَةِ جَدِّي
إِنْ مَوْلَايَ عِنْدَ غَيْرِي وَلَوْلَا شَوْمُ جَدِّي لَكَانَ مَوْلَايَ عِنْدِي

ثم قال : ضَمُّوا الرُّقْعَةَ مَكَانَهَا . فَلَمَّا قَرَأَهَا الْحَسَنُ قَالَ : إِنَّا لِلَّهِ ! افْتَضَحْنَا
وَاللَّهِ عِنْدَ الْوَزِيرِ ! وَأَعْلَمَ أَبَا تَمَّامٍ بِمَا جَرَى ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِالرُّقْعَةِ . فَلَقِيَا مُحَمَّدَ بْنَ
عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَا لَهُ : إِنَّمَا جَعَلْنَا هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ سَبَبًا لَتَسْكَاتِنَا بِالْأَشْعَارِ « فَلَا يَظُنُّ
الْوَزِيرُ — أَعَزَّهُ اللَّهُ — إِلَّا خَيْرًا . فَقَالَ : وَمَنْ يَظُنُّ غَيْرَ هَذَا بِكُمَا ؟ فَكَانَ
قَوْلُهُ أَشَدَّ عَلَيْهِمَا .

رجع :

قال ابن بسام : قال ابن حبان : وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي
الذي به عَرَضُ ، وجعله الغرض ، قد بدَّ أهل زمانه بِقُرْطُبَةٍ « فِي عِلْمِ اللُّسَانِ
العَرَبِيِّ ، وَالضَّبْطِ لَغَرِيبِ اللُّغَةِ « فِي أَلْفَاظِ الْأَشْعَارِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ «
وَالْمُشَارَكَةِ فِي بَعْضِ مَعَانِيهَا . وَكَانَ غَيْرًا عَلَى مَا يَحْمِلُ مِنْ ذَلِكَ الْفَنِّ ، كَثِيرُ
الْحَسَدِ فِيهِ ، رَاكِبًا رَأْسَهُ فِي الْخَطَا الْبَيِّنِ إِذَا تَقَلَّدَهُ أَوْ نَشَبَ فِيهِ ، يُجَادِلُ عَلَيْهِ «
وَلَا يَصْرِفُهُ صَارْفٌ عَنْهُ . وَعَدِمَ عِلْمَ الْعُرُوضِ وَمَعْرِفَتَهُ مَعَ احْتِيَاجِهِ إِلَيْهِ ،
وَإِكْمَالِ ^(١) صِنَاعَتِهِ بِهِ « فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شُرُوعٌ ^(٢) فِيهِ . وَكَانَ لِحَقِّ الْفِتْنَةِ الْبَرَبَرِيَّةِ

(١) م : « وكمال » (٢) م : « رسوخ »

بُقْرُطْبَةِ ، وَمَضَى النَّاسُ مِنْ حَائِنٍ ^(١) وَظَاعِنٍ ، فَازْدَلَفَ إِلَى الْأَمْرَاءِ الْمَتَدَاوِلِينَ
بُقْرُطْبَةَ مِنْ آلِ حَمُودٍ وَمَنْ تَلَّاهُمْ إِلَى أَنْ نَالَ الْجَاهُ .

وَاسْتَكْتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُسْتَكْنَفِيِّ بَعْدَ ابْنِ بُرْدٍ ، فَوَقَعَ كَلَامُهُ جَانِبًا
مِنَ الْبَلَاغَةِ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُعَلِّمِينَ الْمُتَكَلِّفِينَ ^(٢) ، فَلَمْ يَجْرِ فِي أُسَالِيبِ
الْكِتَابِ الْمَطْبُوعِينَ ^(٣) فَرْهَدَ فِيهِ . وَمَا بَلَغَنِي أَنَّهُ أَلَّفَ فِي شَيْءٍ مِنْ فَنُونِ الْمَعْرِفَةِ
إِلَّا كِتَابَهُ فِي شَعْرِ الْمُنْتَبِيِّ ^(٤) لَا غَيْرَ . وَلِحَقَّتْهُ تَهْمَةٌ فِي دِينِهِ فِي أَيَّامِ هِشَامِ
الْمَرْوَانِيِّ فِي جُمْلَةٍ مَنْ تَتَبَعَ مِنَ الْأَطِبَّاءِ فِي وَقْتِهِ كَابْنِ عَاصِمٍ وَالْبَسْبَاسِيِّ ^(٥) وَالْحَمَّارِ
وغيرهم . وَطُلِبَ ابْنُ الْإِفْلِيلِيِّ وَسُجِنَ بِالْمُطَبَّقِ ، ثُمَّ أُطْلِقَ ^(٥) . وَفِيهِ يَقُولُ مُوسَى
ابْنُ الطَّائِفِ مِنْ قَصِيدَةٍ :

يَا مُبْصِرًا عَيِّتَ نَوَاطِرُ ^(٦) فَهَمِّهِ	عَنْ كُنْهِ عَرْضِي فِي الْبَدِيعِ وَطُولِي	١٠
لَوْ كُنْتُ تَعَقَّلْتُ ^(٧) مَا جَهِلْتُ مَقَاوِمِي	مَنْ ضَاقَ فَرَسَخُهُ بِخُطْوَةٍ مِيلِ	
وَلَيْنَ ثَلَبْتُ الشُّعْرَ وَهُوَ أَبَاطِلُ	فَلَقَدْ ثَلَبْتُ حَقَائِقَ التَّنْزِيلِ	
وَخَلَعْتُ رَبْقَ الدِّينِ عَنْكَ مُنَابِدًا	وَلَبِيسَتَ ثَوْبِ الزَّيْفِ وَالْتَعْطِيلِ	
وَأَقَمْتُ لِلْجَهْلِ مِثْلَكَ فِي الْغَبَا ^(٨)	عَلَّمَا مَشَيْتَ أَمَامَهُ بَرَعِيْلُ	
وَمِنَ الْمَغَايِظِ أَنْ تَكُونَ مَقْلَدًا	عَلَّمَا ، وَلَوْ مَقْدَارَ وَزْنٍ فَتِيلِ	١٥
تَعْتَلُّ فِي الْأَمْرِ الصَّحِيحِ مُعَانِدًا	أَبَدًا ، وَفَهْمُكَ ^(٩) عِلَّةُ الْمَغْلُولِ	

(١) هـ : « حائر » (٢) هـ : « المتكلمين »

(٣-٣) هـ في ب (٤) ر : « والنيابي » — ب ، لب : « السباسي »

والتصحيح عن ابن أبي أصيبعة (ج ٢ ص ٤٧) (٥) هـ : « أطلق »

(٦) ر : « بواطن » (٧) ب ، لب ، هـ : « تعلم »

(٨) ب ، لب : « الغنا » — هـ : « الغنا » (٩) هـ : « وفهمت منه »

وَتَظُنُّ أَنَّكَ مِنْ فَنُونِي مُوسِرٌ وَكَثِيرُ شَأْنِكَ لَا يَفِي بِقَلِيلِي
سَيَسْأَلُ رُوحَكَ مَنْ خَبِيثِ قَرَارِهِ تَأْثِيرُ هَذَا الصَّارِمِ الْمَصْفُولِ
وَأُخْصُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ الرِّضَا لِيُعِيدَ عَقْدَ رَبَاطِكَ الْمَحْلُولِ
وَأُرِيكَ رَأَى الْعَيْنِ أَنَّكَ ذَرَّةٌ عَبَّتْ بِهَا مِنِّي قَوَائِمُ فَيْلِ

رجع الحديث إلى أخبار ابن شهيد

قال أبو عامر : وحضرت أنا أيضاً وزهيرٌ مجلساً من مجالس الجن ،
فتذاكرنا ما تاورثه الشعراء من المعاني ، ومن زاد فأحسن الأخذ ، ومن قصر .
فأنشد قول الأَفْوَه بعض من حضر :

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأَى عَيْنٍ ، ثِقَةً أَنْ سَمَارُ
وَأَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ النَّابِغَةِ (١) :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَابُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَابِ
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْرًا عُمُونُهَا جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ
جَوَانِحَ قَدْ أَيْقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا التَّقَى الْجَيْشَانِ أَوَّلُ غَالِبِ
وَأَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ أَبِي نُوَّاسٍ (٢) :

تَتَأَيَّي الطَّيْرُ غَدْوَتَهُ ثِقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزَرِهِ
وَأَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ صَرِيعِ الْفَوَانِي (٣) :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثَقَنَ بِهَا فَهَنْ يَتَبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ
وَأَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ (٤) :

وَقَدْ ظَلَلَتْ عِقْبَانُ أَغْلَامِهِ ضُحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ

(٢) راجع ديوانه (ص ٦٩)
(٤) راجع ديوانه (ص ٢٢٠)

(١) راجع ديوانه (ص ٤٢)
(٣) راجع ديوانه (ص ٩)

أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ ^(١) حَتَّى كَانَتْهَا مِنْ الْجَيْشِ ، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقَاتِلِ
فَقَالَ شَمْرَدَلُ السَّحَابِي : كُلُّهُمْ قَصَّرَ عَنِ النَّابِغَةِ ؛ لِأَنَّهُ زَادَ فِي الْمَعْنَى وَدَلَّ
عَلَى أَنَّ الطَّيْرَ إِنَّمَا أَكَلَتْ أَعْدَاءَ الْمَدُوحِ ، وَكَلَامُهُمْ كُلُّهُمْ مُشْتَرِكٌ يَحْتَمِلُ أَنْ
يَكُونَ ضِدًّا مَا نَوَاهُ الشَّاعِرُ ، وَإِنْ كَانَ أَبُو تَمَّامٍ قَدْ زَادَ فِي الْمَعْنَى . وَإِنَّمَا الْحَسَنُ
الْمُتَخَلِّصُ الْمُتَنَبِّئُ ^(٢) حَيْثُ يَقُولُ :

لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى بِهَا عَسْكَرًا لَمْ تَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ
وَكَانَ بِالْحَضْرَةِ فَتَى حَسَنُ الْبِرَّةِ ، فَاحْتَدَّ لِقَوْلِ شَمْرَدَلٍ . فَقَالَ : الْأَمْرُ
عَلَى مَا ^(٣) ذَكَرْتَ يَا شَمْرَدَلُ . وَلَكِنْ مَا تَسْأَلُ الطَّيْرُ إِذَا شَبِعَتْ أَى الْقَبِيلَيْنِ
الْغَالِبِ . وَأَمَّا الطَّيْرُ الْآخِرُ فَلَا أَدْرِي لِأَى مَعْنَى عَافَتْ الطَّيْرُ الْجَاهِلِ دُونَ عِظَامِ
السُّوقِ وَالْأَذْرُعِ وَالْفِقَارَاتِ وَالْعَصَاصِ ؟ وَلَكِنْ الَّذِي خَلَصَ هَذَا الْمَعْنَى كُلَّهُ ،
وَزَادَ فِيهِ ، وَأَحْسَنَ التَّرْكِيبِ ، وَدَلَّ بِلَفْظِهِ وَاحِدَةً عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ شِعْرُ النَّابِغَةِ
وَبَيْتُ الْمُتَنَبِّئِ . مِنْ أَنَّ الْقَتْلَى الَّتِي أَكَلَتْهَا الطَّيْرُ أَعْدَاءَ الْمَدُوحِ . فَاتِكَ بَنُ
الصَّفَقَبِ فِي قَوْلِهِ :

وَتَدْرِي سِبَاعُ الطَّيْرِ أَنَّ كُمَاتَهُ إِذَا لَقِيَتْ صَيْدَ الْكِمَاةِ سِبَاعُ
لَهْنٌ لَمَّابٌ فِي الْهَوَاءِ وَهَزَّةُ إِذَا جَدَّ بَيْنَ الدَّارِعَيْنِ قِرَاعُ
تَطِيرُ جِياعًا فَوْقَهُ وَتَرُدُّهَا ظُبَاهُ إِلَى الْأَوْكَارِ وَهِيَ سِبَاعُ
تَمَلَّكَ بِالْإِحْسَانِ رِبْقَةً رَقَّتْهَا فَهَنْ رَقِيقٌ يُشْتَرَى وَيُبَاعُ
وَالْحَمَّ مِنْ أَفْرَاحِهَا فَهِيَ طَوْعُهُ لَدَى كُلِّ حَرْبٍ وَالْمُلُوكُ تَطَاعُ
تُصَاصِعُ جَرَحَاهَا فَيُجْهِزُ نَقْرُهَا عَلَيْهِمْ ، وَلِلطَّيْرِ الْعِتَاقُ مِصَاعُ

(١) ب ، لب ، وه : « الفرسان » (٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٤٠)

(٣) ر : « كا »

فاهتز المجلس لقوله « وعلموا صدقه . فقلت لزهير : مَنْ فاتك بن الصَّعْب ؟
قال : يعني نفسه . قلت له : فهَلَّا عَرَفْتَنِي شَأْنَهُ مِنْذُ حِينَ ؟ ^(١) إني لأرى نزاعاتٍ
كريمة ^(٢) . وقتُ جلستُ إليه جلسةَ المعظم له . فاستدار نحوي ^(٣) ، مكرِّماً لمكانِي ،
قلت : جُدْ أَرْضَنَا — أعزَّكَ اللهُ — بِسَحابِكِ « وأمطرنا بغيونِ آدابِكِ . قال :
سَلْ عما شئتُ . قلتُ : أَيُّ معنى سَبَقَكَ إلى الإحسانِ فيه غيرُك ؟ فوجدته حين
رُمتَه صعباً عليك إلا أنك نفذتَ فيه ؟ قال : معنى قولِ الكِنْدِيِّ ^(٤) :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالٍ

قلتُ : أعزَّكَ اللهُ ^(٥) ، هو من العُقمِ . ألا ترى عُمرَ بنَ أبي ربيعة ، وهو من
أطبعِ الناسِ حين رَامَ الدُّنُوَّ منه والإمامَ به ، كيف افتضح في قوله ^(٦) :

وَنَفَضْتُ عَنِّي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْحَبَابِ وَرُكْنِي خِيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ ١٠

قال : صدقت ، إِنَّه أساءَ قِسْمَةَ الْبَيْتِ ، وأراد أن يُلَطِّفَ التَّوَصُّلَ ، فجاء مَقْبِلاً
بركنِ كَرُّ كُنْهِ أَزُورُ ^(٧) . فأعجبني ذلك منه . وما زلتُ مقدِّماً لهذا المعنى رجلاً ،
ومؤخراً عنه أخرى ، حتى مررتُ بشيخٍ يُعَلِّمُ بُنْيَانَهُ صِنَاعَةَ الشَّعْرِ وهو يقولُ
له : إذا اعتمدتَ معنًى قد سبقك إليه غيرُك فأحسنَ تَرْكِيبَهُ « وَأَرَقَّ حَاشِيَتَهُ
فاضربْ عنه جُمْلَةً . وإن لم يكنْ بَدْفِي غيرِ العَروضِ التي تقدِّمُ إليها ذلكَ المُحْسِنُ ١٥
لَتَنْبَسَطَ ^(٨) طَبِيعَتُكَ ، وتقوى مُنْتَبِهُكَ . فتذكرتُ قولَ الشاعرِ وقد كنتُ أنْسِيْتُهُ :

لَمَّا تَسَامَى النَّجْمُ فِي أَفْقِهِ وَلَا حَتِ الْجَوَازُ وَالْمِرْزَمُ

(١ — ١) هـ ب ، لب ، و

(٢) ر : « حول »

(٣) راجع ديوانه (ص ١٠٨)

(٤) لب ، ر : « عذرك الله »

(٥) رواية البيت (ديوانه ص ٢) :

وخفض عن الصوت أقبلت مشية الـ حباب وشخصى خشية الحى أزور

(٦) ب ، لب : « بركن أزور كركن أزورك ذلك » (٧) ب ، لب : « لتنبسط »

أَقْبَلْتُ وَالْوَطءُ خَفِيفٌ كَمَا يَنْسَابُ مِنْ مَكْمَنِهِ الْأَرْقَمُ
فَعَلِمْتُ أَنَّهُ ^(١) صَدَقَ . وابن أبي ربيعة لوركب غير عروضة لَخَلَصَ ^(٢) . فقلتُ
أَنَا ^(٣) في ذلك ^(٣) :

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ فَنَامَ وَنَامَتْ ^(٤) عُيُونُ الْعَسَسِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى بُعْدِهِ دُنُوٌّ رَفِيقٍ دَرَى ^(٥) مَا التَّمَسِ
أَدَبُ إِلَيْهِ دَيْبُ الْكَرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ
وَبَتْ بِهِ لَيْسَتِي نَاعِمًا إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَقَرُ الْفَلَسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطَّلَا ^(٦) وَأَرْشَفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعْسِ ^(٧)

فَقَمْتُ وَقَبَّلْتُ عَلَى رَأْسِهِ ، وقلتُ : لَلَّهِ دَرُّ أَبِيكَ !

قال ابن بسام : وذَكَرَ بعضُ الرُّوَاةِ أَنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، ^(٨) نَعْنَى الْبَيْتَيْنِ ١٠
الْمُتَقَدِّمَيْنِ عَلَى شَعْرِ أَبِي عَامِرٍ ^(٨) ، غَنَى بِهِمَا فِي مَجْلِسِ الْوَائِقِ مُخَارِقُ ، فَطَرِبَ
وَاسْتَمْلَحَ مَعْنَاهُمَا ، وَقَالَ الْوَائِقُ :

قَالَتْ إِذَا اللَّيْلُ دَجَا فَأَتَيْنَا فَجِئْتُمَا حِينَ دَجَا اللَّيْلُ
خَفَى وَطءُ الرَّجُلِ مِنْ حَارِسٍ وَلَوْ دَرَى حَلَّ بِهِ ^(٩) الْوَيْلُ
وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي دَهْبَلِ الْجُمَحِيِّ :
قَالَتْ : إِذَا مَا جِئْتُنَا فَأَتَيْنَا ^(١٠)
لَيْلًا إِذَا هَجَجَ ^(١١) السَّامِرُ

(١) ب ، لب : « فقلت : إنه » (٢) ب ، لب : « لتخلص » — وه :

« للمح » (٣-٣) ز في ب ، لب (٤) ب ، لب ، وه : « وملت »

(٥) ب ، لب : « دنا » (٦) ر : « الصلي »

(٧) هـ في ب ، لب (٨-٨) هـ في ب ، لب

(٩) ر ، وه : « بي » (١٠) وه : « قالت : لقد أعييتنا حجة » فأت المح »

(١١) ب ، لب : « رقد »

وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسُوتِ النَّدَى لَيْلَةً لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ
قال أبو عامر : فقال لي فإنيك بن الصَّقْعَب : فهل جاذبت^(١) أنت أحداً من
الْفُجُول ؟ قلتُ : نعم ، قول أبي الطَّيِّب^(٢) :

أَخْلَعُ الْمَجْدَ عَنْ كِنْفِي وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرُكُ الْغَيْثَ فِي غِمْدِي وَأَنْتَجِعُ ؟
قال لي : بماذا ؟ قلتُ بقولي^(٣) :

وَمِنْ قُبَّةٍ لَا يُذْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَهَا تَرُلُ بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَتَحْدَرُ
إِذَا زَاخَمَتْ مِنْهَا الْمَخَارِمَ صَوَّبَتْ هُويًا عَلَى بَعْدِ الْمَدَى وَهِيَ تَجَارُ
تَكَلَّفَتْهَا وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بَحْرُهُ وَقَدْ جَعَلَتْ أَمْوَاجُهُ تَتَكَسَّرُ
وَمِنْ تَحْتِ حِصْنِي أَبْيَضُ ذَوْسُفَاسِقٍ وَفِي الْكَفِّ مِنْ عَسَالَةِ الْخَطِّ أَسْمَرُ
هُمَا صَاحِبَايَ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يَافِعًا مُقِيلَانِ مِنْ جَدِّ الْفَتَى حِينَ يَغْتَرُ
فَذَا جَدُّوْلٌ فِي الْغِمْدِ تُسْقَى بِهِ الْمَنَى وَذَا غُصْنٌ فِي الْكَفِّ يُجْنَى فَيُشْمَرُ
فقال : والله لئن كان الغَيْثُ أبلغ ، فلقد زدت زيادةً مليحة طريفة ، واخترعت
معاني لطيفة . هل غيرُ هذا ؟ فقلتُ : وقوله^(٤) أيضاً :

وَأُظْلِمَا فَلَا أُبْدِي إِلَى الْمَاءِ حَاجَةً وَلِلشَّمْسِ فَوْقَ الْيَعْمَلَاتِ لُعَابُ
قال : بماذا ؟ قلتُ : بقولي :

وَلَمْ أَنْسَ بِالنَّائُوسِ أَيَّامَنَا الْأَلَى بِهَا أَيْنُنَا^(٥) مَحْبُوبُهَا وَحُبُّهَا
وَفَتْنَةُ صَرْبٍ مِنْ زَنَاتَةِ مُمَطِّرٍ يَوْبِلُ الْمَنَايَا طَعْنَهَا وَضُرَابُهَا
وَقَفْنَا عَلَى جَمْرٍِ مِنَ الْمَوْتِ وَقَفَّةٍ صِلَى لَفَاهُ دَابُّ قَوْمِي وَدَابُّهَا^(٦)

(١) ب ، لب : « جاريت » (٢) راجع ديوانه (ج ١ ص ٤٠٢)

(٣) وردت هذه الأبيات في ص ٢١٢ (٤) راجع ديوانه (ج ١ ص ١٣٤)

(٥) ر : « اتينا » ، و : « ايتنا عفوها » لب : « اتينا »

(٦) هذا البيت ناقص في ب

إِذَا الشَّمْسُ رَامَتْ فِيهِ كُلَّ لَحْوِمِنَا^(١) جَرَى جَشَعًا فَوْقَ الْجِيَادِ لَعَابَهَا
فَصَاحَ صَيْحَةً مُنْكَرَةً مِنْ صِيَاحِ الْجَنِّ كَادُ يُنْخَبُ^(٢) لَهَا فَوَادَى فَرَعًا وَاللَّهُ
مِنْهُ . وَكَانَ بَنَجْوَةً مِّنَا جَنِّيٌّ كَأَنَّهُ هَضْبَةٌ لِرَ كَانَتْهُ وَتَقَبَّضُهُ ، يَحْدَقُ فِي دُونِهِمْ ،
يَرْمِينِي^(٣) بِسَهْمَيْنِ نَافِذَيْنِ « وَأَنَا أَلُوذُ بِطَرْفِي عَنْهُ ، وَأَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ
مَلَأَ^(٤) عَيْنِي وَنَفْسِي . فَقَالَ لِي لَمَّا اتَّهَيْتُ ، وَقَدْ اسْتَغْفَنَهُ الْحَسَدُ : عَلَى مَنْ^(٥) .
أَخَذْتَ الزَّيْمِرَ ؟ قُلْتُ : وَإِنَّمَا أَنَا نَفَاحٌ عِنْدَكَ مِنْذُ الْيَوْمِ ؟ قَالَ : أَجَل ! أَعْطَانَا
كَلَامًا يَرَعَى تِلَاعَ الْفَصَاحَةِ « وَيَسْتَعِجُّ بِمَاءِ الْعَذُوبَةِ وَالْبَرَاءَةِ ، شَدِيدَ الْأَسْرِ
جَيِّدَ النَّظَامِ « وَضَعَهُ عَلَى أَيِّ مَعْنَى شِئْتُ . قُلْتُ : كَأَيِّ كَلَامٍ ؟ قَالَ : كَكَلَامِ
أَبِي الطَّيِّبِ^(٦) :

نَزَلْنَا عَلَى الْأَكْوَارِ تَمْشِي كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبًا ١٠
نَذَمُ السَّحَابَ الْعَرَّ فِي فِعْلِهَا بِهِ وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتَبًا
وَكَقُولُهُ^(٧) :

أَرَأَيْتَ أَكْبَرَ هَمٍّ مِنْ نَاقَتِي حَمَلَتْ يَدًا سُرْحًا وَخُفًا مُجْمَرًا
تَرَكْتَ دُخَانَ الرَّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعَنْبَرَا
وَتَرَفَّعَتْ رُكْبَاتُهَا عَنْ مَبْرَكِي تَقَعَانِ فِيهِ ، وَلَيْسَ مِسْكَأَذْفَرَا ١٥
فَأَنْتَكَ دَامِيَّةُ الْأُظْلَى كَأَنَّمَا حَذِيَّتْ قَوَائِمُهَا الْعَقِيقَ الْأَحْمَرَا
وَكَقُولُهُ^(٨) :

عَلَى كُلِّ طَاوٍ^(٩) تَحْتَ طَاوٍ كَأَنَّمَا مِنْ الدَّمِ يُسْقَى أَوْ مِنْ اللَّحْمِ يُطْعَمُ

(١) ب ، لب : « لحومها » (٢) ب ، لب ، وه : « ينبج »

(٣) وه : « ويرميني » (٤) ب ، لب : « كان ملء »

(٥) ب ، لب ، وه : « وعن »

(٦) راجع ديوانه (ج ١ ص ٤٠) (٧) راجع ديوانه (ج ١ ص ٣٦٨)

(٨) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٥٦) (٩) ر : « ظام »

لَهَا تَحْتَهُمْ زِيُّ الْفَوَارِسِ فَوْقَهَا فَكُلُّ حِصَانٍ دَارِعٌ مُتَلَتِّمٌ
وَمَا ذَاكَ بُحْلًا بِالنَّفُوسِ عَلَى الْقَنَا وَلَكِنَّ صَدَمَ الشَّرِّ بِالشَّرِّ أَحْزَمُ
فَادَنِي ^(١) وَاللَّهِ بِمَا ^(٢) قَرَعَ بِهِ سَمْعِي ۖ وَقُلْتُ لَهُ : أَيُّ مَاءٍ لَوْ كَانَ مِنْ جِوَاهِرٍ ،
وَأَسْتَهَلَّتْ بِهِ عَيْنُونَ غَمَامِكَ ! ثُمَّ اسْتَقَدَمْتُ ^(٣) فَأَنْشَدْتُهُ ^(٤) :

وَلَرُبَّ لَيْلٍ لِلْهُمُومِ تَهَدَّلَتْ أَسْتَارُهُ فَمَحَا الصَّوَى بِسُتُورِهِ
كَالْبَحْرِ يَضْرِبُ وَجْهَهُ ^(٥) فِي وَجْهِهِ صَغَبٌ عَلَى الْعَبَّارِ وَجْهُهُ عُيُورُهُ
طَاوَلْتُهُ مِنْ عَزَمَتِي بِمُضَبَّرٍ أَثْبَتُ هَمِّي فِي قَرَارَةِ كُورِهِ
وَعَلَى اللَّصْبِ الْجَمِيلِ مُفَاضَةٌ تَلْقَى الرَّدَى فَتَكِلُ دُونَ صُبُورِهِ
وَبِرَاحَتِي مِنْ فِكْرَتِي ^(٦) ذُوذُ كُرَةٍ عَهَدْتُ تَذَاكِرُنِي لِطَبْعِ ^(٧) ذِكْرِهِ
فَرَدَا إِذَا بَعَثْتُ دِيَاغِي جِنْحَهُ هَوَلًا عَلَى خَبَطَتِي فِي دَيْجُورِهِ
حَتَّى بَدَا عَبْدُ الْعَزِيزِ لِنَاظِرِي أَمَلِي فَمَزَقْتُ الدَّجَى عَنْ نُورِهِ
وَأَنْشَدْتُهُ ^(٨) :

اللَّهُ فِي أَرْضٍ غُذِيَتْ هَوَاءَهَا وَعِصَابَةٌ لَمْ تَسْهَمْ إِشْفَاقَهَا
نَكَزَتْهُمْ أَفْعَى الْخُطُوبِ وَعُوجِلُوا بِمَثَلٍ مِنْهَا فَكُنْ دِرْيَاقَهَا
وَأَفْتَحْ مَعَالِقَهَا بِعِزْمَةٍ فَيَنْصَلِّ لَوْ حَاوَلْتَ سَوْقَ الثَّرَيَّا سَاقَهَا
وَلَوْ أَنَّهَا مِنْهُ إِذَا مَا اسْتَلَّهَا تَتَعَرَّضُ الْجُوزَاءُ حَلَّ نِطَاقَهَا
وَأَنْشَدْتُهُ :

لَا تَبْكِينَ مِنَ اللَّيَالِي أَنَّهَا حَرَمْتُكَ نَغْبَةً شَارِبٍ مِنْ مَشْرَبِ

- (١) هـ : « فادني » — ب ، لب : « فادني » (٢) ب ، لب : « مما » —
ب ، هـ : « ممن » (٣) ر : « استعزمت » ، ب ، ب : « استغربه » ،
لب : « استعزمت » (٤) وردت هذه الأبيات في ص ١٧٧
(٥) هـ : « موجه » (٦) ب ، لب : « همي »
(٧) هـ : « تذكرني بطبع » (٨) لم تقع هذه المقطوعة في ب ، لب

فَأَقْلُ مَالِكَ عِنْدَهَا سَيْفُ الرَّدَى يُسْتَلُّ مِنْ شَعْرِ الْقَذَالِ الْأَشِيبِ
وَرَحِيلُ عَيْشِكَ كُلِّ رَحْلَةٍ سَاعَةٍ وَفَنَاءُ طَيْبِكَ فِي الزَّمَانِ الْأَطِيبِ
فَإِذَا بَكَيْتَ فَبِكَ عُمْرُكَ ، إِنَّهُ زَجَلُ الْجَنَاحِ يَمُرُّمَرَّ الْكَوْكَبِ
وَأَنْشَدْتُهُ .

وَلَمْ أَرْ مِثْلِي مَالَهُ مِنْ مُعَاصِرِ وَلَا كَمَضَائِي ^(١) مَالَهُ مِنْ مُضَافِرِ ^(٢) ٥
وَلَوْ كَانَ لِي فِي الْجَوِّ كَسْرٌ ^(٣) أَوْ مَهْ رَكِبْتُ إِلَيْهِ ظَهَرَ فَتَخَاءَ كَاسِرِ
وَهَمَّتْ بِإِجْهَاشٍ عَلَيَّ وَقَدْ رَأَتْ مُصَابِي فِي آثَارِ إِحْدَى الْكَبَائِرِ
فَقُلْتُ لَهَا : إِنْ تَجَزَّعِي مِنْ مُحَاطِرِ فَإِنَّكَ لَنْ ^(٤) تَحْطَى بِغَيْرِ الْخَاطِرِ ^(٥)
تَشَهَّتْ ثَمَارَ الْوَفْرِ مِنِّي وَأَنَهَا لَدَى كُلِّ مُنِيعٍ الْعَنَانِيزِ ^(٦) وَافِرِ ^(٧)
لَهُ فِي بَيَاضِ الْيَوْمِ يَقْظَةُ فَاجِرِ وَتَحْتَ سَوَادِ اللَّيْلِ هَجْعَةُ كَافِرِ ١٠
رُؤْيَدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غِيَابَهُ هَذَا الْعَارِضِ الْمُتَنَاطِرِ
وَدُونَ اغْتِرَامِي ^(٨) هَضْبَةُ كَسْرَوِيَّةِ مِنَ الْحَزْمِ سَلْمَانِيَّةِ فِي الْمَكَاسِرِ
إِذَا نَحْنُ أَسْنَدْنَا إِلَيْهَا تَبَلَّجَتْ ^(٩) مَوَارِدُنَا عَنْ نَبَرَاتِ الْمَصَادِرِ
وَأَنْتِ ابْنُ حَزْمٍ مُنْعِشٍ مِنْ عِثَارِهَا إِذَا مَا شَرَقْنَا ^(١٠) بِالْجُدُودِ الْعَوَاطِرِ
وَمَاجِرَ أَذْيَالِ الْغَنَى نَحْوَ بَيْتِهِ كَأَرْوَعٍ مُعْرُورٍ ظُهُورَ الْجَرَائِرِ ١٥ ^(١١)

- (١) ب ، ت ، لب : « كصابي » (٢) و : « مظاهر » — ب ، لب ،
ت : « مظافر » (٣) و ، ب ، لب ، ت : « أن لي ... كسرا »
(٤) لب ، ت ، ب : « لم » (٥) : « الخطائر »
(٦) كذا في الأصل ، ولعله : « العنانين »
(٧) هذا البيت والذي يليه لم يقعا إلا في ر (٨) ت ، و : « اغترابي »
(٩) لب ، ت ، ب : « إليك ببلجة » (١٠) ب : « شرفنا »
(١١) هذا البيت ناقص في ب ، لب ، ت

إِذَا مَا تَبَغَّى نَضْرَةَ الْعَيْشِ كَرَّهَا ^(١)
فَسَلَّ مِنَ التَّأْوِيلِ فِيهَا مُنْهَدًا ^(٢)
لِمُعْتَزِلِي الرَّأْيِ نَاءٌ عَنِ الْهُدَى
يُطَالِبُ بِالْمُنْدَى فِي كُلِّ فَتْكَةٍ ^(٣)
وَأُنْشَدَتْهُ :

وَقَالَتِ النَّفْسُ لَمَّا أَنْ خَلَوْتُ بِهَا
حَتَّامٌ أَنْتَ عَلَى الضَّرَاءِ مُضْطَجِعٌ
وَفِي الشَّرَى لَكَ، لَوْ أَرَمَعْتُ مُرْتَحِلًا،
ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ بِفَضْلِ الْقَوْلِ تُهْضِنِي ^(٤)
الْمُخْجِفِينَ رَدَاءَ الشَّمْسِ مَجْدُهُمْ ^(٥)
أَلَمْتُ ^(٦) بِالْحُبِّ حَتَّى لَوْ دَنَا أَجَلِي
وَذَادَنِي كَرِمِي عَمَّنْ وَلِهْتُ بِهِ
تَخَوَّنَنِي رَجُلٌ طَالَمَا شَكَرْتُ
لَنْ وَرَدْتُ سُهَيْلًا غِبَّ ثَالِثَةً
هُنَاكَ لَا تَبْتَغِي غَيْرَ السَّنَاءِ يَدِي ^(٧)
حَتَّى تَرَانِي فِي أَدْنَى مَوَاكِهْمُ

أَشْكُو إِلَيْهَا الْهُوَى خِلَافًا مِنَ النَّعَمِ :
مُعَرَّسٌ فِي دِيَارِ الظُّلْمِ وَالظُّلَمِ ؟
بُرْءٍ مِنَ الشُّوْقِ أَوْ بُرْءٍ مِنَ الْقَدَمِ ^(٨)
فَقُلْتُ : إِنِّي لَأَسْتَحْيِي بَنِي الْحَكَمِ
وَالْمُنْعَيْنِ الثَّرِيًّا أَخْصَصَ الْقَدَمِ ^(٩)
لَمَّا وَجَدْتُ لِطْفِ الْمَوْتِ مِنْ أَلَمِ
وَيْلِي مِنَ الْحُبِّ أَوْ وَيْلِي مِنَ الْكَرَمِ
عَهْدِي وَأَنْتَ بِمَا رَأَيْتُ مِنْ ذِمَمِ
لَتَقْرَعَنَّ عَلَى السَّنِّ مِنْ نَدَمِ
وَلَا تَخَفُ إِلَى غَيْرِ الْعَلَا قَدَمِي
عَلَى النَّعَامَةِ سَلَالًا مِنَ النَّعَمِ

(١) وه : « جرّها »

(٢) ر : « مقيدا »

(٣) ب ، ت ، لب ، وه : « أها »

(٤) هذا البيت ناقص في ب ، لب ، ت (٥) ر ، لب ، ت : « فتكة »

(٦) هذا البيت ناقص في ب ، لب ، ت (٧) ر : « بفصل »

(٨) وه : « تقبضي » (٩) ب ، ت ، لب : « اللهم »

(١٠) كذا في جميع النسخ ولعلها : « ألت »

رَيَّانَ مِنْ زَفَرَاتِ الْخَيْلِ أُورِدَهَا أَمْوَادَ نَيْطَةِ^(١) تَهْوِي فِيهِ بِاللَّحْمِ
قُدَّامَ أَرْوَغٍ مِنْ قَوْمٍ وَجَدْتُهُمْ أَرْعَى إِحْقَ الْعُلَامِ مِنْ سَالِفِ^(٢) الْأُمَمِ
فَفَتَحَ عَلَى عَيْنَيْنِ كَلِمَاوَيْتَيْنِ^(٣) ثُمَّ قَالَ لِي : مَنْ الْقَائِلُ ؟
طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا فَحَسِبْنَاهُ لَيْبًا
وَالْتَقَيْنَا فَرَأَيْنَا هُ بَعِيدًا وَقَرِيبًا

قلتُ : أَيْ ، قَالَ : مَنْ الْقَائِلُ ؟

فَيَا مَنْ إِذَا رَامَ مَعْنَى كَلَامِي رَأَى نَفْسَهُ نُصِبَ تِلْكَ الْمَعَانِي^(٤)
شَكُوتُ إِلَيْكَ صُرُوفَ الزَّمَانِ فَلَمْ تَعُدْ أَنْ كُنْتَ عَوْنَ الزَّمَانِ
وَتَقْصُرُ عَنْ مَمْتِي قُدْرَتِي فَيَا لَيْتَنِي لِسُورَى مَنْ نَمَانِي
وَلَا غُرُوَ لِلْحُرِّ عِنْدَ الْمَضِي قِ أَنْ يَتَمَنَّى وَضِيعَ الْأَمَانِي

قلتُ : أَخِي ، قَالَ : مَنْ الْقَائِلُ ؟

صُدُودٌ وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ مُسَاعِفًا وَبُعْدٌ وَإِنْ كَانَ الْمَزَارُ قَرِيبًا
وَمَا فَتَنَّتْ تِلْكَ الدِّيَارُ حَبَائِبًا لَنَا قَبْلَ أَنْ نَلْقَى بِهِنَّ حَبِيبًا
وَلَوْ أَسْغَفْتَنَا بِالْمُودَةِ فِي الْهَوَى^(٥) لَأَذْنِينَ إِلْفًا أَوْ شَغْلَنَ رَقِيبًا
وَمَا كَانَ يَجْفُو مُمْرِضِي ، غَيْرَ أَنَّهُ عَدَّتْهُ الْعَوَادِي أَنْ يَكُونَ طَبِيبًا

قلتُ : عَمِّي ، قَالَ : مَنْ الْقَائِلُ ؟

أَتَيْنَاكَ لَا عَنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا إِلَيْكَ وَلَا قَلْبَ إِلَيْكَ مَشُوقِ
وَلَكِنَّا زُرْنَا بِفَضْلِ حُلُومِنَا حَمَارًا تَلْقَى بِرَّنَا بِعُفُوقِ

(١) ب ، ت ، لب : « بيضة » — و : « مرآة بيضة »

(٢) ب ، ت ، لب : « سائر » — (٣) و : « كالمرايين »

(٤) لم يقع هذا البيت إلا في — (٥) و : « في المودة بالهوى » — و :

« بالمودة والهوى » — ب : « في المودة في الهوى »

قلت : جدّي ، قال : فمن القائل ؟

وَيْلِي عَلَى (١) أَحْوَرَ تَيَّاهٍ أَحْسَنَ مَا يَلْهُو بِهِ اللَّاهِي
أَقْبَلَ فِي غَيْدٍ حَكَيْنِ الظَّبَّاءِ بَيْضِ تَرَاقِي حُمْرِ أَفْوَاهِ
يَأْمُرُ فِيهِنَّ وَيَنْهَى وَلَا يَعْصِيَنَّهُ مِنْ أَمْرِ نَاهِي
حَتَّى إِذَا أَمَكَّنِي أَمْرُهُ تَرَكَتُهُ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ (٢)

قلت : جدّ أبي ، قال : فمن القائل ؟

وَيْحِ (٣) الْكِتَابَةِ مِنْ شَيْخٍ هَبَّتَقَةٍ يَلْقَى (٤) الْعُيُونَ بِرَأْسِ مُحْسُهُ رَارُ
وَمُنْتِنِ الرِّيحِ إِنْ نَاحِيَتُهُ (٥) أَبَدًا كَأَنَّمَا مَاتَ فِي خَيْشُومِهِ فَارُ
قلتُ : أنا ، قال : وَالَّذِي نَفْسُ فِرْعَوْنَ بِيَدِهِ ، لَا عَرَضْتُ لَكَ أَبَدًا ، إِنِّي
أُرَاكَ عَرِيقًا فِي الْكَلَامِ ، ثُمَّ قَلَّ وَاضْمَحَلَّ ، حَتَّى إِنَّ الْخُنْفَسَاءَ لَتَدُوسُهُ ، فَلَا
يَسْغَلُ رِجْلُهَا (٦) . فَعَجِبْتُ مِنْهُ ، وَقُلْتُ لَزُهَيْرٍ : مَنْ هَذَا الْجِنِّي ؟ فَقَالَ لِي : اسْتَعِذْ
بِاللَّهِ مِنْهُ ، إِنَّهُ ضَرَطَ فِي عَيْنِ رَجُلٍ فَبَدَرَتْ مِنْ قَفَاهُ ، هَذَا فِرْعَوْنُ بْنُ الْجَوْنِ .
فَقُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، مِنَ النَّارِ وَمِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ! فَتَبَسَّمَ زُهَيْرٌ وَقَالَ
لِي : هُوَ تَابِعَةُ رَجُلٍ كَبِيرٍ مِنْكُمْ فَفَهَمْتُهَا (٧) عَنْهُ .

وله فَصْلٌ فِي مِثْلِ ذَلِكَ :

قال أبو عامر : وَمَشَيْتُ يَوْمًا أَنَا وَزُهَيْرٌ بِأَرْضِ الْجَنِّ أَيْضًا نَتَقَرَّى الْفَوَائِدَ ،
وَنَعْتَمِدُ أُنْدِيَةَ أَهْلِ الْآدَابِ (٨) مِنْهُمْ ، إِذْ أَشْرَفْنَا عَلَى قَرَارَةِ غَنَاءٍ ، تَفَتَّرَ عَنْ

(١) ب ، ت ، لب ، و : « من » (٢) لم يقع هذا البيت في ر

(٣) ر ، ت : « تَأْبَى » — ب ، لب : « تَأْنِي » (٤) و : « تَلْقَى »

(٥) و ، ب ، ت ، لب : « نَاحِيَتُهُ » (٦) ر ، و : « رِجْلُهَا »

(٧) ب ، و : « فَفَهَمْتُهَا » (٨) ب ، لب ، و : « الْآدَبِ »

بركة ماء ، وفيها عانة من حُر الجن^(١) وبغالهم ، قد أصابها أولقُ فهي تصطكُ
بالخوافر ، وتنفخ من المناخير ، وقد اشتد ضراطها ، وعلا شحيجها ونهاقها ،
فلما بصرت بنا أجملت إلينا وهي تقول : جاءكم على رجلية ، فارتعت لذلك
فتبسّم زهيرٌ وقد عرف القصد ، وقال لي : تهيتاً للحكم . فلما لحقت بنا بدأتني
بالتفدية ، وحيّتي بالتكينة ، فقلت : ما الخطبُ ، حمي حالك أيتها العانة ،
وأخصب مرعاك ؟ قالت : شعران لحمارٍ وبغلٍ من عُشاقنا اختلفنا فيهما ، وقد
رضيناك حكماً . قلتُ : حتى أسمع . فتقدمت إلي بغلة شهباء ، عليها جُلها
وبرقعها ، لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسُخف الحركة ، فقالت :
أحد الشعرين لبغلٍ من بغالنا وهو :

١٠ عَلَى كُلِّ صَبٍّ مِنْ هَوَاهُ دَلِيلُ سَقَامٌ عَلَى حَرِّ الْجَوَى^(٢) وَنُحُولُ
وَمَا زَالَ هَذَا الْحُبُّ دَاءً مُبَرِّحًا إِذَا مَا اعْتَرَى بَغْلًا فَلَيْسَ يَزُولُ
بِنَفْسِي أَنْتِ أَمَّا مَلَا حِظُّ طَرْفِهَا فَسَحَرُ ، وَأَمَّا خَذُّهَا فَلَأَسِيلُ
تَعَبْتُ بِمَا حُمِلْتُ مِنْ ثَقَلِ حُبِّهَا وَإِنِّي لَبَغْلٌ لِلثَّقَالِ حُمُولُ
وَمَا نِلْتُ مِنْهَا نَائِلًا غَيْرَ أَنْتِ إِذَا هِيَ بَالَتْ بُلْتُ حَيْثُ تَبُولُ

والشعر الآخر لـ دكين الحمار :

١٥ دُهِيتُ بِهَذَا الْحُبِّ مُنْذُ هَوَيْتُ وَرَأَيْتُ إِزَادَاتِي فَلَسْتُ أُرِيْتُ
كَلِفْتُ بِإِلْفِي مُنْذُ عَشْرِينَ حِجَّةً يَجُولُ هَوَاهَا فِي الْحَشَا وَيَعِيْتُ
وَمَالِي مِنْ بَرَحِ الصَّبَابَةِ مَخْلَصُ وَلَا لِي مِنْ فَيْضِ السَّقَامِ مُغِيثُ^(٣)
وَعَيْرٌ مِنْهَا قَلْبَهَا لِي نَمِيمَةٌ^(٤) نَمَاهَا أَحْمُ الْخُصِيَّتَيْنِ خَيْبْتُ

(٢) م : « الهوى »

(١) ب ، ت ، لب : « الوحش »

(٤) ب ، ت ، لب : « تيمة »

(٣) لم يقع هذا البيت إلا في ر

وَمَا نِلْتُ مِنْهَا نَائِلًا غَيْرَ أَنِّي إِذَا هِيَ رَأَتْ رُثْتُ حَيْثُ تَرُوثُ
 فضحك^(١) زهيرٌ وتماسكتُ وقلتُ المنشدة : ما هَوَيْتُ ؟ قالت : هو
 هَوَيْتُ ، بلغةِ الحمير ، فقلت : والله إن للروثِ رائحةً كريهةً ، وقد كان أنفُ
 الناقةِ أجدرَ أن يحكمَ في الشعرِ ! فقالت : فهمتُ عنك . وأشارتُ إلى العانةِ أن
 دَكِينًا مغلوب ، ثم انصرفتُ فأنعةً راضيةً ، وقالتُ لى البغلةِ : أما تعرفني أبا عامر ؟
 قلتُ : لو كانتُ ثمَّ علامةُ فأماطتُ لِثامها ، فإذا هي بغلةُ أبي عيسى ، والخالُ
 على خَدَّها ، فتبا كَيْنًا طويلًا ، وأخذنا في ذِكرِ أيامنا ، فقالت : ما أبقتِ الأيامُ
 منك ؟ قلت : ما ترينَ ، قالت : شَبَّ عمروُ عن الطَّوقِ ! فما فعل الأُحبةُ بعدى
 أُمهم على العهدِ ؟ قلتُ : شَبَّ الغلمانُ ، وشاخَ الفتيانُ ، وتَنَكَّرتِ الخِلانُ ، ومن
 إخوانك من بَلَغَ الإمارةَ ، وانتهى إلى الوزارة . فتَنَفَّستِ الصُّعداءُ^(٢) ، وقالت :
 سقامَ اللهُ سَبِيلَ العهدِ ، وإن حالوا عن العهدِ ، ونَسُوا أَيَّامَ الوُدِّ . بجرمةِ الأدبِ^(٣) ،
 إلَّا ما أقرأتهم منى السلام ؛ قلت : كما تأمرينَ وأَكْثَرُ .
 وكانت في البركةِ بَقْرَبِنَا إِيوَزَةٌ بيضاءُ شهلاءُ ، في مِثْلِ جُثْمَانِ النَّعَامَةِ ،
 كأنما ذُرٌّ عليها الكافورُ ، أو لَيْسَتْ غِلَالَةٌ من دِمَقْسِ الحَرِيرِ ، لم أَرِ أَخَفَّ
 من رأسها حَرَكةً ، ولا أَحْسَنَ^(٤) للماءِ في ظَهْرِها صَبًّا^(٥) ، تَنَنَّى سَالِقَتِها ،
 وتَكَمَّرَ حَدَقَتِها ، وتَلَوَّابُ قَمَحْدُوتِها ، فترى الحُسْنَ مستعارًا منها ، والشَّكْلَ
 مأخوذًا عنها ، فصاحتُ بالبغلةِ : لقد حكمتُ بالهوى ، ورضيتُ من حاكمكم بغيرِ
 الرِّضَا . فقلتُ لزُهير : ما شأنُها ؟ قال : هي تابعةٌ شَيْخٍ من مَشِيخَتِكُمْ ، تُسَمَّى
 العاقلةُ ، وتُكْنَى أُمَّ خَفِيفٍ^(٥) ، وهي ذاتُ حَظٍّ من الأدبِ ، فاستَعَدَّ لها ، فقلتُ :

(١) هـ ، ب ، ت ، لب : « فاستضحك » (٢-٢) هـ في ب .

(٣) هـ : « أخصر » (٤) هـ : « صفاء » (٥) هـ : « أم عفيف »

أَيْتُهَا الْإِوَزَةُ الْجَمِيلَةُ ، الْعَرِيضَةُ الطَّوِيلَةُ ، أَيْحَسُنُ بِجَمَالِ حَدَقَتَيْكَ ۖ وَاعْتِدَالِ
مَنْكَبَيْكَ ، وَاسْتِقَامَةِ جَنَاحَيْكَ ، وَطُولِ جِيدِكَ ، وَصِغَرِ رَأْسِكَ ۖ مُقَابِلَةُ الضَّيْفِ
بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ ۖ وَتَلَقَّى الطَّارِي ^(١) الْغَرِيبَ بِشَبِّهِ هَذَا الْمَقَالِ ؟ وَأَنَا الَّذِي هَمْتُ
بِالْإِوَزِ صَبَابَةً ، وَاحْتَمَلْتُ فِي الْكَلْفِ بِهَا عَضَّ كُلِّ مَقَالَةٍ ، وَأَنَا الَّذِي اسْتَرْجَعْتُهَا
إِلَى الْوَطَنِ الْمَأْلُوفِ ، وَحَبَّبْتُهَا إِلَى كُلِّ غَطْرِيفٍ ۖ فَاتَّخَذَتْهَا السَّادَةُ بِأَرْضِنَا ٥
وَاسْتَهْلَكَ عَلَيْهَا الظَّرْفَاءُ مِنَّا ، وَرُضِيَتْ بَدَلًا مِنَ الْعَصَافِيرِ ، وَمُتَكَلَّمَاتِ الزَّرَازِيرِ ،
وَنُسِيَتْ لَذَّةُ ^(٢) الْحَمَامِ ، وَنِقَارُ الدُّيُوكِ ، وَنِطَاحُ الْكِبَاشِ . فَدَخَلَهَا الْعُجْبُ مِنْ
كَلَامِي ، ثُمَّ تَرَفَّعَتْ وَقَدْ اعْتَرَمَتْهَا خَفَّةٌ شَدِيدَةٌ فِي مَائِهَا ، فَرَّةٌ سَابِجَةٌ ۖ وَمَرَّةٌ طَائِرَةٌ ۖ
تَنْغَمِسُ ^(٣) هُنَا وَتَخْرُجُ هُنَاكَ ، ^(٤) قَدْ تَقَبَّبَ جَنَاحَاهَا ، وَانْتَصَبَتْ ذُنَابَاهَا ۖ وَهِيَ
تَطْرَبُ تَطْرَبَ تَطْرِيبِ الشَّرُورِ ^(٥) . وَهَذَا الْفِعْلُ مَعْرُوفٌ مِنَ الْإِوَزِ عِنْدَ الْفَرَحِ وَالْمَرَحِ ،
ثُمَّ سَكَنْتْ وَأَقَامَتْ عُنُقَهَا ، وَعَرَضَتْ صَدْرَهَا ، وَعَمِلَتْ بِمِجْدَافِهَا ^(٦) ، وَاسْتَقْبَلَتْنَا
جَائِيَّةٌ كَصَدْرِ الْمَرْكَبِ ، فَقَالَتْ : أَيُّهَا الْغَاثُ الْمَغْرُورُ ، كَيْفَ تَحْكُمُ فِي الْفُرُوعِ
وَأَنْتَ لَا تَحْكُمُ ^(٧) الْأَصُولَ ؟ مَا الَّذِي تُحْسِنُ ؟ قُلْتُ : ارْتِجَالَ شِعْرٍ ، وَاقْتَضَابَ
خُطْبَةٍ ، عَلَى حُكْمِ الْمُقْتَرَحِ وَالنُّصْبَةِ ، قَالَتْ : لَيْسَ عَنْ هَذَا أَسْأَلُكَ ، قُلْتُ : وَلَا
بَغَيْرِ هَذَا أَجَاوِبُكَ ، قَالَتْ : حُكْمُ ^(٨) الْجَوَابِ أَنْ يَقَعَ عَلَى أَصْلِ السُّؤَالِ ۖ وَأَنَا إِنَّمَا
أَرَدْتُ بِذَلِكَ ^(٩) إِحْسَانَ النَّحْوِ وَالْغَرِيبِ اللَّذِينَ هُمَا أَصْلُ الْكَلَامِ ، وَمَادَّةُ الْبَيَانِ .
قُلْتُ : لَا جَوَابَ عِنْدِي غَيْرَ مَا سَمِعْتُ ، قَالَتْ : أَقْسِمُ أَنَّ هَذَا مِنْكَ غَيْرُ دَاخِلٍ

(١) ر ، وه : « الطائر » (٢) كذا في ر ، وه — ب ، ت : « برة » —

لب : « نزة » (٣) وه : « تنغس » (٤ — ٤) ه في ب ، لب ، وه

(٥) ب ، ت ، لب : « بمشداقتها » (٦) ب ، ت ، لب : « ولا تحكم في

الأصول » (٧) ر : « ما حكم » (٨) ر ، وه : « بك »

في باب الجدال قلت : وبالجدل تطليبننا^(١) وقد عقدنا سلمه ، وكفينا حربه^(٢) وإن مارميتك به منه لأنفذ سيماه ، وأحد حرا به^(٣) وهو من تعاليم الله عز وجل عندنا في الجدال في محكم تنزيله ، قالت : أقسم أن الله ما علمك الجدال في كتابه ، قلت : محمول عنك أم خفيف ، لا يلزم الإوز حفظ أدب القرآن ، قال الله عز وجل في محكم كتابه حاكيا عن نبيه إبراهيم عليه السلام : « رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ »^(٤) فكان لهذا الكلام من الكافر جواب ، وعلى وجوبه مقال ، ولكن النبي^(٥) صلى الله عليه وسلم لما لاحت له الواضحة القاطعة ، رماه بها وأضرب عن الكلام الأول ، قال : « فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ؛ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ » وأنا لا أحسن غير ارتجال شعر ، واقتضاب خطبة ، على حكم المقترح والنصبة ، فاهتزت من جانبيها وحال الماء من عينيها ، وهمت بالطيران ، ثم اعترها ما يعتري الإوز من الألفة وحسن الرجعة ، فقدمت عنقها ورأسها إلينا تمشي نحونا رؤيدا ، وتنطق نطقا متداركا خفيا ، وهو فعل الإوز إذا أنست واستراحت وتذلت ، على أني أحب الإوز وأستظرف حركاتها وما يعرض من سخافات^(٦) .

ثم تكلمت بها مبسبسا « ولها مؤنسا ، حتى خالطتنا وقد عقدنا سلمها وكفينا حربيها ، فقلت : يا أم خفيف ، بالذي جعل غذاءك ماء ، وحشى رأسك هواء ، ألا أئما أفضل : الأدب أم العقل ؟ قالت : بل العقل ، قلت : فهل تعرفين في الخلائق أحق من إوزة ، ودعيني من مثلهم في الحبارى ؟ قالت : لا ، قلت : فتطلي عقل التجربة ، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه

(١-١) نه في ب ، ت ، لب ، و (٢-٢) نه في ب ، ت ، لب ، و

(٤) المراد بالنبي هنا إبراهيم عليه السلام

(٣) سورة ٢ : ٢٥٨

نَصِيْبًا « وَبُوتَ مِنْهُ بِحُطَّ ، فَحِينَئِذٍ نَاطِرِي فِي الْأَدَبِ . فَانصرفت وانصرفنا .

قال أبو عامر^(١) :

وَكُنْتُ يَوْمًا بِحَمَّامٍ لِي مَعَ أَصْحَابِنَا فَأَتَى رَسُولُ الْحَاجِبِ أَبِي عَامِرٍ يَرْغَبُ
إِخْلَاءَهُ لِبُنْيَانٍ عَرَضَ فِي حَمَامِهِ مِنْهُ مِنْ دُخُولِهِ ، وَكُنْتُ لَمْ أَصْحَبْهُ « فَخَرَجْنَا لَهُ عَنْهُ ،
وَزَعَمُوا أَنَّ أَكْتُبَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ فَقُلْتُ :

شَكَرْتُ^(٢) لِلدَّهْرِ حُسْنَ مَا صَنَعَا طَائِرُ مَجْدٍ بِجَنَّتِي وَقَعَا
نَفَرْتُ لَمَّا أَيقَنْتُ جَيْئَتَهُ^(٣) وَطَارَتِ النَّفْسُ عِنْدَهَا قِطْعَا
يَا حُسْنَ حَمَامِنَا وَقَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ الضُّحَى فِيهِ بَعْدَ مَا مَتَعَا
أَيَقِنَنَّ أَنَّ الْهَلَالَ رَاكِبُهُ فَضَاءَ لِلْحَاضِرِينَ وَاتَّسَعَا
فَانْعَمَ أَبَا عَامِرٍ بِنِعْمَتِهِ وَاعْجَبَ لِأَمْرَيْنِ فِيهِ قَدْ جُمِعَا
نِيرَانُهُ مِنْ زِنَادِكُمْ قُدْحَتْ وَمَاؤُهُ مِنْ بَنَانِكُمْ نَبَعَا

قال أبو الحسن : ونُشِدَ هنا بعض مقطعاتٍ تتعلّق بذكر الحمام ،

قال المُنَفِّتِلُ :

انْظُرْ إِلَى حَمَامِنَا قَدْ حَكَى حَالَيْنِ مِنْ حَالِ الْأَحِبَّاءِ :
حَرَارَةَ الْأَنْفَاسِ يَوْمَ النَّوَى وَحَرَّةَ الْأَنْفَاسِ^(٤) فِي الْمَاءِ
فَمَاؤُهُ مِنْ أَدْمَعِي سَائِلٌ وَنَارُهُ مِنْ حَرِّ أَحْشَائِي !

وقال في صفة حمامٍ كانت مَضَاوِيهِ مِنْ زُجَاجٍ أَحْمَرَ « وَفِي سَمَانِهِ

مُحْمَرَةٌ وَبَيَاضُ :

(١) هنا يبدأ خرم في ر ، هـ

(٢) في الأصول كلها « شكوت »

(٤) كذا في الأصول

(٣) في النسخ : « خيانة »

تَحَيَّرْتُ مِنْ طِيبِ حَمَامِنَا يُخَيِّلُ لِي أَنَّ فِيهِ الْفَلَقُ
فَمِنْ حُمْرَةٍ فَوْقَنَا وَابْيَاضٍ كَخَدِّ الْحَبِيبِ إِذَا مَا عَرِقُ
رَأَى الدَّهْرُ مَا شَدَّ (١) مِنْ حُسْنِهِ فَسَدَّ كَوَى سَقْفِهِ بِالشَّقَقِ !

ومما يتعلق أيضاً بصفته قول الآخر ، ولكنه خلطه بالنسيب ، وأشار فيه إلى

معنى غريب ، فقال :

وَلَمْ أَدْخُلِ الْحَمَّامَ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ طَلَّابَ نَعِيمٍ قَدْ رَضِيَتْ بِبُوسَى
وَلَكِنْ لَتَجْرِي دَمْعِي مُطْمَئِنَّةً فَأَبْكِي وَلَا يَدْرِي بِذَلِكَ جَلِيسِي

ودخل الحمام يوماً من أهل عصرنا الأديبان : أبو جعفر ابن هريرة
التطيلي ، وأبو بكر ابن بقي ، فقال أبو جعفر :

يَا حُسْنَ حَمَامِنَا وَبَهْجَتَهُ مَرَأَى مِنَ السَّحَرِ كُلِّهِ حُسْنُ
مَاءٍ وَنَارٍ حَوَاهُمَا كَنَفٌ كَالْقَلْبِ فِيهِ الشَّرُّورُ وَالْحَزَنُ

ثم أعجبه هذا المعنى أيضاً فقال فيه :

لَيْسَ عَلَى لَهْوِنَا مَزِيدُ وَلَا لِحَمَامِنَا ضَرِيبُ
مَاءٍ وَفِيهِ لَهَبُ نَارٍ كَالشَّمْسِ فِي دُمَّةٍ تَصُوبُ
وَابْيَضَّ مِنْ تَحْتِهِ رُحَامُ كَالثَّلْجِ حِينَ ابْتَدَأَ يَذُوبُ

وقال أبو بكر :

حَمَامِنَا فِيهِ فَصْلُ الْقَيْظِ مُحْتَدِمُ وَفِيهِ لِلْبَرْدِ سِرٌّ غَيْرُ ذِي ضَرَرِ

(١) في جميع الأصول « شد »

ضِدَّانِ يَنْعَمُ جِسْمُ الْمَرْءِ بَيْنَهُمَا كَالْفُضْنِ يَنْعَمُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ (١)

وقال أبو جعفر التُّطَيْلِيُّ ، وقد نظر فيه إلى غلامٍ وسيم :

هَلِ اسْتَمَالَكَ جِسْمُ ابْنِ الْأَمِيرِ وَقَدْ سَأَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمَامِ أُنْدَاءُ ؟

كَالْفُضْنِ بَاشَرَ حَرَّ النَّارِ مِنْ كَشَبِ فَظَلَّ يَقْطُرُ مِنْ أَعْطَافِهِ الْمَاءُ

وفي أبي عامر ابنِ المظفر الذي ذكر يقول أبو عامر ابنُ شهيد من جملة

قصيدة يقول فيها :

جُمِعَتْ بِطَاعَةِ حُبِّكَ الْأَضْدَادُ وَتَأَلَّفَ الْأَفْصَاحُ وَالْأَعْيَادُ

كَتَبَ الْقَضَاءُ بِأَنَّ جَدَّكَ صَاعِدٌ ، وَالصُّبْحُ رَقٌّ ، وَالظَّلَامُ مِدَادُ

ونقلتُ من خطِّ أبي مروان ابنِ حَيَّانَ قال : سلفَ لأبي عامر بنِ المظفر

هذا بقرطبة عيشة راضية في سرورٍ وجبورٍ وقتاً ، إلى أن ساءتِ الأيامُ بطامةً ١٠

(١) لم تقع القصيدة الآتية إلا في نسخة لب على الهامش لذلك آثرنا عدم إثباتها في

متن الكتاب :

ولأبي عمرو ابنِ درَّاج في وصف الحمام :

انم بحمامٍ حُمِي لكَ ماؤه وعلى عدوك ترحه ورحامُ

متألف الأضداد إلا أنه فيه طباع زمانه أقسام

فكأن سيفك في يمينك شامه حتى التقي فيه ندى وضرام

وكانما يسرى لمبعث مائه ديم يخالط برقهن غمام

متفرج الأبواب عن صحن ثوى فيه الصباح وشرد الإظلام

وكان [فيه] من الريم سجيةً فيها تساوى الليل والأيام

مفض إلى حر الهجير ونارُه برد عليك وإن غلى وسلام

وكانه صدر المقيم هاجه من ذكر من يهوى جوى وغرام

وتألفت من مائه ورخامه شكلان تُشكل فيهما الأوهام

هل تحت هذا الماء ماء جامد أم ذاب من فوق الرخام رخام ؟

فكانما ريق الحبيب جرى على نقر كما نظم الفريد نظام

وهو الزمان شتاؤه ومصيفه وخريفه وربيعه البسام

ففارقها بغُصّة ، وكان من محاسنه أنسه بالأدب ، وغلبه أهله على خاصّته ، ولم يكن منهم في مَعْدَى ولا مَراح ، فتجمّلت آثاره بهم ، وسارت أقوالهم فيه ، وكان من ألهمهم بذكره أبو عامر ابن شهيد ؛ له معه أخبار مأثورة مشهورة . شاهدتهم ليلة في مجلسه [و] طفيلة صغيرة عجيبه الخلق كانت تسقيهم [تسمى] أسماء ^(١) عجبوا من مكابذتها السهر معهم ، على صغر سنّها ، وحسن قيامها بخدمتهم . فسأله ابن المظفر وصفها فقال :

أَفْدَى أَسْمَاءَ مِنْ نَدِيمٍ مُلَازِمٍ لِّلْكَوْوسِ رَاتِبٍ
قَدْ عَجِبُوا فِي الشَّهَادِ مِنْهَا وَهِيَ لَعَمْرِي مِنَ الْعَجَائِبِ
قَالُوا : تَجَافَى الرُّقَادُ عَنْهَا فَقُلْتُ : لَا تَرَوْقُدُ الْكَوَاكِبِ

قال أبو عامر وابن حيان :

واستوحش أبو عامر ابن المظفر هذا من هشام المَعْتَمِدِ وزيره حَكَمِ بْنِ سَعِيدِ الْقَزَازِ ، وكانوا قد رموه بَذَنْبِ سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامِ النَّاصِرِيِّ ، فلمّا خافَ دَبَرَ الْفِرَارِ ، وخرَجَ فِي لُحْمَةٍ مِنْ ثِقَاتِ أَصْحَابِهِ وَأَعْوَانِهِ ، وحملَ معه عيونَ ذخائره وخاصةَ حَرَمِهِ ، وقطع أرضاً بعيدة ، ولم يعلم المَعْتَمِدُ بخبره . إلى أن جاء خبرُ اجتيازِهِ بَدِيرَ قُرْطُبَةَ راجعاً على عقبه من شاطِبة ، لم يتفق له فيها ما أراد فسكرَ إلى ابن عبد الله بقرْمونةً مستجيراً به في ظنّه ، فأخلف ابن عبد الله ظنّه ، وخطب قائده بحَصْرِ الْمُرُورِ وِإِزْعَاجِهِ عَنْ قُطْرِهِ ، ولا يجتازُ على شيء من عمله ، فضاقت به الأرض يومئذٍ . فألقى نفسه على أبي حمّامة حَرَزَةَ الْيَصْدِرَانِيِّ ، فأجاره وبوَأَهُ مِنْزَلاً فِي حِصْنِهِ عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ ، أقام به في كَدٍ وَغُصّةٍ . والحمام يغارله إلى أن ماتَ عنده .

(١) ب ، ت « أسماء »

وحدثني أبو عبد الله ابن هريرة الكاتب قال : قصد أبو عامر ابن المظفر في خروجه من شاطبة إلى مواليه العامريين بعد مرسلة متقدمة ، فلما وصل ردّوه خجلاً خائباً ، فرغب أن تخرج إليه أخته بنت المظفر الأيمم المقيمة — كانت — عندهم وقتهم ، فاستعفوه بذلك وخرجت إليه ، فحلبها وأودعها جوهرًا نفيسًا كان احتمله ، وولّى ناكصًا ، والعبدي تطرّده عن ناحيتها وأسلموه . غرضًا للحتوف ، فمات عند عودة البصدراتي كما وصفناه . وعلم ابن عمّه عبد العزيز بمكان ذلك الجوهر ، فلما هلك اختدعها ووعدّها أن ينكحها ، وكانت ضعيفة الرأي ، فأسلمته إليه وغدر بها ولم ينكحها ، فصارت بغيّة دهرها تحفوه وتشتمه . ولما استقرّ أبو عامر عند حرزة ، وأيسر المعتمد من انصرافه ، قبض ما خلفه بداره ونقله إلى القصر ، فطلب أسبابه ، وتبع ودائعه وعقاره ، فانفتح ١٠ على أهل قرطبة في هذا الباب بذلك الوقت بلا عظيم ، أجلى^(١) بعضهم عن الأوطان ، بسبب تلك الدائع العامرية . انتهى كلام ابن حيان .

جملة من شعره في أوصاف شتى^(٢)

حدّث عن نفسه قال : لما قدّم زهير الصقلّي^(٣) فتى بني عامر حضرة قرطبة من المرية ، وجّه أبو جعفر ابن عباس وزيره عن^(٤) لمة من أصحابنا ١٥ منهم ابن بُرد ، وأبو بكر المرواني ، وابن الحنّاط^(٥) ، والطّبي^(٦) ، فسألهم عنى .

(١) في جميع النسخ : « أخات » (٢) رجع الكلام في ر ، هـ

(٣) ر : « الصقلّي » (٤) نفح الطيب (ج ٢ ص ٤١٣) : « الى »

(٥) ر : « ابن الحنّاط » (٦) هـ في ر

وقال : وجهوا عنه . فوافاني رسوله مع دابة له بسرج جلي^(١) ثقيل ، فسيرت إليه ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب ، فتحرّك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً إليّ ، حتّى طلع أبو جعفر علينا ساجداً لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسألت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فردّ رداً لطيفاً ، فعلت أن في أنه نغرة^(٢) لا تخرج إلا بسعوط الكلام . ولا تراض إلا بمستحصد^(٣) النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه . فسألهم عن ذلك . فقال لي الحنّاطي ، وكان كثير الإنحاء على ، جالبا في المحافل ما يسوء الأولياء إلى : إن الوزير حضره قسم من شعره . وهو يسألنا إجازته . فعلت أني المراد . فاستنشدته فأنشده ، وهو :

* مَرَضُ الْجُفُونِ وَلَنَغَّةٌ فِي الْمَنْطِقِ *

١٠

فقلت^(٤) لمن حضر : لا تجهدوا أنفسكم فليست المراد^(٤) ؛ فأخذت القلم^(٥) وكتبت بديهة :

مَرَضُ الْجُفُونِ وَلَنَغَّةٌ فِي الْمَنْطِقِ سَيَّانٍ ، جَرَّاعِشَقَ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ
مَنْ لِي بِالنَّغِ لَا يَزَالُ حَدِيثُهُ يُذَكِّي عَلَى الْأَكْبَادِ جَمْرَةَ مُحْرِقِ
يُنْبِي فَيَنْبُو فِي الْكَلَامِ لِسَانُهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ حَرِّ عَيْنَيْهِ سُقِ
لَا يَنْعِشُ الْأَلْفَاظَ مِنْ عَثَرَاتِهَا وَلَوْ أَنَّهَا كُتِبَتْ لَهُ فِي مُهَرَّقِ

١٥

ثم قت عنهم فلم ألبث أن وردوا على ، وأخبروا أن أبا جعفر لم يرض ما جئنا

(١) نفح الطيب « محلي » (٢) ب ، لب : « نغرة »

(٣) هـ : « مستحکم »

(٤-٤) هـ في ز ، هـ (٥) س ، لب : « الدواة »

به من البديهة، وسألوني أن أحمل مكاوي^(١) الكلام على حثاره. وذكرُوا
أن إدريس هجاه^(٢) فأفحش، فلم أستحسن الإفحش، فقلت فيه معرضاً إذ
التعريض من محاسن القول:

أَبُو جَعْفَرٍ رَجُلٌ كَاتِبٌ مَلِيحٌ شَبَا الْخَطَّ حُلُوُ الْخَطَابَةِ
تَمَلَّأَ شَجَمًا وَلَحَمًا وَمَا يَلِيْقُ تَمَلُّؤُهُ بِالْكِتَابَةِ
وَذُو عَرَقٍ لَيْسَ مَاءُ الْحَيَاءِ وَلَكِنَّهُ رَشْحُ فَضْلِ الْجَنَابَةِ
جَرَى الْمَاءُ فِي سُفْلِهِ جَرَى لَيْنٍ فَأَحْدَثَ فِي الْعُلُومِ مِنْهُ صَلَابَةَ

قال ابن بسام^(٣): وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر إذا سمي
هذا تعريضاً؟ ولولا أن الحديث شجون، والتتابع فيه جنون، والكلام إذا
لأن قيادته، سهل اطراؤه، وإذا قرب بعضه من بعض، لم يفرق فيه بين
سما وأرض، لما استجزت أن أشين كتابي بهذا الكلام البارد بمعرضه،
البعيد من السداد غرضه، وقد يطنى القلم، وتجمخ الكلم.
وقوله:

* جَرَى الْمَاءُ فِي سُفْلِهِ جَرَى لَيْنٍ *

يُشَبِّهُ قَوْلَ الْآخِرِ وَضَمَّنَ بَيْتَ^(٤) النَّابِقَةِ:

يَا سَائِلِي عَنْ خَالِدٍ، عَهْدِي بِهِ رَطَبَ الْعِجَانِ وَكَفَّهُ كَالْجَلْدِ
كَالْأَقْحُوَانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ نَدَى

وقوله:

وَذُو عَرَقٍ لَيْسَ مَاءُ الْحَيَاءِ ■

(١) ر: «مكارى»

(٢) ر: «سماه»

(٣) خرم في ب، ت، لب

(٤) خرم في لب

المَّبه ابنُ زيدون فقال من جملة أبيات :
 مَحَضَتْ فِي أَسْتِهِ الْأَيُّورُ حَلِيْبًا فَعَلَى عَيْنِهِ ^(١) مِنَ الرُّبْدِ نُقْطَةٌ
 وتأنق في هذا المعنى أبو الحسين ابنُ أمجد فقال :
 وَأَرْزَقَ وَالْأُمُورُ لَهَا اسْتِبَاهُ وَتَوَقَّى الْعَيْنُ مِنْ قَبْلِ الْعِجَانِ
 وَمِمَّا شَكََّ أَسْفَلَهُ الْعَوَالِي بَدَا فِي عَيْنِهِ زَرْقُ السَّنَانِ
 قال ابن بسام ^(٢) : قولُ أبي عامر في صفة الأثغ مما أحسن فيه لا سيما
 على البديهة . ومن أحسن ما سمعت في صفة قول الرَّمَادِي :

لَا الرَّاءُ تَطْمَعُ فِي الْوِصَالِ وَلَا أَنَا الْهَجْرُ يَجْمَعُنَا فَحَنُ سَوَاءِ
 فَإِذَا خَلَوْتُ كَتَبْتُهَا فِي رَاحَتِي فَبَكَيْتُ مُنْتَحِبًا أَنَا وَالرَّاءُ

١٠ وأخذ لفظ الرَّمَادِي هذا أبو القاسم ابنُ العريف فقال :

أَيُّهَا الْأَثْغُ الَّذِي شَفَّ قَلْبِي جُدْ بِنُطْقٍ ^(٣) وَلَوْ نَطَقْتَ بِسَبِّ
 هَجْرُكَ الرَّاءِ مِثْلُ هَجْرِي سَوَاءِ فَكِلَانَا مُعَذَّبٌ دُونَ ذَنْبِ
 فَإِذَا شِئْتُ أَنْ أَرَى لِي مِثِيلًا ^(٤) فِي هَوَائِي ^(٥) خَطَطْتُ رَاءً بِجَنَبِي

على أن أبا الطَّيِّبِ قد قال فأحسن ^(٦) :

١٥ قُشِيرٌ وَبَلَعَجَلَانٍ فِيهَا خَفِيَّةٌ كَرَاءَيْنِ فِي الْفَاطِ الْأَثْغِ نَاطِقٍ ^(٧)

(١) وه : فعلت عينه »

(٢) رجع الكلام في ب ، ت ، لب

(٣) ب ، لب « بحرف »

(٤) ب ، لب ، وه : « مثالا »

(٥) ب ، لب : « هواي »

(٦) ب ، ت ، لب « قد ملج في قوله »

(٧) الديوان (ج ١ ص ٤٧٢)

ويُشبه قول أبي الطيّب قول بعض أهل عصرنا وهو أبو الوليد ابن حزم
الإشبيلي ، يصفُ سكراناً :

ويرومُ قول أبي الوليد وربما كُثِمَتْ مَكَانَةً لَامِهِ الْوَائِي
وقال أبو عامر يتغزل :

- مَرَّبِي فِي فَلَكٍ مِنْ رَبِّ رَبِّ قَمَرٌ مُبْتَسِمٌ (١) عَنْ شَنْبِ
زَيْنُوا أَعْلَاهُ بِالْذُرِّ كَمَا تَقَلُّوا أَسْفَلَهُ بِالْكُثْبِ
فَارْزَدَهْتَنِي أَرْحِيَّاتُ الصَّبَا (٢) وَاسْتَخَفَّتَنِي دَوَاعِي طَرَبِي
فَتَعَرَّضْتُ لِتَسْلِيمٍ لَهُ (٣) فَإِذَا التَّيَّاهُ لَا يَعْْبَأُ بِي
قَالَ : هَذَا الْعَبْدُ مَنْ دَلَّاهُ مَا الَّذِي أَمَّنَهُ مِنْ غَضَبِي ؟
يَا طَبَّاحُ لِحْطِي (٤) خَذِي لِي رَأْسَهُ فَهُوَ لَا شَكَّ مِنْ أَهْلِ الرَّيْبِ
فَأَنْبَرْتُ (٥) أَلْخَاظُهُ تَطْلُبُنِي (٦) وَأَنَا قُدَامَهَا فِي الْهَرَبِ
لَوْ تَرَانِي وَأَنَا الْطِفْهُ (٧) وَأُدَارِيهِ مُدَارَاةَ الصَّبِي
خَلَّتَهُ جَبَّارَ قَوْمٍ مَرَدُّوا وَأَنَا فِي لُطْفِ الْوَعْظِ نَبِي

- قال أبو عامر : ومن الواجب على الناقد أن يَبْحَثَ عن الكلام ، ويفتّش
عن شَرَفِ (٦) المعاني ، وينظرُ مواقعَ البيان ، ويحتسِرَ من حِلَاوَةِ (٧) خَدْعِ
اللفظ ، ويدعَ تزويقَ التركيب ، ويرَاطِلَ بينَ أنحاءِ البديع ، ويمثِّلَ أشخاصَ

(١) ب ، ت ، هـ « مبتسم لي »

(٢-٢) هـ في هـ ، ب (٣) هـ ، ب ، ت : « الهند »

(٤) ب : « أخذت » (٥-٥) هـ في ب

(٦) ر : « شقر » (٧) ر ، ب : « حلّاه »

الصَّنَاعَة ، فقد تَرَى الشَّعْرَ فِضِّيَّ (١) البَشْرَةَ ، وهو رَصَاصِي الْمَكْسِرِ ، ذا ثَوْبٍ مُعْضَدٍ أَوْ مَهْلَهْلٍ ، وهو مشتمل على بَهَقٍ أَوْ بَرَصٍ « مَبْنِيًّا بَلَدَيْنِ التَّمَاثِيلِ » وَصَفْوَانِ التَّهَاوِيلِ ، وهو لَا يُجِنُّ صَاحِبَهُ عَنِ النَّسِيمِ فَضْلًا عَنِ الْحَرَجَفِ ، وَلَا يَقِيهِ رَقِيقُ رَيْقِ النَّدَى فَضْلًا عَنِ شَوْبُوبِ الْكَتَهْوَرِ ، وقد مَلَحَّتْهُ مَلَا حَسَةُ الْأَسْمَاءِ ، وَاتَّقَدَ فِيهِ الْهَوَى ، وَاضْطَرَمَّتْ فِي جَانِبِهِ نِيرَانُ الْجَوَى ، وَلَمَعَ فِيهِ الْبَرَقُ ، وَاسْتَنَّى فِيهِ الْوَدْقُ ، وَسَفَحَتْ عَلَيْهِ الدُّمُوعُ ، وَبَانَ فِيهِ الْخُشُوعُ « وَهُوَ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » لَا يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ غَيْرَ أَنْ يَكُونَ تَلْعَابَةً ، أَوْ صَاحِبَ بَرَاعَةٍ . وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الصَّنَاعَةِ بِتَقَعْمِ بُحُورِ الْبَيَانِ ، وَتَعَمُّدِ كِرَامِ الْمَعَانِي وَالْكَلَامِ ، وَأَنْ يَنْطِقَ بِالْفَصْلِ (٢) ، وَيَرْكَبُ أَثْبَاجَ الْجِدِّ ، وَيَطْلُبُ النَادِرَةَ وَالسَّائِرَةَ ، وَيَنْظِمُ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا يَبْقَى بَعْدَ مَوْتِهِ « وَيَذْكُرُ بَعْدَ فَوْتِهِ ، وَيَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ (٣) الْمَلْحِ ، وَيَتَلَوَّنَ تَلَوُّنَ أَبِي بَرَاقِشٍ . وَنَحْنُ نَرْجُو أَنَّ ذَهَبَنَا بِقَوْلِنَا هَذَا مَذْهَبًا كَرِيمًا مِنَ الْكَلَامِ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ عَسْكَرَ قُرْهُهُ وَهَبْتُ لَهُ رِيحَانَ تَلْتِطِمَانِ
وَعَمَّمَ صُلْعَ الْهَضْبِ مِنْ قَطْرِ ثَلْجِهِ يَدَانِ مِنَ الصَّنْبَرِ تَبْتَدِرَانِ
رَفَعْتُ لِسَارِي اللَّيْلِ نَارَيْنِ فَارْتَأَى شُعَاعَيْنِ تَحْتَ النَّجْمِ يَلْتَقِيَانِ
فَاقْبَلَ مَقْرُورَ الْحَشَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بِدَفْعِ صُرُوفِ النَّائِبَاتِ يَدَانِ
فَقُلْتُ: إِلَى ذَاتِ الدُّخَانِ، فَقَالَ لِي: وَهَلْ عُرِفَتْ نَارٌ بِغَيْرِ دُخَانٍ؟
فَمِلْتُ بِهِ أَجْتَرَهُ نَحْوَ جَمْرَةٍ لَهَا بَارِقٌ لِلضَّيْفِ غَيْرُ يَمَانِ

(١) ر : « مضى »

(٢) ب ، ت ، و ، هـ : « ينطى الفصل » (٣) هـ في ر

إِذَا مَا حَسَا أَلْقَمْتُهُ كُلَّ فَلَذَةٍ لِمَرْحَةِ طَيْرٍ أَوْ لِسَخْلَةٍ ^(١) ضَانٍ
فَمَا زَالَ فِي أَكْلِ وَشُرْبٍ مُدَارِكٍ إِلَى أَنْ تَشَهَّى التَّرَكَّ شَهْوَةً وَانِي
فَأَلْخَفْتُهُ ، فَأَمْتَدَّ فَوْقَ مِهَادِهِ وَخَدَّاهُ بِالصَّهْبَاءِ تَتَقَدَّانِ
وَمَا انْفَكَ مَعْشُوقَ النَّوَاءِ نَمْدُهُ بِيَشْرٍ وَتَرْحِيبٍ وَبَسْطِ لِسَانٍ
تَغْنِيهِ أَطْيَارُ الْقِيَانِ إِذَا انْتَشَى بِصَنْجٍ وَكَيْثَارٍ وَعُودِ كِرَانٍ
وَيَسْمُو دُخَانَ الْمَنْدَلِ الرُّطْبِ فَوْقَهُ كَمَا احْتَمَلَتْ رِيحُ مُنُونِ عُثَانٍ
إِلَى أَنْ تَشَهَّى الْبَيْنَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ وَحَنَّ إِلَى الْأَهْلِينَ حَنَّةً حَانِي
فَاتَّبَعْتُهُ مَا سَدَّ خَلَّةَ حَالِهِ وَأَتْبَعَنِي ذِكْرًا بِكُلِّ مَكَانٍ

قوله : « وَعَمَّ صَلُعَ الْهَضْبِ » ، البيت ، كقول بعض أهل عصرنا

يَصِفُ الثَّلَجَ أَيْضًا :

وَأَتَرَعَ الْوَهْدَ مِنْ أَزْبَادِ لُجَّتِهِ بِالْبَرَسِ يَنْبُتُ بَيْنَ الْقَوْسِ وَالْوَتْرِ
فَالْأَرْضُ مَلْسَاءُ لَا أَمْتُ وَلَا عَوْجُ كَنُقْطَةٍ مِنْ سَرَابِ الْقَاعِ لَمْ تَمُرْ

وقوله : « فَاتَّبَعْتُهُ مَا سَدَّ خَلَّةَ حَالِهِ » ، البيت ، كقول حبيب :

فَرَاخَ فِي ثَنَائِي وَرُحْتُ فِي ثِيَابِهِ

وَأَخَذَهُ بَعْضُ أَهْلِ عَصْرِنَا فَقَالَ :

وَخُذْ حَمْدِي بِجُودِكَ ، ذَاهِدًا ، كَلَانَا الْيَوْمَ أَرْبَحُ صَيْرِفِي
لَا صَبِيحَ مِنْ نَوَالِكَ فِي رِيَاشٍ وَتُصْبِحَ مِنْ مَقَالِي فِي حُسْلِي

قال أبو عامر : ولما أنشد المعتلي بالله يحيى بن علي بن حمود قول ابن قاضي
 ميلة يصفُ مراكباً للروم أوقع به المسلمون وغرقوه وذكروا قتل العليج :
 إذا طفا أبصر الصمصام^(١) يرقبه أو غاص في الماء من خوف الردى شرقاً
 وأى عيش لموقوف على تلف يراقب الميتتين : السيف والغرقا
 وكانت^(٢) إثر ذلك^(٣) وقعة للمعتلي بالله على السودان بإشبيلية . فأمر
 أبا عبد الله ابن الحنّاط بصفة ذلك^(٤) إذ الوقعتان متشابهتان . ففعل ؛ وبلغني أنا
 ذلك ، فكتبتُ إلى المعتلي بشعرٍ طويل في المعنى أوله :

غَنَّاكَ سَعْدُكَ فِي ظِلِّ الظُّبَا وَسَقَى « فاشربْ هَنِيئاً عَلَيْكَ النَّجْجُ مَرْتَقَا »

ومنها في صفة الوقعة :

سَقِيًّا لَأَسَدٍ تَسَاقَى الْمَوْتَ أَنْفُسُهَا ١٠
 قَامَتْ بِنَصْرِكَ لَمَّا قَامَ مَرْتَجِلاً
 سَرِيَتْ تَقْدُمُ جَيْشِ النَّصْرِ^(٥) مَتَّخِذًا
 فِي ظِلِّ لَيْلٍ مِنَ الْمَاضِي مُعْتَكِرٍ
 وَصَفَحَ قَرْنٌ غَدَاةَ الرَّوْعِ يَكْتَبُهُ
 أَجْرَيْتَ لِلزَّنَجِ فَوْقَ النَّهْرِ نَهْرَ دَمٍ ١٥
 وَسَاعَدَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى بِقَتْلِهِمْ
 مِنْ كُلِّ أَسْوَدٍ لَمْ يَدْلِفْ عَلَى ثَلَجٍ
 كَأَنَّ هَامَتَهُ . وَالرَّمْحُ يَحْمِلُهَا ،
 وَتَلَبَّسُ الصَّبْرَ فِي يَوْمِ الْوَغَى حَلَقًا
 خَطِيبُ جُودِكَ^(٦) فِيهَا يَنْثُرُ الْوَرَقَا
 سُبُلَ الْحِجْرَةِ فِي إِثْرِ الْعُلَا طُرُقًا
 يَجْلُو إِلَى الْخَيْلِ مِنْهُ وَجْهَكَ الْفَلَقَا
 مِنَ الظُّبَا قَلَمٌ لَا يَعْرِفُ الْمَشَقَا
 حَتَّى اسْتَحَالَ سَمَاءً جَلَّتْ شَفَقَا
 حَتَّى غَدَا الْفَلَكَ بِالنَّاجِي بِهِ غَرَقَا
 بَأَنَّ جَدَّكَ يَجْلُو صَفْحَهُ يَقَقَا^(٧)
 غَرَابُ بَيْنٍ عَلَى بَانَ النَّقَا نَقَقَا

(١) ب ، ت : « الضرغام » (٢-٣) ز في ب ، ت

(٣) ب : « فأمر ابن الحنّاط أن يصنع في ذلك شعراً »

(٤) ب ، ت : « مجدك » (٥) ب : « الصبر » (٦) كذا بجميع الأصول

ومنها :

إذا ونى ثغر الخطيُّ ثُغْرَتَهُ أو عاذَ بالنهرِ مسلوبَ القُوَى غَرِقَا
وأىُّ نهرٍ يُرَجِّى العِبرَ عابِرُهُ وسُفْنُهُ طافياتٌ غُودِرَتْ فِلَقَا
(١) قوله : « حتى استحالَ سماءُ » ، البيت ، إلى قولِ المغربي أراه أشار :

وعلى الأفقِ من دماءِ الشَّهيدِ نِ : علىٍ ونَجْلِهِ شاهِدانِ ٥
فهُما في أواخرِ الليلِ فَجَرَا نِ وفي أوليائِهِ شَفَقانِ (١)

وقوله : « كَأَنَّ هامَتَهُ والرُّمَحُ » ، البيت ، (٢) أخذَ معناه ابنُ الحداد فقال من
قصيدة في مدائحِ ابنِ صُمادح : يصف غلبتَهُ على وادى آش سنةَ خمسٍ وخمسين (٢) :

بلادٌ غدتْ يَأْجُوجُ فيها فَأَفْسَدَتْ فكنتَ كذِي القرنينِ ، والجحفلُ السَّدُّ
وما زالَ شرقُ المَريَةِ عاطِلاً إلى أنْ علاها (٣) من رؤوسِهِم عِقْدُ ١٠
وقد غَوَّضُوا من ثَابِتَاتِ (٤) جُسُومِهِم بِمُصَمَّتَةٍ (٥) لا عَظَمَ فيها ولا جِلْدُ
كَأَنَّهُمْ فيها غَرَايِبُ وَقَعَتْ عَلَى باسِقَاتٍ لا تَروحُ ولا تَقْدُو

ومن مشهورِ هذا المعنى قولُ الآخر :

وعادَ لكَنَّهُ رَأْسُ بلا جَسَدٍ يَسْرِي وَلَكِنْ على ساقِ بلا قَدَمِ
إذا تراءى على الخطيِّ أسْفَرَ في حالِ العُبُوسِ لَنَا عن ثَغْرِ مَبْتَسِمِ ١٥

(١ - ١) هـ في ر ، هـ

(٢ - ٢) ب ، ت : « كقول أبي عبد الله بن الحداد من أهل المرية من قصيدة يمدح

بها ابن صمادح يقول فيها »

(٣) هـ : «علاه» (٤) ب : «باسلات»

(٥) هـ ، ر ، هـ : «مصمتة»

ولم أسمع في صفة الرأس المصلوب على الرمح أحسن من قول أبي فراس
يخبر عن سيف الدولة وقد أنقذ أبا وائل التغلبي من الأسر ، وقتل أسره :

وأنقذ من ثقل الحديد ومسه أبا وائل والدهر أجده صاعر
وآب ورأس القرمطي أمامه له جسد من أكعب الرمح ضامر

وكان هذا المقتول الذي أوقع به سيف الدولة قد ظهر على أطراف الشام
والتفت عليه القبائل ، وكان يعرف بالمبرقع ، فحارب أبا وائل تغلب بن داود
وهو خليفة سيف الدولة على حمص ، فهزمه وأسرته وألزمه شراء (١) نفسه بعدد
من الخيل والمال ، فخرج سيف الدولة من حلب وأسرى حتى لحق في اليوم
الثالث بنواحي دمشق ، فأوقع بالمبرقع ، وفي ذلك يقول المتنبي (٢) :

ولو كنت في أسر غير (٣) الهوى ضمنت ضمان أبي وائل
فدى نفسه بضمن النصار وأعطى صدور القنا الذابل
ومناهم الخيل مجنوبة فجن بكل فتى باسل
كان خلاص أبي وائل معاودة القمر الآفل (٤)
دعا فسمعت ، ولم صامت على البعد عندك كالقائل !

قال ابن بسام : وإذ قد أجرى أبو عامر ذكر يحيى بن حمود ، فلنشر
إليه ، وناول قصيدة أبي عامر بفصل نجعله منها عليه ، إذ قد مر ذكره فيها ،
ونسقت له قوافيها . وأنا أشرح في هذا الموضع مقتله خاصة ، إذ كان خاتمة
آثاره ، ومميزاً من سائر أخباره . وسيمر في أخبار عمه القاسم كيف نجم ملكه ،
وعلى يدى من نظم سلكه .

(١) : « فداء »

(٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٢)

(٣) : « غير أسر »

(٤) هذا البيت والذي يليه ناقصان في ر ، و

ذكر الخبر عن مقتل يحيى بن حمّود الذي ذكر

قال ابن حبان : حكى لي أبو الفتح الهزالي قال : لما كان عيد الأضحى سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وانغمس يحيى بن حمّود في (١) شربه وهو ، سرت مع لمة من بني عمي (٢) إلى اللحاق بأشبيلية ، للاجتماع بابن عمنا محمد بن عبد الله والقاضي ابن عباد ، فوصلنا وأنبأناها من خبر ابن حمّود يحيى وهو ما رأينا أن يوجها إليه بجيش لقتاله . فخرج إسماعيل بن عباد مع ابن عمنا محمد بن عبد الله في الحرّم من سنة سبع وعشرين بعدها ، وهما في بيعة هشام بن الحكم تلك الأيام (٣) ، فجئنا إلى باب قرمونة بالجيش كي نغيظ يحيى فيخرج أو يخرج أحد من قبله ، وقد قدمنا سرية وكمن الجيش ناحية أخرى ، وقد كنّا وجّهنا فوارس ليلاً للسامرة بسور قرمونة . فطار الخبر إلى يحيى وهو تلك الليلة على شراب وقد أخذ منه ، فتعرّعة ووثب قائماً يقول : وايباض بحتي الليلة ، وابن عباد زأري ! وأمر بالإسراج وتقدم إلى أصحابه وغلمايه ، وبادر الخروج ليلاً على باب قرمونة ، وأصحابه يتلاحقون ، فالتأمت عدته في نحو من ثلثائة فارس أكثرهم دغل السرية ، فمضى على وجهه مغترا يضرب إبطي أهجن خيله ، مغنقاً إلى حينه .

قال أبو الفتح : وأقول إنه على ذلك عند انتهائه ، لو ضرب مصافاً يقيم (٤) فيه ويقدم رجاله للحرب طائفة يمدّهم بطائفة ، وتقف خيلهم ردءاً لهم ما فارق الصواب . لكنّ الحين غطى على بصره فألقى نفسه علينا في أوائل خيله ، ولما

(٢) ب ، ت « عمه »

(١) ب ، ت « على »

(٣) ز في ب ، ت : « وخامر ناموسه الأمة » (٤) و : « يقوم »

تَسْتَبِينَ الْأَشْبَاحَ ظُلْمَةً . فَاَنْتَشَبَ الْحَرْبَ مَعَنَا غَلَسَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَوَالَى عَلَيْنَا الشَّدَاتِ الصَّعَابَ بِنَفْسِهِ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يُنْجِينَا إِلَّا الصَّدْقُ ، فَاسْتَقْبَلْنَاهُ بِوَجْهِهِ ثُمَّ رَدَدْنَا عَلَيْهِ الْكَرَّةَ ، وَطَاوَلْنَاهُ بِالْقُوَّةِ ، فَحَمَلَ عَلَيْنَا حَمَلَةً ثَالِثَةً مَعَ أَصْحَابِهِ لَهُ ، وَكُنَّا فِي سَنَدِ ضَرُوسٍ كَوُودٍ ۖ مَنِيعِ الصُّعُودِ إِلَيْنَا ، نَوُودُ مِنْهُ وَنَنَالُ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَإِذَا رَدَدْنَا عَلَيْهِمْ اسْتَعَنَّا بِفَضْلِ الْأَنْحَادِ مِنْ عَلٍ ۖ فَخَطَفَهُمْ خَطْفَ الْأَجَادِلِ ۖ فَصَدَقْنَا هَذِهِ الْحَمَلَةَ ، فَسَاقْنَا ^(١) حَتَّى رَمَانَا عَلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبَّادٍ وَمِنْ مَعِهِ مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ۖ فَتَارُوا فِي وَجْهِهِ ۖ فَتَوَقَّفَ الْفَرِيقَانِ سَاعَةً ^(٢) ، وَظَهَرَ كَيْفُ ابْنِ عَبَّادٍ وَجَادَ صَبْرُهُ ، وَحَرَّضَ غُلَامَانَهُ الْعَجَمَ ، فَشَدَّتِ الْجَمَاعَةُ عَلَى يَحْيَى شِدَّةً مُنْكَرَةً ، وَحَدَرُوا ^(٣) مِنْ ذَلِكَ التَّلِّ الَّذِي تَسَنَّمُوهُ فَانْكَسَرُوا ۖ وَصُرِعَ فِي ذَلِكَ قَوْمٌ وَتَمَادَى الطَّلَبُ وَرَاءَهُمْ بَعْدَ مُوَاقِفَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَصُرِعَ يَحْيَى وَخُزَّ رَأْسُهُ ۖ وَطِيرَ بِهِ إِلَى ابْنِ عَبَّادٍ بِأَشْيَلِيَّةٍ ، نَفَرَ سَاجِدًا وَسَجَدَ مِنْ حَضَرِ اسْجُودِهِ ، وَانْطَبَقَ الْبَلَدُ فَرَحًا ، وَاسْتَمَرَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى أَصْحَابِ يَحْيَى ، حَتَّى سَاءَ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَبَدَتْ عَصَبِيَّتُهُ لِقَوْمِهِ ۖ وَكَلَّمَ ابْنُ عَبَّادٍ فِي رَفْعِ السَّيْفِ عَنْهُمْ ، فَأَطَاعَهُ فِي ذَلِكَ وَتَمَّ لَابْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَا أَرَادَ مِنْ حَقْنِ دِمَائِ قَوْمِهِ ، إِذْ لَمْ يَأْتِ الَّذِي أَتَاهُ إِلَّا عَنْ ضَرُورَةٍ ، وَلَمْ يَتْلَعْمُ أَنْ أَسْرَعَ الرَّكْضَ إِلَى قَرْمُونَةَ دُونَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبَّادٍ ، فَنَجَّاهَا لَوْقَتِهِ وَقَدْ مَلَكَ سُودَانُ يَحْيَى ^(٤) أَبْوَابَهَا عَلَى أَهْلِهَا ، فَدَنَا إِلَى مَكَانِ عَوْرَتِهَا ^(٥) مِنْ سُورِهَا الْجَوْفِي وَقَدْ عَرَفَهُ ، فَفُتِّحَ لَهُ وَدَخَلَ مِنْ سَاعَتِهِ دَارَ يَحْيَى وَحَارَ جَمِيعَ

(١) ر : « فَسَاقَهَا » (٢) ه في ر

(٣) ه : « فَتَحَدَّرَ » (٤) ه في ر — بياض في ه

(٥) ب ، ت : « عَوْرَةٍ » — ه : « غُور »

ما ألفاه من مالٍ ومتاعٍ ، واشتَمَلَ على نِساءِه وأباح حُرْمَه لبنيهِ ^(١) ، واستحلَّ حرامهنَّ ، واستوى في مجلسِه ، ونَصَرَ نَصْرًا لا كِفَاءَ له ، وردَّ الله عليه مِلْكَه ، ثم لم يجدْه على ذلك شاكِرًا للنعمة ، ولا مُقَصِّرًا عن ارتكاب المعصية . وسقط الخبرُ بمقتل يحيى على أهل قرطبة فما صدَّقوه من الفرح .

قال أبو عامر : وما يلزم المدعى لصناعة الكلام إذا اعتمد وصف حالة ٥
أن يستوفي ^(٢) جميعها ، ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها ، فذلك أبهى الكلامه ، وأنعم للمتكلم به ^(٣) ، وأدل على أن الكلام له ومن تأليفه ^(٤) كما شهدته يومًا عند ابن حمود وقد صدر عن ابن الشَّرب ومُدَّحه عدة شعراء ، صُدُّوا أشعارهم لزينب والرباب ولميس وفرتنى ، وأعجازها للجود والكرم وبذل اللهى ، ولم يُلَمِّ أحدٌ منهم بذلك الفرض ١٠
والمغزى إلا في بيتين أو ثلاثة ، فأنشدته أنا يومئذ من جملة قصيدة أولها :

فريقُ العدا من حدٍّ ^(٥) عزَّ منك يفرق	وبالدَّهرِ مما خاف بطشك أولق
عجبتُ لمن يعتدُّ دونك جنةً	ومهمك سعدٌ والقضاء مفرق
ومن يبتنى ^(٦) بيتًا ليقطع دونه	ممرَّ رياحِ النَّصرِ وهو الخورنق
وما شرب ابن الشَّرب قبلك خمره	من الذلِّ بالعجز الصَّريح نُصفقُ ١٥
توهم فيه الرُّعن حصنًا ^(٧) فزرتَه	بأرعن ^(٨) فيه مُرعدُ الموتِ مبرقُ
وحولك أسيافٌ من السَّعدِ تنتصي	وفوقك أعلامٌ من النصرِ تخفيقُ

(١) ب : « بنيه »

(٢) ب ، ت : « يستوفي ذكره »

(٣) ب ، ت ، هـ : « فيه »

(٤) هـ في ر

(٥) ر : « جد »

(٦) هـ ، ب ، ت : « يبتنى »

(٧) هـ : « أن الرعن حصن »

(٨) ب : « فأرعد »

بأبيض مُسَوَّدَ الدَّلَاصِ كَأَنَّهُ شهابٌ عليه من دُجَى الليلِ يَلْمُقُ
 وأَسودَ مَبِيضٍ القَبَاءِ ^(١) كَأَنَّمَا يطِيرُ بهِ نحوَ الكَرِيهَةِ عَفْعُ
 وخيلٌ تَمْشِي لَوَغَى ببطونها إذا جعلتْ بالمرتقى الصَّعبِ تَزَلُّقُ
 وهذا البيت مما لم يُحسن أبو عامرٍ سرقةً ، ولا بلغ به طبقةً ، وهو من قول
 أبي الطيب ^(٢) :

إذا زلَّقتْ مَشْيَتَهَا ببطونها كما تَمْشِي في الصَّعيدِ الأَرَاقِمُ

وله من أخرى في سليمان المستعين :

بكى أَسَفًا للبينِ يومَ التفرُّقِ وقد هَوَّنَ التوديعُ بعضَ الذي لَمِقِ
 وما للذي وَلَّى بهِ البينُ حَسْرَةً بكيتُ ، ولكنْ حَسْرَةً للذي بَقِيَ
 وقد شاقني الوُرُقُ السَّوَاجِعُ بِالضُّحَى وَمَنْ يَسْتَمِعْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ يَشْتَقِ ^(٣)
 على فَنٍّ من أَيْكَةٍ قد تَعَلَّقَتْ بحبلِ النوى ^(٤) من قَلْبِي المتعلِّقِ
 فصَدَّقْتُهَا في البينِ من غيرِ عِبْرَةٍ وكَمْ من كثيرِ الدمعِ غيرِ مُصَدَّقِ !
 لعلَّ نسيمَ الرِّيحِ تَأْتِي بهِ الصَّبَا بنشرِ الخُرَامَى والكِبَاءِ المَعْبَقِ
 كأنَّ عليها نَفْحَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ أَنتِ من جنابِ المستعينِ الموفِّقِ

١٥ ومنها :

فَنِلْتُ الَّذِي قَدْ نَلْتَ إِذْ لَيْسَ لِلْعَلَا ^(٥) سَوَاكَ كَأَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ مُنْتَقِي
 قوله : « وما للذي وَلَّى بهِ البينُ حَسْرَةً » ، البيت ، يلمحُ قولَ محمدِ
 ابنِ هانئٍ :

(١) ر ، و : « الفناء » (٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٧٦)

(٣) و : « يعشق » (٤) ب ، ت : « الهوى »

(٥) ر : « للهوى »

لا تسلني عن الليالي المواضي وأجرني من الليالي البواقي
وأوضح منه قول الآخر :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
وقوله : « كأن الدهر للناس منتقى » ، لفظ بيت أبي الطيب (١) :

ولما رأيت الناس دون محله تيقنت أن الدهر للناس ناقد
(٢) ولأبي عامر من قصيدة يقول فيها ، وقد أزمع على الخروج من قرطبة
إلى مالقة لاحقاً بيجي بن علي :

أرى أعياناً ترنو إلى كائننا (٣)
أدور فلا أعتام غير محارب
ويجلب لي فهمي ضروباً من الأذى
وأوجع مظلوم لقلب وذى حجى
غنيتم على ما تزعمون عن الورى
وهل يقدم البازي على الطير في الضحى
سلام عليكم لا تحية شاكر
وما قرعت سنى عليكم ندامة
عليكم بدارى فاهدموها دعائماً
تساور منها جانبى أراقم
وأسعى فلا ألقى امراً لي يسالم (٤)
وأشقى اسرى في قرية الجهل عالم
فقتى عربى تزدريه أعاجم
لقد سفهت تلك الخلوم الزواعم
إذا زال عن ريش الجناح القوادم ؟
ولكن شجى تنسد منه الخلاقم
وأوشك غداً أن يقرع السن نادم
ففى الأرض بناءون لي ودعائم

(١) راجع ديوانه (ج ١ ص ١٨٠)

(٢) هنا يبدأ خرم في ر ، ويستمر خرم لب

(٣) هـ : « كأنها »

(٤) هذا البيت ناقص فى هـ

لئن أخرجتني عنكم شرُّ عصبية ففي الأرض إخوانٌ علىَّ أكارمُ
وإن هُشمتُ حقَّ أُمِّيَّةٍ عندها فهاتأ على ظهرِ الحجَّةِ هاشمُ
ولا غرو من تلك القلائسِ جالياً^(١) إذا عرفتُ حقَّ هناكَ العامِّ^(٢)

قال أبو الحسن : وقد تقدّم القول من تحيُّلِ حُذَّاقِ الصناعة في أخذِ
المعاني أن تُتركِ القافية والوزن ، وكذلك يجبُ أن يُقصدَ إلى التطويلِ إذا قصّر
المتقدّم . ألا ترى قولَ أبي عامر حين سمع الرماديَّ يقول^(٣) :

ولم أرَ أحلى من تبسُّمِ أعينِ غداة النَّوى عن لؤلؤٍ كان كامناً
فقال أبو عامر في هذه القصيدة :

ولما فشا بالدمع من سرِّ وجدنا إلى كاشحين ما القلوبُ كواثمُ
أمرنا بامسالكِ الدموعِ جفوننا ليشجى بما تطوى عذولٌ ولائمُ
فظلَّتْ دموعُ العينِ حيرى كأنها خلالَ ما قينا لآلِ توائمِ^(٤)
أبى دمعنا يجري مخافةً شامتِ فنظَّمه بين الحاجرِ ناظمُ
وراقِ الهوى منّا عيونٌ كريمةٌ تبسّمَن حتى ما تروقُ المباسمُ
فقام بهذا^(٥) التركيب ما نُسيبت له حيلةُ التطويل .

وبيتُ الرمادي من قولِ ابن عبد ربّه :
وكأنما غاصَّ الأسى بجفونها^(٦) حتى أتاك بلؤلؤٍ منشور

(١) ت : « جانباً » . كذا في بقية الأصول ، ولعله : « ولا غرو من تلك القلائس جانب »

(٢) هذا البيت ناقص في و

(٣) و : « قول الرمادي » (٤) هذا البيت ناقص في ب ، ت

(٥) و : « هذا » (٦) ب ، ت : « بجفوننا »

فاحتال الرمادى حتى أتى باللؤلؤ وعوض من الغائص التبسم . ووقعت له
استعارة التبسم للعين موقعا لطيفا ، وإنما هو للثغور بسبب توسط اللؤلؤ الذى هو
للعيون والثغور . فنسخ المعنى نسخا . وقلبه قلبا . وتشبيه الدموع باللؤلؤ
أكثر من أن يحصى . ومن أحسنه قول القائل :

ولما وقفنا للوداع ودمعها ودمعى يثيران الصباة والوجد
بكت لؤلؤا رطباً وفاضت مدامعى عقيقاً فصار الكل فى نحرها عقدا
ومن (١) أحسن ما جاء من توقع أهل النمام . والاحتيال لكتمان الدموع
السواجم ، (٢) لا سيما وقد أرف الفراق ، وعصت بما فيها من الدمع الآماق ، قول
بعض العرب (٣) :

ومما شجاني أنها يوم ودعت تولت ودمع العين فى الجفن حائر
ولما أعادت من بعيد بنظرة إلى التفاتاً أسلمتها المحاجر
وقال آخر :

ولما أبت عيناى أن تحبسا البكا وأن يمنعا درّ الدموع السواكب
تشاءت كى أبغى لدمعى علة وكم مع لوعاتى (٣) بغاء الشاوب
أعمر ضمائى للهوى ونممتا على ، لبس الصاحبان لصاحب
وأشد ثعلب :

ومستنجز بالحسن دمعاً كأنه على الخسد مما ليس يرقأ حائر
ملا مقلتيه الدمع حتى كأنه لما انهل من عينيه فى الماء ناظر
فعينائى طورا تعرقان من البكا فأعشى وطورا تحسيران فأبصر

(١) هنا يبدأ خرم فى م أيضاً

(٣) كذا فى الأصول

(٢-٢) م فى ب

وقال آخر :

وقفنا والعيونُ مثَقَلَاتُ يغالبُ طرفُها نظراً كليلُ
نهته رقبته الواشينَ حتى تعلق لا يغيضُ ولا يسيلُ
وأنشد :

ومن طاعتي إياهُ أُمطرَ ناظري إذا هو أبدى من ثناياهُ لى برقاً
كأنَّ دُموعي تبصرُ الوصلَ هارباً فمن أجلِ ذَا تجرى لتدركه سبقاً
والبيتُ الأولُ من هذين كقول المتنبي (١) :

تبلى خدي كلما ابتسمتُ من مطرٍ برقه ثناياها

وقال أبو الشَّيْص :

وقائلةٌ وقد نظرتُ لدمعٍ على الخدين منحدِرٍ سكوبٍ :
أتكذبُ في البكاء وأنت خلقُ قديماً [قد] جَسُرْتَ على الذنوبِ ؟
قيصك والدموعُ تجولُ فيه وقلبك ليس بالقلبِ الكئيبِ
نظيرُ قيصِ يوسفَ حينَ جاءوا على لَبَّاتِهِ بدمٍ كذوبِ
فقلتُ لها : فداكِ أباي وأمي رحمتُ بحسنِ ظنكِ في العيوبِ
أما والله لو فتشتُ قلبي لسرَّكِ بالعويلِ وبالنحيبِ
دموعُ العاشقين إذا تلاقَتْ بظهِرِ الغيبِ ألسنةُ القلوبِ

وكان بشار يقول : ما زال فتى من بني حنيفة يُدخل نفسه فينا ، ويُخرجُها

منَّا حتى قال :

نزفَ البكاءَ دموعَ عينك فاستعرُ عيناً لغيرك دمعها مذرارُ
من ذا يعيرُك عينه تبكي بها أرايتَ عيناً للبكاءِ تعارُ ؟

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٤٩٩)

وقال آخر ، مما أنشد أبو علي البغدادي :

قالوا : فما نفسٌ يعلو كذا صُعداً وما لعينك لا ترقا ما قيها ؟
قلت : التلوُّم من تدَّ أب سيركم ودمعُ عيني يجري من قذى فيها
وأنشد أبو علي لغيره :

يقطن : لقد بكيت ، [فقلت :] كلاً وهل يبكي من الطرب الجليد ؟
ولكنني أصاب سواد عيني عويدٌ قذى له طرفٌ حديد
فقالوا : ما لدمعهما سوءاً أكلتني مقتلتيك أصاب عود ؟
وقال ابن أبي ربيعة ^(١) في قريب منه :

كفكفتُ دمي بالرداء وإنما أخفيتُ فيضَ الدمع عن أصحابي
فرأى سوابقَ عبرة مسفوحة عمرؤ ، فقال : بكى أبو الخطَّاب !
وقال العباس بن الأحنف ورجع إلى الطريق :

لكن ذهبُ لارتدي فطرفتُ عيني بالرداء
وقال ابن فتوح من أهل عصرنا :

وقد تعلَّق بالأشفار منحدرًا تعلَّق القطر بالأغصان والورق
وقال أبو جعفر ابن هريرة التُّطيلي :

يكفكف من تلك الدموع وربما جلاها الرداء وامترتها الأصابعُ
وحدث ^(٢) أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن عثمان الصحفيُّ قال : دخلتُ
يومًا على أبي عامر ، وقد ابتدأتُ علته التي مات منها فتأنَّس بي ، وجري الحديثُ
إلى أن شكوتُ إليه تجنِّي بعض إخواني علي ، ونفاره عني ، فقال لي : سأسعى

(١) راجع ديوانه ص ١٧١ (٢) هنا ينتهي خرم و

في إصلاح ذات البين . فخرجتُ عنه ، واتفق لقائي بذلك المتجني مع بعض
إخواني ، وأعزهم عليّ ، فلما رآني مؤكّياً عن^(١) ذلك الصديق أنكر عليّ ،
وسأله عن السبب الموجب ، فأخبره وزاد في مشيئتهما حتى لحقاني وعنّما عليّ
في مكالمه صاحبي ، وتعاتبنا عتاباً أرق من الهوى ، وأشهى من الماء على الظما .
حتى جئنا دار أبي عامر ، فلما رآني ضحك وقال : مَنْ كان الذي تولى إصلاح
ما كنّا سرّزنا^(٢) بفساده ؟ قلنا : قد كان ما كان ، فأطرق قليلاً ثم أنشد :

مَنْ لَا أُسَمِّي وَلَا أُبُوحُ بِهِ أَصْلَحَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَهْوَى
أُرْسِلْتُ مَنْ كَابَدَ الْهَوَى فَدَرَى كَيْفَ يُدَاوِي مُوَاضِعَ الْبَلْوَى
وَلِي حُقُوقٌ فِي الْحُبِّ ظَاهِرَةٌ لَكِنَّ الْإِنِّي يَعُدُّهَا دَعْوَى
يَا رَبِّ إِنَّ الرُّسُولَ أَحْسَنَ بِي يَا رَبِّ فَاحْفَظْنِي مِنَ الْأَسْوَا^(٣)

قال ابن المصنف : ودخلتُ عليه يوماً في تلك العيلة ومعِيَ غلامٌ وسيمٌ من
إخواننا ، وكان أبو عامر قبل ذلك يحبُّ مَازَحَتَهُ فِينَا فِرُهُ ، حتى خاطب
أبو عامر بعضَ إخوانه بشعرٍ مَسَّهُ فِيهِ بِطَرْفٍ لِسَانِهِ ، فقال له ذلك الغلامُ :
هَجَوْتَنِي يَا أَبَا عامر دُونَ أَنْ تَسْتَنْبِتَ فِي أَمْرِي ، وَأَنْ تَعْلَمَ مِنْ سِرِّي مَا يَوْجِبُ
ذلك . فقال : عَلَى تَكْفِيرِهِ بِمَا يَمْحُوهُ مِنَ الْقَرَاطِيسِ وَالصُّدُورِ ، وَكَانَ ذَلِكَ
إِثْرَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْأُولَى فَطَفُنَا بِالْجَامِعِ ثُمَّ انْصَرَفْنَا إِلَيْهِ وَأَنْشَدْنَا :

أَلَا بَابِي زَائِرِي فِي الْعَتَمِ بُوْجِهِ يُجَلِّي سَوَادَ الظُّلَمِ
تَكْتَمُ بِاللَّيْلِ فِي ظِلِّهِ وَهَلْ يُمْكِنُ الصُّبْحَ أَنْ يَكْتَمَ؟

(٢) ب : « عودنا »

(١) ب ، ت : « ماجيا »

(٣) هذا البيت ناقص في م

- أَتَى يَسْتَجِيرُ أَلِفًا لَهُ كَمَا جَاوَبَ^(١) الْبَانُ رَطْبَ الْعَنَمِ
وَقَدَرَقَ^(٢) مَاوَرَدُ تَلَكَ^(٣) الْخُدُودِ بِمَا سَالَ مِنْ مِسْكٍ تَلَكَ اللَّعَمِ
وَكَانَ يَحْمَحِمُ تَحْتَ الْعِذَارِ كَحَمْحَمَةِ الْخَيْلِ تَحْتَ اللَّجَمِ
فَقُلْتُ : مَنْ الزَّائِرِيُّ وَالْدَّجِيُّ^(٤) يَسُدُّ الْعَيُونَ بِثَوْبٍ أَحْمَ^(٥)
فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : لَا تُنَمِّ بِمَا جِئْتَ مِنْ كَذِبٍ يُنْتَظَمُ^(٥)
فَأَيَقَنْتُ أَنْ أَبَا خَالِدٍ سَرَى^(٦) وَخِيَالَ حَبِيبِي أَلَمِ
فَأَبْصَرْتُ وَجْهًا حَكَاهُ الْهَلَالُ وَتَغَرَّأَ حَكِي الدَّرَّ لَمَّا ابْتَسَمَ
وَالَا فَعَفَوُهُ يُقِيلُ الْعِثَارَ فَذُو الْعَرْشِ يَرْحَمُ مِنْ قَدْ رَحِمَ^(٧)
فَقَالَ : بَلِ الْعَفْوُ يَا سَيِّدِي وَقَبَّلَنِي مِنْ بَعِيدٍ وَضَمَ
فَبِتُّ عَلَى بَرْدِ طَيْبِ الرِّضَا أُسْرُ بَلِيلِي وَإِنْ لَمْ أُنَمِّ^(٨)
وَقُلْتُ : ابْنُ زَيْدُونَ ، لَا كُنْتُ لِي بِخَالِ^(٨) ، وَلَا كُنْتُ لِي بِابْنِ عَمِّ
خَبِيثُ سَعَى بَيْنَنَا بِالنَّمِيمِ وَقَطَعَ خُلَّتَنَا بِالْجَلَمِ

فصل في ذكر آخر أيام^(٩) أبي عامر ووفاته رحمه الله

- قال : ولما طال بأبي عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذي
عرض له في مستهل ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعدمه
١٥

(١) و : « جاور » (٢-٢) ب ، ت : « ماء تلك »

(٣) ب ، ت : « في الدجى » (٤) ب ، ت : « بثوب آدم »

(٥) ب ، ت : « ينتظم » (٦) في الأصول الثلاثة : « سرى وأن خيال »

(٧) قبل هذا البيت بيت مضطرب نصه في ب : « ما يأتي : »

فقلت أمر بهم فأشعر بضرب فاحذر جان ندم

(٨) ب ، ت : « لا كنته بخال » (٩) ب : « أمر »

حركة ولا تقلباً ، وكان يمشى إلى حاجته ^(١) على عصاً مرة ، واعتماداً على إنسان مرة ، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً ، فإنه صار حَجَرًا لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يَحْتَمِلُ أَنْ يُحَرِّكَ لعظيم الأوجاع ، مع شدة ^(٢) ضغط الأنفاس وعدم الصبر ، حتى هم بقتل نفسه ، وفي ذلك يقول من قصيدة :

أنوح على نفسي وأندب نبلها إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله في كل حالة على وأحكاماً تيقنت عدلها
أطل قعيد الدار تجنبي العصا على ضعف ساق أو هن السقم رجلها
وأنعى خسيسات ابن آدم عاملاً براحة طفل أحكم الضر نصلها
ألا رب خصم قد كفيت ، وكربة كشت ، ودار كنت في الحل وبلها
ورب قريض كالجريض بعثته إلى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهم أخو فتكة شنعاء ما كان شكلها ؟
عليكم سلام من فتى غصه الردى ولم ينس عيناً أثبت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه وداخلها حب يهون ثكلها

ونقلت من خط الفقيه أبي محمد علي بن حزم الشافعي قال : كتب إلى أبو عامر ابن شهيد في علته التي اعتلها بهذه الأبيات :

ولما رأيت العيش ولّى رأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أني ساكن في غيابة بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
أدّر سقيط الحب في فضل عيشة وحيداً ، وحسني الماء ثني المفالق ^(٣)
خليلاً من ذاق المنية مرة فقد ذقتها خمسين ، قوله صادق

(١) ب : « صاحبه » (٢) هـ في و

(٣) لم يقع هذا البيت في ب

(١) كَأَنِّي وَقَدْ حَانَ أَرْتَعَالِي لَمْ أَفُزْ (١)
 قديماً من الدنيا بلمحة بارق
 فَمِنْ مُبْلَغٍ عَنِّي ابْنُ حَزْمٍ وَكَانَ لِي
 يَدًا فِي مُلْهَاتِي وَعِنْدَ مُضَائِقِي :
 (٢) عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ إِنِّي مُفَارِقٌ
 وَحَسْبُكَ زَادًا مِنْ حَبِيبٍ (٢) مُفَارِقٍ
 فَلَا تَنْسَ تَأْيِينِي إِذَا مَا قَدَدْتَنِي
 وَتَذْكَارَ أَيَّامِي وَفَضَلَ خِلَائِقِي
 (٣) فَلِي فِي أَدْكَارِي بَعْدَ مَوْتِي رَاحَةٌ
 فَلَا تَمْنَعُونَهَا (٣) عِلَالَةَ زَاهِقٍ
 وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ فِيمَا تَقَدَّمْتُ
 ذُنُوبِي بِهِ مِمَّا دَرَى مِنْ حَقَائِقِي
 ومن جواب ابن حزم له :

أَبَا عَامِرٍ نَادَيْتَ خِلَاءَ مُصَافِيَا
 يُفَدِّيكَ مِنْ دُهِمِ الْخُطُوبِ الطَّوَارِقِ
 (٤) وَأَلْفَيْتَ قَلْبًا مُخْلِصًا لَكَ ، مَمْحَضًا
 بَوْدَكَ ، مَوْضُولَ (٤) الْعُرَى وَالْعِلَاقِ
 شِدَائِدُ يُجْلُوهَا إِلَهِهُ بِلُطْفِهِ
 فَلَا تَأْسَ (٥) إِنْ الدَّهْرُ جَمَّ الْمُضَائِقِ
 (٦) وَرَبَّ أَسِيرٍ فِي يَدِ الدَّهْرِ مُطْلَقٌ
 وَمَنْطَلِقٍ (٦) وَالدَّهْرُ أَسْوَقُ سَائِقِ
 سَفِينَةُ نُوحٍ لَمْ تَضِقْ بِحُلُولِهَا
 وَضَاقَ بِهِمْ رَحْبُ الْفَلَا (٧) الْمُتَضَائِقِ
 فَإِنْ تَنْجُ قُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ مُخْلِصًا
 فَمِنْ أَعْظَمِ النُّعْمَى بَقَاةَ الْمَصَادِقِ
 (٨) وَسَمِعَ فِي تِلْكَ (٨) الْعِلَّةِ نَعْيَ الْوَزِيرِ الْكَاتِبِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ اللَّمَّائِيِّ ، فَقَالَ

١٥

قصيدته هذه :

أَمِنْ جَنَابِهِمُ النَّفْحُ الْجَنُوبِيُّ أَسْرَى فَصَاكَ بِهِ فِي الْغَوْرِ غَارِي ؟
 أَهْدَى إِلَى ظَلَامًا رَدْعُ نَافِجَةٍ أَدْمَاءُ شَقَّ بِهَا الدَّأْمَاءُ هِنْدِي

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| (١-١) نه في ب ، ت | (٢-٢) نه في ب ، ت |
| (٣-٣) نه في ب ، ت | (٤-٤) نه في ب |
| (٥) ب : « فلا بأس » | (٦-٦) نه في ب |
| (٧) ب ، ت : « الملا » | (٨-٨) نه في ب ، ت |

- والليل قد قام في أثواب نادبة^(١) والنجم تحسبه قدّام تابعه
وَجَدُولُ الْإِفْقِ يَجْرِي فِي مَنَافِسِهِ فَقُلْتُ وَالسُّقْمُ مَنْشُورٌ^(٢) عَلَى جَسَدِي
^(٣) أَهْدَى اللَّمَائِ مِنْ أَزْهَارِ فِكْرَتِهِ ٥
فَقِيلَ: مَاتَ ، فَقَالَ اللَّيْلُ: قَارِبَ ذَا^(٤) وَبَيْتٌ فَرَدًّا أَنَا جِئْتُ مُقْلَتِي شَغَفًا
لَا عِشْتُ إِنْ مِتَّ لِي يَا وَاحِدِي أَبَدًا
^(٥) إِنْ الْكَرِيمَ إِذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ ١٠
إِنْ مِتَّ قَبْلَكَ لَا تَعْجَبْ ، فَذُو أَمَلٍ
أَوْ مِتَّ قَبْلِي فَإِنِّي^(٦) مَنَعَكَ لِي عَجَبٌ
زَادَ الْبَلَاءُ عَلَى نَفْسِي فَأَعْدَمَهَا
حَتَّى أَهْمٌ يَقْتُلِي كُلَّ دَاجِيَةٍ
^(٧) إِنِّي إِلَى اللَّهِ مِنْ عُقْبَى بُلَيْتُ بِهَا ١٥
وَقَالَ أَيْضًا فِي عِلَّتِهِ تِلْكَ^(٨) :
^(٩) أَقْرَ السَّلَامِ عَلَى الْأَصْحَابِ أَجْمَعِهِمْ
وَحُصَّ عَمَرًا أَبَازُ كَيْ^(١٠) نَوْرٍ تَسْلِيمٍ

(٢) وه : « مستور »

(١) وه ، ب : « نائية »

(٤ — ٤) وه في ب ، ت

(٣ — ٣) وه في ب ، ت

(٦) هذا البيت ناقص في ب ، ت

(٥ — ٥) وه في ب ، ت

(٨) هذا البيت ناقص في ب ، ت

(٧) وه : « فقي »

(١٠) هنا ينتهي خرم لب

(٩ — ٩) وه في ب ، ت

(١١ — ١١) وه في ب ، لب ، ت

وقل له : يا أعزَّ الناسِ كلَّهم
(١) الله جارك من ذي منعة ظفرت
ما كان حبك إلا صوب غادية
(٣) إن شاء صرف الردي تقديم أطوعنا
وإن أحب الثرى جسمًا ليا كله
(٤) عشنا [ألفين] في بر الهوى زمانًا
فشتت نوب الأيام ألفتنا
وكتب أيضًا إلى جماعة من إخوانه في علته يومئذ :

هذا كتابي وكف الموت ترعجني
إن أقضكم حقكم من قلة عمري
لهني على نيرات ما صدعت بها
فاقر السلام على المنصور أفضل من
واعطف بها عطفة تهتز من كرم
وقال أيضًا في عله تلك :

تأملت ما أفنيت من طول مدتي
وحصلت ما أدركت من طول لذتي
وما أنا إلا رهن (٥) ما قدمت يدي
(٦) سقى الله فتيانا كأن وجوههم
فلم أره إلا كلمة ناظر
فلم ألقه إلا كصفقة خاسر
إذا غادروني بين أهل المقابر
وجوه مصابيح النجوم الزواهر

(٢) هـ : « يحيي فيك للوم »

(٤-٤) هـ في ب ، لب ، ت

(٦-٦) هـ في ب ، لب ، ت

(١-١) هـ في ب ، ت ، لب

(٣-٣) هـ في ب ، لب ، ت

(٥) هـ : « أهل »

إذا ذكروني والثرى فوق أعظمي
يقولون : قد أودى أبو عامر العلأ
هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر
يحل عرس الجبار في دار ملكه
وليس عجيباً أن تدانت منيتي
ولكن عجيباً أن بين جوانحي
يحر كني والموت يحفر^(٣) مهجتي

بكوا بعيون كالسحاب الماطر
أقلوا فقداً مات أباه عامر !
بليغ ، ولم يطف بأفاس شاعر
قوي ، ولا للضعف مهجة صافر^(١)
ويهفو بنفس الشارب المتساكر
يصدق فيها أولى أمر^(٢) أخرى
هو كشرار الجرة المتطائر
ويهتاجني والنفس عند حناجرى

وبلغني أن آخر شعر قاله يودع إخوانه هذه الأبيات :

أستودع الله إخواني^(٤) وعشرتهم
وفتية كنجوم القذف نيرهم
وكون كبا لي منهم كان مغربه
الله يعلم أنى ما أفارقه
كنا أليفين خان الدهر ألفتنا
فإن أعش فلعل الدهر يجمعنا
لا ضيع الله إلا من يصيغه
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف

وكل خرق إلى العليا سباق
يهدي ، وصائبهم يودى بإخراق
قلي ، ومشرقه ما بين أطواق
إلا وفي الصدر منى حر مشتاق
وأى حر على صرف الردى باقي^(٥)
وإن أمت فسيسقيه كذا الساق
ومن تخلق فيه غير أخلاق^(٦)
لا يثلم الحب آدائي وأعراف^(٧)

(١) وه : « صابر » (٢) ب ، ت ، لب : « أول الأمر »

(٣) ب ، لب : « يحفر » (٤) ب ، ت : « أصحابي »

(٥) هذا البيت ناقص في وه (٦) لم يقع هذا البيت والذي ياله إلا في وه

(٧) كذا بالأصل ، وفي البيت بعض غموض

حتى رمتنا صروف الدهر عن كسبٍ فقرقتنا ، وهل من صرفه وإق؟^(١)
إني لأزمنقه الموت يَضْغَطُنِي فأقتضى فرجةً مُرْتَدَّ أَرْمَاقِي
ثم أوصى أن يُدفنَ بجانبِ صديقه أبي الوليد الزَّجَّالِي ، ويكتب على قبره
في لوح رخامٍ هذا النثر والنظم :

بسم الله الرحمن الرحيم « قل هو نبيّ عظيمٌ أتم عنه مَعْرِضُونَ^(٢) » هذا قبرُ
أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وحده
لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن
البعث حق ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها^(٣) ، وأن الله يبعث من في القبور^(٤) .
مات في شهر كذا من عام كذا . ويكتب تحت هذا النثر هذا النظم :

يا صاحبي قم فمَدِّ أَطْلُنَا أنحن طول المدى هُجُودُ؟
فقال لي : لن نقومَ منها ما دام من فوقنا الصَّعِيدُ
تذكرُ كمَ ليلةٍ لَهَوْنَا في ظلها والزمانُ عِيدُ؟
وكم سُرُورٍ هَمَى عَلَيْنَا سحابة ثرةً تَجِيـُودُ؟
كلُّ كائنٍ لم يكن تقضى وشؤمه حاضرٌ عَتِيدُ
حصَّله كاتبٌ حَفِيفُ وضمَّه صادقٌ شهيدُ
يا ويلنا إن تنكبتنا رحمة من بطشه شديدُ
ياربِّ عفواً فانت مولى قصَّرَ في أمرك العبيدُ

يَنْظُرُ قَوْلُهُ : « لَنْ نَقُومَ مِنْهَا » ، الْبَيْتُ . إِلَى قَوْلِ ابْنِ الْمَعْتِزِ^(٥) يَصِفُ أَهْلَ الْقُبُورِ :
وَسَكَانِ دَارٍ لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ عَلَى قُرْبٍ بَعْضُ فِي الْمَحَلَّةِ مِنْ بَعْضٍ

(١) هذا البيت ناقص في م

(٢-٣) م في ب

(٤) راجع سورة ٣٨ : ٦٧

(٥) راجع ديوانه ص ٣٣٨

كَأَنَّ خَوَاتِمًا مِنَ الطَّيْنِ فَوْقَهُمْ فَلَيْسَ لَهَا حَتَّى الْقِيَامَةِ مِنْ فَضٍّ
(١) وَمَا أَرَى أَبَا عَامِرٍ إِلَّا نَقْلَهُ مِنْ قَوْلِ الْمَعْرِيِّ (٢) فِي رِثَاءِ أُمِّهِ حَيْثُ يَقُولُ :
سَأَلْتُ : مَتَى الْفَقَاءُ ؟ قُضِيَ : حَتَّى يَقُومَ الْهَامِدُونَ مِنَ الرَّجَامِ ! (٣)
قَالُوا : وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ كَثِيرًا مَا كَانَ يَخْشَى صَعُوبَةَ الْمَوْتِ « وَشِدَّةَ السَّوْقِ »
فَيَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَا زَالَ يَتَكَلَّمُ وَيَرْغَبُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَرْفُقَ بِهِ ، وَيُكْثِرُ مِنْ
ذِكْرِهِ ، وَقَدْ أَيقِنَ بِفِرَاقِ الدُّنْيَا إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ
يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سِتٍّ وَعَشْرِينَ وَأَرْبَعِينَ . وَلَمْ يُشْهَدْ عَلَى قَبْرِ أَحَدٍ
مَا شُهِدَ عَلَى قَبْرِهِ مِنَ الْبَكَاءِ وَالْعَوِيلِ « وَأُنْشِدَ عَلَى قَبْرِهِ مِنَ الْمِرَاثِي جُمْلَةٌ مَوْفُورَةٌ
لَطَوَائِفَ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا قَوْلُ أَبِي الْأَصْبَغِ الْقُرَشِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

شَهِدْنَا غَرِيبَاتِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا	١٠	تُبَكِّي عَلَى قَبْرِ الشَّهِيدِ أَحْمَدَا
وَمَا زَالَ أَهْلُ الدِّينِ وَالْفَضْلِ وَالتَّقَى		عُكُوفًا بِهِ حَتَّى حَسِبْنَاهُ مَسْجِدَا
أُرِيدُ بُسْقِيَا الْغَيْثِ إِحْيَاءَ (٣) حُفْرَةٍ		كَدَرْنَا بِهَا (٤) نَجْمَ الْعُلَا الْمُتَوَقِّدَا
وَلَمْ أَرْ مِثْلِي بَاتَ مُسْتَسْقَى الْحَيَا		لِمَاءِ حَيَاءٍ كَانَ يَشْفِي مِنَ الصَّدَا
فَأَيُّ جَمَالٍ صَارَ فِي قَبْضَةِ الثَّرَى		وَأَيُّ بَهَاءٍ قَدْ طَوَّهَتْهُ يَدُ الرَّدَى !
وَأَيُّ قَنَافَةٍ فِي طَلِي الْأَرْضِ غُيِّبَتْ	١٥	وَأَيُّ حُسَامٍ فِي حَشَا الْقَبْرِ أُغْمِدَا !
بِنَفْسِي الَّذِي أَوْدَى وَأَنْشَأَ لِلنَّدَا		حَمَامًا عَلَى دَوْحِ الْعُلَا مُغَرَّدَا
أَبَا عَامِرٍ « بَعْدًا لِسَهْمٍ مُصِيبَةٍ		رَمَاكَ بِهِ (٥) رَيْبُ الْمُنُونِ فَأَقْصَدَا
لَقَدْ فُتَّ فِي نَشْرِ الْفَضَائِلِ يَاقَعَا		وَبَرَزَتْ فِي جَمْعِ الْمَكَارِمِ أَمْرَدَا
لَشَقَّتْ عَلَيْكَ الْمَكْرَمَاتُ جِيوبَهَا		وَأَظْهَرَ فِيكَ الْمَجْدُ خَدًّا مُخَدَّدَا

(١-١) نه في نه (٢) راجع سقط الزند (ج ٢ ص ٨٩)

(٣) ب، ت : « أحشاء » (٤) ب : « به » (٥) و : « بها »

ومنه قول أبي حفص ابن بُرْد الأصغر من قصيدة أولها :

بِفَيْكَ التَّرْبُ مِنْ نَاعٍ نَعَانِي نَعَى غَيْرِي إِلَيَّ وَمَا عَدَانِي
وَكَيْفَ وَلَمْ يَسِلْ طَرْفِي بِدَمْعٍ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُجَنَّ لَهُ جَنَانِي
لَأَيَّةِ خَصَلَةٍ تَبْكِيكَ عَيْنِي وَمَالِي بِالْحِسَابِ لَهَا يَدَانِ
أَلِلَّهِمَّ الْمَنُوطَةَ بِالْثَرِيَّا أَمْ الشِّمَّ الْمَهْذَبَةَ الْحَسَانِ ؟
أَمْ الْكِرْمِ الَّذِي مَازَالَ يَجْرِي مَعَ الْأَنْوَاءِ فِي طَلَقِ الرَّهَّانِ ؟
أَمْ الْقَلَمِ الَّذِي قَدْ كَانَ ^(١) يَجْنِي مِنَ الْقِرطَاسِ نُوَارَ الْبَيَانِ ؟
أَمْ الرَّأْيِ الَّذِي مَازَالَ يُغْنِي عَنِ السِّيفِ الْمَهْنَدِ وَالسَّنَانِ ؟
شَهِدْتُ لَقَدْ أَصِيبَ بَنُو شُهَيْدٍ بِقَاطِعَةِ السَّوَادِ وَالْبَنَانِ
بِهِ دَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا فَبَانُوا وَكُلُّ مَا خَلَا الرَّحْمَنَ فَانِي

فصل ^(٢) في ذكر ذي الوزارتين الكاتب أبي الوليد

ابن زيدون ، واجتلاب عيون من أخباره .

ونصوص ^(٣) من رسائله وأشعاره .

قال أبو الحسن : كان أبو الوليد صاحب ^(٤) منشور ومنظوم . وخاتمة شعراء مخزوم ، أحد من جرّ الأيام جرّاً ، وفات الأنام طرّاً ، وصرف السلطان نفعا وضراً . ووسع البيان نظماً ونثراً ؛ إلى أدب ليس للبحر تدفقه . ولا للبدر تألقه . وشعر ليس للسحر بيان ، ولا للنجوم الزهر اقتراعه . وحظ من النثر غريب المباني . شعري الألفاظ والمعاني .

(١) ه : « كاد »

(٢) هنا ينتهي خرم .

(٣) ب : ت : « وفصوص »

(٤) ب ، لب ، ه : « غاية »

حدثني^(١) غير واحد من وزراء إشبيلية قال : لما خلص ابن عبد البر من يد عباد ، خلوص الفرزدق من يد زياد ، بقيت حضرته من أهل هذا الشأن ، أعزى من ظهر الأفعوان ، وأخلى من صدر الجباب . فهم يوماً باستخلاف أبي محمد الباجي المشهور أمره ، الآتي في القسم الثاني من هذا الكتاب^(٢) ذكره ، فكان أبو الوليد غصّ بذلك ، وواطأ أبو محمد ابن الجدد على الإشارة بالاستغناء عما هنالك ، فكانت الكتب تنفذ^(٣) من إنشاء أبي الوليد إلى شرق الأندلس ، فيقال تأتي من إشبيلية كتب هي بالمنظوم^(٤) أشبه منها بالمنثور .

قرأت في كتاب أبي مروان ابن حيان ، وقد أجرى ذكر من اصطنع ابن جمهور من رجال دولته فقال :

ونوه أيضاً بفتى الآداب وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف والوصف ، أبي الوليد أحمد بن زيدون ذي الأبوة النبيهة^(٥) بقرطبة ، والوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلطة وقوة العارضة والافتنان في المعرفة . وقدمه إلى النظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء ، فأحسن التصرف في ذلك ، وغلب على قلوب الملوك .

قال أبو مروان : وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام

(١) ب ، لب ، وه : « أخبرني » (٢) ب ، لب ، وه : « الديوان »

(٣) ر : « تأتي تنفذ » (٤) ب ، ت ، لب ، وه : « بالنظم الخطير »

(٥) وه : « السنية »

الجماعة والفطنة ، وفرع أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شأنه ، وانطلق لسانه ،
 فذهب به العجب كل مذهب ، وهون عنده كل مطلب . وكان علقه من
 عبد الله بن أحمد بن المكوي^(١) أحد حكام قرطبة ظفر أحن أده إلى السجن
 فألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد ابن جهور في حياة والده أبي الحزم ، فتشفع^(٢)
 له وانتشله من نكبته ، وصيره في صنائعه . ولما ولي الأمر بعد والده نوه به
 وأسنى خطته ، وقدمه في الذين اصطنعهم^(٣) لدولته ، وأوسع راتبه ، وجعله كرامة
 لم تقنع به . زعموا . واتفق أن عن له مطلب بحضرة إدريس بن علي الحسيني
 بمالقة فأطال الثواء هنالك . واقترب من إدريس ، وخف على نفسه ، وأحضره
 مجالس أنسه . فعتب عليه ابن جهور^(٤) ، وصرفه عن ذلك التصرف قبل قوله .
 ثم عاد إلى جميل رأيه فيه^(٤) ، وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء^(٥) الأندلس فيما
 يجري بينهم من التراسل والمداخلة ؛ فاستقل بذلك لفضل ما أوتيته من اللسن
 والعارضة . فاكسب الجاه والرفعة^(٦) ، ولم يبعد في ذلك من التهافت في الترقى
 لبعد الهمة ، فهو عفا قليل إلى عباد صاحب إشبيلية . اجتذبه إلى ذلك فهاجر
 عن وطنه إليه . ونزل في كنفه ، وصار من خواصه وصحابه . يجالس في خلواته ،
 ويسفر^(٧) له في مهم رسائله على حال من التوسعة . وكان ذهابه إلى عباد
 سنة إحدى وأربعين وأربعمائة^(٨) ، فخلا بالحضرة مكانه ، وكثر الأسف عليه .
 انتهى كلام ابن حيان^(٨) .

(١) و ، ب ، ت : « المكوي » (٢) و ، ب ، ت : « فشفع »

(٣) ب ، لب ، و : « اصطنع » (٤-٤) و ، ب ، ت ، لب ، و

(٥) ب ، ت ، لب ، و : « أمراء » (٦) ب ، ت ، لب ، و : « والمنفعة »

(٧) و : « ويرسل » (٨-٨) و ، ب ، ت ، لب ، و

قلت : فَأَمَّا سَعَةُ ذَرْعِهِ ، وَتَدَفُّقُ طَبْعِهِ ، وَغَزَاةُ بَيَانِهِ ، وَرَقَّةُ حَاشِيَةِ لِسَانِهِ ،
فَالضُّبْحُ الَّذِي لَا يُنْكِرُ وَلَا يُرَدُّ ، وَالرَّمْلُ الَّذِي لَا يُحْصَرُ ^(١) وَلَا يُعَدُّ .

أخبرني من لا أدفع خبره من وزراء إشبيلية قال : لعمري بأبي الوليد
قائماً على جنازة بعض حرمه ، والناس يُعزُّونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع
يُجيب رجلاً منهم بما أجاب به آخر الحضور جنانته ، وسعة ميدانه .

وقد أخرجت من أشعاره التي هي حُجُولٌ وغُررٌ ، ونوادر أخباره التي هي
مَآثِرٌ وأثرٌ ، ورسائله التي أخرست ألسنة الحفل ، ^(٢) واستوفت أمد المنطق
الجزل ، ما يسرُّ الآداب ويصورها ، ويستخفُّ الألباب ويستطيرها ^(٣) .

جملة من نثره . مع ما ينخرط في سلك ذلك من شعره

له ^(٣) من رقعة خاطب بها ابن جهور من موضع اعتقاله يقول فيها :
يا مولاي وسيدي الذي ودادي له . واعتدادي به . واعتمادى عليه ، أبقاك الله
ماضي حدّ القرم . واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة . إن سلبتني —
أعزك الله — لباس إنعامك ، وعطّلتني من حلي إيناسك ، وغصّضت عني طرف
حمائتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع [الأصم] ثنائي عليك ،
وأحسن الجماد يأسنادي إليك ، فلا غرو فقد يغصّ بالماء شاربُه ، ويقتل الدواء
المستشفى به . ويؤتى الحذر من مأمنه ، وإني لأتجلّد فأقول : هل أنا إلا يد
أدماها سوارها ، وجبين عضه إكليله ، ومشرقي الصقة بالأرض صاقله ،

(١) و ، ب : « لا يحصى »

(٢-٢) هـ في ب ، ت ، لب ، و ، وبلى كلمة « الحفل » في هذه النسخ الأربع

العبارة الآتية : « وكيف يصح ذلك وهو منقول عن عمر رضى الله عنه »

(٣) هذا الفصل من الرسالة لم يقع إلا في .

وسَمَّهِيَّ عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مَثَقَّةً ؟ وَالْعَتَبُ مُحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ، وَالنَّبْوَةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي ،
وَالنَّكْبَةُ « سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تَقْشَعُ » . وَسَيِّدِي إِنْ أَبْطَأَ مَعْدُورُ

وَإِنْ يَكُنِ الْفَعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَزْنَ أَلُوفُ

وَلَيْتَ شَعْرِي مَا الذَّنْبُ الَّذِي أَذْنَبْتُ وَلَمْ يَسْعَهُ الْعَفْوُ ؟ وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنْ
أَكُونَ بَرِيئًا ، فَأَيْنَ الْعَدْلُ ؟ أَوْ مَسِيئًا ، فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟ وَمَا أَرَانِي إِلَّا لَوْ أُمِرْتُ
بِالسَّجُودِ لَأَدَمْتُ فَأَبَيْتُ ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعَجَلِ ، وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ ، وَتَعَاطَيْتُ
فَعَقَرْتُ ، وَشَرَبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جَنُودُ طَالُوتَ ، وَقَلَّدْتُ لَأَبْرَهَةَ الْفِيلَ ،
وَعَاهَدْتُ قَرِيشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ ، وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقْبَةِ ، وَنَفَرْتُ إِلَى
الْعِيرِ بِبَدْرٍ . وَانْحَزَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاتِي فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ،
وَأَنْفَتُ مِنْ إِمَارَةِ أَسَامَةَ ، وَزَعَمْتُ أَنْ خِلَافَةَ الصَّدِّيقِ فَلَتَنِي ، « وَرَوَيْتُ رُحْمِي ١٠
مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ » ، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ الَّذِي عَنَوَانُ السَّجُودِ بِهِ . لَكُنْ فِيمَا جَرَى
عَلَيَّ مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَسْمَى نَكَالًا ، وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى الْجَازِ عَقَابًا .

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَامِرٍ تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَعِيمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ ؟ وَاللَّهِ
مَا غَشَّيْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ ، وَلَا نَصَبْتُ لَكَ ١٥
بَعْدَ التَّشْيِيعِ فَيْكَ ، فَقِيمَ عَيْتِ الْجَفَاءِ بِأَذَمَّتِي ، وَعَاثَ فِي مَوَدَّتِي ، وَأَتَى غَلْبِي
الْمَغْلَبُ ، وَفَخَّرَ عَلَيَّ الضَّعِيفُ ، وَاطْمَئَنَّنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ ؟ وَمَالِكَ لَا تَمْنَعُ مِنِّي
قَبْلَ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتَدْرِكُنِي وَلَمَّا أَمْرَقَ ، وَقَدْ زَانَنِي اسْمُ خَدْمَتِكَ ، وَأَنْلَتُ
الْجَمِيعَ مِنْ سِمَاطِكَ ، وَقَمْتُ الْمَقَامَ الْحَمُودَ عَلَى بَسَاطِكَ ؟

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فَيْكَ نَظْمَ قِصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ الْأَنْجُمَا ؟

وَهَلْ لِبَسِّ الصَّبَاحِ إِلَّا بُرْدًا طَرَزْتُهُ بِمَحَامِدِكَ ، وَتَقَلَّدْتُ الْجُوزَاءَ إِلَّا عَقْدًا

فَصَلَّتْهُ بِمَشَاعِرِكَ ، وَفَتَّ الْمَسْكُ إِلَّا حَدِيثًا أَدْعَتْهُ بِمَنَاخِرِكَ ، وَمَا يَوْمٌ حَلِيمَةً بِسِرِّهِ .
وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ أَعْدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ ، وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ الْمَنْصُوبَةِ تَقْضَى لِلنَّاسِ
وَهِيَ تَحْتَرِقُ .

وفي فصلٍ منها :

٥ ولعمري ما جهلتُ أَنَّ الرَّأْيَ فِي أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغْتَنِي الشَّمْسُ ، وَنَبَا بِي
الْمَنْزِلَ ، وَأَضْرِبَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ، وَلَا أَسْتَوْطِي الْعَجْزَ
فَيُضْرِبُ بِي الْمَثَلَ : خَامِرِي أُمِّ عَامِرٍ . وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ الْجَلَاءَ سَبَاءٌ ^(١) ، وَالثَّقَلَةُ
مُثَلَّةٌ . لَعَارِفُ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطْنَ الَّذِي لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ ، وَالْخَلِيطُ الَّذِي لَا يُتَوَقَّعُ
زِيَالُهُ ^(٢) ، وَالنَّسَبُ الَّذِي لَا يُجْفَى ^(٣) ؛ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ أَعَذَبَ مِنْهُلٍ ^(٤) ، وَحَطَّ
١٠ فِي جَنَابِ قَبُولٍ ^(٥) ، وَضَوْحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ، وَأَعْطَى حُكْمَ الصَّيِّ عَلَى أَهْلِهِ ،
وَقِيلَ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا . فَهَذَا مَبِيتُ صَالِحٍ وَصَدِيقُ ^(٦)

غَيْرَ أَنَّ الْوَطْنَ مَحْبُوبٌ ، وَالْمَنْشَأُ مَأْلُوفٌ ، وَاللَّبِيبُ يَحْنُ إِلَى وَطْنِهِ . حَنِينُ
النَّجِيبِ ^(٧) إِلَى عَطْنِهِ ، وَالسَّكْرِيمُ لَا يَجْفُو أَرْضًا بِهَا قَوَائِلُهُ ، وَلَا يَنْسَى بِلَدًا فِيهِ
مَرَاضِعُهُ . قَالَ الْأَوَّلُ :

١٥ أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنَعِجٍ إِلَى وَسْطِهِ أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادُهَا عَقَّ الشَّبَابِ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا
مَعَ مُعَالَاتِي بَعْلُو ^(٨) جَوَارِكِ ، وَمَنَافَسِي فِي الْحِطِّ مِنْ قَرِيبِكَ ، وَاعْتِقَادِي أَنْ

- (١) ب ، ت ، لب : « سبَاب » (٢) ب ، ت ، لب ، وه : « زواله »
(٣) ب ، لب ، وه : « لا يخفى » (٤) ب ، ت ، لب ، وه : « ورد منهل بر »
(٥) ب ، ت ، لب : « فنزل » (٦) ب ، ت ، لب ، وه : « ومقيل »
(٧) وه : « التاب » (٨) ب ، ت ، لب ، وه : « تعلق »

الطمع في غيرك طمع ، والغنى من سواك عناء ، والبذل منك عوز ، والعوض لفاء ،
 وإذا نظرتُ إلى أميري زادني ضنًا ^(١) به نظري إلى الأمراء
 وكلُّ الصيد في جوف الفرا ، وفي كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعقار .
 فما هذه البراءة ^(٢) ممن يتولّاك ، والميلُ عن يميلُ إليك ؛ وهلا كان هواك فيمن
 هواه فيك ، ورضاك لمن رضاك لك !

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم ^(٣)
 أعيذك ونفسي أن أشيم خلبي ، واستمطر جهاما ، ^(٤) وأكدم غير
 مكدم ^(٥) ، وأشكو « شكوى الجريح إلى العقبان والرخم » ^(٦) . وإنما أبست
 بك لتدّر . وحرّكت لك الحوار لتجنّ . ونهت لك لأنام ، وسريت إليك
 لأحمد السرّي لديك . بعد اليقين أنك إن سنيت عقد أمرى تيسر ، ومتى
 أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ،
 والشفاعة زكاة المروءة . وفضل الجاه . تعود به . صدقة .

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعاً من جاهه فكانها من ماله ^(٧)
 لعلّي ألقى العصا بذراك ، وتستقرّ بي النوى في ظلك ، فتستلذّ جنّي شكرى
 من غرس عارفتك ، وتستطيب عرّف ثنائي من روض صنيعتك ، ^(٨) فاستأنف
 التأذّب بك . والاحتمال على مذهبيك . فلا أوجد للحاسد مجال لحظة . ولا أدع
 للقادح مساع لفظة . والله شهيدك من إطلائي بهذه الطلبة . وإشكائي من هذه ^(٩)

(١) ب ، لب ، وه : « ظنا » (٢) ر : « البذاءة »

(٣) راجع ديوان المتنبي (ج ٣ ص ٢٦٣)

(٤-٥) هـ في . (٥) هـ ، ب ت ، لب ت : « وأكرم غير مكرم »

(٦) راجع ديوان أبي تمام ص ٢١٣ (٧-٧) هـ في .

(١) الشكوى، لصنعة تُصيبُ بها طريق المصنع، وقد تستودعُها أحفظُ مُستودع^(١).
 (٢) حسباً أنتَ خَلِيقٌ له، وأنا منك حُرٌّ به، فذلك بيدك، وهينٌ عليك^(٢).
 (٣) ولما تَوَالَتْ غُرُّ هذا النثر، واتسعتْ دُرُّرُه^(٣)، فهزَّ عِطْفَ غُلُوْائِه، وجرَّ ذيلَ خِيْلَائِه. عارضه النظمُ مُباهياً، بل كأيده مُداهياً، حينَ^(٤) أَشْفَقَ مِنْ أَنْ يَعْطِفَكَ^(٥) استعطافه، وتميلَ بنفسِكَ أَلطافه. فاستحسن العائِدة منه، واعتدَّ بالفائدة له. وما زالَ يَسْتَكْرِه^(٦) الذَّهْنَ الْعَلِيلَ، والْخَاطِرَ الْكَلِيلَ، حتى زَفَّ إِلَيْكَ مِنْهُ عَرُوساً مَجْلُوءَةً فِي أَثَوَائِهَا، مَنْصُوصَةً بِحُلِيِّهَا وَمَلَابِئِهَا، وَهَاهِي^(٧) :
 الْهُوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ
 سَرَّنا عَيْشُنَا الرِّقِيقُ الْحَوَاشِي لَوْ يَدُومُ السَّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ

١٠ ومنها :

وَطَّرَ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ بِاللَّئِيمِ
 زَارَ مُسْتَخْفِياً وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخُ فِي سُرَى الْبَدْرِ فِي الظَّلامِ الْبَهِيمِ
 فَوَشَّى الْحَلِيَّ إِذْ مَشَى وَهَفَا الطَّيِّ بٌ إِلَى حِسِّ كَاشِحٍ بِاللَّئِيمِ
 أَيُّهَا الْمُؤْذِنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي لَيْسَ يَوْمِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظُلُومِ^(٨)
 مَا تَرَى الْبَدْرَ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّمْسَ سَهُمَا^(٩) يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ ؟
 وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو بِالْمَصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوَ الْعَظِيمِ

١٥

(١-١) نه في ر (٢-٢) نه في ب، ت، لب، ر

(٣-٣) نه في ب، لب (٤) ب، ت، لب، وه : « حق »

(٥) وه : « يستعطفك » (٦) لب، وه : « يستنكر »

(٧) ب، لب، وه : « وهى هذه الأبيات » (٨) ب : « بواحد مظلوم »

(٩) ب، ت، لب، ر : « كما »

بَوَّأَ اللَّهُ جَهْورًا شَرَفَ الشُّوْ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْفَضْ
قَلَدَ الْغُمُرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ
وَمِنْهَا (٢) فِي ذِكْرِ اعْتِقَالِهِ (٢) :

- سَقَمَ لَا أَعَادُ مِنْهُ فِي الْعَا
نَارُ بَغْيِ سَرَتْ إِلَى جَنَّةِ الْأَرْ
بِأَبِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْ تَكُ بَرْدًا
لِلشَّفِيعِ الْغَنَاءِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوْ
وَبَعْدَ تَمَامِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ : هَا كَهَا — أَعَزَّكَ اللَّهُ — يَسْطُهَا الْأَمَلُ
وَيَقْبِضُهَا الْحَجَلُ ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ ، وَحُرْمَةُ الْإِخْلَاصِ ، فَهَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ (٤) ،
وَاشْفَعْ نِعْمَةً نِعْمَةً ، لَتَأْتِيَ الْإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ طُرُقَاتِهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

- وَهَذَا الْبَيْتُ الْأَخِيرُ ، إِلَى مَعْنَى بَيْتِ الْبُحْتَرِيِّ (٥) يَشِيرُ :
حَارَ حَمْدِي ، وَلِلرِّيَّاحِ اللُّوَاتِي تَجَلِبُ الْغَيْثَ مِثْلُ حَمْدِ الْغُيُومِ
وَأَخَذَهُ الْبُحْتَرِيُّ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ (٦) :
وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ فَكُنَّهَا مِنْ مَالِهِ
وَقَوْلُهُ : « سَقَمَ لَا أَعَادُ مِنْهُ » ، الْبَيْتُ ، مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ :
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيمِ كِرَامَةً وَيُرَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْفَدُ

(١) ب ، ت ، لب ، و : « وفق » (٢) هـ في ب ، ت ،
(٣) لم يقع هذا البيت إلا في = (٤) و : « الحرمة »
(٥) راجع ديوان البحتري (ج ٢ ص ١٣) (٦) راجع ديوانه ص ٢١٣
(٣٨)

وله أيضاً في ابن جهور ، وكتب بها من السجن :

ما جالَ بعدك لحظي في سنا القمرِ
ولا استطلتُ ذمَاءَ الليلِ من أسفٍ
في نشوة من سنات الوصلِ موهبة
يا ليت ذاك السوادَ الجونَ متّصلٍ
أما الضنى فجنّته لحظة عنّ
فهت معنى الهوى من وحي طرفك لي
إلا ذكرتُك ذِكرَ العينِ بالأثرِ
أن لا على ليلة سرّت^(١) مع القصرِ
أن لا مسافة بين الوهنِ والسحرِ
قد استعار سواد القلب والبصرِ
كانها والردي جاء على قدر
إن الحوار لفهؤم من^(٢) الحوارِ

ومنها :

من يسأل الناس عن حالي فشاها
لم^(٣) تطو برد شباي كبرة ، وأرى
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كتب
يا للرزايا لقد شافهت مهلكها
لا يهني الشامت المرتاح خاطره
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة
إن طال في السجن إيداعي فلا تحب
وإن يثبط أبا الحزم الرضا قدر
من لم أزل من تأنيه على ثقة
وزير سلم كفاه يمن طائره
محض العيان الذي يغني عن الخبر
برق المشيب اعتلى في عارض الشعر
وللشبيبة غصن غير مهتصر^(٤)
غمرًا فما أشرب المكروة بالغمر !
أني معني الأمان ضائع الخطر
أم الكسوف غير الشمس والقمر ؟
قد يودع الجفن حد الصارم الذكر
عن كشف ضرّي فلا عتب على القدر
ولم أبت من تجنيه على حذر
شؤم الحروب ورأي محصد المرر

(٢) و : « مع »

(١) و : « سارت »

(٤) لب : « عصر غير مختصر »

(٣) في جسيم النسخ « إن »

- أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مُغْنَى تَجَارِبِهِ وَنَابَتِ اللَّامِحَةُ الْعِجْلَى عَنْ ^(١) الْفِكْرِ ^(٢)
- كَمْ اشْتَرَى بِكَرَى عَيْنَيْهِ مِنْ سَهَرٍ! هُدُوهُ عَيْنِ الْهُدَى ^(٣) فِي ذَلِكَ السَّهَرِ
- فِي حَضْرَةِ غَابِ صَرْفِ الدَّهْرِ خَشْيَتَهُ عَنْهَا ، وَنَامَ ^(٤) الْقَطَا فِيهَا وَلَمْ يُثِرْ
- حُرِمْتُ مِنْهُ وَحُطَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِهَذِهِ الْعِبْرَةِ الْكُبْرَى مِنَ الْعِبَرِ ^(٥)
- وَكُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرْنٍ فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مَنْحَطًا إِلَى الْعَفْرِ ٥
- أَحِينَ رَفَّ عَلَى الْآفَاقِ مِنْ أَدْبِي غَرَسَ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرِ
- وَسِيلَةُ سَبَبٍ إِلَّا تَكُنْ نَسَبًا فَهُوَ الْوَدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرِ ^(٦)
- يَا زَهْرَةَ الزَّهْرِ حَيًّا وَهُوَ إِنْ فَنِيَتْ حَيَاتُهُ زِينَةُ الْآثَارِ وَالسَّيْرِ
- لِي فِي اعْتِمَادِكَ فِي التَّامِيلِ سَابِقَةً وَهَجْرَةً فِي الْهَوَى أَوَّلَى مِنَ الْحَجَرِ
- هَلْ مِنْ سَبِيلٍ ، فَمَاءُ الْعَتَبِ لِي أَسْنُ ، إِلَى الْعَذُوبَةِ مِنْ عُتْبَاكِ وَالْخَصْرِ ١٠
- لَا تَلُهُ عَنِّي فَلَمْ أَسْأَلْكَ مَعْتَسِفًا رَدَّ الصَّبَا غِبَّ إِيْفَاءَ عَلَى الْكِبَرِ
- فَاشْفَعُ أَكُنْ مِثْلَ مَمْطُورٍ بِبِلَدَتِهِ جَذْلَانِ بِالْوَطَنِ الْمَأْلُوفِ وَالْمَطَرِ ^(٧)
- ^(٨) قَوْلُهُ : « قَدْ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ » لَفْظُ الْمَعْرَى ^(٩) حَيْثُ يَقُولُ :
- يَوَدُّ أَنْ ظَلَامَ اللَّيْلِ دَامَ لَهُ وَزَيْدٌ فِيهِ سَوَادُ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ ^(٨)

(١) فِي جَمِيعِ النُّسخ : « عَلَى » (٢) لَمْ يَقْعِ هَذَا الْبَيْتُ فِي ر

(٣) ب ، ت ، لب ، وه : « السَّرى » (٤) ب ، ت ، لب : « وَبَاتِ »

(٥) هَذَا الْبَيْتُ وَالْأُيُوتُ السَّتَةُ الَّتِي تَلِيهِ نَاقِصَةٌ فِي ر

(٦) لَمْ يَقْعِ هَذَا الْبَيْتُ إِلَّا فِي وَه ، لب ، ب

(٧) ب ، ت ، لب ، وه : « وَالْوَطَرِ » (٨ — ٨) وه فِي ب ، لب ، ت

(٩) رَاجِعِ سَقَطَ الزَّيْدِ (ج ١ ص ٣١)

وقوله : « هِلَ الرِّيحُ بنجم الأرضِ عاصفةٌ » ، البيت ، معنى قد طوى ونُشر ، ومنه قول أبي تمام^(١) :

إِنَّ الرِّيحَ إِذْ مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدَانِ نَجِدٍ وَلَمْ يَعْثَبَنَّ بِالرَّثَمِ^(٢)
بَنَاتُ نَعَشٍ وَنَعَشٌ لَا كَسُوفَ لَهَا وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْهَا الدَّهْرُ فِي الرَّقْمِ

• وأخذه منه البحترى^(٣) فقال :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ الْقِتَادَةِ خَائِفًا سَمُومَ الرِّيحِ الْآخِذَاتِ مِنَ الرَّثَمِ
وَلَا الْكَلْبَ مَحْمُومًا وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ إِلَّا إِنَّمَا الْحُمَى عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ
وَبَيْتُ الْبَحْتَرِيِّ الْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ حَبِيبٍ^(٤) أَيْضًا :

فَإِنْ تَكَ قَدْ نَالَكَ أَطْرَافُ وَعُكَّةٍ فَلَا عَجَبٌ قَدْ^(٥) يُوعَكَ الْأَسَدُ الْوَرْدُ

١٠ وأخذه الأمير شمس المعالي • ونشيد القطعة بجملتها :

قُلْ لِلَّذِي بَصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيْرَنَا : هَلْ عَانَدَ الدَّهْرُ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ؟^(٦)
أَمَّا تَرَى الْبَحْرَ تَطْفُو فَوْقَهُ جَيْفٌ وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدَّرَرُ؟
فَإِنْ تَكُنْ عَيْثَ أَيْدِي الزَّمَانِ بِنَا وَنَالْنَا مِنْ تَمَادِي بُوْسِهِ ضَرَرُ
فَفِي السَّمَاءِ نَجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

١٥ ومعنى بيت شمس المعالي الثاني من متداولات المعاني ، منها قول ابن الرومي :

(١) في ب ، ت ، لب ، هـ : « ومنه قول أبي تمام وقد تقدم إنشاده » ، ولكن

يسبق ذكر لهذه الأبيات

(٢) راجع ديوان أبي تمام ص ٢٨٠ (٣) راجع ديوانه (ج ١ ص ١٣٩)

(٤) راجع ديوان أبي تمام ص ١١١ (٥) ب ، ت ، لب ، هـ : « أن »

(٦) هذا البيت والذي يليه ناقصان في ب ، لب ، ت

دَهْرُهُ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَغَدَا الشَّرِيفُ يَحْطُهُ شَرْفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ لَوْلُوهُ سَفَلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِيفُهُ
وقد كرره ابن الرومي في مواضع ، منها قوله :

قالت: علّا الناس إلا أنت، قلت لها: كذلك يسفل في الميزان ما رجحاً

وقال المتنبي^(١) :

ولو لم يفعل إلا ذو محلّ تعالى الجيـش وانحطّ القتـام

وقول ابن زيدون : « في حضرة غاب صرف الدهر^(٢) خشيتة » البيت ،
مع الذي بعده ، لم يخله من برّد ، ولا أقامه على ساق نقد ، وخير منهما ما وصّف
من خبر التاجر^(٣) مع أبي دلفٍ وقد مرّ به في مكان « فوطى له طرف طيلسان ،
فقال له : يا أبا دلف ، ليس هذا كرجك ، هذه حضرة أمير المؤمنين ، الشاة ١٠
والذئب يشربان فيها من إنا^(٤) واحد . ومن اللفظ المليح ، الطيار الخفيف
الروح ، في هذا المعنى قول ابن عمار :

وألف بين الظبي والذئب عدله^(٥) فلا تجزعي إن زار ربك ذيب

وقال من أخرى وهو أيضاً بتلك الحال من الاعتقال^(٥) :

ألم يأن أن يبكي الغام على مثلي^(٦) ويطلب ثاري البرق منصل النصل ؟ ١٥
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي !
فلو أنصفتني وهى أشكال همتي لألقت بأيدي الذلّ لما رأيت ذلي

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٤٠) (٢-٢) نه في ب ، ت ، لب

(٣) ب ، ت ، لب ، وه : « ماء » (٤) ب ، ت ، لب ، وه : « عفو »

(٥) ب ، ت ، لب ، وه : « وله أيضاً قصيدة فريدة خاطب بها ابن جهور وهو في

تلك الحال من الاعتقال أولها » (٦) ه : « الحمام على قتلي »

- ولا فترقت سميع الثريا وغازها (١)
لعمري الليالي إن يكن طال نزعها (٢)
تحلت بادابي وإن ماري
أخص لفهمي بالقلي ، وكأنما
وأجني على نظمي لكل قلادة
ولو أنني أسطيع — كي أرضي العدا —
أقتولة الأجفان مالك وإلهما
أقلى بكاء لست أول حرة
وفي أم موسى عبدة إذ رمت به
ولله فينا علم غيب وحسبنا
وإن رجائي في الهمام ابن جهور
كريم عريق في الكرام وقلما
يرف على التأمل لآلاء بشره
ويغني عن المدح اكتفاء بسرّوه
أبا الحزم إني في عتابك مائل
حامم شكري صبحتك (٣) هودلا
جواد إذا استن الجياد إلى مدى
- بمجموعها (٤) مافرق الدهر من شمي
لقد قرطست بالنبل في مقتل النبل
لساحة (٥) في عرض أمنيّة عطل
يبيت لذي الفهم الزمان على دخل
مفصلة السمتين بالمنطق الفصل
شريت ببعض العلم خطا من الجهل
ألم ترك الأيام نجما هوى قبلي ؟
طوت بالأسى كشحا على مضى الشكل
إلى اليم في التابوت فاعتبري واسلي
به عند جور الدهر من حكم عدل
لمستحكيم الأسباب مستحصدا الجبل (٦)
يرى الفرع إلا مستمدا من الأصل
كما راف لآلاء الحسام على الصقل
غنى المقلة الكحل عن زينة الكحل
على (٧) جانب تاوي إليه العلاء سهل
تناديك من أفنان آدابي الهدل
تمطر فاستولي على أمد الخصل

(١) ب ، ت ، لب ، و : « وغازها » (٢) ب ، لب ، و : « بطلعها »

(٣) و : « عمرها » (٤) و : « لساحة »

(٥) ب ، ت ، لب ، و : « الفتل » (٦) و : « إلى »

(٧) ب ، ت ، لب ، و : « سبحتك »

ثَوَى صَافِنًا فِي مَرَبِطِ الْهُونِ يَشْتَكِي
أَنَّ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا
وَلَمْ أَسْتَشِرْ حَرْبَ الْفِجَارِ وَلَمْ أُطِيعْ
وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نَهَايَ عَنْ الَّتِي
أَنْتَقِضُ فِيكَ الْمَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ
هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي فَهَلْ أَنْتَ مُكَذِّبٌ
أَلَا إِنْ ظَنَنْتُ بَيْنَ فِعْلَيْكَ وَاقِفٌ
وَالْأَجْنِدْتُ الْأَنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى
سَيِّعَتِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّي حَافِظُ
وَأَيْنَ جَوَابُ مَنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعَلَا
بِتَصْهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَدَى الشَّكْلِ
تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي وَتُعَذِّرُ فِي خَذْلِي؟
مُسَيِّمَةً إِذْ قَالَ: إِنِّي مِنَ الرُّسُلِ
أَشَارَ بِهَا الْوَاشِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي
فَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِصَةِ الْغَزْلِ؟
لَقِيلَ الْأَعَادِي: إِنَّهَا زَلَّةُ الْحِجْلِ^(١)
وَقُوفَ الْهُوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ^(٢)
وَهَوَلَ الشَّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ
وَيُلْفِي^(٣) لَمَّا أَرْخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلِي
إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْكَ أَلْسِنَةُ الْحَفْلِ؟
١٠

ومعنى هذا البيت الأخير كقول الآخر^(٤):

فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ، فَإِنِّي لَا بُدَّ أَخْبِرُهُمْ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلِ

^(٥) وقوله: «ثَوَى صَافِنًا فِي مَرَبِطِ الْهُونِ» كقول المتنبي^(٦):

وَإِنْ تَكُنْ مُحْكَمَاتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُنِي ظُهُورَ جَرِيٍّ فَلَ فِيهِنَّ تَصْهَالٌ^(٥)

(١) لم يقع هذا البيت في م

(٢) يلي هذا البيت في الديوان (ص ١١٧) بيت نثبته هنا لتمام المعنى وهو:

فَإِنْ تُنَمِّنْ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ لَذَاكَ الْفَعَالِ الْقَصْدِ وَالْحَاقِ الرَّسْلِ

(٣) ت، لب، وه: «ويلقي»

(٤) ب، ت، وه، لب: «وهذا مأخوذ من قول الآخر»

(٥-٥) وه في ر (٦) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٩٦)

(١) قال القسطلي:

وَذُو غُرَّةٍ مَعْرُوفَةُ السَّبْقِ فِي الْمَدَى وَقَدْ قَرِحَ (٢) التَّحْجِيلُ مِنْ أَلَمِ الشُّكْلِ (١)

وقوله: «ويغنى عن المدح اكتفاءً بسرّوه»، البيت، معنى متداول

ومنه (٣) قول القائل:

وَأَعَشَقْتُ كَحَلَاءِ الْمَدَامِخِ خِلَقَةً لئَلَّا تُرَى فِي عَيْنِهَا مِنْهُ الْكُحْلُ ٥

وفي بني جهور يقول:

بَنِي جَهْوَرٍ أَحْرَقْتُمْ بِجَفَائِكُمْ جَنَانِي فَمَا بَالُ الْمَدَامِخِ تَعَبَقُ؟
تَعْدُونَنِي كَالْمَنْدَلِ الرَّطْبِ (٤) إِنَّمَا تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ حِينَ يُحْرِقُ

وأراه توارّد في هذين البيتين مع أبي عليّ ابن رشيّق القيرواني حيث يقول:

أَرَاكَ أَتَمَّتْ أَخَاكَ الثَّقَمَةَ وَعِنْدَكَ مَقْتُ وَعِنْدِي مِقَّةُ ١٠
وَأُنْثِي عَلَيْكَ وَقَدْ سَوَّيْتَنِي كَمَا طَيَّبَ الْعُودُ مَنْ أَخْرَقَهُ

وأخذه معاً من قول أبي تمام (٥):

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرْتَ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عُرْفِ الْعُودِ
وَأُنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ وَقْتِنَا وَهُوَ أَبُو مَرْوَانَ ابْنُ شَمَّاحٍ لِنَفْسِهِ:

نَوَائِبُ غَالَتْنِي فَأَبْدَتْ فَضَائِلِي فَكَانَتْ وَكَانَتْ النَّارُ وَالْعَنْبَرُ الْوَرْدَا ١٥

ولغيره:

إِنْ مَسَّتِ النَّارُ جِسْمِي أَبْدَيْتُ طِيبَ نَسِيمِ

(١-١) نه فر (٢) ب، ت، لب: «مدح» — وه: «برح»

(٣) ب، ت، لب، وه: «وينظر إليه»

(٤) ب، ت، لب، وه: «كالعنبر الورد» (٥) راجع ديوانه ص ٧٨

كَالدَّهْرِ إِنْ عَضَّ يَوْمًا أَبَانَ فَضْلَ الْكَرِيمِ
وَأَبُو الْوَلِيدِ ابْنُ زَيْدُونَ عَلَى كَثِيرٍ إِحْسَانِهِ كَثِيرُ الْاهْتِدَامِ ، فِي النَّشَارِ
وَالنَّظَامِ .

وَكُتِبَ إِلَى الْأَدِيبِ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ مُسْلِمٍ وَهُوَ مُخْتَفٍ بِقَرْطَبَةٍ بَعْدَ فِرَارِهِ مِنَ
السَّجْنِ رَقْعَةً يَقُولُ فِيهَا ^(١) :

أَبْدَأُ أَوَّلًا بِشَرْحِ الصَّرُورَةِ الْخَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتَ ، إِذْ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَحَدُ
اللَّامِئِينَ لِي عَلَيْهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : وَيْلٌ لِلشَّيْءِ مِنَ الْخَلِيٍّ وَهَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ
مَا لَاقَى الدَّيْرَ . وَأَعَاتَبْتُكَ عَلَى انْفِصَالِكَ عَنِّي ، وَبَرَاءَتِكَ أَمَدَ الْحَنَةِ مِنِّي ، ^(٢) عَسَى
أَنْ تَتَلَفَى عَوْدًا مَا أَضَعْتَ بَدْءًا ، وَإِنْ كُنْتَ فِي ذَلِكَ كِدَابِغَةً وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ ،
وَمَنْعَةً الْقُوتِ قَبْلَ الْعَطَبِ ، وَفِي عِلْمِكَ أَنِّي سُجِنْتُ مَغَالِبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ،
وَقَدْ نَهَى عَنْهُ تَعَالَى فَقَالَ : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٣)
الْآيَةُ . وَشَهِدَ عَلَيَّ فَلَانُ النَّاشِرُ أَذْنِيهِ طَمَعًا ، لِيَأْكُلَ بِيَدَيْهِ جَشَعًا ، قَالَ ، وَكَانَ
الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامٌ . وَلَيْتَ مَعَ قَبُولٍ مِنْ لَا تُجْهَلُ شَهَادَتُهُ عَلَى بَعْدِ رُقْيِهِ إِلَيَّ ،
وَلَمْ يُقَرَّنِ الْحَشَفُ بِسَوْءِ الْكِيلَةِ . وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِي بِمَوْضِعٍ جَرَّتِ الْعَادَةُ فِيهِ
بِوَضْعِ مُسْتَوْرِي النَّاسِ وَذَوِي الْهَيْئَاتِ مِنْهُمْ ، وَفِي الشَّرِّ خِيَارٌ ، وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ
بَعْضٍ . ثُمَّ نُقِلْتُ بَعْدُ إِلَى حَيْثُ الْجَنَازَةُ الْمَفْسُدُونَ ، وَاللُّصُوصُ الْمُقَيَّدُونَ ،
وَمُنِعَ مِنِّي عُوَادِي ، فَشَكُوتُ إِلَى الْحَاكِمِ الْحَابِسِ لِي « فَصَمَّ عَنِّي ، وَلَوْ ذَاتُ
سِوَارٍ لَطَمْتَنِي !

وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٌ ضَعِيفٌ ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغْلَبٍ ^(٢)

(١) و ، ب ، ت ، لب : « فصلًا من رقعة »

(٢-٢) نه في ب ، ت ، لب ، و (٣) راجع سورة ٣٨ : ٢٦

(٣٩)

فلم أَسْتَطِعْ صَبْرًا ، وعلمتُ أن العاجزَ مَنْ لا يَسْتَبِدُّ ، والمرءُ يَعِجُزُ لا لِاحْتَالَةٍ ، ولم أَسْتَجِزْ أن أكونَ ثالثَ الأذَلِّينَ : العَبْرَ والوَدَّ . وذكرتُ أن الفِرارَ من الظلمِ ، والهَرَبَ مِمَّنْ لا يَطاقُ ، من سُنَنِ المُسْلِمِينَ ، وقد قالَ تعالى على لسانِ موسى : « ففَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » ^(١) فنظرتُ في مفارقةِ الوطنِ إذ قَدِيمًا ضاعَ الفاضِلُ في وطنِهِ ، وكسَدَ العَلَقُ الغَبِيطُ في مَعْدِنِهِ ، كما قال :

أَضِيعُ في مَعْشَرِي وَكَمْ بَلَدٍ يُعُودُ عُودَ السَّكْبَاءِ مِنْ حَطْبِهِ
واستَحَرْتُ اللهَ في إنْفَازِ العَزَمِ ، وأنا الآنَ بِحَيْثُ أُمِنْتُ بَعْضَ الأَمَنِ ، إلَّا أنَّ السَّعْيَ لم يَرْتَفِعْ ، ومادَّةُ البَغْيِ لم تَنقَطْ . وختمَ رسالَتَهُ بهذا النِّظْمِ :

شَحَطْنَا وَمَا لِلدَّارِ نَائِي وَلَا شَحَطُ وَشَطَّ بِمَنْ نَهَوَى الْمَزَارُ وَمَا شَطُوا
أَحْبَابَنَا ! وَلَتْ بِحَادِثِ عَهْدِنَا حَوَادِثُ لَا عَهْدَ عَلَيْهَا وَلَا شَرَطُ ^(٢)
لَعَمْرُكُمْ إِنْ الزَّمَانَ الَّذِي قَضَى بَشَتْ جَمِيعَ الشَّمَلِ مَنَا لَمُشْتَطُ
وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى إِلَى نَظْفَةِ زُرْقَاءِ أَضْمَرَهَا وَقَطُ
بَأْبَرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ وَدُونَ مَا أَرِيدُ الْمُنَى مِنْهُ الْقِتَادَةُ وَالْخَرْطُ
وَفِي الرَّبِّ رَبِّ الْإِنْسِيِّ أَخْوَى كِنَاسُهُ نَوَاحِي ضَمِيرِي لَا الْكِتِيبُ وَلَا السَّطُّ
أَلَا هَلْ أَتَى الْفَتِيَانِ أَنْ فَتَاهُمْ فَرِيسَةُ مَنْ يَعْدُو وَنَهْزَةُ مَنْ يَسْطُو؟ ^(٣)
وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّأَوْ صَافِنُ تَخَوَّنَهُ شَكْلُ وَأَزْرَى بِهِ رَبُّطُ ؟
عَلَيْكَ أَبَا بَكْرٍ بَكَرْتُ بِهِمَّةً لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطُ
أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي وَرَهْطِي فَذَا حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ
لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضْرَاءُ تَنْدَى ظِلَالُهَا عَلَى وَلَا جَعْدٌ لَدَيَّ وَلَا غَمَطُ ^(٤)

(١) راجع سورة ٢٦ : ٢١ هذا البيت والذي يليه ناقصان في ر

(٢) هذا البيت والذي يليه ناقصان في ر

(٣) هذا البيت ناقص في ر

(٤) هذا البيت ناقص في ر

ولولاك لم تُدَحْ (١) زنادُ قريحتي
 هَرَمْتُ وما للشَّيبِ وَخَطُ بِمَفْرِقِي
 وطاولَ سوءَ الحالِ نَفْسِي فأذْ كَرَّتْ
 ولما انتَحَوْنِي بالتي لَسْتُ أَهْلُهَا
 فَرَرْتُ ، فَإِنْ قَالُوا : الْفِرَارُ إِرَابَةٌ ،
 وإِنِّي لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبِدُهَا
 فما لَكَ لَا تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ
 كَانَ أَوَّلَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ نَازِرُهُ إِلَى قَوْلِ رَاشِدِ أَبِي حَكِيمَةَ حَيْثُ يَقُولُ (٢) :
 وَمُسْتَوْحِشٍ لِمَيْسٍ (٣) فِي أَرْضٍ غَرِبَةٍ وَلَكِنَّهُ مِمَّنْ يُحِبُّ غَرِيبُ (٤)
 وَقَالَ الْآخَرُ :
 فَلَا تَحْسَبِي أَنَّ الْغَرِيبَ الَّذِي نَأَى
 وَيُنَاسِبُهُ أَيْضًا قَوْلُ الْمُتَنَبِّيِّ (٥) :
 إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا
 أَلَّا تَفَارِقَهُمْ فَالزَّاحِلُونَ هُمْ
 وَقَوْلُهُ : « هَرَمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ » ، الْبَيْتُ ، نَاقِصٌ عَنْ قَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ (٦) :
 إِلَّا يَشِبُّ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدُ شَيْبًا إِذَا خَضَبَتْهُ سَلَوَةٌ نَصَالًا
 (٧) وَقَوْلُهُ : « وَإِنَّ الْجَوَادَ » ، كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ (٨) أَيْضًا :

(١) ر : « تنقب » — ب ، ت ، لب : « تنفت »

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ « وَهُوَ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ١ ص ٦٢٩) : « ابْنُ أَبِي حَكِيمَةَ رَاشِدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكَاتِبِ »

(٣) ب ، ت ، ه ، لب : « يعض » (٤ — ٤) هـ فِي ب ، ت ، لب ، هـ

(٥) رَاجِعْ دِيْوَانَهُ (ج ٢ ص ٢٦٥) (٦) رَاجِعْ دِيْوَانَهُ (ج ٢ ص ١٢١)

(٧) مِنْ هُنَا إِلَى قَوْلِهِ : « شَكَالًا » فِي الصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ س « نَاقِصٌ فِي ر »

(٨) رَاجِعْ دِيْوَانَهُ (ج ٢ ص ٤٠٢)

وما في طِبِّهِ أُنَّى جَوَادُ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجَمَامِ
وقد كرّر هذا المعنى أبو الطيب في مواضع من شعره ، وكلف به وشغف .
وصرّف الكلام فيه فتصرّف ، وقد تقدّم إنشاده . ومنه أيضاً قول عبد الجليل
المُرْسِي المَعْتَمِدِ بْنِ عَبَّاد :

أَتَتَكَ عَلَى خِلَاقِهَا جِيَادُ وَإِنْ كَانَ الضَّيَاعُ لَهَا شِكَالًا
وكتب من سجنه إلى أبي حفص ابن بُرْد (١) :

مَا عَلَى ظَنِّي بَأْسُ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو
رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمُرُءِ عَلَى الْأَمَالِ يَأْسُو
وَلَقَدْ يُنْجِيكَ إِغْفَا لُ وَيُرْدِيكَ احْتِرَاسُ
وَالْمَحَازِيرُ سِهَامُ وَالْمَقَادِيرُ قِيَاسُ
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَا وَآكَ فِي فَهْمٍ إِيَّاسُ
مِنْ سَنَا رَأْيِكَ لِي فِي ظَلَمِ (٢) الْخَطْبِ اقْتِبَاسُ
وَوِدَادِي لَكَ نَصُّ لَمْ يَخَالِفْهُ الْقِيَاسُ
أَذُوبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَالْتِهَامُ وَاتِّهَامُ
كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي وَلِلدُّبِّ اعْتِسَاسُ
يَلْبُدُ الْوَرْدُ السَّبَنَتِي وَلَهُ بَعْدُ افْتِرَاسُ
إِنْ أَكُنْ أَصْبَحْتُ مُحِبُّو سَا فَلِغَيْثِ احْتِبَاسُ
فَتَأْمَلُ كَيْفَ يَغْشَى مُقَلَّةَ الْجَدِّ النُّعَاسُ
وَيُنْفَتِ الْمِسْكُ فِي التُّرْبِ بَ فَيُوطَا وَيُدَاسُ

(١) راجع ديوان ابن زيدون ص ١

(٢) ب ، ت ، و ، لب : « غسق »

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ
وَأَدِرْ ذِكْرِي كَأْسًا مَا امْتَطَتْ كَفِّكَ كَأْسُ
فَعَسَى أَنْ يُسَمِّحَ اللَّهُ رُفَقْدُ طَالَ الشَّمْسُ

قوله : « يَلْبُدُ الْوَرْدُ السَّبْتَى » ، البيت ، كقول النابغة ^(١) :

وَقُلْتُ : يَا قَوْمَ إِنَّ الْلَيْثَ مَنْقَبِضٌ عَلَى بَرَانِهِ لِلْوَثْبَةِ الضَّارِي
وَأَخَذَهُ ابْنُ الرُّومِي فَقَالَ :

سَكَنْتَ سُكُونًا كَانَ رَهْنًا بَوَثْبَةٍ عَمَّاسٍ ، كَذَلِكَ الْلَيْثُ لِلْوَثْبِ يَلْبُدُ

وقوله : « لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا » من قول العباس بن الأحنف ^(٢) :

لَا تَجْعَلِي وَصْلَنَا كَالْوَرْدِ حِينَ مَضَى ذَا طَلْعَةٍ وَأَدِيمِي الْوَدَّ كَالْآسِ

وكررَه العباس ^(٣) في موضع آخر فقال :

وَلَكِنِّي شَبَّهْتُ بِالْوَرْدِ عَهْدَهَا وَلَيْسَ يَدُومُ الْوَرْدُ وَالْآسُ دَائِمٌ

ما أخرجته من شعر ابن زيدون في النسيب وما يناسبه .

قال من قصيدة طويلة :

بِئْسَ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيًا ، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا

نَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَامُنَا فَغَدَتْ سُودًا وَكَانَتْ بَكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا

(١) راجع العقد الثمين ص ١٤ (٢) لم يقع هذا البيت في ديوانه

(٣) راجع ديوانه ص ١٣٩

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقُ مَنْ تَأَلَّفْنَا
وَإِذْ هَصْرُنَا غَصُونِ الْوَصْلِ دَانِيَةٌ
لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ الشُّرُورِ فَمَا
لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يَغَيِّرُنَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ^(٤) أَهْوَاؤَنَا بَدَلًا
يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِي بِهِ
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
رَيْبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظُهُرًا فِي أَكَلَتِهِ
يَا رَوْضَةَ طَالِمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظُنَا
وَيَا حَيَاةَ تَمَلِّينَا بَزْهَرَتِهَا
لَسْنَا نَسْمِيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسُلْسِلَتِهَا
كَأَنَّنا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
سِرَّانَ فِي خَاطِرِ الظَّالِمَاءِ يَكْتُمُنَا

٥
١٠
١٥

وَمُورِدُ اللَّهِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا^(١)
قُطُوفُهَا^(٢) فُجَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا
كُنْتُمْ لِأَيَّامِنَا إِلَّا رِيَّاحِينَا
إِنْ^(٣) طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
مِنْكُمْ ، وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ يَسْقِينَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبَعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا
مُسْكًا وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
ثُمَّ الْعُقُودِ وَأَدَمَّتْهُ الْبُرَى لِينَا
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا
وَرَدَّاجِلَاهُ^(٥) الصَّبَا غَضًا وَنَسْرِينَا
مُنَى ضُرُوبًا وَلَذَاتِ أَفَانِينَا
وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
وَالْكُوثرِ الْعَذْبِ زَقُومًا وَغُسْلِينَا
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبِيحِ يُفْسِدِينَا

(١) هذا البيت والأبيات الأربعة التي تليه ناقصة في »

(٢) ب ، ت ، لب : « قُطُوفُهُ » (٣) و : « إِذْ »

(٤) ب ، ت ، لب : « طَرَقَتْ »

(٥) ر : « جَنَاهُ »

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَىٰ عِنْدَ النَّوَىٰ سُورًا
أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَهْلِهِ
لَمْ نَجِفْ أَفَقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبِهِ
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاهُ^(٢) عَنْ كَثَبِ
نَاسَىٰ عَلَيْكَ وَقَدْ حُشَّتْ مُشْعَشَعَةٌ
لَا كَوْسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شِمَائِلِنَا
دُومَىٰ عَلَى الْوَصْلِ - مَا دُمْنَا - مُحَافَظَةً
فَمَا اسْتَعَدَّنَا^(٣) خَلِيلًا عَنْكَ يَصْرِفُنَا
وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عَلَوِ مَطْلَعِهِ
أُبْنَىٰ^(٤) وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صَلَاةً
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ
عَلَيْكَ مِنِّي سَلَامٌ اللَّهُ مَا بَقِيَتْ

مَكْتُوبَةٌ وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا^(١)
شَرِبًا ۖ وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُطْمِئِنَّا
سَالِينَ عَنْهُ ، وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كُرِّهِ عَوَادِينَا
فِينَا الشَّهْوُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا
سِيمَا ارْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِمُنَا
فَالْحَرُّ مِنْ دَانٍ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا^(٥)
وَلَا اسْتَفْدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يُسَلِّمُنَا
بَدْرُ الدُّجَىٰ لَمْ يَكُنْ - حَاشَاكَ - يَسْبِينَا^(٥)
فَالذِّكْرُ يُقْنِعُنَا وَالطَّيْفُ يَكْفِينَا
بِيضَ الْأَيْدِي الَّتِي مَازَلْتَ تُولِينَا
صَبَابَةً بِكَ نُخْفِيهَا فَتُخَفِّينَا^(٧)

وهذه القصيدة بجمليتها فريدة ، وقد عارضه فيها جماعة قصرُوا عنه ۖ منهم
أبو بكر ابن الملح^(٨) ، فإنه نازعه فيها الراية ، فقصر عن الغاية ، حيث يقول من
قصيدة أولها :

هَلْ يَسْمَعُ الرَّبُّ شَكْوَانَا فَيُشْكِينَا أَوْ يَرْجِعُ الْقَوْلَ مَغْنَاهُ فَيُغْنِينَا

- (١) لم يقع هذا البيت في ۖ (٢) ب ، ت ، و ، لب : « تجنبتك »
(٣) لم يقع هذا البيت والذي يليه في ۖ (٤) في الديوان ص ٨ : « استعضنا »
(٥) لم يقع هذا البيت إلا في و (٦) و : « أبدى » - وفي الديوان : « أبكى »
(٧) لم يقع هذا البيت إلا في و
(٨) كذا في جميع النسخ ، وفي نفح الطيب (ج ٢ ص ٣٥٠) : « الملاح »

ثم استمر في غزائها واستحفر فقال :

يا باخلين علينا أن نودعكم
وقد بعدتم عن اللثام فحيونا
قفوا نرزكم وإن كانت فوائدكم
نزرًا ومثكم بالوصل ممنونا^(١)
سترتم الوصل ضنا لا فقدتكم
فكان بالوهم موجوداً ومظنوناً
سرى من المسك عن مسراكم خبر
يعيد عهد واكم نشره فينا
أيام بدركم يحيي^(٢) ليا لينا
قرباً^(٣) وظبيكم^(٤) يرعى بوادينا
مهلاً فلم نعتقد دين الهوى تبعاً
ولا قرأنا صحيف^(٥) الحسن تلقينا

ومنها :

قد نصرف القول يغويننا ويرشدنا^(٦)
ونترك الدار تشجينا وتسلينا
وتنبع الحى والأشواق محرقة
نحوم بالماء ، والأرماح تحميننا
كواكب في سماء^(٧) النقع قد جعلت
لنا رجوماً وما كنا شياطيناً
قول ابن زيدون : « وإن كان يروينا فيظلمينا » معنى متداول^(٨) ،
ومن أشهر قول ابن الرومي :

ريق إذا ما ازددت من شربه
رياً ثنائى الرئى ظماناً
كالخمر أروى ما يكون الفتى
من شربها أعطش ما كاناً
وقال ابن الرومي أيضاً فيما يناسبه^(٩) من بعض الوجوه^(٩) :

(١) هذا البيت والذي يليه ناقصان في ر (٢) و : « يجلو »

(٣) و : « نورا » (٤) ر ، ب : « طيبكم » (٥) و : « بصحف »

(٦) ب ، لب : « العدل » (٧) ب ، ت ، لب ، و : « بساء »

(٨) ر : « كثير » (٩-٩) و في ر

يَا رَبَّ رَيْقٍ بَاتَ بَدْرُ الدَّجَى يَعْلُهُ ^(١) بَيْنَ ثَنَائِيَا كَا
يَرْوَى وَلَا يَنْهَاكَ عَنْ شَرْبِهِ وَالْمَاءُ يُرْوِيكَ وَبَيْنَهَا كَا
وَأَشْبَهُ بِهِ مَا أَنْشَدَهُ الثَّعَالِي :

كَرْضَابِ الْحَبِيبِ يَشْفِي عَلِيًّا ثُمَّ يُنْشَى إِلَى الْمَزِيدِ عَلِيًّا

وقوله : « سَرَّانِ فِي خَاطِرِ الظَّالِمَاءِ » ، البيت ^(٢) ، مما زَادَ فِيهِ لِلْمَلِيحِ ه
الاستعارة عَلَى قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ ^(٣) :

أَزَوْرُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَى وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِي ^(٤)
عَلَى أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ أَجَادَ فِيهِ ^(٥) وَكَرَّرَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ شَعْرِهِ كَقَوْلِهِ ^(٥) :

وَكَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تَخْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ
وَإِنَّمَا ^(٦) أَخَذَهُ مِنْ مَصْرَاعِ لَابِنِ الْمُعْتَزِ ^(٦) حَيْثُ يَقُولُ :

١٠

■ فَالْشَّمْسُ نَمَامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَادُ ■

وَكُلُّ مَنْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ ، فَخَوَالِي الْمَثَلِ دَارَ ، ^(٧) وَهُوَ قَوْلُهُمْ ^(٧) : اللَّيْلُ أَخْفَى
لِلْوَيْلِ .

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى : فِي أَثَرِ نَزْهَةٍ كَانَتْ لَهُ بِمَدِينَةِ ^(٨) الزَّهْرَاءِ :

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَقًّا وَالْأَفْقُ طَلَقَ وَرَأَى الْأَرْضَ قَدَرَاقًا ^(٩)
١٥

(١) ب ، ت ، لب ، هـ : « يَجْه » (٢-٢) هـ فِي ب ، لب ، هـ

(٣) رَاجِعْ دِيْوَانَهُ (ج ١ ص ١١٥) (٤-٤) هـ فِي ر

(٥) رَاجِعْ دِيْوَانَ الْمُتَنَبِّئِي (ج ١ ص ١٢٤) (٦) رَاجِعْ دِيْوَانَهُ ص ٩٦

(٧-٧) هـ فِي ر (٨) ب ، ت ، لب ، هـ : « بَعْنِيَّة »

(٩) هـ : « وَوَجْه »

وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه (١) رق لي فاعتل إشفاقاً
والروض عن مائه الفضى مبتسم
لا سكن الله قلباً عقق ذكركم
لوشاء حمل نسيم الریح حين سرى
يا علقی الأخطر الأسنى الحبيب إلى
قلبي إذا ما اقتنى الأحباب أعلقاً
الآن أحمد ما كننا لعهدكم
سلوتم وبقينا نحن عشاقاً
قوله : « وللنسيم اعتلال في أصائله » ، البيت ، أراه ألم فيه بقول ابن

المعتر (٢) :

والريح تجذب أطراف الثياب كما أفضى الشفيق إلى تنبيه وسمان
وقلبه الرضى فقال : ١٠

وأمت الریح كالغیری تجاذبنا على الكتيب فضول الریط واللم
وأحسب الفرزدق أبا عذرتيه « وواسم غرته ، بقوله (٣) :

وركب كأن الریح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب
ومد أطناب المعنى بالبيت الآخر حيث يقول (٣) :

سروا يخبطون الریح وهى تلفهم إلى شعب الأكوار ذات الحقائق ١٥
وقوله : « سلوتم وبقينا نحن عشاقا » يناسب قول الآخر :

أشكو الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
قال ابن بسام : والشئ يذكر بالشئ وإن لم يكن من المنهاج ، ولا بُدَّ
مع ذكر المعترضات من المعاج .

٢٠ قرأت في كتاب أخبار بغداد لابن طاهر : قال محمد بن عبدوس الفارسي :

(١) وه : « كأنما » (٢) راجع ديوانه ص ٦٨

(٣) راجع ديوان الفرزدق ص ١٣٣

سرتُ يوما إلى ابن الجهم فأنشدني لنفسه في العناق :

ألا ربَّ ليلٍ ضَمْنَا بعد هجعةٍ وأدنى فؤادا من فؤادٍ مُعَذِّبِ
وبثنا جميعا لو تراقُ زجاجةٌ من الراح فيما بيننا لم تَسَرِّبِ
فاقتدَحَ زندي لإبراء^(١) مثله ، فأطرقتُ وقلتُ :

لا والمنازلِ من نَجْدٍ وليلتنا بَقِيْدَ إذ جسدانا بيننا جَسْدُ
كم رامَ فينا الكرى في لطفِ مَسْلَكِهِ يوما فما انفكَّ لا خدٌّ ولا عَضْدُ
ما أنصفوني ، دَعَوْنِي فاستجبتُ لهم حتى إذا قَرَّبُونِي منهمُ بعدُوا
أردتُ هذا البيت

وقوله : «ولو شاءَ حَمَلِي نسيمُ الريحِ» ، البيت ، كقول المجنون وهو أحسنُ
ما قيل في النحافة ، على زعم^(٢) المبرد :
إلا إنما غادرتِ يا أمَّ مالكٍ صدَى أينما تذهبُ به الريحُ يذهبُ
وقال المتنبي^(٣) :

كفى بجسمي نحولا أني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم تَرِنِي
وقال الخبز أَرْزَى :

أنحلني الحبُّ فلو زُجَّ بي في مقلةِ النَّائمِ لم يَنْتَبِهْ
وله من أخرى ، وكتب بها من بَطْلَيْوس^(٤) أيام تَكَرُّرِهِ عليها^(٥) ، وهي
من غُررِ نظامِهِ ، وحرَّ كلامه :

(١) ب ، ت ، لب : « بإيراد » (٢) وه : « قد »

(٣) ب ، ت ، لب : « قول » (٤) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٤٣٤)

(٥-٥) به في ر

- يادمع صُبَّ إن شئت^(١) أن تصوِّبا
 إن الرِّزَايا أصبحت ضروبًا
 قد ملأ الشوق الحشا ندوبًا
 عليل دهر ضامني^(٢) تعذيبًا
 ٥ ليت القبول أحدث هبوبًا
 بالأفق المهدي إلينا طيبًا
 يبرد حرَّ الكبد المشبوبًا
 مشرقًا قد سَمَّيَ التغريبًا
 ١٠ أرسل حليًا واستشر ليبيًا
 والجانب المستوضح العجيبًا
 فتحى منه ما رأى^(٣) الجنوبًا
 حيث ألفت الرشا الرَيْبِيَا^(٤)
 ١٥ كم بات بدرى ليله الغريبًا
 يشدو حمام عقده تطريبًا
 أرشف منه الميسم الشنيبًا
 شباب أفق هم أن يشيبًا
 أهاجري أم موسعي تأنيبًا
 ٢٠ ويا فؤادي آن أب تذوبًا
 لم أر لي في أهليها ضريبًا
 في الغرب أن رحت به غريبًا
 أدنى الضنى إذ أبعد الطيبًا
 ريح يروح عهدًا قريبًا^(٥)
 تعطرت منه الصبا جُيوبًا
 يا مُتبعًا إساده التأويبًا
 أما سمعت المثل المصروبًا:
 إذا أتيت الوطن الحبيبًا
 والحاضر المنفسح الرحيبًا
 مصانع تُجاذبُ القلوبًا
 مُحالسا في وصله الرقيبًا
 لما انثنى في سُكره قضيبًا
 هصرته حلو الجنى رطيبًا
 حتى إذا ما اعتن لي مريبًا
 بادرت سعيًا هل رأيت الذيبًا؟
 ٢٥ من لم^(٦) أسغ من بعده مشروبًا

(١) ب، ت، لب، و: «ماشئت»

(٢) ب، ت، لب، و: «رامني» — وفي ديوان ابن زيدون ص ١٩:

«سامني» (٣) لم يقع هذا البيت في و

(٤) و، ب، ت، لب: «ما أرى» (٥) ب، لب، و: «اللبيا»

(٦) من هنا إلى آخر الأرجوزة ناقص في (٧) في الأصول: «مالم»

ما ضرَّهُ لو قال : لا تُثريبًا فلا ملامَ لحق المغلوبا^(١)
 قد طال ما تجرَّم الذُّنوبًا ولم يدعُ في العُذرِ لي نصيبًا
 إن قرَّت العينُ بأب أووبا لم آلُ أن أسترضي الغضوبًا
 قد ينفع المذنب أن يتوبًا

قوله : « هل رأيت الذُّبيا ؟ » أخذه من قول الرازي يصف لبنًا ممذوقا :

* جاءوا بضيق^(٢) هل رأيت الذُّب قط ؟ *

وهذا التشبيه عند أهل النقد نوعٌ من أنواع الإشارة ، لأنه أشار إلى تشبيه لونه
 بالماء الذي غلب على اللبن فصار كلون الذُّب .

وقال من أخرى :

١٠ وَضَحَ الحَقُّ المَبِينُ وَنَفَى الشَكَّ اليَقِينُ
 ورأى الواشُونَ ما غَرَّ مِثْمُ مِنْهُ الظُّنُونُ
 أَمَّلُوا^(٣) ما لَيْسَ يُنْفَى وَرَجَّوْا ما لَا يَكُونُ
 وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونَ الْإِثْمُ مَهْدَ مَوْلَى لَا يَخُونُ
 فَإِذَا الغَيْبُ سَلِيمٌ وَإِذَا الْوَدُّ مَصُونُ
 ١٥ قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهِ جَرِي وَهَوَاهُ لِي دِينُ
 يَا جَوَادًا بِي إِنْ بَكَ وَاللَّهِ ضَانِينَ
 أَرْخَصَ الحُبُّ فَوَادِي لَكَ وَالْعَلَقُ ثَمِينُ
 يَا هَلَالًا تَرَاءَا هُ نَفُوسٌ لَا عُيُونُ
 عَجَبًا لِلْقَلْبِ يَقْسُو مِنْكَ ، وَالْقَدُّ يَلِينُ

(١) ب ، وه : « لحق الغلوبا » (٢) وه : « بمدق »

(٣) كذا في الديوان ص ٣٩ ، وفي جميع النسخ : « أمنوا »

ما الذى ضرك لو سُرَّ م بمرآك الحـزـين ؟
وتلطّفت بصبٍّ (١)
فوجوه اللفظ شتى والمعـاذير فنون

وقال أيضاً :

صَحَّتْ فَصَحَّ بِهَا السَّقِيمُ رِيحٌ مَعْطَرَةٌ النَّسِيمُ
مقبولة هبت قبو لا فهى تعبق بالشميم
إيهما أبا عبد الإل نداء مغلوب العزيم
إن عيل صبرى من فرا قك فالعذاب به أليم
الله يعلم أن حُبَّ بك من فؤادى فى الصميم
ولئن تحمّل عنك بى جسمٌ فعن قلبٍ مقيم
قل لى : بأىّ خلالٍ سرّ وك قبل أفتن أو أهيم
أبجدك العمم الذى نسق الحديث مع القديم ؟
أم بالبدائع كاللآ لى من نثير أو نظم ؟
إن أشمست منك (٢) الطلّا قة فالندى عنها (٣) مغميم
وبلاغة إن عُدَّ (٤) أهـ لوها فأنت لهم زعيم
إن الذى قسم الحظو ظ حباك بالخط العظيم (٥)

قوله : « ولئن تحمّل عنك بى جسم » البيت ، معنى مشهور أنشدت

فيه لبعضهم :

(١) ب ، لب ، و : « لصب » (٢) ب ، ت ، لب ، و : « تلك »

(٣) ب ، ت ، لب ، و : « منها »

(٤) فى الأصل : « حان » والتصحيح عن الديوان ص ٣٧

(٥) لم يقع هذا البيت والذى يليه إلا فى .

أَقُولُ لَهُ حِينَ وَدَّعْتُهُ وَكُلُّ بَعْبَرَتِهِ مُلْبَسُ :
لَنْ رَجَعْتُ عَنْكَ أَجْسَامُنَا لَقَدْ سَافَرْتُ مَعَكَ الْأَنْفُسُ
وَفِي قَرِيبٍ مِنْهُ « وَإِنَّمَا أَنْشَدْتُهُ لِحُسْنِهِ ، وَلَكُونْ هَذَا الْمَعْنَى فَرَعًا مِنْ غَضَنِهِ ،
قَوْلُ الْآخَرِ :

حَمَلْتُكَ فِي قَلْبِي ، فَهَلْ أَنْتَ عَالَمٌ بِأَنْكَ مَحْمُولٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ ؟
أَلَا إِنْ شَخْصًا ، فِي فَوَادِي مُحَلَّةٍ وَأَشْتَاقُهُ ، شَخْصٌ عَلَى كَرِيمٍ
وَقَالَ أَيْضًا :

يَا لَيْلُ طُلْ لَا أَشْتَهِي إِلَّا كَعْدِي^(١) قَصْرَكَ
لَو بَاتَ عِنْدِي قَرِي مَا بَتُّ أَرْعَى قَمْرَكَ

وَقَالَ أَيْضًا :

وَدَّعَ الصَّبْرَ^(٢) مَحَبَّةً وَدَّعَكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَى إِذْ شِيعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَاءً حَفِظَ^(٣) اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطْلُ بِعَدِكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكُو قَصْرَ اللَّيْلِ مَعَكَ أ

وَقَالَ :

بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعْ سِرُّ إِذَا ذَاعَتْ^(٤) الْأَسْرَارُ لَمْ يَذِعْ
يَا بَائِعًا حَظَّهُ مَنِّي وَلَوْ بُذِلَتْ لِي الْحَيَاةُ بِحَظِّي مِنْهُ لَمْ أَبِيعْ
يَكْفِيكَ أَنْكَ إِنْ حَمَلْتَ قَلْبِي مَا لَا تَسْتَطِيعُ قُلُوبُ النَّاسِ يَسْتَطِيعُ

(١) وه : « إلاكمرى » — وفي الديوان ص ٢٧٢ : « إلاكمرى »

(٢) ب : « رحم »

(٣) ب ، ت ، ر ، لب : « الحسن »

(٤) ب ، ت ، لب : « ضاعت »

تِهَ أَحْتَمِلْ، واستطِلْ أَصْبِرْ، وعِزَّ أَهْنُ وولُّ أَقْبِلْ، وقُلْ أَسْمَعْ، ومُرْ أُطِعْ
أراه احتذى في هذا البيت مذهب أبي العميثل الأعرابي :
فاصدُقْ وعِفَّ وفَهْ وأنصِفْ واحتمِلْ واصفَحْ^(١) ودارِ وكافِ واحلمْ واشجعِ
والطفِ ولِنْ وتأنَّ واحلمْ واتنِّدْ واحزِمْ وجِدَّ وحامِ واحملْ وادفعِ
وكقولِ ديكِ الجن :

احلُ وامرُزْ، وضُرَّ وانفعْ، ولِنْ واخْ شُنْ، ورشْ وابزْ، وانتدبْ للمعالي^(٢)
وهذا الباب صنعه المولَّدون وعدَّوه تقسيما وتقطيعا^(٣) وتبعَهُم المتنبى^(٤) فقال :
أقلْ أنلِ اقطعِ احملْ علَّ سلَّ أعدْ زدهشَّ بشَّ تفضَّلْ أدنْ سرَّ صلِ
ثم زاد أبو الطيب في هذا وتباغضَ حتى قال :

■ عِشْ ابقِ اسمُ سُدَّ قدْ جُدْ مرَّ انه رِفِ اسرِ نلْ *

بيته المعروف : وأحسنَ لعمري ابنُ زيدونَ في هذا التقسيم ودفع^(٥)
بالحديث في صدرِ القديم ، ولو قرعَ سمعُ أبي منصورٍ ، بما في^(٦) تضاعيف هذا
التصنيف من الشذور ، لما كان عنده ابنُ وشمكيرَ بمذكور ، ولا أغربَ
بغرائبِ الصاحبِ ، ولا ببديعِ البديعِ .

ومن شعرِ ابنِ زيدونَ في النسيب ، السائر الغريب^(٧) ، الطيَّار المليح ،
الخفيف الرُّوح ، قوله^(٧) :

(١) لب ، ه : « واصلح » (٢) ب ، لب : « ورش وابن »

(٣) ر ، ب ، لب : « وتعظيما » (٤) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٧٣)

(٥) ب ، ت ، لب ، ه : « ودافع »

(٦) ر : « على مافي » — ب ، ت ، لب : « بمثل هذه الشذور »

(٧-٧) ه في ر

أما رضاك فشيء ماله ثمن لو كان سأمحي في ملكه الزمن
تبكي فراقك عين أنت ناظرها قد لج في^(١) هجرها عن هجرك الوسن
إن الزمان الذي عهدى به حسن قد حال مذ غاب عني وجهك الحسن
والله ما ساءني أني خفيت ضني بل ساءني أن سرى في الهوى العن^(٢)
لو كان أمرى في كتم الهوى بيدي ما كان يعلم ما في قلبي البدن
وهذا البيت الأخير، إلى معنى صريح الغواني يشير^(٣) :

فقلت : قلبي مكاتم جسدي ولو درى لم يقيم به السمن
وهذا البيت الرابع منها ناظر إلى قول الآخر :

والله ما جزعني نفسي وإن هلكتي وإنما جزعني ما سر حسادي
وقال من أخرى :

أنت معنى الضنى وسر الضلوع وسبيل الهوى وقصد الدموع
أنت والشمس ضرّتان ، ولكن لك عند الغروب فضل الطلوع
ليس بالمؤيمى تكلفك العتد م دلالاً من الرضا المطبوع
إنما أنت ، والحسود معنى ، كوكب يستقيم بعد الرجوع
وقال أيضاً :

غريب بأرض الشرق يشكر للصبا تحمّلها مني^(٤) السلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصبا في احتماها سلام فتى يهديه جسم إلى قلب
وهذا منقول من قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

تالله ما شطت نوى ظاعن سار من العين إلى القلب^(٥)

(١) ر : « من » (٢) ب ، ت ، لب ، و : « علق »

(٣) راجع ديوانه ص ١٤٢ (٤) ر : « منا »

(٥) لم يقع هذا البيت في ديوان العباس

وقال أيضاً :

سأحبُّ أعدائي لأنك منهمُ يا مَنْ يُصِحُّ بمقلتيه ويُسِقِّمُ
أصبحتُ تُسَخِّطُنِي وأمنحك الرضا جَوْراً وتظالمُنِي وَلَا أُنْظَمُ
يا مَنْ تَأَلَّفَ ليلُهُ ونهارُهُ فالْحُسْنُ بينهما مُضَىٰ مُظْلِمُ
قد كان في شكوى الصَّبَابَةِ راحةً لو أَنِّي أَشْكُو إِلَى مَنْ يَرْحَمُ

أولُ مصراعٍ من هذه المقطوعة مقتطعٌ من قولِ أبي الشَّيْص :

أشبهتِ أعدائي فصرْتُ أحبَّهُم إِذْ كَانَ حَظِي مِنْكَ حَظِّي مِنْهُمْ
وكذلك قوله فيها : « يا مَنْ تَأَلَّفَ ليلُهُ ونهارُهُ » ، البيت « مقتضبٌ من قول
أبي الطيب ^(١) :

الحزنُ يُقْلِقُ والتجلُّدُ يردِّعُ والدمعُ بينهما عَصِيٌّ طَائِعُ

١٠

ما أخرجته من شعرِ ابن زيدون في المديح مع ما يتشبَّث به
من سائر الأوصاف .

قال من قصيدة ^(٢) :

أما في نسيمِ الرِّيحِ عَرَفٌ مُعَرَّفُ لنا، هل لذاتِ الوقفِ بالجرعِ موقفُ ^(٣)
فنَقَضَى أوطارَ المَنَى من زيارةٍ لنا كَلَفٌ منها بما نَتَكَلَّفُ
ضَمَانٌ علينا أَنْ تُزَارَ ودونها رفاقُ الظُّبَا والسَّمَهرِ الْمُتَقَفُ
وقومٌ عَدَى يبدون عن صفحاتهم وأزهرُها من ظلمةِ الحقدِ أَكَلَفُ

١٥

(١) راجع الديوان (ج ١ ص ٤٣٠) (٢) راجع ديوانه ص ٢٣

(٣) الأبيات الخمسة الأولى ناقصة في .

- يودون لو يثني الوعيد^(١) زَمَاعِنَا^(٢) وهيأت ريح الشوق من ذاك أعصفُ
وفي السَّيرَاءِ الرِّقْمُ وسطَ قِبَابِهِمْ بعيدُ مَنَاطِ القُرْطِ أَحورُ أوطفُ
وليلةً وافينَا الكَثِيبَ لموعِدِ سرى الأيْمِ لم يعلمْ لمسراه مزحفُ
تهادى أَنَاةُ الخطوِ مرتاعةَ الحَشَا كما ربيعَ يَغْفورُ الفلا المتشوفُ
فما الشمسُ رِقَّ الغيمُ دونَ أَيْتِهَا سِوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُنْصَفُ^(٣)
قَعِيدِكَ أَنَّى زُرْتُ ، نُورُكَ فَاضِحٌ وَعِطْرُكَ نَمَامٌ ، وَحَلْيُكَ مُرْجِفُ
هَبِيكَ اغْتَرَزْتَ الْحَى وَأَشِيكَ هَاجِعُ وَفِرْعُكَ غَرِيبُ ، وَلَيْلُكَ أَغْضَفُ
فَأَنَّى اعْتَسَفْتَ الْهَوْلَ خَطْوُكَ مُدْمَجُ وَرَدُّكَ رَجْرَاجُ وَخَصْرُكَ مُحْطَفُ
لجَاجُ تَمَادَى الْحُبِّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا وَأَمُّ الْهَوَى الْأَفَقَ الَّذِي فِيهِ نُشَفُ^(٤)
كفَانَا مِنَ الْوَصْلِ التَّحِيَّةُ خُلْسَةٌ فَيَوْمِي طَرْفُ أَوْ بَنَانُ مُطَرْفُ ١٠
وَإِنِّي لَيْسَتْهُوَ بِنَى الْبَرْقِ صَبُوءٌ إِلَى بَرْقِ ثَغْرِ إِنْ بَدَا كَادَ يُخْطَفُ
وَمَا وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلَّا تَوْهَمُ لَظْمٍ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ
وَيُذَكِّرُنِي الْعِقْدَ الْمَرْنَ جَمَانَهُ مُرْنَاتُ وَرُقَى فِي دُرَى الْأَيْكِ هُتَفُ
فَمَا قَبْلَ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرِ هَوْدَجُ وَلَا ضَمَّ رِثْمَ الْقَفْرِ خِدْرُ مَسْجَفُ
وَلَا قَبْلَ عَبَادِ حَوَى الْبَحْرِ مَجَاسُ وَلَا حَمَلَ الطَّوْدِ الْمَعْظَمُ رَفْرَفُ ١٥
وهذا بيتُ الْقَسْطَلِيِّ بِجَمَلَتِهِ حَيْثُ يَقُولُ^(٥) فِي ابْنِ أَبِي عَامِرٍ^(٦) :

(١) ب ، ت ، لب ، هـ : « البعيد » والتصحيح عن الديوان

(٢) هـ ١ : « زَمَامِهَا » (٣) لم يقع هذا البيت في

(٤) ب ، ت ، لب : « وكيف » (٥) لم يقع هذا البيت في

(٦-٦) هـ في ر

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس
وفيها يقول ابن زيدون :

هو الملك الجعد الذي في ظلاله
رويته في الحادث الإِدِّ لحظة
طلاقة وجه في مضاء كمثل ما
على السيف من تلك الصرامة ميسم
أظن الأعادي أن حزمك ناسم ؟
ومنها :

ولما قضينا ما عاننا أداؤه
رأيناك في أعلى المصلى كأنما
ولما حضرنا الإذن والدهر خادم
وصلنا فقبلنا الندى منك في يد
ولولاك لم يمهل من الدهر جانب
لك الخير أنى لي بشكرك نهضة
أنرت بهيم الحال منى غرة
١٠

قوله : « وما ولعى بالراح » ، البيت ، أراه قلب قول أبي الطيب (٥) :
وما شرقي بالماء إلا تذكرا
لماء به أهل الحبيب نزول (٦)

(١) لم يقع هذا البيت في - (٢) ب ، ت : لب ، وه : « الطلاقة »

(٣) لم يقع هذا البيت في - (٤) لم تقع هذه الأبيات الثلاثة في -

(٥) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٧٩)

(٦) ب ، ت ، لب ، وه : « حلول »

وقوله : « ويذكركم في العقد المرن » البيت ، نسخة من قول أبي تمام ^(١)

ونقص عنه :

وبالحلي إن قامت ترتم فوقها حماما إذا لاقى حماما ترنما

وقوله : « طلاقة وجه » البيت ، معنى مشهور ، وهو في شعرهم كثير ،

ومنه قول البحترى ^(٢) :

ويحسن دلها والموت فيه كما يستحسن السيف الصقيل

وزاد فيه بعض أهل عصرى زيادة ملححة فقال :

مضاه كحد السيف لدنا مهزه يكفكه حلم كحاشية البرد

وقوله : « ولما حضرنا الإذن » البيت مع الذي بعده ، أرى أبا الوليد

احتذى فيه حدو الوليد في أبيات أنشدها لحسنها ، وهي من أحسن ما قيل
في الهيبة :

ولما حضرنا سدة الإذن أخرت رجال عن الباب الذي أنا داخله ^(٣)

فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة أقابل بدر التم حين أقابله

كما انتصب الرمح الرديني ثققت أنابيبه واهتز للطعن عامله

وكالبدر وافته ليم سعوذه وتم سناه واستهلّت منازلها ^(٤)

فسلمت فاعتاقت جناني هيبة تنازعني القول الذي أنا قائله

فلما تأملت الطلاقة وانثنى إلى يبشر آتستني مخايله ^(٥)

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ كريم نحياه سباط أنامله

صفت ، مثل ما تصفو الدمام ، خلاله ورقت ، كما رق النسيم ، شمائله

(١) راجع ديوانه ص ١٩٤

(٢) راجع ديوانه ص ٢٦١

(٣) راجع ديوان البحترى (ج ١ ص ٣٣) (٤) لم يقع هذا البيت في

وقول ابن زيدون : « وصلنا فقبلنا الندى » البيت ، معنى مليح ،
ولفظ صحيح ! إلا أنه كما تراه ، لفظ بيت البحري ومعناه . ويقول بعض أدبائنا
إن ابن زيدون بحري زماننا وصدقوا ، لأنه حذا حذو الوليد إلا أن أبا الوليد
في بعض قصائده كابن حميد سعيد . وقال بعض أهل عصرنا وهو أبو محمد ابن
سارة الشنتريني ^(١) من جملة أبيات ^(١) :

وإن فمي يصفح راحتيه فيعرف فيهما عرف السيادة
وقال بعض أهل العصر :

ولثمت يمناه فأعيا حسدي أأنا لثمت العارض المتعجرا؟ ^(٢)
وقال ابن زيدون ^(٣) من جملة قصيدة ^(٣) :

يا أيها الملك الذي تدبيره ١٠ أضحي لمملكة الزمان ميلا ^(٤)
أعرض عن الخطرات إنك إن تشا تكن النجوم أسنة لقنا
هصر النعيم بعطف دهرك فأنثني وجرى الفرند بصفحتي دنيا
دنيا لزهرتها شعاع مذهب لو كان وصفاً كان بعض حلاكا
فتجمل ^(٥) في فرش الكرامة ناعما واعقد بمرتبة الشرور حبا
وأطل إلى شدو القيان إصاخة وتلق مترعة الكؤوس دراك
لك أريحية ماجد إن تعترض في لهو راحك تستهل ^(٦) لها
من كان يعلق في خلال ندامه ذم يبعث خياله فخلاكا

(٢) ر : « المتعجرا »

(١-١) ر في ر

(٤) راجع ديوان ابن زيدون ص ١٣٦

(٣-٣) ر في ر

(٦) ر : « تستمل »

(٥) ب ، ر : « فتحل »

أُسْبُوغُ أَنْسٍ مَحْدِثٌ لِي وَحْشَةٌ عَلِمًا بِأَنِّي لَسْتُ فِيهِ أَرَاكَ ^(١)
وَأَنَا الْمَعَذَّبُ غَيْرَ أَنِّي مُشْعَرُهُ ثِقَةً بِأَنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَا كَا
أَنِّي أَقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا مَلَأْتَ مِنَ الدُّنْيَا يَدَيَّ يَدَاكَ!
بَرَدَتْ ظِلَالُ ذِرَاكِ ، وَاحْلَوْلَى جَنَى نَعْمَاكَ لِي ، وَصَفَتْ جَسَامُ نَدَاكَ
وله من أخرى في ابن جهور أولها ^(٢) :

هَذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبًا فَصَلِّ بِفَرْعِكَ لَيْلِكَ الْغَرِيبَا
وَلَدَيْكَ أَمْثَالُ النُّجُومِ قَلَانْدُ أَلِفَتْ سَمَاءُكَ لَبَّةً وَتَرِيبَا ^(٣)
يقول فيها :

لَيْتَنُبَّ عَنِ الْجُوزَاءِ قُرْطُكَ كَلَمَّا جَنَحَتْ تَحْتُ جَنَاحَهَا تَغْرِيبَا
وَإِذَا الْوُشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَائِهِ طَلَعَتْ ثُرَيَّا لَمْ تَكُنْ لَتَغِيبَا ١٠
وَلَطَالَمَا أَبْدَيْتَ ^(٤) إِذْ حَبِيبَتِنَا كَفَّا هِيَ الْكَفُّ الْخَضِيبُ خَضِيبَا
أُظْنِينَ ^(٥) ، دَعَايَ الْبَرَاءَةِ شَأْنُهَا أَنْتِ الْعَدُوُّ ، فَلِمَ دُعِيتِ حَبِيبَا؟ ^(٦)
مَا الْهَجْرُ إِلَّا الْبَيْنُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَشْحُ فَاهُ بِهِ الْغُرَابُ نَعِيبَا ^(٧)

ومنها في المدح :

مُتَمَرِّسٌ بِالْدهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيبَا ^(٨) ١٥
لَا يَوْسَمُ الرَّأْيُ الْفَطِيرُ بِهِ وَلَا يَعْتَادُ إِرسَالَ الْكَلَامِ قَضِيبَا
بَسَامُ ثَغْرِ السَّنِّ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا فَرَأَيْتَ وَضَاحًا هُنَاكَ مَهِيبَا

(١) هذا البيت والأبيات التي تليه لم تقع في (٢) راجع ديوانه ص ٦٩

(٣) لم يقع هذا البيت في (٤) ب ، ت ، لب ، وه : «أحييت»

(٥) ت ، لب : «أظنينة» (٦) لم يقع هذا البيت في وه

(٧) لم يقع هذا البيت في ، وه (٨) لم يقع هذا البيت في وه

ملاً النواظر صامتاً ولربما
إنَّ الجهاورة الملوك تبوءوا
عقدُ تألفٍ في نظامٍ رياضية
فإذا دعوت وليدَهم لعظيمة
همَّ تعاقبها النجومُ وقد تلا
ومحاسنٌ تندى رقائقُ ذِكْرِها
كان الوشاة، وقد منيتُ بإفكهم،

قوله : « فصلي بفرعك ليلك الغريبيا » ، من قول أبي الطيب ^(١) :

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها
وينظر إليه قولُ المعري ^(٢) : ١٠

يودُّ أن ظلامَ الليلِ دامَ له
وقال التهامي ^(٣) :

وتودُّ لو جعلتُ سوادَ قلوبها
وقال محمد بن هاني ^(٤) :

قد أظلموا بالذُّهم منها فجرهم
واستأنقوا بشياتها فجرًا فلو ١٥

وقوله : « فتكادُ توهك المديح نسيبًا » ، البيت ، من قول حبيب ^(٥) :

ظاب فيه المديح والتدح حتى
فاق وصفَ الديار والتَّشبيها

(١) راجع ديوانه (ج ١ ص ٤٢٥) (٢ - ٢) نه في ر

(٣) راجع سقط الزند (ج ١ ص ٣١) (٤) راجع ديوانه ص ٣١

(٥) راجع تبين المعاني ص ٧٣ (٦) ب ، لب ، وه ، ت : « فتكورت »

(٧) راجع ديوانه ص ٣٠

وقوله : « ملأ التواظير صامتاً » ، البيت ، من قوله أيضاً :

فاسألنّها^(١) واجعل بكاك جواباً تجد الشوق سائلاً ومجيباً
وينظر إلى هذا المعنى من بعض الوجوه لفظ أبي الطيب^(٢) حيث يقول
في ابن العميد :

فدعاك حسدك الرئيس وأمسكوا ودعاك خالقك الرئيس الأكبر
خلقت صفاتك في العيون كلامه كالخط يملأ سمعي من أبصر
ويلمح أيضاً هذا المعنى قول أبي نواس ، على ما فسره بعض الناس :

« ألا فاستقني خمرًا وقل لي : هي الخمر »

وهذا التفسير فيه « أضعف الوجوه . وبيت ابن شرف أشبه من هذا كله

بيت ابن زيدون ، وهو قوله يمدح صاحب القيروان :

سأل عنه ، وانطق به ، وانظر إليه ، تجد
ملء المسامع والأفواه والمقل

وقال ابن زيدون^(٣) من أخرى :

أما والحافظ مريض صحاح نصي^(٤) ، وأعطاف نشاوى صواح

لفاتن^(٥) بالحسن في خده ورد ، وأثناء ثناياه راح

لم أنس إذ باتت يدي ليلة وشاحه اللاصق دون الوشاح

لاصفين المرتضى جهوراً عهداً لروض الحسن عنه اقتضاح

بشرت آمالي بتأميله فما عداني منه فوز القداح

لم أشم البرق جهماً ولم أقتدح النار بزند شحاح

(١) في جميع النسخ « اسألنّها » ، والتصحيح عن الديوان .

(٢) راجع ديوانه (ج ١ ص ٣٦٧) (٣) راجع ديوانه ص ٨٩

(٤) ر ١ « نسي » (٥) ب ، ت ، لب : « لبائن »

يا مرشدي جهلاً إلى غيرِهِ
ذو باطن أقبس نورَ السقي
إيه أبا الحزم اهتبل غرّة
لا طار لي حظاً إلى غاية
عُتْبَاكَ بعد العتبِ أمنيّة
لم يثنني عن أملٍ ماجري
واشفع فلشافع نغمي بما
إنّ سحاب الأفق منها الحيّا
أغنى عن المصباح ضوء الصباح
وظاهرٍ أشرب ماء السّماح
السّنة الدهر عليها فصاح^(١)
إن لم أكن منك قرّيش^(٢) الجناح
مالي على الدهر سواها اقتراح
قد يرفع الخرق وتوسى الجراح
سنّاه من عقيد وثيق التّوابع
والحمد في تأليفها للرّياح
قوله : « وشاحه اللّاصق » ، البيت ، معنى متداول^(٣) ، ومن أقربِهِ

١٠ عصرًا قول النّحلي من أهل وقتنا :

إنّ العزيز على خضرك إنّهُ
فخذى له جسمي مكان وشاحه
وقال ابن زيدون^(٥) من أخرى في بني جهور عند نكبة بني ذكوان :
لولا بنو جهور ما أشرقت همم
قوم متى تحتفل في وصف سوددهم
أبو الوليد قد استوفى مناقبه
غيد السّوالف في أجيادها تلغ^(٦)
لا يأخذ الوصف إلّا بعض ما يدع
فلتفاريق منها فيه مجتمع

(١) هذا البيت إلى آخر القصيدة ناقص في =

(٢) ه في ر

(٣) ه : « مرّاش »

(٥) راجع ديوانه ص ١٣١

(٤) ب ، ت ، لب ، ه : « منك »

(٦) كذا في النسخ ، ورواية الديوان :

كمثل بيض اللّيلالي دونها الدرع
غيد السّوالف في أجيادها تلغ

لولا بنو جهور ما أشرقت همي
هم الملوك ملوك الأرض دونهم

مَهْدَبٌ أَخْلَصَتْهُ أَوْلَيْتُهُ كالسيف بالغ في إخلاصه الصنع
 إِنَّ السُّيُوفَ مَتَى مَا طَابَ جَوْهَرُهَا في أول الطبع لم يعلق بها الطبع
 قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِي تَأْمِيلُهُ وَزَرَى إن ضاق مضطرب أو هال مضطلع^(١)
 أَصْبَحْ لَهْمَسٍ عِتَابٍ تَحْتَهُ مِقَّةٌ تكلف النفس فيه^(٢) فوق ما تسع
 مَا لِلْمَتَاتِ الَّذِي أَحْصَفَتْ عَقْدَتَهُ قد خامر القلب من تضييعه جزع^(٣) ؟
 لَا تَسْتَجِزْ وَضْعَ قَدْرِي بَعْدَ رَفْعِهِ فالله لا يرفع القدر الذي تضع
 إِنَّ الْأَلَى كُنْتُ مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمْ مثل الشجى في لهاهم ليس ينتزع^(٤)
 تِلْكَ الْعِرَانِينَ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمٌّ فكان أهون ما نيلت به الجدع
 أَوْدَعْتَ نَعْمًا مِنْهُمْ شَرًّا مُغْتَرَسٍ لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع^(٥)

قوله : « إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا مَا طَابَ جَوْهَرُهَا » ، البيت ، ينظر من ١٠
 لحظ^(٦) مريب إلى قول حبيب^(٧) :

وَالسَّيْفُ مَا لَمْ يُلَفَّ فِيهِ صَيْقَلٌ من سنخه لم ينتفع بصقال
 وله من أخرى يهني المعتضد عبادة^(٨) بهزيمة ابنه إسماعيل لابن الأفطس ،
 وقتل ولد إسحاق بن عبد الله في تلك الحرب^(٩) :

(١) هذا البيت ناقص في ر ، وقد جاء فيها بعد البيت السابق لهذا : « ومنها في عتابه
 أيضاً » وبلى ذلك : « أصبح لهمس عتاب » إلى آخر الأبيات

(٢) ب ، ت ، لب ، وه : « منه » (٣) بعد هذا البيت في الديوان :

لم أحظ إذ هم عدى باد تفاقمهم إلا كما كنت أحظى إذ هم شيع

(٤) ب ، ت ، لب : « لم يكرم » (٥) لم يقع هذا البيت في ر

(٦) ب ، ت ، لب ، وه : « بلحظ » (٧) راجع ديوانه ص ٢٣٥

(٨) ب ، ت ، لب ، وه : « بلحظ » (٩) راجع ديوانه ص ٢١٦

لِيَهْنِ الْهَدَىٰ إِنْجَاحُ سَعِيكَ فِي الْعِدَى
وَبَشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةِ الْعَهْدِ طَلْقَةً
دَعَوْتَ فَقَالَ النَّصْرُ: لَبَّيْكَ مَائِلًا
وَأَحْمَدْتَ عُقْبَى الصَّبْرِ فِي دَرْكِ الْمُنَى
وَلَمَّا اعْتَمَدْتَ (٣) اللَّهُ كُنْتَ مَوْهَلًا
وَجَدْنَاكَ إِنْ أَلْقَحْتَ سَعِيًا نَتَجَّتْهُ
سَلِ الْخَائِنَ الْمَغْتَرَّ كَيْفَ احْتِقَابُهُ
رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هَزَبَرًا مُصَمَّمًا
وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللَّهِ نَحْوَكَ أَوْغَدًا (١)
كَمَا ابْتَسَمَ الثَّوَارُ عَنْ أَدْمَعِ النَّدَى
وَلَمْ تَكُ كَالِدَّاعِي يُجَاوِبُهُ الصَّدَى
كَمَا بَلَغَ السَّارِيَ الصَّبَاحَ فَأَحْمَدًا (٢)
لَدَيْهِ بَأَنْ تُحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْضَدَا
وَعَيْرُكَ شَاوٍ حِينَ أَنْصَجَ رَمْدًا
مَعَ الدَّهْرِ عَارًا بِالْفِرَارِ مَحْلَدًا
فَلَمْ يَعُدْ أَنْ أَمْسَى ظَلِيمًا مُشَرَّدًا

وهذا منقول من قول أبي الطيب (٤):

فَأَتَيْتَ مَعْتَزِمًا وَلَا أَسَدُ
وَمَضَيْتَ مَنَهْزِمًا وَلَا وَعِلُ

١٠

رَجَعُ :

يُوذُ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ أَنَّهُ
لَبَّيْسَ الْوَفَاءِ اسْتَنَّى فِي ابْنِ عَقِيدِهِ
وَأَصْبَحَ يَبْكِيهِ الْمَصَابُ بِشُكْلِهِ
أَقَامَ عَلَيْهِ آخِرَ الدَّهْرِ (٥) سَرْمَدًا (٦)
عَشِيَّةَ لَمْ يُصْدِرْهُ مِنْ حَيْثُ أَوْرَدَا
بُكَاءَ لَبِيدٍ حِينَ فَارِقَ أَرْبَدَا
وَكُتِبَ إِلَى الْمَظْفَرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَبِي بَكْرِ ابْنِ الْأَفْطُسِ مِنْ رَقْعَةٍ وَضَمَّتْهَا
قَصِيدَةً أَوَّلُهَا (٧):

١٥

(١) ب ، لب ، وه : « واغتنى » (٢) هذا البيت ناقص في ر

(٣) ب ، ت ، لب ، وه : « دعوت » (٤) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢١٩)

(٥) في جميع الأصول : « آخر الليل » والتصحيح عن الديوان ص ٢١٩

(٦) لم يقع هذا البيت في ر

(٧) هنا يبدأ خرم في ر ، وسننبه على رجوع الكلام فيها بعد .

لبيضِ الطُّلى ولسودِ اللَّمَمِ بعقلِي — مُذْنِبٌ عَنِّي — لَعَمَ :
لَمَّا لَيْسَ الْحَاجِبُ — أَعَزَّهُ اللَّهُ — رداءُ المَجْدِ مُعَلِّمًا ، وحَمَلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ
مُعَلِّمًا ، فاستطارَ بَارِقُ فَجْرِهِ ، واستضاءَ فَأَمَحُ ذِكْرِهِ ، وشَهَرَتْ مُحَاسِنُهُ عَلَى كُلِّ
لِسَانٍ ، وسَارَتْ مَآثِرُهُ مَسِيرَ^(١) الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ ، لَمَّا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ
وَأَسْبَغَ مِنْ نِعَمِهِ ، ووَطَّأَ لِلْأَمَلِينَ مِنْ أَكْنَفِهِ ۖ وَهَزَّ إِلَى الرَّاعِبِينَ مِنْ أَعْطَافِهِ ۖ
وَرَفَرَفَتْ أَجْنَحَةُ الْأَهْوَاءِ عَلَيْهِ^(٢) ، وَاهْتَزَّتْ جَوَانِحُ الْأَمَالِ^(٣) إِلَيْهِ ، وَكَثُرَ التَّغَايُرُ
عَلَى تَقْيُؤِ ظِلِّهِ ۖ وَالتَّنَافُسُ فِي الْإِعْتِلَاقِ بِحَبْلِهِ ، وَكُلُّ اسْتَفْرَغَ جَهْدَهُ ، وَتَوَسَّلَ
عَلَى حَسْبٍ مَا عِنْدَهُ ، وَلَا غَرَوْ أَنَّ^(٤) يُسْتَمَطَّرَ الْغَمَامُ ،^(٥) وَيُؤَمَّلَ الْكِرَامُ^(٥) ،
وَيَكْثُرَ فِي الْمَشْرَبِ الْعَذْبِ الزَّحَامُ .

- وما زلتُ — أبقى الله الحَاجِبَ — أُلْتَقَى مِنْ مَسَاعِيهِ الْمَشْكُورَةِ ۖ وَيَقْرَعُ ١٠
سَمْعِي بِمَآثِرِهِ الْمَأْثُورَةِ ، مَا هُوَ أُنْدَى مِنْ بُلُوغِ الْأَمَلِ ۖ وَأَشْهَى مِنْ اخْتِلَاسِ
الْقُبُلِ ، وَأَغْضُّ مِنْ جَنِيِّ^(٦) الزَّهَرِ ، وَالْطَفُ^(٧) مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ ، حَتَّى
انْقَادَتْ نَفْسِي فِي زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمُودَّةِ ، وَنَازَعْتُ إِلَى الْأَخْذِ بِحِطِّهِ مِنَ الْإِعْتِلَاقِ
وَالْمَازَجَةِ . وَنَظَرْتُ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْبُعْدِ الْمَانِعَةِ ۖ وَامْتَدَادِ الْبِلَادِ
الْمُعْتَرِضَةِ ، فَغَضَضْتُ طَرْفَ الْخَيْبَةِ ، وَطَوَيْتُ كَشْحًا عَلَى الْيَأْسِ مِنْ دَرَكِ ١٥
الْأُمْنِيَّةِ ، إِلَى أَنْ نَدَبَنِي الْأَدِيبُ أَبُو فُلَانٍ إِلَى مَخَاطَبَتِهِ ، وَحَرَّضَنِي عَلَى مَكَاتِبَتِهِ ۖ
وَنَبَّهَنِي عَلَى مَا فِي التَّنَاقُلِ عَنْ مُدَاخَلَتِهِ ، مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ ، وَالتَّقْصِيرِ الْبَيِّنِ

(١) ب ، ت : « مسيرة » (٢) في الأصول : « إليه »

(٣) ب ، ت ، لب : « الأمل » (٤) ب ، ت ، لب : « في أن »

(٥ — ٥) هـ في هـ (٦) ب : « جناء »

(٧) ب ، ت ، لب ، هـ : « ما هو الطف »

الصَّحِيحُ ؛ إِذْ هِيَ أَسْفَى عِلْقٍ غُولِي بِهِ ^(١) ، وَأَنْفَسُ ذُخْرِ نَوْفَسٍ فِيهِ . فَطَرَبْتُ إِلَى ذَلِكَ « كَمَا طَرِبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْحَجَرُ » ، وَاهْتَزَزْتُ لَهُ « كَمَا اهْتَزَّزَتْ تَحْتَ الْبَارِحِ الْعُصْنُ الرَّطْبُ » . وَرَأَيْتُ مِنْ شُكْرِ يَدِ الْعَلِيَاءِ فِيمَا حَثَّنِي إِلَيْهِ ، وَحَضَّنِي عَلَيْهِ ، مِمَّا فِيهِ حِلْيَةُ الْفَخْرِ ، وَمَكْرُمَةُ الدَّهْرِ ، أَنْ أَسْتَفْتِحَ بَابَ الْمَكَاتِبَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ الْخَاطِبَةِ فِي الْعِنَايَةِ بِهِ ، وَبَيْنَنَا ، بَعْدُ ، مِنْ ذِمَامِ الطَّلَبِ ، وَحُرْمَةِ الْوَدِّ وَالْأَدَبِ ، مَا أَسْتَقْصِرُ نَفْسِي مَعَهُ أَنْ تَقْدَمَ ^(٢) فِي خِدْمَةِ رَغْبَتِهِ قَلَمِي ^(٣) ، وَقَدْ تَأَخَّرْتُ قَدَمِي ، وَبَعْدَ لَاقِتِصَارٍ بُغِيَّتِهِ ^(٤) كِتَابِي . دُونَ أَنْ أَرْمُ إِلَيْهِ ^(٥) رِكَابِي ، وَهُوَ قَتِي نَامَ جَدُّهُ ، وَاسْتَيْقِظَ حَدُّهُ ؛ فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ . وَاعْتَرَّتْ ^(٦) الْأَيَّامُ بِهِ بَيْنَ ذُنَابِ سَعَايَةِ عَوْتٍ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وَشَايَةِ دَبَّتْ إِلَيْهِ . وَأَصْلِي بِنَارِ جَرَبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَأَعْدَتْهُ مَبَارِكُ جَرَبٍ ^(٧) التَّبَسُّبُهَا ^(٧) ، وَآلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى فِرَاقٍ أَحَبَّتِهِ ، وَابْعَدَ ^(٨) عَنْ مَسْقِطِ رَأْسِهِ ، وَمَعَقِّ قَسَائِمِهِ ، عَلَى ضَيْقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدِ الْحَاجِبَ إِلَّا وِلَاءً ، وَعَلَيْهِ إِلَّا تَنَاءً . وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ « وَيَنْثُرُ حَمْدَهُ وَيَطْوِيهِ ، وَالْحَاجِبُ — أَدَامَ اللَّهُ إِعْزَازَهُ — وَلِيَّ إِعْدَائِهِ عَلَى زَمَنِهِ الْغُشُومِ ، وَأَمْلًا بِإِنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظَّلُومِ ، بِالْبَاسِ مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عُرِّيَ مِنْهُ ، وَإِيرَادِهِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَا مَا حُلِّيَ عَنْهُ ، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَفُقِ الَّذِي لَمْ يَرَ كَوَكَبَ سَعْدٍ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا تَلَقَّى نَسِيمَ

(٢) فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ : « أَتَقَدَّمُ »

(٤) ب ، ت : « غِيَّتِهِ »

(٦) ب ، ت : « وَاعْتَرَّتْ »

(٨) ب ، ت : « وَأَبْعَدَ »

(١) فِي النِّسْخِ « فِيهِ »

(٣) هُنَا يَبْدَأُ خَرَمَ فِي لَبِّ

(٥) ب ، ت : « لِذَلِكَ »

(٧-٧) هـ فِي ٧

حَيَاةٍ ^(١) إِلَّا مِنْهُ ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُؤْلِيهِ ^(٢) مِنْ إِحْسَانِهِ ۖ وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَانِهِ ،
مُسْتَجِزٌ شُكْرَ مَنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٍ ، وَاسْتَقَلَّ بِهِ بَيَانٌ ، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ ،
وَالْمَعْهُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْفِعْلِ ۖ وَاللَّهُ يُبْقِيهِ وَيُعْلِيهِ ۖ وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِي فِيهِ .

ولما اطرَّد هذا النثرُ لحسنِ اتساقِهِ ۖ وَلَدَّ مَسَاقِيهِ ، هَزَّتِ النَّظْمُ أَرْحِيَّةً
جَذَبَ لَهَا بَعْنَانَهُ ، وَعَارَضَهُ بِهَا فِي مِيدَانِهِ ؛ وَأَبَتْ أَنْ يَنْفِرَدَ النَّثْرُ بِلِقَاءِ الْحَاجِبِ
وَمُشَافَهَتِهِ ، وَيَسْتَبِدَّ بِأَنْ تَلْمَحَ عُزَّتَهُ ، وَتَخْدُمَ بِالْحُضُورِ حُضْرَتَهُ ، فَأَثَبَتْ مِنْهُ
مَا إِنْ أَنْعَمَ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَالِ يَعْزُضُ فِيهِ ۖ وَالْخَلَلِ يَبْدُو مِنْهُ ۖ
وَصَلَّ النِّعْمَةُ بِمَثَلِهَا ، وَقَرَنَ الْعَارِفَةُ بِشَكْلِهَا :

لِبَيْضِ الطَّلَى وَلِسُودِ اللَّمَمِ	بِعَقْلِي — مُذْنِبٍ عَنِّي — لَمَمٌ ^(٣)
فَفِي نَاطِرِي عَنْ رَشَادِ عَمِّي	وَفِي أُذُنِي عَنْ مَلَامٍ ^(٤) صَمَمٌ
قَضَتْ بِشِمَاسِي عَلَى ^(٥) الْعَاذِلِينَ	شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمِ
وَمَا سَقِمْتُ لِحَفَاطَتِ الْعُيُودِ	نِ إِلَّا لَتُغْرِينِي بِالسَّيِّئِ قَمَمٌ
يَلُومُ الْخَلِيَّ عَلَى أَنْ أَجِنَّ	وَقَدْ مَرَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بَدَمٌ
وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ	وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُدَمُّ
وَإِنِّي أُرَاحُ إِذَا مَا الْجُنُودِ	بُ رَاحَتِ بَرِيًّا جَنُوبٍ ^(٦) الْعَلَمُ
وَأَصْبُو لِعِرْفَانٍ عَرَفِ الصَّبَا	وَأُهْدَى السَّلَامُ إِلَى ذِي سَلَمٍ
وَمَنْ طَرَبَ عَادَ نَحْوَ الْبِرَا	قِ أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ^(٧) ابْتَسَمَ

(١) في جميع النسخ : « حياء » (٢) وه : « يؤلفه »

(٣) راجع ديوان ابن زيدون ص ١٢٢ (٤) ب ، ت : « ملأى »

(٥) وه : « عن » (٦) ب ، ت : « الجنوب »

(٧) وه : « لما »

أَمَّا وَزَمَانٌ مَضَى عَنْهُ قَضَى بِالصَّبَابَةِ لَمَّا انْقَضَى
لِيَالِي نَامَتْ عَيُونُ الْوُشَا وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهُوَى
وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ كَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْمُسْلِمِيَّ
وَوَشَحَ زَهْرَةً ذَاكَ الزَّمَانِ هُوَ الْحَاجِبُ الْمَعْتَلِي لِلْعَالَا
مَلِكٌ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمَالُوكُ فَأَطُولُهُمْ بِالْأَيَادِي يَدًا
وَأَرْوَعُ لَا مُبْتَغَى رِفْدًا ذُلُّ الدَّمَانَةِ صَغْبُ الْإِبَاءِ
سَمَا لِمَجْرَةٍ فِي أَفْقِهَا وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَةُ النُّجُومِ
نَهْيَكُ إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعِجَاجِ فَشَامَ السُّيُوفِ بِهِامِ الْكُفَاةِ
جَوَادُ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُقَاةِ يَهِيحُ النَّزَالُ بِهِ وَالشُّوَا
شَهْدُنَا لَاوَتِي فَضْلَ الْخِطَابِ وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ

حَمِيدًا لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمَ وَمَا اتَّصَلَ الْوُدُّ حَتَّى انْصَرَمَ
عَنَّا وَعَيْنُ الرِّضَا لَمْ تَتَمَّ فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمَنَى مِنْ أُمِّ
رَقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمِ أَجْرَى (١) عَلَيْهَا فِرْنَدُ الْكَرَمِ
بِمَا حَارَ مِنْ زُهْرٍ تِلْكَ الشِّيمِ شَمَارِيحُ كُلِّ مُنِيفٍ أَشَمَّ
حَوَى الْخَصْلُ ، أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهْمُ وَأَثْبَتُهُمْ فِي الْمَعَالِي قَدَمُ
يُخِيبُ ، وَلَا جَارُهُ يُهْتَضَمُ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمَ
جَفْرًا عَلَيْهَا ذُيُولُ الْهِمَمِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وَطَفَ الدِّيمِ
سَرَى مِنْهُ فِي جِنَحِهِ بَدْرٌ تَمَّ وَرَوَى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبُهَمِ
وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمِ لُ لَيْثًا هَصُورًا وَبِحَرٍّ خَضَمَ
وَحُصَّ بِفَضْلِ النَّهْيِ وَالْحِكْمِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمُ ؟

- وَمُسْتَحْمِدٌ بِكَرِيمِ الْفَعَا
شَمَائِلُ تَهَجَّرُ عَنْهَا الشَّمولُ
على الرَّوضِ مِنْهَا رُوءَا يروقُ
أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلالِ
ولاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعِصِمًا
وجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ الْجَهَا
فَلَا سَامِيَ الطَّرْفِ إِلَّا أَذَلَّ
تَقَيَّلَ فِي الْعِزِّ مِنْ خَيْرِ
هُمْ نَعَسُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ
نَجْمُهُ هُدًى وَلَمْعَالِي بُرُوجُ
أَبَا بَكْرٍ اسْلَمَ عَلَى الْحَادِثَاتِ
أُنَادِيكَ عَنْ مِقَّةٍ عَهْدُهَا
وإِنْ يَعْذُنِي عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى
وَإِنِّي لِأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى
وَمُسْتَشْفِعٍ بِي بَشَرْتُهُ
وغيرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الدِّمَامِ
وَقَدِّمًا أَقْلَتَ مُسَيَّءِ الْعِثَارِ
وَعِنْدِي لِشُكْرِكَ نَظْمُ الْعُقُودِ
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ
- لِ عَفْوًا إِذَا مَا اللَّثِيمُ اسْتَدَمَّ
وَتُجْفَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّغَمِ
وَفِي الْمُسْكِ طِيبُ أَرِيحٍ يُشَمُّ
وَلَأَمَّ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمَّ
بَذَمَّةً أَبْلَجَ وَافِيَ الدَّمَمِ
دِ مَنْ دَانَ مِنْ دُونِهِ بِالظُّلَمِ^(١)
وَلَا شَامِخَ الْأَنْفِ إِلَّا رَغَمُ
مَقَاوِلَ عَزَّوَا جَمِيعِ الْأَمِّ
وَهُمْ ظَلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى اظْلَمَّ
وَأُسْدُ وَغَى وَالْعَوَالِي أَجَمُ
وَلَا زَلَّتْ مِنْ رَيْبِهَا فِي حَرَمِ
كَمَا وَشَّتِ الرَّوْضَ أَيْدِي الرَّهْمِ
فَحَظَّتْ أَحْسَنَ وَتَفْسَى ظَلَمِ
وَأُخْفِيَ لُبْعِدِكَ بَرْحَ الْأَلَمِ
عَلَى ثَقَّةٍ بِالنَّجَاحِ الْأَتَمِّ
إِذَا حُسْنُ ظَنِّي عَلَيْهِ أَذَمَّ
وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا اجْتَرَمَ
تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّالِي الثُّومُ
إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ^(٢) بُرْدَ الْهَرَمِ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ « فِي الدِّيوانِ ص ١٢٧ : « بِالصَّمِ »

(٢) هـ : « الْمَرْءِ »

فَعَشْنُ مُعَصِّمًا بِيَفَاعِ الشُّعُودِ وَدُمُ نَاعِمًا فِي ظِلَالِ النَّعَمِ
 وَلَا يَزَلُ^(١) الدَّهْرُ أَيَّامُهُ لَكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِي خَدَمٌ
 هَذَا — أَعَزَّ اللَّهُ الْحَاجِبَ — مَا اقْتَضَتْهُ الْقَرِيحَةُ مَعَ اقْتِضَائِهَا ، وَأَجَابَتْنَا
 بِهِ الْبَدِيهَةُ عِنْدَ اسْتِدْعَائِهَا ، وَالذَّهْنُ عَلِيلٌ ، وَالطَّبْعُ كَلِيلٌ ، وَالرَّوْيَةُ فَاسِدَةٌ ،
 وَسُوقُ الْأَدَبِ إِلَّا عِنْدَهُ كَاسِدَةٌ . وَلَوْ أُنِّي أُوتِيتُ فِي النَّثْرِ غَرَارَةَ عَمْرُو ،
 وَبِرَاعَةِ ابْنِ سَهْلٍ ، وَأُمِدِدْتُ فِي النَّظْمِ بِطَبْعِ الْبَحْثَرِيِّ ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِي ،
 لَمَا رَدَدْتُ إِلَى الْحَاجِبِ إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ ، وَلَا أَوْرَدْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَا صَدَرَ عَنْهُ ،
 وَلَمَّا أَنْفَذْتُ مَا أَنْفَذْتُ إِلَّا بَيْنَ أَمَلٍ يَبْسُطُ ، وَخَجَلٍ يَقْبِضُ ، فَرَأَيْهُ مَوْفَقًا فِي أَنْ
 يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الْأَمَلُ إِسْعَافًا ، وَمَا أَوْجَبَ الْخَجَلُ إِغْضَاءً ، لِيَأْتِيَ الْإِحْسَانُ مِنْ
 جِهَاتِهِ ، وَيَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ طُرْقَاتِهِ . وَمُرَاجَعَتُهُ لِي عَنْ كِتَابِي بَعْدَ كَرِيمٍ ،
 يَكُونُ كُحْلًا لِعَيْنِ الرِّضَا بِوَجْنَةِ الْقَبُولِ^(٢) ، أَقْفُ بِهِ مِنْ تَوَالِي النَّعَمِ عَلَيْهِ ،
 وَانْتِظَامِ الْأَحْوَالِ بِالصَّلَاحِ لَدَيْهِ ، عَلَى مَا تَبْتَهِجُ لَهُ نَفْسِي ، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عِقْدُ
 أُنْسَى يَدُّ عِنْدِي جَنَاهَا شَهْدٌ ، وَشَدَاهَا عَنَبٌ وَوَرْدٌ ، أَرْفُلُهَا^(٣) الشُّكْرُ الْجَزِيلُ ،
 وَأَتْبَعُهَا الثَّنَاءَ الْجَمِيلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَلْيُبَلِّغْ مِنِّي سَلَامًا يَهْدِي إِلَيْهِ نَفْسَهُ ، وَتَحِيَّةً
 آخِرُهَا عِنْدِي وَأَوَّلُهَا عِنْدَهُ .

وَكُتِبَ مِنْ قُرْطُبَةٍ إِلَى ابْنِ مَسْلَمَةَ بِإِسْبِيلِيَّةٍ قَبْلَ تَحْوِيلِهِ إِلَيْهَا :
 يَا سَيِّدِي ، وَأَرْفَعُ عُذْدِي . وَأَوَّلَ الذِّخَائِرِ فِي عُدْدِي ، وَأَخْطَرَ عِلْقِي
 مَلَأْتُ مِنْ اقْتِنَائِهِ يَدِي ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي عَيْشَةٍ بَارِدَةٍ الظَّلَالِ . وَنِعْمَةٌ سَابِغَةٌ

(٢) هـ : « القول »

(١) ب ، ت : « ولا تزل »

(٣) هـ : « ورداؤها »

الأذيال ، قد تقاصر الثناء عليك ، وتوالى الحديث الحسنُ عنك ، حتى حَلَّتْ محلَّ الأمانة ، وكنت موضعَ تقليدِ الوطر ، وإثباتِ الطَّوَيَّةِ . واللهُ يُمَتِّعُ^(١) بما حازَه لك من الخير ، ووفَّرَه عليك من طيبِ الذِّكر .

- في علمك — أعزَّكَ اللهُ — ما تقتضيه العطلة من إظلام الخاطر ، وصدا النَّفس ، ويَجْنِيهِ طُولُ المقام من إخلالِ الدِّيابِجة ، وإرخاصِ القَدَر . وقد آن أنْ أَجْتَنِيَ ثَمَرَةً من آدابِ أَطْلُتِ الاعتناء بها ، وأخلاقِ أَدْنَتْ رِيَاضَةَ الأنفُسِ عليها . ولَمَّا مَخَضْتُ الملوک ، وَجَدْتُ عَمِيدَهُم الَّذِي أَنَسَى السَّالِفَ قَبْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ الرَّاهِنَ مَعَهُ ، وَأَتَعَبَ الْغَابِرَ بَعْدَهُ ، الْحَاجِبَ نَخْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلَايَ ، وَمَنْ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ ، وَكَتَبَتْ أَعْدَاءَهُ ، لِمَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنْ سَنَاءِ الْهِمَمِ ، وَسَمَاحَةِ الشِّيمِ ، وَانْتِظَامِ أَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَاجْتِمَاعِ الْمُنَاقِبِ الَّتِي أَفْرَدَتْهُ مِنَ النَّظَرَاءِ ، وَأَعْلَنَتْهُ عَنْ مَرَاتِبِ الْأَكْفَاءِ ، فَرَأَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَهْمَلَ^(٢) لغيره نعمة ، أَوْ أَوْسَمَ مِمَّنْ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ ، أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِي مَمْلُوكَةً عَلَيْهِ ، عَرَضَ مَنْ لَا يُوَهِّلُهَا لِإِجَارَتِهِ إِلَّا بِالْإِسْتِجَارَةِ^(٣) ، وَلَا يَطْمَعُ لَهَا فِي قَبُولِهِ إِلَّا مَعَ الْمَسَاحَةِ^(٤) ، فَلَوْ كُنْتُ الْوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدِ بَرَاءَةِ نَظْمٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِلَاغَةَ نَثْرٍ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ طَيْبَ مَجَالَسَةٍ ، وَإِمْتِنَاعَ مُشَاهَدَةٍ ، ثُمَّ حَضَرْتُ مَجْلِسَهُ^(٥) الْعَالِي ، لَمَّا كُنْتُ بِسَعَةٍ^(٦) إِحَاطَتِهِ إِلَّا فِي جَانِبِ التَّقْصِيرِ ، وَتَحْتَ عُهُدَةِ النُّقْصَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْدِمَ فِي^(٧) نَجَابَةِ غَرْسِ الْيَدِ ، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ

(١) ب : « يعتمدك » (٢) و : « أحتمل »

(٣) و : « بإجارته إلا بالاستجارة » (٤) و : « بالمساحة »

(٥) ب ، ت : « بساطه » (٦) ب ، ت : « مع سعة »

(٧) ب ، ت : « منى »

المصنع^(١) ، من ولاية إخلاصها ، ونصيحة إخضها ، وشكر أجنيه الغض من زهراته ، وثناء أهدي إليه العطر من نفحاته ،^(٢) ففوّضت إليك^(٣) هذه السفارة ، واعتمدت بكليف النيابة لوجوه : منها حظوتك لديه ، ومكانتك منه^(٤) ، سوغك الله الموهبة في ذلك ، وأنهضك بأعباء الشكر لها . ومنها سرؤ مذهبك ، وكرم سجيّتك ، وصحة مشاركتك ، لمن لم يستوجبها استيجابي ، ولا استدعاها بمثل أسباني ، من تداني الجدار ، وتصافي السلف ، والانتفاء إلى أسرة الأدب . فإن وافقت السابحة^(٥) الإرادة ، فحظّ أقبل ، وعبد بلغ من قبول سيّده ما أمل ، ولم أقل : « عمرك الله » كما قيل في النجمين ، بل قلت : « وقد يجمع الله الشيتيين » ، وإن عاق حرمان عادته أن يعوق عن الظفر ، ويعترض دون الأمل ، فأعلمه — أيده الله — أنّي في حالي العطلة مع غيره والتصرف . ١٠

ويؤمّي الإيطان والتطوّف ، كالمهتدي بالنجم حين عدم ذكاء ، ومُتميّم الصعيد إذا^(٥) لم يجد الماء .

فإن أغش قومًا غيره أو أزروهم فكالوخش يذنيه من الأنس الحل والله يتولاه بالفسحة في عمره ، والإغلاء لأمره ، ويصرف الأقدار مع إشاره ، ويصرف وجوه التوفيق إلى اختياره . ١٥

ولك ياسيدي في انتدابك لما ندبتك له ، ما للساعي المنجّح من الشكر ، والمجتهد البالغ من العذر ، وملاك الأمر تقديم المراجعة بالإيجاب فأسكن إليها ، والجواب فأعتمد عليه ، وأهدي إليك ندى الغض الناضر من سلامي ، والأرج العاطر من تحيّي .

(١) م : « الصنع »

(٢) (٢-٢) م في م

(٣) في الأصول : « إليه » (٤) ، ت « السابحة » (٥) م : « حين »

وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رُقعةً يقول فيها :

أطال الله بقاء الحاجب نحر الدولة مولاي وسيدى ، ومولى المناقب الجلييلة ،
والضرائب النفيسة ، في أكمل ما تكفل^(١) له به من علو القدر ، ونفاذ الأمر ،
وخصه من النعم بأسبغها سربالا ، وأبردها ظلالة ، وأحمدتها مآلا .

- كنتُ — أغرَّ الله الحاجبَ مولاي — قد كتبتُ إلى الوزير أبي عامر
عبدِه بما أيقنتُ أنه انتهى إليه . واشتملَ عليه . فكتب الوزيرُ إلى بعض
أسبابه بما يقوم مقام المراجعة لي بما يرتفعُ عن^(٢) قدرى ، ولا تتسع له
ساحة شكرى ، لعلمى أنه عن الحاجب — أيده الله — صدر ، وبإذنه
نفذ ، والذي عدانى عن أن يكون الكتابُ في ذلك إلى الحاجب — أبقاه
الله — التأذُّبُ بأداب خُصفاء العبيد في الإجلال والإعظام . وترك التبسط
والإقدام . وقلما استغنت أوائلُ مطالب الأتباع لحضرة^(٣) الملوك عن^(٤) وسائل
تمهِّد لها ، وتعتمد أوقات الإمكان بها ، لأنى اتخذتُ إلى الحاجب — أدام
الله علوه —^(٥) غير سيادته ذريعة ، أو التمسْتُ إليه إلا من نفاسة نفسه
شفاعة . وأنى معدِّلٌ لثلى عن تقيؤ ظلاله ، والاعتماد بحبله . وصناعة الأدب
كاسدة إلا عليه . وطريق الأمل موحشة إلا إليه ! ولم^(٦) يدعني^(٥) إلى استطلاع
ما قبله شك في كرمه . ولا سوء ظنٍ بساحة شيمه . بل لزوم الطريقة في
التوطئة للمطلب . والتدرُّج إلى إحراز الأرب . وحسبى أن أُملى قد ارتاد
الجناب الرَّحْب ، والمشرَب العذب ، ولعلَّ الخطوط ستُكشَف ، والنوائب

(٢) ب : « مما يرتفع من »

(١) ب ، ت : « ما تكفل »

(٤) في الأصول : « من »

(٣) ب ، ت : « بحضرة »

(٦) في الأصول : « ولا »

(٥ — ٥) هـ في ب ، ت

سُتُصَرَفَ ، إِلَى أَنْ أُبْلَغَ ^(١) إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِ الْأَمَلِ مِنْ مَشَاهِدَةِ حَضْرَتِهِ الْعَلِيِّ ،
وَالنَّظَرِ إِلَى غُرَّتِهِ الزَّهْرَاءِ ، فَوَاللَّهِ مَا يَنْصَرِفُ فَيُفَكِّرُ ، وَلَا يَنْصَرِمُ حِينَ مِنْ
عُمُرِي إِلَّا فِي الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَتَصَوُّرِ ^(٢) الْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَا
أَقْدَمُ الْإِعْتِزَارَ مِنْ مَهَابَةِ تَسْتَمْلِكُ جَنَانِي ، وَحَصَرِ يَكَادُ يَقْطَعُ فِي أَوَّلِ الْمَشَافَهَةِ
لِسَانِي ، فَإِنْ حَدَّثَ ذَلِكَ فَعُذِرِي عُذْرُ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ، وَقَدْ انْقَطَعَ بَيْنَ
يَدَيِ الرَّشِيدِ فَقَالَ ^(٣) : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ فَرَاهَةِ الْعَبْدِ أَنْ تَمْلِكَ قَلْبَهُ
مَهَابَةً سَيِّدَهُ .

وَسُيُفَضِّي ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ إِلَى مَا يَسْتَجِيزُهُ الْحَاجِبُ مُوَلَايَ مِنْ إِمْتِنَاعٍ ،
وَيَقْبَلُهُ مِنْ شَاهِدٍ ، وَيَسْتَطْرِفُهُ مِنْ أَدَبٍ ، وَيَسْتَطْلِفُهُ ^(٤) مِنْ إِجْمَالِ طَلَبٍ ،
وَجَمَالِ مَذْهَبٍ . كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي سَأَصِلُ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ ،
وَسِنَاءِ مَخْبَرٍ ، وَرَفْعَةِ شَانٍ ، وَعِظَمِ سُلْطَانٍ . وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ أَنْ ^(٥) تُهَيَّيَ لِي مِنْ
الْحِظِّ مَا أُثْبِتُ بِهِ مَا ادَّعَيْتُهُ لِنَفْسِي مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ . وَانْجِزْ مَعَهُ مَا قَدِّمْتُ
عَنْهَا مِنْ هَذِهِ الْعِدَاتِ ، فَحَوَّلُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ كَفِيلًا . وَهُوَ حُسْبِي وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ . زَادَ اللَّهُ الْحَاجِبَ مُوَلَايَ مِنْ سَنَى قِسْمِهِ ، وَهَنَى نِعْمِهِ ، وَبَلَّغَهُ
النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ ، وَصَرَفَ بَعِزَّتِهِ ^(٦) غَيْرَ الزَّمَانِ عَنْ كَمَالِهِ ^(٦) .

(٢) هـ فِي وَه

(١) وَه : « أَبْعَدُ »

(٣) ب ، ت : « فَقَالَ لَهُ »

(٥) هـ فِي ب ، ت

(٤) وَه : « يَسْتَطْلِعُهُ »

(٦-٦) هـ فِي وَه

وكتب إليه بعد أن صدرَ عن حضرته إلى قرطبة رُقعةً
يقولُ فيها :

أطالَ اللهُ بقاءَ مولاي للنعمِ بطوّقها ، ^(١) والآمالِ يصدّقها ^(١) ، والمَنِّ
يُملّدها ، والأحرارِ يستعبدُها ، يعلمُ الذي أسأله إعزازَ مولاي ، وإعلاءَ أمره ،
وصِلّةَ تأييده ، وتمكينَ نصره ، أني لم أزلُ منذُ فارقتُ حضرته الجليلة ،
حُضرةَ المجدِ والسيادة ، ومحلَّ الإقبالِ والسَّعادة ، لهيجَ اللسانِ بما أجناني
من ثمارِ الحكمة والنَّعمة ، وأفادني من عُقدِ الأدبِ والنَّشبِ ، فمن كبدِ
حاسدٍ تصدَّعت ، وأنفاسٍ مُنافسٍ تقطَّعت ، وناعمِ البالِ كسفتُ بالله ، ومُتمنٍّ
لِحالي طالما تمَنيتُ حاله ، وقلَّ لِمَنْ ^(٢) نال أدنى مكانةٍ منه ، وورقٍ أوَّلِ
درجةٍ من الخصوصِ به ، أن تحسُدَه الكواكبُ في إشراقها ، وتنحسِدَ إليه
الأمانيُّ من أطرافها ، ^(٣) واللهُ يُمَيِّقُه ^(٣) لعبيده الذين أنا آخرُهم في الخدمة ،
وأوَّلُهم في شُكرِ النِّعمة ، ويرفعُ من همِّهم ما انخفض ، ويسبُطُ من آمالهم
ما انقبض ، ولا يُعِدُّهم التَّقلُّبُ في نعيمه ^(٤) ، والاعتلاقُ بأسبابِ ذِمِّه ^(٥) ،
بمجدِهِ وكرمه .

وكانت من مولاي — أغرّه اللهُ — إشارةً بل عبارةً أعددتُها طليعةً
لسُعودِ تتوafى ^(٦) طلقاً ، ومقدمةً لمسرّاتٍ تتوالى نسقاً ^(٧) . فلما لحقَ الجسمُ

(٢) هـ : « قلما »

(١-١) هـ في ب

(٤) هـ : « نعمته »

(٣-٣) هـ في هـ

(٦) ب ، ت : « ستوafى »

(٥) هـ : « ذمته »

(٧) ب ، ت : « ستوafى سبقاً »

بعد تركه النفس لديه . والبراءة منها ^(١) إليه . بالوطن الذي أسلاني عنه ،
وأُسْنِي لِي الْعِوَضَ مِنْهُ ، تَأْتَيْتُ مِنْ طَاعَتِهِ الْمُقْتَرَنَةِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي نَفْسِي مَمْلُوكَتِهِ ،
^(٢) لِمَا أَنَا مَهْنَأٌ بِهِ ، مَنَافَسُهُ فِيهِ ، فَسَاعَفَتِ الْمَآرِبُ . وَأَسْمَحَتِ الْمَطَالِبُ ، وَلَمْ
يَرِنِي تَعَذُّرُ وَجْهِ ^(٣) حَاوَلْتُهُ . وَلَا عِدَانِي تَيْشُرُ أَمْرِي تَنَاوَلْتُهُ . وَلَمْ تَبْقَ عَلَيَّ
تَسَوُّغٌ بِاعْتِرَاضِهَا الْاعْتِدَارَ إِلَّا مَا يَتَرَاخَى ^(٤) رِيثَمَا يَعَاوِدُ أَمْرُهُ ، وَيَتَجَدَّدُ فِي
الْحَرَكَةِ إِذْنُهُ . وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ لَأَنَّ الْإِذْنَ بَعْدَ عَهْدِهِ ^(٥) ، وَأَنَّ الْمِيعَادَ لَمْ يَحْكَمْ عَقْدُهُ ،
بَلْ تَجَنَّبْتُ أَنْ أُدِلَّ بِتَرْكِ الْمَشَاوَرَةِ ، أَوْ أَخِلَّ بِرِسْمِ الْمُوَاسَرَةِ ^(٦) . فَلَوْلَايَ الطَّوْلُ
فِي أَمْرِ الْوَاسِطَةِ عَبْدِهِ بِمُرَاجَعَةٍ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا ، وَأَجْتَهِدُ فِي الْإِتِّهَاءِ إِلَيْهَا . وَاللَّهُ
يُبَلِّغُنِي الْأَمَلَ مِنْ وَقْفَةٍ بِحَضْرَتِهِ . وَنَظَرَةٍ إِلَى غُرَّتِهِ ، وَتَقْبِيلٍ لِرَاحَتِهِ ، وَتَصَرُّفٍ
فِي سَاحَتِهِ . فَهُوَ الْمَالِكُ لَذَلِكَ ، وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ ^(٧) .

وله ^(٨) من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها ، ولم يذكر
منها إلا قطرة من وابل ، أو نَفْثَةً مِنْ سِحْرِ بَابِلَ ، وَهَا أَنَا مُنْتَبِئَةٌ عَلَى تَوَالِيهَا ،
إِشَادَةً بِحُسْنِ مَعَارِنِهَا ، وَاسْتِفَادَةً مِنْ سَنِي آدَابِهِ فِيهَا ، وَهِيَ :
يَا سَيِّدِي الَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُودِي لِأَبْدِي ، وَأَخَصَّ جُنِّي مِنْ
زَمَنِي ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الْأَمَالِ ، أَبْدَأُ مِنْ ^(٩)
كِتَابِي إِلَيْكَ ، بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْخَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتُ ، مِمَّا بَلَغَنِي أَنَّكَ
صَدَرُ اللَّائِمِينَ لِي عَلَيْهِ . وَأَوَّلُ الْمُسَفِّهِينَ لِرَأْيِي فِيهِ ، وَمِنْ أُمَثَالِهِمْ وَيْلُ لِلشَّجِيِّ

(١) ب ، ت : « منه » (٢-٢) هـ في ب

(٣) ت : « ما يراح » (٤-٤) هـ في ب (٥) هـ : « القادر »

(٦) تقدم ذكر هذه الرسالة موجزة في ص ٣٠٥ ، ويظهر من قوله : « وله من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها » أن غير المؤلف أضافها إلى الكتاب ، وقد أثبتناها في المتن لورودها كاملة في معظم النسخ . (٧) هـ : « جرى »

مَنْ الْخَلِيّ ، وَهَانَ عَلَى الْأَمَلَسِ مَا لَاقَى ^(١) الدَّيْرَ ، وَأَوْسَطُهُ بِمُعَاتِبَتِكَ عَلَى
مَا كَانَ مِنْ انفِصَالِكَ عَنِّي ، وَبِرَاءَتِكَ أَمَدَ الْمَحْنَةِ مِنِّي ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فِي
وَرْدٍ ^(٢) وَلَا صَدْرٍ مِنْ مُشَارَكَتِي فِيهَا ، وَلَا كَانَتْ لَكَ نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ فِي
مُظَاهَرَتِكَ لِي عَلَيْهَا ، مَعَ الْقُدْرَةِ بِكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ، وَتَذْلِيلِ صَغِيرِهَا ،
وَتَلْيِينِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيبِ بَعِيدِهَا

فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ وَمَا ذَاكَ لُبْخَلِي عَلَيْكَ بِالْإِغْضَاءِ ^(٣)
أَنْتَ عَيْنِي وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الْأَقْدَاءِ
وَإِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ . وَلِلْمَثَلِ السَّائِرُ : « وَيَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ »
وَقَالَ الْأَوَّلُ :

أَبْلُغْ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّي مُغْلَغَلَةً ۖ وَفِي الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامٍ ١٠
وَأَخْتِمَهُ بِتَكْلِيفِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ۖ وَالِدَاعِي إِلَى الْخِطَابِ ، عَسَاكَ
أَنْ تَتَلَفَى عَوْدًا مَا ضَيِّقْتَ بَدْءًا ۖ وَتَهْتَبِلَ آخِرًا مَا أَغْلَقْتَ أَوَّلًا ، فَيَعُودَ غَيْثُهُ
عَلَى مَا أَفْسَدَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي ذَلِكَ كِدَابِغَةً وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ ۖ فَهَنْفَعَةُ الْقُوتِ
قَبْلَ الْعَطَبِ

وَحَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ وَلَيْسَ بَأْسٌ تَتَّبَعُهُ اتِّبَاعًا ١٥
فِي عِلْمِكَ أَنَّ سُجُنْتَ مُغَالِبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى
عَنْ اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مُضِلٌّ عَنْ ^(٤) سَبِيلِهِ إِذْ يَقُولُ : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٥) . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

(١) ب ، ت : « يلقى »

(٢) ب : « مورد »

(٣) راجع ديوان ابن الرومي ص ٣٨

(٤) هـ : « يضل »

(٥) راجع سورة ٣٨ : ٢٦

إذا أنت لم تعصِ الهوى فادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال
دون تأن تدرك بعض الحاجة به ، أو استنبات تؤمن موقعة الزلل معه ، بل
أوردّها سعد وسعد مشتمل^(١) ما هكذا تورّد ياسعد الإبل^(١)
وشهد ابن العطار العشار العارى عن^(٢) الثقة والأمانة ، البعيد من الرعية
والصيانة ، الناصر لأذنيه طمعا ، الآكل بيديه جشعا ، فكان القول ما قالت
حذام . ولم يقتصر على أن الحق بالشهود وهو وأو عمرو فيهم ، ونون الجمع
المضاف معهم ، دون أن يلحق بخزيمة ذى الشهادتين ، وينوب منفردا عن اثنين :
وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وليتي مع من لا يحلّ قوله^(٣) على ، أعذر في شهادته إلى ، ولم يقتصر الحشف
مع سوء السكيلة ، وتستصف لى الغدة^(٤) إلى الموت في بيت سألوية
خطتا خسف لم أر النجاء منهما إلا أن ركبതു الحولى الأشهب
ورأيت خراسان مكان الشوق أوهى أقرب^(٥) ، وكان المتولى سجنى بعد شهر
من إنفاذه ، له مجلس حضره فقهاء الحضرة ، ومن أعلم بسيماهم ، وجرى في
غشيان الحكام مجراهم ، فذكر له أنه اتهمنى بالمغيب على عهد المتوفى مولاى
كان ، تقع الله صداه ، وبلّ ثراه ، وثبت عنده مع ذلك أنى ممن تغلقه التهم
ولا ترتفع عنه الظنن . فكلمهم أفتى بالإعذار إلى ، فيما شهد به من ذلك على .
ثم سجنى إن لم أت بمذفع . أوأصدع من الحجة بمقنع ؛ فاحتاط واجتهد ، وتحرّى
واقصد ، وصالحنى من هذه الفتيا على النصف ، بتأخير الإعذار ، وتقديم

(٢) ب ، ت : « من »

(١-١) هـ فى ق

(٤) ب ، ت : « العدة »

(٣) ب ، ت : « قبوله »

(٥) ب ، ت : « أو أقرب »

السجن ، والصلحُ جائزٌ بينَ المسلمين . ثم أظهرتُ إليه عقدًا كانَ المتوفى — قدسَ الله روحه ونورَ ضريحه — قد أشهدَ فيه أن لا مالَ له ، وأنَّ جميعَ ما تحيطُ به الدارُ التي تُوفى بُعيدَ هذا الإِشهادِ فيها إنما هو للغانية^(١) التي في عصمتِهِ حاشا دقائِقَ بَيِّنِها ، ومحقراتِ عَيْنِها . ومعلومٌ أنَّ مَنْ أشهدَ بهذا على نفسه ، وتقيَّدَ إلى مثله من لفظه ، فمُحالٌ أن يُخلفَ عهدًا ، أو يهلكَ عَنْ وصِيَّة . وسألته الشُّورى فيما أثبتته ٥ من هذا العقد ، فلم يجِبْنِي إلى ذلك . ولو لم تكن الشُّورى من أدبِ الله إذ يقول : « وشاورْهُمْ في الأمرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »^(٢) لوجبَ أن يعلمَ أنها لقاحُ العقل . ورأى الصَّواب ، وأنَّ للمُشاوِرِ إحدَى الحسِنَيْنِ : صوابًا يفوزُ بمحمدته ، أو خطأً يُشاركُ في مذمته . قال الشاعر :

ولا تجعلِ الشُّورى عليكَ غِضاةً فإنَّ الخِوَافِي عُدَّةٌ للقوادمِ ١٠
قد قرَّعتْ له العصا ، ونُبِّهَ على الذي دَعَوْتُهُ إليه ، لا يسوغُ لي دفعه عنه .
ولا يجوزُ منَعِي^(٣) منه ، فحينئذٍ علَّاني بمواعيدَ * كانت مَواعيدُ عُروقٍ لها مثلاً * ،
■ إذا قطعنَ علماً بدا علمٌ * . وكان آخرُها الذي نُسِخَ به ما قبله أن تُدرَجَ
الشُّورى إلى إبقاءِ الشُّورى للورثة . فتوَيْتُ أرقبُ هذا الحَيْنَ وأرجو أن يحينَ ،
* كما يرجو أخو السَّنةِ الربيعا * ، و * كما في بطونِ الحامِلاتِ رجاء * ١٥

فكنتُ وإيَّاهُ سحابةً مُمحلٍ رجاها فلما جاوزتهُ استهلتُ

وفي فصل منها :

ولم أقصَّ عليكِ يا سَيِّدِي مِمَّا اجتلبتُهُ إِلَّا ما شُهِرَ شُهْرَةً الاسمِ . وعُرفَ

(١) ب : « للغامة »

(٢) راجع سورة ٣ : ١٥٩

(٣) في النسخ : « معنى » ، والتصحيح عن الديوان ص ٣٦٣

معرفة النسب ، و « ما يوم حليمة بيسر » . وكنت أول حبسِي قد وضعت من
السجن في موضع جرت العادة بوضع مستورى الناس وذوى الهيئات منهم
فيه ، وفي الشر خيار ، وبعضه أهون من بعض . فمُنيت من مطالبة بعض مَنْ
يأتمر الناظرُونَ في السجن له ، ويسمعُونَ منه ، بما اقتضى نقلي إلى حيث
الجنّة المفسدون ، واللصوص المقيدون . وشكوت ذلك إلى الحاكم الحابس لي
في اليوم الذي مضى ذكره بمشهد مَنْ تقدّم وصفه ، فانتفى من الرضا به ،
وأظهر الامتناع منه . وتقدّم إلى الموكل بالسجن في اختيار مجلس أبان فيه
مَنْ لا تليق بي ملابسته . وأنتبذ عمن لا تُرضى لي مجالسته . ثم لم ألبث أن
أحضره مجلس نظره ، وأمر بتأديبه على امثاله في ما أمره به ، وانهائه إلى
ما حدّ له . واستأنف العهد في التضييق عليّ ، ومنع من اعتاد صلاتي من الوصول
إليّ . فأصعدتُ إلى غرفة في السجن اقنعني بها مع خساستها ، وأسلائي عن
المصيبة بالكون فيها على مضاضتها . انفرادي من لفيف الأخلاط ، ومن ضمّه
السجن من السفلة والشقاط . فحين استوائ إليّ عهد بحطّي إليهم وخطي بهم ،
ووضعي بينهم . فنقلت في نفسي ثلاث نقل على أقبح النصب ، وأسوأ
الرتب . ودخل إليّ في هذه الحال مَنْ أبلغني عن ابن أخى الحكم رسالة
جامعة من السبّ الفاحش لفنون ، مشتملة من الوعيد المرهب على ضروب ،
فلو ذات سوارٍ لطمتني !

وإنك لم يفخرْ عليك كفاخر ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مُغلبٍ
فلم أستطع صبراً . وعلمتُ أنّي قد أبلّيتُ عُذراً ، ولم يبقَ إلّا أن يعذرنى لبئد
وكاد ، ورأيتُ أن العاجز من لا يستبدّ ، فالمرء يعجزُ لا المحالة ^(١) ، ولم أستعجزُ

(١) هـ : « لا محالة »

أَنْ أكونَ ثَالِثَ الْأَذَلِّينَ : الْعَبْرِ وَالْوَتِدِ . وَذَكَرْتُ أَنْ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ ■
والهَرَبَ مِمَّا لَا يَطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ »^(١) ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

لَا عَارَ لَا عَارَ فِي الْفِرَارِ فَقَدْ فَرَّ نَبِيُّ الْهَدَى إِلَى الْغَارِ

وَنَظَرْتُ فِي مَفَارِقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحَبَّةِ ، فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ إِيجَاشَ نَفْسِي ،
يَايُنَاسِ أَهْلِي ، وَقَطْعَهَا فِي صِلَةِ وَطَنِي ، غَبْنٌ فِي الرَّأْيِ ، وَخَوَرٌ فِي الْعِزِّ ، وَوَجَدْتُ
الْحَرَّ يَنَامُ عَلَى الثُّكُلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الثَّلِّ ، وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
الْبِلَادِ نَسَبٌ نَغِيرُهَا مَا حَمَلَكَ .

* وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ ■

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ :

١٠

أَرَى النَّاسَ أَحَدُوثةً فَكُوْنِي حَدِيثًا حَسَنًا
كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى وَمَا قَدْ قَضَى لَمْ يَكُنْ
إِذَا وَطَنُ رَأْبِي فَكُلُّ مَكَانٍ وَطَنٌ

وَلَمْ أَسْتَغْرِبْ أَنْ أَسَامَ مِثْلَ هَذَا الْخَسْفِ فِي مَسْقَطِ رَأْسِي ، وَمَعْقُ تَمَائِمِي ، وَأَوَّلِ
أَرْضٍ مَسَّ تَرَابُهَا جِلْدِي . فَقَدِيمًا ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ فِي وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ الْعِلْقُ
الْغَبِيطُ فِي مَعْدِنِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ :

أَضِيعُ فِي مَعْشَرِي وَكَمْ بَلَدٍ يُعَدُّ عَوْدُ الْكِبَاءِ مِنْ حَاطَبِهِ
فَاسْتَخَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ■ وَاضَحَ وَجْهِ الْعُذْرِ ، ثَابِتَ قَدَمِ الْحِجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ
غَضَّ عَيْنَ الْهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ . وَاللَّهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْيِي^(٢) ،

(١) رَاجِعْ سُورَةَ ٢٦ : ٢١ (٢) وَه : « بَرَأْيِ »

وَيُقَرَّبُ غَايَةَ الذَّجَاحِ عَلَى سَعْيِي ، حَسْبَمَا ^(١) فِي عِلْمِهِ أَنِّي مَظْلُومٌ ، مَبْغِيٌّ عَلَيْهِ ،
مَنْسُوبٌ مَالَهُ آتِيهِ إِلَيَّ ، فَهُوَ الْمُؤَمَّلُ بِذَلِكَ وَالْمَرْجُوُّ لَهُ .

وَلَعَمْرُكَ يَا سَيِّدِي إِنَّ سَاحَةَ الْعُذْرِ لَتَضِيقُ عَنْكَ ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ فِي
إِسْلَامِكَ تَلْمِيزَكَ ^(٢) وَابْنَ جَارِكَ وَشَيْخِكَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُتَوَفِّرًا عَلَيْهِ ، أَخَذًا عَنْهُ ،
مُقْتَبِسًا مِنْهُ ، مَعَ إِكْثَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا ، وَالْاعْتِدَادِ بِهِ ، وَادِّعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ .
وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ : « انْصُرْ أَخَاكَ
ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » ، فَالمرءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ ، وَلَا أَقَلٌّ مِنْ ^(٣) اسْتِعْمَالِ الْجَدِّ .
وَاسْتِغْرَاقِ الْجَهْدِ .

* فَمُبْلَغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ *

* وَلَا لَوْمْ فِي أَمْرِي إِذَا بَلَغَ الْعُذْرُ *

١٠

وَلَكِنْ مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلَّهُ ؟ وَأَيْنَ الشَّرِيكَ فِي الْمُرِّ أَيْنَا ؟ وَبَعْدَ مَا مَرَّ بِي فَالْقَضَاءُ
غَالِبٌ ، وَمَا حُمِّ وَاقِعٌ ، وَلَا حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ، وَقَدْ سَبَقَ السِّيفُ الْعَدْلَ ، وَتَقَدَّمَ
مِنْ فِعْلِي مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ ، وَأَنَا الْآنَ بِحَيْثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الْأَمْنِ ، إِلَّا أَنَّ رِزًّا مِنْ
وَعِيدٍ سَقَطَ إِلَى بَآنِ السَّعْيِ لَمْ يَرْتَفِعْ ، وَأَنَّ مَادَةَ الْبَغْيِ لَمْ تَنْقَطِعْ ، وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ
مَسْتَحْكِمَةٌ فِي اسْتِرْجَاعِي مِنَ الْأَفْقِ الَّذِي أُحِلُّ بِهِ ، وَالْجَنَابِ الَّذِي أُحْطُ فِيهِ .

١٥

وَأَكْدَ ذَلِكَ فِي ظَنِّي مَا كَانَ أَشَارَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ أُوِي إِلَى الثِّقَةِ بَعْدِهِ ،
وَأَبْنَى عَلَى الْوَثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالْأَثَرَةِ عِنْدَ الْحُكْمِ الْمَذْكُورِ ،
وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ . وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى تَأَخُّرِهِ عَنْ مُظَافَرَتِي ، وَتَقْصِيرِهِ فِي مُوَازَرَتِي .
فَاعْتَذَرَ بَأَنَّ ذَلِكَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، وَلَا مَنْفَعَةَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ ، إِذَا الْحَرَضُ عَلَى
لَا تَتَأْتِي مَعَارَضَتُهُ ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الْاسْتِبْدَادُ عَلَيْهِ ؛ وَأَنَّهُ وَصَفَنِي بِالْبُذَاءِ ، وَعَابَنِي

٢٠

(١) و : « حسبما ذلك » (٢) ب ، ت : « لتلميزك » (٣) و : « مع »

بالتسلط على الأعراض ، ووالله ما استجزت هذا بعد أن هتك من سترى
ما هتك ، واتهك من حرماي ما اتهك ، إذ كنت أقول معذورا ، وأنفث
مصدورا ، فكيف قبل ذلك إذ لم يحدث سبب ، ولا عرض موجب ؟
■ وما لي وهذا المجتنى ^(١) ثم ماليا ؟ * ، و « ستكتب شهادتهم ويسئلون ^(٢) » .

ولست هذه ببيكر من التأمم التي دخل بها بين العصا وإحائها

وإني رأيت غواة الرجا ل لا يتركون أديما صحيحا

ومن يأذن إلى الواشين تسلق مسامعه بالسنة حديد ^(٣)

ويا سيدي :

لو بغير الماء خلق شرق كنت كالفصان بالماء اعتصاري

ووالله ما توهمت أني أوتي من زعم أني أثبت منه ، مع اتصالي به ، وانهطاعي ١٠
إليه ، واتسامي بالتأميل له ، والتعويل عليه ، * إن المعارف في أهل النهي ذم * ،
ولكن

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد

لقد كان من محاسن الشيم ، وشروط المروءة والكرم ، أن يهتب لي ما أنكر
لما عرف ، ويفر ما سخط لما رضى ^(٤) ، ويدفع بالتي هي أحسن ، ويؤثر ١٥
الذي هو أجمل وأرفق . ويتوقف عندما نص عليه ^(٥) من سعاية ، وزف إليه
من وشاية ؛ فإن كان باطلا ألغاه ، وفصح الخبر المتقرب به وأقصاه ، وإن كان
حقا صبر صبر الحليم ، وأغضى إغضاء الكريم ، وقيل إنابة المعتب ، واقتصد

(١) ب ، ت : ■ وإهداء الجني ■ — هـ : « وهذا الجني ■

(٢) سورة ٤٣ : ١٩ (٣) راجع ديوان أبي تمام ص ٧٥

(٤) ب ، ت : « أسخط لما أَرْضَى » (٥) هـ : « له »

في مؤاخذه المذنب ، فقدّم التوقيف قبل التثقيف ، والتأنيب قبل التأديب ،
* فإن الرفق بالجاني عتاب * ، و * الحرُّ يلجى والعصا للعبد * .

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب؟ (١)
وهو يرى ويسمع أن بالحضرة قوما لا يحصرهم العد ، تحتمل سقطاتهم ، وتغفر
هفواتهم ، وتقال عثراتهم

وما شرّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحيناً
وما أعلم أنهم يدلون بوسيلة لا أشاركم فيها ، ولا يمتنون بذريعة ينفردون
دوني بها

هو الجد حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيّداً (٢)
فإن كانت مساحتهم لسابقة سلفت فقد أحرزت منها الخطّ الأعلى ، أو لكال
أدب فقد ضربت فيه بالقذح المعلى ، أو للطف تودد فما قصرت في الاجتهاد ،
غير أنني حرمت التوفيق

والأمر لله رب مجتهد ما خاب إلا لأنه جاهد !

فإن كان ذنبي أن أحسن مطلبي أساء ففي سوء القضاء لي العذر (٣)
والله لقد أظهرت مدحه واضمرت نصحه ، وتممت على الصّاعية له ، وجريت
ملء العنان إلى الاعتلاق به ، أسقيه السائغ من مياه ودّي ، وأكسوه (٤)
السابغ من برود حمدي ، وأجنيه الغص من ثمرات شكرى ، وأهدى إليه
العطر من نفحات ذكرى ، لا يفيدني التحبب إليه إلا ضياعاً لديه .
ولا يزيدني التقرب منه إلا بعداً عنه

(١) راجع ديوان النابعة في العقد الثمين ص

(٢) راجع ديوان المتنبي (ج ١ ص ١٩٠)

(٣) راجع ديوان أبي تمام ص ٤٢٤ (٤) م : « وأكسبه »

كَأَنِّي أَسْتَدْنِي بِهِ ابْنَ حَنْبِيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا
والذي أَحَبَّهُ مِنْكَ ، وَأَثِقُ فِي الْمَسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ ، لِقَاؤُهُ مُجَارِيًا ذِكْرِي ، مَفَاوِضًا
فِي أَمْرِي ، مُعْلِمًا لَهُ بِمَا لَا يَذْهَبُ عَنْهُ مِنْ أَنَّ الَّذِي اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي غَايَةً مَا يُسِيءُ
الْعُرُوبَةَ ، وَيُسَاءُ الْمَوْلَى مِنْهُ ، فَالْجَلَاءُ أَخُ الْقَتْلِ ، وَالْغُرْبَةُ أَحَدُ السَّبَائِنِ ۖ
قال الله تعالى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ ٥
دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » (١) ، وقال الشاعر :

وَمَنْ يَغْتَرِبُ عَنْ دَارِهِ لَا [يَزَلْ] يَرَى (٢) مَصَارِعَ مَظْلُومٍ بِحَجْرًا وَمَسْحَبًا (٣)
وَتَدْفِنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسِيئُ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا
وقد هَجَرْتُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ ظَنُّرِي ، وَالِدَارَ الَّتِي كَانَتْ مَهْدِي (٤) ، وَغَبْتُ
عَنْ أُمِّ أَنَا وَاحِدُهَا ، تَمْتَدُّ أَنْفَاسُهَا شَوْقًا إِلَى (٥) وَتُقَضُّ أَجْفَانُهَا حُزْنًا عَلَى (٥) ،
وَاللَّهُ يَرَى بُكَاءَهَا ۖ وَيَسْمَعُ لِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي نِدَاءَهَا ، فَلَا سِتْجَابَةَ مُضْمُونَةٍ
لِلْمُخْلِصِ وَالْمَظْلُومِ . وَقَدْ حَمَلْتُ السَّمْتَيْنِ ، وَاسْتَوْجَبْتُ الصَّقَتَيْنِ ۖ وَلَتَكُنْ بُعَيْتُكَ
الَّتِي تَذْخَرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةٌ تَأْمِينٍ ، وَإِشَارَةٌ إِلَى تَأْنِيسٍ وَتَسْكِينٍ ، تُرَاجِعُنِي بِهَا
فَأُظْهِرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا ، وَأُلْقِي الْعَصَا مُطْمَئِنًّا ، فَإِنْ وَجَدْتَ حَزَّ الشَّفَرَةِ فَالْعَوَانُ
لَا تَعْلَمُ الْخِمْرَةَ ، فَإِنْ أَشْبَهْتَ اللَّيْلَةَ الْبَارِحَةَ أَعْلَمْتَنِي بِذَلِكَ ، فَطَلَبْتُ الْأَمْنَ فِي ١٥
مِظَانِهِ ، وَتَقَرَّرْتُ السَّلَامَةَ فِي مَوَاطِنِهَا ۖ وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ، « كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » (٦) ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ

(١) سورة ٤ : ٦٦

(٢) هـ : « لَا يَرَى لَهُ » — راجع رسائل ابن زيدون في ديوانه ص ٣٦٩

(٣) ب ، ت : « وَمَحْسَبًا » (٤) هـ : « مَهَادِي »

(٥ — ٥) هـ فِي ب ، ت (٦) راجع سورة ٤ : ٧٠

ولكلِّ حالٍ مُعَقَّبٌ ولربَّما أَجْلَى لَكَ المَكْرُوهُ عما تَحَمَّدُ
وَلَكَ يَا سَيِّدِي فِي انتِدَابِكَ لِمَا نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ ؛ وَالْأَيَادِي فَرُوضٌ^(١) ،
وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعٌ « لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ » ، وَالتَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ وَالسَّلَامُ
الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِي .

ومما يتعلَّقُ بِذِكْرِ وَفَاةِ ذِي الْوِزَارَتَيْنِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ

فصلٌ من تَارِيخِ الشَّيْخِ أَبِي مَرْوَانَ ابْنَ حَيَّانَ ، رَأَيْتُ إِثْبَاتَهُ لِنُبْلِ
مَسَاقِهِ « وَحُسْنِ اتِّسَاقِهِ » يَقُولُ فِيهِ :

وَفِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ لثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةٌ اِثْنَتَيْنِ وَسَتَيْنِ
وَأَرْبَعَانِ « سَارَ الْحَاجِبُ سِرَاجُ الدَّوْلَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ إِلَى إِشْبِيلِيَّةِ الْحَضْرَةِ الْأَثِيرَةِ
لِمَطَالَعَتِهَا وَتَأْنِيسِ أَهْلِهَا مِنْ وَحْشَةٍ خَاصَرَتْ عَامَّتَهُمْ » مِنْ أَجْلِ عُذْوَانِ رَجُلٍ
مِنْهُمْ عَلَى يَهُودِيٍّ ، جَاءَ لَامِرَجَةَ السُّوقِ عِنْدَهُمْ « مَارَاهُ^(٢) » فِي بَعْضِ الْأُمُرِ ، فَزَعَمَ
أَنَّهُ سَبَّ الشَّرِيعَةَ ، فَبَطَشَ بِهِ الْمُسْلِمُ وَسَطَّ السُّوقَ وَجَرَحَهُ وَحَرَّكَ عَلَيْهِ الْعَامَّةَ ،
فَقَبِضَ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْمَدِينَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَاعْتَقَلَهُ ، فَكَانَ لِعَامَّةِ النَّاسِ فِي
إِنْكَارِ حَبْسِهِ كَلَامٌ وَإِكْثَارُ خَشْيٍ وَبَالَهُ^(٣) ، نَخَاطِبَ السُّلْطَانِ بِقَرْطَبَةِ يُعْرِفُهُ^(٤)
مَا كَانَ مِنْهُ وَيَسْتَأْمِرُهُ فِي شَأْنِهِ « فَعَجَّلَ إِنْفَازَ وَلِيِّهِ الْحَاجِبِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ
إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ مِنْ نُجَبَاةِ عُلَمَائِهِ وَوُجُوهِ رِجَالِهِ » لِمُشَارَفَةِ الْقِصَّةِ ،
وَالِاحْتِيَاظِ عَلَى الْعَامَّةِ « فَغَدَوْا مَعَهُ وَسَطَ هَذَا الْيَوْمِ ، وَأَنْفَذَ مَعَهُ ذَا الْوِزَارَتَيْنِ

(١) رَجَعَ الْكَلَامُ فِي لِب (٢) ب ، ت ، لِب « مَا أَرَاهُ »

(٣) فِي الْأَصُولِ : « وَنَالَهُ » (٤) هـ فِي ب ، ت ، لِب

أبا الوليد ابن زيدون أحد الثلاثة كبرى^(١) وزرائه المشاة وزارتهم . عمده دولته ، ألزمه^(٢) النفوذ مع الحاجب على بقية وعك كان متألماً منه ، ولم يعذره في التوقف من أجله . فمضى لطيبته . مسوقاً إلى منيته . وخلف ولده أبا بكر الفذ الوزارة ، المرتسم بالكتابة وراءه . ساداً مكانه بالحضرة ، فأقر فيها أياماً ، ثم أمر بالمسير وراء والده لأمر كلفه ، أعجل بالانطلاق له ؛ فمضى بعينه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها . فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم ، فتحدثت الناس بنبو^(٣) مكان الأديب ابن زيدون لدى السلطان . وأن استمسكه بعل مرتبته ، بعد مختصة المعتض بالله ، كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية ابنه به ، يفص باستمرارها ثقتاه المختصان به ، الحظيَّان لديه ، المستهمنان لخاصته : ابن مرتين وابن عمار ، إلى أن عملا في إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده ، فأمضى خلفه ، فعندها استصاعا^(٤) غصته ، واستهما مكانه . واحتويا على خاصة السلطان وتدير دولته ؛ ولكل دولة رجال ، ولكل مكتف أبدال . ولم يطل الأمد بابن زيدون — رحمه الله — بعد لحاق ابنه به ، ووجدانه إياه متزايداً في مرضه ، نازحاً عن ألفه . على جهده في استدعائها^(٥) على انتهاء المدة ، وانتهاك القوة . فاستقر به وجعه إلى أن قضى نحبه . وهلك بدار هجرته إشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين ، فدفن بها مشهوداً مُفتقداً . واحتوى تربها عليه . فبأبعد ما بين قبره وقبر ابنه لدينا رحمه الله عليهما ! فقد تولى من أبي الوليد كهل لن يخاف الدهر مثله جمالاً وبياناً ، وبراعةً ولساناً ، وظرفاً وحولاً من مراتب البلاغة نظماً ونثراً . بمرقبته

(١) و : « أكبر » (٢) و في ب ، ت ، لب

(٣) و : « سبق » (٤) و : « استصاعا »

(٥) لعل الضمير يعود على : « ألفه »

لم يُخْلَفْ لها بعده عاطياً ، بقرانه بين الكلامين « وبراعته في الفنون » إلا أن يكون عند أولى التحقيق والتحصيل في النظم أمدً طلقاً ، وأحثَّ عنقاً ، فلا يلحقه فيه تقصير ولا يخشى رهقاً ، شهوده ^(١) في الفنون عدولٌ مقانِعُ حضور عند أهل المعرفة .

لقد اتصل خبرُ هُلكِهِ بعشيرته أهل قرطبة فتناَعَوْهُ ، وسيئُوا لفقده « وحزنُوا عليه ، إذ كان منهم ، متعصباً لهم ، هاوياً إليهم ، حديباً عليهم ، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية ، فصار مُصَابُهُ لديهم كفاءً ما اجْتُمَتْ فيه من تأميلهم . والبقاء لمن تفرَّدَ به وحده ، ^(٢) لا ربَّ غيره . ولا جَرَمَ إذ عزى الله إخوانه عنه بامتداد بقاء فتاه التَّدْبِ أبي بكرٍ ولده بعده ^(٣) ساداً ثَمَهُ ، سامياً سُمَاهُ ، غائظاً عِدَاهُ ، عاطياً منتهاه ، بأنواطِ صِدْقٍ ، يجذبُن إلى العلاء بضِيعِهِ « من شِماخَةٍ ^(٤) ودماثةٍ وحصافةٍ ونزاهةٍ ومعرفةٍ « ووفورِ حظٍّ من أدبٍ بلاغٍ وكتابةٍ « وشركةٍ في التعاليمِ العِلْمِيَّةِ ^(٥) ، واشتدادٍ في رعاية متقادمِ الذمَّةِ « لم يفقد إخوانُ أبيهِ معها إلا عينه . خلالَ حَرَكَنَ حاله عما قليل بعد أبيهِ عند سُلْطَانِهِ قِسْطاسِ السِّيَاسَةِ ؛ فاستبَصَرَ في إحصارِهِ ^(٦) ، وأدناه من اجْتِبَائِهِ ^(٧) ، ورقاه في مراتبِ والده ، منقلاًه في درجاتها ، راضياً بلاءه فيما ناطَ به منها ، حتى فرع ذُرْوَتَهَا عما قليل ، فأحْظَاهُ بالوزارة وصيَّره وزيراً لِحُضْرَتِهِ ^(٨) الأثيرةِ إشبيلية ، وجمع له أعظمَ خِطَطِهَا العِلْمِيَّةِ ، معاطنِ التَّنَافُسِ مِنْ قُوَّامِ المَمْلَكَةِ

(١) ب ، ت ، لب : « أشهاده » (٢-٢) نه في ب ، ت

(٣) و : « شِماخَة » (٤) و : « العِلْمِيَّة »

(٥) و : « استحضاره » (٦) ب : « أحبائه »

(٧) ب ، ت ، لب : « وزره بحضرته »

خِطَّةَ ولايةِ المدينة ^(١) مجموعةً إلى خِطَّةِ ولايةِ السَّكَّةِ ؛ بكلِّ استقلٍّ . وعلى كلِّ استظْهَر ، فكفى وعدل . فاغتبطَ به ^(١) السلطان ، وواتاهُ الزمان . « واللهُ يؤتِي فضله من يشاء » له الفضلُ والامتنان .

وفي فصل : وكان أبو الوليد مِمَّنْ أنشأتهُ دولةُ الجهاورةِ ، واصطفتهُ اصطفاءَ الفرسِ للأساورةِ ؛ اختصَّ بأبي الوليدِ اختصاصَ القُرحِ بالنُّورِ .
وارتبطَ بهم ارتباطُ الإفاضةِ بالقُورِ . وأبو الحزم ابنُ جُهورٍ إذ ذاك رأسُ الجماعةِ ، وأصلُ تلكَ الإمرةِ المطاعةِ ، من رجلٍ أدهى من قعيدِ عُمان ، وأجراً من ليثِ خفَّان ، وأدهى من عمرو بنِ الجمَّان .

وكان ابنُ زيدون متصلاً بابنه أبي الوليدِ أطولَ حِقبةٍ ، اتصالَ أبي زيدٍ بالوليدِ بنِ عُقبةٍ ، وبينهما تألفٌ أحرماً بكعبتهِ وطافا ، وسُقياً ^(٢) من تصافيهما نطافا . وابنُ زيدون يَعْتَدُّ ذلكَ حُساماً مسلولاً ، ويرى أنه يرُدُّ به صعبَ الخطوبِ ذلولاً ، إلى أن طُلبَ عندَ أبيهِ أبي الحزمِ وتوسَّلَ ، فاستدفعَ به تلكَ الأسِنَّةَ المُشرَّعةَ والأسلَ . فما ثنى إِلَيْهِ عِنانَ عَطْفِهِ ، ولا كَفَّ عنه سنانَ صَرفِهِ ، مع استعطافِهِ له بكلِّ مقالٍ يحلُّ سخائمَ الأحقادِ ، واستلطافِهِ إياه بما يُرَدُّ الصَّعبَ سَلِسَ القيادِ ؛ فمن بديعِ ذلكَ وأحسنِهِ قوله ^(٣) :

إيهِ أبا الحزمِ اهتبلُ غِرَّةً ألسِنَّةُ الشكرِ عليها فصاحُ
لا طار لي حظُّ إلى غايةٍ إن لم أكن منك مَرِيشَ الجَناحِ
عُتْبَاكَ بعدَ العُتبِ أُمْنِيَّةُ مالي على الدهرِ سواها اقتراحُ
لم يثنني عن أملٍ ما جرى قد يُرَقِّعُ الخَرَقُ وتوسَّى الجِراحُ

(١-١) نه في ب — وفي وه « فاكنفى واعتدل »

(٢) ب ، ت ، لب ، وسقياه (٣) راجع ديوان ابن زيدون ص ٩٠

فاشحذُ بِمُحْسِنِ الرَّأْيِ عِزِّي يَرْغُ مِنْهُ الْعِدَا بِكُلِّ شَاكِي ^(١) السَّلَاحِ
وَاشْفَعْ فَلِلشَّافِعِ نَعْمَى بِمَا ثُمِرُ مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ النَّوَاحِ
إِنَّ سَحَابَ الْأَفُقِ مِنْهَا الْحَيَا وَالْحَمْدُ فِي تَأْلِفِهَا لِلرِّيَاحِ

وكان القاضي أبو بكر ابن ذكوان ، أجلَّ من اشتمل عليه أوان ، مجداً وشرفاً ،
وتفثناً في العلم وتصرفاً ، مع دُعابةٍ حينَ خَلَوَاتِهِ تَحُلُّ جُبَى الْحَتَبِي ، وَرَقَاعَةٍ عِنْدَ
نَشْوَاتِهِ كَالْتَنَوخِيِّ وَالْمُهَلَّبِي ؛ فَإِذَا أَصْبَحُوا بِكَرِّ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مُصَادِرَةٍ مَا يَتَّجِعُهُ
عَلَيْهِ الْحُكْمُ وَمَوَاجَهَتِهِ ، وَأَنْكَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ فَكَاهَتِهِ ، فَكَأَنَّمَا فِي بُرْدِيهِ
الْإِمَامُ ^(٢) . وَكَأَنَّهُ وَقَارٌ يَدْخُلُ أَوْ شَمَامٌ ، مَعَ عَدْلِهِ فِي قَضَائِهِ ، وَإِنْفَازِ الْحُكْمِ
بِمَقْتَضَى الْحَقِّ وَإِمْضَائِهِ . حَتَّى إِذَا رَاحَ الرِّوَّاحُ عَادُوا إِلَى الْقَصْفِ ، وَتَجَاوَزُوا
فِي مَيْدَانِهِمْ كُلِّ وَصَفٍ ؛ إِلَى أَنْ اخْتَلَسَ أَبُو بَكْرٍ مِنْهُمَا ، وَتَقَلَّصَ ذَيْلُ مُؤَانَسَتِهِ
عِنْمَا ، فَاعْتَصَا عَنْهُ بِسِوَاهِ ، وَأَفَاضَا فِيمَا كَانَا فِيهِ وَمَا تَعَدَّيَاهُ .

وَاتَّفَقَ أَنْ مَرَّ يَوْمًا بِقَبْرِهِ فِي لَمَّةٍ مِنْ إِخْوَانِهِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ عُمَرَاءِ مَيْدَانِهِ
فَعَطَفُوا عَلَيْهِ مَسْلَمِينَ وَوَقَفُوا عَلَيْهِ مَتَأَلِّمِينَ ، فَقَالَ أَبُو الْوَلِيدِ ^(٣) :

مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا خِلَافَ مُوَدَّعٍ غَنَيْتَ بِهِ فِي حُسْنِهَا تَحْتَالُ
يَا قَبْرُهُ الْعَطِرَ الثَّرَى لَا يَبْعَدُنُ حُلُوٌّ مِنَ الْفَتَيَانِ فَيْكَ حِلَالُ
مَا أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طَيِّبُهُ نَضَلُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّبَابِ صِقَالُ
يَا مَنْ شَأَى الْأَمْثَالِ مِنْهُ وَاحِدٌ ضُرِبَتْ بِهِ فِي السُّودُدِ الْأَمْثَالُ
نَقَصَتْ حَيَاتُكَ حِينَ فَضْلُكَ كَامِلُ هَلَّا اسْتَضَافَ ^(٤) إِلَى الْكَمَالِ كَمَالُ !

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ ، وَفِي الدِّيْوَانِ : « أَلَيْسَ شَاكِي »

(٢) ب ، ت ، لب : « الْأَنَام » (٣) رَاجِعْ دِيْوَانَهُ ص ١٥٤

(٤) كَذَا فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ ، وَفِي الدِّيْوَانِ : « اسْتَضِيفَ »

زرناك لم تأذن كأنك غافل
أين الحفاوة روضها غص الجنى ؟
هيهات لا عهد كعهدك عائد^(١)
فاذهب ذهاب البرء أعقبه الضنى
حيّا الحيا مثواك وامتدت على
وإذا النسيم اعتل فاعتامت به
ولئن أذاك بعد طول صيانة
قدّر فكل مصونة ستدال

٥

وله^(٢) :

على دارة الشرق^(٣) منى تحية
ولا زال روض بالروصافة ضاحك
معاهد كهو لم تزل في ظلالها
زمان رياض العيش خضر نواعم
فإن باب منى عهدا فبلوعة
تذكرت أيامي بها فتبادرت
ومن أجليها أدعو لقرطبة المنى
فما لحقت تلك الليالي ملامه
زكت وعلى وادي العقيق سلام
بأرجائها يبكي عليه غمام
تدار علينا للشرور مدام
ترف وأمواء النعيم حمام
يشب لها بين الضلوع ضرام
دموعي كما خان الفريد نظام
بسقميا ضعيف الطل وهو رهام
ولا ذم من ذاك الحبيب ذمام^(٤)

١٠

١٥

(١) ب ، ت ، لب : « غابر » (٢) راجع ديوانه ص ٢٧٦

(٣) كذا في الأصول ، وفي الديوان : « على الثقب المهدى »

(٤) كذا في الديوان « وفي جميع الأصول : « حمام »

وله (١) :

خَلِيلِي لَا فِطْرُ يَسْرُ وَلَا أَضْحَى
لَيْنِ شَاقِنِي شَرَقُ الْعُقَابِ فَلَمْ أَزَلْ
وَمَا انْفَكَّ جَوْفِي الرُّصَافَةَ مُشْعِرِي
وَيَهْتَاكُ قَصْرُ الْفَارِسِيِّ صَبَابَةً
وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ مَجْلِسِ نَاصِحٍ
كَأَنِّي لَمْ أَشْهَدْ لَدَى عَيْنِ شَهْدَةٍ
وَقَائِعُ جَانِبِهَا التَّجَنِّي فَإِنْ مَشَى
وَأَيَّامُ وَضَلٍ بِالْعَقِيقِ اقْتَضَيْتُهَا
مَعَاهِدُ لَذَاتِ وَأَوْطَانُ صَبُوءَةٍ
أَلَا هَلْ إِلَى الزَّهْرَاءِ أَوْبَةٌ نَازِحَةٍ
مَقَاصِرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَابَتُهَا
مَحَلُّ ارْتِيَاكِ يُذَكِّرُ الْخُلْدَ طَيْبُهُ
هَنَّاكَ الْحِمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافِهَا
تَعَوَّضْتُ مِنْ شِدْوِ الْقِيَانِ خِلَالِهَا
وَمِنْ حَمَلِي الْكَأْسِ الْمَقْدَى مُدِيرُهَا
وله يرثي (٢) :

أَعْبَادُ يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ لَقَدْ عَدَا
عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الْغَدْرُ

(١) راجع ديوانه ص ٥٤ (٢) لم يقع هذا البيت في م

(٣) ب ، ت ، لب : « الفلحا » (٤) راجع ديوانه ص ١٤١

فهلّا عداه أنّ عليّاك حليّه وذكراك في أردان أيامه عطره ؟
 أنفّس نفس في الورى أقصد الردى ؟ وأخطر علق للهدى أفقد الدهر ؟
 فهل علم السّلو المقدّس أنني مسوّغ حال ضلّ في كنهها (١) الفكر ؟
 وأنّ متأتّي لم يضعه محمد خليفتك المدلّ الرضا وابنك البر ؟
 وأرغم في برّى أنوف عصابة لقساؤهم جهنّم ومنظرهم شرر ؟
 إذا ما استوى في الدّست عاقد حبوّة وقام سباطاً حفله في الصّدر ؟

ونلمع (٢) من أخبار هذه الواقعة بلّمة :

قال أبو مروان (٣) : وفي سنة اثنتيّن وأربعين وأربعمائة (٤) أوقع ابن
 عباد بن الأفطس إلى جنب يابرة . وكان سبب هذه الحرب أن فتح بن
 يحيى (٥) صاحب لبلة يومئذ حليف (٦) ابن الأفطس وإلى عباداً (٧) لضرورة ،
 فكاشفه ابن الأفطس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصّامت ، عند ما حمّله
 إليه وديعة وقت تورطه في حرب عباد قبل ؛ وانبتت بينهما العظمة ، وأرسل
 ابن الأفطس في ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستغاث عبداً فأرسل
 إليه خيلاً منتقاة ، فلحقت الخيل الأفضيّة وهي قد شنت الغارة على لبلة .
 فكرّرت عليهم إذ كانوا ضعفهم واسترسلوا في اتباع العباديين ولا يشعرون ،
 فإذا بعباد بجملته في كمين قد خرج إثرهم ، فدهشوا وولّوا الأدبار فركبهم

(١) و : « ومهما » (٢) رجع الكلام في .

(٣) ذكر الخبر مجملًا في ، ومفصلاً في بقية النسخ . وقد آثرنا إثبات الرواية المفصلة

(٤) ز في ب ، ت ، و ، لب (٥) : « ابن عباد »

(٦) ب ، ت ، لب ، و : « خليفة »

(٧) و : « آل عباد »

السيفُ ، وبذلَ عِبَادَ الْمَالِ فِي رُؤُوسِهِمْ ، وَكَانَتْ نَقَاوَةُ خَيْلِ ابْنِ الْأَفْطُسِ وَأَبْطَالِ رَجَالِهِ ، فَجُزَّ لِعِبَادِهِ مِنْ رُؤُوسِهِمْ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رَأْسًا وَمِنْ خَيْلِهِمْ مِثْلُهَا . فَقَصَّ جَنَاحَ قِرْنِهِ ، وَأَفْنَى حُمَاةَ رَجَالِهِ . ثُمَّ إِنَّ عِبَادًا إِثْرَ ذَلِكَ جَمَعَ خَيْلَ حُلَفَائِهِ وَخَيْلَهُ وَقَوَّدَ عَلَيْهَا ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ مَعَ وَزِيرِهِ ابْنِ سَلَامٍ ، وَخَرَجَ نَحْوَ بَلَدِ ابْنِ الْأَفْطُسِ يَابُرَةَ . وَقَدْ اسْتَدْعَى أَيْضًا ابْنُ الْأَفْطُسِ حَلِيفَهُ إِسْحَاقَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فَلَحَقَتْ بِهِ خَيْلُهُ مَعَ ابْنِهِ الْعِزَّ بَعْدَ أَنْ جَمَعَ ابْنُ الْأَفْطُسِ بَقَايَا جَيْشِهِ مِنْ هَزِيمَتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرَ ، وَأَخْرَجَ كُلَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى رُكُوبِ دَابَّةٍ مِنَ الْبِيَاضِ بَيْلِدِهِ ، وَحَشَرَ مِنْ رَجَالِ الْبَوَادِي بَعْمَلِهِ خَلْقًا كَثِيرًا ، وَأَقْبَلَ بِجَمْعِهِ هَذَا الْمُنْخُوبِ لِيُدْفَعَ خَيْلَ ابْنِ عِبَادٍ عَنْ بَلَدِهِ يَابُرَةَ . وَقَدْ كَانَ بَرَابَرَةُ حَلِيفَهُ إِسْحَاقُ فِي عَسْكَرِهِ قَالُوا لَهُ : لَا تَلْقَهُمْ ^(١) فَلَسْتَ تَعْرِفُ قَدَّرَ مَنْ زَحَفَ نَحْوَكَ ، وَنَحْنُ رَأَيْنَاهُمْ وَسَمِعْنَا بِجَمْعِهِمْ بِإِسْبِيلِيَّةَ ، فَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ وَمَضَى . فَالْتَقَى الْفَرِيقَانِ مِنْ غَيْرِ نَزُولٍ وَلَا تَعَبَةٍ ، فَاخْتَلَطُوا وَاجْتَلَدُوا مِليًا ، فَحَقَّقَ الْعِبَادِيُّونَ الضَّرَابَ . وَتَابَعُوا الشَّدَاتَ ، فَخَادَ الْبَرَابِرُ عَنْهُ أَصْحَابُ إِسْحَاقَ ، وَانْهَزَمَ ابْنُ الْأَفْطُسِ ، وَحُمِلَ السَّيْفُ عَلَى جَمِيعٍ مِنْ مَعَهُ ، فَاسْتَأْصَلَهُمُ الْقَتْلُ . وَقُتِلَ وَلَدُ إِسْحَاقَ الْعِزُّ . وَحُزَّ رَأْسُهُ وَبُعِثَ بِهِ إِلَى إِسْبِيلِيَّةَ مَعَ رَأْسِ ابْنِ عَمِّ ابْنِ الْأَفْطُسِ صَاحِبِ يَابُرَةَ يُدْعَى عُبَيْدَ اللَّهِ الْخَرَّازَ ، وَنَجَّى ابْنُ الْأَفْطُسِ فِي قِطْعَةٍ مِنْ خَيْلِهِ إِلَى يَابُرَةَ .

قال أبو مران : وأقل ما ممعت في إحصاء قتلى هذه الواقعة من ثلاثة آلاف رجل فأزيد . وأخبرني مَنْ أثق به أن بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عباد هذه بفتيان

(١) ب ، ت ، لب : « لا تنبهم »

أغمارٍ إلا الشيوخ والكهول الذين أصيبوا يومئذ . فاستدَلَّتْ بذلك على فُشُوِّ المصيبة . وجزع إسحاقُ بنُ عبدِ الله من مُصابِ ابنه ، ولم يخضع لصدِّه عبادٌ في طلبِ رأسِ ابنه ، فإنَّ عبادًا ضافه إلى رأسِ جدِّه محمد بنِ عبدِ الله الذي هو مختزن عنده بإشبيلية . انتهى كلامُ ابنِ حيان .

قال ابنُ بسَّام : ولم يزل الرأسان عند آلِ عبادٍ مع عدَّةِ رؤوسٍ أهدتها إليهم الفتنة المبيدة ، حتى فتحت إشبيلية على الأمير الأجلِّ سير بن أبي بكر فجىء بجواري مقلِّ مطبوعٍ عليه^(١) ، فأمرَ بفتحِه ، لا يشكُّ أنه مالٌ أو ذخيرةٌ ، فإذا هو مملوءٌ من رؤوس . فأعظمَ ذلك وهاله ، وأمرَ بدفعِ كل رأسٍ منها إلى مَنْ بَقِيَ مِنْ عَقِبِهِ بالخضرة .

حدثني مَنْ رأى رأسَ يحيى بنِ علي الحموديَّ ثابتَ الرِّسمِ ، غيرَ متغيَّرٍ الشكلِ ، فدفعَ إلى بعضِ ولده فدفنه .

قال ابنُ زيدون في ابنِ جهورٍ من قصيدةٍ أولها^(٢) :

أجل ! إن ليلى حيث أحيأوها الأزدُ مهابةً حمتها في مراتعها^(٣) الأسدُ
يمانئةٌ تدنو وينأى مزارها فسيانٍ منها في الهوى القرب والبعد^(٤)
إذا نحن زُرناها تمرَّدَ ماردٌ وعزٌّ ، فلم نظفر به^(٥) ، الأبلقُ الفردُ
هو الملكُ المشفوعُ بالنسكِ ملكه^(٦) قلَّه ما يخفى ولله^(٧) ما يبدو

(١) هـ : « محتوم عليه » (٢) راجع ديوانه ص ١٧٧

(٣) ب ، ت ، لب ، هـ : « مراتعها »

(٤) لم يقع هذا البيت والذي يليه في ر

(٥) كذا في الديوان ، وفي جميع الأصول : « فلم يظفر بها »

(٦) ب ، ت ، لب ، هـ : « قلبه »

(٧) ب ، ت ، لب : « فيا ملك ما يخفى وباسر »

لقد أوسع الإسلام بالأمس حسبة
أباح حمى الخمر الخبيثة حائطاً
فطوق باستئصالها المضر منة
غني، فحسن الظن بالله ماله
لنعم حديث البرأ أوضعت^(٢) الصبا
وكان ابن جهور كسر يومئذ دنان الخمر، وكان مدحه أيضاً يومئذ بمثل
ذلك عبد الرحمن بن سعيد المصفر^(٤) بشعر أوله :

كسرت لجبر الدين أوعية الخمر
فأحرزت خصل السبق في الكسر والجبر
عمدت إلى الشر الذي جمعوا له
ففرقت منه ، فاسترحنا من الشر^(٥)
في أبيات غير هذه استبردت جملتها . وإنما ذهب إلى عكس قول من تقدم
من عبث^(٦) الشعراء من ذم صب الشراب . ومن أشهره قول بكر بن حارثة
الكوفي ، وقد رأى من سلطان وقته مثل ذلك فقال :

يا تقوي مما جنى^(٧) الساطن
لا يكن للذي أهان الهوان !
سكبوا في التراب من حلب الكر
م عفاراً كأنها الزعفران
صبتها في مكان سوء ، لقد صا
دفع سعد الشعود ذاك المكان

(١) كذا في الديوان ، وفي الأصول :

عزيز بحسن الظن بالله ، ماله عرين ، فصنع الله من حوله جند

(٢) ب ، ت ، لب ، وه : « أوضعت »

(٣) لم يقع هذا البيت والذي قبله في ر

(٤) ر : « عبد الرحمن بن الأسعد » — وه : « عبد الرحمن بن سعد »

(٥) لم يقع هذا البيت في ر (٦) وه : « أعيان »

(٧) ب ، ت ، لب ، وه : « لقد جنى »

مِنْ كُمَيْتٍ يُبْدِي الْمِزَاجُ لَهَا لُؤُ لَوْ نَظَمَ وَالْفَضْلُ^(١) فِيهَا جُمَانُ
فَإِذَا مَا اصْطَبَحَتْهَا صَغَّرَتْ فِي الْقَدِّ رِ عَنْدِي مَنْ أُمُّهُ الْخَيْرَانُ
كَيْفَ صَبْرِي عَنْ بَعْضِ نَفْسِي وَهَلْ يَصُ بَرُّ عَنْ بَعْضِ نَفْسِيهِ الْإِنْسَانُ ؟
وَبَلَّغْنِي أَنَّ الْجَاحِظَ أَتَشَدُّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ ، فَقَالَ الْمُتَشَدِّدُ : « مِنْ حَقِّ الْفَتَوَةِ
أَنْ أَكْتُبَهَا قَائِمًا ، وَمَا أَقْدِرُ إِلَّا أَنْ تَعْمِدَنِي » لِنَقْرِسِ كَانَ بِهِ . قَالَ الْحَدَّثُ :
فَعَمِدَتْهُ وَقَامَ فَكْتُبَهَا .

وَكَانَ بَكْرُ بْنُ حَارِثَةَ هَذَا مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، طَيِّبَ الشَّعْرِ ، خَلِيعًا مَا جَنَّا ،
وَكَانَ يَأْتِي هُذُودًا فِي مَوْضِعٍ يَأْتِيهِ كُلَّ يَوْمٍ بِقَيْنَةٍ شَرَابٍ ، فَلَا يَزَالُ يَشْرَبُ
عَلَى صَوْتِهِ إِلَى أَنْ يَسْكُرَ^(٢) ، وَكَانَ أَيْضًا يَهْوَى غِلَامًا نَصْرَانِيًّا وَهُوَ الْقَائِلُ :
^(٣) زُنَّارُهُ فِي خَصْرِهِ مَقْقُودُ كَأَنَّهُ مِنْ كَبْدِي مَقْدُودُ
وَبَكْرُ الْقَائِلُ^(٣) :

قَلْبِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي يَكْتُرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي^(٤)
كَيْفَ احْتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي ؟
وَلِصَالِحِ بْنِ عُبَيْدٍ فِي مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ :
لَيْسَ هَمِّي وَلَا طَوِيلُ انْتِحَابِي لِمَشِيبِ أَدَالِ^(٥) عَنِّي شَبَابِي
لَا ، وَلَا لَا غَتْرَابِ أَحْبَابِ قَلْبِي أَوْ لَصَدِّ الْإِخْوَانِ وَالْأَحْبَابِ
إِنَّمَا حَسْرَتِي وَعَظْمَةُ عَيْنِي لَشَرَابٍ يُصَبُّ فَوْقَ التُّرَابِ
سُرَّتِ الْأَرْضُ حِينَ صُبَّ عَلَيْهَا فَبَكَتْ صَبَّةَ عَيُونِ السَّحَابِ

(١) ر : « والفضل » (٢) ر ، لب : « يسكن » (٣-٣) ر في ب

(٤) هذان البيتان ينسبان إلى العباس بن الأحنف . (راجع ديوانه ص ١٠١)

(٥) ب ، ت ، و ، لب : « أزال »

رجع :

وقال ابن زيدون^(١) يرثي [القاضي أبا بكر ابن ذكوان^(٢)] :

انظر لحال السرور كيف تحال ولدولة العلياء كيف تدال^(٣)
من سرّ لما عاش قلّ متاعه فالعيش نومٌ والشور خيال
ولّى أبو بكر فراغ له الورى هولٌ تقاصر دونه الأهوال
يا من شأى الأمثال منه واحد ضربت به في السؤدد الأمثال
نقصت حياتك حين فضلك كامل هلاً استضيف إلى السكال كمال؟
من للقضاء يعزّ في أثنائه إيضاحٌ مشكّلة لها إشكال
من لليتيم تتابعت أرزاهه؟ هلك الأب الحاني وضاع المال
هيات لا عهدك كعهدك عائد إذ أنت في وجه الزمان جمال
حيّا الحيا مثواك وامتدّت على ضاحي ثراك من النعيم ظلال
وإذا النسيم اعتلّ فاعتمت به ساحاتك الغدوات والآصال
ولئن أذاك^(٤) بعد طول صيانة قدر فكل مصونة ستدال

وقال ابن زيدون^(٥) يرثي أبا الحزم ابن جهور من قصيدة أولها^(٦) :

ألم تر أنّ الشمس قد ضمّتها القبر وأن قد كفانا فقدّها القمر البدر؟
وأنّ الحيا إن كان أقلع صوبه فقد فاضّ للآمال في إثره البحر
إساءة دهر أحسن الفعل بعدها وذنب زمان جاء يتبعه العذر

(١) ذكرت أبيات من هذا الرثاء في ص ٣٥٨ (٢) راجع ص ٣٥٨

(٣) لم تقع هذه القصيدة في — (٤) في الأصول : « أذاك »

(٥) راجع ديوانه ص ١٥٠ (٦) ب ، ت ، لب ، هـ : « وله من أخرى

مما وجدته بخط ابن حيان يرثي بها أبا الحزم ابن جهور »

- فَلَا يَتَهَنَّ الكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا لَنَا اللَّيْلُ إِلَّا رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ
وَأِنْ يَكُ وَلَّى جَهْوَرٌ فَمَحَمَّدٌ خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَا وَابْنُهُ الْبِرُّ^(١)
لَعَمْرِي لَنَعْمَ الْعَلَقُ أَتْلَفَهُ الرَّدَى فَبَانَ وَنَعْمَ الْعَلَقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ
هُمَامٌ جَرَى يَتْلُو أَبَاهُ كَمَا جَرَى مُعَاوِيَةُ يَتْلُو الَّذِي سَنَّهُ صَخْرُ^(٢)
فَقُلْ لِلْحِيَارَى قَدْ بَدَا عِلْمُ الْهُدَى وَلِلطَّامِعِ الْمَغْرُورِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
أَبَا الْحَزَمِ قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى قُلُوبٌ ، وَمِنْهَا الصَّبْرُ لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعُ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ فَمَا لِنَفِيسٍ إِذْ طَوَاكَ الرَّدَى قَدْرُ
مَسَاعِيكَ حَلَى لِلزَّمَانِ مَرْصَعٌ وَذِكْرُكَ فِي أُرْدَانِ أَبَامَا^(٣) عِطْرُ^(٤)
أَمَامِكَ مِنْ حِفْظِ الْإِلَهِ صَنِيعَةٌ وَحَوْلِكَ مِنْ آلَاءِهِ عَسْكَرٌ مَجْرُ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ كَفَفْتُكَ مِنَ اللَّهِ الْكَلَاءَةَ وَالنَّصْرُ
تَحَامَى الْعِدَا لَمَّا اعْتَلَقْتُكَ جَانِبِي وَقَالَ الْمُنَاوِي : شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو

ووجدت له قصيدة أخرى ، على رويها ووزنها ، رثى بها أم أبي الوليد ابن جهور ، وكرراً أكثر أبياتها « أولها »^(٥) :

- هُوَ الدَّهْرُ فَاصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ فِنْ شِيمِ الْأَحْرَارِ فِي مِثْلِهَا الصَّبْرُ
يقول فيها :

هَنِيئًا لِبَطْنِ الْأَرْضِ أَنْسَ مُجَدِّدٌ بِنَاوِيَةِ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ
بِطَاهِرَةِ الْأَثْوَابِ قَانِتَةِ الضُّحَى مُسَبِّحَةِ الْآثَاءِ مُحَرِّبِهَا الْخِذْرُ^(٦)

(١) هذا البيت والأبيات الأربعة التي تليه ناقصة في

(٢) لم يقع هذا البيت في ديوانه (٣) في النسخ : « أيام أردانها »

(٤) هذا البيت وما يليه إلى آخر القصيدة ناقص في

(٥) راجع ديوانه ص ١٧٤ (٦) لم يقع هذا البيت في

فَإِنْ أَنْتَ فَالْنَفْسُ أَنْتَى نَفِيسَةٌ إِذِ الْجَسْمُ لَا يَسْمُو بِتَذَكِيرِهِ ذِكْرُ
 حَمَانٍ إِذَا التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِذِكْرِهَا ^(١)
 بَنِي جَهْوَرٍ أَتَمَّ سَمَاءَ رِيَاثَةٍ ^(٢)
 تَرَى الدَّهْرَ إِنْ يَبْطِشُ فَمِنْكُمْ يَمِينُهُ
 لَكُمْ كُلُّ رَقْرَاقٍ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ
 ٥
 إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر فيها بالتقديم والتأخير ،
 والتأنيث والتذكير ^(١) . ثم رثى بها آخرًا عبادة المعتضد ، وجعل أول
 قصيدته قوله :

■ هو الدهرُ فاصبرُ للذي أحدث الدهرُ ■

١٠ البيت المتقدم ، ثم أتبعه بقوله ^(٣) :
 حياةُ الورى نهجٌ إلى الموتِ مهيعٌ
 فَيَا وَاضِحَ الْمَنَاجِ جُرْتُ ، فَإِنَّمَا
 إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصَرَ كُلُّ مُعَمَّرٍ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضَمِيمَ ذِمَارِهِ
 ١٥
 بَحِثُ اسْتَقْلَ الْمَلِكُ ثَانِي عِطْفِهِ
 أَأَنْفَسُ نَفْسٍ فِي الْوَرَى أَقْصَدُ الرَّدَى
 أَعْبَادُ يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ لَقَدْ عَدَا
 فَهَلَّا عَدَاهُ أَنَّ عَلِيَاكَ حَلِيَّةُ
 لَهُ فِيهِ إِضَاعُ كَمَا يُوضَعُ السَّفَرُ ^(٤)
 هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصَّرَاطُ أَوِ الْبَحْرُ
 فَإِنَّ سَوَاءً طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمُرُ
 فَلَمْ تَعْنِ أَنْصَارُ عَدِيدُهُمْ كَثُرُ؟
 وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعُسْكَرُ الْمَجْرُ
 وَأَخْطَرَ عِلْقٍ لِلْهَدَى أَفْقَدَ الدَّهْرُ ^(٥)
 عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الْغَدْرُ
 وَذَكَرَكَ فِي أَرْدَانِ أَيَامِهِ عِطْرُ؟

(١-١) نه في ر (٢) كذا في النسخ ، وفي الديوان : « بسرها »

(٣) ذكرت أبيات من هذا الرثاء في ص ٣٦٠ ، ٣٦١

(٤) لم يقع هذا البيت في ر (٥) هذا البيت ناقص في ر

غَشِيَتْ فَلَمْ تَعَشْ الطَّرَادَ سَوَاجِحُ وَلَا جَرَّدَتْ بَيْضُ وَلَا أُشْرِعَتْ سُمُرُ^(١)
لَيْنَ كَانَ بَطْنُ الْأَرْضِ هُنَى أَنْسَهُ بِأَنَّكَ تَأْوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ
وَلَا ثَنَّتِ الْمَحْدُورَ عَنْكَ جَلَالُهُ وَلَا عَدَدَ دَثْرُهُ وَلَا نَائِلَ غَمَرُ^(٢)
فَهَلْ عِلِمَ السَّلَوُ الْمُقَدَّسُ أَنَّنِي مُسَوِّغُ حَالِ ضَلٍّ فِي كُنْهَيْهَا الْفِكْرُ؟
وَأَنْ مَتَانِي لَمْ يُضِغْهُ مُحَمَّدُ خَلِيفَتُكَ الْعَدْلُ الرِّضَا وَابْنُكَ الْبِرُّ؟
وَأَرْغَمَ فِي بَرِّي أُنُوفَ عِصَابَةٍ لِقَاؤُهُمْ جَهْمٌ وَلِحَظُهُمْ شَرْزُ
إِذَا مَا اسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ وَقَامَ سِمَاطًا حَفْلِهِ فَلَئِ الصَّدْرُ
فَتَلَا عَبَّ أَبُو الْوَلِيدِ كَمَا تَرَى فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ تَلَا عَبَّ الْخَطِيبَةَ بِنَسْبِهِ^(٣) ،
وَتَصَرَّفَ تَصَرَّفَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي مَذْهَبِهِ ، فَأَنْتَ وَذَكَرَ ، وَقَدَّمَ وَأَخَّرَ . قَالَ
أَبُو الْعَلَاءِ^(٤) :

١٠

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مَرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَضْدَادِ
وَبَلَّغَنِي أَنَّهُ وَجَدَ لَابِنَ زَيْدُونَ إِثْرَ مَوْتِ عَبَّادٍ شَعَرْتُ يَقُولُ فِيهِ :

لَقَدْ سَرَرْنَا أَنَّ النَّعْيَ مُوَكَّلُ بِطَاغِيَةٍ قَدْ حُمَّ مِنْهُ حِمَامُ^(٥)
تَجَانِبُ صَوْبِ الْمَزْنِ عَنْ ذَلِكَ الصَّدَى وَمَرَّ عَلَيْهِ الْغَيْثُ وَهُوَ جَهَامُ

وَقَالَ يَخَاطَبُ الْوَزِيرَ أَبَا عَامِرٍ ابْنَ عَبْدِوَسٍّ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا^(٦) :

١٥

أَثَرْتُ هَزْبَ الشَّرَى إِذْ رَبَضَ وَنَبَهْتُهُ إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضَ
وَمَا زِلْتُ تَبْسُطُ مُسْتَرَسِلًا إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبَضَ^(٧)

(١) هذا البيت ناقص في . (٢) هذا البيت وما يليه إلى آخر القصيدة ناقص في .

(٣) ر : « في نسبه » (٤) راجع سقط الزند ص ٢٠٩

(٥) هذان البيتان في ديوانه (٦) راجع ديوان ابن زيدون ص ٢٣٧

(٧) هذا البيت ناقص في ر

أَرَى كُلَّ مُجَرِّ أبا عامرٍ
أُعِيذُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مَنْزِعِي
أبا عامرٍ أَيْنَ ذَاكَ الْوَفَاءِ
وَأَيْنَ الَّذِي كُنْتَ تَعْتَدُّ مِنْ
عَمَدَتَ لِشِعْرِي وَلَمْ تَتَّيَدُ
لِعَمْرِي لِقَوِّكَ سَهْمَ النَّضَالِ
وَشَمَّرْتَ لِلخَوْضِ فِي لُجَّةٍ
وَعَرَّكَ مِنْ عَهْدٍ وَلَادَةٍ
هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ
(١) وَبَعْدُ مَا أَمْسَكَتَ عَنْهُ .

قوله : « هو الماء يأبى على قابض » ، البيت ، أبلغ منه في المعنى قول الوزير
أبي محمد ابن عبد الغفور :

هِيَ الشَّمْسُ تَأْبَى عَلَى قَابِضٍ
إِذَا الْمَاءُ نَالَتْ نَدَاهُ الْيَدُ (٢)
وَنَبَّيْتُهَا بَعْدِي اسْتَحْدَتْ
بَسِيرٍ إِلَيْكَ لِمَعْنَى غَمَضٍ (٣)
أَبَا عَامِرٍ عَثْرَةً ، فَاسْتَقَلَّ
لَتَبْرَمٍ مِنْ دُهَا مَا انْتَقَضَ (٤)
وَلَا تَعْتَصِمُ ضَلَّةً بِالْحِجَاكِ
وَسَلَّمَ قَرَبَ احْتِجَاجٍ دَحَضٍ (٥)
وَحَسْبِي أُنَى أَطْبَتُ الْجَنَى
لَأَفْنَانِهِ وَأَبَحْتُ النَّفَضَ (٦)

(١) لم يقع هذا البيت والذي يليه إلا في ر

(٢) هذا البيت ناقص في = (٣) لم يقع هذا البيت في ر

(٤-٤) هـ في ب ، ت ، لب ، و

(٥) لم يقع هذا البيت ولا الأبيات التي تليه في =

(٦) كذا في الديوان = وفي الأصول : « غمض »

وَيَهْنِيكَ أَنْكَ يَا سَيِّدِي غَدَوْتَ مُقَارِنَ^(١) ذَاكَ الرَّبَضِ
ومما^(٢) أغفل ابنُ بسّام « من نسبِ أبي الوليدِ الصحيحِ الأقسام ،
النازحِ عن الأَطَاعِ والأَوْهَامِ ، المصدّقِ قولِ الجَعْفَرِيَةِ فيما يُنصُّ من الإلهامِ »
قوله^(٣) :

- لئن قهرَ اليأسُ فيكَ الأملَ وحالَ تَجَنُّيكِ دونَ الحيلِ
وناجاكِ بالإفكِ في الحسودِ فأعطيتهِ جَهْرَةً ما سألَ
ورافكِ سحرُ العداِ المفتريِ وغرَّكَ زورُهُمُ المفتعلِ
وأقبلتَهُمْ في وجهِ القبولِ وقابلَهُمْ بِشْرُكَ المقتبلِ^(٤)
فإنَّ ذِمَامَ الهوى لَنْ أزالَ أبقيهِ حِفْظًا^(٥) كما لَمْ أزلَ
فديتُكَ ، إنَّ تَعَجُّلي بالوفاءِ^(٦) فقد يهَبُ الرَيْثُ بعضُ العَجَلِ
عَلَامَ أَطْبَتِكَ^(٧) دواعي القلي وفيهِمَ نهْشُكَ نواهي العذلِ ؟
ألمْ أوْثِرَ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَ ألمْ أَكْثَرَ الهَجَرَ كَيْلًا أُمِلَّ ؟
ألمْ أَرْضَ مِنْكَ بغيرِ الرضا وأبْدَى الشُّرُورَ بما لَمْ أُنلَّ ؟
ألمْ اغْتَفِرَ مُوبَقَاتِ الذُّنُ بَ عَمْدًا أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلْ ؟
وما سَاءَ ظَنِّي في أنْ يُسِيءَ بِي الفِعْلَ حَسُنُكَ حَتَّى فَعَلَ
عَلَى حِينٍ أَصْبَحْتَ حَسْبَ الضَّمِيرِ ولمْ تَبْغِ مِنْكَ الأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانِكَ مِنِّي وَفِيَّ أَبِيُّ لَعَلِّ القَلْقَةَ أَنْ يُبْتَدَلَ

(١) كذا في الديوان ، وفي النسخ « في هول » (٢) هنا يبدأ خرم في ر
وينتهي بابتداء خبر ولادة ص ٣٧٦ . وأغلب الظن أن غير المؤلف أضاف هذه الزيادة في
النسخ الأخرى . (٣) راجع ديوانه ص ١٩٥ (٤) هذا البيت لم يقع في ب
(٥) كذلك في الديوان ، وفي الاصول : « أبلية حفظك »
(٦) في الديوان « بالجفا » (٧) وه : « علام أطعت »

سَعَيْتَ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا
فَمَا عُوْفِيَتْ مِقْتَى مِنْ أَدَى
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكَ الْعَمَّا
كَأَنَّكَ نَازَرْتَ أَهْلَ الْكَلَامِ
وَلَوْ شِئْتُ رَاجَعْتَ خُرَّ الْفَعَالِ
فَلَمْ يَكْ حَظِّي مِنْكَ الْأَخْسَ
عَلَيْكَ السَّلَامُ سَلَامَ الْوَدَاعِ
وَمَا بِاخْتِيَارِي تَسْلَيْتُ عَنْكَ
وَلَمْ يَذِرْ قَلْبِي كَيْفَ النَّزْوَعِ
وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكَ
يُحْمِلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّعْمَى
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

فَدَيْتُكَ لَيْسَ لِي قَلْبٌ فَاسْأَلُو
فَإِنْ يَكُنِ الْهَوَى دَاءً مُمِيتًا
أُسِرْتُ عَلَيْكَ عَتَبًا لَيْسَ يَبْقَى
وَمَا رَدَّى عَلَى الْوَاشِينَ إِلَّا
وَقَوْلُهُ:

أَنِّي أُضِيعُ عَهْدَكَ^(٥)
وَقَدْ رَأَتْكَ الْأُمَانِي
يَا لَيْتَ مَالِكٍ عِنْدِي
أَمْ كَيْفَ أُخْلِفُ وَعْدَكَ؟
رِضًا فَلَمْ تَتَعَنَّ ذَكَ
مِنْ الْهَوَى لِي عِنْدَكَ

(١) كَذَا فِي الدِّيَوَانِ ، وَفِي الْأَصُولِ : « صُرُوفٌ » (٢) فِي الْأَصُولِ « عَهْدٌ »
(٣) لَمْ يَرِدْ هَذَا الْبَيْتُ وَلَا الَّذِي بَلِيَهُ فِي الدِّيَوَانِ (٤) رَاجِعِ الدِّيَوَانِ ص ٢٦٧
(٥) رَاجِعِ الدِّيَوَانِ ص ٢٦٦

وطالَ ليلكِ بَعْدِي كطولِ ليلي بَعْدَكَ
سَلِي حَيَاتِي أَهْبَهَا فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ
الدَّهْرُ عِبْدِي لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ عَبْدَكَ
ولأبي بكر بن عمارٍ يخاطبُ أبا الوليدِ ابنَ زيدونَ رحمَهُما اللهُ :

- ٥ كيفَ اعْتَرَزْتَ عَلَى الدَّلِيلِ وَقَطَعْتَ أَسْبَابَ الْوُصُولِ؟
وَقَتَلْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّ مِ الدَّنْبَ مِنْهُمَا الْقَتِيلِ
وَعَلَيْكَ جَاهَدْتُ الْعِدَا وَإِلَيْكَ مِلْتُ عَنِ الْعَذُولِ
يَا قَاتِلِي وَدَمِي بِصَفِّ حَقِّ خَدِّهِ أَهْدَى دَلِيلِ
مَا أَلَيْقَ الْفِعْلِ الْجَمِيِّ لَبَذَلِكَ الْوَجْهَ الْجَمِيلِ ا
أُبْرِزْتَ فِي خَلْقِ الْكَرِيِّ مِ وَرَاءَهُ خَلْقَ الْبَخِيلِ
وَدَعَوْتَنِي حَتَّى أَجِبُ تُكِّمَ حَدَّثَ عَنِ السَّبِيلِ
جُدْ بِالْقَلِيلِ فَإِنَّ نَفَّ سَيِّ مِنْكَ تَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ
وَإِذَا كُرُّ عَلَى زَمَنِ قِطْعَةٍ نَاهُ بِصَافِيَةٍ شَمُولِ
إِذَا نَسَحَبُ الْأَذْيَالِ مَا بَيْنَ الْخَلِيجِ إِلَى النَّخِيلِ
وَنَحُلُّ مِنْ سَيْفِ الْغَدِي رِ بُقْبَةُ الظِّلِّ الظَّلِيلِ
وَالرَّوْضُ مَمْطُورٌ تَمِّ مِ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الْقَبُولِ
وَالشَّمْسُ تَرْمُقُنَا خِلَا لَ الْغَيْمِ عَنْ طَرْفِ كَلِيلِ
إِبَّانَ يَحْدُو الرَّعْدُ مِنْ وَرَقِ السَّحَابِ كَالْحَمُولِ (١)
وَيَهْزُ كَفُّ الْبَرْقِ فِي الْآ آفَاقِ مَرْهَفَةِ النُّصُولِ
زَمَنُ سَتَبْكِيهِ الْحَمَا مُ مَعِيَ وَتَذْهَلُ عَنْ هَدِيلِ
- ١٠
- ١٥
- ٢٠

يا برقُ أَدِّ رَسَالَتِي تَقْدِيكَ نَفْسِي مِنْ رَسُولِ
عَرَّجْ بِسِلْبٍ مُحْيِيًّا مَاشَتْ مِنْ تِلْكَ الطُّلُولِ
وَالْمَعُ عَلَى شُرُفَاتِ حِمٍّ صَ قَرَارَةِ الشَّرَفِ الْأَثِيلِ
فَإِذَا اجْتَلَكَ أَبُو الْوَلِي بِدِ بِنَاطِرِ الْيَقِظِ النَّبِيلِ
فَاقْرَأْهُ مِنْ قَلْبِي سَلَا مَا يَقْتَضِي حَسَنَ الْقَبُولِ
يَا غُرَّةَ الزَّمَنِ الْبَهِي مِ وَعِزَّةَ الْأَدَبِ الذَّلِيلِ
وَمُحَكِّمَ الْقَلَمِ الْقَصِي رِ عَلَى شَبَا الرُّمَحِ الطَّوِيلِ
أَعْلَمْتَ أَنِّي خَادِمٌ ذِكْرُكَ بِالشُّكْرِ الْجَزِيلِ؟
لَمْ أَسْتَحِلْ عَمَّا عَهْدُ تَ مَعَ الزَّمَانِ الْمُسْتَحِيلِ
أَشْفَعُ عَنَائِتَكَ الْجَلِي لَمَةً لِي لَدَى الْمَلِكِ الْجَلِيلِ
وَلَنْ أَجِبْتَ لِرَاغِبٍ وَأَقْلَتَ عَثْرَةَ مُسْتَقِيلِ
فَلَكُمْ أَتَيْتَ بِمَثَلِهَا وَهِيَ الصَّنِيعَةُ فِي مَثِيلِ
يَا أَنْسَ بَدْرٌ^(١) فِي الظَّلَا مِ وَبَرْدَ ظِلٍّ فِي الْمَقِيلِ

وله يتغزل في ولادة^(٢) :

يا نازحًا وضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ أَنْسَتَكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ مَوْلاهُ
أَلْهَتَكَ عَنْهُ فَكَاهَاتُ تَلَدُ بِهَا فَلَيْسَ يَجْرِي بِيَالٍ مِنْكَ ذِكْرَاهُ
عَلَّ اللَّيَالِي تُبْقِيَنِي إِلَى أَمَلٍ^(٣) الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ
وله يتشوق إليها^(٤) :

غَرِيبٌ بِأَفْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا تَحْمِلُهَا مِنْهُ السَّلَامُ إِلَى الْغَرْبِ

(١) ب، ت، لب : « بدرى » (٢) راجع ديوانه ص ٢٥٨

(٣) كذا في الديوان ، وفي النسخ : « أجل » (٤) راجع الديوان ص ٣٤

وما ضَرَّ أنفاسَ الصِّبَا في احتِمَالِهَا سلامَ قَتَى يُهْدِيهِ جِسْمٌ إلى قَلْبِ
وله (١) :

أَيُوحِشُنِي الزَّمَانُ وَأَنْتِ أَنْسِي وَيُظْلِمُ لِي النَّهَارُ وَأَنْتِ شَمْسِي ؟
وَأَغْرِسُ فِي مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِي فَأُجِنِّي الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِ غَرْسِي ؟
لَقَدْ جَازَيْتِ هَجْرًا عَنْ وَفَاءٍ وَبَعْتَ مَوَدَّتِي ظُلْمًا بِيَخْسِ
وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِي فَذَيْتُكَ مِنْ مَكَارِهِهِ بِنَفْسِي
وله (٢) :

ولقد شكوتُكَ لِلْهَوَى [٠٠٠] ودَعَوْتُ مِنْ حَنَقٍ عَلَيْكَ فَأَمْنًا
مَنَيْتُ نَفْسِي مِنْ هَوَاكَ بِضَلَّةٍ ولقد تَغَرُّ الْمَرْءُ بَارِقَةُ الْمُنَى

وله يُتَغَرَّلُ وَيُعَاتَبُ مَنْ يَسْتَعِظُ وَيَسْتَنْزِلُ : ١٠

يَا مُسْتَخِفًّا بِعَاشِقِيهِ وَمُسْتَغْنًا لِنَاصِحِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الْوَشَاةَ فِينَا حَتَّى أَطْعَمَنَا السُّلُوفَ فِيهِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرَانِي تَكْذِيبَ مَا كُنْتُ تَدَّعِيهِ

وكتب عن المعتضد إلى صهره الموفق أبي الجيوش ابن مجاهد :

عَرَفْتُ عَرَفَ الصِّبَا إِذْ هَبَّ عَاطِرُهُ مِنْ أَفْقٍ مَنْ أَنَا فِي قَلْبِي أَشَاطِرُهُ ١٥
أَرَادَ تَجْدِيدَ ذِكْرَاهُ عَلَى شَحْطِ وَمَا تَيَقَّنَ أَنَّ الدَّهْرَ ذَاكِرُهُ
نَأَى الْمَزَارُ بِهِ وَالِدَارُ دَانِيَةً يَا حَبِذَا الْقَالُ لَوْ صَحَّتْ زَوَاجِرُهُ
خَلَّى أَبَا الْجِيْشِ ، هَلْ يَقْضَى الْلِقَاءُ لَنَا فَيَسْتَفِي مِنْكَ قَلْبُ أَنْتَ هَاجِرُهُ ؟

بعض خبر ولادة^(١)

قال ابن بسام^(٢) : وأما ولادة التي ذكرها أبو الوليد ابن زيدون في شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري . وكانت في نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها^(٣) ، حضور شاهد ، وحرارة أوايد ، وحسن منظرٍ ومخبر ، وحلاوة موردٍ ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرارِ المصر ، وفناؤها ملعباً لجيادِ النظم والنثر ؛ يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشتها إلى سهولة حجابها ، وكثرة مُنتابها . تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب^(٤) ، وطهارة أثواب . على أنها - سمح الله لها ، وتعمد زللها - أطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مُبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . كتبت - زعموا - على أحد عاتقي ثوبها :

أنا والله أضلح للمعالي وأمشي مشيتي وأنيه تيبها
وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشق من صحن خدي وأعطى قبلي من يشتهيها
هكذا وجدت هذا الخبر . وأبرأ إلى الله من عهدة ناقله ، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه .

ولها مع أبي الوليد ابن زيدون أخبار طوال وقصار . يفوت إحصاؤها ،

(١) ورد هذا العنوان في نسخة . على الهامش ، وهو في هامش ر : « التعريف

بولادة » (٢) رجع الكلام في ر (٣) ب ، ت ، لب : « وأنها »

(٤) ر : « انتساب »

ويشوق استقصاؤها .

قال أبو الوليد^(١) : كنتُ في أيامِ الشباب « وعمره التّصاب ، هائماً بغادة ،
تُدعى ولادة ، فلما قدّر اللقاء ، وساعدَ القضاء ، كتبتُ إلى :

ترقبْ إذا جنَّ الظّلامُ زيارتي فإنّي رأيتُ اللَّيْلَ أكرمَ للسّرِّ
وبيّ منك ما لو كانَ بالبدرِ ما بدا وباللّيلِ ما أدجى ، والنّجمِ لم يسرْ
فلما طوى النهارُ كافورَه ونشرَ اللَّيْلُ عنبرَه^(٢) ، أقبلتْ بقَدِّ كالقضيبي ، وردفِ
كالكتيب ، وقد أطبقتْ نرجسَ المقل على وزدِ الخجل ، فملنا إلى روضِ
مدبج وظلّ سَجَسَج ، قد قامتْ راياتُ أشجاره ، وفاضتْ سلاسلُ أنهاره .
ودُرُّ الطلّ منشور ، وجيبُ الرّاح مَزْرُور ، فلما شَبَبْنَا نارها ، وأدرَكتْ فينا نارها ،
باح كلُّ منّا بحبّه وشكا أليمَ ما بقلبه وبتنا بليلةٍ نجني أفتحوان الثغور ،
ونقطفُ رَمّانَ الصّدور . فلما انفصلتُ عنها صباحا أنشدتها ارتياحا :

ودّع الصّبرَ محبُّ ودّعكَ ذائعٌ من سرّه ما استودعكَ
يقرعُ السنَّ على أن لم يكنْ زادَ في تلكَ الخطي إذ شيعكَ
يا أخا البدرِ سناءً وسنا حفظَ اللهُ زماناً أطلعكَ
إن يطلْ بعدك كئيلي فلکم بتْ أشكو قصَرَ اللَّيْلِ معك !

قال أبو الوليد : وكانت عُتْبَةُ قد غنّتنا :

أحبّتنا إني بلغتُ مؤملي وساعدني دهرِي وواصلني حيي
وجاء يهنيني البشيرُ بقرّبه فأعطيته نفسي ورذتُ له قلبي

(١) رجع الكلام في . (٢) « عيره »

فسألتها الإعادة ، بغير أمر ولادة ، فخبأ منها برق التبسم ، وبدا عارض
التجهم . وعابت عتبة : فقلت :

وما ضربت عني لذنبي أنت به ولكنما ولادة تشتهي ضربي
فقامت تجر الذيل عائرة به وتمسح ظل الدمع بالغم الرطب
فبتنا على العتاب في غير اصطحاب ، ودم المدام مسفوك ، وماخذ اللهو
متروك . فلما قامت خطباء الأطيوار ، على منابر الأشجار ، وأنفت من
الاعتراف ، وباكرت إلى الانصراف ، وشت بمسك الأنقاس ، على كافور
الأطراس :

لو كنت نضيف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصنا مثيرا بجماله وجنحت للغصن الذي لم يُشمر
ولقد علمت بأنني بدر السما لكن دهمت لشوقي بالمشتري^(١)
وأما ذكاه خاطرها ، وحرارة نوادرها ، فآية من آيات فاطرها .

مرّت بالوزير أبي عامر ابن عبدوس المتقدم الذكر ، وكان بقرطبة أحد
أعيان المصر ، وبعض من هذى باسمها ، وتصرفت على حكمها ، وأمام داره بركة
دائمة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ،
وقد نشر أبو عامر كميته ، ونظر في عطفيه . وحشر أعوانه إليه . فقالت له :
أبا عامر !

أنت الخصيب وهذه مضر فتدققا فكلكما بحر
فتركته لا يحير حرفا ولا يرُد طرفا .

(١) لم يقع هذا البيت في ب ، ت

وطال عُمرُها وعُمرُ أبي عامر حتى أَرَبيا على الثمانين ، وهو لا يدَعُ مواصَلتها ، ولا يُغفلُ مراسلتها . وتحيفَ هذا الدهرُ المُستطيلُ حالَ ولادة ، فكان يحْمِلُ كَلِّها ، ويرَفَعُ ظِلِّها ، على جَدَبِ واديه ، وجمودِ روائحه وغواديه ، أترا جَميلاً أبقاه ، وطلَقاً من الظرفِ جَرى إليه حتى استوفاه .

- وكانت — زعموا — تقرِضُ أبياتاً من الشعرِ ، وقد قرأتُ أشياء منه في بعضِ التعليقات ، أضربتُ عن ذِكْرِهِ ، وطويته بأُسْرِهِ ، لأنَّ أكثرَهُ هجاء ، وليس له عندي إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابي أرض ولا سماء .
ونشيرُ ها هنا أيضاً إلى شيء من أخبارِ أبيها المستكني مدّاً لأطْنابِ الآداب ، ووفاء بشرطِ الكتاب .

التعريف بمُحمَّد بن عبد الرحمن بن عُبيد الله النَّاصِرِي والد ولادة^(١)

- قال أبو حيان^(٢) : بُويِعَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِيُّ ، يَوْمَ قُتِلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُسْتَظْهَرُ يَوْمَ السَّبْتِ لثَلَاثِ خُلُوفٍ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، فَتَسَمَّى بِالْمُسْتَكْنِيِّ بِاللَّهِ ، اسماً ذُكِرَ لَهُ فَاخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَحَكَمَ بِهِ سُوهُ الْإِتِّفَاقِ عَلَيْهِ ، لِمَا كَلَّمَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ الْمُسْتَكْنِيِّ الْعَبَّاسِيُّ أَوَّلِ مَنْ تَسَمَّى بِهِ فِي أَفْنِهِ وَوَهْنِهِ ، وَتَخَلَّفَهُ وَضَعْفَهُ ، بَلْ كَانَ هَذَا زَائِداً عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، مُقْصِراً عَنْ خِلَالِ مُلُوكِيَّةٍ كَانَتْ فِي الْمُسْتَكْنِيِّ سَمِيَّةً ، لَمْ يُحْسِنْهَا مُحَمَّدٌ هَذَا لِقَرَطِ تَخَلُّفِهِ عَلَى اشْتِبَاهِهِمَا فِي سَائِرِ ذَلِكَ كُلِّهِ : مِنْ تَوَثُّبِهِمَا فِي الْفِتْنَةِ^(٣) ، وَاسْتِظْهَارِهِمَا بِالْفَسَقَةِ ، وَاعْتِدَاءِ

(١) وقع هذا العنوان في ه فقط على الهامش

(٢) ذكر الخبر موجزاً في ه (٣) ه : « بالفتنة »

كل واحدٍ منهما على ابنِ عمِّ ذي رَحمٍ ماسَّةٌ ، وتوسَّطَ كلُّ واحدٍ منهما في شأنه
بامرأةٍ خبيثةٍ ، فلذلكَ حسناء الشيرازية ، ولهذا بنتُ سكرى العروية ؛
فأصبحا في ذلك على فرطِ التناي عِبرة .

وقال صاحبُ كتابِ نَقْطِ العُرُوسِ : ومن العجبا اتفاقهما في الأخلاقِ
وفي العُمرِ واللَّقبِ ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما خُلِعَ عن الأمرِ ، وكلُّ واحدٍ منهما
تركهُ أبوه صغيراً .

قال أبو حيان : ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في وزْدٍ ولا صَدَرٍ ،
إنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنةً وبليَّةً ، إذ كان منذُ عُرِفَ غُفلاً
عُطلاً منقطعاً إلى البطالة ، مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً من كلِّ خَلَّةٍ تَدُلُّ عَلَى
فضيلةٍ . عَضَّتْهُ الفتنَةُ فأَمْلَقَ حتى استجَارَ طَلَبَ الصَّدَقَةِ . رأيته أيامَ الحُسَيفِ ١٠
بأهل بيته في الدولة الحمُوديَّة ، ولم يكن ممَّن لحقه الاعتقالُ لتحقيرِ أمره ،
يَقْصِدُ أَهْلَ الْفِلَاحَةِ أَوْ أَنْ ضَمَّهِمْ لِفَلَاتِهِمْ يَسْأَلُهُمْ مِنْ زَكَاتِهَا تَكْلِيفاً وَمُخَاطَبَةً .

وبالجملة في تلخيص التعريفِ بأمره أن أجمع أهلُ التَّحْصِيلِ أَنَّهُ لم يجلسْ
في الإمارة مدة تلك الفتنَةِ أَسْقَطَ مِنْهُ وَلَا أَنْقَصَ ، إذ لم يزلَ معروفاً بالتخلُّفِ
والرَّكَاكَةِ ، مُشْتَهَراً بِالشَّرْبِ وَالبَطَالَةِ ، سَقِيمَ السَّرِّ وَالْعِلَانِيَةِ ، أَسِيرَ الشَّهْوَةِ ، عَاهِرَ ١٥
الْخُلُوةِ ، ضِدّاً لِقَتِيلِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُسْتَظْهِرِ فِي الْأَدَبِ ^(١) وَالْمَعْرِفَةِ . وكان افتتح
هذه السَّنَةَ الْمُورَخَةَ الْقَاسِمُ بْنُ حَمُودٍ بِخِلَافَتِهِ ، واختتمها هذا المستكفي المذكورُ .
وكان بينهما عبدُ الرَّحْمَنِ الْمُسْتَظْهِرُ الْقَتِيلُ ، فتصرَّمت تلك السَّنَةُ النَّكِدَةُ عَنْ
ثلاثة خلفاء . وهذا من غريبِ الْأَنْبَاءِ ، وَلِلَّهِ الْبَقَاءُ السَّرْمَدَى .

وقلّد هذا المستكفي الأمر ولم يكن من أهله ، فتلقّى جميع الناس بالإيناس واستمالهم بالأهوية . ورأى أن المال عزيز ، فظنّ البشر الرخيص يقوم مقامه ، أو ينوب منابه . فكان يقول للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وتسّموا بما أحببتم من الخطط . فسمّى بالوزارة في أيامه مفردة^(١) ومُنْتَاة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار . فضلاً عن زعانف الكتّاب والخدمة . وأمّا الشرطة العليا وما دونها من رفيع المنازل فحملها كثير من التجار والعامّة . وانثال الناس على ابتغاء هذه المنازل عند السلطان بالطّاعية في كرّة الدولة ، فغشوا بابه وعمرّوا فناءه ، وتعلّلوا بالمنى . فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم ، وتبرّأ كثير منهم منها . وأقسّم أنّه لم يتقلّدّها ، ولا سيّما عند تكرّر التّقسيط عليهم للغرامة عند إلحاح الإضاقة^(٢) . فخرت بعضهم عند الانتفاء عن تلك الخطط نواذر ظريفة^{١٠} مضحكة . وانتهى هذا التنويه العام . بهذا الملك الهمام . إلى أن فضّله^(٣) أيضاً في طبقات أهل العلم ، فأسمهم منهم الفقهاء ، فأثر العلية منهم المشاورين أصحاب الفتوى بالإرقاء إلى خطة الوزارة ، خالطاً بهم فيها من ذكرناه من زعانف الخدمة . وكبار الدائرة النظار . وجاءوا في ذلك بطامّة لم تُسمع في الأعصر الخالية . فأخطأوا وأحققوا بالدين وضمّة ، وطلبوا زيادة المعتلى على العامّة ، ففتنوا^(٤) بهذه الخطّة ، وشدّوا أيديهم عليها ، وهجروا من خطّهم في الخطاب عنها . معرّضين بما يعاب من ذلك . إلى أن مضوا بسبيلهم . وارتقى المستكفي أيضاً بكثير ممّن يحمل الحابر ، ويدرس مسائل الدفاتر ، من أصاغر الطبقة الفقهيّة ، إلى ما بلغت^(٥) عليهم من منزلة الشورى ، فوسم كافّتهم بوسم الفتوى ، فأُسرف في ذلك

(١) ب : « مفردة » (٢) و : « الإضاقة » (٣) ب ، ت ، لب : « قصه »

(٤) و : « فافتنوا » (٥) ب ، ت ، لب : « بعثت »

حتى بلغ عددهم بقرطبة يومئذٍ إلى الأربعين ، وذلك مما لم يُعهد في الغابرين .
 وكثر الإرجاف بتغيير رجال^(١) الدائرة ، فاضطربت قرطبة لكثرة من
 كان فيها من المردة ، فقبض على جماعة من بني عمه وحاشيته ، منهم علي بن
 أحمد بن حزم ، وعبد الوهاب ابن عمه المتقدم الذكر ، سُجنوا بالمطبق ، ثم
 عاجل المستكني ابن عمه عبد العزيز العراقي ، فخنق وأمسى ميتاً ونعاه إلى
 الناس ، فلم يخف عليهم اغتياله .

وفي أيام المستكني هذا استوصل بقيه قصور جدّه الناصر بالخراب
 وطُمست أعلام قصر الزهراء ، واقتُلِع نحاس الأبواب وِرصاص القني ، وغير
 ذلك من الآلات . فطوى بخرابها بساط الدنيا ، وتغير حُسنها ، إذ كانت جنة
 الأرض ، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك ،
 وأوهن بنية من بعوضة النمرود ، والله يسلط جنوده على من يشاء ، له العزة
 والجبروت .

فلما كانت سنة ست عشرة وتحرك يحيى بن حمود إلى قرطبة ، وضعف أمر
 المستكني ، اتفق الملاء على خلعه ، فدخلوا عليه ، وقالوا له : قد علم الله اجتهادنا في
 تثبيتك ، فاعتاص ذلك علينا ، واضطربنا إلى مقارعة عدونا ، وهانحن خارجون
 إليه ، ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا ، فإن لك الكربة فلا تسر ، فمع
 اليوم غد . فأجمل الرد ، وانقاد الدنية ، واستشعر الذل ، واهتمل الغرة ، وعزم
 على الهروب . فخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات مُتَقَبَّبا بين امرأتين لم
 يُميز منهما لمرانه على التخنيث . وخرج عن قرطبة فمات بأقلش ، فكانت

(١) ب ، ت ، لب : « رجاله »

دولته سبعة عشر شهراً صعباً نكدات ، سوداً مشوهات مشؤومات . انتهى
ما لخصته في حديثه من كلام ابن حيان .

فصل في ذكر الأديب أبي عبد الله ابن الحنّاط الكفيف ،
وسياقة جملة من نثره نظمه .

- وأبو عبد الله ابن الحنّاط هذا زعيم من زعماء العصر كان ، ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان ، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام . وغمرة علم سالت بأعلام الأنام . فكم له من وقدة لا يبرأ أميمها ، ونكزة لا يسلم سليمها . وكانت بينه وبين أبي عامر ابن شهيد بعد تمسكه بأسبابه ، وانحياشه كان إلى جنابه . مناقضات في عدّة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء ، وأخذت عليه بفروج الهواء . وقد أوردت من ذلك ما يكون أنطق لسان ١٠ بنباهة ذكره ، وأعدل شاهد على براعة قدره .

وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال :

- وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان ابن الحنّاط الشاعر الضرير القرطبي ، بقیة الأدباء ^(١) النحارير في الشعر . هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم ^(٢) ، وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة فاجتث أصله . ١٥

وكان من أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والإسلام ، بصيراً بالآثار

العلوية^(١)، عالماً بالأفلاك والهيئة^(٢)، حاذقاً بالطب والفلسفة، ماهراً في العربية^(٣) والآداب الإسلامية،^(٤) وسائر التعاليم الأوائلية^(٥)، من رجل موهن في دينه،^(٦) مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه^(٧)، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أخواله. ولد أعشى الحملاق، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقراً كثيراً في حال عشاءه، ثم طفي نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك فأنجح علاجاً. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير. ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الاستنباط. ونطبيب عنده الأعيان والملوك والخاصة^(٨)، فاعترف له بمنافع جسيمة. وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة.

جملة من نشره

فصل له من رقعة خاطب بها ابن دري:

حنانيك أيها الغيث الهطل، ولبيك أيها الروض الخضل! فإنه طلع علينا من رعين رائد رتع بروضك، وكرع في حوضك. هز بك عطف الشعر، فدد إليك طرفه، وثنى إليك عنان السكر، فحث نحوك طرفه.

وكان فلان ذو الخلق العميم، والخلق الكريم—«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»—يتحفنا من ذكرك بنافجة مسك، ويخبرنا بخبرك عن واسطة سلك، وتعرف مواقع الغيث برؤاده، ويوقف على مواضع الماء برؤاده. فعن مقة نزعنا إليك فاجتهدنا، وعن ثقة نبهنا لها عمر ثم نمنا،

(١-١) نه في ر، (٢) ب، ت: «العربية واللغة» (٣-٣) نه في ر،

(٤-٤) نه في ر، (٥) نه في ر،

وما حر كُنا من أدبك ساكنا . ولا أثرنا من كرمك كامننا ، غير أن الجمر
يُحش على ذكائه ، والنصل يهز على مضائه . فدو نكها قد خبر الحبر تطريزها ،
واليكها قد خلص الفكر إبريزها ، تتلفع منها في حلة ثناء ، وتتوَّج منها إكليل
بهاء ، يُخال مدادها من بهيم الليل صنع ، ويحسب رقتها من أديم الصبح قطع .
أرسلناها كافورة بمسك موسومة ، وأهديناها دُرّة بياقوت مختومة ، وأقدم أولاً
الاعتراف بالتقصير ، وأدع في الكف^(١) عن التعيير ، إذ أهديت الدر إلى منظمه .
وخلفت^(٢) الوشي على منمنمه .

وله من أخرى :

الإسهاب كلفة ، والإيجاز حكمة . وخواطر الالباب سهام . يصاب بها
أغراض الكلام ؛ وأخونا أبو عامر يُسهب نثرا ، ويُطيل^(٣) نظما ، شاححا بأنفه ،
ثانيا من عطفه ، مُتخيلا أنه قد أحرز السباق^(٤) في الآداب ، وأوتي فضل
الخطاب . فهو يستقصر أساتيد الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء .
وابن اللبون إذا ما لُز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وفي فصل منها :

في ليلة بُتها ، والكف الخضيب سوارها البدر ، والشعري العبور وشاحها
النسر ، وكأنما سماءها روضة تفتحت النجوم وسطها زهرا ، وتقجرت المجرّة
خلالها نهرا . واد يسيل بعسجد ، على رضراض زبرجد .^(٥) فلما أصبت
العرّة ، وأقصدت الثغرة ، تقلبت عرارا . وتناومت غرارا ، حتى أبهى الفجر^(٥)

(١) و : « الكشف » (٢) ر : « جعلت »

(٣) ب ، ت ، ر ، لب : « وبطول » (٤) و : « السبق »

(٥-٥) هـ في و ، ر

(١) يَبْرُدُهُ ، وَسِرْبَانِي الصَّبَاحُ يَبْرُدُهُ ، وَهَبَّتْ مِنَ النَّوْمَةِ ، وَصَحَوْتُ مِنْ
النَّشْوَةِ (١) ، فَزَفَّتْهَا إِلَيْكَ بِنْتَ لَيْمَتِهَا عَذْرَاءٌ ، وَجَلَوْتُهَا عَلَيْكَ كَرِيْمَةً حَسَنَاءَ (٢) ،
تَتَلَفَعُ بِحَبْرَةٍ حَبْرَ (٣) ، وَتَتَبَخَّرُ فِي شِعَارِ شِعْرٍ (٤) ، مُؤْتَلِفٌ بَيْنَ رَقِّهَا وَمِدَادِهَا ،
وَمَجْتَمِعٌ فِي بَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا ، اللَّيْلُ إِذَا عَسَّعَسَ ، وَالصَّبْحُ إِذَا تَنَفَسَ ، رَقْعَتُهَا
كَافُورٌ تُنَمِّمُ بِمِسْكِ ، وَخَتَامُهَا يَاقُوتٌ نُظِّمُ فِي سِلَاقِ ، فَتَحَسَّبُ خَطَّهَا تَيْمٌ لَفْظُهَا
فَشْكَاءُ ، وَتَخَالُ الْقَلَمَ رَقًّا لِمَا بِهِ فَبْكَاءُ ، فَأَنْشِدُهَا أَخَاكَ الشَّهِيدَ ، وَكَلْفَهُ عَلَى
العُرُوضِ وَالْقَافِيَةِ مُعَارَضَتَهَا ، وَحَمْلَهُ عَلَى اللَّيْنِ وَالشَّدَةِ مُقَارَضَتَهَا ، فَسَتُوقِدُ بَقْلِيهِ
قَبْسًا ، وَتَضْرِبُ فِي أُذُنِهِ جَرَسًا ، (٥) فَيَتَبَيَّنُ بِهِ حَطُّهُ ، وَيَعْرِفُ لغيرِهِ فَضْلَهُ (٥) .
وَحَتَمَ الرِّقْعَةَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ :

قَصَّرَ عَنْ لَوْحِي اللَّامِ لَمَّا دَرَى أَنَّنِي هَامِمْ
مَا زِلْتُ فِي حُبِّهِ مُنْصَفًّا مَنْ لَمْ يَزَلْ وَهُوَ لِي ظَالِمٌ
أَشْهَرُ لَيْلِي غَرَامًا بِهِ وَهُوَ أَخُو سَالُوَةِ نَائِمِ
مُهَفِّفٌ مَاسٍ فِي (٦) بُرْدِهِ غَضَنُ يُثْنِيهِ الصَّبَا نَاعِمِ
شَمْسٌ وَلَكِنَّمَا فَرَعُهَا لَيْلٌ عَلَى صُبْحِهَا فَاحِمِ (٧)
إِنَّ ابْنَ ذِكْوَانَ ذُو رَاحَةٍ كَدِيمَةٍ صَوَّبَهَا دَائِمِ
لَمْ يَأْتَلِقْ بِرَقِّهَا خُلْبًا وَلَا اتَّقَى خُلْفَهُ الشَّائِمِ
وَمَنْ أَبُوهُ أَبُو حَاتِمِ قَصَّرَ عَنْ جُودِهِ حَاتِمِ
بَيْنِي الْعَلَا بِالنَّدَى جَاهِدًا وَغَيْرُهُ لِلْعُلَا هَادِمِ

(١-١) هـ في ر ، ر

(٢) ب ، لب ، ت : « فكَرْتَهَا » (٣) كَذَا بِالْأَصُولِ وَلَعَلَّهَا : « نَثَرِ »

(٤) ر : « فِي شِعْرٍ أَوْ شِعْرِ » (٥-٥) هـ في ر ، هـ

(٦) هـ : « سَارُوفِي » (٧) لَمْ يَقَعْ هَذَا الْبَيْتُ فِي ر ، هـ

مَحَكَّ حَوْلَ قَلْبٍ مَحَنَّاكَ حَازِمٌ عَازِمٌ
تُبَصِّرُهُ دَهْرُهُ قَاعِدًا وَهُوَ بِأَعْبَانِهِ قَائِمٌ
إِذَا انْتَضَى سَيْفُهُ مُعَلَّمًا لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا الصَّارِمُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا عَالِمًا فَإِنِّي الشَّاعِرُ الْعَالِمُ
الْبَدْرُ فِي أَخْمَصِي شِسْعُهُ وَالشَّمْسُ فِي خِنْصَرِي خَاتِمُ
وَالدُّرُّ لَوْ بَلَغُوهُ الْمُنَى نَظَّمُهُ فِي فَعْيِ النَّاضِمِ^(١)

قوله : « لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا الصَّارِمُ » ، كقول حَسَّانَ بْنِ الْمَصِيصِيِّ :

قَوْمٌ يَمَانُونَ إِنْ سَلُّوا يَمَانِيَّةً لَمْ تَعْرِفِ السَّيْفَ فِي الْهَيْجَامِ الرَّجُلِ

وقال عبد الجليل :

شَبِيهُ مَا اعْتَقَلُوهُ مِنْ ذَوَابِلِهِمْ فَالْحَرْبُ جَاهِلَةٌ مِنْهُمْ الْأَسْلُ^{١٠}

ولابن عبد ربه :

إِذَا أَدَارَتْ بَنَانُهُ قَلَمًا لَمْ تَدْرِ لِلشُّبْهِ أَيُّهَا الْقَلَمُ

وقال بعض أهل العصر :

بِهَا الْخَيْلُ وَالْأَبْطَالُ وَالْبَيْضُ وَالْقَنَّا سِوَاهُ بِحَكْمِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّبِّ
فَلَا فَرْقَ إِلَّا أَنْ يَهْبَّ بِهَا الرَّدَى فَيُعْرِفُ أَنَّ الْفَضْلَ لِلرَّجُلِ النَّدْبِ^(٢) ١٥

وقال أبو الطيب^(٣) :

هُهَامٌ إِذَا مَا فَارَقَ السَّيْفُ غِمْدَهُ وَعَايَنْتُهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا النَّصْلُ

(١) لم يقع هذا البيت في ر ، و ، (٢) لم يقع هذا البيت في ب ، ت

(٣) راجع دايوانه (ج ٢ ص ١٣٤)

وكررَهُ في مَوْضِعٍ آخَرَ فقال ^(١) :

قُلُوبُهُمْ فِي مِضَاءٍ مَا امْتَشَقُوا قَالَمَاتُهُمْ فِي قَوَامٍ مَا اعْتَقَلُوا
وهو من متداوَلَاتِ المعاني . وإنما نقلوا كلُّهم بَيْتَ الحَمَانِي :

مَا عُلِقَ السَّيْفُ مِنَّا بِابْنِ عَاشِرَةٍ إِلَّا وَعَزَمْتُهُ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ
وكررَهُ أيضًا الحَمَانِي فقال :

وَالسَّيْفُ إِنْ قَسَتْهُ يَوْمًا بَنًا شَبَهَا فِي الرُّوْعِ لَمْ تَدْرِ عَزَمًا أَيُّنَا السَّيْفُ

وله من رقعة طويلة خاطبَ بها المظفرَ بنَ الأَفْطَسِ قالَ في أوَّلِهَا :

حَجَبَ اللَّهُ عَنِ الْحَاجِبِ الْمَظْفَرِ ^(٢) أَعْيَنَ النَّائِبَاتِ ۖ وَقَبِضَ دُونَهُ أَيْدِي
الْحَادِثَاتِ ، فَإِنَّهُ مُذْ كَانَ أَنْوَرَ مِنَ الشَّمْسِ ضِيَاءً ، وَأَكْمَلَ مِنَ الْبَدْرِ بَهَاءً ،
وَأَنْدَى مِنَ الْغَيْثِ كَفًّا ، وَأَحْمَى مِنَ اللَّيْثِ أَنْفًا ، وَأَسَخَى مِنَ الْبَحْرِ بَنَانًا ، وَأَمْضَى
١٠ مِنَ النَّصْلِ لِسَانًا ۖ وَأَنْجَبَهُ الْمَنْصُورُ فَجَرَى عَلَى سَنَنِهِ ۖ وَأَدَبَهُ فَأَخَذَ بِسُنَنِهِ ، وَكَانَتْ
الرِّيَاسَةُ عَلَيْهِ مَوْقُوفَةً ، وَالسِّيَاسَةُ إِلَيْهِ مَضْرُوفَةً ۖ قَصَرَتْ الْأَوْهَامُ عَنْ كُنْهِ فَضْلِهِ ،
وَعَجَزَتْ الْأَقْلَامُ عَنْ وَصْفِ مَثَلِهِ . غَيْرَ أَنَّ الْفَضَائِلَ لَا بَدَّ مِنْ تَشْرِihَا ، وَالْمَكَارِمَ
لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ شُكْرِهَا .

١٥ فَالشُّكْرُ لِلْإِنْسَانِ أَرْبَحُ مَتَجَرٍ لَمْ يَعْدَمِ الْخُسْرَانُ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ^(٣)

وله في فصلٍ :

وَرَدَّنِي كِتَابُ كَرِيمٍ جَعَلْتُهُ عِوَضَ يَدِهِ الْبَيْضَاءِ فَقَبَّلْتُهُ ، وَلَحِئْتُهُ

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٥٤)

(٢) ب ، ت ، لب : « الحَاجِبُ مَوْلَايَ وَسَيِّدِي »

(٣) لم يقع هذا البيت في ر ، و

بدلَ غُرَّتِهِ الْغَرَاءَ . فَأَجَلَّتُهُ ^(١) كَتَابُ أَلْقَى عَلَيْهِ الْجَبْرُ حَبْرَهُ ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ
السَّحَرُ فَقَرَهُ ، أَنْذَرَ بِلُؤْغِ الْمُنَى ، وَبَشَّرَ بِمَحْصُولِ ^(٢) الْغِنَى ، تَخَيَّرَ لَهُ الْبَيَانُ فَطَبَّقَ
مَقْصِلَهُ ، وَرَمَاهُ الْبَنَانُ فَصَادَفَ مَقْتَلَهُ . ^(٣) مَعَارِكُ آدَابٍ . وَوَقَائِعُ أَلْبَابٍ . سَالَ
الْمِدَادُ بِهِ نَجِيمَا ، وَجَرَى الْغَرَضُ الْمُجَرَى إِلَيْهِ صَرِيحَا ^(٤) ، وَوَصَلَ مَعَهُ الْمَمْلُوكُ
وَالْمَمْلُوكَةُ اللَّذَانِ سَمَاهُمَا هَدِيَّةً ، وَتَنَزَّهَ كَرَمًا أَنْ يَقُولَ عَطِيَّةً . هِمَّةٌ تَرْحَمُ السَّمَاءَ كَيْنِ ،
وَنِعْمَةٌ تَمَلُّ الْأُذُنَ وَالْعَيْنَ .
^(٥) وَمِنْهُ :

كَتَبْتُ عَلَى الْبَعْدِ مُسْتَجِدِيًّا لِعَلِمِي أَنْكَ لَا تَبْخَلُ
خِجَاءَ الرِّسُولِ كَمَا أَشْتَهِي وَقَدْ سَاقَ فَوْقَ الَّذِي آمَلُ ^(٦)
وَمَا كَانَ وَجْهُكَ ذَاكَ الْجَمِيلُ لِيَفْعَلَ غَيْرَ الَّذِي يَجْمَلُ ^(٧)

وفي فصل :

وَمَا حَرَّكَ الْحَاجِبُ — أَيْدَهُ اللَّهُ — بِكِتَابِهِ سَاكِنًا بِحَمْدِهِ ، وَلَا نَبَّهَ نَائِمًا
عَنْ قَضَائِهِ ، كَيْفَ وَقَدْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ الَّتِي صَارَ بِهَا الْمَغْرِبُ ^(٨) شَرْقًا ، وَهَبَّتِ
الرِّيحُ الَّتِي صَارَ بِهَا الْحَرَمَانُ رِزْقًا ؟ صَاحِبُ لَوَاءِ الْحَمْدِ . وَفَارَسُ مَيْدَانِ الْمَجْدِ ،
طَلَّاعُ كُلِّ ثَنِيَّةٍ ، وَفَعَّالُ كُلِّ سَنِيَّةٍ ، يَسِيرُ ^(٩) صَدْرُ الْجَيْشِ وَهُوَ رَبُّهُ . وَيَتَقَلَّبُ ^(١٠)
فِيهِ وَهُوَ قَلْبُهُ . وَلَوَاءُ النَّصْرِ عَلَيْهِ مَنْشُورٌ ، وَفَوْادُ الْكُفْرِ مِنْهُ مَذْغُورٌ .
^(١١) وَفِي رِسَالَتِهِ هَذِهِ طَوَّلُ تَصَرُّفٍ فِيهَا فِي أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ ، تَصَرُّفَ
الْمَطْبُوعِ ^(١٢) . وَانْدَرَجَ لَهُ فِي أَثْنَائِهَا عِدَّةُ مَقْطُوعَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ ^(١٣) :

(١-١) ن ه في ب ، ت (٢-٢) ن ه في ر ، و ه
(٣-٣) ن ه في ر ، و ه (٤) « آمل » مع ألف التأسيس ، مع سقوطها في
الآيات الأخرى . (٥) ب ، ت ، لب : « الغرب »
(٦) ن ه في ب ، ت ، ر ، لب (٧-٧) ن ه في ر ، و ه
(٨) ر ، و ه : « واندرج له في فصول هذه الرسالة عدة مقطوعات من شعره منها قوله : »

ومُهَفِّهِ قَلَقِ الوشاحِ يروعهُ جرسُ السَّوارِ، ويشتكى من ضيقه
وسنانَ خطِّ المسكُ فوقَ عذاره لَمَّا فَهَمْتُ الموتَ في تعريقه
مزجَ المدامَ بريقه لما سقى فسكرتُ من فيه^(١) ومن إريقه
وحتمَ الرقعةَ بقصيدةٍ هنأه فيها بخروجه من الأسرِ، منها قوله :
لَمَّا أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَكَ الَّتِي قَضَى اللهُ فِيهَا بِالنَّجَاةِ^(٢) وَقَدَّرَا
تَهَلَّتِ الدُّنْيَا وَأَشْرَقَ نُورُهَا وَأَقْبَلَ سَعْدُكَ كَانَ بِالْأَمْسِ أَدْبَرَا
وسينخرطُ في سلكِ أخبارِ ابنِ عبادٍ خبرُ إيساره ، وكيف خرجَ بدره من سراره ،
إن شاء الله .

ما أخرجته من قصائده في المدح . وما يتشبهت به
من الأوصاف .

له من قصيدة في علي بن حمود أولها :

راحتْ تذكُّرُ بالنَّسيمِ الرَّاحَا وَطَفَاءُ تَكْسِرُ لِلْجُنُوحِ جَنَاحَا
أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدَتْ مِنْ بَرَقِهَا كَيْ تَهْتَدِي مَضَا
وَكَاَنَّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَجَابِهَا حَادٍ إِذَا وَنَتْ السَّحَابُ صَا
جَادَتْ عَلَى التَّلَاعَاتِ فَكَتَسَتْ الرُّبَى حُلَلًا أَقَامَ لَهَا الرَّبِيعُ وَشَا
رَوْضُ يُحَاكِى الْفَاطِمَى شَمَانِلًا طَيِّبًا ، وَمَزْنٌ قَدْ حَكَاهُ سَمَا
أَعْلَى إِنْ تَعْلُ الْمُلُوكُ فَإِنَّهُمْ بُهْمٌ جُعِلَتْ أَغْرَافُهَا الْوَضَا
لَمَّا طَلَعَتْ لَهَا بِكَلِّ نَنِيَّةٍ أَنْسَيْتَهَا الْمَنْصُورَ وَالسَّمَا
وله من أخرى :

سُقِيَ بَعْدَنَا بِالْبُعْدِ مِنْ نَعْمٍ نَعْمَانُ وَأَوْحَشَ مِنْ لُبْنَى عَلَى الْبَعْدِ لُبْنَانُ^(٣)

(١) ب ، ت ، لب : « فيه » (٢) ب ، ت ، لب : « بالنجاح »

(٣) لم يقع هذا البيت في م ، و

سَقَى الْقَطْرُ مَا بَيْنَ الْعَمِيقِ وَضَارِجِ
وَحْيًا الْحَيَا عَهْدًا عَهْدَانَهُ بِاللَّوَى
لِيَأْتِيَ رَوْضُ الْوَصْلِ فِيهِنَّ مَمْرَعُ
تَدِيرُ عَلَيْنَا الرَّاحَ فِيهَا جَاذِرُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلِي كَيْفَ صَارَ بَقْلُهُ
وَلَا مِثْلَ هَذَا الْعَدْلِ كَيْفَ أَعَادَهُ
وَلَهُ مِنْ أُخْرَى فِيهِ أَيْضًا :

بَكَيْتُ لَهَا شَجْوًا وَهَنَّ الْجَاهُ
وَلَمَّا عَلَوْنَ الْحَزْنَ وَاعْتَسَفَتْ بِنَا
لَوَيْنَا بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ إِلَى اللَّوَى
لَنِّنْ أَوْحَشَ الرَّبْعِ الَّذِي كَانَ آنَسًا
فَكَمْ لَيْلَةٍ فِيهِ وَصَلْتُ نَعِيمَهَا
سَقَى مَنِبَتِ اللَّذَاتِ مِنْهَا ابْنُ هَاشِمٍ
إِمَامُ أَقَامَ الدِّينَ حُدَّ حُسَامِهِ
وَيَزْهَرُ فِي يَمْنَاهُ نَوْرٌ مِنَ الظُّبَا
وَهَذَا الْبَيْتُ يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ الْمُتَنَبِّي (١) :

سَقَاكَ وَحْيَانًا بِكَ اللَّهُ إِنَّمَا
وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ عَمَّارٍ :

نَدَامَى وَمَا غَيْرُ الشُّيُوفِ أَزَاهِرُ

مَعَارِفَ فِيهَا لِلْأَحَبَّةِ عِرْفَانُ
لَوَى بَيْنَنَا فِيهِ صَدُودٌ وَهَجْرَانُ
وَعَصْنُ الصَّبَا إِذْ ذَاكَ أَخْضَرُ فَيَنَانُ
وَيُسْكِرُنَا بِاللَّحْظِ مِنْهُمْ غَزْلَانُ
مَنْ الْوَجْدِ بَرَكَانُ وَفِي الْجَفْنِ طُوفَانُ
عَلَى ۝ وَقَدْ مَرَّتْ مِنَ الظُّلَمِ أَرْمَانُ

يُنَحْنُ بِلَا دَمْعٍ وَدَمْعَكَ سَاجِمُ (٢)
رَسُومَ الدِّيَارِ الْيَعْمَلَاتِ الرِّوَاثِمُ
وَقَدْ عَلَّمْتَنَا اللَّبْثَ (٣) تِلْكَ الْمَعَالِمُ ١٠
وَأَقُوتُ مِنَ الْحَيِّ الرُّسُومِ الطَّوَاثِمُ (٤)
بِأُخْرَى ، وَأَنْفُ الْمُهْجَرِ بِالْوَصْلِ رَاغِمُ
إِذَا انْهَمَلْتُ مِنْ رَاحَتِيهِ الْغَائِمُ
طَرِيرًا ۝ وَمَنْهُ فِي يَدِ اللَّهِ قَائِمُ
لَهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِينَ كَأَسْمُ ١٥

عَلَى الْعَيْسِ نَوْرٌ وَالْخُدُورُ كَأُثْمُ

لَدَيْهِمْ ، وَمَا غَيْرُ الْغُمُودِ كَأَسْمُ

(١) ب ، ت ، و ، ه ، ب : « البت »

(٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٣٤)

(١) لم يقع هذا البيت في ، و ، ه

(٣) لم يقع هذا البيت في ، و ، ه

وكذلك البيت الذي قبله كقول المتنبي^(١) :

على عاتق الملك الأغر نجاهه وفي يد جبار السموات قائمه
وهو من قول حبيب^(٢) :

لقد حان من يهدي سويداء قلبه لحد سينان في يد الله عامله^(٣)
وفي هذه القصيدة يقول ابن الحنّاط :

سيوف إذا اعتلت جهات ثغورها فمنن في أعناقهن تمام
بكل خميس طبق^(٤) الجو نفعه وضيق مسراه الجياد الصلادم
كأن مثار النقع إمد عينه وأشفار جفنيه الشفار الصوارم
تعد عليه الطير والوخش قوتها إذا سار والتفت عليه القشائم

١٠ وهذا المعنى قد تقدم منه جملة في مكانه ، وذكرت من استن^(٥) في ميدانه .

وقوله : « سيوف إذا اعتلت » البيت من قول المتنبي^(٦) :

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جث القتلى عليهما تمام
وله من أخرى :

لم يخل من نوب الزمان أديب كلاً فشان النائبات تنوب
أمسى قراراً للخطوب وأغتندي غرضاً تفوق نحوّه فتصيب^(٧)
وإذا انتهيت إلى العلوم وجدت شيئاً يعد به عليك ذنوب

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٤٣) (٢) راجع ديوان أبي تمام ص ٢٣١

(٣) لم يقع هذا البيت في (٤) ر ، ه : « طوق »

(٥) ب ، ت ، لب « افتن » — ه : « استبق »

(٦) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٧١) (٧) لم يقع هذا البيت في ر ، ه

وَعَصَارَةُ الْأَيَّامِ تَأْتِي أَنْ يُرَى فِيهَا لِأَبْنَاءِ الدَّكَاةِ نَصِيبُ
وَلِذَاكَ مَنْ صَحِبَ اللَّيَالِي طَالِبًا جَدًّا وَفَهَمًا فَإِنَّهُ الْمَطْلُوبُ
وهذا أيضا من قول المتنبي (١) :

وما الجمعُ بين الماء والنارِ في يدي بأصعبَ من أن أجمعَ الجدَّ والفهما
وقال أبو علي ابن رَشِيقٍ « وولّدَ معنَى زائداً مستظرفاً :
٥

أَشَقَى لَجَدَّكَ أَنْ تَكُونَ أَدِيبًا أَوْ أَنْ يَرَى فِيكَ الْوَرَى تَهْذِيبًا
مَا دُمْتَ مُسْتَوِيًّا فَقَعْلُكَ كُلُّهُ عَوَجٌ وَإِنْ أَخْطَأْتَ كُنْتَ مُصِيبًا
كَالْتَّنْقِشِ لَيْسَ يَتِمُّ مَعْنَى خَتْمِهِ حَتَّى يَكُونَ بِنَاؤُهُ مَقْلُوبًا
ومنها :

أَمَّتْ أُمَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ مَوَاحِلًا فَسَقَى صَدَاها غَيْثُهُ الشُّؤْبُوبُ ١٠
الْمَعْتَلِي بِاللَّهِ وَالْمَلِكُ الَّذِي تَاجُ الْفَخَارِ بِرَأْسِهِ مَعْصُوبُ
إِنْ كَانَ عَدُوًّا حُبَّ (٢) آلِ مُحَمَّدٍ ذَنْبًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْهُ أَتُوبُ
وهذا كقول العباس بن الأحنف (٣) :

إِنْ كَانَ ذَنْبِي فِي الزِّيَارَةِ فَاعْلَمِي إِنِّي عَلَى كَسْبِ الذُّنُوبِ لَجَاهِدُ (٤)

وله من قصيدة يرثي أبا الحزم ابن جهور ، ويهني ابنه أبا الوليد ، وكتب
١٥ بها من الجزيرة الخضراء « إِذْ أَقْصَى عَنْ قَرْطَبَةَ ، أَوْلَهَا :

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرُّزْءِ الَّذِي فَجَعَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْحُكْمِ الَّذِي وَقَعَا
وَلِيَ أَبُو الْحَزْمِ عَنْ مُلْكٍ تَقْلَدَهُ أَبُو الْوَلِيدِ فَعَزَّ الْمَلِكُ وَامْتَنَعَا

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٦٨)

(٢) ب ، ت ، لب : « مدح »

(٣) راجع ديوانه ص ٤٨

(٤) وه : « مجاهد »

أَبُ كَرِيمٌ غَدَا الْفِرْدَوْسُ مَسْكَنُهُ
لِلَّهِ شَمْسٌ صُحِّي فِي اللَّحْدِ (٢) قَدْ غَرَبَتْ
يَا وَاحِدَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا أَقْلُ زَلَلًا
لَوْ أَنَّهُ أُعْطِيَ الدُّنْيَا بِمَا رَحُبَتْ
وَمَا عَسَاكَ سِوَى الْإِحْسَانِ تَصْنَعُهُ
وَقَدْ رَأَيْتَ ابْنَ سَعْدٍ حِينَ أَمَكْنَهُ
لَيَمْنَحُونَّ مَدِيحِي فَيْكَ مِنْ كَشَبِ (٥)
وَقَالَ مِنْ أُخْرَى :

تَفَرَّغْتُ مِنْ شُغْلِ الْمَدَاوَةِ وَالظَّعْنِ
أُمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مِنْ دَمْعِ حُزْنِهَا ١٠
فَلِلَّهِ سَيَرِي يَوْمَ وَدَّعْتُ صُحْبَتِي
رَحَلْتُ فَكُمْ مِنْ جَوْذُرٍ وَغَضَنَقَرٍ
وَمَا عَنْ قَلِيَّ فَارَقْتُ تَرْبَةَ أَرْضِكُمْ
وَيَنْظُرُ هَذَا إِلَى قَوْلِ الْقَسْطَلِيِّ :

وَفَاحَتْ لِيَا لِي الدَّهْرِ (٨) مَنَى مَيَّتًا (٩)
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « رَحَلْتُ فَكُمْ مِنْ جَوْذُرٍ » ، الْبَيْتُ ، مِنْ قَوْلِ الْمُتَنَبِّي (١٠) :

- (١) ب ، ت ، لب ، وه : « فاضطلعا »
(٢) ب ، ت ، ر ، لب : « أبقتة بدر دجى » (٤) وه : « مثل ما »
(٥) ب ، ت ، لب : « عن »
(٦) لم يقع هذا البيت في ر ، وه
(٧) لم يقع هذا البيت في ر ، وه
(٨) كذا ، وفي ب ، ت ، ر : « الترب »
(٩) ب ، ت ، لب : « عنبرا »
(١٠) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٩٠)

رحلتُ فكممُ بالِكِ بأجفانِ شادينِ على ، وكم بالِكِ بأجفانِ ضنِغَمِ

ومنها :

مررتُ بشُوسٍ والنجومُ كأنها توقدُ من فِكْرِي وتُسْرِجُ من ذَهْنِي
وأُسرِيتُ^(١) من بدرِ الظلامِ بألْبَةِ بصحبةِ مطفي الجمرِ أو مكفيِ الظنِ
لبسنا بها ليلًا من الثلجِ أبيضًا كستهُ يدُ الصَّبْرِ ثوبًا من القطنِ
ورحنا على ألبيرةٍ فاستقلَّ بي جناحُ عقابٍ لا يروحُ إلى وكنِ
ولما تنكبتنا المنكبُ لم نجدُ لنا مركبًا أهدى سبيلًا من السفنِ
ترامتُ بنا الأهوالُ في كلِّ لُجَّةٍ تخيلُها جواً تجلَّلَ بالدَّجَنِ^(٢)
ترى السفنَ فوقَ الموجِ فيها كأنها تحذرُ من رَعْنٍ وتؤني على رَعْنِ
فبواتُ رَحْلي ظلَّ أروعَ ماجدٍ يقولُ بلا خُلفٍ ويعطى بلا منِ
إمامٍ ، وصيُّ المصطفى وابنُ عمِّه أبوه ، فتمَّ الفخرُ بينَ أبٍ وابنِ

وله من أخرى :

أرقتُ وقد غنى الحمامُ الهوائِفُ بمنعرجِ الأجزاءِ والليلُ عاكِفُ
أعدن لي الشوقَ القديمَ وطاف بي على النَّأْيِ من ذكرىِ المليحةِ طائفُ
وما الجانبُ الشرقيُّ من رملٍ عالٍ جِ بحيثُ استوت غيظانهُ والنفانِفُ
إذا ما تغنى الرعدُ فوقَ هضابهِ سقى الروضَ من وبلِ الغمامِ وَاكِفُ
بأحسنَ من أطلالِ علوةٍ منظرًا وإن درست آياتهُ والمعارِفُ
خليلى هل بالخيفِ للشَّمْلِ ألفةُ فيأمن قلبُ من نوى الخيفِ خائفُ
أني وقفته عندَ العقيقِ ملامةُ على دَنِفٍ شاقته تلكَ المواقِفُ ؟

(٢) لم يقع هذا البيت في ، ، و

(١) ت ، لب : « وأسرت »

سَقَى عِرْصَاتِ الدَّارِ كُلُّ مُلْتَمَةٍ من المزنِ تَرْجِيها الْبُرُوقُ الْخَوَاطِفُ^(١)
كَأَنَّ نَشِيرَ الْقَطْرِ مِنْهَا جَوَاهِرُ تُفَرِّقُهَا لِلرَّيحِ أَيْدٍ عَوَاصِفُ
كَأَنَّ ابْتِسَامَ الْبَرْقِ فِيهَا إِذَا بَدَتْ سُيُوفُ عَلِيٍّ بِالْدماءِ رَوَافِفُ
وله من أخرى في أبي القاسمِ ابنِ حمود ، ويصفُ خَيْرَانَ الصَّقَلِيَّ ، وقتل المرتضى المروانيَّ أولها :

لَكَ الْخَيْرُ ، خَيْرَانُ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَأَصْبَحَ مَلِكُ اللَّهِ فِي ابْنِ رَسُولِهِ
يقول فيها :

وَفُرَّقَ جَمْعُ الْكُفْرِ واجْتَمَعَ الْوَرَى عَلَى ابْنِ حَبِيبِ اللَّهِ بَعْدَ خَلِيلِهِ^(٢)
وَقَامَ لَوَاهُ الْجَمْعُ^(٣) فَوْقَ مَمْنَعٍ مِنَ النَّصْرِ جَبْرِيلُ أَمَامَ رَعِيلِهِ
وَأَشْرَقَتِ الدُّنْيَا بِنُورِ خَلِيفَةٍ بِهِ لَاحَ بَدْرُ الْحَقِّ بَعْدَ أَفْوِيلِهِ
مِنَ الْهَاشِمِيِّينَ الَّذِينَ بِمَجْدِهِمْ تَعَوَّدَ شَخْصُ الْمَجْدِ جَرَّ ذِيُولِهِ^(٤)
فَلَا تَسَلِ الْأَيَّامَ عَمَّا أَنْتَ بِهِ فَمَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تَأْتِي بِسُيُولِهِ
عَوَائِدُ نَصْرِ مِيزَتِهِ سَيُوفُهُ لَهُ غُرُرُ مَوْصُولَةٍ بِمَجْجُولِهِ
وَلَمَادَعَا الشَّيْطَانُ فِي الْخَيْلِ^(٥) حَزْبَهُ وَأَقْبَلَ^(٦) حَزْبُ اللَّهِ فَوْقَ خَيْوُولِهِ
كَتَائِبُ مَنْ صَنَهَا جَعَةٌ وَزَنَاتَةٌ تَضَاقِقُ فِي عَرَضِ الْفَضَاءِ وَطُولِهِ
تَقَدَّمَ خَيْرَانُ إِلَيْهِمَا بِزَعْمِهِ لِيَدْرِكَ مَا قَدْ فَاتَهُ مِنْ دُحُولِهِ
فَأَجَحَمَ تَحْتَ النِّقْعِ وَالْخَيْلُ تَدْعِي كَمَا ازْدَدَافَ اللَّيْثُ الْهَزْبُ بَرُّ لَغِيلِهِ

(١) ترتب هذا البيت والذي يليه معكوس في ر (٢) لم يقع هذا البيت في ر ، و

(٣) ر ، و : « الرفع » (٤) لم يقع هذا البيت والبيتان التاليان له في ر ، و

(٥) و : « الحرب » (٦) و : « وأصبح »

فَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ عَاوَدَ رَأْيَهُ نَفَلَى لِبَعْضِ الْهَوَلِ جُلَّ فُضُولِهِ
وَوَلَّى وَأَبْقَى مَنذَرًا مِنْ وَرَائِهِ يَقِيمُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ عُذْرَ نَكْوَلِهِ

ذكر الخبر عن مقتل الأمير المرتضى المذكور

- قال ابن حيان^(١) : كان عبد الرحمن بن محمد من ولد الناصر لدين الله قد نصب خليفة بشرقي الأندلس ، وسمى المرتضى ، فزحف بمن تألف معه من الموالي العائرين وغيرهم إلى غزو البرابرة المنتزعين بقرطبة وأعمالها ، وأميرها يومئذ القاسم بن حمود . وعقدوا مع المرتضى على غزو قرطبة ، فخرجوا بجمعهم سنة تسع وأربعمائة فمرّ جوابه في طريقهم إلى غرناطة ليبدأوا بحرب ذلك الفريق من صنهاجة لما ارتأوه من الغدر بسلطانهم^(٢) ، فأوقفوا الجماعة وأحاطوا بها الفاقة ، على أيدي البرابرة ، ورسا بتلك الوقعة ملك الحمودية ، « إذا قضى الله أمراً سبب له أسباباً . ١٠ فجاهوا معهم ، في جملتهم منذر التّجبيّ وخيران الصّقلّ وقطعة من خيل الإفرنجية . ولما حلّوا غرناطة وأميرها يومئذ زاوي بن زيري بن مناد ، ارتاعت صنهاجة واعصوا بأميرهم زاوي كبش الحروب ، فأحكم لهم التدبير ، والدولة تسعده ، والمقدار ينجده . وحملت عنه في تلك الحروب حكايات بدیعة . منها أن المرتضى لما نازله خاطبه بكتاب يدعو فيه إلى طاعته ، ومسح أعطافه ، وأجل مواعده . ١٥ فلما قرئ على زاوي قال لكتابه : اكتب على ظهر رقعتي : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » السورة . لا تزده . فلما بلغت المرتضى أعاد إليه كتاب وعيد ، فلما قرئ على زاوي قال : ردّوا عليه « أَلَهَّاكُمْ

(١) في هذا الفصل زيادات لم ترد في نسخة ر

(٢) هـ : « وقد أسروا الغدر بسلطانهم المرتضى »

التَّكَاثُرُ» إلى آخرها لم يزدْهُ حَرْفًا . فازداد المرتضى غيظًا ، ويُسَّ منه .
 وناشبه القتال ودنا إليه في تعبئة محكمة ، وكرَّاديس منتظمة ، فاقتتلوا
 أيامًا إلى أن انهزم الأندلسيون . وطاروا على وجوههم مسلموهم وإفرنجهم .
 لا يُلَوَّى أحدٌ على أحد ، والخييل تطردُهم في تلك المضايق . وصُرع المرتضى
 في ضنك ذلك المأزق ، ووقع البرابرة من نهب محلة المرتضى على ما لا كفاء
 له اتساعًا وكثرة . ظلَّ الفارس منهم يحى من إتباعة المنهزمين ، ومعه العشرة
 الأبل فما دون ذلك موقرةً بفاخر النهب ، ورفع الشارة والحلية ،
 وحيزت فساطيط أولئك الأمراء . ومضارب الرؤساء ، الذين كانوا في
 جمع ذلك المعسكر الخذول يتباهون بالقوة والشارة ، بجميع ما فيها . وسبق
 سلطانهم زاوي إلى سرادق الحائن المرتضى ، فخازه بما حواه مما كان الأمراء قد
 جمعوا له وجملوه به . وكان أمراؤه والوجوه من أهله قد تناغوا بالبشارة . وجاءوا
 يحىء من لا يشك في الظفر ، فساقوا مع أنفسهم رفيع الحلية كي يتباهوا بذلك
 إذا دخلوا قرطبة ، حتى إن كثيراً من جاليثها والتجار المتجهزين منهم ومن سواهم
 اغترؤا بذلك العسكر الخاوي فصحبوه مبادرين ميسرة الفتح ، وسعة الرِّيح .
 نجابوا وحاق البغي بهم ، وخسرُوا أموالهم .

وأول من انهزم من ذلك العسكر منذرُ بن يحيى وخيران الصَّقْلِي . وكان
 منذرٌ قد أوقع في نفوس مدَّه من رجال الإفرنجية الدُّعْر من غدر الموالي العامريين
 فشغل بذلك بالهم . فلما انهزم لم يعرفوا السرَّ ، وأجفل منذرٌ في أصحابه الثغريين
 فمرَّ بسليمان بن هود صاحبه وهو مثبت للإفرنجية لا يريُّم موقفه . فصاح به :
 النجاة يا ابن الفاعلة . فلست أقفُ عليك ! فقال له سليمان : جئت والله بها صلعاء ،
 وفضحت أهل الأندلس ! ثم انقلع وراءه ببقية عسكره . وانقلع أيضاً خيرانُ

- برجاله . وصبر الموالى العامريون قليلاً حول صاحبهم المرتضى على أحرّ من جمر الغضا . وهو مع جبينه حسن الثبات حتى استحرّ القتل في أصحابه ، وصرع كثير منهم حوله ، فانكشفوا عنه ، وخاف أن يُقبضَ عليه فولّى ، فوضع عليه خيران عيوناً لئلا يخفى أثره . فلاحقوه بقرب وادى آش وقد آمن على نفسه فهجموا عليه وقتلوه ، وجاءوا برأسه إلى خيران ومُنذر . وقد لحقا بالمرّيّة ، فتحدّث الناس ٥ أنهما اصطبحا على رأسه سُروراً بهليكه . وتناولاه من الدّكر عبثاً بما لم يكن أهلاً له ، وجعلوا يقولان : يا أحيمق^(١) فم فاعرض جندك ! كلمة تحدّث بها عنهما جرأة على الله ونكثاً لعهوده . فققد المرتضى على هذه السبيل . ونجا من تلك الملاحمة أخوه أبو بكر ابن هشام ، ولحق بالموالى العامريين فزهدوا فيه فاستقر عند ابن القاسم صاحب حصن البونت^(٢) ، وكان شيعة الروائيّة على سوء ١٠ ما أسلفوه في سلفه ، فأجاره وضيّقه . ولم يزل مقيماً عنده إلى أن كان من تقديمه للخلافة ما كان .

- قال ابن حيان : خلّ بهذه الوقعة على جماعة من الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها ، ولم يجتمع لهم على التبرّج جمع بعد . وأقرّوا بالإدبار ، وباءوا بالصغار . ١٥

وورد على القاسم بقرطبة كتاب زاوى بشرحها مع نصيبه من الغنيمّة . وفي جملة سُرَادِقُ المرتضى . فضربه القاسم على نهر قرطبة وغشيه من النظّارة مُجَلَّة من عليه الناس وقلوبهم تقطّع حسرة منه . فركدت ريح الروائيّة من

(١) ب ، ت ، ر ، لب « يا أحيمر »

(٢) ر : « حصن البنت » — ب ، ت ، لب : « البوب »

ذلك الوقت بقتل^(١) مَنْ نَجِمَ مِنْهُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ ، وَأَيْسَ النَّاسُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ ، وَأَلْوَى الْخُمُولُ بِجُمْلَتِهِمْ ، فَتَقَطَّعُوا فِي الْبِلَادِ وَدَخَلُوا فِي غَسَارِ النَّاسِ ، وَامْتَنَهُنَا وَاسْتَهَيْنَا .

حَدَّثْتُ بَرَوَائِدَ فِي شَرْحِهَا حَصَرْتُهَا تَتِمُّهَا لِلْقِصَّةِ^(٢) :

٥ قالوا : لما جاء منذرُ التَّجِيبي في جيشه مع الإفرنج وغيرهم للاجتماع بالمرتضى بشاطبة لغزو قرطبة ، وفي جلسته ابن مسوف ، اجتاز على بِلَنْسِيَّة فَأَغْلَقَ وَالِيهَا الْمُبَارَكُ^(٣) بِأَيْهَا فِي وَجْهِهِ وَمَنْعَهُ مِنْ دُخُولِهَا . فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِالْمَرْتَضَى بِشَاطِبَةِ أَغْرَاهُ عَلَى مَبَارَكٍ^(٤) أَنْ يُخْرِجَهُ مَعَهُمْ لِلْغَزْوِ فَلَمْ يَجِبْهُ الْمَرْتَضَى لَذَلِكَ ، وَأَقَامَ عُذْرَ مَبَارَكٍ وَأَقْعَدَهُ خَلْفَهُ لَجَمْعِ الْأَمْوَالِ وَإِنْفَازِهَا خَلْفَهُ ، فَأَحْقَدَهُ عَلَيْهِ فَتَجَمَعَ ابْنُ مَسُوفٍ وَخَيْرَانُ وَمَنْدَرُ ، وَتَظَاهَرُوا عَلَى الْعُدْرِ بِهِ ، فَالَوْا بِهِ إِلَى غِرْنَاطَةَ ، وَقَالُوا : لَا يَصْلُحُ أَنْ نَسِيرَ إِلَى قَرْطَبَةَ ، وَوَرَاءَنَا هَذَا الْعَدُو ، ثُمَّ دَشُّوا إِلَى زَاوَى وَأَسْرُوا عَلَيْهِ الْعُدْرَ بِالْمَرْتَضَى . فَلَمَّا أَصْبَحُوا لِلْقِتَالِ جَعَلَ مَنْدَرُ يُحَرِّضُ الْمَوَالِيَ الْعَامِرِينَ سُخْرِيَةً يَبْغِي تَوْرِيضَهُمْ ، وَيَقُولُ : أَيْنَ أَنْتُمْ مَعْشَرَ أَرْبَابِ الْمَمْلَكَةِ الْمُؤَثِّرِينَ عَلَى كُلِّ طَبَقَةٍ ؟ أَيْنَ أَصْحَابُ الْوُظَائِفِ الْمَرْتَبَةِ ؟ هَذَا يَوْمُكُمْ ، تَقَدَّمُوا . فَحَمَى الْقَوْمُ وَخَرَجَتْ صَنْهَاجَةُ وَمَغْرَاوَةٌ مِنْ زَنَاتَةٍ فَاجْتَلَدُوا أَيَّامًا ، فَلَمَّا حَمَى الْوُطَيْسُ أَشَارَ مَنْدَرُ وَخَيْرَانُ بِإِدْنَاءِ الْمُحَلَّةِ إِلَى قُرْبِ حَوْمَةِ الْقِتَالِ . فَلَمَّا زُحِرْخَتْ صَنْهَاجَةُ مِنْ مَوْضِعِهَا اضْطَرَبَ الْعَسْكَرُ^(٥) ، وَشَدَّ الْبَرَابِرُ شَدَّةً مَنكَرَةً ، فَانْحَازَ مَنْدَرُ وَخَيْرَانُ

(١) وَه : « وقتل » (٢) هذا الحديث إلى قوله : « وهول ما عاينه زاوى »

في الصفحة التالية س ٩ لم يقع في ر ، وه (٣) لب : « مبارك »

(٤) في الأصول : « أغراه مبارك على » (٥) لب : « المعسكر »

لأَوَّلٍ وَقَتِهَا وَانْهَزَمَا عَلَى وَجُوهِهِمَا ، فَلَمْ يَكُ لِلنَّاسِ ثَبَاتٌ بَعْدَهَا ۖ فَاسْتَمَرَّتْ بِهِمُ
الْهَزِيمَةُ حَسْبًا تَقَدَّمَ .

وَأُخْبِرَ عَنْ مَنْذِرٍ أَنَّهُ الَّذِي وَرَّطَ الْمَرْتَضَى وَخُلَفَاءَهُ ^(١) ، وَأَخْبَهُمْ أَوْعَارًا صَعْبَةً
حَتَّى أَنْزَلُوهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِ صَنْهَاجَةٍ فِي الْجَبَلِ الْمَطْلِّ عَلَيْهِمْ . وَلَمَّا شَرَعَ فِي قِتَالِهِمْ
بَانَ لِمَنْذِرٍ جِدُّ الْمَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ ، وَلَمْ يَشْكُ فِي ظُهُورِهِمْ فُحْسَدَهُمْ وَتَحْيِيلَ لَهُمْ بِمَا
فَلَّ حَدَّهُمْ . وَكَانَ بَلَّغَهُ أَيْضًا عَنْ زَاوِي أَنَّهُ لَا يَشْكُ فِي الْعَلْبَةِ فَتَدَارَكَهُ بِكِتَابٍ
يُثْنِيهِ بِهِ عَنْ حَرْبِهِ ، فَتَرَاجَعَتْ نَفْسُ زَاوِي وَطَمِعَ فِي النِّجَاجَةِ فَلِذَلِكَ مَا جَدَّ
فِي الْقِتَالِ .

وَلَهْوُلٍ مَا عَايَنَهُ زَاوِي مِنْ اقْتِدَارِ ^(٢) أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي تِلْكَ الْحَرْبِ
وَجَفْجَعَائِهِمْ بِهِ ، وَإِشْرَافِهِمْ عَلَى التَّغْلُبِ عَلَيْهِ ۖ مَا هَانَ ^(٣) سُلْطَانُهُ عِنْدَهُ بِالْأَنْدَلُسِ
وَعَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ عَنْهَا نَظَرًا فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ ^(٤) ، وَدَعَا جَمَاعَةَ قَوْمِهِ مُسْتَنْصِحًا
فَعَصَوْهُ فِي ذَلِكَ ، لَظَنَّهُمْ بِطَيْبِ مَعِيشَتِهِمْ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَلَمْ يَثْنِهِ ذَلِكَ عَنْ
عَزَمِهِ ، وَرَكَبَ هُوَ الْبَحْرَ بِمَالِهِ وَأَهْلِهِ فَلَحِقَ بِإِفْرِيقِيَّةٍ وَطَنِهِ . فَكَانَ مِنْ
أَغْرَبِ الْأَخْبَارِ فِي تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْحُمُودِيَةِ انْزِعَاجُ ذَلِكَ الشَّيْخِ الْبَاقِعَةِ زَاوِي بْنِ
زَيْرِي عَنْ سُلْطَانِهِ ، وَلَفْظُهُ لَمَّا كَانَ يُلَوِّكُهُ مِنْ فِلْدَةٍ كَبِدِ الْأَنْدَلُسِ أَرْضِ الْبِيرَةِ
بِأَثَرِ الْفَتْحِ الْعَظِيمِ الَّذِي أُتِيحَ لَهُ عَلَى الْمَرْتَضَى وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَسَاكِرِ
أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ . فَأَخَذَ فِي عُبُورِ الْبَحْرِ حِينَ صَفَا الْعَيْشُ وَاخْضَرَّ عَوْدُهُ ، وَوَقَمَ

(٢) وَه : « اعتداد »

(١) فِي النسخ : « وخلفاءهم »

(٣) وَه : « ماهون »

(٤) ب ، ت : « أمره » ، فتجدد لذلك أثر الفتح عليه « ودعا »

العدو وفلَّ غربه ، فصمَّ في الرحيل بعد أن استأذن صاحب إفريقية يومئذ المعز
ابن باديس ابن عمه في ذلك فأذن له ، وحرص جميع بني عمه بالقيروان على
رجوعه لهم لحال سنه ، وتعرَّيهم يومئذ عن مثيله من مشيختهم لمهلك جميع
إخوتهم ، وحصوله هو ^(١) . فعدد بني مناد ، الغريب شأنه ، في ألاَّ يحتجب
عنه من نسايتهم زهاء ألف امرأة في ذلك الوقت هن محرم ^(٢) له من بنات
إخوته وبناتهن وبني بنهن . فرحل عن الأندلس سنة عشر وأربعمائة ،
واستقلت به سفنه من مرسى المنكب ، وفي شحنتها من ذخائر الأندلس
ما يفوت الإحصاء كثرة لعظيم ما خمسهُ أيام الفتنة . فاجتمع شمله بالقيروان ،
وأقره المعز في دولته وكنفه . إلا أنه لم يؤثره ولا أناف بمحلّه ولا قلده ولا
واحداً من ولده شيئاً من عمله ^(٣) ، بل وكلهم إلى سُخْتهم ^(٤) .

قال ابن حيان :

وحدثت عن السبب المزعج كان لزاوي يومئذ في ارتحاله . وذلك أنه لما
انهزم المرتضى قال زاوي لقومه : كيف رأيتم ما قد خلصنا منه ؟ قالوا : عظيماً !
قال : فلا تتناسوه وتغالطوا أنفسكم بعده . إن انهزام من رأيتموه لم يكن
عن قوّة منا . إنما جرّه مع القضاء غدُرُ ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا ،
فاني عرفت ذلك من يوم نزولهم ، ولذلك ما كنت أقوى نفوسكم وقد نجّانا
الله منهم برحمته ، ومضى القوم ولم يعدوا إلا رئيسهم ، واستخلافه حين
عليهم . ولست آمن عودهم جملة إليكم فيما بعد فلا يكون لنا قوام بهم . فالراي

(١) ب ، ت ، لب ، ر : « وحصوله »

(٢) ب ، ت ، لب : « زعموا محرم »

(٣) ب ، ت ، لب : « أولاده شيئاً من أعماله » (٤) ر : « محرم »

الخروج عن أرضهم ، واغتنام السَّلامة مع إحراز الغنيمة ، والرجوع إلى الجملة التي انفصلنا عنها كانهين للعِيال والذَّريَّة ، مباعدين لهم لما وراءنا من أهل جنسنا^(١) زناة ، الأعداء في الحقيقة ■ الذين لا يغفلون عنا وإن غفلت الخليقة ، لاسيما وقد قرَفنا قرَحهم ، ونَبشنا أحقادهم المدفونة . فإن فرغوا لنا على قلة عددنا ، وظاهرُوا علينا الأندلس وقَعنا منهم بين لِحْي أسد فاصطلمونا .
وها أنا قد أدبْتُ لكم النصيحة ، وأنا راحِلٌ عن الأندلس ، فمن أطاعني فليرحلْ معي . فلم يساعده أحدٌ ، فرحل كما وصفناه .

وبلغني أن حلالى بن زاوى تلوَّم بغرناطة بعد حصول والده بالمنكب أياما لتتميم لُباناته^(٢) . وقد دبر مع الراحلين^(٣) من بنى عمه القبض على قاضي البلد ابن أبي زمنين والشيخ من أهله إذا رجعوا من تشيع أبيه ليأخذ أموالهم .
فاهتدى ابن أبي زمنين لتدبيره ونكب عن المنكب إلى حبُّوس ، وكان متوقفا بحصن آس يرتقب ركوب عمه البحر فيلحق بغرناطة ■ فكان ذلك كذلك .
فركب مع ابن أبي زمنين وقد خوفه بوائق الإبطاء ، فلم تشعر صنهاجة حتى أطلَّ عليهم قارعا طبوله ، فخرجت صنهاجة تستقبله ووقف ابن عمه حلالى بباب البلد حائرا قد فسد تدبيره على ابن أبي زمنين ، ولم يُعرج حبُّوس عليه حتى صعد إلى قصبة غرناطة فضبطها وحطَّ رحله فيها . ثم خرج إلى ابن عمه حلالى ليودِّعه فعاتبه حلالى في اقتحامه عليهم وقال له : الفوت خفت أبا مسعود في بدارك !
أهذا دخول مُكتئِب بفراق عشيرته ؟ هو بدخول شامتٍ أشبه ! كأنك فتحت بلدا وطردت عدوا ! فاعتذر له حبُّوس ■ وقال : ما ذاك إلا لرسم الإمارة ، وإرهاب الرعيَّة . ثم استوطن حبُّوس البلد وأورثه عقبه .

٢٠

(١) ب،ت،ر: د جنسه ■ (٢) ب،ت،ل: « حاجاته » (٣) ر: « الداخلين »

قال ابن حيان : وبلغني أن زاوي استوهب علي بن حمود ، يوم قُتل سليمان بن الحكم رأسه ، حنقاً على بني مروان المهدي إليهم رأس زيري والده ، وأنه أسمعهُ بذلك ، فصار عنده ، ونقله من الأندلس معه في ذلك الوقت مفتخراً به على أهل بيته . فإن يكن ذلك حقاً فزاوي أكبر من أدرك الثار المنيم ، ورخص العر المقيم . وأخبار هذا الداهية زاوي كثيرة ، ونوادير أفعاله مأثورة . ٥

وكان حبوس هذا أحد نائبي برايرة الأندلس الذين يعتد بهم^(١) ، لم يبق بعده يومئذ سوى محمد بن عبد الله نظيره من شُرب له شذاة . وكان على قسوته يُصنى إلى الأدب ، وينتمى في العرب ، للأثر المفقود في قومه صنهاجة . وكان يؤثر لذلك « كتاب التيجان » في ذكر مناقبهم^(٢) ، ولا يُغيب سماعه ومطالعته . وكان وقوراً حليماً ، نظماً مهيباً ، نزر الكلام ، قليل الضحك ، كثير^(٣) الفكر ، شديد الغضب ، غليظ العقاب^(٤) ، شجاعاً حسن الفروسيّة ، جباراً متسكراً داهيةً ، واسع الحيلة ، كامل الرجولة^(٥) ، له في كل ذلك أخبار مأثورة^(٦) . ١٠

أخبرني أبو الوليد ابن زيدون قال :

سأل حبوس يوماً محمد بن عبد الله في بعض التقائهما عن سنّه بمعراض فقال : ابن كم كنت يوم قُتل محمد بن الخير ؟ فأجابه مُسرّعاً : كنت يوم قُتل ١٥

(١) ب ، ت ، لب : « يفترقون عنها »

(٢) ب ، ت ، لب : « كتاب التيجان لابن دريد في ذكر مناقبهم »

(٣) ب ، لب ، ت ، و : « طويل »

(٤) ب ، ت : « الحجاب »

(٥) ب ، ت ، لب ، و : « الرجولية »

(٦) ب ، ت ، لب ، و : « مشهورة »

زيري بن مناد يَفْعَةً ، وشهدتُ وقعته مع قومي ابن كذا ! فتبسّم حبّوس ،
وعجّب مَنْ حضر مِنْ فطنتهما . وإنما أراد حبّوس تغيير ابن عبد الله بمقتل ابن
الخير سلطان زناتة المصاب في وقعة صنهاجة ، فعارضه ابن عبد الله بذكر وقعته
بجدّ حبّوس زيري بن مناد . فلو كانا في الرّعيّل الأول من أذكياء العرب ما زادا
على ما أتيا به .

وقد أعاد على ولد ابن عبد الله أيام لقيته بقرطبة عن والده محمد
ابن عبد الله بألف من هذا التعريض * مكتفياً باسم الموضعين عن ذكر اسم
الرجلين ، فقال : قال حبّوس لوالدي يوماً : أشهدتَ يومَ تلمّسان ؟ فقال له
والدي : لا ، أوّلُ مشاهدي يومٍ كَرَضَ ! ويومُ تلمّسان يومُ الخيرِ وزناتة ،
ويومُ كَرَضِ يومِ زيري وصنهاجة . فلم يزد أحدهما على التّبسّم ، وما درى من
معهما ما ذهبوا إليه . انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسّام : ومن مליح التلويح بالمعاريض قولُ رجلٍ من نُميرٍ وقد
سأره ابن هُبيرةَ الفزاري فزادت بغلة النُميري عليه . فقال له ابن هُبيرة : غَضَّ
من لجامها ! فقال : إنها مكتوبةٌ أعزك الله ! فضحك . وإنما أراد ابن هُبيرة
قول جرير :

* فُضِّضَ الطرفَ إنك من نُميرٍ *

وأراد النُميري قول ابن دارة في فزارة :

لا تَأْمَنَنَّ فزاريّاً خلوتَ به على قلوصلِكَ واكتَبَها بأسيارِ

وكانت فزارة تُرمي باتيان الإبل ، ولذلك قال الفرزدق يهجو ابن هُبيرة :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ بَرٌّ حَلِيمٌ لَسْتَ بِالْجَشَعِ الْحَرِيصِ ^(١)

(١) لم يقع هذا البيت في ب ، ت ، لب

أُولَيْتَ الْعِرَاقَ وَرَافَذَيْهِ فزَارِيًّا أَحْذَيْدَ الْقَمِيصِ ؟
ولم يكُ قَبْلَهَا رَاعِي مَحَاضٍ لِيَأْمَنَهُ عَلَى وَرِكَيْ قَلُوصٍ
ومن المعارِضِ : أن رجلاً هَلَالِيًّا باتَ مع رجلٍ من مُحَارِبٍ على بعضِ
المياه ، وقد كَثُرَ فِيهِ صِيَاخُ الصَّفَادِ ع ۥ فقال الهَلَالِيُّ : ما تركتُنا شِيُوخُ مُحَارِبٍ
نَنَامُ اللَّيْلَةَ ! فقال له المحارِبِيُّ : إِنَّمَا أَضَلَّتْ^(١) بُرْقُعًا فُجِعَتْ تَطْلُبُهُ ! أراد الهَلَالِيُّ
قولَ القائل :

تَجِيشُ بِلَا شَيْءٍ شِيُوخُ مُحَارِبٍ وما خَلَّتْهَا كَانَتْ تَرِيشُ وَلَا تَبْرِي
صَفَادِ عٍ فِي ظِلْمَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبَحْرِ
وَأَرَادَ الْحَارِبِيُّ قولَ الْآخِرِ :

١٠ لِكُلِّ هِلَالِيٍّ مِنَ اللَّوْمِ بُرْقُعٌ وَلَا بِنِ يَزِيدُ بُرْقُعٌ وَجِلَالُ^(٢)
وحضر بابَ عَبْدِ الْمَلِكِ نَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ فِيهِمْ تَمِيمِيٌّ وَنُمَيْرِيٌّ ، فَرَّ عَلَيْهِمُ رَجُلٌ
يَحْمَلُ بَازِيًا ، فَقَالَ التَّمِيمِيُّ : مَا أَحْسَنَ هَذَا الْبَازِي ! فقال النُّمَيْرِيُّ : أَجَلُ ،
وَهُوَ يَصِيدُ الْقَطَا ! أراد التَّمِيمِيُّ قولَ جَرِيرِ :

أَنَا الْبَازِي الْمَطْلُ عَلَى نُمَيْرٍ أُتِيحَ لَهَا مِنَ الْجَوِّ انْصِبَابًا
وَأَرَادَ النُّمَيْرِيُّ قولَ الطَّرِمَاحِ :

١٥ تَمِيمٌ بِطَرَقِ اللَّوْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكْتَ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ
ومن المعارِضِ : قول معاويةَ للأخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ : مَا الشَّيْءُ الْمَلْفَفُ
فِي الْبَجَادِ ؟ قَالَ السَّخِينَةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أراد معاويةُ قولَ القائل :

(١) وه : « أضاعت »

(٢) كذا ، وفي المقدم الفريد (ج ٢ ص ١٤) : « برقع وقيص »

إذا ما مات ميتٌ من تميمٍ فسرَّك^(١) أن يعيشَ فجئُ بزادِ
بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمنٍ أو الشيءَ المُلففِ في البجادِ
وأرادَ الأحنفُ أن قُرِيشاً كانت تُعيرُ بأكلِ السَّخِينَةِ^(٢) ، وهي حساءٌ من
دقيقٍ يُتخذُ عند غلاء السَّعَر . وفي ذلك يقولُ شاعرٌ كِنَانَةٌ :

- يا شَدَّةَ ما شَدَدْنَا غيرَ كاذبةٍ^(٣) على سَخِينَةٍ لولا اللَّيْلُ والحَرَمُ
ومن المعاريضِ : قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ هاجر إلى المدينة
مُخْفِياً لَشَأْنِهِ عن قُرَيْشٍ ، ومعهُ أبو بكرٍ ، فكلَّمَا سَأَلَهُمَا سَائِلٌ عن شَأْنِهِمَا قالَ :
نحنُ باغٍ وهادٍ ، يريدُ باغياً للخيرِ ، وهادياً إليه .

- ومنه : قوله عليه السلام ، حينَ خرج هو وأبو بكرٍ يتجسَّسانِ عن العيرِ ، وقد
سألاً بَسْبَسًا فأخبرهُمَا على أن يخبراهُ بأمرِهِمَا ، فلمَّا أخبرهُمَا وسألهُمَا قالَ له عليه
السلام : نحنُ من ماء . فقالَ لهما بَسْبَسٌ : ما رأيتُ كالِيومِ عَجَبًا . أمِنْ ماءٍ
كذا ، أمْ من ماءٍ كذا ؟ يعددُ مِياهَ العربِ . وقد قالَ عليه السلامُ لأصحابِهِ
حينَ أرسلَهُمْ إلى بني قُرَيْظَةَ أَيَّامَ الأحزابِ : إن رأيتُموهم على غيرِ ما أَحِبُّ
فالحنُوا لي . فلمَّا انصرفُوا قالوا له : يا رسولَ اللهِ ، عَضَلُ والقَارَةُ . وقد كان هذان
القبيلان غَدَرًا ، فكُنِيَ لهما بهما أصحابُهُ عن غَدْرِ بني قُرَيْظَةَ .

١٥

ومما يتعلَّقُ ببابِ المعاريضِ : قوله عليه السلامُ للمرأةَ : عَلِمِي حَفْصَةَ
رُقِيَةَ النَّمْلَةِ ! وكانت حَفْصَةُ عليها السلامُ عندما يريدُها صلى الله عليه وسلم
ربما تأبَّتْ ، فأرادَ أن يلحَنَ لها برُقِيَةِ النَّمْلَةِ ، وكانت العربُ تَرُقِيها في

(١) ب ، ت ، هـ : « وسرك » (٢) ر ، هـ : « بالسخينة »

(٣) ب ، ت ، هـ : « منكرة »

الجاهلية . يقول لها : العروسُ تكتحل وتحتفل ، وكلُّ شيءٍ تفتعل ، غيرَ تعاصي الرجل .

وشبيه هذا ما فعله معاوية — رحمه الله — حين بلغه أن بعض بناته تمتنع ، فدخل عليها ، فجعل ينكتُ بقضيبه ويُنشد :

من الخفريات البيض أَمَا حَرَامُهَا فَصَعْبٌ ، وَأَمَا حِثُّهَا فَذُلُّ

ومن المعارض : الخبرُ المأثورُ عن كثيرٍ وجميلٍ قال : زار جميلُ بثينةٍ ورامَ إيصالَ شيءٍ إليها فعزّه ذلك . فلقِيَ كثيرًا وقد ارتحل من عند أبيها ، فسأله عن موضعِ مَبِيَّتِهِ فقال : كنتُ عندَ أبي بثينة . فقال له : هل إلى إعلامِها أَتَيْتَها هُنَا سَبِيلُ^(١) ؟ فقال : هل كانَ بينكما شيءٌ تعرفُهُ هي ؟ فقال : نعم ، آخرُ عهدي بها بأسفلِ وادي الدَّومِ . وأصابَ عمامتي شيءٌ ففسلته جاريته . فرجعَ كثيرٌ قبل أن يقومَ والدُ بثينة من مجلسه ، فقال : ما رَجَعْتُكَ ؟ قال له كثيرٌ : أبياتٌ قلتُها وأُحِبُّتُ أن تسمعَها . قال : هاتِ ما عندَكَ . فأنشده :

وَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزُّ أُرْسِلْ صَاحِبِي عَلَى طَوْلِ نَائِي وَالرَّسُولُ مُوَكَّلُ
بأن تجعلي بيني وبينك موعدًا وأن تأمريني بالذي فيه أَقْلُ^(٢)
وآخرُ عهدي منك يومَ لَقِيتَنِي بأسفلِ وادي الدَّومِ والثوبُ يُفْسَلُ

فقلتُ بثينة : اخسأ ! فقال أبوها : مالكِ يا بُثِينَةُ ؟ قالت : كلبٌ يأتينا إذا هَوَّمَ الناسُ من وراءِ هذه الراية !

قال : ودخلَ محمدُ بنُ أميةَ الشاعرُ مجلسًا فيه قينةٌ تغني فأعجبته فقال لها : جُعِلَتْ فِدَاكَ ، أَتُحْسِنِينَ أَنْ تُغَنِّي :

(١) هـ : « هل إلى إعلامها سبيلُ أتَيْتَها هُنَا ؟ »

(٢) هـ : لم يقع هذان البيتان إلا في هـ .

خبريني : مَنْ الرَّسُولُ إِلَيْكَ ؟ واجعليه مَنْ لَا يَنْهَى عَنْكَ عَلَيْهِ
فَقَالَتْ لَهُ : لَا ، وَقَدِّمْتُ قَبْلَكَ ، وَلَكِنِّي أَغْنَى فِي طَرِيقَتِهِ :
أَحْمَدُ قَالَ لِي ، وَلَمْ يَذَرِ مَا بِي : أَتُحِبُّ الْعَدَاةَ عُتْبَةَ حَقًّا ؟
وَأَوْمَاتُ إِلَى مُحَنَّثٍ كَانَ عَلَى رَأْسِهَا اسْمُهُ أَحْمَدُ .

وقد أرخص الفقهاء في هذه المعارض . وقال بعض السلف : في المعارض
مندوحة عن الكذب .

وكان النخعي إذا خرج من عنده أصحابه يقول لهم : قولوا لمن سألكم عني :
لَا نَذْرِي أَيْنَ هُوَ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ أَيْنَ أَتَحْوَلُ مِنَ الدَّارِ .

ومنها قول شريح رحمه الله في شأن عبد الملك ، وقد عاده في عِلَّتِهِ التي مات
منها : تركته يأمر وينهى ! فلما استفتهم^(١) قال : يأمر بالصَّيَّةِ . وينهى
عن البُكَاءِ .

وأهدى علي بن هشام إلى المأمون جارية اسمها صرف حين أحس بتغيره
عليه ، وأمرها أن تكتب إليه بما عسى أن تحس به من ذلك إليه . فوقف^(٢)
يوما بين يديه فسقطت منه رقعة ، فأخذها المأمون فإذا فيها : « يا موسى !
يا موسى ! ليس شيء غير ذلك . فقال المأمون لجلسائه : أيكم يعلم إيماء هذه الرقعة ؟
فكلهم قال : لَا أَدْرِي . فقال : هذه كُتِبَتْ مِنْ قَصْرِى . تُخَوِّفُ هَذَا الرَّجُلَ
بَادِرَتِي . أَرَادَ كَاتِبُهَا قَوْلَهُ تَعَالَى : « يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ »^(٣)
ثم حذف إخفاء ، وكرّر تأكيداً . فبحث عن أمر الرقعة فإذا هي لصرف .

(١) ب ، ت ، لب : « استفسر » (٢) هنا يبدأ خرم في لب

(٣) راجع سورة ٢٨ : ٢٠

ومن مליح فطنة المأمون أيضاً — وله بهذا الباب بعض تعلق — أنه : جلس يوماً في بعض مجالس أنسه ، وفي المجلس عريب المأمونية ، وأحمد بن محمد بن حمدون الذي كان يهواها ، فأومأ إليها بقبلة ، فاندفعت تغني بيت النابغة الجعدي .

رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة كحاشية البرد اليماني المسهم .

• فقال المأمون : من أومأ إلى عريب بقبلة ؟ فوجم الحاضرون . فعزم عليهم ليخبروه ^(١) . فقال أبو عيسى أخوه : لا تطلم الناس . من يجترئ على هذا إلا هذا الفاسق ؟ وأومأ إلى ابن حمدون . فاستفسر المأمون من أين وقع له ذلك . فقال : هي لا تغني حتى تؤمر واندفعت تغني ارتجالاً .

^(٢) ودخل حارثة بن زيد على زياد وفي وجهه أثر . فقال له زياد : ما هذا الأثر في وجهك ؟ قال : ركبْتُ فرسي الأشقر فجمح بي ! فقال : أما إنك لو ركبْتَ فرسك الأشهب ما فعلَ ذلك ! فكُنِيَ بالأشقر عن النبذ . وبالأشهب عن اللبن ^(٣) .

(١) ب : ت : « على وعلى » لن لم يخبروني لأقتلنكم .

(٢-٢) ده في ر ، هـ



انتهى المجلد الأول من القسم الأول

ويليه

المجلد الثاني من القسم نفسه

وأوله ترجمة عبادة بن ماء السماء .

فهرس

صفحة

مقدمة المؤلف : منهجه في الكتاب	١
القسم الأول : في أهل حضرة قرطبة وما يصاحبها من آخر دولة بنى عامر إلى زمن المؤلف ويشتمل على :	
المستمعين بالله سليمان بن الحكم	٢٤
حربه مع ابن عمه المهدي	٣٠
مكانته في الأدب	٣٢
قطعة من شعره عارض بها شعراً لهارون الرشيد	٣٣
المستظهر بالله (عبد الرحمن الناصري)	٣٤
بمعته	٣٥
مقتله	٣٨
مكانته في الأدب	٤٠
قصيدته في مشنف زوج سليمان بن الحكم وأم معشوقته حبيبة	٤٠
قصيدة له فيها	٤١
أبيات أخرى في حبيبة	٤٢، ٤١
أبيات له وقع بها في تهنئة	٤٢
أبيات له في الغزل	٤٣
ابن دراج القسطلي	٤٣

صفحة

٤٥	فصل من رسالة له
٤٦	فصل من رسالة له إلى سليمان بن عبد الحكم
٤٧	فصل من رسالة له
٤٧	فصل من رسالة له إلى علي بن حمود
٤٨	فصل من رسالة له إلى منذر بن يحيى التجيبي
٤٩	فصل من رسالة له
٥١	قصيدة له في سليمان بن الحكم
٥٣	قصيدة له فيه
٥٤	قطعة من قصيدة له فيه أيضاً
٥٦	قطعة من قصيدة أخرى له فيه أيضاً
٥٨	تعليقات للمؤلف في نقد بعض الأبيات
	قصيدة له في مدح عيسى ابن سعيد القطاع ، وفي ثنائياها بعض
٦٠	تعليقات للمؤلف
٦٤	قطعة من قصيدة له في مدح المرتضى آخر ملوك بني مروان
٦٥	قطعة من قصيدة في المنصور بن أبي عامر
٦٧	قطعة من قصيدة في ابن أزرق
٦٨	قطعة من قصيدة أخرى له ، يليها تعليقات للمؤلف
	إحدى هاشمياته وهي لاميته الشهيرة في علي بن حمود ، وفي ثنائياها
٧٠	تعليقات للمؤلف
٧٤	قصيدته في خيران العامري صاحب المرية
٧٨	امارة علي بن حمود
٨٢	مقتله

صفحة

ابن برد الأكبر	٨٤
فصول له من العهد المفقود للناصر عبد الرحمن ابن أبي عامر	٨٤
فصول من رقعة كتبها عن المظفر بن أبي عامر	٨٦
فصول له عن المظفر بن رزين	٨٨
فصول له عن سليمان بن الحكم إلى جماعة العبيد	٨٩
فصول له عن سليمان إلى ابن [؟]	٩٤
فصول له عن سليمان إلى منذر بن يحيى	٩٦
فصل له من رسالة إلى ابن صمادح	٩٦
فصل من رسالة أخرى له	٩٧
فصول له عن علي بن حمود إلى منذر بن يحيى	٩٧
فصل من رسالة له	٩٩
فصل له من رسالة عن علي بن يحيى في معنى الرعية	٩٩
فصلان من رسالة عن المظفر بن أبي عامر حين قتل عيسى بن سعيد	
القطاع وزيره	١٠٠
التمريف بالوزير عيسى ابن سعيد القطاع ومقتدر	١٠٢
قصيدة ابن برد إلى صاعد اللغوى	١٠٨
قصيدة صاعد في الرد عليه	١٠٩
عبد الوهاب بن حزم	١١٠
فصل من رسالة ابن الربيب اللغوى إليه	١١١
فصول من رسالة ابن حزم في الرد على ابن الربيب	١١٣
فصل من رسالة له	١١٦

صفحة

معارضة لرسالة بديع الزمان في غلام معذر	١١٧
استطرادات للمؤلف في التعذير	١١٩
فصل من رسالة له	١٢٧
فصل له من رقعة شفاعة ..	١٢٧
فصول له من رسائل مختلفة ..	١٢٨
فصل من رسالة يخاطب بها الفقيه بن عبد البر	١٣٤
فصل من رسالة له	١٣٥
فصل من رسالة له خاطب بها الفقيه أبا محمد بن حزم	١٣٦
رد الفقيه ابن حزم عليه ..	١٣٨
ذكر الفقيه أبي محمد بن حزم وبعضه أشعاره	١٤٠
بعض شعر عبد الوهاب بن حزم في أوصاف شتى	١٤٧
التعريف بمنذر بن يحيى النخعي	١٥٢
مقتله ..	١٥٦
ابن شهيد ..	١٦١
فصل من رقعة خاطب بها المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن أبي عامر	١٦٣
فصل من رسالة له	١٦٦
جواب له على خطاب	١٧١
فصل من رقعة له إلى المؤمن ..	١٧٣
فصول من رسالة له إلى الوزير ابن عباس	١٨٠
أبيات بعث بها الوزير أبو مروان الجزيري إلى ابن شهيد : وجواب	
ابن شهيد عليها ..	١٨٤
أبيات له في صفة النحل ..	١٨٥

صفحة	
١٨٥	أبيات له في صفة البرغوث
١٨٦	رسالة له
١٩٠	قطع من قصيدة له
١٩٢	فصول من رقعة خاطب بها مجاهدا أمير دانية
١٩٥	فصول من رقعة له إلى الكاتب أبي بكر المعروف باشكيط
٢١٠	فصول من رسالته الشهيرة المعروفة بالتوايع والزوايع
٢٤٠	فصل في ذكر ابن أبي فليبي
٢٤٢	رجع إلى رسالة التوايع والزوايع
٢٥٧	مقطعات في وصف الحمام
٢٥٩	فصول في ذكر أخبار الحاجب أبي عامر بن المظفر
٢٦١	جملة من شعر ابن شهيد في أوصاف شتى وفي ثناياها تعليقات للمؤلف
٢٧١	ذكر الخبر عن مقتل يحيى بن محمود
٢٧٣	رجع إلى شعر ابن شهيد
٢٨١	ذكر آخر أيام ابن شهيد ووفاته
٢٨٩	ابن زيدون
٢٩٢	فصل من رقعة له وهو في اعتقاله خاطب بها ابن جهور
٢٩٨	قصيدة له في ابن جهور كتب بها من السجن ويلها تعليقات للمؤلف
٣٠١	قصيدة أخرى كتبها وهو في اعتقاله يلها تعليقات للمؤلف
	رسالته التي كتبها إلى أبي بكر بن مسلم بعد فراره من السجن وهو
٣٠٥	مختف بقرطبة مع تعليقات للمؤلف
٣٠٨	قصيدته وهو في سجنه إلى أبي حفص ابن برد
٣٠٩	بعض شعره في النسيب وما يناسبه مع تعليقات للمؤلف

صفحة

بعض أشعاره في المديح مع تعليقات المؤلف	٣٢٢
رسالته قبل تحوله عن إشبيلية إلى أبي مسلمة	٣٢٨
رسالته إلى المعتضد	٣٤١
رسالة أخرى إليه	٣٤٢
فصول من رسالة له	٣٤٤
وفاة ابن زبرود	٣٥٤
فصل في ذكر وفاة ابن عباد بابن الأقطس	٣٦١
بعض أشعار ابن زيدون في الرثاء	٣٦٦
رجع إلى شعره في النسيب	٣٧١
نهر ولادة	٣٧٦
التعريف بالمستكفي والد ولادة	٣٧٩
ابن الحناط الكشيف	...
فصل له من رقعة خاطب بها ابن دري	٣٨٤
فصول من رسالة له مع بعض التعليقات المؤلف	٣٨٥
فصول من رسالة له خاطب بها الوزير ابن الأقطس	٣٨٨
بعض أشعاره في المديح مع تعليقات المؤلف	٣٩٠
مقتل الأمير المرئضي عبد الرحمن بن محمد	٣٩٧
ارتحال زاوي عن الأندلس إلى المغرب	٤٠١
ذكر الخبر عن هبوس	٤٠٤
التأويل بالعاريص	٤٠٤

الخطا والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	١١	وأشدَّ عارضةً	وأشدَّ عارضةً	٢٥٤	٩	الخللان	الخللان
٢٥	٨	وأذنى	وأذنى	٢٦٠	١٢	ابن	ابن
٢٥	١٣	وبعد	وبعث	٢٦٥	٢	سكراناً	سكران
٣٠	١٥	قطّع	قطّع	٢٧٧	١٣	يمنعاً	يمنعاً
٣٣	١	كفى	كفاً	٢٨٢	١٣	وداخلها	وداخلها
٣٥	٢	يدبُّ	يدبُّ	٢٨٥	١٣	الفلجُ	الفلجُ
»	١٢	أبطأ	أبطأ	٢٩٥	٣	واستمجد	واستمجد
٤١	١	ترى جونها	ترى جونها	٣٣٠	١٦	مناقبه	مناقبهم
٤٤	١٠	مُفجّباً	مُفجّباً	٣٣٢	١٠	منهزماً	منهزماً
٤٦	٥	تُشهرُ	تُشهرُ	٣٣٤	١٠	حربٍ	حربٍ
٤٨	٤	عيّوا	عيّوا	»	١٢	يزد الحاجب	يزده للحاجب
٥١	١٥	السّترُ	البرُّ	٣٣٥	٦	تلمح وتخدم	يلمح ويخدم
٥٧	٣	نَفَحْنُ	نَفَحْنُ	٣٣٦	١٩	لاوتى	لاوتى
٦١	١٤	بأفواهكم	بأفواههم	٣٤٣	١٠	إشراقها	إشراقها
٦٣	١	البيض	البيض	٣٤٤	١٤	وأخصّ	وأخصن
٨٧	١٤	يقعُ — ويعتذرُ	يقعُ — ويعتذرُ	٣٤٥	١٣	القوتِ	القوتِ
٨٩	٢	قريب المكاتب	قريب المكانة	٣٤٧	١٤	الحين	الحين
»	٤	ولا يجاوزُ	ولا يجاوزُ	٣٥٠	١٥	مُسْتَحْكِمَةً	مُسْتَحْكِمَةً
٩٣	١٦	يُطَوَى	يُجْدَى	٣٥٣	٤	العروبة	القرونة
٩٦	١٥	فضافت سهامه	فضافت سهامه	٣٦٠	١١	تَقَصَّتْ	تَقَصَّتْ
١١٥	٨	سَمِعْنَا	سَمِعْنَا	٣٦٩	٢	تأويه	تأويه
١٢٠	٥	{ وكذا البقاء }	{ وكذا البناء }	٣٨٧	٥	شِئْعُهُ	شِئْعُهُ
٢٤١	٨	أُطْلِقَ	{ بغير مرتفع }	٣٩٠	٢٠	سُقِي	سُقِي
٢٤٥	١٦	إذا جمع	أُطْلِقَ	٣٩١	٢	بَيْنَنَا	دِينَنَا
٢٤٧	١٣	هَمَّةٌ	إذا ما جمع	»	٨	بَكَيْتُ	بَكَيْتُ

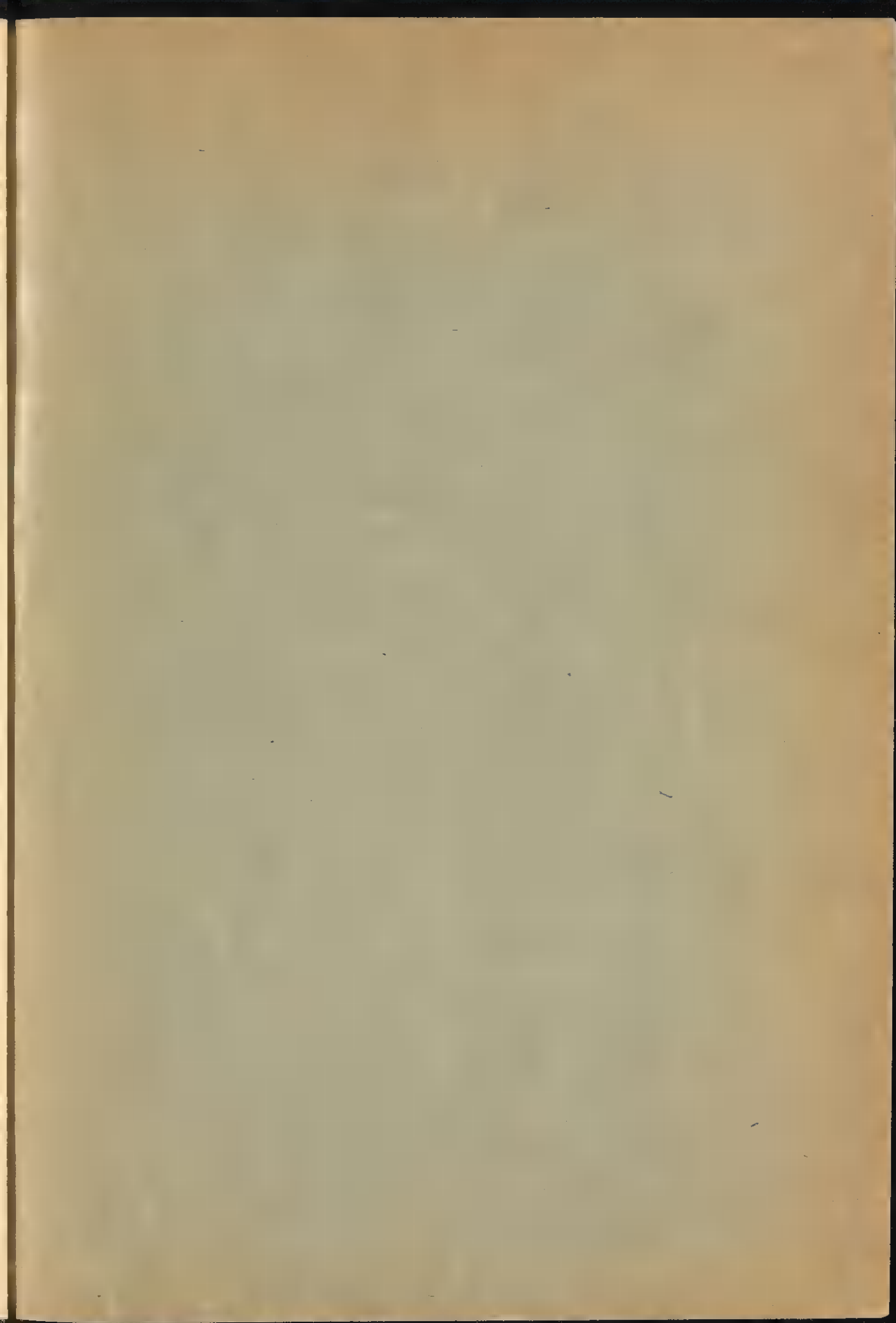
ملحوظة — قد اتفنا أن نثبت في صفحة (ي) رمزين وردا في حواشي الكتاب وما : (هـ) ومعناها نقص و (هـ) ومعناها زيادة .

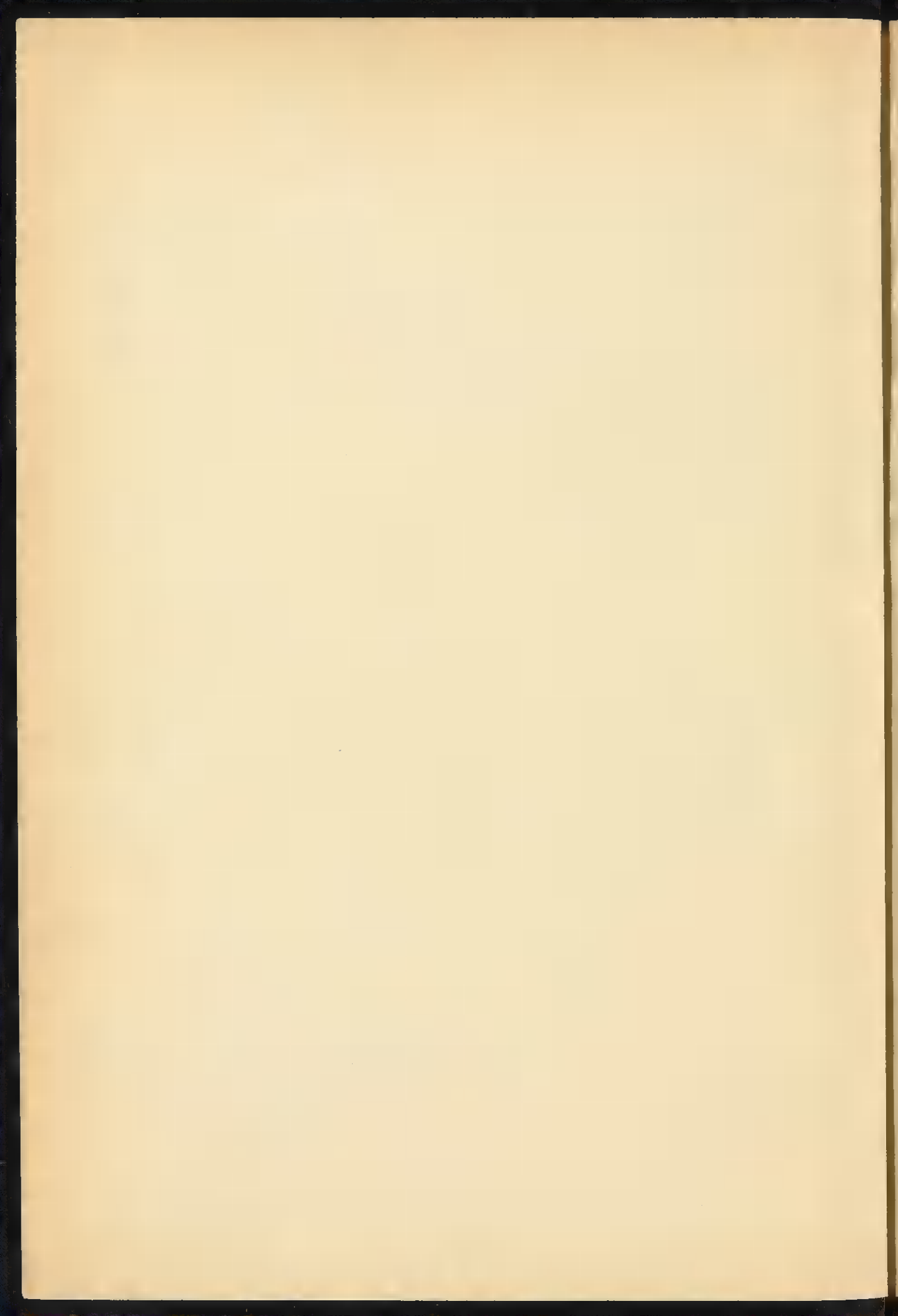
يعطى من مكتبة العرب
لصاحبها الشيخ يوسف البستاني
٤٧ الفجاة مصر

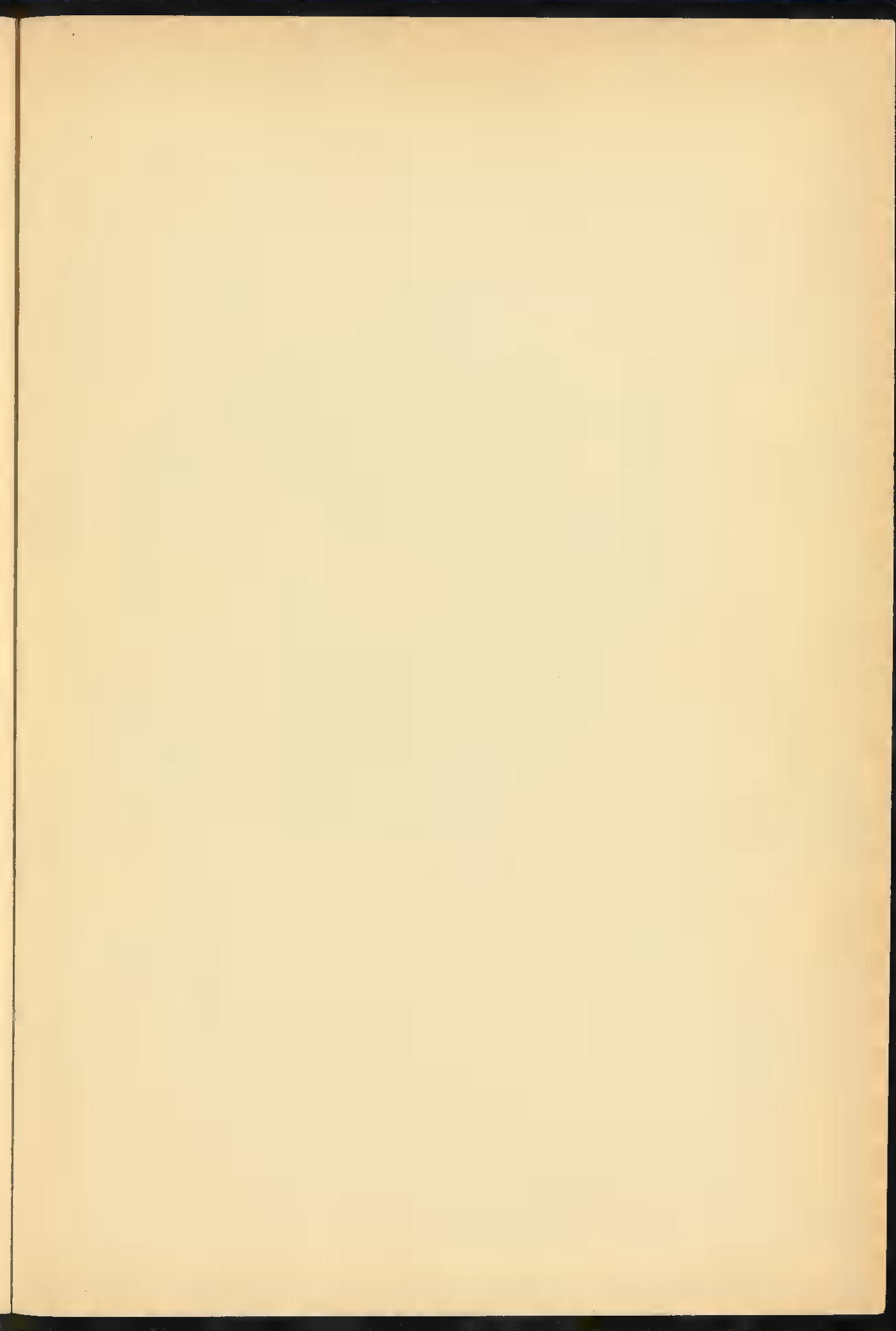
Publications de l'Université Egyptienne

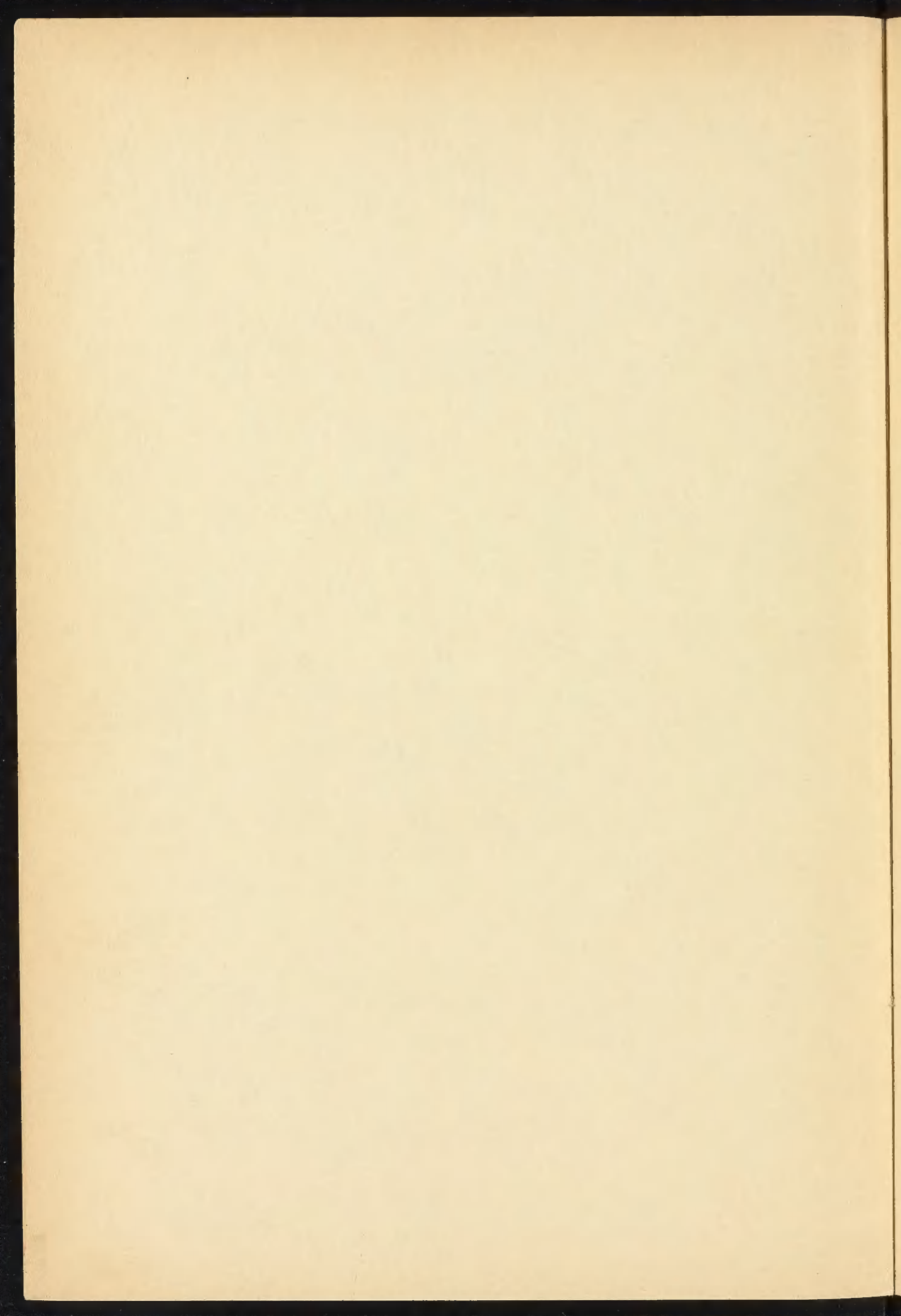
Faculté des Lettres.

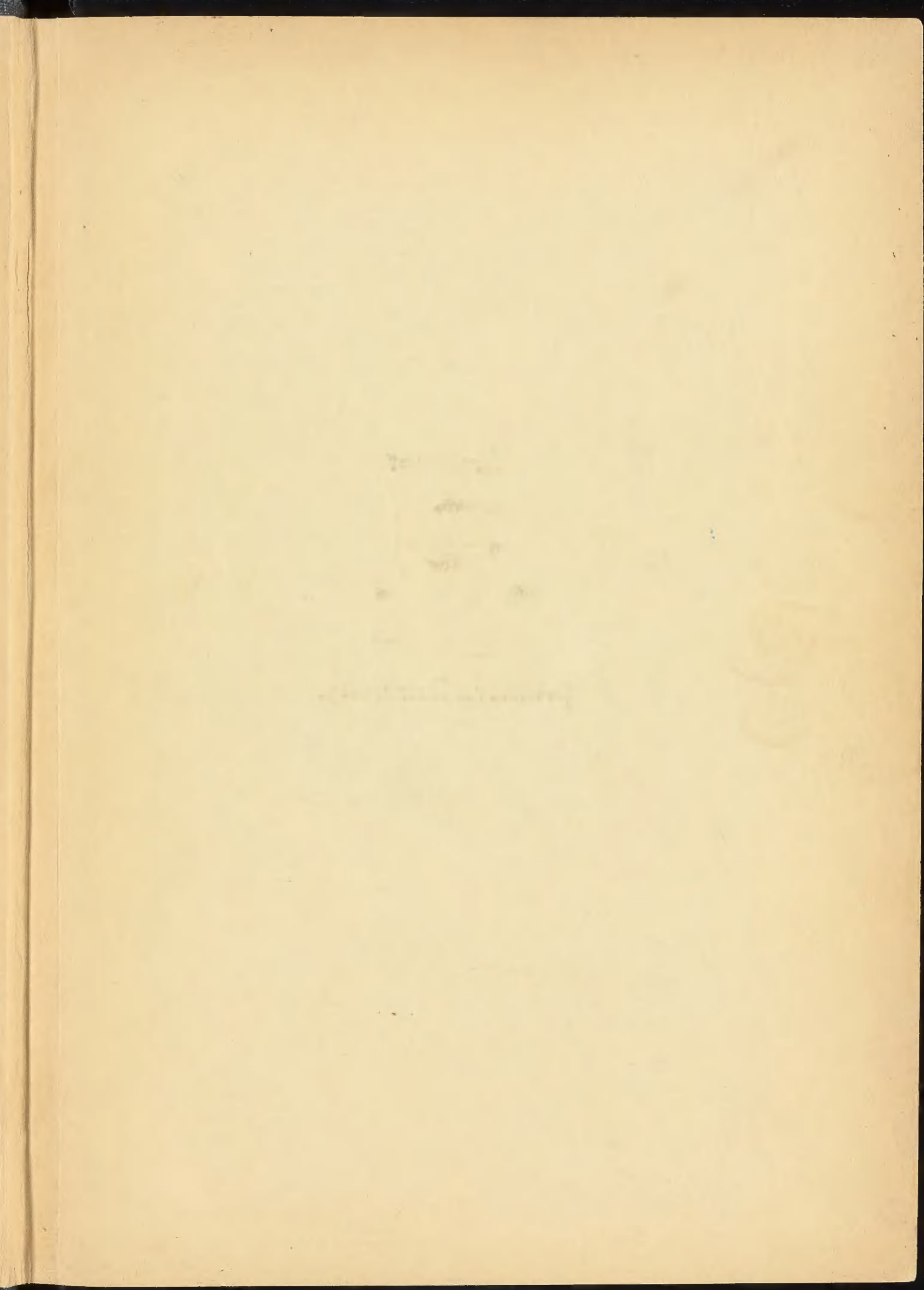
	P.T.
1— GRAINDOR, P : <i>Athènes sous Auguste</i> , I vol. Le Caire, 1927	15.—
2— HASSAN, S. Bey : <i>Le Poème dit de Pentaour et le Rapport Officiel sur la bataille de Qudesh</i> . 1 vol. Le Caire, 1929	40.—
3— GUIDI, I. : <i>Summarium Grammaticae Veteris linguae Arabicae meridionalis</i> , 1 vol. Le Caire, 1930	5.—
4— VIKENTIEV, V. : <i>La Haute Crue du Nil et l'averse de l'an 6 du roi Taharqa</i> , 1 vol. Le Caire, 1930	30.—
5— GRAINDOR, P. : <i>Un Milliardaire Antique, Herode Atticus et sa famille</i> , 1 vol. Le Caire, 1930	20.—
6— GRAINDOR, P. : <i>Délphes et son Oracle</i> , 1 vol. Le Caire, 1930	5.—
7— GRAINDOR, P. : <i>La Guerre d'Alexandrie</i> , 1 vol. Le Caire, 1931	12.—
8— GRAINDOR, P. : <i>Athènes de Tibère à Trajan</i> , 1 vol. Le Caire, 1931	75.—
9— TAYLOR, W. : <i>Etymological List of Arabic Words in England</i> , 1 vol. Cairo, 1634	5.—
10— PEYRE, H. : <i>Shelley et la France, Lyrismes Anglais et Français au XIX^e Siècle</i> , 1 vol. Le Caire 1935	30.—
11— GRAINDOR, P. : <i>Bustes et Statues-Portraits d'Egypte Romaine</i> , 1 vol. Le Caire, 1936	25.—
12— HOCART, A. M. : <i>Kings & Councilors</i> , 1 vol. Cairo, 1936	20.—
13— SCHACHT, J. & MEYERHOF, M. : <i>The Medico-Philosophical Controversy between Ibn Butlan of Baghdad and Ibn Ridwan of Cairo, A Contribution to the History of Greek Learning Among the Arabs</i> 1 vol. Cairo, 1937	15.—
14— LALANDE, A. : <i>La Psychologie des Jugements de Valeur (Texte Arabe-Français)</i> , Le Caire, 1929	10.—
15— HUSSEIN, T. Bey et EL-ABADI, A. EL-H. : <i>Nakd An-Nathr by Dja'far Al Katib Al Baghdadi</i> , 1 vol. Le Caire, 1933	10.—
16— GRAINDOR, P. : <i>Athènes sous Hadrien</i> , 1 vol. Le Caire, 1934	43,7
17— HASSAN, S. Bey : <i>Excavations at Giza, 1929-1930</i> , II vol. Oxford, 1932	100.—
" " " " " " " 1930-1931, 1 vol. Cairo, 1936	300.—
18— SOBHY, G. Bey : <i>The Book of the Proverbs of Solomon in the Dialect of Upper Egypt</i> , 1 vol. Cairo, 1927	8.—
19— MENGHN, O. & AMER, M. : <i>The Excavations in the Neolithic Site at Maadi Season 1930-31</i> . Cairo, 1932	25.—
" " " " " " " Season 1932 Cairo, 1936	60.—
20 — KOYRÉ, A. : <i>Trois Leçons sur Descartes (Arabe-Français)</i> , 1 vol. Le Caire, 1937	
21 — CRAWFORD, D. S. : <i>Greek and Latin</i> , 1 vol. Cairo, 1938	
22 — الطب الروحاني تأليف أبي بكر محمد بن زكريا الرازي وتصحيح الأستاذ بول كراوس بكاية الآداب مجلد طبع مصر سنة ١٩٣٨	
23 — Lalande, A. Cours de Philosophie 1 vol. in 8 (sous presse)	
24 — HOCART, A. M. Northern State of Fije 1 vol. (in 8° sous presse)	
25 — Herodotus Historia, 1 vol. in 16° (sous presse)	











2274
8752
329
v. 1, pt. 1

Library of



Princeton University.

